روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية

تشارلز ديكنز

قصة مدينتين



نقلها إلى العربية منير بعلبكي

تشارلز ديكنز

قصة مدينتين

لقد تمّت إعادة تصحيح وتنضيد هذه النسخة
لتصدر في هذه الطبعة الأنيقة ،كطبعة تذكارية
لذكرى الأستاذ الكبير منير البعلبكي

سنة الطبع : 2006

إصدار

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص . ب : 4006 (سيدنا)
هاتف : 2303339-2-212+
فاكس : 2305726-2-212+
E-mail: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
ص . ب : 5158/ 113
هاتف : 352826 (1-00961)
فاكس : 343701 (1-00961)

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
بيروت ـ لبنان:
شارع مار الياس ـ بناية متكو ـ ط2
ص . ب : 1085 بيروت ـ 8402 2045 لبنان
هاتف : 306666 ـ 701656 (1-00961)
فاكس : 701657 (1-00961)
الموقع على شبكة الإنترنت :
http://www.malayin.com

الكتاب الأول

عودة الميت

- 1 -

العصر

كان أحسنَ الأزمان، وكان أسوأ الأزمان. كان عصرَ الحكمة، وكان عصرَ الحماقة. كان عهد الإيمان، وكان عهد الجحود. كان زمنَ النور، وكان زمنَ الظلمة. كان ربيعَ الأمل، وكان شتاء القنوط. كان أمامنا كل شيء، ولم يكن أمامنا شيء. كنا جميعاً ماضين إلى الجنة مباشرةً، وكنا جميعاً ماضين إلى جهنم مباشرة. وعلى الجملة، فقد كانت تلك الفترة أشبه ما تكون بعصرنا هذا، حتى لقد أصرّ بعض مؤرخيها الأكثر صخباً على وصفها، سواء في الصلاح أو الطلاح، بصيغَ التفضيل المانعة ليس غير.

كان ثمة ملك(*) ذو فكٍّ عريض، وملكة ذات وجه قبيح على عرش إنكلترة. وكان ثمة ملك(**) ذو فكٍّ عريض، وملكة ذات وجه جميل على عرش فرنسة. وفي كلا البلدين كان السادة المهيمنون على مخازن الدولة الخاصة بالخبز والسمك يرون في مثل وضوح البلّور، أو أوضح، أن الأشياء سوف تظل على حالها الراهن أبد الدهر.

كان ذلك العام هو العامَ الخامسَ والسبعين بعد السبعمئة والألف لميلاد سيدنا يسوع المسيح. وكانت إنكلترة تنعم بالوحي الروحي، في

(*) جورج الثالث (1760 ـ 1820).

(**) لويس السادس عشر (1774 ـ 1792).

تلك الفترة المحظوظة، شأنها اليوم. ذلك بأن المسز ساوثكوت(*) كانت قد احتفلت منذ قريب بذكرى ميلادها المبارك الخامسة والعشرين، وهي التي بشّر بظهورها السَّنيّ جنديّ من الحَرَس معلناً أن ترتيبات قد اتّخذت لابتلاع لندن ووستمنستر. وحتى عفريت «زقاق الديكة»(**) كان قد انقضى على عهده اثنتا عشرة سنة ليس غير، بعد أن أدى رسالته، نَقْراً، كما تؤدي الأرواح في هذه السنة نفسها التي انتهت مؤخراً (والتي تعوزها الأصالة على نحوٍ خارق) رسالاتها. وكانت رسائلُ دنيوية خالصة قد شرعت تتوارد إلى التاج الإنكليزي والشعب الإنكليزي من مؤتمر عقده الرعايا البريطانيون في أميركة. ومن عجب أن الدليل قد نهض على أن هذه الرسائل الدنيوية كانت أعْوَدَ على النوع البشري وأشدّ خطراً في تاريخه من أيّ من تلك التي تلقّاها الناس من أيّ من دجاجات «زقاق الديكة».

أما فرنسة ـ وكانت أقلّ حظاً على الجملة في حقل الشؤون الروحية من شقيقتها في المجنّ والصولجان ـ فقد انحدرت انحداراً متسارعاً، وطفقت تُصْدِر النقد الورقي وتُنفقه. وإلى جانب ذلك فقد كانت تُمتع نفسها، بأرشاد قسسها النصارى، ببعض الفِعال الإنسانية، من مثل الحكم على أحد الشبان بقطع اليدين، ونزع اللسان بالكلاّبة، وإحراق جسده حياً، لاحجامه عن الركوع تحت وابل المطر إعظاماً لموكب قذرٍ من الرهبان مرّ تحت بصره على مسافة خمسين أو ستين ياردة. وجائز أن تكون في غابات فرنسة ونروج ـ لحظةَ نُفّذ حكم الموت بهذا الشاب البائس ـ شجرات ناميات أفردها ذلك الحطاب الذي يدعونه القدر لكي

(*) وقد زعمت أنها أم المسيح الموعود. (المعرب)

(**) وتفصيل ذلك أن رجلاً اسمه المستر بارسون زعم أن النقر الدي كان يسمع في بيته بذلك الزقاق مصدره طيف امرأة قتلها زوجها، فشغل بذلك الناسَ فترة طويلة ثم ظهر أن مصدر النقر فتاة كان بارسون قد عهد إليها في ذلك. (المعرب)

تُقْطَع وتُنشَر ألواحاً تُصطنع منها آلة متحركة ذات عدل وسكين(*)، وذات فظائع دوّنها التاريخ. وجائز أيضاً أن يكون في البيوت الخشنة التي يقطنها بعض الفلاحين العاملين على الأراضي الثقيلة المجاورة لباريس عرباتٌ خرقاء جُنّبت أذى المطر في ذلك اليوم نفسه، بعد أن لونها وحل الريف، واستروحتها الخنازير، وجثمت فيها الطيور ـ عربات سبق للفلاّح، الذي يدعونه الموت، أن افردها لتكون هي عرباته التي يساق بها الناس إلى المقصلة يوم تنشب الثورة. ولكن ذلك الحطاب وذلك الفلاح كانا، برغم عملهما الدائب الموصول، يعملان في صمت، فلم يسمع أحدٌ وقع أقدامهما المكبوت. وليس ذلك بمستغرب، لأن مجرّد الإشارة إلى أنهما ناشطان للعمل كان يُعتبر من الكفر والخيانة.

وفي إنكلترة كان النظام والأمن نادرين إلى حدّ لا يبرر المغالاة بالغرور القومي. فقد كانت عصابات جريئة من الرجال المسلحين وقطاع الطرق تسطو على العاصمة نفسها كل يوم. وكانت الأُسَر تحذّر تحذيراً علنياً من مغادرة البلدة إلاّ بعد نقل رياش منازلها إلى حوانيت باعة الأثاث صيانةً لها من عبث اللصوص. وكان قاطع الطريق في الليل هو تاجر المدينة في النهار؛ حتى إذا تبيّنه وتحدّاه زميلٌ له كان صاحبنا قد اعترض سبيله ليلاً بوصفه «القائد» بادر إلى إطلاق النار على رأسه، فقتله في بسالة وولّى هارباً. وكان يكمن لمركبة البريد سبعة من اللصوص، فيقتل حارسها ثلاثةً منهم، ثم يقتل هو برصاص الأربعة الآخرين «بسبب من نفاذ ذخيرته»، لتُسلب المركبة بعد ذلك في طمأنينة. وكثيراً ما كان أحد قطاع الطرق يصدّ ذلك الحاكم الجليل الذي يسمونه محافظ لندن، عن سبيله، عند «تورنهام غرين»، ثم يسلبه، وهو الشخصية الكبيرة اللامعة، كل ما معه؛ على مشهد من حاشيته. وكان نزلاء السجون في لندن يخوضون المعارك ضدّ سجّانيهم، فيصوّب القانون، ذو الجلال،

(*) يقصد المقصلة. (المعرب)

بنادقه إليهم مشحونةً بالرصاص ويطلق النار عليهم جميعاً. وكان اللصوص ينتزعون الصلبان الماسية من أعناق النبلاء في احتفالات البلاط الملكي. وكان الجند يدخلون حي «سانت غايل» بحثاً عن البضائع المهربة، فيطلق أفراد الشعب النار على الجند ويطلق الجند النار على أفراد الشعب؛ وما كان أحدٌ ليجد في أيّ من هذه الحوادث شيئاً خارجاً على نَسَق العادة. ووسط هؤلاء جميعاً كان الجلاد الموكّل بالمشنقة مشغولاً أبداً. كانت الدولة تعهد إليه بعمل موصول، فهو حيناً يشنق أرتالاً من صنوف المجرمين، وحيناً يشنق يوم السبت لصاً من لصوص المنازل ألقي عليه القبض يوم الثلاثاء. وهو حيناً يحرق الناس المحكوم عليهم بالموت جماعاتٍ جماعاتٍ في نيوغايت، وحيناً يحرق الكتب والكراريس عند باب «قاعة وستمنستر». كان ينتزع، يوماً، الحياةَ من صدر فاتك وحشي، لينتزع الحياة في اليوم الذي يليه من صدر مختلس مسكين سلب غلام أحد الفلاحين ستة بنسات ليس غير.

هذه الأشياء كلها، والفٌ أخرى مثلها، اجتمعت لتُطبق على تلك السنة العريقة الغالية، سنة خمسٍ وسبعين وسبعمئة بعد الألف. وفي غمرة من ذلك كله، وفيما «الحطّاب» و «الفلاح» يعملان في الخفاء، كان ذانك الملكان العريضا الفكّين وتانك الملكتان، ذات الوجه القبيح وذات الوجه الجميل، يروحون ويغدون في جلبة بالغة، حاملين «حقهم الإلهي» في الحكم بيدٍ قوية متجبرة. وهكذا استاق العام الخامس والسبعون والسبعمئة بعد الألف «جلالاتهم» كما استاق الملايين من صغار الناس ـ وفيهم أشخاص هذه القصة ـ في الطرق المنبسطة أمامهم..

- 2 -

مركبة البريد

كانت طريق دوفر هي التي امتدّت، ذات ليلة من ليالي الجمعة في أواخر تشرين الثاني، أمام أول شخص من أشخاص هذه القصة. وكانت طريق دوفر هذه تقوم، بالنسبة إليه، وراء مركبة البريد المصعِّدة بتثاقل وضوضاء، في «هضبة شوتر». لقد ارتقى الهضبة على قدميه، مخوِّضاً في الوحل إلى جانب المركبة، كما فعل سائر المسافرين. وما كان ذلك رغبة منهم في الاستمتاع برياضة المشي في تلك الظروف، ولكن بسببٍ من أن الهضبة، وجهاز الأفراس، والوحل، والبريد كانت كلها بالغة الثقل إلى حدّ يجعل الخيل تقف ثلاث مرات متواليات، وتحرنُ مرة فتُلوي بالعربة عن سبيلها محاولةً أن ترجع بها إلى بلاكهيث. ولكن الأعنّة، والسوط، وسائق العربة، والحرس كانوا كلهم قد قرأوا تلك المقالة الحربية التي تشجب ذلك الرأي القائل بأن لبعض البهائم عقلاً، فإذا بالأفراس تستسلم وتستأنف أداء واجبها.

برؤوس مطأطئة وأذيال مرتجفة. شقّت الخيل طريقها خلال الوحل الكثيف، متخبطة متعثرة بين الفينة والفينة، وكأنما توشك مفاصلها أن تتخلّع. وكان الفرس الأمامي يهز رأسه وكلّ ما عليه هزاً عنيفاً كلما أراح السائقُ الخيلَ وأوقفها بكلمة «وو ـ هو، سوـ هو!» يقظةٍ حذرةٍ، لكأن ذلك الفرس البالغ القوة ينكر إمكان جذب المركبة حتى قمة الهضبة. فما إن يسمع المسافرُ المصعِّد إلى جانب المركبة جلجلة الفرس وطنينه حتى يجفل، شأن المسافر العصبيّ، ويستبد به الهمّ والقلق.

وكان ضباب متبخِّر يملأ الأودية كلها، وكان قد طوّف في وحدته الموحشة حول الهضبة، وكأنه روح شريرة، ملتمساً الراحة من غير أن يجدها. ضبابٌ دبقٌ بارد إلى أبعد الحدود اتخذ سبيله الوئيد خلال الهواء في تموجات يتبع بعضها بعضاً ويغطي بعضها بعضاً، كما تفعل الأمواج في بحر مريض. وكان كثيفاً جداً حتى لقد حجب كل شيء على ضوء مصابيح المركبة، ما خلا هذه المصابيح، وحركتها البطيئة، وبضع ياردات من الطريق. كان لهاث الأفراس المجهَدة يندفع في ذلك الضباب اندفاع البخار، وكأنما هو الذي أنشأه كله.

وبالإضافة إلى ذلك المسافر، كان ثمة مسافران آخران يصعدان في الهضبة إلى جانب المركبة. وكان الثلاثة جميعاً متلفّعين بألثمة تغطي آذانهم ووجوههم حتى عظم الخدّ، وينتعلون أحذية جلدية ضخمة تنتهي إلى رُكبهم. ولم يكن في ميسور أحد منهم أن يتمثّل، من أيما شيء رآه، صورة الشخصين الآخرين. وكان كل منهم محجوباً عن عينيّ رفيقيه العقلية بعدد من الألثمة يكاد يبلغ عدد تلك التي تحجبه عن أعين جسديهما. في تلك الأيام كان المسافرون يحجمون كل الاحجام عن الأنس إلى رفاقهم والثقة بهم بعد تعارف قصير، لأن أيما رجل في الطريق قد يكون لصاً أو متواطئاً مع اللصوص، وكان أولئك المتواطئون لا حصر لهم ما دام في ميسور كل مركز من مراكز البريد وكل حانة من حانات الجعة أن تُطلع شخصاً ما، يعمل في خدمة «القائد» ويتقاضى الأجر منه، ابتداء من رجل الاقطاع إلى أحط العاملين في الأصطبلات. ذلك ما دار في خلد حارس مركبة بريد دوفر ليلة السبت تلك من تشرين الثاني، عام خمسة وسبعين وسبعمئة بعد الألف، فيما هو واقف في موضعه الخاص به خلف المركبة المصعّدة في هضبة شوتر، موقّعاً بقدميه، مسمّراً عينه ويده على صندوق سلاح موضوع أمامه حيث انطرحت بندقية مشحونة فوق ستة أو ثمانية من مسدسات الفرسان الضخمة المشحونة رُصفت على طبقة من السيوف المحدّبة.

وكانت مركبة بريد دوفر في وضعها الطبيعي المألوف. فالحارس ينظر بعين الريبة إلى الركاب، وكل من الركاب ينظر بعين الريبة إلى زملائه وإلى الحارس، وهم جميعاً ينظرون بعين الريبة إلى كل امرئ آخر. ولم يكن سائق العربة واثقاً من شيء ما خلا أفراسه، هذه البهائم التي كان في ميسوره أن يقسم بالكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، وفي ضمير مطمئن، مؤكداً أنها ليست أهلاً لهذه الرحلة.

وقال السائق: «وو ـ هو! سو ـ هو! وثبةٌ أخرى وتنتهين إلى القمة. ولعنة الله عليكِ، فأنا لم أوفق إلى أن أبلغ بكِ هذا المكان إلاّ بشقّ النفس! ـ جو!»

فأجابه الحارس: «هالو!»

ـ «كم الساعة معك، يا جو؟»

ـ «الحادية عشرة وعشر دقائق.»

فصرخ السائق المغيظ: «يا للمصيبة! ولمّا نبلُغْ قمة شوتر بعد! تِسْتْ! ياه، إليكِ عني من خيل ميتة!»

وألهب السائق جلد الفرس البالغ القوة بالسوط، فاندفع في الطريق الوعرة بأقصى ما يستطيع من قوة، فجرت الأفراس الثلاثة على أثره. ومرة أخرى اتخذت مركبة بريد دوفر سبيلها الشاقة، وأحذية ركابها العالية البالغة حتى الركب تخوّض، إلى جانبها، في الوحل. كانوا قد وقفوا حين وقفت المركبة، وظلوا على مقربة منها لا يريمون. ولو قد كان لأحد من الثلاثة الجرأة على أن يقترح على أحد رفيقيه أن يتقدم العربة بعض الشيء، وسطَ الضباب والظلام، إذن لأثار بذلك ظنون القوم فأطلقوا النار عليه في الحال بوصفه قاطع طريق.

وانتهت الوثبة الأخيرة بمركبة دوفر البريدية إلى قنّة الهضبة. وهنا وقفت الخيل كرّة ثانية التماساً للراحة، ونزل الحارس ليُفرْمل العجلات استعداداً للانحدار، وليفتح باب العربة للركاب يمتطون متنها.

وصاح السائق في جَرْس محذر خافضاً بصره من مقعد القيادة: «تِسْتْ! جو.»

ـ «ماذا تقول يا توم؟»

وأصغيا.

ـ «أقول إن جواداً يعدو نحونا يا جو.»

ـ «وأنا أقول إنه يخبّ خبباً يا توم.» كذلك أجابه الحارس، رافعاً يده عن الباب، وارتقى مكانه الخاص به في خفة ورشاقة، صائحاً: «أيها السادة! باسم الملك، خذوا حذركم جميعاً!»

ولم يكد ينطق بهذه المناشدة العاجلة حتى ردّ زناد بندقيته إلى الوراء واستعد للهجوم.

وكان المسافر الذي تتحدث عنه هذه القصة واقفاً على موطئ العربة وقد همّ بأن يدخلها، وكان الراكبان الآخران خلفه مباشرة فهما يوشكان أن يتبعاه. فلم يكد يسمع إلى كلام الحارس حتى أقام على الموطئ، نصفُهُ في العربة ونصفُه في خارجها، على حين ظلّ المسافران الآخران على الطريق من تحته. ونقّل الركاب كلهم أنظارهم من السائق إلى الحارس، ومن الحارس إلى السائق، وأصاخوا. والتفت السائق إلى وراء، والتفت الحارس إلى وراء، وحتى الفرس البالغ القوة وتّر أذنيه والتفت إلى وراء مجاراةً لهما.

وكان في السكون الذي عَقبَ وقوف المركبة وانقطاع دمدمتها، مضافاً إلى سكينة الليل، ما جعل كل شيء هادئاً حقاً. وأوقع لهاثُ الخيل حركةً مرتعشة في أوصال العربة فكأنها في حال من الاضطراب والاهتياج. وخفقت قلوب الركاب خفقاناً عالياً يكاد يُسمع. وعلى أية حال، فقد آذن ذلك التوقفُ الساكن إيذاناً صارخاً بأن في المركبة قوماً يلهثون، ويحبسون أنفاسهم، وتتسارع دقات قلوبهم من التوقّع والذعر.

وأقبل نحوهم في سرعة صوت جواد يرتقي الهضبة خبباً.

وصاح الحارس بأعلى صوته: «سو ـ هو! أنت، يا هذا! قف! سوف أطلق النار!»

وكفّ الجواد فجأة عن العَدْو. وفي غمرة من التخبّط في الوحل تطاير الرشاش ههنا وهناك انطلق من قلب الضباب صوت رجل: «هل هذه مركبة بريد دوفر؟»

فأجابه الحارس: «وما يعنيك من ذلك؟ من أنت؟»

ـ «هل هذه مركبة بريد دوفر؟»

ـ «لماذا تريد أن تعرف؟»

ـ «أريد أحد المسافرين إن كانت هذه مركبة بريد دوفر.»

ـ «أيّ مسافر تريد؟»

ـ «مستر جارفيس لورّي.»

وأعلن الراكب الذي تتحدث هذه القصة عنه أن ذلك الاسم هو اسمه. وألقى عليه الحارس، والسائق، والمسافران الآخران نظرة ارتياب.

صاح الحارس مخاطباً الصوت المنطلق من الضباب: «إبقَ حيث أنت، لأني إذا ارتكبتُ خطأ فلن يكون في ميسوري أن أصلحه طوال عمرك. على السيد الذي يحمل اسم لوري أن يجيب في الحال!»

فتساءل المسافر في صوت مرتعش بعض الشيء: «ما المسألة؟ من يريدني؟ أهو جيري؟»

(فغمغم الحارس في ذات نفسه: أنا لا أحب صوت جيري، إذا كان هذا الرجل هو جيري. إن صوته أخشن من أن يلائمني.)

ـ «نعم، يا مستر لوري.»

ـ «ما القصة؟»

ـ «رسالة بُعث بها إليك من هناك. من ت. وشركائه.»

ـ «أنا أعرف هذا الرسول، أيها الحارس، كذلك قال مستر لوري،

وترجّل من المركبة يساعده المسافران الآخران، يحدوهما الجزع بأكثر مما يحدوهما اللطف، ليسارعا بعد إلى دخول المركبة وايصاد الباب، وإغلاق النافذة. ثم أردف: «في استطاعته أن يدنو. ليس ثمة أي بأس.»

فقال الحارس مخاطباً نفسه في شكاسة: «أرجو أن لا يكون. ولكنني لست واثقاً جداً من ذلك.» ثم صاح: «هالو، أيها الرجل!»

فقال جيري في صوت أكثر بحةً من ذي قبل: «حسناً، هالو!»

ـ «تقدّم نحونا على مهل. أسامع أنت؟ وإذا كنت قد سدّدت أيّ مسدس إلى سرجك فلا تدعني أرى يدك تتقدم نحوه. إني ليس أسرع مني إلى الخطأ. وإذا ما وقعتُ في أحد الأخطاء اتخذ شكل الرصاص. وهكذا دعنا نرى إلى وجهك.»

فتقدّمت في تؤدة، خلال الضباب المطوّف على نحو دائريّ، صورتا فرس وفارس، واقتربتا من جانب المركبة حيث وقف المسافر. ووقف الفارس والقى نظرةً خاطفةً على الحارس، ثم قدّم إلى المسافر ورقة صغيرة مطوية. وكان جواد الفارس مُتعباً مبهوراً، وكان كلٌ من الفرس والفارس معفّراً بالطين من حوافر الجواد حتى قبعة الرجل.

قال المسافر بصوت رجل الأعمال الهادئ الواثق من نفسه: «أيها الحارس!»

فأجاب الحارس اليقظ في جفاف ـ ويمناه على عقب البندقية الخشبي، ويسراه على أسطوانتها، وعينه على الفارس: «سيدي!»

ـ «ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف. أنا من موظفي مصرف تلسون. ولا ريب أنك تعرف مصرف تلسون في لندن. إني ذاهب إلى باريس في عملٍ ما. خذ هذا الريال واشرب به خمراً. هل أستطيع أن أقرأ هذه؟»

ـ «لا بأس، شرط أن تسرع في ذلك، يا سيدي.»

وفضّها على ضوء المركبة الذي في تلك الجهة وقرأ بينه وبين نفسه أولاً ثم في صوت عالٍ: «انتظر الآنسة في دوفر.» والتفت إلى الحارس

وقال: «إنها ليست طويلة، أرأيت أيها الحارس!» ثم وجّه الكلام إلى الرسول قائلاً: جيري، قل لهم إن جوابي كان: «لقد بُعِث الميت.»

وأجفل جيري في سرجه، وقال وصوته على أشد ما يكون خشونةً وبحّةً: «هذا جواب غريب إلى حدّ ملتهب، أيضاً.»

ـ «إحمل هذه الرسالة إليهم، وسيعرفون أني تلقيت ورقتك هذه وكأنني كتبتُ ذلك على القرطاس. وفّقك الله إلى النجاح. وإلى اللقاء.»

قال المسافر هذه الكلمات وفتح باب المركبة ودخلها، من غير أن يساعده هذه المرة زميلاه اللذان كانا قد أخفيا ساعتيهما ومحفظتيهما، بخفة ورشاقة، في نعليهما، فهما يتظاهران الآن بالنوم، وليس لهما من وراء ذلك غرض واضح غير اجتناب المخاطرة في ابتداع أيما نوع آخر من العمل.

وتابعت المركبة طريقها وأكاليل من الضباب أشدّ كثافةً تُطبق عليها فيما هي تشرع في الانحدار.

وفي الحال، أعاد الحارس بندقيته إلى صندوق السلاح. حتى إذا ألقى نظرةً على سائر محتوياته وعلى المسدسات الإضافية التي شُدّت إلى حزامه، حوّل بصره إلى صندوق أصغر يحتوي تحت مقعده بعض أدوات الحدادين، ومشعلين، وعلبة صوفان(*). وإنما زُوِّد بهذه العُدة كلها لكي يستعين بها إذا أطفأت الرياح مصابيح العربة، وهو ما يحدث في بعض الأحيان، فلا يكون عليه إلاّ أن يحتجز نفسه داخل العربة، ويعكف على حجر الصوان والفولاذ يستخرج منهما شرراً يمنحه الضوء بسلامة ويُسر (إذا كان محظوظاً) في مدى خمس دقائق.

وفي صوت رفيق قال الحارس من فوق غطاء العربة: «توم!»

ـ «هالو، جو!»

(*) الصوفان: شيء يخرج من قلب الشجر تقدح فيه النار.

ـ «هل سمعت الرسالة؟»

ـ «أجل، سمعتها، يا جو.»

ـ «ماذا فهمت منها، يا توم؟»

ـ «لا شيء على الاطلاق، يا جو.»

فقال الحارس في ذهول: «هذه مصادفة، أيضاً، لأني فهمت منها الشيء نفسه.»

وإذ تُرك جيري وحيداً وسط الضباب والظلمة ترجّل عن جواده لحظةً لا ليريح ذلك الجواد المنكود فحسب، بل ليمسح الوحل عن وجهه، وينفض الندى عن حاشية قبعته الجديرة بأن تتسع لنصف غالون منه. وبعد أن وقف واللجام فوق ذراعه المثقلة برشاش الماء والطين، حتى لم يعد قادراً على سماع عجلات المركبة، وحتى خيّم السكون على الليل كرة أخرى، استدار ليهبط جانب الكثيب.

وقال الرسول ذو الصوت الأجش مخاطباً فرسه: «بعد ذلك الخبب الذي اصطنعتِه من «تامبل بار»، أيتها السيدة، لم يبقَ في إمكاني أن أثق بقائمتيكِ الأماميتين حتى انتهي بك إلى السهل. لقد بُعث الميت! تلك رسالة غريبة حقاً! إن كثيراً من مثل ذلك لن يناسبك، يا جيري! أقول، يا جيري، إنك ستعاني حالة بغيضة جداً إذا أمسى انبعاث الموتى زيّاً شائعاً!»

ـ 3 ـ

ظلال الليل

من الحقائق العجيبة الجديرة بالتفكير أن كل كائن بشري هو، بفطرته، سرٌ عميقٌ ولغزٌ معقدٌ بالنسبة إلى سائر الناس. فما دخلتُ مدينة كبيرة تحت جنح الظلام إلاّ خطر لي أن كل بيت من هذه البيوت المظلمة المحتشدة ينطوي على سره الخاص، وكل غرفة من غرف البيت الواحد تنطوي هي الأخرى على سرها الخاص، وكل قلب نابض في مئات الآلاف من الصدور التي هناك هو، في بعض تصوّراته، سر مغلق دون القلب الذي هو أقرب ما يكون إليه! إن في ذلك لشيئاً من الفظاعة، بل لشيئاً من الموت نفسه. واأسفاه! لم يبقَ في ميسوري أن أقلّب صفحات هذا الكتاب الغالي الذي أحببته، وعبثاً أتوقع أن تفسح لي الأيام في مجال قراءته كله. لم يبقَ في ميسوري أن أنظر إلى أعماق هذا البحر التي لا يُسبر غورها حيث تمت لي، حين أومضت فيه الأضواء الخاطفة، لمحات من كنز دفين وأشياء أخرى يغمرها الماء. لقد قُدّر للكتاب أن يوصد فجأةً، أبد الدهر، ولمّا أقرأ منه غير صفحة واحدة. ولقد قدّر للبحر أن يحجبه جليدٌ أبديّ، حين كان الضوء يتراقص على سطحه، ووقفت في غباوة على ساحله. لقد مات صديقي، مات جاري، مات حبيبي وشقيق روحي؛ وفي ذلك ترسيخ وتأييد للسرّ الذي كان منطوياً دائماً في تلك الشخصية، والذي سوف أحمله أنا في شخصيتي حتى تحين منيّتي. وهل بين مقابر هذه المدينة التي أمر بها راقدٌ أشدّ غموضاً

من سرائر سكانها المنهمكين في أعمالهم، بالنسبة إليّ، أو من سريرتي أنا بالنسبة إليهم؟

ذلك إرث طبيعي لكل امرئ لا ينازعه فيه أحد وليس في ميسور أحد حرمانه منه. وإنما يستوي في هذا الإرث الرسول الممتطي صهوة الفرس، والملك، وكبير وزراء الدولة، وأغنى تاجر من تجار لندن. والشيء نفسه يصحّ في أولئك المسافرين المنطوين على أنفسهم في إحدى عربات البريد العتيقة المتثاقلة، الضيقة النطاق. فقد كان كل منهم لغزاً بالنسبة إلى الآخر، لغزاً كاملاً وكأنه منفرد في مركبته الخاصة وستة أشخاص، أو في مركبته الخاصة وستين شخصاً، وبين المركبة والأخرى عرض مقاطعة برمتها.

انقلب الرسول من حيث أتى، يعدو به جواده عَدْواً متمهلاً، مكثراً من التعريج على الحانات القائمة بطريقه لكي يحتسي شيئاً من الشراب، معتصماً دائماً بالكتمان، مُميلاً قبعته فوق عينيه. وكانت له عينان تنسجمان أحسن الانسجام مع تلك الحلية. ذلك بأنهما كانتا سوداوين باهتتين، يعوزهما العمق في اللون والشكل، وكانتا جدّ متقاربتين وكأنهما تخشيان أن يثير انفرادهما ريبة الناس، إذا ما تباعدت احداهما عن الأخرى. وكانت ترين عليهما انطباعة قاتمة تتجلّى من تحت قبعة عتيقة مُمالة إلى أمام وكأنها مِبْصَقة مثلثة الزوايا، ومن فوق لثام عريض للذقن والحنجرة يكاد ينحدر إلى ركبتي صاحبه. وكان إذا وقف عند حانة التماساً للشراب أزاح هذا اللثام بيسراه ريثما يُفرغ الشراب في جوفه، بيده اليمنى، ليس غير. فما إن يتم له ذلك حتى يعيد اللثام إلى موضعه كرةً ثانية.

قال الرسول وهو يفكر طوال الرحلة في أمر واحد: «لا، يا جيري، لا! هذا لن يناسبك البتة، يا جيري. جيري، إنك تاجر أمين، وليس في هذا ما يتفق والتجارة التي تعمل في حقلها! لقد بُعِث... ! إصفعني إذا لم يكن صاحبنا ذاك سكران!»

وحيّرته الرسالة التي يحملها حتى لقد حدثته نفسه عدة مرات بأن ينزع قبعته فيحكّ رأسه. وفيما عدا قمة الرأس، وكانت رثة صلعاء، فقد كان ذا شعر أسود خشن ينتصبُ مثلّم الأطراف في كل ناحية من نواحيه، وينمو على جبينه حتى ليبلغ تخوم أنفه العريض، الكليل، أو يكاد. لقد كان أشبه ما يكون بنتاج أحد الحدادين، بل لقد كان أشبه بالجزء الأعلى من جدار محاط بالمسامير الشائكة منه برأس من الشعر، حتى إن أبرع المتمرّسين بلعبة القفز فوق الظهور جديرٌ به أن يعتبره أخطر إنسان يُقفز فوق ظهره في العالم.

وفيما هو عائد بتلك الرسالة التي تعيّن عليه أن يسلمها إلى الحارس الليلي في كوخه القائم عند باب مصرف تلسون، قرب تامبل بار، ليسلّمها الحارس بدوره إلى مسؤول في المصرف أعظم شأناً، اتخذت ظلال الليل عنده صوراً كالتي يمكن أن تثيرها رسالته، واتخذت عند مُهره صوراً كالتي يمكن أن يثيرها قلقها الشخصيّ. ويبدو أن هذه الصور الأخيرة كانت متعددة، لأن المهر كانت تجفل كلما تراءى لها في الطريق ظل من الظلال.

وفي تلك الأثناء كانت مركبة البريد ما تزال تشق طريقها متثاقلة، مرتجة، مجلجلة، مرتطمة بالعقبات القائمة في سبيلها الوعر، وفي داخلها ركابها الثلاثة المنصرف كل منهم عن رفيقه، والذين تبدّت لهم ظلال الليل كذلك، في الاشكال التي أوحت بها عيونهم الناعسة وأفكارهم التائهة.

وفي مركبة البريد كان الناس يهرعون إلى مصرف تلسون يلتمسون أموالهم قبل اعلان الافلاس. ففيما كان الراكب التابع لذلك المصرف (وكانت ذراعه مقحمة في السير الجلدي الذي كان يحول بينه وبين الارتطام بالمسافر المجاور ويعيده إلى زاويته كلما ارتجت العربة ارتجاجاً استثنائياً) ينكس رأسه في مكانه، وعيناه مغمضتان نصف إغماض ـ فيما كان يفعل ذلك اختلطت الصور في مخيلته، صُورَ نوافذ

المركبة الصغيرة، ومصباح العربة يلتمع التماعاً باهتاً من خلالها، وصرّة المسافر المقابل الضخمة، واستحالت إلى مشهد المصرف، وقد قامت الحركة فيه على قدم وساق. كان صهيل أعنّة الخيل هو رنين الذهب، ودفع المصرف في خمس دقائق عدداً من الحوالات لم يقدّر حتى لمصرف تلسون، رغم اتساع نطاق أعماله في الوطن والبلدان الأجنبية، أن يدفع مثلها في ثلاثة أضعاف تلك الفترة. ثم إن الغرف الحصينة الواقعة تحت الأرض، في مصرف تلسون، بما تنطوي عليه من ذخائر ومخبّآت يعرفها ذلك المسافر (ولم يكن قليلاً ما يعرفه عنها) انفتحت مغاليقها في وجهه، فراح يجوس خلالها وبيده مفاتيحها الضخام والشمعة الواهنة الضوء، فألفاها آمنةً قوية، سليمةً ساكنة كآخر عهده بها.

وعلى الرغم من أن المصرف لم يفارقه لحظة، تقريباً، وعلى الرغم من أن المركبة كانت إلى جانبه دائماً (على نحو مشوّش مختلط أشبه بالاحساس بالألم تحت وطأة المخدر) فقد كان ثمة مشهد ثالث ما انفك ماثلاً في مخيلته طوال الليل. لقد كان في سبيله إلى أن ينبش قبراً وينتشل إنساناً من العدم.

ولكن أيٌ من هذه الوجوه العديدة التي تراءت لعينيه كان وجه الرجل الدفين؟ ذلك ما لم تُشر إليه ظلال الليل. ولكنها كانت كلها وجوه رجل في الخامسة والأربعين! ولقد اختلفت اختلافاً بيّناً في الانفعالات التي عبرت عنها وفي مدى شحوبها واصفرارها. وهكذا تعاقب أمام ناظريه الكبر، والازدراء، والتحدي، والجموح، والاستسلام، والعويل، كما تعاقبت شكول من الخدود الغائرة، والشحوب الموميائي، والأيدي والوجوه الهزيلة. ولكن الوجه كان في الجملة وجهاً واحداً، وكان كل رأس مشتعلاً بالشيب قبل الأوان. ومئة مرة، سأل الراكب الوسنان هذا الشبح: «كم سنة سلختَ تحت التراب؟»

فكان الجواب هو هو دائماً: «ثمانية عشر عاماً تقريباً.»

ـ «لقد فقدتَ كل رجاء في أن تُنتشل من القبر؟»

ـ «منذ زمن بعيد.»

ـ «هل تدري أنك بُعثت؟»

ـ «هذا ما يقولونه لي.»

ـ «أرجو أن تكون راغباً في الحياة؟»

ـ «أنا لا أستطيع أن أقطع في ذلك.»

ـ «هل أريك إياها؟ هل لك أن تأتي وتراها؟»

كانت الأجوبة عن هذا السؤال متباينة متناقضة. فحيناً كان الجواب الخافت: «على رسلك! إن رؤيتها عاجلاً قد تصرعني.» وحيناً كان يتخذ صورة وابل حنون من الدموع يعقبه قوله: «قُدني إليها.» وحينا كان الجواب تحديقاً وذهولاً ثم قوله: «أنا لا أعرفها. أنا لا أفهم ما تقول.»

وبعد هذا الحديث الوهمي كان الراكب يحفر، في الخيال، ويحفر، ويحفر ـ بمسحاة حيناً، وبمفتاح كبير حيناً، وبيديه حيناً ـ لينتشل ذلك المخلوق البائس من القبر. حتى إذا انقذه، وقد علق التراب بوجهه وشعره، سقط على الأرض فجأة. وعندئذ يجفل الراكب، ويُنزل زجاج النافذة حتى يستشعر حقيقة الضباب والمطر على خده.

وحتى حين فُتحت عيناه على الضباب والمطر، وعلى رقعة الضوء المتحركة المنبعثة من المصابيح، وعلى الحواجز المنصوبة على جانب الطريق والتي بدت وكأنها تتراجع إلى الوراء بسبب من سير المركبة، كانت ظلال الليل خارج المركبة تندمج في قافلة ظلال الليل داخلها. فإذا بالمصرف الحقيقي في تامبل بار، وبالنشاط المالي الحقيقي الذي تمّ بالأمس، وبالغرف الحصينة الحقيقية الواقعة تحت الأرض، وبالرسول الحقيقي الذي بُعث إليه، وجوابه الحقيقي على رسالته ـ إذا بهذه كلها ماثلة هناك. ومن وسطها، كان الوجه الشبحيّ يبرز، فيبتدره بالسؤال كرة أخرى.

ـ «كم سنة سلخت تحت التراب؟»

ـ «ثمانية عشر عاماً تقريباً.»

ـ «أنا لا أستطيع أن أقطع في ذلك.»

ويحفر، ويحفر، ويحفر حتى توقظه حركة متبرّمة فيرفع زجاج النافذة، ويقحم ذراعه في السير الجلدي، ويتأمل رفيقيه الراقدين، حتى يفقد عقله سيطرته، وينزلق ثانية إلى المصرف والقبر.

ـ «كم سنة سلخت تحت التراب؟»

ـ «ثمانية عشر عاماً تقريباً.»

ـ «هل فقدت كل رجاء في أن تُنتشل من القبر؟»

ـ «منذ زمن بعيد.»

وكانت هذه الكلمات تضجّ في مسمعه وكأنها لفظت منذ لحظة ـ كانت واضحة في مسمعه كأوضح ما ضجّ الكلام الملفوظ بأذنيه عمره كله، عندما فتح المسافر المجهَد عينيه على ضوء الصباح، ليجد أن ظلال الليل قد ولّت فراراً.

أنزل زجاجَ النافذَة ورنا إلى الشمس المشرقة. كان ثمة هضبة من الأرض المحروثة، وعليها محراث لا يزال حيث تُرك الليلة البارحة عندما رُفع النير عن الخيل. ووراء ذلك كان دغل هادئ ما تزال كثير من الأوراق الحمراء الملتهبة والصفراء الذهبية على أشجاره. وعلى الرغم من أن التربة كانت باردة نديّة، فقد كانت السماء صافية، والشمس رائعة جميلة وضّاحة الجبين.

وقال المسافر وهو يرنو إلى الشمس: «ثمانية عشر عاماً! يا فاطر النهار المنّان! كيف جاز أن يُدفن الإنسان حياً ثمانية عشر عاماً!؟»

ـ 4 ـ

الاستعداد

وحين وُفّقت المركبة إلى أن تبلغ دوفر في صدر النهار، فتح كبير الخدم في فندق «رويال جورج اوتيل» باب المركبة جرياً على مألوف عادته. وقد فعل ذلك باحتفال مغالىً فيه. ذلك أن انتهاء مركبة البريد، القادمة من لندن، إلى دوفر، في أيام الشتاء، يُعتبر فوزاً يستحق المسافر المغامر التهنئة عليه.

ولم يكن قد بقي، عندئذ، غير اركب واحد يتقبل التهاني بهذا. ذلك بأن المسافرَيْن الآخرَيْن كانا قد بلغا مقصديهما في الطريق. وكان قلب المركبة بعفنِهِ وقشّهِ الرطب القذر، وبرائحته الكريهة وظلمته أشبه شيء بمربض كبير من مرابض الكلاب. وكان المستر لوري، الراكب الذي لم يبق في العربة غيره، أشبه ما يكون ـ وهو يخرج منها، بمعطفه الكثّ الذي يعلوه القش، وبقبعته المهلهة، ورجليه الموحلتين ـ بضرب من الكلاب كبير.

ـ «هل ثمة مركب مسافر غداً إلى كاليه، أيها النادل؟»

ـ «نعم يا سيدي. إذا احتفظ الجو بصفائه، واسعفت الريح. إن المدّ سوف يكون عوناً للمركب حوالى الساعة الثانية بعد الظهر، يا سيدي. أتريد سريراً، يا سيدي؟»

ـ «لن آوي إلى الفراش إلاّ بعد أن يهبط الليل. ولكني أريد حجرة نوم وحلّاقاً.»

ـ «ثم طعام الصباح، يا سيدي؟ نعم، يا سيدي. من هنا، يا سيدي، رجاءً. اذهبوا مع السيد إلى غرفة الكونكورد! إحملوا حقيبة السيد وماءً ساخناً إلى الكونكورد. إنزعوا حذاء السيد في الكونكورد! (سوف تجد هناك نار فحم حجري ممتازة، يا سيدي.) ابحثوا عن الحلاق وابعثوا به إلى الكونكورد! هيّا، انطلقوا كلكم نحو الكونكورد!»

وإذ كانت حجرة النوم الموسومة بـ «الكونكورد» تُفرد دائماً لأحد المسافرين بمركبة البريد، وإذ كان المسافرون بمركبة البريد متدثرين دائماً من الرأس حتى القدم، فقد كان لهذه الغرفة ميزة غريبة في مؤسسة «رويال جورج» لأنه على الرغم من أن صنفاً واحداً من الرجال كان يُشاهد داخلاً إليها، فقد كان يخرج منها مختلف ضروب الرجال وأصنافهم. وهكذا فإن نادلاً آخر، وحمّالين اثنين، وعدداً من الخادمات وربّة الفندق كانوا يضيعون أوقاتهم سدىً في نقاط مختلفة من الطريق بين غرفة الكونكورد وحجرة الطعام حين اجتاز تلك الطريق لتناول الفطور رجلٌ في الستين يرتدي بزة رسمية ممعنة في العتق ولكنها حسنة الصيانة ذات ردنين عريضين مربعين وأهداب للجيوب واسعة.

وفي حجرة الطعام لم يكن أحدٌ، ذلك الصباح، غير ذلك الرجل ذي البزة السوداء. وكانت مائدة فطور قد وضعت غير بعيد عن النار. حتى إذا جلس إليها، وضوء النار يسطع على وجهه، جلس في سكون بالغ فكأنه في حضرة فنان يرسم صورته على القماش.

كان يبدو نظامياً بالغ الأناقة وقد بسط يداً على كلّ من ركبتيه وأنشأت ساعة جهورية الصوت تلقي خطبة مرنانة تحت صدرته وكأنها تزهو، بوقارها وطول عمرها، على النار الرشيقة بطيشها وسرعة زوالها. وكانت له ساقٌ ممشوقة يعتزّ بها بعض الشيء، ويرتدي جورباً داكناً ناعماً مُحكم التفصيل جيد النسج. وكان حذاؤه وعُراه، برغم بساطتهما التي يعوزها الجمال، في حال حسنة. وكان يعتمر لـمّةً مستعارةً صفراء شاحبة، فيها نعومة وفيها تموّج، لمّة غريبة شديدة الالتصاق برأسه.

كانت تلك اللمة المستعارة مصنوعةً كما هو مفروض، من الشعر، ولكنها بدت أقرب شيء إلى أن تكون منسوجة من خيوط الحرير أو الزجاج. وكانت ثيابه التحتية، وإن لم تكن من جودة النسيج بمحل يضاهي جوربه، ناصعة البياض كمثل رؤوس الأمواج التي تكسرت على الشاطئ المجاور، أو كمثل الأشرعة الضئيلة التي تومض في وجه الشمس، بعيداً هناك في عرض البحر. وكان وجهه الهادئ المكظوم لا يزال يشرق تحت اللمة المستعارة الأنيقة بعينين براقتين نديتين لا شك في أنهما كلفتا صاحبهما، في السنين الخوالي، جهداً كبيراً حتى راضَهما على النظر المطمئن المتحفظ الخليق بالعاملين في مصرف تلسون. وكان لون خديه ينضح بالعافية، وما كان وجهه ليحمل، برغم أخاديده، غير قليل من أمارات الهمّ والقلق. ولعل مردّ ذلك إلى أن موظفي مصرف تلسون الموثوقين غير المتزوجين كانوا يُعنون بهموم الناس ومشكلاتهم في المحل الأول. أو لعل الهموم المستعملة، كالثياب المستعملة، يسهل ارتداؤها ونزعها في آن معاً.

وكأنّ مستر لوري شاء أن يُتمّ الشبه الذي بينه وبين رجلٍ جالس في حضرة فنان يرسم له صورة، فاستسلم للرقاد. حتى إذا أقبل فطوره انتبه من سِنته، وقال للنادل فيما هو يقرّب كرسيه إلى المائدة: «أريد أن تهيئوا غرفة لسيدة شابة قد تُقبل اليوم إلى هنا في أيّ لحظة. إنها قد تسأل عن مستر جارفيس لوري، وقد تسأل عن رجل من رجال مصرف تلسون. فأرجوا أن تحيطوني علماً بقدومها في الحال.»

ـ «نعم، يا سيدي، مصرف تلسون في لندن، يا سيدي؟»

ـ «أجل.»

ـ «نعم يا سيدي. كثيراً ما نحظى بشرف استقبال رجالكم في ذهابهم وإيابهم ما بين لندن وباريس، يا سيدي. إن رجال مصرف تلسون كثيرو الأسفار، يا سيدي.»

ـ «أجل، إن مصرفنا مؤسسة فرنسية بقدر ما هو مؤسسة إنكليزية.»

ـ «نعم يا سيدي. ولكنك لم تتعود الاكثار من السفر، على ما أظن، يا سيدي.»

ـ «إن كلامك هذا يصح بالنسبة إلى السنوات الأخيرة. فلقد انقضت خمسة عشر عاماً على مجيئنا ـ أريد أن أقول على مجيئي آخر مرة إلى فرنسة.»

ـ «حقاً، يا سيدي؟ لقد كان ذلك قبل أن أبدأ عملي هنا يا سيدي. قبل عهد جماعتنا بهذا الفندق، يا سيدي. لقد كان الـ «رويال جورج» آنذاك في أيدي قوم آخرين، يا سيدي.»

ـ «أحسبُ ذلك.»

ـ «ولكني أراهن بمبلغ عظيم، يا سيدي، على أن مؤسسة مثل مؤسسة تلسون كانت مزدهرة منذ خمسين سنة، لا منذ خمس عشرة سنة فقط؟»

ـ «في إمكانك أن تثلّث هذا الرقم فتقول منذ مئة وخمسين سنة ثم لا تبتعد كثيراً عن الحقيقة.»

ـ «حقاً، يا سيدي!»

وهنا دوّر النادل فمه وكلتا عينيه، وارتدّ مبتعداً عن المائدة. ثم إنه نقل منديله من ذراعه اليمنى إلى ذراعه اليسرى، واستسلم لوضع مريح، وانشأ يراقب الضيف فيما هو يأكل ويشرب وكأنما يراقبه من مرصد أو برج للحراسة، وفقاً لعادة النُدُل الخالدة في جميع العصور.

حتى إذا فرغ مستر لوري من تناول فطوره مضى إلى الشاطئ يتمشى. وكانت بلدة دوفر الصغيرة الضيقة المتعرّجة الطرق تُخفي نفسها عن الشاطئ وتُقحم رأسها في الصخور الطباشيرية الشاهقة، مثل نعامة بحرية. وكان الشاطئ صحراء تملأها روابي الماء والحجارة المتدحرجة ههنا وههناك. وكان البحر فعّالاً لما يريد، وما كان الذي يريده غير الدمار. كان يهدر في وجه البلدة، ويهدر في وجه الصخور الشاهقة

الشديدة الانحدار، ويُذل الساحل في جنون. وكانت ريح السمك تملأ الهواء الطائف بالبيوت قويةً حادة حتى ليخيّل إلى المرء أن الأسماك المريضة ترتفع لتغتسل فيه كما يهبط المرضى من الناس للاغتسال في البحر. ولئن لم تكن حركة الصيد ناشطةً في ذلك المرفأ، لقد كان كثيرٌ من الناس يحبّون أن يتمشوا هناك حين يهبط الليل، ويتطلعوا إلى البحر وبخاصة في حال المدّ واقتراب الفيضان. وكان التجار الصغار، الذين لا يقومون بأيما نشاط البتة، يجمعون في بعض الأحيان ثروات ضخمة لا سبيل إلى تعليلها. ومما يلفت النظر أنه لم يكن في ذلك الجوار شخصٌ واحدٌ يطيق رؤية مُشْعِلِ المصابيح.

وفيما انحدر النهار نحو الأصيل، وأخذ الضباب والبخار يُثقلان الهواء الذي كان من الرقة في بعض الفترات بحيث يشفّ عن الساحل الفرنسي، شرعت أفكار مستر لوري تغيم هي الأخرى وتكفهرّ. حتى إذا هبطت العتمة وجلس هو إلى جانب نار -حجرة الطعام، منتظراً عشاءه كما انتظر من قبلُ فطوره، طفق ذهنه يحفر ويحفر ويحفر وسط الجمرات الحُمْر المتقدة.

ليس في زجاجة من خمر «كلاريت» ما يؤذي رجلاً يحفر وسط الجمرات الحمر، خلا إنها تنزع إلى أن تصرفه عن ذلك العمل. وكان مستر لوري قد استسلم فترة طويلة للبطالة، وملأ منذ لحظة آخر كؤوسه بالخمر فبدا الارتياح على محياه كأحسن ما يتجلى على محيا رجل متقدّم السنّ ذي بشرة ناضرة، انتهى إلى أواخر زجاجته، عندما صعد في الشارع الضيّق صرير عجلات، وأنشأ يدمدم في فناء النُزُل.

ترك الكأس طافحةً لم تمسّها شفتاه، وقال: «تلك هي الآنسة!»

وبعد دقائق معدودات أقبل النادل ليُعلن أن الآنسة مانيت قد وصلت من لندن، وأنها تكون سعيدة بأن ترى موفد مصرف تلسون.

ـ «بمثل هذه السرعة؟»

وكانت مس مانيت قد تناولت طعاماً خفيفاً في الطريق، فهي في غير

ما حاجة إلى شيء من ذلك الآن. كانت تائقة أشدّ التوق إلى أن تجتمع بموفد مصرف تلسون في الحال إذا كان ذلك يحلو له.

وهكذا لم يكن لموفد مصرف تلسون مندوحة عن أن يكرع كأسه وعلى محياه انطباعة من القنوط المتلبّد. ويسوّي لمّته المستعارة الصفراء الصغيرة عند أذنيه، ويتبع النادل إلى حجرة مس مانيت. كانت غرفةً واسعةً مظلمة، مفروشة على نحوٍ حدادي استُعمل فيه شعر الخيل الأسود، ومثقلة بالطاولات الضخمة الداكنة. وقد أُشرِبَت هذه الطاولات بالزيت إشراباً مُشبعاً حتى لقد انعكست صورة الشمعتين الطويلتين المنتصبتين فوق المائدة التي تتوسط الغرفة على كل ورقة من أوراقها، فكأنّ هاتين الشمعتين قد دُفنتا في قبرين عميقين من خشب الماهوغاني الأسود، فليس يُتوقّع منهما أن يُطلقا ضوءاً يستحق الذكر ما لم تُبعثا من ذينك القبرين.

وكانت الظلمة كثيفة يعسر اجتيازها حتى أن مستر لوري الذي راح يتلمَّس سبيله على السجادة التركية البالية حسبَ أن مس مايت تنتظره في إحدى الغرف المجاورة. حتى إذا اجتاز الشمعتين الطويلتين رأى في استقباله عند المائدة الفاصلة ما بينهما وبين النار فتاة لا تعدو سنها السابعة عشرة، ترتدي ثوب السفر وتمسك بقبعة الترحّل القشيّة من العصابة المحيطة بها. وحين استقرت عيناه على صورة قصيرة نحيلة جميلة، وعلى مقدار من الشعر الذهبي، وعينين زرقاوين لاقتا عينيه بنظرة مستطلعة، وجبين يتمتع، رغم نعومته ونضارته البالغتين، بقدرة عجيبة على الارتفاع والتقطيب ليعبّر عن معنى ليس هو الحيرة تماماً، وليس الدهش أو الذعر أو مجرد الانتباه المركّز النيّر، وإن انطوى على المعاني الأربعة جميعاً، حين استقرت عيناه على هذه الأشياء كلها طافَ في ذهنه، على التوّ، شَبَهٌ حيٌّ بين هذه الفتاة وطفلة سبق له أن حملها بين ذراعيه يوم عبر هذه القناة نفسها ذات يوم قارس تساقط فيه البَردَ في غزارة، وارتفع الموج فهو أشبه بالجبال. وما لبث الشبه أن زال كما

يزول النَفَس فوق سطح مرآة كبيرة شاحبة كانت قائمة خلفها، وقد رُسم على إطارها موكب من الآلهة الزنوج، وبعضهم بلا رؤوس وكلهم عُرْج، يقدمون سلالاً سوداء ملأى بتفاح سدوم(*) إلى إلاهاتٍ سُودٍ. وانحنى مستر لوري انحناءة رسمية للآنسة مانيت.

ـ «أرجوك أن تجلس، يا سيدي» قالت مسّ مانيت ذلك في صوت بالغ الصفاء، عذبٍ غضّ، فيه لكنة أجنبية صغيرة، ولكنها صغيرة جداً حقاً.

فقال مستر لوري، وفقاً لمألوف العادة في عهد سابق، فيما هو ينحني انحناءة رسمية أخرى ويجلس: «إني أقبّل يدك، أيتها الآنسة.»

ـ «لقد تلقيتُ، أمس، رسالة من المصرف، يا سيدي، تُعلمني بأن نبأ ما... أو اكتشافاً ما...»

ـ «الكلمة ليست شيئاً جوهرياً، أيتها الآنسة. كلتا الكلمتين تؤدي المراد.»

ـ «... يتعلق بأموال والدي الصغيرة... والدي المسكين الذي لم أره قطّ... والذي توفي منذ عهد بعيد...»

وتململ مستر لوري في كرسيه، وألقى نظرة مهمومة على موكب الآلهة الزنوج، لكأنما كانت لديهم في سلالهم المضحكة أيما قدرة على مساعدة أحد!

ـ «... مما يوجب ذهابي إلى باريس، للاتصال برجل من رجال المصرف تجشّم عناء السفر إلى باريس لهذا الغرض.»

ـ «أنا ذلك الرجل.»

ـ «كما هُيّئتُ لأن أسمع، يا سيدي.»

وانحنت له (فقد كانت الاوانس ينحنين احتراماً في تلك الأيام)

(*) تفاح مرّ المذاق ينبت على شواطئ البحر الميت. (المعرب)

راغبةً رغبةً قويةً في أن تُبلغه أنها تستشعر مبلغ تقدّمه عليها سناً وحكمةً. وانحنى هو لها انحناءةً أخرى.

ـ «لقد أجبتُ المصرف، يا سيدي، بأنه لما كان العارفون الذين تلطّفوا فوجهوا إليّ النصح، قد رأوا من الضروريّ أن أسافر إلى باريس، ولما كنت يتيمة لا صديق لي يستطيع مرافقتي فأني أكون جدّ شاكرة إذا ما سُمحَ لي بأن أضع نفسي، طوال الرحلة، في رعاية ذلك الرجل الفاضل. وكان الرجل قد غادر لندن، ولكني أظن أن رسولاً قد وُجّه إليه يلتمس منه أن يتفضّل فينتظرني هنا.»

فقال مستر لوري: «لقد كنتُ سعيداً بأن يُعهد إليّ في هذه المهمة، ولسوف أكون أكثر سعادة بأن أقوم بها.»

ـ «سيدي، إني أشكرك حقاً. إني أشكرك معترفةً بجميلك كثيراً. ولقد قيل لي في المصرف إن الرجل سوف يشرح لي تفاصيل المسألة، وإن عليّ أن أعدّ نفسي لأن أجدها بالغة الغرابة. ولقد بذلت غاية الجهد لإعداد نفسي، وطبيعيّ أن يعصف بي شوق متلهف لمعرفة تلك التفاصيل.»

فقال مستر لوري: «طبعاً. أجل... أنا...»

وبعد فترة، أضاف مركّزاً لمته الجعدة الصفراء عند أذنيه كرة أخرى: «من العسير عليّ جداً أن أبدأ.»

ولم يبدأ، ولكن نظراته التقت، في غمرة من تردده، نظرات الفتاة. ورفع الجبينُ الغضّ نفسه إلى ذلك الوضع ذي التعبير الغريب ـ ولكنه كان إلى غرابته مليحاً نموذجياً ـ ورفعت هي يدها وكأنها تحاول بحركة لا إرادية أن تصدّ عنها ظلاً عابراً أو تمسك به.

ـ «هل أنت غريبٌ عني تماماً، يا سيدي؟»

ففتح مستر لوري يديه وبسطهما في ابتسامة برهانية، قائلاً: «ألستُ كذلك؟»

وبين الحاجبين، وفوق الأنف الأنثوي الصغير، الذي كان على غايةٍ

من الدقة واللطف، عمّق ذلك التعبير نفسه فيما جلست الفتاة، شاردة الذهن، على الكرسي الذي ظلت حتى تلك اللحظة واقفة بجانبه. وراقبها فيما هي تفكر، حتى إذا رفعت عينيها كرة أخرى تابع كلامه:

ـ «في وطنك الثاني، في ما أظن، يكون من الخير أن أخاطبك بوصفك سيدة إنكليزية صغيرة، مستعملاً لفظة «مس» يا آنسة مانيت؟»

ـ «إذا شئت، يا سيدي.»

ـ «أنا رجل أعمال، يا مس مانيت. ولقد عُهِد إليّ في أن أقوم بمهمة تتصل بالعمل. وفيما أنت تستمعين إلى كلامي أرجو أن تفترضي أنني آلة ناطقة ـ وأنا في الحق لست شيئاً أكثر من ذلك. ولسوف أقصّ عليك، إذا أذنت، أيتها الآنسة، حكاية أحد عملائنا.»

ـ «حكاية!»

وبدا وكأنما أخطأ، متعمداً، فهمَ الكلمة التي كررتها، حين أضاف مسرعاً:

ـ «. . . أجل، عملائنا. فنحن في الصناعة المصرفية نطلق لفظ العملاء على زبائننا. لقد كان رجلاً فرنسياً فاضلاً، رجلاً من رجال العلم، رجلاً ذا مزايا عظيمة ـ كان طبيباً.»

ـ «ولكنه ليس من بلدة بوفيه؟»

ـ «بلى، كان من بلدة بوفيه. مثل مسيو مانيت، أبيك، كان ذلك الرجل الفاضل من بوفيه. ومثل مسيو مانيت، أبيك، كان ذلك الرجل الفاضل ذا شهرة في باريس. ولقد كان لي شرف التعرّف إليه هناك. لقد كانت العلاقات بيننا علاقات عمل، ولكنها كانت تتسم بالسرّية والكتمان. وكنت في ذلك الوقت في فرع المؤسسة الفرنسي، وكنت. . . أوه، عشرون عاماً.»

ـ «في ذلك الوقت. . . ولكن أيّ وقت تعني، يا سيدي؟»

ـ «أقصد منذ عشرين سنة، يا آنسة. لقد تزوج من. . . سيدة

إنكليزية. . . وكنتُ أنا أحد الأمناء. وكانت أعماله المالية، شأن أعمال كثير من الرجال الفرنسيين والأسر الفرنسية، منوطة كلها بمصرف تلسون. وعلى هذا النحو كنتُ ولا أزال، وكيلاً، بطريقة من الطرق، لكثير من عملائنا. تلك صلات تجارية خالصة لا تنطوي على شيء من الصداقة، أو الشوق، أو شيء يشبه العاطفة. ولقد انتقلتُ خلال حياتي العملية من واحد من تلك الأعمال التجارية إلى آخر كمثل انتقالي خلال نشاطي اليومي في المصرف من واحد من الزبائن إلى آخر. وعلى الجملة فأنا رجل بلا عواطف. أنا مجرد آلة. وعلى أية حال، فلأتابع حديثي. . .»

ـ «ولكن هذه حكاية أبي، يا سيدي. ولقد بدأت أذكر،» ـ وسُمّر عليه الجبين المخشوشن على نحو غريب تسميراً وثيقاً ـ «إنني حين غودرتُ يتيمةً بعد أن عاشت أمي سنتين ليس غير انقضتا على وفاة أبي كنتَ الذي حملتني إلى إنكلترة. أكاد أجزم أنك أنت الذي حملتني إلى هناك.»

وأمسك مستر لوري باليد الصغيرة المرتعشة التي تقدّمت في ثقةٍ للامساك بيده، ووضعها في شيء من الاحتفال على شفتيه. ثم إنه أعاد السيدة الصغيرة، على التوّ، إلى كرسيها، ممسكاً ظهر الكرسي بيسراه مستعملاً يمناه ـ على التعاقب ـ في حك ذقنه، وتسوية لمته المستعارة عند أذنيه، أو تحديد ما قاله، خافضاً بصره إلى وجهها فيما كانت تجلس رافعةً بصرها نحوه.

ـ «لقد كنت أنا ذلك الرجل، يا مس مانيت. ولسوف تجدين مبلغ الصدق الذي ينطوي عليه الكلام الذي وصفتُ به نفسي اللحظةَ إذ قلت إنني رجل بلا عواطف. وإن جميع صلاتي مع أبناء جلدتي لا تعدو أن تكون صلات عمل، حين تذكرين أني لم أرك منذ ذلك الحين، وكنتُ أنا مشغولاً ببعض أعمال المصرف الأخرى. عواطف! ليس عندي متسع للعواطف. أنا انفق حياتي كلها، أيتها الآنسة، أدير آلة ضخمة لتسوية الأوراق النقدية وتمليسها.»

وبعد هذا الوصف الغريب لنمطية عمله اليومي سوّى مستر لوري لمته المستعارة فوق رأسه، مستعملاً كلتا يديه في ذلك (وهو شيء لم يكن ضرورياً البتة لأن شيئاً ما كان يمكن أن يكون أكثر استواءً من سطحها اللامع) واستأنف وضعه السابق.

ـ «هذه هي حتى الآن (كما لاحظتِ)، أيتها الآنسة، حكاية أبيك المأسوف عليه. وهنا ننتهي إلى الفارق. فإذا كان أبوك لم يمت حين مات... لا ترتعبي! أراك تجفلين!»

لقد أجفَلَتْ حقاً. وتعلقت بمعصمه بكلتا يديها.

ـ «اتوسل إليكِ.» قال مستر لوري ذلك بنبرة مُطمئنة رافعاً يده اليسرى على ظهر الكرسي ليضعها على الأصابع المتضرعة التي تشبثت به في ارتعاشٍ عاصف. ثم أردف: «اتوسل إليك أن تضبطي أعصابك... إنها مسألة عمل. وكما كنت أقول...»

وأربكته نظرتها حتى لقد كفّ عن الكلام، وأخذته الحيرة، ثم استأنف الحديث:

ـ «كما كنت أقول؛ إذا كان مسيو مانيت لم يمت؛ إذا كان قد اختفى فُجاءةً وفي صمت؛ إذا كان قد اختُطف اختطافاً؛ إذا كان من غير العسير أن نحزر إلى أيّ مكان مروّع اختُطف، على الرغم من أنه لم يكن ثمة سبيل إلى اقتفاء أثره؛ إذا كان موضعَ نقمة عدوّ له من أولئك المواطنين الذين يتمتعون بامتياز، كان أجرأ الناس في عهدي أنا يخشون أن يتحدثوا عنه همساً، هناك وراء البحر؛ ولنفرض أنه الامتياز الذي يخوّل صاحبه أن يملأ أوراقاً بيضاء يُزجّ بواسطتها أيما رجل في غيابة السجن طوال أيما مدة تنص عليها الورقة، إذا كانت امرأته توسلت إلى الملك أو الملكة أو البلاط أو الاكليروس(*) أن يُسعفوها بأي نبأ عنه، ولكن على

(*) رجال الدين.

غير طائل ـ عندئذ تكون حكاية أبيكِ هي حكاية هذا الرجل البائس، أعني طبيب بوفيه.»

ـ «أتوسل إليك أن تزيدني علماً، يا سيدي.»

ـ «سوف أفعل. أنا بسبيلي إلى ذلك. هل تطيقين السماع؟»

ـ «في استطاعتي أن أطيق كل شيء ما خلا الشك الذي تتركني وسط دياجيره، في هذه اللحظة.»

ـ «أنت تتحدثين في رباطة جأش، وإنك لرابطة الجأش حقاً. هذا حسن!» (على الرغم من أن مظهره كان أقل اقتناعاً بذلك من كلماته) «إنها مسألة عمل. أنظري إليها كمسألة عمل ـ عملٍ يجب أن يؤدى. والآن إذا كانت زوجة هذا الطبيب، برغم أنها سيدة ذات شجاعة بالغة وقلب كبير، قد قاست من جراء هذه النكبة بلاءً عظيماً قبل أن يرى وليدها النور...»

ـ «لقد كان ذلك الوليد انثى، يا سيدي.»

ـ «أجل، انثى. إ ـ إ ـ إنها مسألة عمل ـ لا تبتئسي. أيتها الآنسة، إذا كانت السيدة التعسة قد قاست ذلك البلاء كله قبل أن يرى وليدها النور حتى لقد وطّنت النفس على أن تجنب الطفلة المسكينة وراثة أيما جزء من تلك الآلام المبرّحة التي عانتها بأن ادخلت في روعها أن أباها قد توفي... لا، لا تركعي! استحلفكِ بالله أن لا تركعي لي!»

ـ «أنا أركع للحقيقة. أوه، أيها السيد العزيز الطيب العطوف، أنا أركع للحقيقة.»

ـ «إ ـ إ ـ إنها مسألة عمل. إنك تُربكيني، وكيف أوفّق إلى إنجاز هذا العمل إذا اعتراني الارتباك؟ فَليَسْعَ كلٌ منا إلى تصفية ذهنه. وإذا استعطت أن تتلطفي وتخبريني ما تسعة أضعاف التسعة بنسات، مثلاً، أو كم شلناً في عشرين جنيهاً شجّعني هذا كثيراً على متابعة العمل، لأنه يجعلني أكثر اطمئناناً إلى حالتك الذهنية.»

ومن غير أن تجيبه عن هذه الرغبة إجابةً مباشرةً جلست في سكون بالغ، حين رفعها في كثير من اللطف، وغدت اليدان اللتان ما انفكتا متشبثتين بمعصمه أقل ارتعاشاً من ذي قبل، حتى لقد أعادت إلى نفس مستر جارفيس لوري شيئاً من الثقة.

ـ «هذا صحيح. هذا صحيح. شجاعة! عمل! إن أمامكِ عملاً، عملاً مفيداً. أيتها الآنسة مانيت، لقد سلكت أمكِ هذا السبيل معك، وحين توفيت ـ منكسرة الفؤاد في ما أعتقد ـ من غير أن تفتر همتها لحظة عن البحث غير المجدي عن أبيك، غادَرَتْكِ، وليس لك من العمر إلاّ سنتان، لتنشئي في مطارف الغضارة والجمال والسعادة، من غير أن تعكر صفو حياتك سحابة سوداء من الشك في أمر أبيك: أقضى نحبه عاجلاً في السجن أم بليَ هناك خلال سنوات عدة متطاولة.»

وفيما كان ينطق بهذه الكلمات خفضَ بصرهُ، في إشفاق يمازجه الاعجاب، نحو الشعر الذهبي المرسل. لكأنما تصوّرَ أن ذلك الشعر كان خليقاً بأن يشتعل شيباً لو أن الفتاة عرفت قبل اليوم بالذي أصاب والدها.

ـ «أنتِ تعلمين أن أبويك لم تكن لهما ممتلكات ذات شأن، وأن ما امتلكاه قد حفظ لك ولأمك. ونحن لم نقع على كشف جديد، سواء من حيث المال أو أيما ضرب آخر من المُلك، ولكن. . .»

وأحس بالفتاة تتشبث بمعصمه تشبثاً أكثر إحكاماً، فكفّ عن الكلام. وكان التعبير المرتسم على جبينها، والذي لفت نظره من قبل على نحو خاص، والذي غدا الآن جامداً لا حراك به، قد استحالَ عميقاً يتميز من الألم والذعر.

ـ «ولكنه قد. . . ولكنه قد وُجد. إنه حي يرزق. لعله قد تغير تغيراً كبيراً، فهذا متوقع جداً. ولعله قد أمسى حُطاماً، أو يكاد، فهذا جائز أيضاً، على الرغم من أننا نرجو أن يكون على أحسن ما تجيزه ظروفه. إنه لا يزال حياً. إن أباك قد حُمل إلى بيت خادم له قديم في باريس.

ولسوف نذهب إلى هناك: أنا، لكي احققه وأثبت هويته إذا استطعت. وأنتِ، لكي تعيديه إلى الحياة، والحب، والواجب، والراحة، والرفه.»

وسرت في أوصالها رعدة ما لبثت أن سرت في أوصاله هو. وفي صوت خفيض، واضح، مذعور، قالت وكأنما تتحدث في حلم: «سأذهب لأرى طيفه! سوف يكون ما أراه طيفه لا هو!»

وفي رفق، دَلَك المستر لوري اليدين المتشبثتين بذراعه. وقال: «كفى، كفى، كفى! أنظري الآن! أنظري الآن! أصبحت تعرفين الآن أحسن ما في المسألة وأسوأ ما في المسألة. وإنك لفي الطريق إلى لقاء الرجل البائس المظلوم. وما هي إلاّ رحلة بحرية جميلة، ورحلة برية جميلة حتى تصبحي، وشيكاً، إلى جانبه.»

وكررت بنبرة كالهَمْس: «لقد كنتُ حرة، وكنت سعيدة، ومع ذلك فإن طيفه لم يُلمّ بي قط!»

ـ «بقيت مسألة واحدة ليس غير،» قال مستر لوري ذلك في توكيد، ابتغاء الاستحواذ على انتباهها، وأردف: «هي أنه وّجِد وهو يحمل اسماً آخر، بعد أن نُسي اسمه الحقيقي منذ عهد طويل، أو أخفي منذ عهد طويل. ومن العبث الذي لا طائل تحته أن نحاول معرفة ما إذا كان قد عُفي عنه منذ سنوات، أم أكره عمداً على البقاء رهن السجن طوال هذه الفترة. ومن العبث الذي لا طائل تحته الآن أن نحاول تحري هذه المسألة لأن ذلك خليق بأن يعرضنا للخطر. ومن الخير لنا أن لا نثير هذا الموضوع في أيما مكان وعلى أي وجه، وأن ننقله ـ مؤقتاً على كل حال ـ إلى خارج فرنسة، وحتى أنا، برغم ما أستشعره من الأمن بوصفي رجلاً إنكليزياً، وحتى مصرف تلسون، برغم ما يتمتع به من شأن في حياة فرنسة المالية، نجتنب أيما إشارة إلى هذه المسألة. فلست أحمل معي أو في حقائبي أية قصاصة من الورق تشير إلى ذلك في وضوح. هذه خدمة سرية بكل ما في الكلمة من معنى. ومن هنا فإن أوراق اعتمادي، ومدوّناتي، ومذكراتي تتلخص كلها في هذه العبارة المنفردة، «لقد بُعث

الميت»، التي قد لا تفيد شيئاً. ولكن ما الذي جرى! إنها لا تسمع كلمة! مس مانيت!»

وفي سكون وصمت كاملين، ومن غير أن تنقلب إلى ظهر كرسيها، جلست تحت يده فاقدة الرشد بالكلية. كانت عيناها مفتوحتين مركزتين عليه، وكان ذلك التعبير الأخير يبدو وكأنه قد حُفر على جبينها أو كأن جبينها قد وسم به وسماً. وكانت تقبض على ذراعه في كثير من الإحكام حتى لقد حاذر أن ينأى بنفسه عنها مخافة أن يؤذيها ذلك. من أجل هذا التمس النجدة في صوت عال وهو واقف في مكانه لا يريم.

وهرعت إلى الغرفة، على رأس خدم الفندق، امرأة غلبت سيما الهمجية على وجهها. واستطاع مستر لوري، حتى وهو في غمرة اضطرابه، أن يلاحظ أنها حمراء كلها، وأن شعرها أحمر، وأن ثيابها قد فصّلت على زي غريب ضيق محكم، وأن على رأسها قبعة عجيبة جداً هي أشبه ما تكون بمكيال خشبي أو قرص كبير من جبن ستيلون. وما هي إلاّ لحظة حتى سوّت هذه المرأة مسألة ابتعاده عن السيدة الصغيرة البائسة بأن وضعت يداً غليظةً على صدره وقذفت به إلى وراء ليرتطم بأقرب جدار.

ـ «لا شك عندي في أن هذه اليد يد رجل،» كذلك فكّر مستر لوري، وهو يلهث، حالما ارتطم جسده بالجدار.

وصرخت تلك المرأة موجهة الخطاب إلى خدم الفندق: «ولكن أنظروا إلى أنفسكم جميعاً! لماذا لا تذهبون وتحضرون الأشياء، بدلاً من أن تقفوا هناك محدّقين إليّ؟ أنا لست بهية الطلعة يفتن جمالي الناظرين، هل أنا كذلك؟ لماذا لا تذهبون وتحضرون الأشياء؟ سوف أريكم إذا لم تجلبوا الأملاح المنبهة، والماء البارد، والخل. هيا عجلوا. سوف أريكم!»

وفي الحال انتشر الخدم في أرجاء الفندق التماساً لهذه المنعشات. وبرفق، مدّدت العليلة على إحدى الأرائك، وانصرفت إلى خدمتها في

كثير من البراعة واللطف منادية إياها: «يا نفيستي!» و «يا عصفورتي!» ناشرة شعرها الذهبي فوق منكبيها في كثير من الاعتزاز وبالعناية.

والتفتت إلى مستر لوري وقالت في حنق: «وأنت يا ذا الثوب الأسمر! أما كان في إمكانك أن تخبرها ما ينبغي أن تخبرها إياه من غير أن تروّعها حتى الموت؟ أنظر إليها، وإلى وجهها الجميل الشاحب، ويديها الباردتين. هل تجد ذلك لائقاً برجل مصرفيّ؟»

واستبد القلق بمستر لوري لدى سماعه هذا السؤال الذي تعسر الإجابة عنه فلم يعد في ميسوره أن يفعل شيئاً أكثر من النظر إلى الفتاة، من بعيد، في استكانة ومشاركة وجدانية أشد وهناً، بينا وُفقت المرأة القوية ـ بعد أن طردت خدم الفندق بتهديدهم بتلك العقوبة الغريبة التي «تجعلهم يعرفون» شيئاً لم تذكره إذا ظلوا واقفين هناك يحدّقون ـ إلى أن تعيد الفتاة إلى صوابها شيئاً بعد شيء، وأخذت تغريها بأن تلقي رأسها المطأطأ، على كتفها.

وقال مستر لوري: «أرجو أن تستعيد نشاطها الآن.»

ـ «إذا فعلتْ فلن يكون الفضل لك في ذلك. يا حلوتي الحبيبة!»

وقال مستر لوري بعد فترة أخرى من الاستكانة والمشاركة الوجدانية: «لعلك سترافقين مس نايت إلى فرنسة؟»

فأجابت المرأة القوية: «هذا جائز، إذا ما قدر لي يوماً أن أعبر الماء الأجاج. هل تظن أن العناية الإلهية قد ألقت قرعتي في جزيرة؟»

وإذ كان هذا سؤالاً آخر تعسر الإجابة عنه فقد انسحب مستر لوري من الغرفة للتفكير فيه.

ـ 5 ـ

الحانـة

كان دنّ ضخم من دنان الخمر قد سقط في الشارع وتحطم. وكان الحادث قد وقع فيما كان الدنّ ينقل من إحدى العربات. وتدحرج الدن، بعد أن تقطعت أطواقه، فانطرح على الحجارة، عند باب الحانة، وقد تناثر حطامه مثل قشرة الجوز.

وكان كل من في تلك الناحية قد ترك عمله، أو بطالته، وهرع إلى ذلك المكان ليحتسي الخمر. كانت حجارة الشارع الخشنة غير المستوية، الناتئة في كل اتجاه والمعدة خصيصاً، كما قد يخيّل إلى المرء، لكي تصيب بالعرج كل من يقترب منها، قد احتبست الخمر المراقة في برك صغيرة. وكان قد تحلّق حول كل من هذه البرك حشد من الناس يتفاوت قلةً وكثرةً تبعاً لحجم البركة. كان بعض الواردين قد جثوا على ركبهم متخذين من أكفهم المضمومة مغارف لهم، فهم يرتشفون أو يحاولون أن يساعدوا طائفة من النساء انحنين فوق أكتافهم على الارتشاف قبل أن تتسرب الخمر من بين أصابعهم. وآخرون من الرجال والنساء أمالوا في تلك البرك أكوازاً صغيرة من حطام الخزف، أو غمسوا فيها مناديل كانت على رؤوس النساء ليعصروها حتى الجفاف في أفواه الأطفال. وآخرون أنشأوا سدوداً طينية صغيرة لكي يصدوا الخمر الجارية عن سبيلها. وآخرون كان المطلون من النوافذ العالية يرشدونهم إلى مواضع الخمر فيثبتون ههنا وههناك ويعترضون سُبل جداول الخمر

الصغيرة التي انطلقت في وجهات جديدة. وآخرون قصروا نشاطهم على فِلذ الدن المشرَبة، المصبَّغة بالثمالات فهم يلعقون بل يلوكون تلك الفلذ في ابتهاج ولهفة. ولم يكن ثمة مصارف تذهب بالخمر، ومن هنا لم يرتشف القوم كل قطرة من قطراتها فحسب بل لقد التهموا إلى جانب هذا كثيراً من الطين، حتى ليخيّل إلى المرء أن كناساً قد مرّ بالشارع، لو أن في مقدور أيما رجلٍ ممن ألِفوا ذلك الحي أن يؤمن بتلك المعجزة.

وضجت في جنبات الشارع، طوال ذلك الصيد الخمري أصداء ضحكٍ جهوري وأصوات محبورة طربة ـ أصوات رجال، ونساء، وأطفال. لقد كان في تلك اللعبة قليل من العنف، وكثير من المرح. وكانت زاخرة بالمودة، وبميل ملحوظ إلى أن ينعطف كل امرئ إلى رفيق يصطفيه، مما أدى عند اوفر القوم حظاً أو أشدهم جذلاً وطرباً إلى كثير من العناق البهيج، وشرب الأنخاب، والمصافحة، بل إلى تشابك الأيدي والرقص الجماعي الذي تنتظم كل حلقة من حلقاته اثني عشر شخصاً. حتى إذا نفد النبيذ، واستنزفت الأصابع تلك المواطن التي حفلت به فهي بعدُ أشبه ما تكون بالمشواة المشبكة، خمدت تلك المظاهرة فجأة، كما نشأت. وهكذا انقلب الرجل، الذي غادر منشاره عالقاً في ما كان يقطعه من الحطب، إلى مكانه فأعمل تلك الآلة من جديد. وانقلبت المرأة التي غادرت عند عتبة بابها وعاء تحيط به جمرات خامدة كانت تحاول أن تخفف بحرارتها حدة الألم في أصابع يديها وأرجلها المقرورة، أو في أصابع طفلها ـ انقلبت إلى وعائها ذاك. وتحرك الرجال ذوو الأذرع العارية، والشعر الحصيري المتلبد، والوجوه الشاحبة كمثل وجوه الموتى، وهبطوا إلى سراديبهم المظلمة بعد أن انبثقوا منها إلى ضوء الشتاء. واجتمعت الظلمة على ذلك المكان وقد بدت أشبه به من أشعة الشمس وأليَق.

كانت الخمر حمراء، وكانت قد خضبت أرض الشارع الضيق في ضاحية سان انطوان في باريس حيث سُفحت. وكانت قد خضبت،

كذلك، كثيراً من الأيدي، وكثيراً من الوجوه، وكثيراً من الأقدام الحافية، وكثيراً من الأحذية الخشبية. وخلّفت يدا الرجل الذي نشر الحطب آثاراً حمراء على الجذوع الضخمة اليابسة. واصطبغ جبين المرأة المرضعةِ طفلها بصبغ الخرقة البالية التي عقدتها حول رأسها كرةً أخرى. وكان أولئك الذين التهموا حطام الدن في نهم قد أحاطت بأفواههم لطخات ضارية متعطشة إلى الدم. وتقدم مجّان(*) فارع الطول ملطخ تلطيخاً شديداً، يعتمر كيساً طويلاً وسخاً، يُفترض أنه قلنسوة بيتية، يظهر من رأسه أكثر مما يُخفي، فخربش على أحد الجدران بأصبعه المغموسة برواسب الخمر الموحلة هذه الكلمة: ـ دماء.

كان لا بدَّ أن يأتي ذلك الوقت الذي تراق فيه تلك الخمرة أيضاً فوق حجارة الشوارع، والذي ستخضّب فيه كثيراً من القوم هناك بلونها الأحمر أيضاً.

والآن وقد خيمت سحابة الكآبة على سان انطوان، بعد أن اخرجه ذلك الشعاع المؤقت عن سمته المقدس، اشتدت وطأة الظلمة عليه ـ وكان البرد، والقذارة، والمرض، والجهل، والفاقة أساقفةً يعملون في خدمة ذلك القديس، وكلهم ذو سلطان عريض، ولكن آخرهم كان أشدهم بأساً وأرفعهم لواءً. ففي ذلك الحي كانت تقع عين المرء على نماذج من الناس الذين دارت عليهم رحى الطاحون مرّة ومرّة ومرّة دوراناً رهيباً ـ ولست أعني من غير ريب تلك الطاحون الأسطورية التي تحيل الشيوخ شباناً ـ نماذج ترتجف عند كل زاوية، وتروح وتجيء لدى كل باب، وتطل من كل نافذة، وتضطرب مهتاجة في كل ثوب تذروه الرياح. كانت الطاحون التي دارت رحاها عليهم هي تلك التي تجعل الولدان شيبا، فإذا بوجوه الأطفال عتيقة بالية، وبأصواتهم كئيبة وقورة، وإذا بهذه العلامة «الجوع» بادية على وجوه الصغار والكبار فهي تُغرس في كل ثلم

(*) المجان: الرجل الكثير المجون. وقد اصطنعناها مقابلاً لكلمة Joker

من اثلام العمر وتنمو من جديد. وإذا بها سائدة في كل مكان. كان الجوع يُطلع رأسه من البيوت العالية، في تلك الملابس الحقيرة المنشورة على الأعمدة والحبال. وكان الجوع يتمثل هناك في القش، والخرق، والخشب، والورق. وكان الجوع يتكرر في كل فلذة من الحطب الذي كان ينشره الرجل. وكان الجوع يطل محدقاً من المداخن التي لا ترسل دخاناً، وينبثق من الشارع القذر الذي لم يكن بين قاذوراته فضلات طعام ما. كان الجوع هو الشعار المنقوش على ألواح الخباز، والمطبوع على كل رغيف صغير من أرغفته القليلة المصنوعة من الدقيق الرديء؛ الشعار الذي تلقاه في محلات صنع النقانق على كل قطعة من ذلك الغذاء المعد من لحوم الكلاب الميتة، والمعروض للبيع. كانت عظام الجوع الجافة تقعقع بين حبات الكستناء المشوية في الأسطوانة الدائرة. وفي كل قصعة من قصاع البطاطس الرديئة التي تباع بفلس واحد، والتي قليت بقطرات أبيّة من زيتٍ ما، كان الجوع يتناثر ذراتٍ دقيقة ما تكاد تُرى.

وكان مستقّر ذلك الجوع ملائماً من جميع الوجوه. كان زقاقاً ضيقاً متعرجاً حافلاً بالعثرات والروائح القذرة، تتشعب منه أزقة أخرى ضيقة متعرجة، آهلةٌ كلها بالأسمال البالية وقلانس النوم، وتفوح منها كلها رائحة الأسمال البالية وقلانس النوم، ومختلف الأشياء المنظورة التي تعلو صفحاتها انطباعاتٌ متفكرة مريضة. كانت تبدو على وجوه القوم سيما المطارَد المذعور، ومع ذلك فقد كانت لا تزال تعصف بها فكرة ضاربة: أن ترتد على مطارديها ذات يوم. وكانت امارات الهوان والهزال غالبةً عليهم حقاً، ولكن الأعين التي تقدح شرراً ما كانت لتعوزهم. وما كانت لتعوزهم، كذلك، لا الشفاه المطبقة إطباقاً محكماً، البيضاء مما تكبتُهُ، ولا الجباه المقطّبة على هيئة حبل المشنقة الذي كانوا يفكرون في احتماله أو في إعدام الآخرين به. وكانت اللافتات التجارية (وكانت كثيرة تكاد تبلغ عدد الحوانيت) كلُّها صورةً كالحةً عن الفقر. فلم يرسم كل من الجزار وبائع لحم الخنزير على لافتته غير اللحم المهزول الممعن

في الضمور، ولم يرسم الخباز على لافتته غير الأرغفة الأشدّ خشونةً وضآلة، على حين كانت لافتات الخمّارات تمثّل رجالاً جُفاةً ينعبون فوق كؤوسهم الصغيرة المشتملة على الخمر المريضة والجعة، ويتهامسون عابسين مغيظين. إن شيئاً ما لم يُصوَّر على نحوٍ زاهر خلا الأدوات والأسلحة، فقد كانت سكاكينُ بائع الآلات الجارحة وفؤوسه حادةً مومضة، ومطارق الحداد ثقيلةً، وبضاعةُ صانع البنادق فتاكةً. ولم يكن لحصباء الطريق التي تصيب السابلة بالعرج والكسَح ـ بأحواضها الصغيرة العديدة الملأى بالوحل والماء ـ أرصفة ما، فهي تنتهي فجأة عند أبواب المنازل. وإصلاحاً لهذا الخلل كانت مصارف المياه تجري في وسط الشارع ـ هذا إذا قُدّر لها، يوماً، أن تجري ـ وما كان ذلك ليقع إلاّ إثر هطول أمطار غزيرة، وعندئذ كانت المياه تندفع، في نوباتٍ عصبية، نحو المنازل. وعند نقاط متباعدة من الشارع، كانت مصابيح خرقاء تُرفع بحبال وبَكَرات. حتى إذا هبط الليل وأقبل مُسرج المصابيح فأنزلها من عليائها، وأضاءها، ثم نصبها كرةً أخرى، تأرجحت أجمةٌ من الفتائل القاتمة، تأرجحاً مريضاً، فوق الرؤوس، وكأنما هي في عرض البحر. والحقّ أنها كانت في عرض البحر، وكانت العاصفة تتهدد السفينةَ وملاحيها بالخطر.

ذلك بأنه كان لا بدَّ من أن يأتي ذلك اليوم الذي يراقب فيه ذوو الأسمال البالية في تلك المنطقة مُسْرج المصابيح، وهم في غمرة بطالتهم وجوعهم، مراقبة موصولة إلى حدّ يحملهم على التفكير في إدخال بعض التحسين على أسلوبه فيرفعون أجساد الرجال بتلك الحبال والبكَرات لكي تتألق فوق ظلمات أحوالهم. ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد. فما أن تهبّ على فرنسة ريح حتى تهزّ أسمال تلك الفزّاعات(*) البالية هزاً لا

(*) الفزاعة: ما ينصب في المزارع تخويفاً للطير والوحوش. وقد رمز بها الكاتب إلى جماعات الشعب المحرومة، كما رمز بـ «الطيور» إلى النبلاء ومن إليهم. (المعرب)

غناء فيه، لأن الطيور ذات التغريد البارع والريش الجميل ما كانت لتبالي بها.

كانت الحانة قائمة في إحدى زوايا الشارع، وكانت أحسن منظراً وأرفع درجةً من كثيراتٍ من مثيلاتها. وكان الخمّار واقفاً خارج بابها، مرتدياً صدرةً صفراء وبنطلوناً أخضر، يراقب اصطراع الناس من أجل الخمر المراقة. وفي هزةٍ أخيرة من كتفيه قال: «ليس هذا من شأني. إن أولئك القادمين من السوق هم الذين فعلوا ذلك. يجب عليهم أن يأتوني بدنّ أخر.»

وفجأة، وقعت عينه على المجّان الفارغ الطول وهو يخطّ نكتته، وراح يخاطبه عبر الشارع: «ولكن قل لي، يا غاسبار، ماذا تفعل هناك؟

وأشار الرجل إلى الكلمة التي صوّرها على الجدار وقد ارتسم على وجهه معنى عميق، شأن أبناء عشيرته في العادة. ولكن ذلك المعنى المرتسم على وجهه أخطأ مرماه، وأخفق إخفاقاً كلياً، شأن أبناء عشيرته، في العادة أيضاً.

وقال الخمّار، وهو يجتاز الطريق ويمحو الكلمة بحفنة من الطين التقطها خصيصاً لهذا الغرض: «ما هذا؟ هل أنت مرشحٌ لمستشفى المجاذيب؟ لماذا تكتب على قارعة الطريق؟ أليس هناك ـ قُل لي أنت! ـ أليس هناك مكان آخر تخطّ فيه أمثال هذه الكلمات؟»

وفيما الخمّار يعنّف الرجل القى يده الأكثر نظافةً (وقد يكون ذلك اتفاقاً، وقد لا يكون) على قلب المجّان. فربّت عليها المجّان بيده، ووثب وثبةً رشيقة في الهواء، ثم هوى على نحو راقصٍ عجيب، وقد انفصل نعله عن قدمه فالتقطته يده وارتفعت به إلى أعلى. لقد بدا، على تلك الصورة، مجّاناً ذا صفة عملية إلى حدّ بعيد، إن لم نقل إلى حد ذئبيّ.

وقال الخمّار: «إلبسْها، إلبسْها. أدْعُ الخمر خمراً، وكُفّ عن هذا.» حتى إذا محضه هذه النصيحة مسح يده القذرة بملابس المجان ـ

متعمداً ذلك ـ لأنه إنما وسّخ تلك اليدَ بسببه. ثم عبر الطريق كرةً أخرى ودخل الحانة.

وكان هذا الخمّار رجلاً في الثلاثين من العمر، ذا عنق كعنق الثور، وملامح عسكرية. ولا بدَّ أنه كان دموي المزاج، إذ لم يكن يرتدي، ذلك اليوم، برغم البرد القارس، سترته، مكتفياً بوضعها فوق كتفه. وكان كُمّا قميصه قد لُفّا إلى أعلى، أيضاً، كاشفين عن ذراعيه السمراوين حتى المرفقين. كذلك لم يغطّ رأسه بشيء غير شعره القصير، الداكن، الجعد على خشونة. وكان رجلاً داكن اللون، على الجملة، ذا عينين ثاقبتين، بينهما شقّة عريضة بارزة. وعلى العموم فقد كانت أسارير وجهه تؤذن بطيبة قلبه، وبتصلّبه وبُعده عن التسامح في آن معاً. واضح أنه كان رجلاً ذا عزيمة قوية وهدف صريح، رجلاً لا يسرّ المرء أن يلقاه هابطاً، في اندفاع، ممرّاً ضيّقاً ممتداً بين هوة عن يمين وهوة عن شمال، إذْ ما من شيء يستطيع أن يصدّه، في مثل هذه الحال، عن سبيله.

وفيما هو يدخل الحانة، جلست مدام دوفارج، زوجتُهُ، وراء المنضدة. وكانت مدام دوفارج امرأة بدينة في نحو سنّه، ذات عين دقيقة الملاحظة نادراً ما يبدو لك أنها تنظر إلى شيء، ويدٍ ضخمة مثقلة بالخواتم، ووجه صارم، وملامح قاسية، ورباطة جأشٍ بالغة. وكانت سيما هذه السيدة تجعل المرء يتنبأ بأنها ما كانت لترتكب، عادةً، خطأً في الحساب يتصل بأيما عمل من الأعمال التي تشرف عليها. وإذْ كانت مدام دوفارج لا تطيق البرد، فقد تدثّرت بالفرو، وعقدت حول رأسها شالاً مشرقاً ثقيلاً، وإن لم يُوفّق إلى إخفاء قرطها الضخم. وكان حَبْكها أمامها، ولكنها كانت قد وضعته جانباً لتنكش أسنانها بعود من عيدان الأسنان. وإذ كانت مدام دوفارج منهمكة في هذا العمل، وقد أسندت مرفقها الأيمن إلى يدها اليسرى، فإنها لم تقل شيئاً حين دخل بعلها الحانة، بل سعلت مجرد سُعيلة، ورفعت حاجبيها الداكنين، فوق عود الأسنان، قيد شعرة، لتوحي إلى زوجها بهاتين الإشارتين أن من الخير له

أن يجيل طرفه بين زبائن الحانة بحثاً عن أيما زبون جديد قد يكون دخل المكان فيما كان يجوز الشارع.

ولبى الخمّار رغبة زوجته فأجال بصره في الحانة حتى استقر على سيد متقدّم السنّ وفتاةٍ نضرة العود كانا جالسين في إحدى الزوايا. وكان في الحانة نفرٌ آخرون: اثنان يلعبان الورق، واثنان يلعبان الدومينو، وثلاثة واقفون إلى جانب المنضدة، يمدّون في أجل جرعات شحيحة من الخمر. حتى إذا انتهى إلى ما وراء المنضدة لاحظ أن الشيخ يلتفت إلى الفتاة ويقول: «هذا هو صاحبنا.»

وقال مسيو دوفارج في ذات نفسه: «باسم الشيطان، ما الذي تفعلانه هناك؟ أنا لاأعرفكما.»

ولكنه تظاهر بأنه لم يرَ الغريبين، وأنشأ يتحدث إلى الزبائن الثلاثة الواقفين عند المنضدة.

قال أحد أولئك الثلاثة لمسيو دوفارج: «كيف أنت، يا جاك؟ هل ابتلع الناس الخمر المسفوحة كلها؟»

فأجاب مسيو دوفارج: «كلّ قطرة من قطراتها، يا جاك.»

حتى إذا تمّ تبادل هذين الاسمين الصغيرين(*) أطلقت مدام دوفارج سُعيلة أخرى، فيما هي تنكش أسنانها، ورفعت حاجبيها قيدَ شعرة أخرى.

وقال ثاني الثلاثة موجهاً الخطاب إلى مسيو دوفارج: «نادراً ما يعرف كثيرٌ من هذه البهائم البائسة طعم الخمر أو طعم أيّ شيء آخر غير الخبز الأسود والموت. أليس هذا صحيحاً يا جاك؟»

فأجابه مسيو دوفارج: «بلى، إنه لصحيح، يا جاك.»

حتى إذا تبودل هذا الاسم الصغير، كرة ثانية، أرسلت مدام دوفارج

(*) يقصد بالاسم الصغير الاسم الأول الذي يسبق اسم الأسرة. (المعرب)

سُعيلة أخرى، فيما هي لا تزال تصطنع عود الأسنان في ترصّنٍ بالغ، ورفعت حاجبيها قيد شعرة أخرى.

وهنا قال آخر الثلاثة كلمته، فيما هو يضع قدحه الفارغ على المنضدة ويتمطّق: «آه، إن الحال لا تزداد إلاّ سوءاً. وإن هذه الأنعام البائسة لا تجد في أفواهها إلاّ الطعم المرير، ولا تحيا إلاّ الحياة الشقية القاسية، يا جاك، هل أنا على صواب، يا جاك؟»

فكان جواب مسيو دوفارج أن قال: «أنت على صواب، يا جاك.»

وقد تمّ تبادل هذا الاسم الصغير، للمرة الثالثة، لحظةَ رمَت مدام دوفارج العود الذي كانت تنكش به أسنانها، وأبقت حاجبيها مرفوعين، وتململت في مقعدها بعض الشيء.

وغمغم زوجها: «قفوا إذن! صحيح! أيها السادة، أقدّم لكم زوجتي!»

فنزع الزبائن الثلاثة قبعاتهم ولوّحوا بها احتراماً لمدام دوفارج، فردت عليهم تحيتهم بأن حنت رأسها ورمقتهم بنظرة خاطفة. ثم إنها أجالت طرفها على نحوٍ فجائي، في أرجاء الحانة، وتناولت حبكها في هدوء بالغ، واطمئنان، واستغرقت في عملها.

قال زوجها من غير أن يرفع عنها عينه المشرقة اليقظة: «أيها السادة، طاب نهاركم. إن الغرفة، المؤثثة على الطريقة العَزَبية، التي رغبتم في مشاهدتها، والتي كنتم تستعلمون عنها عندما غادرتُ الحانة، تقع في الدور الخامس. وإن باب السلم يفضي إلى الفناء الصغير المحاذي للشمال، هنا،» وأومأ بيده، «قريباً من نافذة محلي. ولكنْ، لقد تذكرتُ الآن. إن واحداً منكم سبق أن قصد إلى هناك، وفي استطاعته أن يدلكم على الطريق. أيها السادة، استودعكم الله!»

دفعوا ثمن الخمر التي شربوا، وغادروا المكان. وكانت عينا مسيو دوفارج تتأملان زوجته المستغرقة في حبكها حين نهض السيد الشيخ من زاويته متقدماً نحوه، والتمس أن يقول كلمة.

ـ «بطيبة خاطر، يا سيدي،» كذلك أجابه مسيو دوفارج، ومضى معه في تؤدة نحو الباب.

كان المؤتمر قصيراً جداً، ولكنه حاسم جداً. فلم يكد الرجل ينطق بالكلمة الأولى حتى أجفل مسيو دوفارج وأصغى في اهتمام بالغ. وما هي إلاّ دقيقة، أو أقل، حتى أومأ برأسه وخرج. عندئذ أشار الشيخ إلى السيدة الصغيرة، وخرجا هما أيضاً. وحبكت مدام دوفارج صوفها بأصابع رشيقة، وحاجبين ثابتين، ولم تر شيئاً.

وإذ غادر مستر جارفيس لوري ومس مانيت الحانة، التحقا بمسيو دوفارج عند الباب الذي قاد إليه ضيوفه الآخرين، من قبل. كان ذلك الباب يتفرج عن فناء أسود صغير نتنٍ، وكان هو المدخل الجامع العمومي لركام ضخم من البيوت الآهلة بعدد كبير من الناس. وفي الممرّ الآجريّ المظلم المؤدي إلى السلّم الآجري المظلم ركع مسيو دوفارج على إحدى ركبتيه احتراماً لابنة سيده القديم، ووضع يدها على شفتيه. كان ذلك عملاً ينطوي على كرم ولطف، ولكنه لم يُنجز قطّ في كرم ولطف. فما هي إلاّ ثوان حتى اعترى مسيو دوفارج تحوّلٌ يلفت النظر حقاً. لقد زايلت وجهه أماراتُ الطيبة والصراحة، وغدا رجلاً متحفظاً، مُغضَباً، خطراً.

ـ «إنها عالية جداً. وإنها لعسيرة بعض الشيء. ومن الأفضل أن نصعد على مهل.» كذلك قال مسيو دوفارج لمستر لوري، في صوت صارم، بينا شرعوا يرتقون السلم.

وهمس مستر لوري: «أهو وحده؟»

فقال الخمّار في الصوت الخفيض نفسه: «وحده! كان الله في عونه! من الذي ينبغي أن يكون معه؟»

ـ «أهو دائماً وحده، إذن؟»

ـ «نعم.»

ـ «بسببٍ من رغبته الخاصة؟»

ـ «بسبب من حاجته الخاصة. إنه لا يزال كما كان عندما رأيته أول مرة، بعد أن عثروا عليّ وسألوني ما إذا كنت أود أن أتسلمه، وأبقيه في معزل عن الناس خشيةَ أن يقع ما لا تحمد عقباه.»

ـ «هل تغيّر كثيراً؟»

ـ «تغيّر!»

ووقف صاحب الحانة ليلطم الجدار بيده، ويطلق شتيمة هائلة. ولم يكن ثمة أيما جواب مباشر ينطوي على نصف القوة التي انطوت عليها تلك الحركة. وأسقِط في يد مستر لوري أكثر فأكثر، وصعد هو ورفيقاه أعلى فأعلى.

مثل هذه السلّم، وملحقاتها القائمة في أجزاء باريس الأكثر عتقاً وازدحاماً، خليقة بأن تكون، اليوم، رديئة جداً، أما في ذلك العهد فقد كانت بغيضة حقاً إلى الأعصاب المرهفة التي لم تألف نظائرها.

وكان كل مسكن من المساكن الصغيرة التي انطوى عليها ذلك الوكر الكبير القذر الذي يدعونه بناءً عالياً ـ أعني كل غرفة أو غرف قائمة خلف أحد الأبواب المنفتحة على السلم العامة ـ يترك ركام قاذوراته على السلّم الخاص به، غير غافل في الوقت نفسه عن إلقاء بعض النفايات الأخرى من النافذة. كانت كتلة الأقذار التي لا سبيل إلى ضبطها أو إزالتها، الناشئة على هذا النحو، قمينة بأن تفسد الهواء، حتى ولو لم يثقلها الفقر والحرمان بمساوئ خفيّة. والحق أن هذين المصدرين الخبيثين، مجتمعين، جعلا الوضع يكاد لا يطاق. وفي غمرة من مثل هذا الجو، غير بعيد عن دهليز مظلم من القذر والسمّ، امتدت الطريق. وبسبب من اضطرابه الذهني، واهتياج رفيقته الشابة المتعاظم لحظة بعد لحظة، وقف مستر جارفيس لوري مرتين التماساً للراحة. وقد حصلت كل وقفة من هاتين الوقفتين عند نافذة كئيبة مظلمة كانت تهرب منها فيما يبدو بقية واهنة من الهواء النقي الذي لمّا يفسد بعد، وتندفع نحوها جميع الأبخرة

السقيمة الفاسدة. ولم يكن المرء يرى من خلال القضبان الحديدية الصدئة مشاهد من الجوار المشوّش فحسب، بل يذوق ذلك التشوش ذوقاً. ولم يكن في المحلة كلها، قريباً من قمّتيْ برجيْ كنيسة نوتردام أو تحتهما، شيء تشرق على محياه نضرة الحياة الصحية أو بريق المطامح السليمة.

وأخيراً انتهوا إلى أعلى السلّم، وهناك استراحوا للمرة الثالثة. كان عليهم الآن أن يرتقوا سلّماً أخرى عموديّة أكثر وأقل اتساعاً من سابقتها، قبل أن يصلوا إلى العليّة. وهنا استدار الخمّار، وكان يتقدمهما بعض الشيء دائماً، ويلزم الجهة التي يتخذها مستر لوري دائماً، وكأنه يخشى أن توجّه إليه السيدة الصغيرة سؤالاً ما. وفي عناية، تلمّس جيوبَ سترته المطروحة على كتفه، وأخرج مفتاحاً.

فقال مستر لوري في دَهَش: «الباب مغلق إذن، أيها الصديق؟» فأجابه مسيو دوفارج بنيرة كالحة: إي. نعم.»

ـ «أترى أن من الضروري أن تُفرض على الرجل البائس هذه العزلة القاسية كلها؟»

فازداد مسيو دوفارج دنوّاً من أذن مستر لوري وهمس فيها مقطباً تقطيباً شديداً: «أحسب أن من الضروري أن ندير المفتاح في القفل قبل أن ندخل عليه.»

ـ «لماذا؟»

ـ «لماذا! لأنه سلخ دهراً طويلاً في غيابة سجن موصد. ومن هنا فلست آمنُ، إذا ما ترك بابه مفتوحاً، أن يروّع، أن يصاب بالهذيان، أن يمزق نفسه إرباً إرباً، أن يموت، أو يحلّ به أذى لا أعلم حقيقته.»

فصاح مستر لوري: «وهل هذا ممكن؟»

فكرر دوفارج في مرارة: «هل هذا ممكن! أجل. وإنه لعالم جميل هذا الذي نعيش فيه، والذي يجعل مثل هذه المأساة ممكنة، ويجعل

غيرها من المآسي الكثيرة ممكناً أيضاً. ماذا أقول؟ إنها ليست ممكنة فحسب، ولكنها تقع بالفعل ـ تقع، أفهمت؟ تحت هذه السماء هناك، كل يوم. ليحيَ الشيطان! ولندخل.»

كان هذا الحوار يدار في همس خفيض حال دون وصول كلمة واحدة منه إلى أذني السيدة الصغيرة. ولكنها كانت قد أخذت ترتعش، الآن، تحت وطأة انفعال عنيف جداً. وقد بدت على وجهها أمارات قلق عميق، بل أمارات ذعر عاصف، إلى حد جعل مستر لوري يدرك أن من واجبه أن يهدئ من روعها بكلمة أو كلمتين.

ـ «تشجعي، أيتها الآنسة العزيزة، تشجعي! هذه مسألة عمل. ولسوف ينقضي أسوأ ما فيها بعد لحظة. فما أن نلج باب الغرفة حتى ينتهي أسوأ ما فيها. وعندئذ يبدأ كل الخير الذي تستطيعين أن تحمليه إليه، كل الراحة، كل السعادة. دعي صديقنا الطيب هذا يساعدك من ذلك الجانب. هذا حسن، أيها الصديق دوفارج. تعالي، الآن. المسألة مسألة عمل. عمل.»

وصعدوا في تؤدة ورفق. كانت السلم قصيرة، ما لبثوا أن انتهوا إلى أعلاها. وهناك حيث انعطفت السلم على نحو فجائي وقعت أبصارهم بغتة على ثلاثة رجال كانت رؤوسهم منحنيةً، قريباً بعضها من بعض، عند جانب باب ما، فهم يحدّقون من خلال بعض الفروج أو الثقوب التي في الجدار إلى الغرفة القائمة وراء ذلك الباب. حتى إذا سمعوا وقع الأقدام على مقربة منهم التفت هؤلاء الرجال، ونهضوا، فإذا هم الثلاثة رجال ذوو الاسم الواحد، الذين كانوا يحتسون الخمر في الحانة.

وقال مسيو دوفارج موضحاً: «لقد نسيتُهم بحكم زيارتك المفاجئة. أخلوا المكان لنا، أيها الفتية الصالحون. إن عندنا عملاً هنا.»

وانساب الثلاثة منسحبين، وهبطوا السلم في صمت.

وإذ بدا أن ليس ثمة باب آخر في هذا الدور، وأن صاحب الحانة مضى إلى هذا الباب بالذات حين خُلفوا وحدهم، فقد سأله مستر لوري

في همس، وفي نبرة غضب بعض الشيء: «أتتخذ من مسيو مانيت فرجة يتفرّج عليها الناس!»

ـ «أنا أريه، بالطريقة التي شاهدتها، لنفرٍ مختارين.»

ـ «وهل هذا حسن؟»

ـ «أعتقد أنه حسن.»

ـ «ومن هم هؤلاء النفر؟ كيف تختارهم؟»

ـ «أنا أختارهم بوصفهم رجالاً حقيقيين ممن يحملون اسمي أنا ـ جاك هو اسمي ـ وممن يعود عليهم المشهد بفائدة. ولكن كفى. أنت إنكليزي. هذا شيء آخر. ابقَ هناك، من فضلك، لحظة صغيرة.»

وفي ايماءة تحذيرية أراد بها أن يردّهم إلى وراء، انحنى مسيو دوفارج ونظر من خلال فجوة الباب. ثم إنه سارع إلى رفع رأسه من جديد وقرع الباب مرتين أو ثلاث مرات، غير مستهدف من وراء ذلك، كما هو واضح، غير إحداث الضجة هناك. وابتغاء الغرض نفسه أجرى المفتاح عبره ثلاث مرات أو أربع قبل أن يولجه، من غير براعة، في القفل ويديره بأقصى ما يستطيع من تثاقل.

وفُتح الباب في بطء نحو الداخل، فألقى مسيو دوفارج نظرة على الغرفة وقال شيئاً. وأجاب صوت واهنٌ بشيء. ولم يكن في الإمكان أن يصدر عن أيٍّ من الجانبين غير مقطع واحد، أو أكثر قليلاً.

والتفت إلى وراء، ودعاهما إلى الدخول. وطوّق مستر لوري خصر الفتاة وأمسك بها. ذلك بأنه استشعر أن قدميها تخذلانها.

فألحّ وقد التمع على خده عرَقٌ ليس من «العمل» في شيء: «مســ... مســ... مسألة عمل! مسألة عمل، أدخلي! أدخلي!»

فقالت وهي ترتعد: «أنا خائفة منها.»

ـ «منها؟ ماذا؟»

ـ «أعني منه. من أبي.»

وفي ضرب من اليأس أوقعه في نفسه مسلك الفتاة ودعاء الخمّار الذي كان يهديهما السبيل، جذب إلى ما فوق عنقه تلك اليدَ المرتعشة على منكبه، ورفع الفتاة قليلاً وأسرع بها إلى الحجرة. ثم إنه أنزلها لدى الباب، وأمسك بها وهي متشبثة به.

وسحب دوفارج المفتاح، وأوصد الباب، وأقفله من داخل، ثم سحب المفتاح كرة أخرى وأبقاه في يده، وإنما فعل ذلك كله على نحو منهجيّ، وبأقصى ما يستطيع من الصخب. وأخيراً عبرَ الحجرة في خطى موزونة إلى حيث كانت النافذة، وهناك وقف واستدار.

كانت العليّة، التي بُنيت لتُتخذ مستودعاً للحطب وما إليه قاتمة مظلمة. ذلك لأن النافذة العمودية الشكل كانت في الحقيقة باباً في السطح عليه رافعةٌ صغيرة لنقل المؤن من الشارع. ولم يكن ذلك الباب مزججاً، وكان ذا مصراعين يُغلقان في الوسط شأن أي باب من صنع فرنسي. ودفعاً للبرد كان أحد مصراعي ذلك الباب محكم الايصاد، والثاني مفتوحاً فتحاً يسيراً جداً. وكان النور المتسرب إلى الحجرة، بسبب من ذلك، ضئيلاً إلى درجة تجعل من العسير على الداخل أن يرى شيئاً، أول وهلة، وتجعل من المتعذر على المرء أن يقوم بأي عمل يقتضي دقة وإحكاماً إلاّ إذا استعان بمران طويل يزوده، في بطء، بالقدرة على ذلك. ومع هذا، فقد كان مثل ذلك العمل جارياً في العليّة، لأنه كان ثمة رجلٌ أشيب أدار ظهره للباب، واستقبل النافذة التي وقف عندها الخمّار، وأنشأ يتأمله جالساً على مقعد خشبي خفيض، منحنياً إلى أمام، منهمكاً في صنع الأحذية انهماكاً شديداً.

- 6 -

صانع الأحذية

- «طاب نهارك!» كذلك قال مسيو دوفارج وهو منحنٍ فوق الرأس الأبيض المنكبّ على صنع الأحذية.

وارتفع الرأس لحظة، وردّ التحية صوت واهن جداً كأنما كان مقبلاً من بعيد.

- «طاب نهارك!»

- «أنت لا تزال مكباً على العمل، في ما أرى؟»

وبعد صمت طويل، ارتفع الرأس فترة أخرى، وأجاب الصوت: «نعم - أنا أعمل.» وكانت عينان ذابلتان قد نظرتا، هذه المرة، إلى السائل، قبل أن ينكّس الرأس من جديد.

وكان الوهن الغالب على ذلك الصوت مثيراً للاشفاق والذعر. إنه لم يكن وهنَ الضعف الجسماني، وإن يكن للسجن وسوء التغذية أثر في ذلك. ولكنه كان وهنَ العزلة وعدم الاستعمال. كان أشبه شيء بآخر صدى واهن من أصداء صوت انطلق منذ عهد بعيد بعيد. لقد فقد روحَ الصوت الإنساني ورنّته فقداناً كلياً حتى لقد غدا يؤثر في الحواس كمثل تأثير لون كان ذات يوم جميلاً ثم حال صبغاً ناصلا. وكان غائراً مكظوماً إلى حد يخيّل إلى المرء أنه ينبعث من باطن الأرض. وكان من الافصاح عن حال صاحبه اليائس المضيّع بحيث يكون جديراً برحالة أضرّ به

الجوع وأضناه الهيام على وجهه في القفر أن يستعير نبرته تلك، ويتذكر بها الوطن والأصدقاء قبل أن يُسلم النفس الأخير.

انقضت بضع دقائق من العمل الصامت، وارتفعت العينان الذابلتان كرة أخرى، في غير ما شوق ولا فضول، ولكن في إدراك ميكانيكي كليل، إدراك سبقيّ، أن تلك البقعة الواقف عندها الزائر الوحيد الذي وقعتا عليه، لمّا تخلُ بعد.

وقال دوفارج، وكان قد سمّر ناظريه على صانع الأحذية: «أريد أن اسمح لمزيد من النور بالدخول إلى هنا. هل تستطيع أن تحتمل مقداراً إضافياً صغيراً منه؟»

وكفّ صانع الأحذية عن عمله، وخفض بصره، كمن يصيخ في ذهول، إلى الجانب الأيمن من أرض الحجرة، ثم إلى الجانب الأيسر منها، ليرفعه بعدُ نحو المتكلم.

- «ماذا قلت؟»

- «هل تستطيع أن تحتمل زيادة ضئيلة من النور؟»

- «يتعيّن عليّ أن أحتملها إذا أدخلتها، (وخلع على الكلمة الأولى ظلاً من التوكيد باهتاً إلى أبعد الحدود) وفتح المصراع غير الموصد فتحاً إضافياً، وثُبّت على تلك الزاوية مؤقتاً. واقتحم العليّة شعاع عريض تكشّف عن صانع الأحذية، وقد تريّث في عمله، وفي حضنه حذاء لم يتم. كانت أدواته القليلة المألوفة ومختلف قصاصات الجلد ملقاة عند قدميه أو فوق منضدة عمله. وكانت له لحية بيضاء، مقصوصة على نحو غير مستو، ولكنها ليست طويلة جداً، ووجه غائر، وعينان براقتان إلى حد بعيد كان هزال وجهه ونحوله يجعلاهما تبدوان واسعتين، تحت حاجبيه اللذين ما يزالان داكنين وشعره الأبيض الأشعث، ولو كانتا غير ذلك في الواقع. ولكنهما كانتا واسعتين خلقة، ولقد بدتا الآن كذلك على نحو غير طبيعي، وكان قميصه الأصفر مفتوحاً عند النحر، كاشفاً عن جسده الذابل البالي. وكانت بشرته، وثوبه القنّبي، وجوربه الرخو،

وأسماله الممزقة كلها قد نصلت ألوانها، بسبب من العزل الطويل عن النور والهواء المباشرين، فغدت وحدة من صفرة كصفرة الرقوق قابضةً للصدر، حتى ليتعذر على المرء أن يميز بعضها من بعضها الآخر.

وكان قد رفع إحدى يديه ليحول بين عينيه وبين النور، فبدت عظامها نفسها وكأنها شفافة. كذلك أقام ناظراً نظرة ذاهلة، منقطعاً عن العمل فترة. إنه ما كان لينظر إلى الوجه الذي أمامه إلاّ إذا خفض بصره أولاً نحو جانبه الأيمن، ثم نحو جانبه الأيسر، فكأنه قد فقد القدرة على الربط ما بين المكان والصوت من طريق التداعي. وما كان ليتكلم من غير أن يتيه أولاً على هذا النحو، وينسى أن يتكلم.

وسأله مسيو دوفارج مشيراً إلى مستر لوري أن يتقدم: «اتعتزم أن تنجز هذا الحذاء اليوم؟»

ـ «ماذا قلت؟»

ـ «أتريد أن تنجز هذا الحذاء اليوم؟»

ـ «لا أستطيع أن أقول إني أريد. أحسب ذلك. لست أدري.»

ولكن السؤال ذكّره بعمله، فانكبّ عليه من جديد.

وفي سكون، تقدم مستر لوري إلى أمام، تاركاً الفتاة لدى الباب. حتى إذا وقف إلى جانب دوفارج، دقيقة أو دقيقتين، رفع صانع الأحذية رأسه. ولم يبدِ أيما دهشة لرؤيته رجلاً آخر، ولكن أصابع إحدى يديه المرتعشة شردَتْ نحو شفتيه فيما هو ينظر إليه (كانت شفتاه وأظافره شاحبة باللون الرصاصي نفسه) ثم انخفضت اليد إلى عمله، وانكبّ مرة أخرى على الحذاء. ولم تستغرق النظرة والحركة غير لحظة واحدة.

وقال مسيو دوفارج: «إن عندك ضيفاً، كما ترى.»

ـ «ماذا قلت؟»

ـ «ههنا ضيفٌ.»

ورفع صانع الأحذية رأسه، فعله من قبل؛ ولكن من غير أن تفارق يده الحذاء.

وقال دوفارج: «تعال! ههنا سيد يعرف الحذاء الجيد إذا رآه. أرهِ هذا الحذاء الذي تصنعه. خذه، أيها السيد.»

وأخذه مستر لوري بيده.

ـ «قل للسيد أي نوع من الحذاء هذا. واسم صانعه.»

وتمهل صانع الأحذية فترة أطول من المعتاد ثم أجاب:

ـ «لقد نسيت عن أي شيء سألتني. ما الذي قلته!»

ـ «قلتُ ألا تستطيع أن تصف نوع الحذاء تنويراً للسيد؟»

ـ «إنه حذاء سيدة. إنه حذاء تلبسه السيدة الصغيرة خارج البيت. وهو مصنوع وفق الزي الحاضر. أنا لم أرَ الزي قط من قبل. كان بين يديّ في وقت مضى صورة عنه.» ونظر إلى الحذاء، وعلت وجهه مسحة عابرة من الاعتزاز.

فقال دوفارج: «واسم صانع الحذاء؟»

وإذ لم يبق في يده عمل يمسك به فقد وضع مفاصل يده اليمنى في تجويف راحة اليسرى، ثم مفاصل اليسرى في تجويف راحة اليمنى، ثم أمرّ يداً عبر لحيته، مداولاً هكذا بين الحركات على نحو نظامي من غير ما توقف البتة. وكانت مهمة انتشاله من الذهول الذي كان يغرق في خضمه كلما تكلم أشبه بانتشال امرئ بالغ الضعف من إغماء، أو محاولة الابقاء على روح امرئ يلفظ أنفاسه الأخيرة، رجاءٌ الفوز بهم قد يكشف عنه.

ـ «هل سألتني عن اسمي؟»

ـ «من الراهن أني فعلت.»

ـ «مئة وخمسة، البرج الشمالي.»

ـ «أهذا كل ما هنالك؟»

ـ «مئة وخمسة، البرج الشمالي.»

وفي صوت متعب ليس هو بالتنهد ولا بالأنين، أكبّ على عمله من جديد، حتى انقطع حبل الصمت كرة أخرى.

وقال مستر لوري مطيلاً النظر إليه: «أنت لست صانع أحذية بالمهنة؟»

وتحولت عيناه الذابلتان إلى دوفارج وكأنما يريد أن يحيل السؤال عليه. حتى إذا لم تقعا في تلك الناحية على عون، انقلبتا إلى السائل بعد أن استطلعتا وجه الأرض.

ـ «أنا لست صانع أحذية بالمهنة؟ لا. لم أكن صانع أحذية بالمهنة. لقد... لقد تعلمتُ ذلك هنا. لقد علّمتُ نفسي. لقد سألتهم أن يأذنوا لي بأن...»

وأخذه الذهول طوال دقائق، موقّعاً دائماً تلك الحركات الموزونة بيديه. وأخيراً ارتدّت عيناه، في بطء، إلى الوجه الذي تاهتا عنه. حتى إذا استقرتا عليه، أجفل، واستأنف حديثه، كنائم استيقظ تلك اللحظة ليتابع الكلام في موضوع الليلة البارحة.

ـ «سألتهم أن يأذنوا لي بأن أعلّم نفسي. فحصلت على الإذن في صعوبة بالغة بعد فترة طويلة. ومنذ ذلك الحين وأنا أصنع الأحذية.»

وفيما بسط الشيخ يده التماساً للحذاء الذي أخذ منه، قال مستر لوري وهو لا يزال يحدق إليه: «مسيو مانيت، ألا تذكرني مطلقاً؟»

وسقط الحذاء على الأرض. وأنشأ الشيخ يحدق ملياً إلى السائل.

ووضع مستر لوري يده على ذراع دوفارج وقال: «مسيو مانيت ألا تذكر شيئاً عن هذا الرجل؟ أنظر إليّ. ألا تنهض في ذهنك صورة مصرفيّ قديم، صورة تعامل ماليّ قديم، صورة خادم قديم، صورة عهد قديم، يا مسيو مانيت؟»

وفيما كان أسير السنوات الطوال ينقّل طرفه من مستر لوري إلى دوفارج ومن دوفارج إلى مستر لوري، بدت على صدر جبينه أمارات ذكاء ناشط انمحت منذ زمن بعيد، وكأنما اقحمت نفسها الآن، اقحاماً تدريجياً، من خلال الضباب الأسود الذي ران عليه في ما مضى.

وغامت تلك الأمارات من جديد، وغدت أقل اشراقاً، ثم زالت آخر الأمر. ولكنها كانت قد برزت على ذلك الجبين. وتكررت الأمارات نفسها على وجه تلك الفتاة الجميلة التي كانت قد تسللت في محاذاة الجدار إلى نقطة أمسى في ميسورها أن تراه منها، فهي تقف هناك ناظرةً إليه، رافعة يدين لم تتحركا بادئ الأمر إلاّ في اضطراب المذعور، إن لم نقل لكي تحولا بين عينيها وبين أن تقعا عليه، ولكنهما انبسطتا الآن نحوه مرتعشتين باللهفة لأن تضعا ذلك الوجه الشبحيّ على صدرها الغض الدافئ، وأن تعيده من طريق الحب إلى الحياة والأمل ـ تكررت تلك الأمارات نفسها (ولكن في أحرف أقوى) على محياها الغض الجميل، حتى لقد بدا وكأنها انتقلت من وجهه إلى وجهها، كالشعاع المنطلق.

كان الظلام قد ران عليه بدلاً منها. ونظر إلى الرجلين، في انتباه متضائل أكثر فأكثر. وفي ذهول قاتم، التمست عيناه الأرض ونظرتا من حوله بالطريقة القديمة نفسها. وأخيراً، وبتنهّدة عميقة طويلة، رفع الحذاء واستأنف عمله.

وتساءل دوفارج في همس: «هل تبيّنتَهُ، أيها السيد؟»

ـ «نعم، لحظةً واحدة. لقد حسبتُ، بادئ الأمر، أن ذلك متعذر، ولكن الذي لا يحتمل الشك أني رأيت، هنيهةً، ذلك الوجه الذي عرفتُهُ في ما مضى معرفةً جيدة. هش! دعنا نبتعد أكثر إلى الوراء. هش!»

كانت قد تقدمت من جدار العلية إلى قريب جداً من المقعد الذي كان يجلس عليه. وكان ثمة شيء مروّع في ذهوله عن الفتاة التي غدا في ميسورها أن تمد يدها، وتمسه فيما هو منكب على عمله.

ولم يُنطَقْ بأيما كلمة ولم يُرسل أيما صوت. لقد وقفت كالطيف، إلى جانبه، وأكب هو على عمله.

واتفق آخر الأمر أن اضطر إلى أن يستبدل مدية الحذّائين بالأداة التي في يده. وكانت تلك المدية الملقاةً في الجانب المقابل لذلك الذي وقفت عنده الفتاة. فما كاد يتناولها ويهم بالعمل من جديد حتى لمحت

عيناه ذيل ثوبها. ورفع عينيه، ورأى إلى وجهها. ووثب مسيو دوفارج ومستر لوري إلى أمام، ولكنها أبقتهما حيث هما بايماءة من يدها. إنها لم تخش أن يضربها بمديته، على حين خشيا هما أن يفعل.

وحدّق إليها بنظرة مذعورة، وبعد برهة شرعت شفتاه تكوّنان بعض الكلمات، وإن لم ينبثق منهما صوتٌ ما. وشيئاً بعد شيء، في هداءات لهاثه المجتهد السريع، سُمع يقول: «ما هذا؟»

وفيما كانت العبرات تسيل على وجهها، وضعت يديها الاثنتين على شفتيها، وقبّلتهما تحيةً له. ثم إنها شبكتهما على صدرها، وكأنما كانت تُريح رأسه المكدود هناك.

ـ «أنت لست ابنة السجّان؟»

فتنهدت وقالت: لا. »

ـ «من أنتِ؟»

وإذ لم تتم لها الثقة بنبرات صوتها، فقد جلست على المقعد إلى جانبه. وتراجع منكمشاً، ولكنها وضعت يدها على ذراعه. وأخذته رجفة غريبة حين فعلت ذلك، وسرت على نحوٍ واضح في جسده كله. ورمى المدية في رفق، وأنشأ يحدق إليها.

كان شعرها الذهبي ذو الغدائر الطويلة الجعدة قد رُدّ، على استعجال، إلى جانب، فتدلى على عنقها. ومد يده قليلاً قليلاً، وأمسك به وأنشأ يتأمله. وفي غمرة من ذلك أصابه ذهول، فأطلق تنهدة عميقة، وانصرف إلى عمله.

ولكن ذلك لم يستمر طويلا. رفعت الفتاة يدها عن ذراعه ووضعتها على كتفه. وبعد أن نظر إليها، في ارتياب، مرتين أو ثلاث مرات، وكأنما يريد أن يتيقّن أنها هناك فعلاً، ترك عمله، ومد يده إلى نحره وأخرج وتراً مسْودّاً اتصلت به قطعة مطوية من قماش بال. وحلّ عقدتها، في عناية، فوق ركبتيه، فإذا بها تنطوي على مقدار ضئيل جداً من الشعر:

شعرة أو شعرتين ذهبيتين طويلتين، ليس غير، كان قد لفهما حول أصبعه، ذات يوم من أيامه السالفة.

وتناول شعر الفتاة بيده، كرةً أخرى، وأنعم النظر فيه، ثم قال: «إنهما متماثلان. كيف يجوز هذا؟ متى كان ذلك؟ كيف كان ذلك؟»

وفيما عاودت أمارات التفكير جبينه، بدا وكأنه أخذ يعي أن تلك الأمارات تعلو جبينها أيضاً. وأدارها نحو النور، وتفرس بها.

ـ «كانت قد ألقت رأسها على كتفي، تلك الليلة، عندما استُدعيت ـ لقد أوجست خيفة من ذهابي، وإن كنت أنا لم أخف ـ وحين استاقوني إلى «البرج الشمالي» وجدوا هاتين الشعرتين على كمّي وقلت لهم: هل لكم أن تتركوهما لي؟ إنهما لا تستطيعان مساعدتي على الهرب، بالجسد، وإن استطاعتا مساعدتي على ذلك بالروح. تلك كانت الكلمات التي قلتها. أنا لا أزال أذكرها جيداً.»

وقد اختلجت شفتاه بهذا الحديث، مرات عديدة، قبل أن يوفق إلى النطق به. حتى إذا عثر على الكلمات الملفوظة التي تعبر عنه انقادت له، على بطنها، في تماسك واطّراد.

ـ «كيف كان هذا؟ أكنتِ أنت إياها؟»

ومرة أخرى، أجفل دوفارج ولوري حين التفت إليها في فُجاءة مروّعة. ولكنها ظلت جالسة بين يديه معتصمة بسكون كامل، وقالت في صوت خفيض: «اتوسل إليكما، أيها السيدان الطيبان، أن لا تقربا منا، أن لا تتكلما، أن لا تتحركا!»

وصاح: «صه! صوت من هذا؟»

ورفع يديه عنها فيما أرسل هذه الصيحة، وانقلب إلى شعره الأبيض فهو يشدّ به وكأنما أصيب بمسّ. ثم زايله ذلك كما زايله كل شيء خلا صنع الأحذية، وأعاد طيّ صرّته الصغيرة وحاول أن يصونها في صدره. ولكنه ظل ينظر إلى الفتاة، ويهز رأسه في اكتئاب.

ـ «لا، لا، لا، أنت صغيرة أكثر مما ينبغي، نضرة الطلعة أكثر مما

ينبغي. هذا غير ممكن. أنظري أيّ رجل هو السجين. هاتان ليستا اليدين اللتين عرفتُهما. هذا ليس الوجه الذي عرفتهُ. وهذا ليس هو الصوت الذي قُدّر لها أن تسمعه. لا، لا. لقد كانت هي وكان هو ـ قبل سنوات «البرج الشمالي» المتباطئة ـ منذ أجيال وأجيال. ما اسمك، يا ملاكي الكريم؟»

وابتهاجاً بهذه الدماثة التي تجلت في نبرته ومسلكه، خرّت ابنته على ركبتيها أمامه، واضعةً يديها المبتهلتين فوق صدرها.

ـ «أوه، يا سيدي، في وقت آخر ستعرف اسمي، ومن كانت أمي، ومن هو أبي، وكيف أني لم أعرف قصتهما الموجعة، الموجعة، ولكني لا أستطيع أن أحدثك بذلك الآن، لا أستطيع أن أحدثك به في هذا المكان. كل ما أستطيع أن أقوله لك، الآن وفي هذا المكان، إني اتضرّع إليك أن تلمسني وتباركني. قبلني، قبلني! أوه، يا عزيزي، يا عزيزي!»

واختلط شعر رأسه البارد بشعرها المشعّ فأدفأه وأضاءه وكأنما اشرق عليه نور الحرية.

ـ «إذا وجدت في صوتي ـ أنا لا أعرف أنه كذلك، ولكني أرجو أن يكون ـ إذا وجدتَ في صوتي إيما شبه بصوت كان في يوم من الأيام موسيقى عذبة في أذنيك فابكِ من أجل ذلك، ابكِ من أجل ذلك! وإذا لمست، إذ تلمس شعري، شيئاً يذكركَ برأس أثير لديك كان يتوسد صدرك وأنت بعدُ شاب تتمتع بالحرية فابكِ من أجل ذلك، إبكِ من أجل ذلك! وإذا ما أعدتُ إلى مخيلتك ـ إذ ألمع أمامك إلى بيت ينتظرنا، حيث سأكون برّة بك مخلصة لك ـ ذكرى بيت اقفر منذ عهد بعيد فيما كان فؤادك التعس يذوب شوقاً إليه فابكِ من أجل ذلك، ابكِ من أجل ذلك!»

وأحكمت تطويق عنقه، وأنشأت تهزّه على صدرها وكأنه طفل صغير.

ـ «وإذا كان في إخباري إياك، يا أعز عزيز، أن عذابك قد انقضى، وإني جئت إلى هنا لأبعدك عنه، وإنّا ذاهبان إلى إنكلترة لنحيا في أمن ودعة ـ إذا كان في هذا كله ما يحملك على التفكير في حياتك النافعة وكيف ضُيعت، وفي وطننا فرنسة وكم قد كان بالغ الإساءة إليك، فابكِ من أجل ذلك، إبكِ من أجل ذلك! وإذا كنت ستعرف ـ حين ابوح لك باسمي، وباسم أبي الذي ما يزال حياً، وأمي التي قضت نحبها ـ أن عليّ أن أركع لوالدي المبجل وألتمس عفوه لأني لم أناضل قط في سبيله، بياض النهار، ولم أسهر وأسفح الدمع، سوادَ الليل، لأن حب أمي الشقية لي حملها على أن تخفي عذابه عني، فابكِ من أجل ذلك، ابكِ من أجل ذلك! بل ابكِ من أجلها، وابكِ من أجلي، أيها السيدان الطيبان، اشكرا الله! أنا أستشعر عبراته الطاهرة على وجهي، وتنهداته تتردد فوق فؤادي. أوه، أنظرا! اشكر الله من أجلنا، اشكر الله!»

وكان قد غار بين ذراعيها، وهوى وجهه على صدرها. وكان ذلك مشهداً مؤثراً إلى أبعد الحدود، ومروّعاً إلى أبعد الحدود، نظراً لما قد تصرّم قبله من ظلم هائل وعذاب طويل، حتى لقد حجب الرجلان اللذان شهدا الموقف وجهيهما بأيديهما.

حتى إذا ران السكون على العلية فترة طويلة، واستراح صدره الخافق وجسده المرتعد إلى الهدوء الذي لا بدَّ أن يعقب العواصف جميعاً ـ حتى تلك العاصفة التي ندعوها الحياة والتي لا بدَّ أن تنتهي إلى السكون والصمت ـ تقدم الرجلان ليرفعا الأب والبنت عن الأرض. كان قد هوى إلى أرض العلية، شيئاً بعد شيء، وانطرح هناك فاقد الرشد، موهن العزيمة. وكانت قد استكنّت هابطة معه لكي يظل رأسه متوسداً ذراعها. وتدلى شعرها فوق جسمه، فحجبه عن النور.

قالت، رافعة يدها لمستر لوري فيما انحنى فوقهما، بعد أن تمخط عدة مرات: «إذا كان في الإمكان إعداد كل شيء، من غير أن نزعجه، لمغادرة باريس في الحال، بحيث تبدأ الرحلة من هذا الباب...»

فسألها مستر لوري: «ولكن، على رسلك. اقادرٌ هو على احتمال الرحلة؟»

ـ «إنه أقدر على احتمال الرحلة منه على احتمال البقاء في هذه المدينة التي توقع الرعب في قلبه إلى أبعد الحدود.»

فقال دوفارج الذي كان راكعاً لكي يتمكن من النظر والسماع: «هذا صحيح. إن من الخير لمسيو مانيت، لاعتبارات عديدة، أن يحيا خارج فرنسة. هل أستأجرُ عربة وجياداً؟»

فقال مستر لوري مستأنفاً، في الحال، مسالكه النظامية: «هذه أعمال تجارية. وإذا لم يكن بدٌ من القيام بالأعمال التجارية فأنا أوثر أن انهض بها بنفسي.»

فألحّت مس مانيت: «تكرّما واتركانا هنا. إنكما تريان مبلغ الطمأنينة التي تمّت له، وليس لكما بعدُ أن تخشيا تَرْكه معي. وأيّ داعٍ للخوف؟ وإذا ما أقفلتما الباب لكي لا يدخل علينا أحد فلستُ أشك في أنكم ستجدانه، ساعةَ ترجعان، على مثل هدوئه ساعةَ فارقتماه. وأياً ما كان، فسوف أعنى بشأنه حتى ترجعا، وعندئذ نمضي به على الفور.»

ولم ترتح نفس كل من مستر لوري ودوفارج لهذه الخطة، إذ كانا يريان ضرورة بقاء واحد منهما إلى جانب السجين وابنته. ولكن، لما لم تكن المسألة مسألة استئجار عربة وجياد فحسب، بل مسألة إعداد لأوراق السفر أيضاً، ولما لم يكن ثمة متسع من الوقت، بعد أن آذن النهار بالانتهاء، أو كاد، فقد انتهيا آخر الأمر إلى أن يتوزعا الأعمال التي تقتضيها الرحلة وينطلقا في انجازها.

حتى إذا أطبق الظلام على العلية ألقت الفتاة رأسها على الأرض الصلبة، إلى جانب أبيها، وانشأت تراقبه. واحلولك الظلام واحلولك، وأقاما كلاهما على السكون حتى التمع ضوء من خلال شقوق الجدار.

وكان مستر لوري ومسيو دوفارج قد أعدّا أسباب الرحلة كلها،

وكانا قد حملا معهما، فضلاً عن الدُّثُر وعباءات السفر، خبزاً ولحماً وخمراً وقهوة ساخنة. ووضع مسيو دوفارج هذه المؤونة، والمصباح الذي كان يحمله على منضدة صانع الأحذية (ولم يكن في العلية غيرها وغير فراش من قش)، وأيقظ هو ومستر لوري السجين وساعداه على الوقوف.

وما كان في وسع الذكاء البشري أن يقرأ أسرار عقله من خلال ذلك الدهش الأبكم المذعور الذي ران على وجهه. أفهم ما الذي حدث؟ أتذكّر ما قاله له؟ أعرف أنه مطلق السراح؟ كل هذه أسئلة ما كان في طاقة الفراسة أن تحلها. لقد حاولا أن يكلماه، ولكنه كان موزع الذهن، بطيء الإجابة حتى لقد أخذهما الرعب لذهوله، واتفقا على أن يتركاه وشأنه، إلى حين. كان بين الفينة والفينة يضغط بيديه على رأسه، ذاهلاً شارد اللب؛ وهي ظاهرة لم يتكشّف عنها من قبل. ومع ذلك، فقد وجد بعض الحبور في نبرة ابنته، فهو يلتفت نحوها كلما تحدثت.

وبروح الأذعان التي تتمّ لمن تعوّد أن يخضع، تحت وطأة الاكراه، أكل وشرب ما سألاه أن يأكله ويشربه، وارتدى العباءة وتزمّل بالدثر التي قدّماها إليه. واستجاب بطيبة خاطر لرغبة ابنته في أن تضع ذراعها في ذراعه، وأمسك يدها بيديه الاثنتين لا يفارقها أبداً.

وبدأوا يهبطون السلّم. كان مسيو دوفارج يتقدمهم حاملاً المصباح، وكان مستر لوري في مؤخرة الموكب الصغير. ولم يكادوا يهبطون عدة درجات من السلم الرئيسية الطويلة حتى وقف، وحدّق إلى السطح وإلى الجدران من حوله.

ـ «أتذكر هذا المكان، يا أبي؟ أتذكر أنك جئت إلى هنا؟»

ـ «ماذا قلتِ؟»

وقبل أن توفّق إلى إعادة السؤال غمغم قائلاً وكأنها كررت سؤالها ذلك: «أذكر؟ لا، أنا لا أذكر. لقد كان ذلك منذ عهد بعيد جداً.»

كان واضحاً لديهم أن السجين لا يذكر أقلّ الذكر أنه نقل من محبسه إلى ذلك البيت. لقد سمعوه يتمتم: «مئة وخمسة، البرج الشمالي»، وحين أجال بصره في ما حوله كان بيّناً أنه يلتمس جدران تلك القلعة الحصينة التي أحدقت به دهراً طويلاً. حتى إذا انتهوا إلى الفناء عدّل خطوه على نحو غريزي وكأنما يتوقع أن يعبر الجسر المتحرك. وإذ لم يجد أيما جسر متحرك، ورأى إلى العربة تنتظر في عرض الطريق، أفلت يد ابنته وانشأ يضغط بيديه على رأسه، كرةً أخرى.

ولم يكن حشدٌ ما لدى الباب؛ ولم يكن في أيّ من النوافذ الكثيرة شخص ما، بل لم يكن في الطريق حتى عابر سبيل واحد. لقد هيمن إقفار شامل وصمت غير طبيعي. وما كانت لتُرى في تلك اللحظة غير نفس واحدة، وتلك هي مدام دوفارج، وكانت مستندة إلى عمود الباب، تحبك صوفها ولا ترى، في ما يبدو، شيئاً ما.

وامتطى دوفارج متن العربة إلى جانب السائق وأصدر أمره قائلاً: «إلى باب المدينة.»

وألهب السائق أفراسه بالسوط فانطلقت بهم العربة، مطقطقة مبربرة تحت المصابيح الواهنة المتأرجحة.

تحت المصابيح المتأرجحة ـ المتأرجحة أكثر ما تكون اشراقاً في الشوارع الحسنة وأكثر ما تكون قتامةً في الشوارع الأشد رداءة ـ وعبر الدكاكين المضاءة، والحشود المبتهجة، والمقاهي المتلألئة، ومداخل المسارح، إلى أحد أبواب المدينة.

وهناك، في ركن الحرس، قال الجند الحاملون للفوانيس: «أوراقكم، أيها المسافرون!»

فما كان من دوفارج إلاّ أن ترجل من العربة وانتحى بالضابط مكاناً وقال في ترصّن: «أنظر إلى هنا، إذن، يا سيدي الضابط، هذه أوراق السيد الذي في داخل العربة، السيد ذي الرأس الأشيب. لقد استُودعتُها، واستودعتُهُ، في الـ . . .» وخفض صوته. واضطربت

الفوانيس العسكرية، وأقحمت ذراع ترتدي ثوباً حربياً، واحداً من تلك الفوانيس في داخل العربة. ونظرت العينان المتصلتان بالذراع نظرة، ليست من النوع المألوف في كل يوم، ولا من النوع المألوف في كل ليلة، إلى السيد ذي الرأس الأشيب. وقال الضابط: «حسن. إلى الأمام!» فأجابه: دوفارج: «إلى اللقاء!» وهكذا تقدمت العربة بهم تحت غيضة صغيرة من مصابيح متأرجحة كانت تزداد وهناً على وهن، حتى افضت بهم إلى غيضة الكواكب العظمى.

ومضوا تحت قبة الأضواء الأبدية الثابتة، التي يبعد بعضها عن هذه الأرض الصغيرة بعداً بالغاً حمل الراسخين في العلم على إخبارنا بشكّهم في أن أشعة تلك الأجرام قد وفّقت حتى الآن إلى اكتشاف أرضنا هذه، بوصفها نقطة في فضاء حيث يُعاني كل شيء ويُعمَل كل شيء. وكانت ظلال الليل عريضة سوداء. وطوال الفترة الباردة القلقة، حتى الضحى، انشأت هذه الظلال تهمس في أذني مستر جارفيس لوري، (وكان جالساً تجاه الرجل الدفين الذي نُقب القبر عنه، غيرَ دارٍ أيّ قواه البارعة قد ضاعت إلى الأبد، وأيها لا يزال في الإمكان بعثها) ذلك السؤال القديم: «أرجو أن تكون راغباً في الحياة؟»

ليطرق أذنيه الجواب القديم: «أنا لا أستطيع أن أقطع في ذلك.»

الكتاب الثاني

الخيط الذهبي

ـ 1 ـ

بعد خمس سنوات

كان مصرف تلسون القائم قرب «تامبل بار» مكاناً قديم الطراز حتى في سنة ثمانين وسبعمئة بعد الألف. كان صغيراً جداً، مظلماً جداً، قبيحاً جداً، ضيقاً جداً. وكان فوق ذلك مكاناً قديم الطراز من الناحية المعنوية أيضاً حتى لقد كان أصحابه يفخرون بصغره، ويفخرون بظلمته، ويفخرون بقباحته، ويفخرون بضيقه. بل لقد كانوا يعتزون بامتيازه في هذه الصفات، ويؤمنون إيماناً راسخاً بأنه لو كان ذلك المصرف ذا مساوئ أقلّ اذن لكان أقل احتراماً في أعين الناس. ولم يكن موقفهم هذا مجرد إيمان سلبيّ، ولكنه كان سلاحاً فعالاً يشهرونه على المصارف الأخرى التي تتمتع بأسباب الراحة أكثر من مصرفهم، فهم يقولون إن مصرف تلسون في غير ما حاجة إلى سعة في المكان؛ وإن مصرف تلسون في غير ما حاجة إلى ضوء؛ وإن مصرف تلسون في غير ما حاجة إلى زخرف. قد يحتاج إلى ذلك مصرف نوكس وشركاه، وقد يحتاج إليه مصرف الأخوة سنوكس، أما مصرف تلسون ففي غنى عن هذا كله، والحمد لله! . . .

وكان أيّ من أصحاب مصرف تلسون يمكن أن يحرم ابنه الميراثَ إذا ما طالب بتجديد بناء تلك المؤسسة المالية. وبذلك كان المصرف صنواً للدولة التي عمدت في كثير من الأحيان إلى حرمان أبنائها الميراث لاقتراحهم ادخال بعض الاصلاحات على القوانين والعادات التي كانت منذ عهد بعيد محلّ اعتراضٍ صارخ، والتي لم يزدها هذا الاعتراض الصارخ إلاّ رسوخاً واحتراماً.

وهكذا انتهى مصرف تلسون إلى أن يكون عنوان اللاملاءمة الفخم وغاية غاياتها. فما تكاد تدفع باباً يبدهك بعناده المخبول وبذلك الصرير الواهن الذي في حنجرته، حتى تهبط درجتين تُلفي نفسك بعدهما، وقد عاودك الرشد، في دكان صغير حقير، ذي منضدتين ضئيلتين حيث ترتعش بـ «الشيك» الخاص بك أيدي رجالٍ طعنوا في السنّ، وكأن الريح تعبث به، فيما هم يفحصون التوقيع على ضوء نوافذ ليس في وسع المرء أن يتخيل ما هو أشد منها قتاماً، نوافذ يجود عليها «فليت ستريت» بوابل من الوحل لا ينقطع، وتزيدها ظلمةً قضبانُها الحديدية ذاتها، وظلُّ «تامبل بار» الثقيل. وإذا كان عملك يحتم عليك أن ترى مدير المؤسسة وُضعتَ في ضربٍ من المحبس لعينٍ قائم في المؤخرة حيث تتأمل في حياة ذهبت هدراً، إلى أن يأتيك المدير ويداه في جيبه فلا تكاد تراه في الغسق الكئيب إلاّ بشق العين. وكانت أموالك تخرج أو تدخل إلى أدراج خشبية بالية يعشش فيها الدود وتتطاير ذرات منها نحو أنفك وتنزلق في حنجرتك كلما فُتحت أو أوصدت. وكانت أوراقك المالية ذات رائحة عفنة فكأنما هي تنحلّ على نحوٍ عاجل لتنقلب مرّةً أخرى إلى خرق بالية. وكانت آنيتك الفضية أو الذهبية تُحشر بين المراحيض المجاورة. فما تلبث المواصلات الشريرة أن تذهب برونقها في يوم أو يومين. وكانت وثائقك وصكوكك تمضي إلى غرف ارتُجلت ارتجالاً، وكانت من قبلُ مطابخ أو مخازن لأدوات المطابخ، فهي تنفث جميع الدهن العالق بأوراقها في هواء المصرف. أما صناديقك الأخف ثقلاً، المشتملة على الأوراق العائلية فكانت تُنقل إلى دورٍ علوي فتوضع في غرفة برمكية(*)

(*) يقال في الاصطلاح الإنكليزي «وليمة برمكية» بمعنى وليمة وهمية. ومرد ذلك عندهم إلى ما ورد في بعض حكايات ألف ليلة وليلة من أن أميراً من أمراء هذه الأسرة الفارسية الشهيرة دعا ذات يوم شحاذاً إلى وليمة وهمية تتألف من صحون فارغة. أما عند العرب فمن المعروف أن لفظ «البرمكي» يكاد يرادف لفظ الجواد المسرف في الجود. (المعرب)

كانت تزدهي دائماً بمائدة ضخمة ولكنها لم تشهد في يوم من الأيام وليمةً ما. وهناك في تلك الغرفة كانت أولى الرسائل التي خطتها لك حبيبتك العجوز، أو خطّها لك أولادك الصغار قد نجت منذ فترة قريبة، حتى في سنة ثمانين وسبعمئة بعد الألف، من هولٍ فظيع كان يجعلها عرضةً لأن تنظر إليها، من خلال النوافذ، تلك الرؤوس المعروضة فوق «تامبر بار» في وحشية وضرواة فاقدتي الحسّ، جديرتين ببلاد الحبشة وأشانتي.(*)

ولكن الواقع أن عقوبة الموت كانت في ذلك الزمان وصفة شائعةً لجميع الجرائم المتصلة بالصنائع والمهن على اختلافها، ولم تكن الجرائم المتصلة بمصرف تلسون بأقلها شأناً. وإذا كان الموت هو علاج الطبيعة للأشياء كلها فلم لا يكون علاجَ التشريع كذلك! وهكذا كان الذي يزوّر التواقيع يساق إلى الموت؛ وكان الذي يروّج الأوراق النقدية المزوّرة يساق إلى الموت؛ وكان الذي يفتح رسالةً لا يجيز له القانون فتحها يساق إلى الموت؛ وكان مختلس الأربعين شلناً وستة بنسات يساق إلى الموت؛ وكان الرجل الذي يُعهد إليه في حراسة فَرَس أمام باب مصرف تلسون فيفر به يساق إلى الموت؛ بل إن ثلاثة أرباع الذين كانوا يقترفون الجريمة على اختلاف أشكالها كانوا يساقون إلى الموت أيضاً.

وما كان ذلك لأن هذه العقوبة كان لها أيما أثر زجريّ مهما يكن ضئيلاً ـ فالشيء الذي تجدر ملاحظته أن نتائجها كانت عكس ذلك تماماً ـ ولكن لأنها كانت تحسم (في ما يتصل بهذا العالم على الأقل) بلاء كل قضية من القضايا فلا تترك شيئاً منها معلّقاً يمكن أن يعاد النظر فيه بعدُ. وهكذا أهلكَ مصرف تلسون في أيامه، شأن المؤسسات التجارية الكبرى المعاصرة له، كثيراً من الأرواح بحيث لو صُفّت تلك

(*) مستعمرة بريطانية في غرب أفريقية وهي تؤلف جزءاً من الشاطئ الذهبي. عاصمتها كوماسي. (المعرب)

الرؤوس التي أنزل بها حكم الموت فوق «تامبل بار» بدلاً من التخلّص منها سراً، إذن لكان من الجائز أن تحجب عن الدور الأرضي من المصرف ذلك القدر الضئيل الذي يصيبه من نور الشمس.

وكان موظفو هذا المصرف شيوخاً حُشروا وسط ضروب من الخزائن والصناديق القاتمة، فهم يصرّفون الأعمال في رصانة ووقار. وكان القيمون على مركز المصرف في لندن إذا ما أرادوا توظيف رجل شاب في مؤسستهم أخفوه في مكان ما حتى تصبح له نكهة المصرف وطابعُهُ. وعندئذ فقط كانوا يجيزون له أن يبرز للعيان، منكباً على الدفاتر الضخمة انكباباً يثير الدهش، ويكيّف بنطلونه وغطاء ظاهر قدمِهِ وفقاً لأهمية المؤسسة ومكانتها.

خارج مصرف تلسون ـ لا داخله بأية حال، إلاّ إذا دُعي إلى هناك ـ كان رجلٌ ذو وظيفة غريبة؛ فهو حاجب حيناً، ورسول حيناً، وهو يؤدي أيضاً مهمة العلامة الحية بالنسبة إلى المؤسسة. وما كان ليفارق مكانه أبداً أثناء ساعات العمل، إلاّ إذا عُهد إليه في نقل رسالة ما، وعندئذ ينوب ابنه منابه: غلام شرير متجهم الوجه في الثانية عشرة، هو صورة طبق الأصل عن أبيه. وأدرك الناس أن مصرف تلسون قد تسامح، على نحو مهيب، مع ذلك الرجل ذي الوظيفة الغريبة. وكانت المؤسسة تتسامح دائماً مع شخص ما ينهض بمثل هذه الأعباء، وقد قذف الزمن والمدّ هذا الرجل إلى الوظيفة. كان ملقباً بـ «كرانتشر». ولمناسبة نبذه المبكر، من طريق التفويض، النشاطَ الليلي الطائش، في كنيسة أبرشية هاوندزديتش الشرقية، تلقّى اسم «جيري» الإضافي.

أما المشهد الذي نريد تصويره الآن فكان يجري في بيت مستر كرانتشر الخاص في «زقاق السيف المصلت»، في «هوايتفرايرز». وأما زمانه فالساعة السابعة والنصف من صباح يوم عاصف من أيام آذار، سنة ألف وسبعمئة وثمانين لميلاد سيدنا المسيح Anno Domini (وكان مستر كرانتشر ينطق بهذا التعبير محرّفاً هكذا Anna Dominoes وكأنه

يتوهم أن التقويم المسيحي يبدأ منذ أن اخترعت إحدى السيدات لعبة شعبية(*) خلعت اسمها عليها.)

ولم يكن منزل مستر كرانتشر في حيّ طيب، وكأنه يتألف من غرفتين اثنتين ليس غير إذا جاز اعتبار حُجيرة ليس فيها إلاّ لوح زجاجي واحد، غرفةً. ولكنّ مظاهر النظافة كانت تبدو على البيت. ففي ذلك الصباح الباكر، العاصف من أيام آذار، كانت أرض الغرفة التي اضطجع فيها قد غُسلت وفركت فركاً شديداً. وبين الفناجين والصحون الصغيرة المعدة لتناول الفطور وبين المائدة الضخمة الثقيلة المصنوعة من خشب الشوح، كان قد نشر غطاء أبيضُ نظيف جداً.

اضطجع مستر كرانتشر تحت لحاف خفيف صُنع من قطع متفرقة من القماش، فكأنه مجّان في بيته؛ لقد نام بادئ الأمر نوماً ثقيلاً، ولكنه صار يتقلب، في الفراش، ويتلاطم، حتى برز آخر الأمر فوق السطح، وقد بدا شعره الشائك وكأنه يعتزم أن يمزّق الغطاء إرباً إرباً. وهنا، صاح في صوت ينضح بالسخط الراعب: «لعنني الله إن لم تكن قد عاودتْ ذلك كرة أخرى!»

وفي عجلة ورعدة كافيتين للكشف عن أنها هي الشخص المقصود بالكلام، نهضت امرأة يدلّ مظهرها على حب النظام والعمل، من زاوية كانت راكعة فيها.

وقال مستر كرانتشر وقد غادر فراشه ملتمساً فردة حذاء عالي الساق: «ماذا؟ لقد عدتِ سيرتك الأولى. أليس كذلك؟»

وبعد أن رحّب بالصباح بهذه التحية الثانية، قذف المرأة بفردة الحذاء بوصفها التحية الثالثة. كانت فردة موحلة جداً تؤذن بظاهرة غريبة هي أن مستر كرانتشر كان كثيراً ما يرجع إلى البيت، بعد انتهاء ساعات

(*) يقصد لعبة الدومينو، كما هو واضح. (المعرب)

الدوام في المصرف. بحذاء نظيف، ليفيق في الصباح التالي فيجد الحذاء نفسه مغطى بالوحل.

وقال مستر كرانتشر مغيراً صيغة الخطاب بعد أن أخطأ مرماه: «ماذا؟ ما الذي تبتغين أن تفعليه؟»

ـ «كنت اؤدي صلواتي، ليس غير.»

ـ «تؤدين صلواتك! إنك امرأة رائعة! ما الذي تقصدينه من الركوع على ركبتيك والدعاء عليّ؟»

ـ «ما كنت أصلي ضدك. لقد صليت من أجلك.»

ـ «لا، أنت لم تصلي من أجلي ولو فعلت لما كنتُ في مثل هذه الحال البائسة. أنظر، يا جيري الصغير! إن أمك امرأة رائعة حقاً. إنها تجثو على ركبتيها سائلة الرب أن يحرم أباك عيشه الرغد. الواقع أن لك أماً بارة يا بني. أجل إن لك أماً ورعة يا بنيّ: فهي تركع وتصلي لكي يُنزع الخبز والزبدة من فم ولدها الوحيد.»

واستاء «المعلم كرانتشر» (وكان يرتدي قميصاً ليس غير) من هذه الحال وطالب في قوة بان تُبعد الصلوات على اختلاف ضروبها عن مائدته الشخصية.

وقال مستر كرانتشر في تناقض لا واع: «أي قيمة تتوهمينها لصلواتك، أيتها الأنثى المغترّة بنفسها؟ عيّني السعر الذي تبيعين به صلواتك.»

ـ «إنها صادرة عن القلب ليس غير، يا جيري. إنها لا تساوي كثيراً، إذن. وسواء أكان ذلك أم لم يكن فلست اسمح أن يُصلى ضدي، أقول لك. أنا لا أطيق ذلك. أنا لا أريد أن أمسي رجلاً سيء الطالع بسبب من غدرك وخسّتك، وإذا لم يكن بدًّ من أن تخرّي راكعة على الأرض فليكن ركوعك لمصلحة زوجك وابنك، لا ضدّهما. ولو كان لي زوجة غيرك ـ زوجة وليس امرأة غير طبيعية ـ ولو كان لهذا الولد البائس

أمّ غيرك ـ أمّ ليس امرأة غير طبيعية ـ إذن لكسبت بعض المال في الأسبوع الماضي بدلاً من أن يُدعى عليّ، وتوضع في طريقي العقبات، ويُمكَر بي دينياً حتى أمنى بالحظ الأسوأ.» قال مستر كرانتشر ذلك، وهو يرتدي ملابسه، ثم أضاف: «لعنني الله، إذا لم يكن الورع وأشياء أخرى لعينة قد فرضت عليّ اردأ حظ تعثّر به شيطانُ تاجرٍ أمين. إلبس ثيابك، يا جيري الصغير، وفيما أنا انظف حذائي راقب، يا بنيّ، أمك بين الفينة والفينة، وإذا رأيت أيما علامة تدل على أنها سوف تستأنف السجود فادعُني. ذلك أني أقول لك،» وهنا وجّه الخطاب إلى امرأته كرة أخرى، «أنا لن أحارب بهذه الطريقة. أنا كسيح مثل عربة أجرة. أنا ناعس مثل صبغة الأفيون. وأسارير وجهي مجهدة إلى درجة تجعلني لا أميز، لولا الألم الذي أحسه فيها، ما بين شخصي وأشخاص الآخرين. ومع ذلك فليست جيوبي أحسن حالاً. ويخيّل إليّ أنكِ انقطعت للركوع من الصباح حتى المساء لكي تحولي بين المال وبين جيوبي. أنا لن أصبر على ذلك، أيتها المرأة اللعينة، فما قولك الآن؟»

وهرّ، فوق ذلك، بجمل من مثل: «آه! أجل، أنتِ متدينة أيضاً. إنك لن ترضي لنفسك أن تكوني حجر عثرة في طريق زوجك وابنك، أليس كذلك؟ غيرك قد يرضى ذلك ولكن ليس أنت!». وفيما هو يقذف من زناد سخطه بشرارات أخرى ساخرة، انصرف إلى تنظيف حذائه الطويل الساق وإلى اتمام استعداداته للذهاب إلى مقر عمله. وفي الوقت نفسه نهض ابنه ـ المزخرَفُ رأسُهُ بأشواك أكثر لطفاً، القريبةُ إحدى عينيه من الأخرى، شأن أبيه ـ بالمهمة التي اسندت إليه، فهو يراقب أمه مراقبة شديدة. ولقد أزعج بين الفينة والفينة تلك المرأة المسكينة إزعاجاً بالغاً بأن كان ينطلق من حجيرة نومه حيث كان يسرّح شعره، صائحاً صيحة مكظومة: «أنت على وشك أن تركعي يا أمي. . . تعال، يا أبي، هيا!» حتى إذا أرسل هذا الانذار الكاذب انطلق عائداً إلى حجرته وعلى محياه ابتسامة عاقة.

ولم تكن ثائرة مستر كرانتشر قد هدأت عندما أقبل ليتناول الفطور. فتبرّم في كثير من الغيظ، بدعاء المائدة الذي غمغمت به مسز كرانتشر، وقال: «والآن، أيتها المرأة اللعينة، ماذا تحاولين أن تفعلي؟ هل عدت إلى الصلاة من جديد؟»

فأوضحت له امرأته أنها لم تزد على أن «التمست البركة.»

ـ «حذار أن تفعلي ذلك!» قال مستر كرانتشر هذا، وأجال الطرف في ما حوله وكأنه توقع أن يرى إلى الرغيف يختفي بسبب من ابتهالات زوجته. ثم أضاف: «أنا لا أريد أن يُنعَم عليّ بالطرد من بيتي ووطني. أنا لا أريد أن يطير طعامي عن مائدتي. إلزمي السكون!»

وفي تجهم في الوجه واحمرار بالغ في العينين، وكأنما قضى ليلته في سهرة اتخذت كل اتجاه ما خلا اتجاه السرور والطرب، أمسك مستر كرانتشر بخناق طعامه يوسعه قضماً وتمزيقاً بدلاً من أن يأكله كما يأكل الناس ألوان الغذاء ـ هارّاً عليه مثل أيّ من ذوات الأربع في محبسها. وحوالى الساعة التاسعة، سوّى من مظهره المتغضّن، ثم انطلق إلى عمله اليومي بعد أن خلع على ذاته الطبيعية أقصى ما يستطيع أن يخلعه من مظاهر الرصانة ووقار العمل.

ومن العسير أن نعدّ عمله اليومي ذاك حرفة، برغم حرصه على التحدث عن نفسه بوصفه «تاجراً أميناً.» وكانت بضاعته تتألف من كرسي خشبي لا ظهر له، كرسيّ عاديّ تحطم ثم قُصّرت قوائمه. وكان جيري الصغير يسهر كل صباح إلى جانب أبيه حاملاً ذلك الكرسي إلى ما تحت نافذة المصرف الأكثر قرباً من «تامبل بار»، ليشكل (بالإضافة إلى أول حفنة من القش تُلتقط من أيما عربة عابرة وقايةً لقدمي الرجل الغريب المهنة من أذى البرد والرطوبة) معسكر صاحبنا طوال النهار. وفي مقره ذاك كان مستر كرانتشر شهيراً عند المختلفين إلى «فليت ستريت» وإلى الـ «تامبل» شهرة «البار» نفسه، قبيحاً مثله أو يكاد.

وإذ انتهى جيري إلى المصرف في الساعة التاسعة إلاّ ربعاً، ـ وهذا

ما مكنه من أن يرفع قبعته المثلثة الزوايا تحية للموظفين الشيوخ الوافدين على مراكز عملهم ـ أقام في مقره المعتاد، ذلك الصباح العاصف من شهر آذار، وقد وقف إلى جانبه جيري الصغير. وكان هذا مولعاً بالكرّ على الـ «البار» حتى إذا مل من ذلك راح يُنزل ضروباً من الأذى الجسماني والذهني القاسي بعابري السبيل من الغلمان الذين كانوا أصغر من أن يفقهوا أغراضه اللطيفة. وانشأ الأب وابنه ـ وكانا متماثلين إلى حد بعيد ـ يستعرضان في صمت نشاط الحركة الصباحي في «فليت ستريت»، وقد تقارب رأساهما بقدر تقارب العينين في كل منهما، فكأنهما زوجان من القردة. ولم يضعف وجه الشبه بسبب من هذا الحادث الطارئ الذي جعل جيري الكبير يعضّ القش ويلفظه، فيما كانت عينا جيري الشاب المتألقتان لا تنفكان تراقبانه على نحو موصول كما تراقبان أيما شيء آخر في «فليت ستريت».

ومن الباب أطل رأس أحد السعاة الداخليين النظاميين الذين يعملون في مصرف تلسون، وقال: «هناك عمل ينتظرك!»

ـ «بشراك، يا ابتِ! ها قد جاءك العمل باكراً اليوم!»

وإذ تمنى بذلك رحلة طيبة لأبيه، جلس جيري الصغير على الكرسي الذي لا ظهر له، وانشأ يستمتع بالقش الذي كان أبوه يمضغه، واستغرق في التأمل.

ـ «صدئة دائماً! إن أصابعه صدئة دائماً!» كذلك غمغم جيري الصغير. «من أين يأتي أبي بصدأ الحديد هذا كله؟ هنا لا يوجد صدأ حديد على الاطلاق!»

ـ 2 ـ

مشهد

ـ «أنت تعرف «أولد بيلي»(*) جيداً من غير شك» كذلك قال أحد موظفي المصرف الشيوخ لجيري الرسول.

فأجابه جيري في نبرٍ شبه معاند: «نعم، يا سيدي، أنا أعرف «أولد بيلي.»

ـ «حسن، وأنت تعرف مستر لوري.»

فقال جيري في نبرة لا تختلف عن نبرة من أكره على الشهادة أمام تلك المحكمة: «أنا أعرف مستر لوري، يا سيدي، أكثر بكثير مما أعرف «أولد بيلي». أكثر بكثير مما أريد أن أعرف، بوصفي تاجراً أميناً، أولد بيلي.»

ـ «حسن جداً. إبحث عن الباب الذي يدخل منه الشهود، واطلِع الحاجب على هذه المذكرة المرسلة إلى مستر لوري. وعندئذ يسمح لكَ بالدخول.»

ـ «إلى المحكمة، يا سيدي؟»

ـ «إلى المحكمة.»

وبدت عينا مستر كرانتشر وكأنهما تزدادان تقارباً وتتبادلان السؤال: «ما رأيك في هذا؟»

(*) Old Bailey محكمة الجنايات الرئيسية في لندن. (المعرب)

وتساءل نتيجة لذلك التشاور: «وهل سأنتظر في المحكمة، يا سيدي؟»

ـ «سأقول لك. إن الحاجب سوف يوصل المذكرة إلى مستر لوري، وليس عليك إلاّ أن تقوم بإيماءة ما، تلفت نظر مستر لوري وتُريه أين تقف. ويتعين عليك، بعدئذ، أن تظل هناك حتى يحتاج إليك.»

ـ «أهذا كل شيء، يا سيدي؟»

ـ «هذا كل شيء. إنه يريد أن يكون بين يديه ساع من السعاة، والغرض من هذا إعلامه إنك هناك.»

وفيما الموظف العتيق يطوي المذكرة، في تؤدة، ويُعنْونها قال مستر كرانتشر بعد أن راقبه في صمت حتى انتهى إلى مرحلة تجفيف الحبر بالورق النشاف:

ـ «أحسب أنهم سوف ينظرون في بعض قضايا التزوير هذا الصباح؟»

ـ «بل سينظرون في قضية خيانة!»

فقال جيري: «يعني أنهم سيقطعون جسد المحكوم عليه أجزاء أربعة. شيء وحشيّ.»

فعلّق الموظف العجوز مديراً نظارتيه الدهشتين نحوه: «إنه القانون، إنه القانون.»

ـ «يخيّل إليّ أن القانون الذي يجيز التمثيل بالأجساد قانون قاس. إن قتل الإنسان ينطوي في ذاته على قسوة، ولكن التمثيل بالقتيل ينطوي على قسوة أشد، يا سيدي.»

فقال الموظف العتيق: «لا، على الإطلاق. حذار أن تمتهن القانون. اعتنِ بصدرك وصوتك، أيها الصديق الطيب، ودع القانون يعتني بنفسه. أنا امحضك هذه النصيحة.»

فقال جيري: «إن الرطوبة يا سيدي، هي التي تجثم على صدري وصوتي. وأنا اترك لك أن تقدّر بأي طريقة رطبة أكسب رزقي.»

فقال الموظف العجوز: «حسناً، حسناً، إن لنا جميعاً طرائقنا المختلفة في كسب الرزق، بعضنا طرائقه رطبة، وبعضنا طرائقه جافة. دونك الرسالة. انطلقْ!»

وتناول جيري الرسالة. حتى إذا قال بينه وبين نفسه في احترام داخلي أقلّ من ذلك الذي تظاهر به: «أنت عجوز مهزول، أيضاً»، انحنى إجلالاً وأنبأ ابنه في طريق عودته بالوجهة التي يقصد إليها، ومضى لسبيله.

كانوا يشنقون المجرمين في تايبورن، تلك الأيام، ومن هنا لم يكن الشارع القائم خلف نيوجيت قد اكتسب تلك السمعة القبيحة التي علقت به منذ ذلك الحين. ولكن السجن كان مكاناً كريهاً تمارَسُ فيه معظم ضروب الفسق والخساسة، وتعششُ فيه الأمراض الراعبة التي كان السجناء يحملونها إلى المحكمة فتنطلق في بعض الأحيان من قفص الاتهام إلى رئيس المحكمة نفسه وتنتزعه من على منصته. ولقد اتفق غير مرة أن لفظ القاضي ذو القلنسوة السوداء الحكم على نفسه بالهلاك بمثل اليقين الذي لفظ به الحكم على المتهم، بل وقضى نحبه قبله. وفي ما عدا ذلك كان «أولد بيلي» شهيراً كفناء فندق ينطلق منه المسافرون الشاحبو الوجوه انطلاقاً موصولاً، على متون العجلات والعربات، في رحلة رهيبة إلى العالم الآخر: مجتازين نحو ميلين ونصف من الشوارع والطرق العامة، مخجلين قلة قليلة من المواطنين الصالحين، إن كان ثمة أحدٌ من هؤلاء. ما أقوى الألفة، وما أشد الرغبة في أن تكون ألفة صالحة في بادئ الأمر. وكان معروفاً أيضاً بما يدعونه المشهّر(*) الذي يُعتبر إحدى المؤسسات العتيقة الحكيمة المنزلة بضحاياها عقوبة ليس في مقدور أحد أن يتنبأ بمداها، ومعروفاً كذلك بعمود الجَلد، وهي مؤسسة عتيقة عزيزة أيضاً، توقع في نفس المرء مقداراً من الإنسانية والرقة يجعل

(*) المشهر pillory آلة خشبية يدخل بها رأس المجرم ويداه للتشهير به. (المعرب)

من العسير عليه أن يرى إليها وهي تعمل. وبتلك الصفقات التجارية الواسعة التي تجري بعملة الدم، وهي قطعة أخرى من الحكمة السَلفية المؤدية على نحو نظامي إلى أبشع الجرائم الدنيئة التي يمكن اقترافها تحت قبة السماء. وعلى الجملة، فقد كان «أولد بيلي» في ذلك العهد مصداقاً للقاعدة القائلة: «كل ما هو كائن، هو عدل» وإنه لقول مأثور خليق به أن يكون فاصلاً لولا انطواؤه على نتيجة مزعجة تقول بأنه ما من شيء من الأشياء التي كانت. كان ظالماً.

وشقّ الرسول طريقه وسط الحشد الدنس؛ المتناثر هنا وهناك في هذا المسرح السمج، ببراعة رجل تعوّد أن يشق طريقه في سكون، وانتهى إلى الباب الذي يبتغيه، وقدّم الرسالة التي يحملها من خلال فرجة فيه. ذلك بأن الناس كانوا في ذلك الزمان يدفعون المال ليشهدوا الرواية الممثلة في «أولد بيلي»، كما كانوا يدفعون المال ليشهدوا الرواية الممثلة في مستشفى «بَدلام» الخاص بالمجاذيب سواء بسواء ـ وإن تكن التسلية الأولى أمتع وأغلى. وهكذا كانت جميع أبواب «أولد بيلي» حسنة الحراسة، باستثناء تلك الأبواب الاجتماعية التي يدخل منها المجرمون إلى هناك، طبعاً، فقد كانت مفتوحة دائماً على مصاريعها.

وبعد شيء من التلكؤ والتردد دار الباب على مفاصله في تبرّم دوراناً جزئياً مكّن مستر جيري كرانتشر من أن يقحم نفسه خلاله، بشقّ النفس، ويدخل المحكمة.

وفي همس سأل الرجل الذي وجده إلى جانبه: «أية قضية هذه؟»

ـ «ليس هناك قضية الآن.»

ـ «في أية قضية سوف تنظر المحكمة بعد؟»

ـ «قضية الخيانة.»

ـ «القضية التي سيُمثّل فيها بجثة المحكوم عليه، أليس كذلك؟»

فقال الرجل مستطيباً الحديث: «آه! سوف يساق على مزلاجةٍ إلى

المحكمة حيث يعدم نصف إعدام، ثم يُنزل عنها ويُقطّع أمام عينيه، وتُنزع أحشاؤه وتحرق فيما هو ينظر إليها، ثم يُحتزّ رأسه ويُقطّع جسده أربعة أرباع. ذلك هو الحكم.»

فقال جيري، من باب الاحتراس: «تريد أن تقول، إذا وجدوه مذنباً.»

فأجابه الآخر: «أوه، سوف يجدونه مذنباً. لا تقلق من هذه الناحية.»

وهنا بَصُرَ كرانتشر بالحاجب يشق طريقة إلى مستر لوري، والرسالة في يده. كان مستر لوري جالساً إلى إحدى الطاولات وسط الرجال ذوي اللمم المستعارة؛ غير بعيد عن رجل ذي لمة مستعارة هو محامي المتهم، وكانت أمامه رزمة كبيرة من الأوراق، وقبالةَ رجل آخر ذي لمة مستعارة كان واضعاً يديه في بعض جيوبه، مركّزاً كامل انتباهه فيما يبدو ـ لحظةَ نظر إليه مستر كرانتشر، في ما بعد ـ على سقف المحكمة. وبعد أن أطلق جيري بعض السعال الفظّ وفرك ذقنه وأومأ بيده وفّق إلى أن يلفت انتباه مستر لوري الذي كان قد وقف ليبحث عنه، ثم حنى رأسه في رفق، وعاود الجلوس.

وتساءل الرجل الذي سبق لجيري أن خاطبه: «وما علاقته بهذه القضية؟»

فقال جيري: «لعنني الله إن كنت أعرف.»

ـ «وما علاقتك أنت بها، إذن، إن كان لامرئ أن يسأل؟»

فقال جيري: «لعنني الله إن كنت أعرف ذلك أيضاً.»

وقطع الحوار دخول القاضي وما تلا ذلك من جلبة ثارت في المحكمة ثم ما لبثت أن خمدت. وفي الحال غدا قفص الاتهام النقطة التي تركز عليها اهتمام القوم جميعاً. وخرج سجانان اثنان، كانا واقفين هناك، ثم عادا بالمتهم وألقياه خلف القضبان.

حدّق كل من في المحكمة إلى وجه المتهم، ما خلا ذلك الرجل ذا اللمة المستعارة الذي كان ينظر إلى السقف. وتدافعت نحوه جميع الأنفاس البشرية التي احتواها المكان فكأنها موج، أو ريح، أو نار. وامتدّت الأعناق المتلهفة حول الأعمدة والزوايا لكي تلقي نظرة عليه؛ ووقف النظارة في الصفوف الخلفية لكي لا تفوتهم شعرة منه. ووضع القوم الواقفون في صحن المحكمة أيديهم على أكتاف القائمين قدّامهم لكي يتمكنوا، على حساب أيما إنسان، من أن يشاهدوا المتهم، فهم ينتصبون على رؤوس الأصابع، ويرتقون الرفوف، ويقفون على لا شيء تقريباً، لكي يبصروا كل بوصة منه. وعلى نحو بارز وسط هذه المجموعة الأخيرة وقف جيري مثل قطعة من جدار نيوجيت المسنّن دبّت فيها الحياة، مصوّباً إلى المتهم أنفاساً تفوح منها ريح الجعة التي احتساها في طريقه إلى المكان، فهي تمتزج بأمواج من جعة أخرى، ومن شراب الـ «جن»، والشاي، والقهوة، واضرابها مما كان يطفو نحوه ويندفع في اتجاه النوافذ القائمة خلفه على شكل ضبابٍ وندىً يعوزهما الصفاء.

وكان هدفَ هذا التحديق كله والجلبة كلها شاب في نحو الخامسة والعشرين، حسن البنية، بهي الطلعة، ذو خدّين لوّحتهما الشمس، وعينين داكنتين. كان سيدا نضر العود، وكان يرتدي ثوباً بسيطاً أسود، أو رمادياً داكناً جداً، وكان شعره الطويل الفاحم مضموماً في عصابة عند مؤخر عنقه. وواضح أنه فعل ذلك إقصاء له عن وجهه أكثر مما فعله ابتغاء الزينة. وكما يعبّر أيما انفعال من انفعالات الذهن عن نفسه من خلال أيما غطاء من أغطية الجسد، كذلك أطلّ، الشحوب الذي أورثه إياه الموقفُ من خلال السمرة التي تعلو وجهه مظهراً بذلك أن الروح أقوى من الشمس. ولكنه في ما عدا هذا كان رابط الجأش، ثبت الجنان، فانحنى للقاضي، ووقف في سكون.

ولم يكن الشوق الذي حُدّق به إلى هذا الرجل، حبس الأنفاس تركيزاً عليه، من ذلك النوع الذي يسمو بالإنسانية. فلو أنه كان يقف

مهدّداً بخطر الحكم عليه بعقوبة أقل هولاً ـ لو إنه كان ثمة إمكانية تُنجيه من أيما جزء من أجزاء العذاب الوحشي الذي ينتظره ـ إذن لفقد من فتنته على قَدْر ذلك تماماً. وكان الجسد الذي أزمع سحقه على ذلك النحو المخجل هو محطّ الأبصار. أما الروح المزمع ذبحها وتمزيقها فكانت قد تخلّت عن الشعور. ورغم الشوق الذي نظر به كل من الحاضرين وذلك وفقاً لفنّه الخاص وقدرته على خداع الذات، فقد كان ذلك الشوق، في جذوره غوليّاً.

سادَ الصمت قاعة المحكمة. لقد طلب تشارلز دارني، أمس، البراءة من التهمة التي وُجّهت إليه (في كثير من الطنين والرنين) والتي تقول إنه قد خان مولانا الملك الموقّر السامي الرفيع الخ. . . بسببٍ من أنه ناصرَ في مناسبات مختلفة ووسائل وطرق مختلفة الملك الفرنسي لويس في الحروب التي شنها ضد مولانا الملك الموقر السامي الرفيع الخ، وذلك بتنقله بين ممتلكات مولانا الملك الموقر السامي الرفيع الخ وممتلكات لويس الفرنسي المشار إليه وإطلاع لويس الفرنسي هذا، وفي خباثة ومخادعة وخيانة وغير ذلك من الملابسات الشريرة، على عديد القوات التي يُعدها مولانا الملك الموقر السامي الرفيع الخ للأبحار إلى كندا وأميركا الشمالية. هذا هو القدر الذي استطاع جيري أن يستنتجه في ارتياح كبير (وقد غدا شعره المسماري أشد مسماريةً بعد أن هاجته أحكام القانون وزادته انتصاباً). وهكذا انتهى إلى أن يفهم، مداورةً، أن المشار إليه آنفاً، مرةً بعد مرة، تشارلز دارني، واقف أمامه هناك رهن المحاكمة، وأن المحلفين كانوا يؤدون اليمين، وأن النائب العام كان يستعدّ للكلام.

ولم يرتعد المتهم الذي كان القوم يتصورونه (والذي كان يعلم أن القوم يتصورونه) مشنوقاً مقطوع الرأس، ولم يصطنع حركات أو ملامح مسرحيةً. كان رابط الجأش حسن الاصغاء يراقب الاجراءات الافتتاحية في اهتمام كئيب، وكان يضع يديه على اللوح الخشبي الذي أمامه، في

طمأنينة بالغة، فلم تتزحزح أيما ورقة من أوراق الأعشاب المنثورة على ذلك اللوح من موضعها. وكانت قاعة المحكمة كلها قد فُرشت بالأعشاب ونُضِحت بالخلّ خشية هواء السجن، وحمّى السجن.

وفوق رأس المتهم كانت مرآةٌ يقصد منها أن تعكس النور عليه. ولقد انعكست عليها حشود من الأشرار والتعساء ثم زالت عن سطحها وعن سطح هذه الأرض في آن معاً. والحق أن ذلك المكان الفظيع كان سيكتظ بآلاف الأرواح الشاحبة الوجوه لو قُدّر لتلك المرآة يوماً، أن تردّ ما انعكس على صفحاتها من صور، كما سيلفظ المحيط ذات يوم موتاه. ولعل فكرة عابرة عن الخزي والعار اللذين تُلبسهما تلك المرآة شخصَ من ينعكس رسمه فيها قد خامرت ذهن المتهم. وأياً ما كان، فقد تحرك المتهم حركة جعلته يعي شعاع النور المنطلق عبر وجهه، فرفع بصره إلى أعلى. حتى إذا رأى المرآة شاع الدم في وجهه، فاضطربت يده اليمنى فدفعت الأعشاب جانباً.

واتفق أن أدارت تلك الحركة وجهه إلى جانب المحكمة القائم إلى يساره. وعلى مستوى ارتفاع عينيه تقريباً جلس، في تلك الزاوية من منصة القاضي، شخصان استقرت عيناه عليهما في الحال. وكان ذلك فجائياً صاحَبَه تغير كبير في محيا المتهم إلى حد جعل جميع الأعين الناظرة إليه تلتفت إليهما.

ورأى النظارة في هذين الشخصين سيدة صغيرة لا يزيد عمرها على العشرين إلاّ قليلاً، وسيداً كان واضحاً أنه أبوها. وكان ذلك السيد رجلاً ذا مظهر يلفت النظر كثيراً، فالشيب يجلل رأسه كله، والصرامة التي لا توصف ترين على وجهه، وهي صرامة ليست من النوع القاسي ولكنها نوع التأمل ومناجاة النفس. وكان يبدو، حينذاك، شيخاً عجوزاً. أما حين كانت تنقشع الغمامة عن وجهه ـ شأنه في تلك اللحظة التي انشأ يتحدث فيها إلى ابنته ـ فكان يغدو رجلاً بهيّ الطلعة لمّا يتخطّ شرخ الشباب.

كانت ابنته واضعة إحدى يديها تحت ذراعه، فيما جلست إلى جانبه، ضاغطة بالأخرى عليها. وكانت قد التصقت به بعد الذي وقع في نفسها من رعب من المشهد، وإشفاق على المتهم. وكان جبينها ينطق، على نحو يدعو إلى الدهش، برعب واشفاق متعاظمين ما كانا يريان غير الخطر الذي يتهدد المتهم. ولقد تجلى ذلك صارخاً جداً، طبيعياً جداً، حتى لقد تحركت لرؤيتهما قلوب المحدّقين الذين ما عرفت صدورهم الشفقة عليه. وسرى همس: «من هما؟»

ومدّ جيري ـ الذي كان قد كوّن ملاحظاته الخاصة، بطريقته الخاصة، والذي كان يلعق الصدأ عن أصابعه فيما هو مستغرق في التفكير ـ مدّ عنقه ليسمع من هما. وكان الحشد من حوله قد ضغط السؤال ومرّره إلى أقرب الحاضرين، ومن هناك ضُغِط ضغطاً أبطأ ومُرِّر إلى الوراء حتى انتهى آخر الأمر إلى جيري:

ـ «شاهدان.»

ـ «مع أي جهة؟»

ـ «ضد.»

ـ «ضد أي جهة؟»

ـ «ضد المتهم.»

وكانت عينا القاضي قد انصرفتا إلى حيث انصرفت أعين القوم جميعاً، ولكنه ما لبث أن صدهما عن ذلك، وارتدّ، في كرسيه، إلى وراء وسمّر نظراته على الرجل الذي كانت حياته في يده، فيما نهض النائب العام ليَبْرم(*) الحبل، ويشحذ الفأس، ويدقّ المسامير في المشنقة.

(*) برم الحبل: جعله طوقين ثم فتله.

ـ 3 ـ

خيبة أمل

كان على النائب العام أن يُعلم الملحفين أن المتهم الماثل أمامهم هو برغم صغر سنه عريق في الخيانة الوطنية عراقةً تقتضي ازهاق روحه. وأن اتصاله بالعدو لم يكن وليد اليوم، أو الأمس، بل لم يكن وليد العام الماضي، أو العام الذي سبقه، وأن من الثابت أن المتهم تعوّد، منذ فترة أبعد من هذه، الانتقال من فرنسة إلى إنكلترة ومن إنكلترة إلى فرنسة في مهام سرية لم يستطع أن يبررها على نحو صادق. وإنه لو كان من طبيعة الخيانة أن تزكو وتفلح (وهو شيء اثبتت الأيام، لحسن الحظ، نقيضه دائماً) اذن لظلّ الإثم والإجرام الحقيقيان، اللذان انطوى عليهما نشاطه، طي الكتمان. وإن العناية الإلهية قد ألهمت رجلاً لا يعرف الخوف ولا يتطرق إليه العيب أن يتحرى طبيعة نشاط المتهم، وأن يكشف ذلك والذعر يُذهله، لكبير وزراء صاحب الجلالة ولمجلس مستشاري الدولة الموقر. وإن هذا الوطني سوف يمثلُ أمامهم. وإن مركزه ومسلكه كانا على الجملة ساميين. وإنه كان من قبلُ صديق المتهم، ولكنه ما إن اكتشف في ساعة مباركة سيئة الطالع فضيحته هذه حتى اعتزم أن يضحي بذلك الخائن، بعد أن غدا عاجزاً عن أن يضمر له أيما حب، على مذبح بلاده المقدس. وإنه إذا كانت التماثيل تقام في بريطانيا، كما كانت تقام في بلاد الإغريق وفي رومة في العصور القديمة، لكل من أسدى خدمة للمجتمع، فجدير بهذا المواطن اللامع أن يفوز بتمثال منها قولاً واحداً.

ولكن لمّا كانت التماثيل لا تقام في بلادنا لأمثال هؤلاء العاملين في خدمة المجتمع فأغلب الظن أنه لن يحظى بالتمثال الذي يستحق. وإن الفضيلة كما لاحظ الشعراء (في قصائد كثيرة يعلم جيداً أن المحلفين يعرفونها كلمةً كلمةً فهي حاضرة على رؤوس ألسنتهم؛ وعندئذ كشفت وجوه المحلفين عن أنهم يعون وعياً آثماً جهلَهُم المطبق لتلك القصائد) هي مُعْدِية بطريقة ما، وبخاصة تلك الفضيلة النيّرة التي ندعوها الوطنية أو حب الوطن. وإن المثل الشامخ الذي ضربه هذا الشاهد النقي الطاهر من أجل التاج أعدى خادمَ المتهم، فولّد فيه عزماً مقدساً على أن يتحرى جيوب سيده وأدراج طاولاته وأن يخفي أوراقه. وإنه (أي حضرة النائب العام) يتوقع أن يسمع تحقيراً لهذا الخادم المُعجِب وأنه على الجملة يؤثره على إخوته وأخواته (أي أخوة النائب العام وأخواته) ويُعظمه أكثر مما يعظم أباه وأمه (أي أبا حضرة النائب العام وأمه). وإنه يدعو، في ثقة، هيئة المحلفين إلى أن تحذو حذوه فتكرم هذا الخادم وتجلّه. وإن شهادة هذين الشاهدين، مشفوعةً بالوثائق التي اكتشفاها والتي سوف تقدم إلى الملحفين، تكشف عن أن المتهم كان مزوداً بلوائح عن قوات جلالته وتنظيماتها واستعداداتها، في البحر والبر جميعاً، ولا تدع مجالاً للشك في أنه تعوّد إفشاء مثل هذه المعلومات إلى دولة معادية. وإنه ليس من الممكن إقامة الدليل على أن هذه اللوائح كُتبت بخط المتهم ولكن ذلك لا يقدم البتة ولا يؤخر، بل إنه في الواقع إدعى إلى إدانة المتهم إذ يُظهر مدى براعته في التحفظ والاحتياط. وأن الأدلة ضده ترقى إلى خمس سنوات خلت، وتكشف عن أنه شرع يقوم بهذه الرحلات المهلكة خلال الأسابيع القليلة التي تصرمت قبل اشتباك القوات البريطانية والقوات الأميركية أول مرة. وإن المحلفين، لهذه الأسباب كلها، ولأنهم محلفون موالون للتاج (كما يعرف هو جيداً) ولأنهم محلفون مسؤولون (كما يعرفون هم جيداً) لا بدَّ أن يجدوا المتهم مذنباً، ويزهقوا روحه سواء أحبوا ذلك أم لم يحبوه. وإنهم لن يستطيعوا أن يضعوا رؤوسهم على

وسائدهم، وأنهم لن يقبلوا أن تضع زوجاتهم رؤوسهن على وسائدهن؛ وأنهم لن يحتملوا التفكير في أن أطفالهم يضعون رؤوسهم على وسائدهم؛ وبكلمة موجزة أنه لن يكون في إمكانهم أو إمكان أهلهم بعد اليوم أن يضعوا رؤوسهم على وسائدهم إلاّ إذا احتُزّ رأس المتهم. وختم النائب العام كلامه بأن طلب منهم رأس المتهم، باسم كل ما استطاع أن يفكّر به من المحامد والفضائل، وعلى أساس من اعتقاده الجازم بأنهم انتهوا إلى أن يعتبروا المتهم، منذ الآن، وكأنه قد مات وفارق العالم.

حتى إذا كفّ النائب العام عن الكلام سرى في أرجاء القاعة ازيز مدوٍّ، فكأن حشداً من الذباب الأزرق الضخم كان يحوّم حول المتهم ارتقاباً لما سينتهي إليه بعد قليل من سوء المصير. ولم يكد ذلك الأزيز يتلاشى حتى برز الوطني النقيّ الذي لا يأتيه الدنس من بين يديه ولا من خلفه، في موقف الشهود.

وعندئذ شرع وكيل النيابة، على هَدْيٍ من رئيسه، يستجوب ذلك السيد الوطني الذي يدعى جون بارساد والذي جاءت قصة نفسه الطاهرة منطبقة تمام الانطباق على وصف النائب العام لها؛ والواقع أنه لا عيب في ذلك الوصف إلاّ أنه أدق مما ينبغي. ولم يكد بارساد يحرر صدره النبيل من هذا العبء ـ عبء الشهادة ـ حتى همّ بالانصراف. ولكن الرجل ذا اللمة المستعارة، الواضع أمامه ركاماً من الأوراق، والجالس غير بعيد عن مستر لوري، طلب أن يوجه إلى الشاهد بعض الأسئلة. أما الرجل ذو اللمة المستعارة القاعد قبالته، فكان لا يزال يحدق إلى سقف المحكمة.

ـ «هل كنت في يوم من الأيام جاسوساً؟»

ـ «لا، وإني لأزدري هذا الدس غير المباشر.»

ـ «علام كنت تعيش؟»

ـ «على ممتلكاتي.»

ـ «أين كانت ممتلكاتك؟»
ـ «لا أذكر على وجه الدقة أين كانت.»
ـ «ممّ كانت تتألف؟»
ـ «ليس هذا من شأن أحد.»
ـ «هل ورثتها؟»
ـ «أجل لقد ورثتها.»
ـ «ممن؟»
ـ «من نسيب لي بعيد.»
ـ «أهو بعيد جداً؟»
ـ «في أغلب الظن.»
ـ «هل سجنتَ في يوم من الأيام؟»
ـ «لا، طبعاً.»
ـ «ألم تدخل سجن المدينين في يوم من الأيام؟»
ـ «أنا لا أرى أية علاقة لذلك بهذه الدعوى.»
ـ «أعيد عليك السؤال، ألم تدخل سجن المدينين قط؟»
ـ «بلى، دخلته.»
ـ «كم مرة؟»
ـ «مرتين أو ثلاث مرات.»
ـ «لا خمس مرات أو ست مرات؟»
ـ «ربما.»
ـ «ما صنعتك؟»
ـ «سيد.»
ـ «هل رُفستَ يوماً؟»
ـ «هذا جائز.»

ـ «كثيراً؟»

ـ «لا .»

ـ «هل رفست من أعلى السلم؟»

ـ «لا ، من غير شك. لقد رفستُ يوماً عند أعلى السلم وتدحرجت حتى أدناها من تلقاء نفسي.»

ـ «هل رفست في تلك المناسبة لخداعك في المقامرة؟»

ـ «لقد زعم الكاذب السكران الذي هاجمني هذا الزعم، ولكنه غير صحيح.»

ـ «أتقسم على أنه غير صحيح؟»

ـ «أجل، أقسم.»

ـ «أتعيش على الغش في المقامرة؟»

ـ «لا .»

ـ «هل تعيش على القمار؟»

ـ «شأني في ذلك شأن غيري من السادة، لا أكثر.»

ـ «هل اقترضت من المتهم مالاً ، في يوم من الأيام؟»

ـ «نعم.»

ـ «هل أعدته إليه؟»

ـ «لا .»

ـ «ألم تكن هذه الألفة مع المتهم طفيفة في الواقع، فُرضت عليه في العربات والفنادق والمراكب البحرية؟»

ـ «لا .»

ـ «هل أنت واثق من أنك رأيت هذه اللوائح مع المتهم؟»

ـ «أجل، أنا واثق.»

ـ «ألا تعرف شيئاً أكثر من ذلك عن هذه اللوائح؟»

ـ «لا.»

ـ «ألم تأتِ بها بنفسك، مثلاً؟»

ـ «لا.»

ـ «أتتوقع أن تفوز بشيء نتيجة لهذه الشهادة؟»

ـ «لا.»

ـ «ألا تتوقع أن تفوز بعطاء نظاميّ تقدمه إليك الحكومة لقاء نصبك الأشراك للناس؟»

ـ «أوه، معاذ الله!»

ـ «أو لقاء القيام بشيء ما؟»

ـ «أوه، معاذ الله!»

ـ «أتقسم على ذلك؟»

ـ «أيماناً متعددة.»

ـ «ألم يكن لك دوافع غير الوطنية الخالصة؟»

ـ «مطلقاً.»

وشق الخادم المفضال، روجر كلاي، طريقه إلى القضية بأن أقسم اليمين في سرعة بالغة. فقد التحق في خدمة المتهم، ببساطة وحسن طوية، منذ أربع سنوات. لقد سأل المتهم، وكانا على متن زورق من زوارق كاليه، ما إذا كان في حاجة إلى خادم حاذق فألحقه المتهم في خدمته. إنه لم يلتمس من المتهم أن يستخدمه على سبيل الاحسان وعمل الخير، لا فهو لم يفكر قط في ذلك. وما هي إلاّ فترة حتى أنشأ يشك في المتهم ويراقبه مراقبة شديدة. وفيما هو يرتب ملابسه أثناء أسفاره رأى أمثال هذه اللوائح في جيوب المتهم، مرة ومرة. لقد أخرج هذه اللوائح من درج منضدة المتهم. إنه لم يضعها هناك، قبل ذلك، بيده. ولقد شاهد المتهم يعرض هذه اللوائح ذاتها على بعض السادة الفرنسيين في كاليه ويعرض لوائح مماثلة على فرنسيين آخرين في كاليه وبولونْيْ

جميعاً. إنه رجل يحب بلاده، فلم يحتمل ذلك، فنقل النبأ إلى الدوائر المسؤولة. إنه لم يتهم في يوم من الأيام بسرقة إناء فضي للشاي. ولقد نُسبت إليه سرقة إناء خردل، ولكن ظهر بعد ذلك أن ذلك الإناء مموّه ليس غير. أما الشاهد الأخير فقد عرفه سبع سنوات أو ثماني سنوات. وكان ذلك مجرد مصادفة. وهو لا يصف تلك المصادفة بأنها غريبة بشكل خاص. فمعظم المصادفات تحمل طابع الغرابة. بل هو لا يعتبر اندفاعه بدافع الوطنية الصحيحة وحدها مصادفة غريبة أيضاً. فهو بريطاني مخلص، وهو يرجو أن يكون في البلد كثير مثله.

وأزّ الذباب الأزرق كرة أخرى، ودعا النائب العام مستر جارفيس لوري.

ـ «هل أنت موظف في مصرف تلسون، يا مستر لوري؟»

ـ «نعم.»

ـ «هل قضت أعمالك أن تسافر بمركبة البريد ما بين لندن ودوفر في مساء يوم من أيام الجمعة من شهر تشرين الثاني سنة ألف وسبعمئة وخمس وسبعين؟»

ـ «نعم.»

ـ «هل كان في مركبة البريد مسافرون آخرون؟»

ـ «كان فيها مسافران.»

ـ «هل غادرا المركبة في بعض الطريق، أثناء الليل؟»

ـ «نعم، لقد فعلا.»

ـ «أنظر إلى المتهم، يا مستر لوري. هل كان واحداً من ذينك المسافرين؟»

ـ «أنا لا أستطيع أن أجزم بذلك.»

ـ «هل يشبه أياً من ذينك المسافرين؟»

ـ «كان كل منهما مغالياً في التدثر، وكان الليل حالكاً جداً، وكنا

جميعاً نعتصم بالتحفظ والاحتراس إلى أبعد الحدود بحيث يتعذر علي أن أزعم ذلك أيضاً.»

ـ «مستر لوري، أنظر إلى المتهم كرة أخرى. افرض أنه تدثر على طريقة ذينك الشاهدين، فهل تجد في حجمه وقامته شيئاً يجعل من غير المحتمل أن يكون واحداً منهما؟»

ـ «لا.»

ـ «أنت لا تُقسم يا مستر لوري، أنه لم يكن واحداً منهما؟»

ـ «لا.»

ـ «إذن، فأنت تقول، على الأقل، إن من الجائز أن يكون واحداً منهما؟»

ـ «أجل. باستثناء أني أذكر أن كلاً منهما كان ـ مثلي أنا ـ مذعوراً من قطاع الطرق، وهذا المتهم لا تبدو عليه امارات الذعر، البتة.»

ـ «هل قدّر لك أن ترى ذعراً مزوراً، يا مستر لوري؟»

ـ «لقد رأيت ذلك من غير شك.»

ـ «مستر لوري. أنظر إلى المتهم كرة أخرى. أتذكر جيداً أنك رأيته من قبل؟»

ـ «نعم، لقد رأيته.»

ـ «متى؟»

ـ «كنت عائداً من فرنسة بعد بضعة أيام. وفي كاليه ركب المتهم متن السفينة التي عدت بواسطتها، واشترك معي في الرحلة.»

ـ «في أي ساعة ركب متن السفينة؟»

ـ «بعد منتصف الليل بقليل.»

ـ «في أشد لحظات الليل حلكة. أكان هو المسافر الوحيد الذي ركب متن السفينة في تلك الساعة غير الملائمة؟»

ـ «لقد اتفق أن كان هو المسافر الوحيد.»

ـ «دع مسألة الاتفاق هذه جانباً، يا مستر لوري. لقد كان هو المسافر الوحيد الذي ركب متن السفينة في أشدّ لحظات الليل حلكة؟»

ـ «نعم.»

ـ «هل كنت مسافراً وحدك، يا مستر لوري، أم مع رفيق ما؟»

ـ «مع رفيقين. سيد وسيدة. إنهما هنا.»

ـ «إنهما هنا. هل تحدّثت مع المتهم حديثاً ما؟»

ـ «لم اتحدث معه إلاّ بضع كلمات. كان الجو عاصفاً، وكانت الرحلة طويلة وشاقة. ولقد اضطجعت على إحدى الأرائك من الشاطئ إلى الشاطئ، تقريباً.»

ـ «مس مانيت!»

ووقفت السيدة الصغيرة التي اتجهت إليها العيون كلها من قبل، والتي عادت فاتجهت إليها الآن من جديد. ونهض أبوها معها فأبقت يدها تحت ذراعه.

ـ «مس مانيت، أنظري إلى المتهم.»

وكانت مواجهةُ هذا الإشفاق كله، وهذا الشباب الغض والجمال الفاتن أشقَّ على الرجل المتهم من مواجهة الحشد كله. وإذ وقف تلك اللحظة مواجهاً إياها ورجلاه على حافة القبر، فقد عجز جميع الفضول المحدّق إليه عن أن يحمله على الاعتصام بالسكون الكامل. فراحت يده اليمنى توزع الأعشاب التي أمامه على مساكب زهور وهمية في حديقة ما. وكانت الجهود التي بذلها لضبط أنفاسه وجعلها مطردة قد أرعشت شفتيه اللتين فرّ اللون منهما إلى القلب. وعلا أزيز الذباب الضخم كرة أخرى.

ـ «مس مانيت، هل رأيت المتهم من قبل؟»

ـ «نعم، يا سيدي.»

ـ «أين.»

ـ «على متن السفينة التي أشيرَ إليها منذ قليل، يا سيدي، وفي المناسبة نفسها.»

ـ «أأنت السيدة الصغيرة التي أشير إليها اللحظة؟»

ـ «أوه. أنا هي مع الأسف الشديد!»

وذاب صوتها المحزون في صوت القاضي الأقل موسيقية فيما كان يقول شيئاً في ضراوة: أجيبي على الأسئلة الموجهة إليك ولا تعلّقي عليها تعليقاً ما.»

ـ «مس مانيت، هل تحدثت مع المتهم في تلك الرحلة عبر القناة؟»

ـ «نعم، يا سيدي.»

ـ «أعيدي ذلك على مسامعنا.»

ووسط سكون عميق استهلت الكلام في خفوت: «عندما ركب السيد متن السفينة...»

فسألها القاضي مقطباً حاجبيه: «تعنين المتهم؟»

ـ «نعم، يا سيدي.»

ـ «عندما ركب المتهم السفينة لاحظ أن أبي،» والتفتت إليه في محبة فيما كان واقفاً إلى جانبها، «كان متعباً جداً، وفي حال من الاعتلال الصحي شديد. والواقع أن صحة أبي كانت منهارة إلى درجة خشيتُ معها أن أخرجه إلى الهواء الطلق، وكنت قد وضعت له فراشاً على ظهر السفينة قرب السلّم المؤدية إلى غرف المسافرين، وجلستُ إلى جانبه على ظهر السفينة لكي أقوم بخدمته. ولم يكن ثمة مسافرون آخرون، تلك الليلة، غيرنا نحن الأربعة. وكان المتهم من اللطف بحيث التمسَ مني الإذن بأن يرشدني كيف أقي والدي من أذى الريح وتقلّب الجو بأحسن مما كنت أفعل. وكنت لا أدري كيف أقوم بذلك، غير مدركة في أي اتجاه ستهب الريح عند مغادرتنا المرفأ. فقام هو عني بهذه المهمة. ولقد

أبدى لطفاً كثيراً نحو أبي وعناية كبيرة به، وأنا واثقة من أنه كان مخلصاً في ذلك. وهكذا بدأنا نتحدث معاً.»

ـ «دعيني أقاطعك لحظةً. هل وفد على السفينة وحده؟»

ـ «لا.»

ـ «كم شخصاً كان معه؟»

ـ «سيدان فرنسيان.»

ـ «هل تبادلوا الأحاديث؟»

ـ «لقد تبادلوا الأحاديث حتى اللحظة الأخيرة عندما اضطر السيدان الفرنسيان إلى مغادرة السفينة والمضيّ في زورقهما.»

ـ «هل تبادلوا أوراقاً تشبه هذه اللوائح؟»

ـ «لقد تبادلوا بعض الأوراق؛ ولكني لا أعرف ماهيتها.»

ـ «مثل هذه شكلاً وحجماً؟»

ـ «جائز. ولكني في الحق لا أدري على الرغم من أنهم وقفوا يتهامسون على مقربة مني: لأنهم وقفوا عند أعلى السلم المؤدية إلى غرف المسافرين ليفيدوا من ضوء المصباح المتدلي هناك. كان مصباحاً ضعيف النور، وكانوا يتحدثون في صوت خفيض جداً، فلم أسمع ما قالوا ولم أرهم يفعلون شيئاً غير النظر إلى الأوراق.»

ـ «والآن، لنعد إلى حديث المتهم معك، يا آنسة مانيت.»

ـ «كان المتهم صريحاً في ثقته بي ـ وإنما نشأ ذلك بسبب من رثائه لحالي البائسة ـ كما كان لطيفاً كريماً مع أبي، مفيداً له، وإني لأرجو،» قالت ذلك وانفجرت بالبكاء، «أن لا أكافئه على معروفه هذا بالإساءة إليه اليوم.» وانطلق الأزيز من الذبابات الزرق.

ـ «مس مانيت، إذا كان المتهم لا يفهم أحسن الفهم أنك تؤدين الشهادة التي يقتضيك الواجب أن تؤديها ـ الشهادة التي يتعيّن عليك

اداؤها ـ والتي لا مفر لك من ادائها ـ في نفور بالغ، فثقي أنه يتفرّد بذلك بين الحاضرين جميعاً. تابعي، أرجوكِ.»

ـ «لقد أخبرني أنه مسافر في مهمة ذات طبيعة دقيقة وعسيرة، مهمة قد تورث الناس بعض المتاعب، وأنه من أجل ذلك مسافر باسم مستعار. وقال إن هذه المهمة قد حملته في مدى أيام قليلة على الذهاب إلى فرنسة وقد تحمله على التنقل ما بين فرنسة وإنكلترة حيناً بعد حين فترة طويلة من الزمان.»

ـ «هل قال شيئاً عن أميركة، يا آنسة مانيت؟ كوني دقيقة.»

ـ «لقد حاول أن يشرح لي كيف نشأ ذلك النزاع، وقال إن من الخطل والبلاهة ـ في ما يخيّل إليه ـ أن تقف إنكلترة هذا الموقف. وأضاف، على نحو هازل، إن من الجائز أن يكتسب جورج واشنطن اسماً عظيماً في التاريخ يكاد يعدل اسم جورج الثالث. ولكن لم يكن ثمة إساءة في قوله ذاك. لقد أطلقه على سبيل المزاح، وإضاعةً للوقت.»

إن من دأب التعبير القوي المرتسم على وجه الممثل الرئيسي في مشهد بالغ المتعة شديد الأسر تركزت عليه عيون كثيرة أن ينطبع لا شعورياً على وجوه النظارة. والواقع أن جبينها وهي تؤدي الشهادة كان ينضح بالصدق والقلق الأليم، فكانت تراقب أثر ذلك في محامي الدفاع ومحامي الاتهام خلال الفترات التي كان القاضي يدوّن فيها كلماتها. وعلى جباه النظارة ارتسمت الانطباعة نفسها في أرجاء المحكمة كلها، لكأن تلك الجباه الكثيرة كانت مرايا تعكس صورة الشاهدة. ثم إن القاضي رفع بصره عن أوراقه ليحدّق إلى تلك الهرطقة الهائلة التي أطلقتها الفتاة عن جورج واشنطن.

وأومأ النائب العام إلى القاضي يقول إنه يرى ضرورياً، من باب الاحتياط والحفاظ على الشكل، أن يدعى والد السيدة الصغيرة، الدكتور مانيت، للشهادة. وهكذا كان.

ـ «دكتور مانيت، أنظر إلى المتهم. هل رأيته قطّ من قبل؟»

ـ «مرة واحدة. حين زارني في بيتي بلندن. منذ ثلاث سنوات أو ثلاث سنوات ونصف.»

ـ «هل تستطيع أن تتعرّفه كرفيق لك في الرحلة على متن السفينة، أو تُعلمنا بشيء عن حديثه مع ابنتك؟»

ـ «لست قادراً لا على هذا ولا ذاك، يا سيدي.»

ـ «هل ثمة أيما سبب خاص يجعلك غير قادر على ذلك؟»

وفي صوت خفيض، أجاب: «أجل، هناك سبب.»

ـ «هل كان من سوء حظك أن تتحمل سجناً طويلاً، من غير محاكمة، بل لغير ما تهمة، في وطنك الأول، يا دكتور مانيت!»

وفي نبرة نفذت إلى كل قلب، أجاب: «سجن طويل.»

ـ «هل كنت حديث عهد بالحرية عند وقوع الأحداث المتصلة بهذه القضية؟»

ـ «ذلك ما يقولونه لي.»

ـ «ألا تذكر تلك المناسبة ولو ذكراً بسيطاً؟»

ـ «لا، إن ذهني أشبه بالصفحة البيضاء في ما يتصل بالأحداث التي وقعت ابتداء من وقت ما ـ بل إني لا أستطيع أن أعيّن هذا الوقت أيضاً ـ عندما أخذتُ، وأنا في غياهب السجن، بصنع الأحذية، حتى ذلك الوقت الذي وجدتُني فيه عائشاً بلندن مع ابنتي العزيزة هذه. كانت قد غدت مأنوسة عندي حين رد الله الكريم قواي العاقلة إليّ. ولكني لا أدري بحال كيف غدت مأنوسة عندي. أنا لا أذكر من هذه العملية شيئاً.»

وقعد النائب العام. وقعد الأب وابنته معاً.

وهنا نشأ حادث غريب. ذلك بأن الاتهام كان يرمي إلى اثبات هذه النقطة، وهي أن المتهم ركب عربة بريد دوفر مع شريك له في الجريمة لم يُقتفَ أثره، ليلة الجمعة تلك من شهر تشرين الثاني لخمس سنوات

خلت، وخرج من المركبة تحت جنح الظلام، كالأعمى، عند موضع لم يمكث فيه ولكنه ارتجع منه عائداً نحواً من اثني عشر ميلاً أو أكثر إلى مقرّ إحدى الحاميات العسكرية وحوض لبناء السفن حيث جمع ما يبتغيه من معلومات. وكان أحد الشهود قد مثل بين يدي القاضي ليثبت أن المتهم كان في ذلك الوقت عينه في غرفة القهوة في فندق بتلك البلدة التي فيها حوض السفن والحامية العسكرية، حيث انتظر شخصاً آخر. وكان محامي الدفاع يستجوب هذا الشاهد على غير طائل، باستثناء أنه لم يرَ المتهم قط في أي مناسبة أخرى، عندما خطّ الرجل ذو اللمّة المستعارة، الناظر أبداً إلى سقف المحكمة، كلمة أو كلمتين على قصاصة من الورق، ثم كوّرها وقذف بها إليه. حتى إذا فتح محامي الدفاع هذه القصاصة، أثناء فترة التريّث التالية، نظر في كثير من الانتباه والفضول إلى المتهم.

ـ «أتصرّ على القول إنك واثق كل الثقة أن ذلك الرجل هو المتهم؟»

فأجاب الشاهد أنه واثق كل الثقة.

ـ «هل رأيت قطّ أيما رجل يشبه المتهم شبهاً عظيماً؟»

فقال إنه لم يرَ أحداً شبيهاً به إلى درجة تجعل الشخصين يتشابهان عليه.

ـ «أنظر إذن إلى ذلك السيد، إلى صديقي العالم الذي هناك،» وأشار إلى الرجل الذي قذف نحوه بقصاصة الورق. «ما قولك؟ أهما متشابهان تشابهاً عظيماً؟»

وبصرف النظر عن مظهر «صديقي العالم» المهمَل الرثّ، إن لم نقل مظهره العربيد، فقد كان كل منهما عند المقارنة، شبيهاً بالآخر إلى حدّ أوقع الدهش لا في نفس الشاهد فحسب، بل في نفوس النظارة جميعاً. حتى إذا طُلب من القاضي أن يسأل «صديقي العالم» نَزْعَ لمته المستعارة فأصدر أمره بذلك على كره منه، غدا الشبه ادعى إلى الدهش. وسأل القاضي مستر سترايفر (محامي الدفاع) أيحاكمون مستر كارتون (اسم

صديقي العالم) بعد ذلك بتهمة الخيانة؟ ولكن مستر سترايفر أجاب القاضي بقوله: لا؛ ولكنه يريد أن يسأل الشاهد أن يخبره ما إذا كان الشيء الذي يقع مرة قد يقع مرتين، وما إذا كان شديد الثقة بكلامه لو أنه رأى قبل ذلك بقليل هذا الدليل على تهوّره، وما إذا كان لا يزال واثقاً من صحة ما قال بعد رؤيته ذلك الدليل، وغير هذا مما سحق ذلك الشاهد مثل آنية من فخار، وأحال دوره في الدعوى إلى حطام.

وكان مستر كرانتشر قد أصاب، خلال تتبّعه أقوال الشهود، غداء موفوراً من الصدأ الذي على أصابعه. وكان عليه الآن أن يصغي فيما شرع مستر سترايفر يشرح قضية المتهم على مسامع المحلفين، وكأنه يُلبسهم حلة مُحكمة التفصيل، مظهراً لهم أن الوطني، بارساد، كان جاسوساً وخائناً مأجوراً، ومتاجراً بالدماء لا يعرف وجهه الخجل، وواحداً من أكثر أهل الأرض خساسة منذ يهوذا اللعين ـ الذي يشبهه الشاهد شبهاً كبيراً. وإن كلاي، الخادم المفضال، كان صديقه وشريكه وإنه بذلك جديرٌ. وإن عيون هذين المخادعين الشاهدين زوراً، اليقِظة، التمست ضحية فاستقرت آخر الأمر على المتهم لأن بعض الشؤون العائلية في فرنسة، إذ كان ذا محتد فرنسي، اقتضته القيام بتلك الأسفار عبر القناة، وإن تكن حرمة الآخرين من أقربائه والأثيرين لديه حالت بينه وبين البّوح بها ولو كلفه هذا الكتمان حياته. وإن الشهادة التي انتزعت انتزاعاً من فم السيدة الصغيرة، التي بدا تألمها للادلاء بها واضحاً لكل ذي عينين، لا تنطوي على غير مجاملة وغزل بريء يقع مثله بين أي شاب وفتاة تجمع المصادفة بينهما ـ باستثناء تلك الإشارة إلى جورج واشنطون، التي كانت ممعنة في الغلو وفي الاستحالة إلى حد يجعل من المحتم اعتبارها مجرد نكتة راعية. وإن من العار على الحكومة أن تحاول اكتساب الشعبية من طريق استثمار أحطّ المخاوف الوطنية، وهو الأمر الذي غالى فيه النائب العام إلى أبعد حدود الغلوّ، وأن الدعوى كلها لا تنهض على أساسٍ غير ذلك الضرب من الشهادة الفاجرة المخزية

الذي يشوه أمثال هذه الدعاوى في كثير من الأحيان، والذي تحفل به جلسات المحاكم في هذه البلاد. ولكن القاضي قاطع، هنا، محامي الدفاع (وقد قطب وجهه وكأن هذا كله لم يكن صحيحاً) قائلاً إنه لا يستطيع أن يجلس على كرسي القضاء ويسمع مثل هذا التعريض القاسي.

ثم إن مستر سترايفر استدعى شهوده القلائل، وكان على مستر كرانتشر أن يصغي فيما أمسك النائب العام بالحلة التي أحكم مستر سترايفر إلباسها للمحلفين، وقلبها ظهراً لبطن، ذاهباً إلى أن بارساد وكلاي خيرٌ مئة مرة مما ظنهما، وأن المتهم شرّ مئة مرة مما ظنه، وأخيراً جاء دور حضرة القاضي نفسه وانشأ يقلب الحلة بطناً لظهر حيناً، نازعاً على العموم نزعة وطيدة نحو تشذيبها وإحالتها كفناً للمتهم.

وهنا انصرف المحلفون للتداول في القضية، وطوّف الذباب الأزرق الضخم كرة أخرى.

وبرغم هذا الاهتياج، لم يغير مستر كارتون، الذي سلخ تلك الفترة الطويلة كلها ناظراً إلى سقف المحكمة، لا مكانه ولا مسلكه. ففيما كان صديقه العالم، مستر سترايفر، يجمع أوراقه أمامه ويتهامس مع أولئك الجالسين إلى جانبه، ويختلس بين الفينة والفينة نظرة إلى المحلفين؛ وفيما كان النظارة يتحركون قليلاً أو كثيراً، ويتحلّقون من جديد؛ وفيما نهض حضرة القاضي نفسه عن كرسيه وراح يذرع المنبر في تؤدة جيئة وذهوباً، وقد جال في أذهان النظارة أنه في حال من القلق المحموم - فيما كان ذلك كله جلس الرجل المُفرد مرتداً إلى الوراء، وقد غادر نصف ثوبه الممزق جسده، واستقرت لمته المستعارة غير النظيفة على رأسه حيث اتفق لها أن تستقر بعد نزعها، ووضعَ يديه في بعض جيوبه، وتسمرت عيناه على السقف شأنهما طوال النهار. وكان في مسلكه تهوّرٌ وطيش لم يخلعا عليه هيئة غير مشرّفة فحسب، بل اضعفا أيضاً التشابه القوي الذي كان يجمع، بلا خلاف، ما بينه وبين المتهم (والذي قوّاه ترصنه الموقت حين قوبل بينهما) حتى لقد قال بعض النظارة لبعض،

عندما نظروا إليه الآن، إن من العسير عليهم أن يقولوا إنه يشبه المتهم شبهاً عظيماً. وأبدى مستر كرانتشر هذه الملاحظة لجاره وأضاف: «إني أراهن بنصف جنيه على أن هذا الرجل ليس من القانون في شيء. إنه لا يبدو وكأنه على علم بشيء منه، أليس كذلك؟»

ومع ذلك فقد تابع مستر كارتون هذا تفاصيل المشهد بأكثر مما بدا للناس. إذ ما كاد رأس الآنسة مانيت يُنكّس فوق صدر أبيها حتى كان هو أول من لمح ذلك، وصاح: «أيها الضابط! أنظر إلى تلك السيدة الصغيرة. ساعِدِ الرجل على إخراجها من هنا. أما ترى أنها توشك أن تقع!»

وشيّعها النظارة باشفاقٍ بالغ، ورَثَوْا لأبيها رثاءً كثيراً. كان واضحاً إن ذكرى أيامه في السجن قد أورثته ضنكاً شديداً. فقد تكشّف، حين استُجوب، عن اهتياج داخلي عنيف، وكانت تلك المسحة التأمّلية التي جعلته هرماً قد رانت على وجهه، مثل سحابة ثقيلة، منذ تلك اللحظة. وفيما هو يغادر المحكمة تحدّث المحلفون، الذين عادوا إلى مقاعدهم واستراحوا لحظة، بلسان مقدَّمهم.

إنهم لم يوفقوا إلى الإجماع على رأي، فهم يرغبون في الانسحاب إلى خلوة. وأظهر حضرة القاضي (ولعل جورج واشنطون كان ماثلاً في ذهنه) بعض الدهش لاخفاقهم في الوصول إلى رأي موحّد، ولكنه أعلن عن سروره بأن يخلو بعضهم إلى بعض، تحت الحراسة، وخلا هو إلى نفسه. كانت الجلسة قد استغرقت النهار كله، فإذا بمصابيح المحكمة تُسْرَج. وشاع أن المحلفين سوف يطيلون الخلوة، فانطلق الناس يلتمسون ما يسدون به رمقهم، وارتدّ المتهم إلى مؤخر القفص، وجلس.

وكان مستر لوري قد خرج عندما غادرت السيدة الصغيرة ووالدها قاعة المحكمة، ثم انقلب إليها من جديد وأومأ إلى جيري، الذي أمسى قادراً على أن ينتهي إليه، في يُسر، بعد أن خفّ الازدحام، وقال له: «جيري، إذا كنت راغباً في أن تحصل على شيء تأكله ففي استطاعتك أن

تفعل. ولكن يتعين عليك أن تعود حالما تُقبل هيئة المحلفين. حذار أن تتخلّف بعدهم لحظة، لأني أريد منك أن تنقل الحكم إلى المصرف. أنت أسرع رسول أعرفه، ولسوف تبلغ تامبل بار قبل أن أبلغه بكثير.»

وكان لجيري جبين ضيق لا يكاد يتّسع لمفاصل يده، فلمسه بمفاصله تلك شكراً لمستر لوري على ما أصدر إليه من أمر وما قدم إليه من عطاء بلغ شلناً واحداً. وفي تلك اللحظة بالذات أقبل مستر كارتون ووضع يده على ذراع مستر لوري.

ـ «كيف حال السيدة الصغيرة؟»

ـ «إنها في حال من الغم شديد، ولكن أباها يُسري عنها، وقد خفّفت مغادرتها قاعة المحكمة من بلائها، ورفعت من معنوياتها.»

ـ «سوف أنقل ذلك إلى المتهم. فليس يليق بمصرفيّ جليل مثلك أن يتحدث إليه على مرأى من الناس، كما تعلم.»

وشاع الدم في وجه مستر لوري وكأنه يعي أنه ناقش هذه المسألة في ما بينه وبين نفسه، واتخذ مستر كارتون سبيله إلى خارج المكان المخصّص للمحامين. وكانت الطريق إلى خارج المحكمة تقع في ذلك الاتجاه، فتبعَهُ جيري وكلّه عيون، وآذان، وشَعرٌ شائك!

ـ «مستر دارني!»

وفي الحال تقدم المتهم إلى أمام.

ـ «من الطبيعي أن تكون مشوقاً إلى أن تسمع نبأ عن الشاهدة، الآنسة مانيت. إن حالها في تحسّن مطّرد. لقد كان ما رأيتَهُ من اضطرابها هو أقصاه وأسوأه.»

ـ «آسف أعمق الأسف لأن أكون أنا السبب في ذلك. هل تستطيع أن تنقل لها هذا عن لساني، وتبلغها شكري الحار؟»

ـ «أجل، أستطيع. سوف أفعل إذا سألتَني ذلك.»

كانَ وضْعُ مستر كارتون مهملاً إلى درجة كادت أن تجعله متغطرساً.

فقد وقف متكئاً على الحاجز، في تكاسل، وقد ولّى المتهمَ بعضَ ظهره.

ـ «إني أسألك إياه. تقبّل شكري القلبي.»

فقال كارتون وهو لا يزال مولّياً المتهم بعض ظهره: «ما الذي تتوقعه، يا مستر دارني؟»

ـ «أسوأ الأشياء.»

ـ «ذلك أحفل المواقف بالحكمة وأقربها إلى الاحتمال. ولكنني أعتقد أن انسحابهم هو في صالحك.»

وإذ لم يكن مُجازاً لجيري أن يتسكّع في الطريق المؤدية إلى خارج المحكمة، فقد عجز عن سماع شيء إضافي. وهكذا فارقهما ـ وهما على أعظم التشابه صورةً، وعلى أعظم التباين مزاجاً ـ وقد وقفا جنباً إلى جنب، وعكست المرآة التي في السقف رسمهما معاً.

وتصرّمت ساعة ونصف ساعة، تصرماً ثقيلاً، في الممرات الدنيا المزدحمة بالسفلة واللصوص، على الرغم من استعانتهم على الوقت المتباطئ بالجعة والفطائر المحشوة بلحم الضأن. وكان الرسول الأجش، القاعد في غير رِفه على أحد المقاعد، قد استسلم لسِنة من النوم، بعد ذلك الطعام الخفيف الذي أصابه، عندما ثارت ضجةٌ عارمة وارتفع مدُّ الناس السريع المصعِّد في السلم المؤدي إلى قاعة المحكمة، فجرفه على متنه إلى هناك.

ولم يكد يبلغ الباب حتى ناداه مستر لوري: «جيري! جيري!»

ـ «ها أنا ذا، يا سيدي! إن على المرء أن يخوض معركة كي يرجع إلى هنا. ها أنا ذا، يا سيدي!»

وقدم مستر لوري ورقةً إليه من خلال الحشد وقال: «عجِّل! هل استلمتها؟»

ـ «نعم، يا سيدي؟»

وكان مكتوباً، على تلك الورقة، في عَجل: «غير مذنب.»

وغمغم جيري وهو يستدير: «لو بعثتَ اليوم برسالتك القديمة «لقد بُعث الميت» كرة أخرى، لعرفتُ ما الذي تعنيه هذه المرة.»

ولم تُمكنه الفرصة من يقول أيما شيء آخر، أو أن يفكر بأيما شيء آخر حتى تحظّى تخوم «أولد بيلي». ذلك بأن جمهرة النظارة تدفق إلى خارج المحكمة على نحوٍ عارم كاد أن يرفعه عن سطح الأرض، واندفع أزيزٌ مُدوّ في اتجاه الشارع وكأن الذبابَ الأزرق المخيبة آمالُهُ انتشر في الفضاء بحثاً عن جيفة أخرى.

ـ 4 ـ

تهنئة

كانت الرواسب الأخيرة من الطبخة البشرية التي كانت تطبخ هناك سحابة النهار تصفّى من الممرات المضاءة بنور شاحب عندما وقف الدكتور مانيت، ولوسي مانيت ابنته، ومستر لوري، ومحامي الدفاع مستر سترايفر، متحلّقين حول مستر تشارلز دارني ـ الذي أطلق سراحه منذ لحظة ـ يهنئونه بنجاته من الموت.

وكان من العسير على المرء، حتى ولو كان النور أسطع بكثير، أن يتبيّن في الدكتور مانيت، وقد استقام عوده وعلت وجهه أمارات الثقافة، صانع الأحذية ذاك الذي أقام برهة في العلية بباريس. ومع ذلك لم يكن في ميسور مَن ينظر إليه إلا أن يعيد النظر إليه مرّة أخرى، ولو لم يذهب به النظر إلى الشعور بما يرين على صوته الخفيض من خفوت فاجع، وعلى وجهه الكئيب من ذهول ينتابه على غير انتظام ولغير ما سبب واضح. وبينا كانت بعض الأسباب الخارجية، من مثل الإشارة إلى ما عاناه في سجنه الطويل، تثير دائماً هذه الحال من أعماق روحه ـ كما حدث في المحكمة ـ وكان من طبيعة تلك الحال أيضاً أن تثور من ذات نفسها وأن تلقي على وجهه سحابة قاتمة تخيّل للذين لا يعرفون خبره أنهم رأوا ظل الباستيل الحقيقي وقد خلعته على محياه شمسُ يوم صائف، والباستيل على بعد ثلاثمئة ميل عنه.

وكانت ابنته هي وحدها القادرة على أن تصرف عن ذهنه، كالسحر،

تلك الأفكار السوداء، فقد كانت الخيط الذهبي الذي يربطه بماضٍ ترامى وراء محنتِه، وبحاضر انبسط بعد محنته. وكان لرنّة صوتها، ولإشراق وجهها، وللمسة يدها أثرٌ في نفسه خيّرٌ قوي دائماً تقريباً. وبالرغم من أن تلك القوة أخفقت في بعض الأحيان وسقطت دون الغاية. ولكن تلك الأحيان كانت قليلة نادرة، حتى أمست تعتقد أنها لن تتكرر بعد اليوم.

وكان مستر دارني قد لثم يدها في اتقاد وعرفان جميل، والتفت إلى مستر سترايفر فشكره شكراً حاراً. وكان لمستر سترايفر ـ وهو رجل لا يزيد عمره كثيراً على الثلاثين، ولكنه يبدو أكبر من سنه الحقيقية بعشرين سنة، بدينٌ صاحبُ أحمرُ فظّ، متحرر من أي عائق من عوائق الرقة ـ طريقة تمكّنه من إقحام نفسه (معنوياً وجسدياً) في الجماعات والأحاديث، وتكشف أحسن الكشف عن شَقّه طريقَهُ في الحياة وتصعيده في مراقيها.

كان لا يزال يرتدي «روبه» ولمته، حتى حين أقبل على موكله شاقاً طريقه بمنكبيه على نحو أخرج مستر لوري المسكين من نطاق الجمع، قائلاً: «أنا سعيد بأني وُفقت إلى انقاذك بشرف، يا مستر دارني. لقد كانت التهمة الموجهة إليك تهمة تُلبس المرء عاراً ـ عاراً كبيراً، ولكن ذلك ما كان ليقلل من احتمال نجاحها.»

فقال موكله وقد وضع يده في يده: «لقد طوّقت عنقي بمنّة لا أنساها مدى الحياة، بعد أن رددت إليّ الحياة.»

ـ «لقد بذلتُ غاية جهدي لانقاذك، يا مستر دارني، وغاية جهدي لا تقلّ شأناً عن غاية جهد أيما رجل آخر، في ما أعتقد.»

وإذ كان واجباً على واحد من الجمع، كما هو واضح، أن يقول «بل هي أعظم بكثير» فقد قالها مستر لوري. ولعله لم يقلها مجاملة، ولكنه فعل ذلك ابتغاء استعادة مكانه المضيّع في الحلقة.

قال مستر سترايفر: «أتظن ذلك؟ حسناً، لقد شهدتَ المحاكمة سحابة أعمال النهار، وخليق بك أن تعرف. أنت رجل أعمال أيضاً.»

فقال مستر لوري، وكان المحامي العالم بالقانون قد ردّه إلى مكانه من الحلقة كما سبق له أن صدّه عنه: «وبهذا الوصف التمسُ من الدكتور مانيت أن يفض هذا الاجتماع ويصدر أمره إلينا بالانصراف إلى منازلنا. إن مس مانيت تبدو مريضة؛ ولقد عرف مستر دارني يوماً رهيباً. ونحن جميعاً على إعياء شديد.»

فقال سترايفر: «تحدث باسمك الشخصي، يا مستر لوري. أنا لا يزال أمامي عمل يستغرق بقية الليل. تحدث باسمك الشخصي.»

فأجاب مستر لوري: «أنا اتحدث باسمي، وباسم مستر دارني، واسم مس لوسي و ـ ألا تعتقدين أن في استطاعتي أن أتكلم باسمنا جميعاً، يا مس لوسي؟» وقد وجه إليها هذا السؤال، في توكيد، وهو ينظر إلى أبيها.

وكان وجه الدكتور مانيت قد تجمد إثر نظرة غريبة جداً ألقاها على دارني: نظرة حادة ازدادت عمقاً شيئاً بعد شيء حتى غدت تقطيب اشمئزاز وكراهية ليس يخلو من الخوف أيضاً. حتى إذا ارتسمت هذه الانطباعة الغريبة على وجهه شردت أفكاره وتشتتت.

قالت لوسي وهي تضع يدها، في رفق، على يده: «أبي!»

فصدّ ما ألمّ به، صداً بطيئاً والتفت إليها.

ـ «أتحب أن نذهب إلى البيت، يا أبي؟»

وفي نفَس طويل، أجاب: «نعم.»

كان أصدقاء المتهم المطلق السراح قد تفرقوا بعد أن أوقع هو في روعهم أنه لن ينعم بالحرية تلك الليلة. كانت أضواء الممرات قد أطفئت كلها تقريباً، والأبواب الحديدية توصد في جلجلة وصريف، وكان المكان القاتم قد هُجر ليتدفق عليه الناس من صباح الغد وكلهم شوق إلى حديث المشنقة، والمشهّر، وعمود الجلدِ، والميسم. وكانت مس مانيت تتخذ سبيلها إلى الهواء الطلق ومن حولها أبوها ومستر دارني. واستُدعيت عربة فامتطاها الأب وابنته.

كان مستر سترايفر قد فارقهم في بعض الممرات ليشق طريقه إلى الغرفة التي يضع فيها المحامون «أروابهم». وكان ثمة شخص آخر لم ينضم إلى الجماعة أو يتبادل كلمة واحدة مع أيّ من أفرادها بل استند إلى الجدار حيث كان الظل أشد حلكة. وكان هذا الشخص قد انسلّ خلف القوم، في سكون، وأنشأ يراقبهم حتى مضت العربة لسبيلها. وعندئذ اندفع إلى حيث كان مستر لوري ومستر دارني واقفين على الطريق المعبدة.

ـ «هكذا، يا مستر لوري! يستطيع رجال الأعمال أن يتحدثوا إلى مستر دارني، الآن، أليس كذلك؟»

إن أحداً من القوم لم يكن قد شكر مستر كارتون على الدور الذي لعبه في تلك الدعوى؛ إن أحداً منهم لم يُحطْ به علماً. كان لا يرتدي «روباً»، وما كان «الروب» ليجمّل من مظهره لو لبسه.

ـ «لو عرفتَ أي صراع يدور في ذهن رجل الأعمال، حين يكون ذلك الذهن موزعاً بين حافز الدماثة ومظاهر الحياة العملية، لأبهجك ذلك وأمتعك يا مستر دارني.»

فاحمر وجه مستر لوري وقال في انفعال: «لقد أشرتَ إلى ذلك من قبل. نحن معشر رجال الأعمال، المشتغلين في خدمة مؤسسة من المؤسسات، لسنا سادة أنفسنا. يتعين علينا أن نفكر بالمؤسسة أكثر مما نفكر بأنفسنا.»

فقال مستر كارتون في غير مبالاة: «أعرف، أعرف. لا تَثُرْ، يا مستر لوري. أنت لا تقلّ عن أمثالك طيبَ عنصر، من غير شك. بل إني لأجرؤ على القول إنك أفضل منهم.»

فتابع مستر لوري غير عابئ به: «وفي الواقع، يا سيدي، أنا لا أدري أي علاقة لك بالمسألة، وإذا أجزتَ لي، بوصفي رجلاً أكبر منك سناً بكثير، قلت إني لا أدري أن ذلك من عملك.»

فقال مستر كارتون: «عمل؟ يا للعجب! أنا لا عمل لي.»

ـ «محزن أن لا يكون لك عمل، يا سيدي.»

ـ «أنا أعتقد ذلك، أيضاً.»

فتابع مستر لوري قائلاً: «لو كان لك عمل إذن لكان من الجائز أن تُعنى به.»

فقال مستر كارتون: «رعاك الله، أنا أحسب أني لست أهلاً للعناية بأي عمل.»

فصاح مستر لوري وقد غاظته هذه اللامبالاة إلى أبعد حدود الغيظ: «حسناً، يا سيدي! إن العمل شيء صالح جداً، ومحترم جداً. وإذا كان العمل يفرض عليّ قيوده وعوائقه وفترات من الصمت يقتضيها فإن المستر دارني بوصفه سيداً سمحاً، يعرف كيف يغفر لي هذا الموقف، يا سيدي. مستر دارني، طاب مساؤك، وليباركك الله، يا سيدي! أرجو أن تكون قد ادُّخِرت، اليوم، لحياة سعيدة ناعمة ـ محفّة أيها الحمال!»

وهرع مستر لوري إلى المحفة، ولعله كان غاضباً بعض الشيء من نفسه بالإضافة إلى غضبه من المحامي، فحُمل إلى المصرف. وعندئذ ضحك كارتون، الذي كانت الخمر المعروفة بـ «بورت» تفوح منه والذي بدا وكأنه غير صاحٍ تماماً، والتفت إلى دارني قائلاً: «إنها لمصادفة غريبة هذه التي جمعتك بي وجمعتني بك. ولا شك إنك تعجب لهذه الليلة التي جعلتك تقف أنت وشبيهك، على انفراد، فوق حجارة هذا الشارع.»

فأجاب تشارلز دارني: «يخيّل إليّ إني لمّا أصبح، كرة ثانية، من أبناء هذا العالم.»

ـ «لست استغرب ذلك. فمنذ فترة قصيرة ليس غير، دفع بك دفعاً بعيداً في الطريق إلى عالم آخر. أنت تتكلم في وهن.»

ـ «لقد بدأت أعتقد أني على وشك الاغماء.»

ـ «إذن، فلماذا، بحق الشيطان، لا تتناول طعام العشاء؟ لقد تعشيت

أنا عندما كان أولئك الحمقى يتشاورون في أي عالم ينبغي لهم أن يضعوك ـ هذا العالم، أو عالم آخر غيره. دعني أدلك على أقرب حانة تستطيع أن تتناول فيها عشاء جيداً.»

وشبك ذراعه في ذراعه وهبط به كثيب «لودجيت» إلى «فليت ستريت»، ليصعدا بعد من هناك شارعاً انتهى بهما إلى الحانة. وهناك أدخلا إلى غرفة صغيرة ما لبث تشارلز دارني أن أنعش فيها قواه بعشاء جيد بسيط وخمر طيبة. بينا جلس كارتون تجاهه إلى الطاولة نفسها، وقد وضع زجاجة الـ «بورت» الخاصة به، أمامه، وغلبت على وجهه سيماه نصف المتغطرسة.

ـ «هل أصبحت تشعر الآن أنك رجعتَ جزءاً من هذا الوجود الأرضي يا مستر دارني؟»

ـ «أنا مشوّش إلى حد مروع في ما يتصل بالزمان والمكان. ولكن حالي قد تحسّنت كثيراً حتى لقد صرت أشعر بأني جزء من هذا الوجود.»

ـ «ولا ريب في أن ذلك يوقع في نفسك ارتياحاً ضخماً!»

قال ذلك بمرارة، وملأ كأسه من جديد، وكانت كأساً كبيرة.

ـ «أما أنا فغاية ما أتمناه هو أن أنسى أني جزء من هذا العالم. إنه عالم لا خير لي فيه ـ غير هذه الكأس المترعة ـ ولا خير له فيّ. وهكذا فلسنا شديدي الشبه في هذه الناحية. الواقع، أني بدأت أعتقد أننا لسنا كثيريْ التشابه، أنا وأنت، في أي ناحية من النواحي.»

وإذ كان تشارلز دارني لا يزال مختلط الذهن من هول ذلك النهار، وإذ كان يستشعر أن وجوده هناك وهذا الرجلَ الخشن الجافي ليس إلاّ حلماً، فقد أخذته الحيرة ولم يدرِ بِمَ يجيب. وأخيراً لم يجب بشيء البتة.

وبعد لحظة قال كارتون «أما وقد فرغت من عشائك فلماذا لا تشرب على صحة أحد، يا مستر دارني،؟ لماذا لا تشرب نخب أحد؟»

ـ «صحة من؟ نخب من؟»

ـ «ولكن اسمها على رأس لسانك. ينبغي أن يكون هنا؛ يجب أن يكون هناك؛ أقسم أنه هناك.»

ـ «مس مانيت، إذن!»

وحدّق كارتون إلى وجه رفيقه فيما هو يشرب نخبه، ثم قذف بكأسه من فوق كتفه نحو الحائط فأمست حطاماً. ثم إنه قرع الجرس وطلب قدحاً آخر.

وقال وهو يملأ قدحه: «إنها فتاة مليحة جديرة بأن تشيّع حتى العربة، تحت جنح الظلام، يا مستر دارني!»

وكانت عبسةٌ و «نعم» مقتضبة هما كل جواب دارني.

ـ «إنها فتاة مليحة يتمنى المرء أن تشفق عليه وتبكي من أجله! ما رأيك؟ هل يستحق الفوزُ بهذا العطف وهذه الرقة محاكمةً تتأرجح فيها روح المتهم بين الموت والحياة، يا مستر دارني؟»

وهذه المرة أيضاً، لم يجب دارني بكلام ما.

ـ «لقد كانت سعيدةً جداً بأن تتلقى رسالتك حين حملتُها إليها. أنا لا أعني أنها أظهرت حبورها بالرسالة ولكني أحسب أنها كانت كذلك.»

وكان في تلك الإشارة ما ذكّر دارني بأن هذا الرفيق البغيض قد تطوّع لمساعدته على الخروج من مأزق ذلك اليوم الرهيب. فوجّه الحديث نحو هذه النقطة وشكر له فضله.

فقال كارتون في غير مبالاة: «أنا لا أريد أي شكر، ولا استحقه. كان ذلك عملاً تافهاً، من ناحية، ولست أدري ما الذي حملني على القيام به، من ناحية ثانية. مستر دارني، دعني أوجه إليك سؤالاً.»

ـ «بسرور، وهذا أقل ما أقوم به جزاء خدماتك لي.»

ـ «أتظن أني أحبك حقاً؟»

فأجابه دارني وهو على أعظم الارتباك: «الواقع، يا مستر كارتون أني لم أسأل نفسي قط هذا السؤال.»

ـ «ولكن اسأل نفسك هذا السؤال، الآن.»

ـ «لقد تصرفتَ وكأنك تحبني: ولكني لا أظن أنك تفعل.»

فقال كارتون: «لست أظن أني أحبك. لقد بدأت أحسنُ الظن كثيراً بفهمك.»

وتابع دارني ناهضاً ليقرع الجرس: «ومع ذلك، فليس في هذا ما يحول بيني وبين دفع الحساب، وما يمنعنا من أن نفترق افتراق الأصدقاء.»

فأجاب كارتون: «لا، ليس ثمة ما يمنع ذلك على الاطلاق.»

وقرع دارني الجرس.

وتساءل كارتون، «أتريد أن تدفع حسابي وحسابك جميعاً؟»

حتى إذا جاءه الرد إيجابياً، قال: «إذن ايتني أيها الساقي بزجاجة من الخمر نفسها، وأيقظني في الساعة العاشرة.»

ودُفع الحساب، ونهض تشارلز دارني، وتمنى له ليلة طيبة. ومن غير أن يرد التمني بمثله، نهض كارتون أيضاً وقال في وعيد وتحدٍّ: «كلمة أخيرة يا مستر دارني: اتظنني ثملاً؟»

ـ «أحسب أنك كنت تحتسي الخمر، يا مستر كارتون.»

ـ «تحسب؟ بل أنت تدري أني كنت احتسي الخمر.»

ـ «إذا لم يكن بد من أن أقول ذلك، فسوف أقوله.»

ـ «إذن فسوف تعلم أيضاً لماذا أشرب. أنا كادح مخيّب الآمال، يا سيدي. أنا لا أحفل بأي رجل على سطح الأرض، وليس على وجه الأرض رجلٌ يحفل بي.»

ـ «هذا مؤسف جداً. كان في وسعك أن تفيد من مواهبك على نحو أفضل.»

ـ «قد يكون هذا صحيحاً، يا مستر دارني، وقد لا يكون. وعلى أية حال، فحذار أن تتيه إعجاباً بوجهك الصاحي، فلست تدري ما الذي تخبئه لك الأيام. طاب مساؤك!»

حتى إذا خُلّف هذا الكائن العجيب وحيداً، تناول شمعة ومضى إلى مرآة معلقة على الجدار، وأنشأ ينعم النظر في نفسه.

وغمغم مخاطباً صورته في المرآة: «هل تحب الرجل حقاً؟ ولماذا تخص بالحب رجلاً يشبهك؟ ليس في شخصك شيء يُحَبّ، أنت تعرف ذلك. آه، لعنك الله! أيّ تشويه أنزلتَهُ بنفسك! إن من حسنات الشبه برجلٍ ما أنه يكشف لك حقيقة المستوى الذي سقطتَ عنه، وأيّ شيء كان في ميسورك أن تكون! دَعْهُ يأخذ مكانك وخُذْ أنت مكانه تجدْ تينك العينين الزرقاوين تنظران إليك كما نظرتا إليه، وتجد ذلك الوجه المضطرب يرثي لك كما رثى له! هيا، عبّر عن ذلك بكلمات صريحة! أنت تكره الرجل.»

وفزع إلى زجاجة الخمر يلتمس عندها العزاء. وفي بضع دقائق أتى عليها كلها، واستسلم للنوم متوسداً ذراعيه، وقد انتشر شعره على المائدة، ونسجت الشمعة فوقه من ذائب شحمها كفناً طويلاً.

- 5 -

ابن آوى

كانت تلك الأيام أيام سكر، وكان معظم الناس يشربون الخمر فيسرفون في الشراب. والحقّ أن الزمان أدخل على هذه العادات تحسيناً عظيماً جداً بحيث لو تحدث المرء حديثاً معتدلاً عن مقدار الخمر الذي كان الرجل الواحد يكرعه في ليلة واحدة من غير أن يسيء إلى سمعته كسيّد كامل إذن لاعتُبر حديثه في هذه الأيام مبالغةً مضحكة. وليس من شك في أن حرفة المحاماة لم تكن أقلّ تعبّداً لباخوس، من أي من الحِرَف الأخرى القائمة على أساس من التبحر في العلم. كما أن مستر سترايفر الشاقّ طريقَهُ في سرعة نحو نجاح ضخم رابح لم يكن ليتخلّف عن زملائه في هذا المضمار، فهو يتقدمهم فيه بقدر ما تقدّمهم في شُعَب السباق القانوني الأكثر جفافاً.

وكان مستر سترايفر، بعد أن لمع نجمه في محكمة الجنايات وفي الدعاوى الثانوية، قد شرع يحطم، في احتراس، الدرجات الدنيا من السلم التي يرتقيها. لقد غدت الدعاوى الثانوية وجلسات محكمة الجنايات لا ترتضي بعد اليوم إلاّ فتاها المقدّم تستقبله بذراعين مشوقتين. وهكذا كان في ميسور المرء أن يرى طلعة مستر سترايفر النضرة تشق سبيلها كل يوم نحو قاضي القضاة المتربع في مجلسه بمحكمة صاحب الجلالة وقد انبثقت من بين مَسْكبة اللمم المستعارة كما تشق زهرة دوّار الشمس طريقها نحو الشمس وسط صفّ حافلٍ بالنظائر المتألقة.

وقد لوحظ في أوساط المحامين يوماً أن مستر سترايفر، برغم طلاقة لسانه وجرأته وحضور بديهته، ما كانت له تلك الموهبة التي تمكن المرء من استخلاص لباب القضية من بين ركام من البيانات الخاصة بها والتي تُعدّ من لوازم المحامي الناجح الأساسية. بيد أنه ما لبث أن أصاب تحسناً يلفت النظر في هذه الناحية. وكلما اتسعت أعماله تعاظمت قدرته على النفوذ إلى سر الصناعة. ومهما أطال السهر وأفرط في الشراب مع سيدني كارتون، فقد كنت تجده في الصباح عالماً بدقائق القضية التي أُوكلت إليه، عن ظهر قلب.

وكان سيدني كارتون، وهو أكسل الناس جميعاً وأقلهم حظاً في مستقبل باهر، حليف مستر سترايفر الكبير. وكانت مقادير الخمر التي يشربانها معاً ما بين موسمي القضاء كافية لأن تطفو فيها إحدى سفن صاحب الجلالة. ولم يترافع سترايفر قط في دعوى إلاّ وكان كارتون قاعداً إلى جانبه، وقد وضع يديه في بعض جيوبه، ويحدّق إلى سقف المحكمة. كانا يقومان بجولاتهما القضائية معاً خارج العاصمة، وحتى في هذه الأحوال كانا يعاقران الخمر على مألوف عادتهما، إلى ساعة متأخرة من الليل. وقد تهامس القوم بأن كارتون كثيراً ما كان يُرى عائداً، في وضح النهار، إلى منزله، متسللاً مترنحاً، وكأنه هرة فاجرة عربيدة. وأخيراً ذاع بين أولئك الذين تعنيهم المسألة أنه إذا كان من المتعذر على سيدني كارتون أن يصبح في يوم من الأيام أسداً، فليس من ريب في أنه ابن آوى بارع إلى حدّ مذهل، وأنه يقدّم إلى سترايفر خدمة كبيرة ضمن نطاق كفاءته المتواضعة تلك.

قال نادل الحانة الذي كلفه كارتون بأيقاظه: «الساعة العاشرة، يا سيدي، الساعة العاشرة، يا سيدي.»

ـ «ما المسألة؟»

ـ «الساعة العاشرة يا سيدي.»

ـ «ماذا تعني؟ الساعة العاشرة ليلاً؟»

ـ «نعم يا سيدي، لقد سألتني سعادتك أن أوقظك.»

ـ «أوه! لقد تذكرت. حسن جداً، حسن جداً.»

وبعد بضع محاولات بليدة من الاستسلام للرقاد مرة أخرى ـ محاولات قاومها الرجل في حذق بأن أثار النار بشكل متواصل طوال خمس دقائق ـ نهض ولبس قبعته؛ وخرج. لقد اتجه الـ «تامبل»، حتى إذا انعش نفسه بأن اجتاز مرتين طريقي «كنجز بنش ووك» و «بيير بيلدنغز» مضى إلى منزل مستر سترايفر.

كان كاتب مستر سترايفر الذي لم يشترك في تلك المداولات الليلية قطّ، قد مضى إلى منزله، فقام مستر سترايفر بنفسه يفتح الباب. كان ينتعل مشّاية، ويرتدي جلباباً واسعاً من جلابيب النوم كشف عن نحره على نحو ادعى إلى الاستمتاع بالراحة. وكانت تحيط بعينيه تلك السيما الجافية، المجهدة، الذابلة، التي نألفها عند جميع المستهترين من رجال القانون، ابتداء من اللوحة التي تمثّل جيفريز(*) حتى عصرنا هذا، والتي يمكن أن نتلمّسها، تحت مختلف أقنعة الفن، في لوحات كل عصر من عصور السُكر.

وقال سترايفر: «لقد تأخرت قليلاً أيها الرجل الذكور.»

ـ «لقد جئتُ في الميقات المألوف، تقريباً. لعلي تأخرت ربع ساعة ليس غير.»

ومضيا إلى غرفة قذرة تحيط بها الكتب، وتتناثر في جنباتها الأوراق، وتضطرم في ناحية منها نارٌ لاهبة. وعلى حاجب الموقد الحديدي كان إبريق ينبعث منه البخار، ووسط ركام الأوراق المتناثرة أشرقت طاولة عليها مقادير وافرة من الخمر، والبراندي، والـ «الروم»، والسكّر، والليمون الحامض.

(*) George Jeffreys (1648 ـ 1689) قاض إنكليزي اشتهر بسلوكه غير الأخلاقي الذي لا يتفق وحرمة القضاء.

ـ «لقد شربتَ زجاجتك، في ما يبدو لي، يا سيدني.»

ـ «شربت زجاجتين هذه الليلة، في ما أظن، كنت أتعشى مع الموكل الذي دافعتَ عنه اليوم، أو كنت أراه يتعشى ـ لا فرق، فهما شيء واحد!»

ـ «لقد كانت مسألة الشبه التي أثرتَها، يا سيدني، فكرة ممتازة جداً. فمن أين جئتَ بها؟ ومتى خطرت لك؟»

ـ «لقد حسبتُ أنه فتىً بهيّ الطلعة، وقلت في نفسي إني خليق بأن أكون مثله لو كان لي ذرة من الحظ.»

فضحك مستر سترايفر، حتى لقد أخذ بطنه المتعاظم قبل الأوان يعلو وينخفض.

ـ «تباً لك ولحظّك، يا سيدني! إنصرف إلى العمل، إنصرف إلى العمل.»

وفي نكد، حلَّ ابن آوى ثوبه، ومضى إلى غرفة مجاورة، ثم انقلب حاملاً إبريقاً كبيراً فيه ماء بارد، وحوضاً، ومنشفة أو منشفتين. وغمس المنشفتين في الماء، ثم عصرهما عصراً جزئياً ولفّهما على رأسه على نحو يرعب الناظر إليه، وجلس إلى الطاولة قائلاً: «لقد أصبحتُ الآن مستعداً!»

فقال مستر سترايفر، في حبور، وهو يقلّب أوراقه: «ليس عندنا عمل كثير ينبغي إتمامه الليلة.»

ـ «كم عندنا؟»

ـ «مجموعتان ليس غير.»

ـ «اعطني اسوأهما أولاً.»

ـ «ها هي ذي، يا سيدني. إبدأ العمل!»

ثم إن الأسد استلقى على أريكة قائمة إلى جانب مائدة الشراب، فيما جلس ابن آوى إلى طاولته الخاصة، التي انتثرت عليها الأوراق عند الجانب الآخر من المائدة، وفي متناوله الزجاجات والكؤوس. وفزع كل

منهما إلى مائدة الشراب من غير انقطاع، ولكن على نحوين مختلفين. فأما الأسد فكان مضطجعاً واضعاً يديه في الرباط المطوّق خصرَه، ينظر إلى النار، ويداعب بين الفينة والفينة إحدى الوثائق الثانوية. وأما ابن آوى فكان عاقداً ما بين حاجبيه، مستغرقاً في عمله إلى درجة جعلت عينيه لا تفارقان الأوراق، حتى عندما كانت يده تنبسط التماساً للكأس، فهي تتلمس الطريق دقيقة أو أكثر قبل أن تعثر على الكأس وتحملها إلى شفتيه. ومرتين أو ثلاث مرات استعصت القضية استعصاءً بالغاً حتى لقد اضطر ابن آوى إلى أن ينهض ويغمس المنشفتين في الماء البارد كرة أخرى. وأثر كل حجةٍ كان يقوم إلى الإبريق والحوض ويضع على رأسه كساءً رطباً بالغ الغرابة تعجز الكلمات عن وصفه. وكان في سيما الجد والوقار التي غلبت على محياه ما جعل هيئته ادعى إلى السخرية والاضحاك.

وأخيراً وُفّق ابن آوى إلى أن يُعدّ للأسد وجبة متماسكة، وقدّمها إليه. فتناولها الأسد في عناية واحتراس وتخيّر منها ما حلا له مبدياً ملاحظته عليها، يعينه ابن آوى على ذلك كله. حتى إذا قُتلت الوجبة درساً وضع الأسد يديه في الرباط المطوّق خصره، مرة ثانية، واستلقى ابتغاء التأمل والتفكير. وعندئذ أنعش ابن آوى نفسه بكأسٍ مترعةٍ خصّ بها حنجرته، ومنشفة ندية خصّ بها رأسه، وأفرغ همته في إعداد وجبة أخرى. ولقد قُدّمت هذه الوجبة بالطريقة نفسها إلى الأسد، ولم ينفضا اليد منها إلاّ بعد أن أعلنت الساعةُ الثالثة بعد منتصف الليل.

وقال مستر سترايفر: «أما وقد اتممنا عملنا، ففي استطاعتك أن تصبّ ملء قدح من هذه الخمر يا سيدني.»

نزع ابن آوى المنشفتين عن رأسه، الذي انبعث منه البخار أيضاً، وهز أعطافه، وتثاءب؛ وارتعد، وامتثل للأمر.

ـ «لقد كنتَ بارعاً يا سيدني في تفنيد أقوال شهود التاج هؤلاء، اليوم. كان لكل سؤال أثره.»

ـ «أنا بارع دائماً، ألستُ كذلك؟»

ـ «أنا لا أنكر ذلك. ولكن ما الذي أغضبك؟ أسْعِف نفسك بشيء من الخمر حتى تعاودك الرقة.»

وفي نخيرٍ اعتذاريٍّ، امتثل ابن آوى أمر الأسد كرةً أخرى.

وقال سترايفر وهو يهز رأسه ويقارن ما بين حاضر زميله وماضيه: «أنت لا تزال سيدني كارتون القديم الذي عرفناه في مدرسة شروزبوري العتيقة. سيدني «يا طالعة يا نازلة»(*) القديم. فما إن ترتفع لحظةً حتى تنخفض أخرى. وما إن تأخذ بأسباب المرح، حتى يرين عليك القنوط!»

فأجابه كارتون متنهداً: «آه، أجل! أنا سيدني القديم بعينه. وها هو النحس نفسه الذي لازمني في ما مضى يلازمني اليوم. حتى في ذلك الحين كنت أكتب الفروض المدرسية لزملائي، مهملاً فروضي أنا إلاّ في القليل النادر.»

ـ «ولِمَ لم تكن تكتبها؟»

ـ «الله اعلم. تلك كانت طريقتي في ما أظن.»

وقعد واضعاً يديه في جيوبه، باسطاً رجليه أمامه، ناظراً إلى النار.

وقال صديقه منعطفاً نحوه في تحدٍّ وتوعّد، وكأنّ الموقد هو هذا الفرن الذي يصاغ فيه الجهد الدؤوب، وكأن خير ما يُفعل بسيدني كارتون القديم، سيدني كارتون مدرسة شروزبوري العتيقة، هو قذفه في النار تطهيراً له من داء الإهمال: «كارتون، لقد كانت طريقتك تلك، وما تزال، طريقة عرجاء. إن عملك تعوزه الهمة والهدف. أنظر إليّ.»

فأجاب سيدني في ضحكة أرقّ وأدل على انشراح الصدر: «أوه، كفى إضجاراً، ولا تلبس ثوب الواعظ الأخلاقي!»

(*) هي لعبة صبيانية يضع فيها الأولاد خشبة على حجر ويركب اثنان منهما طرفيها فيتراوحان صعوداً ونزولاً. (المعرب)

فقال سترايفر: «كيف وُفقتُ إلى ما وُفقتُ إليه من نجاح؟ كيف أعمل ما أعمله؟»

ـ «يخيل إليّ أن بعض ذلك راجعٌ إلى أنك تستأجرني لأساعدك، ولكنك لا تضيع وقتك بالالتفات إليّ في هذه الأمور، فأنت تفعل ما تريد أن تفعله. لقد كنتَ دائماً في الصف الأمامي، وكنت أنا دائماً في المؤخرة.»

ـ «لقد كان عليّ أن أشقّ طريقي إلى الصف الأمامي شقاً. أنا لم أولد هناك. أليس هذا صحيحاً؟»

ـ «أنا لم أشهد الاحتفال بموالدك، ولكني أعتقد أنك ولدت هناك.» قال كارتون ذلك وضحك كرة أخرى، ثم ضحكا معاً.

وتابع كارتون كلامه: «لقد احتللتَ مكانك، واحتللتُ مكاني قبل أيامنا في شروزبوري، وخلال أيامنا في شروزبوري، ومنذ أيامنا في شروزبوري حتى الآن. وحتى حين كنا زميلين في حيّ الطلاب بباريس، نقتنص اللغة الفرنسية والقانون الفرنسي، وغير ذلك من الفتات الفرنسي الذي لم نفِد منه شيئاً كثيراً، كنتَ أنت دائماً في مكان ما، وكنتُ أنا دائماً في لا مكان.»

ـ «وغلطة من كانت تلك؟»

ـ «أقسم إني غير واثق من أنها ليست غلطتك. كنتَ لا تفتأ تناضل وتزاحم وتدافع حتى سددت عليّ المنافذ وحملتني على أن أقنع من الحياة بالترهل والراحة. ولكنّ مما يقبض الصدر أن يتحدث المرء عن ماضيه والصبحُ يوشك أن ينبلج. وجّه الحديث وجهةً أخرى قبل أن نفترق.»

فقال سترايفر رافعاً كأسه: «حسن إذن، فلنشرب نخب الشاهدة المليحة. هل اتجهتُ بك وجهة عذبة؟»

ولم تكن تلك الوجهة عذبة، في ما يبدو. ذلك بأن القتام ران على وجهه كرة أخرى.

وغمغم خافضاً بصره إلى كأسه: «شاهدة مليحة. لقد سمعت كثيراً من الشهود هذا النهار وهذا المساء. من هي شاهدتك المليحة؟»

ـ «مسّ مانيت، ابنة الدكتور الآسرة الجمال.»

ـ «اتعدها جميلة؟»

ـ «أليست كذلك؟»

ـ «لا.»

ـ «ولكن، يا إلهي، لقد كانت موضع إعجاب المحكمة كلها!»

ـ «تباً لإعجاب المحكمة كلها! من الذي جعل «أولد بيلي» حَكماً في قضايا الجمال؟ إنْ هي إلاّ دمية ذهبية الشعر!»

فقال مستر سترايفر، ناظراً إليه بعينين ثاقبتين، ماسحاً بيده، في تؤدة، على وجهه النضر: «أتعرف يا سيدني، أتعرف أني حسبت في تلك اللحظة أنك تهفو إلى تلك الدمية الذهبية الشعر، وكنتَ سريعاً إلى رؤية ما حدث للدمية الذهبية الشعر؟»

ـ «كنتُ سريعاً إلى رؤية ما حدث! ولكن إذا ما أصيبت فتاة، سواء أكانت دمية أم لم تكن دمية، بالإغماء على بعد ياردة أو ياردتين من أنف الرجل، فالذي أعتقده أن في ميسوره أن يراها من غير ما حاجة إلى تلسكوب. سوف أشرب نخبها ولكني أنكر الجمال. والآن لن احتسي الخمر أكثر مما فعلت، ويتعين علي أن آوي إلى الفراش.»

وحين تبعه مضيفُهُ إلى السلم، وبيده شمعة تنير السبيل، كان النهار يطلّ بارداً من خلال النوافذ القذرة. وحين غادر المنزل كان الهواء بارداً حزيناً، والسماء الكليلة ملأى بالسحب، والنهر مظلماً قاتماً، والمشهد كله أشبه ببيداء لا حياة فيها. وكانت أكاليل من الغبار تلتفّ ههنا وههناك، قبل ريح الصباح، وكأن رمال الصحراء قد ثارت في مكان بعيد، وأخذت طلائعها تتقدم لتغمر المدينة.

في بعض الطريق، عبر شارع صامت، وقف هذا الرجل ساكناً،

وفي جنبات نفسه قوىً ضائعة، ومن حوله صحراء مترامية، وأجال طرفه لحظة في القفر الممتد أمامه فبصُر بسراب من الطموح المشرّف، وإنكار الذات، والجهد الدؤوب. وفي مدينة رؤياه الجميلة كانت شرفات لا تُدرك باللمس، أطلت منها عليه ملائكة الحب والرحمة، وجنائن تدلت فيها ثمرات الحياة يانعة، وعيون الأمل التي أومضت في ناظريه. وما هي إلاّ لحظة حتى تلاشى ذلك كله. وارتقى هو سلماً مظلمة قادته إلى غرفة عالية، وسط مجموعة من البيوت الغائرة، وانطرح بثيابه على فراش مُهمَل، مبللاً الوسادة بدموعه المضيّعة.

أشرقت الشمس محزونة ملتاعة. إنها لم تشرق قط على مشهد ادعى إلى الحزن من مشهد ذلك الرجل ذي المواهب النادرة والعواطف السامية، العاجز عن توجيهها وجهة فيها خيره وسعادته، الشاعر بثقل بلائه، المُسْلم نفسَهُ لهذا البلاء يتأكّله حتى يأتي عليه.

ـ 6 ـ

مئات من الناس

كان البيت الهادئ الذي يسكنه الدكتور مانيت قائماً عند زاوية شارع هادئ، غير بعيد عن ساحة سوهو. وذات أصيل يوم من أيام الأحد الجميلة، بعد أن تعاقبت على «قضية الخيانة» أمواج أربعة أشهر بطولها قاذفةً بها في عرض اليم، طامسةً على ذكراها واهتمام الناس بها، انطلق مستر جارفيس لوري من حي كلاركِنْويل حيث يقطن، وأنشأ يسير في الشوارع المشمسة، قاصداً إلى منزل الدكتور مانيت ليتناول طعام العشاء معه. وكان مستر لوري قد أمسى ـ إثر عَوْد متكرر إلى المصالح التجارية القديمة ـ صديقاً للطبيب. وبذلك انتهى البيت القائم عند زاوية الشارع إلى أن يصبح هو الجزء المشرق في حياته.

في يوم الأحد الجميل ذاك اتخذ مستر لوري سبيله، عند صدر الأصيل، نحو ساحة سوهو لثلاثة أسباب مألوفة. أولاً، لأنه كثيراً ما كان يخرج، في أيام الأحد الصاحية، فيتمشى قبل العشاء مع الطبيب ولوسي. وثانياً لأنه تعوّد أن يقضي أيام الأحد العاصفة إلى جانبهما، بوصفه صديق الأسرة، فهو يتحدث، ويقرأ، ويُطل من النافذة. وثالثاً، لأنه اتفق أن كانت بعض الشكوك الصغيرة المزعجة تخامره، وكان يعلم أن جوّ ذلك المنزل يشير إلى أن هذا الوقت هو أنسب الأوقات لحلها.

ولم يكن في لندن كلها مكان أعجب من تلك الزاوية التي كان منزل الدكتور مانيت قائماً فيها. كانت مسدودة لا ينفذ المرء إلى شيء وراءها.

وكانت نوافذ منزل الدكتور الأمامية تشرف على رتل من أشجار الشارع العذبة، الساجية، المرفرفة حولها ظلالُ العزلة الأنيسة. ولم يكن آنذاك غير بضعة مبان، شمالي «طريق أوكسفورد»، فكانت الغابات تنمو كثيفةً ملتفة، والزهور البرية تُطلع رؤوسها ههنا وههناك، والزعرور البريّ ينوّر، في تلك الحقول التي زالت الآن من الوجود. وهكذا كانت نسائم الريف تطوّف في «سوهو» بحرية بدلاً من أن تمضي شأنها اليوم، واهنةً متثاقلة، إلى الحيّ مثل الشحاذين التائهين الذين لا مأوى لهم. وكان ثمة، غير بعيد عن المنزل، كثير من الجدران الجنوبية الخصبة التي نضج فوقها الدرّاق في موسمه.

وكان ضياء الصيف ينصبّ على الزاوية، مشرقاً متألقاً في صدر النهار. ولكن ما إن تغدو الشوارع قائظة حتى تنعم الزاوية بالظلّ، ولكنه ليس ظلاً سابغاً، ففي ميسورك أن ترى من ورائه وهج الضياء. كانت بقعة خصِرة وارفة، ساجية ولكنها بهيجة، وموطناً عجيب الأصداء، يفزع إليه الناس من الشوارع الصاخبة.

وكان ذلك المرسى خليقاً بأن ينعم بزورق هادئ؛ ولقد نعم بهذا الزورق حقاً، وكان الطبيب يحتل دورين من بيت ضخم واسع حيث كانت تمارس في النهار مهن متعددة، ولكن من غير أن يُسمع من أصواتها، في أيما يوم، إلاّ النزر القليل، حتى إذا هبط الليل أمسى المكان قفراً موحشاً. وفي أحد المباني الخلفية التي يفضي إليها فناء تصطفق فيه أوراق شجرة من شجرات الدلب، كانت أراغن(*) الكنائس تُصنع، وكانت الفضة تزين بالنقوش، وكان الذهب يُطرّق بواسطة عملاق عجيب كانت له ذراع ذهبية منبثقة من جدار الرواق الأمامي ـ لكأنما حوّل نفسه إلى ذهب وراح يتهدد جميع الزائرين بأن يسوقهم إلى المصير ذاته. ونادراً ما كان الناس يرون أو يسمعون أحداً من أصحاب تلك

(*) جمع أرغن.

الصنائع، أو غيرهم من النازلين هناك، من مثل قاطن متوحّد يُرجف القوم أنه يحيا في أعلى المنزل، وصانع زخارف للمركبات يؤكدون أنه يتخذ من إحدى الغرف السفلى محلاً لعمله. وبين الفينة والفينة كان يجتاز الرواق عاملٌ تائه يرتدي معطفاً، أو غريب يجيل الطرف في ما حوله، وكان يُسمع رنين قصيّ عبر الفناء، أو لطمة من العملاق الذهبي. وعلى أية حال، لم تكن هذه غير شواذ ضرورية لاثبات القاعدة، وهي أن الاطيار التي تحفل بها شجرة الدلب القائمة خلف المنزل والأصداء المنبعثة من الزاوية أمامه، كانت تنطلق على هواها منذ صباح الأحد حتى مساء السبت.

وكان الدكتور مانيت يستقبل المرضى ههنا على قدر ما تسوقهم إليه شهرته القديمة، وانبعاثها في همسات القوم السائرة بقصته. وكان تمكّنه العلمي، ويقظته، وبراعته في القيام بالتجاريب البارعة قد حملت قوماً كثيرين على أن يفزعوا إليه، يلتمسون الشفاء، فهو يكسب من وراء ذلك دخلاً يتكافأ مع حاجاته.

كانت هذه الأشياء غير غائبة عن علم مستر جارفيس لوري وأفكاره وملاحظته حين قرع جرس المنزل الهادئ القائم عند الزاوية، أصيل ذلك الأحد الرائق الجميل.

ـ «هل الدكتور مانيت في المنزل؟»

ـ «لمّا يأت بعد.»

ـ «هل الآنسة لوسي في المنزل؟»

ـ «لمّا تأتِ بعد.»

ـ «هل الآنسة بروسّ في المنزل؟»

ـ «جائز أن تكون في المنزل.» ذلك بأن الخادمة ما كانت متأكدة من مقاصد الآنسة بروس: أراغبة هي في الاقرار بالحقيقة أم في إنكارها.

فقال مستر لوري: «ما دمت استشعر أني غير غريب عن الدار، فسوف ارتقي السلّم.»

وعلى الرغم من أن ابنة الطبيب لم تكن تعرف شيئاً عن البلاد التي أبصرت فيها النور فقد بدت وكأنها استمدّت منها، بالفطرة، تلك البراعة التي تمكن المرء من أن يفيد إلى أبعد الحدود مما في متناوله من وسائل طفيفة وأسباب قليلة، وهي خصلة من أنفع خصال الفرنسيين وأحبها إلى الفؤاد. فقد كان أثاث المنزل ساذجاً بسيطاً، ولكنها عرفت كيف تحليه بعدد من الزخارف الصغيرة التي تنهض قيمتها على سلامة الذوق وحسن التنسيق ليس غير، فإذا هو بهيج يوقع في النفس الرضا. وكان كلّ ما في الغرف، من أكبر الأشياء إلى أصغرها، وتوزيع الألوان، والتنوّع الأنيق، والمغايرة الناشئة عن الاهتمام بالصغائر والدقائق ـ كان كل ذلك ينبئ عن يد صناع، ونظر ثاقب، وذوق سليم، وكان مستملحاً سائغاً في ذاته، معبراً أحسن تعبير عن براعة مبدعته، بحيث ما كاد مستر لوري يقف مجيلاً الطرف في ما حوله حتى تراءى له وكأنّ الكراسيّ والطاولات نفسها تسائله، بشيء من تلك الانطباعة الخاصة التي انتهى الآن إلى أن يعرفها أحسن المعرفة، ما إذا كان ذلك يعجبه ويرضيه؟

وكانت في كل دور من أدوار ذلك المنزل ثلاث غرف. وإذ كانت الأبواب التي تصل ما بينها مشرعةً بحيث يتسرّب الهواء إليها كلها في حرية، فقد راعه ذلك التشابه البارع الذي أحاط به من كل جانب، فابتسم وانشأ ينتقل من غرفة إلى أخرى. كانت الغرفة الأولى خير الغرف، فيها أطيار لوسي، وازهار، وكتب، ومنضدة، وطاولة عملٍ، وصندوق ألوان مائية. وكانت الغرفة الثانية بمثابة عيادة للدكتور مانيت، وكانت الأسرة تتناول فيها الطعام أيضاً. وأما الغرفة الثالثة المرقّطة على نحوٍ غير مستقرّ بأوراق شجرة الدلب المصطفقة فكانت حجرة نوم الطبيب، وهناك، في إحدى زواياها، انتصبت منضدة صانع الأحذية المهجورةُ وطبقُ أدوات العمل كما انتصبت في الدور الخامس من ذلك المنزل الموحش المجاور للحانة في ضاحية سان انطوان بباريس.

وقال مستر لوري وهو يتمهل في إجالة طرفه في ما حوله: «إنني

لأعجبُ له كيف يُبقي في متناوله هذه الأشياء التي تذكّره بآلامه.»

ـ «ولم تَعجب لهذا؟» كذلك فاجأه تساؤلٌ جعله يجفل. وكان هذا التساؤل صادراً عن مس بروسّ، المرأة الحمراء الجلفة المفتولة الساعد التي تعرّف إليها، أول ما تعرّف، في اوتيل رويال جورج في دوفر، والتي تحسّنت صلاته بها منذ ذلك الحين.

وقال مستر لوري: «كان ينبغي أن أفكر...»

فقالت مس بروسّ: «بووه كان ينبغي أن تفكر!» وكف مستر لوري عن الكلام.

وهنا تساءلت تلك السيدة: «كيف حالك؟» وكان في صوتها قسوة، ومع ذلك، فكأنما أرادت بهذا السؤال أن تُظهر أنها لا تضمر له حقداً.

فقال مستر لوري، في وداعة: «أنا في خير حال، أشكرك، وكيف أنتِ؟»

فأجابت مسّ بروس: «لست في حال يمكن الاعتزاز بها.»

ـ «حقاً؟»

فقالت مس بروس: «آه، حقاً! أنا شديدة القلق على عصفورتي الحبيبة.»

ـ «حقاً؟»

فقالت مسّ بروس: «إكراماً لله قل شيئاً غير كلمة «حقاً» وإلاّ أثرتَ أعصابي حتى الموت!»

وعندئذ قال مستر لوري، معدلاً أسلوبه في الكلام: «فعلاً، إذن؟»

فأجابت مسّ بروس: «إن كلمة «فعلاً» رديئة جداً، ولكنها أفضل من سابقتها. أجل، إني شديدة القلق عليها.»

ـ «هل أستطيع أن أسأل عن السبب؟»

فقالت مسّ بروس: «أنا لا أريد أن يَفِدَ إلى هنا عشراتٌ من الرجال غير اللائقين أبداً بعصفورتي الجميلة ويتطوعوا للعناية بأمرها.»

ـ «وهل يَفِدُ عشرات من الناس لهذا الغرض؟»

فقالت مس بروس: «بل مئات.»

وكان من دأب هذه السيدة (شأنَ بعض الناس قبل عصرها وبعده) أن تعمد إلى توكيد قولها الأصلي، من طريق المغالاة فيه، إذا ما آنست من المخاطب شكاً أو تردداً.

ـ «عجباً!» وقد قال مستر لوري هذه الكلمة بوصفها آمن ملاحظة استطاع أن يفكر فيها.

فقالت مسّ بروس: «لقد عشتُ مع الحبيبة ـ أو لقد عاشت الحبيبة معي، ودفعتْ إليّ أجراً على ذلك. وهو أمر كان لها أن تفعله من غير ريب، وتستطيع أن تقسم على ذلك يميناً مغلظة، لو كان في طاقتي أن أقيم أودي وأودها بالمجان ـ منذ أن كان عمرها عشر سنوات. وإن ذلك في الواقع لعسير جداً.»

وإذ لم ير مستر لوري، على وجه الضبط، أيّ شيء هو العسير جداً، فقد هز رأسه، مستعملاً ذلك الجزء الهام من نفسه كضرب من العباءة السحرية التي تتلاءم وكل ما توضَع عليه.

وقالت مسّ بروسّ: «إن مختلف صنوف الناس الذين لا يليقون بطفلتي المدللة لا يفتأون يختلفون إلى هذه الدار. فحين بدأتَ أنتَ ذلك. . .»

ـ «أنا بدأته، يا مسّ بروس؟»

ـ «ألستَ أنت الذي بدأته! من الذي أعاد أباها إلى الحياة؟»

فقال مستر لوري: «أوه إذا كان هذا هو بدايته. . .»

ـ «إنه لم يكن خاتمته، في ما أظن؟ أقول، عندما بدأتَ ذلك الأمر كان على غاية العسر. ولست أزعم ذلك لأني أجد في الدكتور مانيت أيما عيب، خلا أنه غير جدير بمثل هذه البنت. وليس في هذا ما يضيره لأنه ما كان من المتوقع أن يكون أحد جديراً بها في أيما حال من الأحوال. ولكن الواقع أن من العسير على نحو مزدوج ومثلّث أن تتوافد

حشود الناس عليه (سامحه الله) ابتغاء حرماني محبة عصفورتي الجميلة وحنانها.»

وكان مستر لوري يعلم أن مس بروس غيورٌ إلى أبعد الحدود، ولكنه أدرك، الآن، أنها تخفي خلف عصبيتها وغرابة أطوارها، مخلوقة من تلك المخلوقات الخيّرة، اللواتي يتصفن بالغيرية والايثار ـ وهما صفتان لا تقع عليهما إلاّ عند النساء ـ واللواتي لا يحجمن بسائق من الحب والاعجاب الخالصين، عن أن يجعلن من أنفسهن، طوعاً واختياراً، إماء للشباب الذي فقدنهُ، وللجمال الذي لم يملكنه في يوم، وللأمانيّ التي لم يسعدهن الزمن بتحقيقها، وللآمال التي لم تشرق شمسها قطّ على حيويتهنّ القائمة. وكانت الأيام قد عركت مستر لوري بحيث صار يعرف أن ليس ثمة في العالم شيء أسمى من الخدمة الصادقة الصادرة من القلب. وإذ كانت تلك الخدمة تُسدى على ذلك النحو، من غير أن تشوبها شائبة المنفعة، فقد أعجِب بها مستر لوري وأحاطها بأعظم الاكبار، حتى لقد أنزل مس بروس في مراتب الصالحين والطالحين التي أقامها في ذهنه ـ وكلنا يقيم مثل هذه المراتب قليلاً أو كثيراً ـ منزلةً هي أقرب إلى الملائكة الدنيا من منازل كثير من السيدات اللواتي يمتزن عليها بالفطرة والاكتساب، واللواتي لهن رصيدٌ في مصرف تلسون.

وقالت مس بروس: «لم يكن، ولن يكون، غير رجل واحد جدير بعصفورتي الصغيرة، وما ذلك الرجل غير أخي سليمان لو لم يرتكب خطأ في حياته.»

وهنا أيضاً كانت التحقيقات التي قام بها مستر لوري حول تاريخ مس بروس الشخصي قد كشفت عن أن أخاها سليمان كان وغداً قاسي الفؤاد سلبها كل شيء تملكه ليقامر به في المضاربات، وغادرها في وهدة الفقر، إلى الأبد، من غير أن يستشعر شيئاً من وخز الضمير. وكان لحسن ظنها في سليمان (إذ كانت لا تجد في عمله ذاك أكثر من خطأ طفيف) أثره العميق في نفس مستر لوري، فازداد بها إعجاباً.

وحين رجعا إلى حجرة الاستقبال وجلسا هناك في جوّ من الود، قال مستر لوري: «ما دامت المصادفة قد جمعتنا في هذه اللحظة على انفراد، وما دمنا كلانا من أرباب الأعمال فاسمحي لي أن أوجّه إليك سؤالاً: هل يشير الطبيب، في أحاديثه مع لوسي، أيما إشارة إلى ذلك الزمن حين كان يصنع الأحذية؟»

ـ «لا، إنه لا يشير إلى ذلك أبداً.»

ـ «ومع ذلك فهو لا يزال يحتفظ بمنضدة العمل وهذه الأدوات إلى جانبه؟»

فأجابت مس بروس هازّة رأسها: «آه، ولكني لست أقول إنه لا يشير إلى ذلك الزمن في ما بينه وبين نفسه.»

ـ «هل تعتقدين أنه يفكر فيه كثيراً؟»

فقالت مس بروس: «أعتقد ذلك.»

ولم يكد مستر لوري يوجّه إليها سؤالاً جديداً قائلاً: «هل تتخيلين...» حتى قطعت عليه مس بروس الطريق بقولها: «أنا لا اتخيل أيّ شيء. أنا لا أملك أيما خيال البتة.»

ـ «سأصحح هذا الخطأ: هل تحسبين... أيذهب بك الأمر إلى حدّ أن تحسبي، في بعض الأحيان؟»

فأجابته مس بروس: «بين الفينة والفينة.»

فتابع مستر لوري كلامه، وقد أشرق في عينيه الساطعتين، فيما نظرتا إليها في رفق، بريقٌ ضاحك: «هل تحسبين أن الدكتور مانيت يعرف شيئاً عن سبب ما حلّ به من ظلم أو ربما عن اسم غريمه؟»

ـ «أنا لا أحسب شيئاً حول ذلك غير ما تقوله لي عصفورتي الجميلة.»

ـ «وهو...»

ـ «إنها تعتقد أنه يعرف.»

ـ «أرجو أن لا تغضبي لتوجيهي هذه الأسئلة كلها إليك، لأني مجرد رجل أعمال غبيّ، وأنتِ امرأة أعمال أيضاً.»

فتساءلت مس بروس في أناة: «غبيّ؟»

فأجابها مستر لوري، راغباً في أن يذود تلك الصفة المتواضعة عن نفسه: «لا، لا، لا. ولنعد الآن إلى العمل: أليس من العجيب أن لا يشير الدكتور مانيت (وهو البريء براءة لا يتطرق إليها الشك من أيما جريمة من الجرائم كما نعرف جميعاً أحسن المعرفة) إلى ذلك الأمر إشارة ما؟ أنا لا أعجب لعدم إثارته هذه المسألة معي، برغم العلائق التجارية التي شدّتني إليه منذ سنوات بعيدة وبرغم أنّا الآن صديقان حميمان. ولكني أعجب لعدم إثارته إياها مع ابنته الجميلة التي يحبها حباً جماً والتي تحبه حباً جماً. صدقيني، يا مسّ بروسّ، أنا لا افاتحك في هذا الموضوع، بدافع من الفضول، ولكنْ بدافع من الاهتمام البالغ به.»

فقالت مس بروس وقد رقّق حاشيتَها الاعتذار الذي صدر عنه: «حسناً؛ يخيل إليّ بعد التفكير العميق ـ وقد تقول لي إن تفكيري العميق هذا سطحي ـ أنه يخشى الموضوع كله.»

ـ «يخشى الموضوع؟»

ـ «ليس عجيباً، في ما أظن، أن يخشاه. إنها ذكرى رهيبة. وإلى ذلك فقد نشأ فقدانه نفسَهُ عن ذلك. وإذ كان لا يعرف كيف فقد نفسه فمن الجائز أن يظل على خوف مقيم من أن يفقد نفسه كرة أخرى. وهذا وحده كافٍ لأن يجعل الموضوع بغيضاً إليه، في ما أرى.»

كانت ملاحظة أعمق مما توقعه مستر لوري فقال: «هذا شيء صحيح، ومن المروّع أن يفكر المرء فيه. ومع ذلك، فثمة شك يخامرني يا مسّ بروس، وهو هذا: أليس خطراً أن يواصل الدكتور مانيت كبتَ هذه الذكرى الفاجعة في ذات نفسه؟ الواقع، أن هذا الشك وما يورثني إياه من قلق هو الذي قادني إلى التحدث إليك هذا الحديث.»

فأجابت مسّ بروس: «لا حيلة لنا في ذلك. حاول أن تمسّ ذلك الوتر ينقلب في الحال إلى ما هو أسوأ. من الخير أن ندعه وشأنه. وعلى الجملة، إن علينا أن ندعه وشأنه سواء أحببنا أم كرهنا. وقد ينهض أحياناً، في منتصف الليل، فنسمعه، فوق رأسينا هناك، يذرع غرفته جيئة وذهوباً، ويذرعها ذهوباً وجيئة. وقد أدركت عصفورتي الجميلة بعد ذلك أن عقله كان يذرع حجيرته جيئة وذهوباً، ويذرعها ذهوباً وجيئة، هناك في سجنه القديم. فهي تهرع إليه، وتذرع معه الغرفة جيئة وذهوباً وتذرعها معه ذهوباً وجيئة حتى تعاوده الطمأنينة ولكنه لا يقول لها أيما كلمة عن سر هذا القلق وسببه الحقيقي، وهي ترى أن من الخير أن لا تسأله عن ذلك ولو تلميحاً. فقط تذرع الغرفة وإياه، في صمت، جيئة وذهوباً، وتذرعها وإياه ذهوباً وجيئة، حتى يردّه حبها ويردّه الانس بها إلى نفسه.»

وبرغم إنكار مسّ بروس أن تكون لها مقدرة على الخيال فقد كان في تكرارها لعبارة «يذرع الغرفة جيئة وذهوباً» ما يؤذن بأنها تعاني ألماً ناشئاً عن استحواذ فكرة محزونة وحيدة على عقلها، فهي ما تفتأ تعاودها على نحو رتيب. وهذا يدل على أنها تملك القدرة على الخيال.

لقد سبق منا القول إن تلك الزاوية كانت موطناً عجيباً للاصداء. وها هي الآن شرعت تردد على نحو مرنان صدى وقع الأقدام المتخذة سبيلها إلى المنزل، حتى لكأن مجرد الإشارة إلى ذَرع الغرفة جيئة وذهوباً قد أطلق تلك الأقدام من عقالها.

قالت مسّ بروس وقد نهضت لتختم ذلك الاجتماع: «ها قد أقبلا! ولسوف يفد علينا مئات الناس عما قريب!»

كانت زاويةً بالغة الغرابة، في خصائصها السمعية، بل كانت أذناً ضخمة عجيبة تنقل كل صوت ونأمة. فما إن وقف مستر لوري أمام النافذة المُشْرَعة مترقباً الأب وابنته بعد أن سمع وقع أقدامهما، حتى خيّل إليه أنهما لن يصلا أبداً. ولم تكن الأصداء لتتلاشى وكأن وقع الأقدام قد زال فحسب، بل كانت تُسمع بدلاً منها أصداء منبعثة من وقع أقدام لم

تصل قط، ثم تتلاشى إلى الأبد لحظة يتراءى للمرء أنها أمست على قيد شعرة منه. وأياً ما كان، فقد أطل الأب وابنته آخر الأمر، وهرعت مسّ بروس إلى الباب الخارجي المنفتح على الشارع لكي ترحب بهما.

كان مشهد مس بروس، برغم جلافتها واحمرارها وتقطيبها، مشهداً ظريفاً، إذ أقبلت على قبعة حبيبتها، حين ارتقت السلم، فنزعتها عن رأسها وانشأت تلامسها بأطراف منديلها، وتنفخ الغبار عنها، وتطوي بُرنسها استعداداً لحفظهِ، وتداعب شعرها الخصب في مثل الاعتزاز الذي كان يمكن أن يغمرها لو كان ذلك الشعر شعرها، ولو كانت هي أجمل النساء وأكثرهن عُجباً. وكان مشهد حبيبتها ظريفاً أيضاً، وقد عانقتها، وشكرتها، واحتجت على تجشيمها نفسها هذا العناء كله من أجلها ـ وإنما فعلت ذلك، أعني الاحتجاج، على سبيل المزاح، خشية أن تجرح عواطف مس بروس، وعندئذ تنقلب إلى غرفتها وتستسلم للبكاء. وكان مشهد الطبيب ظريفاً أيضاً، وقد نظر إليهم جميعاً وقال لمسّ بروس إنها قد أفسدت لوسي بتدليلها إياها، وإن تكن نبراته ونظراته لا تقلّ افساداً لابنته أو تزيد إذا كان ثمة سبيل إلى الزيادة. وكان مشهد مستر لوري هو الآخر ظريفاً كذلك. وقد ابتسم لهذا كله، وعلى رأسه لمته المستعارة الصغيرة، شاكراً نجومه التي هدته في أواخر أيامه إلى منزل يفيء إليه. بيد أن مئات الناس لم تفد على المنزل لترى هذه المشاهد. وبحث مستر لوري عن مصداق لنبوءة مس بروس، ولكن على غير طائل.

وحان وقت العشاء، ومع ذلك فلم تفد على المنزل مئات من الناس. وفي تدبير ذلك المنزل الصغير نهضت مس بروس بعبء الدور السفليّ نهوضاً بارعاً كان موضع الإعجاب دائماً. كانت موائد العشاء التي تعدها من نوع متواضع جداً ولكنها كانت من حُسن الطبخ، وبراعة السكب ـ فهي ليست إنكليزية خالصة، وليست فرنسية خالصة، ولكنها مزاج من هذا وذاك ـ بحيث بلغت الغاية من الكمال. وإذ كانت صداقة مس بروس من النوع العملي المحض فلم تدع زاوية في ساحة سوهو

والمواطن المجاورة إلاّ قصدت إليها بحثاً عن فرنسي معدم تستطيع أن تغريه ببضعة شلنات فيدلي إليها بأسرار صناعة الطبخ. ومن أبناء بلاد الغال المتهرئين هؤلاء وبناتها اكتسبت فنوناً بارعة إلى درجة جعلت المرأة والفتاة اللتين تشكلان هيئة الخدم في المنزل تنظران إليها وكأنها ساحرة، أو عرّابة من عرّابات «ساندريلا»: تطلب دجاجة، أو ديكاً، أو أرنباً، أو بعض الخُضر من الحديقة، وتحيلها إلى أيّ شيء تريد.

وفي أيام الأحد كانت مس بروس تتناول طعام العشاء على مائدة الطبيب، أما في الأيام الأخرى فكانت تصرّ على أن تتناول وجباتها في فترات مجهولة، إما في الدور السفلي أو في غرفتها الخاصة في الدور الثاني ـ وهي غرفة كئيبة لم يوفق إلى دخولها أحدٌ غير عصفورتها الجميلة، وفي مثل هذه المناسبات، كانت مس بروس تهش وتبش إلى حد مغالى فيه استجابة لوجه عصفورتها الجميلة العذب وجهودها البهيجة لإرضائها. وهكذا كان مشهد العشاء ظريفاً جداً، أيضاً.

كان نهاراً قائظاً، وبعد العشاء اقترحت لوسي أن تحمل آنية الشراب إلى شجرة الدلب، فيحتسوا الخمر في ظلها، في الهواء الطلق. وإذ كانت هي محور حياة الأسرة فقد نزلوا عند رغبتها وحملت هي كأس مستر لوري وخمره، وكانت قد أقامت من نفسها، منذ حين، ساقيةً للجماعة. حتى إذا فاءوا إلى ظل الشجرة وأخذوا بأطراف الأحاديث عنيت بأن تبقي كأسه مترعة. واختلست ظهورُ مساكن غامضةٌ وأطرافها النظر إليهم وهم يتسامرون؛ ومن فوقهم همست شجرة الدلب في آذانهم، على طريقتها الخاصة.

وتصرّمت فترة صالحةٌ، ولكن مئات من الناس لم تفد على المنزل. لقد وفد مستر دارني عليهم بينا كانوا ينعمون بظل الشجرة، ولكن دارني لم يكن غير رجل واحد.

ورحب به الدكتور مانيت ترحيباً كريماً، وكذلك فعلت لوسي. أما مسّ بروس فأصيبت فجاءةً باختلاج في الرأس والجسد، فانسحبت إلى

المنزل. كانت كثيراً ما تقع ضحية هذا الاضطراب، وكانت تدعوه، في الحديث العادي «نوبة الانتفاضات.»

كان الطبيب في أحسن أحواله، فهو يبدو شاباً نضر العود. وكان الشبه بينه وبين لوسي قوياً جداً في مثل هذه الفترات. وكان مما يُبهج النفس أن يتأمل المرء هذا الشبه حين جلس الأب وابنته جنباً إلى جنب، فأما هي فقد انحنت فوق كتفه، وأما هو فقد أراح ذراعه على ظهر كرسيها.

كان قد تحدّث سحابة النهار في موضوعات متعددة، وفي مرح نادر. وإذ انتهوا إلى الكلام على مباني لندن العتيقة فقد قال مستر دارني وهم يستظلون بشجرة الدلب: «هل لي أن أسأل الدكتور مانيت ما إذا كان قد رأى شيئاً كثيراً من برج لندن؟»

ـ «لقد ذهبت أنا ولوسي إلى هناك، ولكن في فترات قليلة متباعدة. وشاهدنا منه ما أعلمنا أنه ماتع ظريف.»

فقال دارني في ابتسام، وإن يكن دم الغضب قد شاع في وجهه بعض الشيء: «لقد كنت أنا فيه كما تذكر، ولكن في حال غير حالكما، وفي وضع لم يكن ليساعدني على أن أرى شيئاً كثيراً منه. لقد حدثوني وأنا هناك حديثاً عجباً.»

فسألته لوسي: «وما ذاك؟»

ـ «بينا كان العمال يُحدثون بعض التعديل هناك، عثروا على حجرة أرضية قديمة بنيت منذ سنوات عديدة ثم نُسيت. كان كل حجر من حجارة جدارها الداخلي مغطى بنقوش نقشها السجناء فيه: تواريخ، واسماء، وشكاوى، وأدعية. وعند أحد أحجار الزاوية نقش سجين يبدو أنه سيق إلى المشنقة فيما بعدُ، ثلاثة أحرف هي آخر عمل قام به في حياته. وإنما فعل ذلك بأداة كليلة جداً، وعلى نحو متعجّل، وفي يد قلقة مرتعشة. ولقد قُرئت تلك الأحرف بادئ الأمر هكذا. D.I.C حتى إذا دُرِست في روية ظهر أن الحرف الأخير هو G وليس C. وإذ لم يكن بين

السجناء من تشكل هذه الأحرف أوائل اسمه الكامل فقد ذهبوا في تأويلها مذاهب شتى لم يحالفها التوفيق. وأخيراً ألمع بعضهم إلى أن تلك الأحرف ليست أوائل اسم من الاسماء ولكن كلمة تامة: DIG (أي: إحفرْ). ونقبوا ما وراء النقش فإذا هم يجدون في باطن الأرض، خلف حجر أو قرميدة أو قطعة من بلاط، رماد ورقة مختلطاً برماد محفظة جلدية صغيرة. إن ما كتبه ذلك السجين المجهول سوف يظل أبد الدهر لغزاً لا سبيل إلى قراءته، ولكنه كتب شيئاً ما وخبأه لكي يظل في نجوة من عيني السجناء.

وصاحت لوسي: «بابا، إنك مريض!»

كان قد نهض فجاءة، واضعاً يده على رأسه. وكان في مسلكه والانطباعة التي رانت على وجهه ما روّعهم جميعاً.

وقال: «لا، يا عزيزتي، أنا لست مريضاً. إن ثمة قطرات مطر كبيرة تهطل، ولقد جفّلتني. وأحسب أن من الخير أن ندخل المنزل.»

وفي مثل لمح البصر تقريباً استعاد وضعه السويّ. كان المطر يهطل في قطرات كبيرة حقاً، ولقد أراهم ظاهر كفه وعليها حباتٌ منه ولكنه لم يُشِرْ ولو بكلمة واحدة إلى الكشف الذي حُدّث حديثه. وفيما هم يتخذون سبيلهم إلى الدار تبيّنت عين مستر لوري التجارية اليقظة، أو خيل إليها أنها تبينت، على وجه الطبيب، لحظةَ التفتَ إلى تشارلز دارني، تلك الانطباعة الغريبة نفسها التي رانت عليه يوم التفت نحوه في ممرات محكمة الجنايات.

بيد أن الطبيب استردّ نشاطه في سرعة بالغة جعلت مستر لوري يتهم عينه التجارية اليقظة. ولم تكن ذراع العملاق الذهبي أكثر منه ثباتاً ورباطة جأش، عندما وقف تحتها ليقول لهم إنه لم يكوّن بعدُ المناعة الكافية ضد المفاجآت الطفيفة (إذا كان مقدّراً له أن يكوّنها في يوم من الأيام)، وأن هطول المطر قد جفّله.

وحان موعد الشاي، وانصرفت مس بروس إلى إعداده وقد أصابتها

نوبة أخرى من الانتفاضات، ومع ذلك لم تفد على الدار مئات من الناس. كان مستر كارتون قد أقبل في خطى وئيدة متكاسلة، ولكنه جعل عدد الوافدين يرتفع من واحد إلى اثنين، ليس غير.

كانت الليلة حارة ثقيلة الهواء إلى حدّ جعلهم يستشعرون وطأة الحرارة على الرغم من فتحهم الأبواب والنوافذ على مصاريعها. حتى إذا فرغوا من احتساء الشاي انتقلوا جميعاً إلى إحدى النوافذ وأطلوا منها على الغسق الكئيب. لقد جلست لوسي إلى جانب أبيها، وجلس دارني إلى جانبها، واتكأ كارتون على نافذة. كانت الستائر طويلة بيضاء، والريح الراعدة التي دوّمت في الزاوية قد فاجأتها فرفعتها إلى السقف وموّجتها مثل أجنحة.

قال الدكتور مانيت: «إن قطرات المطر لا تزال تهطل ضخمةً، ثقيلةً، قليلة. إنها تسقط في بطء.»

فقال كارتون: «إنها تسقط من غير ريب.»

وتحدثوا في صوت خفيض، كما يتحدث في معظم الأحوال أناس يراقبون شيئاً أو ينتظرون شيئاً ـ كما يتحدث دائماً أناسٌ انتظمتهم غرفة مظلمة فهم يراقبون البرق وينتظرونه.

إن الناس في الشوارع ليهرعون إلى منازلهم يعتصمون بها من العاصفة المؤذنة بالانطلاق. وضجت زاوية الأصداء العجيبة بأصداء أقدام تروح وتجيء، ومع ذلك فلم يروا قدماً البتة.

وقال دارني بعد أن أصاخوا لحظة: «جمهرة من الناس، ومع ذلك فثمة وحدة موحشة.»

وتساءلت لوسي: «أليس هذا مثيراً! لقد جلست هنا في بعض الأمسيات واسترسلت في الخيال ـ ولكن حتى ظلُّ وهمٍ أحمق يجعلني أرتعد الليلة، حيث كل شيء أسود مهيب. . . . . .»

ـ «دعينا نرتعد أيضاً. في استطاعتنا أن نسمع قصة ذلك.»

ـ «إنها لن تبدو في نظرك شيئاً. فمثل هذه الأوهام والوساوس إنما

تثير صاحبها حين تراوده، ومن المتعذر نقلها إلى الآخرين. لقد قعدتُ وحيدةً، ههنا، في بعض الأمسيات، وأنشأتُ أصغي حتى تبدّى لي أن تلك الأصداء هي أصداء جميع الخطوات التي سيدخل أصحابها في إطار حياتنا.»

فاندفع سيدني كارتون إلى القول، على طريقته النكدة: «إذا كان ذلك كذلك فسيدخل إطار حياتنا في يوم من الأيام حشدٌ كبير من الناس.»

وتعاقبت الخطى، وازدادت سرعتها تعاظماً. وردّدت الزاوية وقع الأقدام على نحو موصول، وكان بعضها ـ في ما تراءى لهم ـ تحت النوافذ، وكان بعضها ـ في ما تراءى لهم أيضاً ـ في الغرفة نفسها. كان بعضها يغدو، وكان بعضها يجيء. كان بعضها ينقطع فجأة، ثم يستأنف السير، وكان بعضها يقف نهائياً. كانت كلها تضج في الشوارع القصيّة، ولكنّ أياً منها لم يقع في مدى النظر.

ـ «أتحسين يا مس مانيت أن جميع هذه الأقدام مقدّر لها أن تَفد علينا جميعاً أم أننا سنتوزعها في ما بيننا؟»

ـ «لست أدري يا مستر دارني. لقد قلت لك إن ذلك وهمٌ أحمق، ولكنك سألتني أن أحدثك عنه. فحين استسلمتُ لذلك الوهم كنت وحيدةً، ثم تخيّلت أن تلك الخطى تنطلق بها أقدام الناس الذين سيطرأون على حياتي وحياة أبي.»

فقال كارتون: «أنا ارتضيها لحياتي. أنا لا أوجّه أسئلة ولا اشترط شروطاً. إن ثمة حشوداً ضخمةً تُقبل نحونا يا مس مانيت، وأنا أرى هذه الحشود ـ على ضوء البرق.» وإنما أضاف الكلمات الأخيرة بعد أن أومضت السماء إيماضة ساطعة أظهرت كيف كان يتكئ مسترخياً على النافذة.

وأضاف بعد أن دوّى قصف الرعد: «وإني لأسمعها. ها هي ذي تُقبل مسرعةً، ضاربةً، متميزة من الغيظ!»

وإنما صور بهذه الألفاظ انهمار المطر وهديره. وأسكته الوابل المنسكب، إذ لم يكن في الإمكان أن يُسمع معه أيما صوت من الأصوات. ومع ذلك الغيث المدرار انفجرت عاصفة من الرعد والبرق تاريخية، ولم تنقض لحظة من غير قصف ولا إيماض ولا تهطال إلى أن طلع القمر عند منتصف الليل.

كان الناقوس الكبير يدق الواحدة، في كنيسة القديس بولس ـ وكان الهواء قد صفا عندما انطلق مستر لوري، يصحبه جيري منتعلاً حذاءً عالي الساق حاملاً بيده فانوساً، عائداً إلى كلارِ كنْوَيل. كانت رقعٌ منعزلة من الطريق تقوم ما بين سوهو وكلار كنويل، وإذ كان مستر لوري يخشى قطّاع الطرق فقد كان يستبقي جيري لحمايته، وإن تكن العادة قد جرت بأن تتم هذه الحماية قبل ساعتين اثنتين من ذلك الموعد.

قال مستر لوري: «يا لها من ليلة مروعة! يخيّل إليّ يا جيري إنها أشبه ما تكون بالليلة التي يُبعث فيها الموتى من قبورهم.»

فأجابه جيري: «أنا لم أشهد بنفسي قط، أيها المعلم، تلك الليلة، ولا أتوقع أن أشهدها.»

وقال رجل الأعمال: «طاب مساؤك، يا مستر كارتون. طاب مساؤك، يا مستر دارني. ترى هل سنشهد معاً مثل هذه الليلة كرة أخرى؟»

ربما. ربما يشهدون حشود الناس الضخمة تُقبِل نحوهم منهمرةً هدارةً، أيضاً!

ـ 7 ـ

مولانا في المدينة

كان مولانا ـ وهو أحد كبار النبلاء ذوي السلطان في البلاط ـ يقيم حفلة استقباله نصف الشهرية في قصره الفخم بباريس. وكان مولانا في غرفته الداخلية، وهي هيكل الهياكل، وقدس الأقداس في أعين الجموع المتعبدة له في الغرف الخارجية. كان مولانا على وشك أن يتناول شراب الشوكولا. وكان في استطاعة مولانا أن يزدرد أشياء كثيرة في يُسر، بل لقد زعمت بعض العقول القليلة المتبرمة أنه شرع يزدرد فرنسة في سرعة بالغة. ومع ذلك فما كان شراب الشوكولا الصباحي ليستطيع أن يبلغ حلقوم مولانا من غير مساعدة أربعة من الرجال الأشداء، بالإضافة إلى الطاهي.

أجل، لقد احتاج إيصال الشوكولا السعيدة إلى شفتي مولانا لأربعة رجال يتوهج كل منهم بالحلي والزخارف، ويعجز رئيسهم عن العيش إذا كان في جيبه أقل من ساعتين ذهبيتين، وفقاً للسنّة النبيلة الطاهرة التي أقامها مولانا. لقد حمل أحدهم وعاء الشوكولا إلى الحضرة المقدسة. وشرع ثانٍ يضرب الشوكولا ويُرغيها بأداة صغيرة كان يحملها لهذا الغرض. وقدّم ثالث المنشفة المحظوظة، وصبّ رابع (هو صاحب الساعتين الذهبيتين) الشراب. وكان من المتعذر على مولانا أن يستغني عن واحد من هؤلاء المعنيين بتقديم شراب الشوكولا إليه ثم يحتفظ بمكانته الرفيعة تحت قبة السماء المعجبَة. ولو قد نهض بعبء خدمته

وهو يتناول شراب الشوكولا ثلاثة رجال ليس غير إذن لأصابت صفحة شرفهِ وصمةٌ ليس إلى محوها من سبيل. أما إذا اضطر إلى الاكتفاء برجلين اثنين فعندئذ تحين منيّته من غير ريب.

وكان مولانا قد شهد أمس حفلة ساهرة صغيرة قدّمت فيها «الكوميدي» والـ «غران أوبرا» برامج فاتنة. وكان من دأب مولانا أن يشهد في معظم الليالي حفلات ساهرة صغيرة مع رفاق له ظرفاء مختارين. ولقد كان جنابه من اللطف ورقّة الطبع بحيث كانت إرادة «الكوميدي» والـ «غران أوبرا» أرجح عنده في شؤون الدولة وأسرارها المتعبة من حاجات فرنسة كلها. وكان ذلك من حظ فرنسة حقاً، شأن جميع البلاد التي خصّها الله بمثل هذه النعمة! وشأن بريطانية دائماً (على سبيل المثال) في الأيام المأسوف عليها التي شهدها عهد ملكها المرح الذي باعها، وكان من أسرة ستيوارت.

ولم تكن لمولانا غير فكرة واحدة نبيلة حقاً في ما يتصل بشؤون البلاد العامة، وهي أن يَدَع كل شيء يتخذ سبيله كيفما شاء. أما في شؤون البلاد الخاصة فكانت له كذلك تلك الفكرة النبيلة حقاً، وهي أن يُجري كل شيء كما يريد هو، مضخماً بذلك سلطانه الخاص وجيوبه الخاصة. وأما مباهجه، سواء أكانت عمومية أم خصوصية، فكانت لمولانا في أمرها فكرة نبيلة أخرى، وهي أن العالم كله لم يخلق إلاّ لإرضائها. وكانت آية مذهبه (التي لم تختلف عن الأصل إلاّ بضمير واحد، وليس هذا شيئاً خطيراً) تجري هكذا: «إن الأرض وما عليها ملك لي، كذلك يقول مولانا.»

ومع ذلك فقد اكتشف مولانا، في بطء، أن بعض العوائق السوقية المبتذلة أخذت تعترض سبيل مصالحه الخاصة والعامة. فما كان منه إلاّ أن صاهر، ابتغاء الحفاظ على مصالحه الخاصة والعامة جميعاً، رجلاً من ملتزمي جباية الضرائب. لقد أفاد منه في تدبير شؤونه المالية العامة لأن مولانا لم يكن يفقه شيئاً منها البتة، فهو مضطر إلى أن يعهد في

أمرها إلى خبير، وأفاد منه في شؤونه المالية الخاصة لأن ملتزمي جباية الضرائب كانوا أثرياء، وكانت ثروة مولانا قد تضاءلت بعد أجيال من البذخ والإسراف. وهكذا أخرج مولانا أخته من أحد الأديار ـ قبل أن تترهب نهائياً ـ وقدمها هدية إلى ملتزم ضرائب بالغ الثراء، وضيع النسب. وكان صاحبنا هذا جالساً اللحظة مع الجالسين في الغرف الخارجية، حاملاً خيزرانة في رأسها كرة من الذهب، وكان موضع إجلال الجنس البشري، باستثناء أولئك البشر الممتازين الجاري في عروقهم دم مولانا، الذي كان هو وزوجته نفسها ينظران إليه في ازدراء متقزز.

وكان ملتزم جباية الضرائب هذا رجلاً مترفاً كان في أسطبله ثلاثون جواداً وفي أروقة قصره أربعة وعشرون خادماً ذكراً، على حين كان يخدم زوجته ستّ من النساء. وإذ كان لا يتظاهر بعمل شيء غير السلب والنهب، حيث وُفّق إليهما، فقد كان ذلك الملتزم ـ بصرف النظر عن مدى الحصانة الاجتماعية التي تمّت له إثر زواجه ـ أقرب إلى الواقع وأبعد عن الزيف من جميع تلك الوجوه التي اجتمعت في قصر مولانا ذلك اليوم.

فغرف القصر، برغم مظهرها الفاتن وبرغم ازدهائها بمختلف أسباب الزخرف التي استطاع ذوق العصر وبراعته استنباطها، كانت في الحق غارقة في الزيف. ولو نُظر إليها على ضوء الفقراء ذوي الأسمال البالية المنتشرين في كل مكان (ولم يكن مشهدهم بعيداً عن المحتشدين في قصر مولانا، فقد كان في وسع المطلّ من أحد أبراج كنيسة «نوتردام» القائمة في مكانٍ وسطٍ بين الطرفين المتباعدين أن يرى إلى الفريقين جميعاً) لكانت تلك الحجرات أبعد ما تكون عن الرفه والراحة، لو أن تلك المقارنة لتهمّ أحداً من زائري قصر مولانا. وأياً ما كان فقد كان ذلك القصر غاصاً بضباط عسكريين لا علم لهم بالحرب، وضباط بحريين لا يعرفون ما السفينة الحربية، وموظفين مدنيين لا يفهمون من

الشؤون الإدارية شيئا، ورجال دين خلعاء منغمسين في الملذات الدنيوية ذوي أعين ترشح بالشهوة، وألسن سليطة، ومسالك ممعنة في التحرر من كل قيد من قيود الأخلاق. كان كل منهم غير جدير بالمهمة المسندة إليه، وكان كل منهم يكذب على الناس أفحش الكذب إذ يتظاهر بالتعلق بسلكه، ولكنهم كانوا جميعاً على صلة قريبة أو بعيدة بمولانا، فهم من أجل ذلك يُفرضون على كل مصلحة من المصالح العامة التي تدرّ رزقاً ما. وكان هؤلاء كثيرون يُعَدّون بالعشرات. وكان إلى جانب هؤلاء جمهرة أخرى من الناس غير المتصلين اتصالاً مباشراً بمولانا أو بالدولة، ولكنهم لا يقلّون عن الفئة الأولى ابتعاداً عن أيما شيء حقيقي، أو عن أيما ماضٍ أنفِق في انتهاج أيما سبيل مستقيمة إلى هدف دنيوي صالح. فمن أطباء جمعوا ثروات ضخمة من أدوية لذيذة الطعم لأمراض وهمية لم توجد قط كانوا يبتسمون لمرضاهم الدمثي الأخلاق في غرف الانتظار من قصر مولانا. ومن واضعي برامج وتصاميم اكتشفوا كل صنف من أصناف الدواء للآفات الصغيرة التي تصيب الدولة، خلا العلاج الذي يمكنهم من الانصراف إلى العمل الجدي لاستئصال إثم واحد ليس غير، كانوا يصبون ثرثرتهم المشوشة في أيما أذن وقعت في متناولهم، في سهرة مولانا تلك. ومن فلاسفة ملحدين يعيدون تنظيم الكون بالكلمات ويشيدون من الورق أبراجاً كمثل برج بابل يرتقون بها أسباب السماء. كانوا يتحدثون إلى كيميائيين ملحدين يؤمنون بإمكان تحويل المعادن العاديّة إلى معادن نفيسة، وسط ذلك الحشد الرائع الذي جمعه مولانا حوله. ومن سادة متأنقين نالوا أعظم قسط من التهذيب الذي كان يُعرف، في ذلك العصر الرائع وفي جميع العصور الذي تلته بما ينتجه من لامبالاة بكل موضوع ذي صبغة إنسانية، كانوا في أشد حالات الاعياء النموذجية، في قصر مولانا. وكان هؤلاء السادة قد خلّفوا وراءهم في دنيا باريس المترفة بيوتاً مهملة بحيث كان من العسير على الجواسيس المنبثين بين اتباع مولانا ـ المؤلفين نحواً من نصف الجماعة اللطيفة

المجتمعة هناك ـ أن يكتشفوا بين ملائكة تلك الدائرة زوجة واحدة يؤذن مظهرها ومسلكها بأنها أمّ. والواقع أن شيئاً مثل ذلك لم يكن زياً شائعاً آنذاك، فقد كان معنى الأمومة قاصراً على مجرد الإتيان بمخلوق مزعج إلى هذا العالم، وهو أمر لا يؤهل المرأة كثيراً لأن تحمل اسم الأم. وكانت النسوة الريفيات يتعهّدن هؤلاء الأطفال غير المنسجمين مع الزيّ، بعنايتهن وينشئنهم في بيوتهن، لكي يكون في ميسور الجدّات الفاتنات المشرفات على الستين، أن يرفلن بالغلائل ويشهدن الولائم وكأنهن فتيات في العشرين.

كان جذام الكذب والزيف يشوّه وجه كل كائن بشري شهد حفلة مولانا. وكان في الغرفة القصوى ستة نفر استثنائيين ساورتهم منذ بضع سنوات هواجس غامضة أشعرتهم بأن الأوضاع كانت على العموم معوجة. وكان نصف هؤلاء الستة النفر قد التحقوا، ابتغاء تقويم الاعوجاج، بأهل الانجذاب، وكانوا حتى في تلك اللحظة يتساءلون في ما بينهم وبين أنفسهم ما إذا كان من واجبهم أن يرغوا الآن ويزبدوا ويهتاجوا ويهدروا وتتقبّض عضلاتهم ويغيبوا عن الوعي ـ وبذلك يقيمون مَعلَماً عالياً يهدي مولانا سبيل المستقبل. أما الثلاثة الآخرون، زملاء هؤلاء «الدراويش»، فقد آثروا الالتحاق بفرقة أخرى تحاول إصلاح الأوضاع برطانة تديرها حول «مركز الحق»، ذاهبةً إلى أن الإنسان قد خرج على «مركز الحق» ـ وهو أمر لا يحتاج إلى دليل ـ ولكنه لمّا ينأ عن محيط الدائرة. ليس هذا فحسب، فقد ذهبت هذه الفرقة إلى القول بأن الإنسان يجب أن يُمنع من الابتعاد عن محيط الدائرة، بل يجب أن يُرد إلى المركز عن طريق الصوم ورؤية الأشباح. ومن هنا كانت تجري بين هؤلاء النفر وبين الأرواح محاورات كثيرة نتجت عنها دنيا من الخير ظلّت طي الكتمان.

بيد أن العزاء عن ذلك كله أن الجمع المحتشد في قصر مولانا كان على غاية الأناقة وحسن الهندام. ولو كان من المحقق أن يوم الحشر

سوف يكون يوماً تستعرض فيه الملابس إذن لدخل كلٌ من أفراد هذا الجمع جنة الخلد. والواقع أن تلك الشعور المعقوصة المعالجة بالذرور والمستحضرات المثبِّتة، وتلك البشرات الناعمة المصانة بالأساليب الصناعية، وتلك السيوف الماجدة الفاتنة، وذلك التشريف الرقيق لحاسة الشم كانت خليقة كلها بأن تمهّد سبيل البقاء أمام كل شيء أبد الدهر. وكان السادة المتأنقون المنشّأون أحسن تنشئة يتحلّون بأساور صغيرة توسوس كلما تحركوا في استرخاء، وسوسة أشبه بجلجلة الأجراس الصغيرة. وقد أحدث ذلك الرنين، يردفهُ حفيف الحرير والوشي والكتان الناعم، ذبذبة أقصت حي سان انطوان وجوعه المفترس إلى بعيدٍ بعيد.

كان اللباس هو وحده التميمة الفعّالة التي اصطُنعت لإبقاء كل شيء في مكانه، وكان كل امرئ يرتدي ملابس كالتي يرتديها الناس في حفلة رسمية راقصة لن ينفرط عقدها أبد الدهر. ومن قصر التويلري، إلى مولانا وسائر رجال البلاط، إلى المحامين وأساطين القضايا، وجميع فئات المجتمع (باستثناء الفزاعات ذات الأسمال البالية) انحدرت الحفلة الراقصة إلى الجلاّد العام الذي سئِل، انسجاماً مع منطق التميمة، أن يشهد الحفلة «معقوص الشعر، منضوح الوجه بالذرور، مرتدياً سترة موشاة بالذهب، وحذاء للرقص خفيفاً منخفض الكعب، وجورباً حريرياً أبيض». فأمام المشنقة ودولاب التعذيب ـ فقد كانت الفأس شيئاً نادراً ـ كان مسيو باريس، كما تعوّد زملاؤه، جلاّدو المناطق الأخرى و «أساتذتها» من مثل مسيو أورليانز وغيره أن يدعوه، يرئس الاحتفال بهذه الملابس الأنيقة. ومن ذا الذي كان يمكن أن يشك، من بين أولئك القوم الذين شهدوا حفلة مولانا في العام الثمانين والسبعمئة بعد الألف من ميلاد سيدنا المسيح، في أن نظاماً تستند دعائمه إلى جلاّد معقوص الشعر، منضوح الوجه بالذرور، يلبس ثوباً موشى بالذهب ونعلاً راقصاً خفيفاً وجورباً حريرياً أبيض ـ من ذا الذي كان يمكن أن يشك في أن نظاماً كهذا سوف يستمر إلى يوم تطفأ الكواكب وتنتثر!

حتى إذا حرّر مولانا رجاله الأربعة من أعبائهم واحتسى شراب الشوكولا أصدر أمره بأن يُفتح باب قدس الأقداس على مصراعيه، وخرج. ولا تسل عندئذ عن الخضوع والتذلل والتملق والضراعة والاتضاع التي تكشّف عنها القوم!

أما سجود الجسد والروح فقد بالغوا فيه حتى لم يتركوا شيئاً للعزة الإلهية. ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت المتعبدين لمولانا لا يزعجون تلك العزة على الإطلاق.

وطاف مولانا بالحجرات منطلق الأسارير، يعد هذا، ويبتسم لذاك، ويهمس في أذن عبد من عبيده المبتهجين، ويلوّح بيده لآخر حتى انتهى إلى أقاصي «محيط دائرة الحق». ثم إن مولانا استدار، وارتد إلى هيكله حيث أوصد الباب على نفسه وخلا إلى شياطين الشوكولا فليس في ميسور أحد أن يراه.

حتى إذا انتهى العرض انقلبت ذبذبة الهواء إلى عاصفة صغيرة، وأنشأت الأجراس النفيسة الصغيرة تجلجل فيما هبط أصحابها السلّم. وما هي إلاّ لحظات حتى ولّى الجمع كلهم ما خلا رجلاً واحداً ما لبث أن اتخذ سبيله على مهل، متأبطاً قبعته، حاملاً بيده علبة سعوطه واجتاز بالمرايا في طريقه إلى الخارج.

وحين انتهى إلى الباب الأخير، وقف واستدار نحو الهيكل قائلاً: «أستودعك الشيطان!»

قال ذلك ونفض السعوط عن أصابعه كما نفض الغبار عن قدميه. ثم هبط السلّم في سكون.

كان الرجل في نحو الستين، أنيق الملبس، متغطرساً، ذا وجه أشبه بالقناع البارع ـ وجهٍ ذي شحوب شفاف، وأسارير واضحة المعالم، وانطباعة مفردة لا تتغير. أما الأنف فكان جميل التكوين على العموم، ولكنه منبعج على نحو طفيف عند أعلى كل من المنخرين. وفي هاتين النقرتين كان يكمن التغير البسيط الأوحد الذي تكشّف عنه الوجه. كان

لونهما لا يفتأ يتحول ويتبدل بعض الأحيان. وكانتا تنبسطان وتنقبضان بين الفينة والفينة بمثل نبضٍ واهن؛ ثم تخلعان على الوجه كله سيما غدر وقسوة. ولو قد ألقى المرء نظرةً فاحصةً مَرويّة على تينك النقرتين، إذن لتجلى له أن الذي يساعدهما على خَلْع تلك السيما على الوجه هو شكل الفم ومحجري العينين إذ كان أفقياً أكثر مما ينبغي، رقيقاً أكثر مما ينبغي. ومع ذلك فقد كان الوجه، برغم ذلك كله، مليحاً، وكان رائعاً.

هبط صاحب ذلك الوجه ـ ولم يكن غير مولانا نفسه ـ درجات السلم إلى فناء القصر، وامتطى متن عربته، وانطلق. إن عدد الذين تحدثوا إليه في حفلة استقباله تلك لم يكن كبيراً، إذ وقف بعيداً عن القوم، وكان في ميسوره أن يسلك مسلكاً أكثر حرارة وصدقاً. ولقد بدا الآن وكأنما يروق له أن يرى العامة تتفرق أمام جياده فلا تكاد تنجو من تحت سنابكها إلا بشقّ النفس. وأطلق السائق العنان لعربته وكأنه يحمل على عدوّ من الأعداء، فلم يُحدث تهوّره الضاري اعتراضاً لدى سيّده تبدو آثاره على وجهه وشفتيه. وكان الناس قد تسامعوا، حتى في تلك المدينة الصماء والعصر الأبكم، بشكوى تقول بأن اندفاع عربات النبلاء اندفاعاً عاتياً في الشوارع الضيقة التي لا أرصفة لها كان يتهدّد حياة الفقراء بالخطر على نحو بربريّ. ولكن قليلون هم أولئك الذين كانوا يُعنَون بهذا الأمر، بحيث يفكرون فيه مرة ثانية. وفي هذه القضية، كما في القضايا الأخرى جميعها، كان على البؤساء المعدمين أن يعملوا على إنقاذ أنفسهم من ذلك البلاء بأنفسهم.

وفي جلجلة وقرقعة ضاريتين، وفي استهتار غير إنساني ليس من اليسير فهمه في هذه الأيام، اندفعت العربة تجوس خلال الشوارع وتستدير كالسيل الجارف حول المنعطفات، والنسوة يولين من أمامها مولولات، والرجال يتعلق بعضهم بتلابيب بعض وينتزعون الأطفال من طريقها. وأخيراً، وفيما هي تنقضّ على زاوية شارع ما قرب فوّارة ماء ارتجت إحدى عجلاتها ارتجاجاً مثيراً للاشمئزاز بعض الشيء، وانطلقت

من عدد من الأفواه صيحة مدوّية، وأجفلت الجياد واقفة على قوائمها الخلفية.

ولولا هذه الظاهرة الأخيرة لكان من الجائز أن لا تكفّ العربة عن السير. فكثيراً ما كانت العربات تواصل طريقها مخلفة جرحاها وراءها. ولـمَ لا؟ ولكن المرافق المروّع كان قد ترجل من العربة في سرعة بالغة وأخذت عشرون يداً بأزمّة الجياد.

قال المركيز وهو يطل من عربته في هدوء: «ما الذي حدث؟»

وكان رجل فارع الطول يرتدي قلنسوة من قلانس النوم قد التقط صرة ما من بين قوائم الجياد، ووضعها عند أسفل الفوارة، وانطرح في الوحل والماء يجأر فوقها وكأنه حيوان ضارٍ.

وفي نبرة ذليلة قال رجلٌ يرتدي أسمالاً ممزقة: «عفوك، يا سيدي المركيز! إنه طفل.»

ـ «ولماذا يحدث كل هذه الضجة المنكرة؟ أهو طفله؟»

ـ «عفوك، يا سيدي المركيز. هذا شيء مؤلم. نعم، إنه طفله.»

كانت فوارة الماء بعيدة بعض الشيء. ذلك بأن الشارع انفتح، حيث كانت، على فسحة تبلغ مساحتها عشرة أقدام أو اثني عشر قدماً مربعة. حتى إذا نهض الرجل الفارع الطول عن الثرى، في سرعة، وأنشأ يعدو نحو العربة، وضع حضرة المركيز يده على مقبض سيفه.

وفي يأس ضارٍ، صاح الرجل باسطاً ذراعيه فوق رأسه محدقاً إلى المركيز: «لقد قُتل! لقد مات!»

وأطبق القوم على حضرة المركيز وأنشأوا ينظرون إليه. ولم تتكشف العيون الكثيرة التي حملقت فيه عن شيء غير الفضول والتلهف. إنها ما كانت لتنطق بالموجدة أو الغضب. بل إن القوم لم ينطقوا بشيء. فقد ران الصمت عليهم بعد الصرخة الأولى، فهم معتصمون به. وكان صوت الرجل الذليل الذي تكلم من قبل خفيضاً سحقه الاستسلام البالغ. وأجال

حضرة المركيز بصره فيهم جميعاً وكأنهم مجرد جرذان انطلقت من أجحارها.

وأخرج محفظة نقوده.

وقال: «الشيء الذي أعجز عن فهمه، أنكم، أيها الناس، لا تُعنون بأنفسكم وأطفالكم. إنكم تعترضون سبيل مركباتنا كل يوم. ومن يُدريني أيّ أذى أنزلتموه بجيادي؟ إسمعْ! أعطِهِ هذه.»

وألقى إلى المرافق بقطعة نقد ذهبية، فاشرأبت الأعناق كلها ليكون في ميسور جميع العيون أن ترى إليها وهي تسقط على الأرض. وصاح الرجل الفارع الطول صيحة عجيبة مروّعة: «لقد مات!»

عندئذ تقدّم نحوه رجل آخر ما لبث الحشد أن أفسحوا الطريق له. حتى إذا رآه المخلوق البائس طرح رأسه على كتفه، وأنشأ يبكي وينتحب، ويشير إلى فوارة الماء حيث كانت بعض النسوة منحنيات على الصرّة الجامدة، متحركات حولها في لطف. لقد كنّ معتصمات بالصمت كالرجال سواء بسواء.

قال الوافد الأخير: «أنا أعرف كل شيء، أنا أعرف كل شيء. كن رجلاً شجاعاً يا غاسبار! إن موت الطفل الصغير على هذا النحو خير من حياته. لقد مات في لحظة واحدة فلم يحس بألم ما. هل كان في ميسوره أن يحيا ساعة واحدة في سعادة؟»

وقال المركيز مبتسماً: «أنت فيلسوف حقاً. ماذا يدعونك؟»

ـ «إنهم يدعونني دوفارج.»

ـ «ما حرفتك؟»

ـ «بائع خمر، يا حضرة المركيز.»

فقال المركيز قاذفاً إليه بقطعة ذهبية أخرى: «إلتقط هذه، أيها الفيلسوف بائع الخمر، وأنفقْها كما يحلو لك. الجياد؟ هل أصيبت الجياد بأذى؟»

ومن غير أن يتنازل وينظر إلى الحشد كرةً أخرى استوى المركيز في مقعده، وأصدر إلى السائق أمره بالمسير. ولم تكد العربة تنطلق به، وعلى وجهه سيما سيّد حطم، غير عامدٍ، شيئاً من الأشياء المبتذلة، ودفع ثمنه، في سهولة ويسر، حتى كدّرت عليه صفوه فُجاءةً قطعة نقدية طارت إلى عربته ثم حطّت مُرِنّةً على أرضها.

قال حضرة المركيز: «إكبح! إكبح جماح الخيل! من الذي رمى هذه؟»

ونظر إلى حيث كان دوفارج بائع الخمر واقفاً منذ لحظة. ولكن الأب المسكين كان فوق حصباء تلك البقعة يستقبلها بوجهه، وكانت الطلعة الواقفة إلى جانبه هي طلعة امرأة بدينة داكنة تحبك الصوف.

قال المركيز، في رفق، ومن غير أن يطرأ على صفحة وجهه تغير ما، خلا تينك النقرتين اللتين فوق أنفه: «أيها الكلاب! لشد ما أتمنى أن أدوسكم بسنابك جيادي، وأن أستأصل شأفتكم من الأرض! ولو قد عرفتُ الوغد الذي قذف العربة بهذه القطعة، ولو قد كان ذلك اللص قريباً منها إذن لوجب أن يُسحق رأسُهُ تحت العجلات!»

كانوا في حال من الذعر الماحق ومن تجارب طويلة قاسية أدركوا أي شيء يستطيع مثل هذا الرجل أن يفعله بهم ضمن نطاق القانون وخارج نطاقه بحيث لم يرتفع لأي منهم صوتٌ أو يدٌ، بل بحيث لم ترتفع لأي منهم عين! هذا بين الرجال. ولكن المرأة التي وقفت تحبك الصوف رفعت بصرها على نحو موصول ونظرت إلى المركيز في وجهه. ولم يكن مما يتفق وكبرياءه أن يلاحظ ذلك. لقد مرّت عيناه المستخفتان من فوق تلك المرأة، ومن فوق الجرذان الأخرى جميعها. ثم استوى في مقعده من جديد، وأصدر أمره إلى السائق: «إنطلق!»

مضت العربة به، وعلى أثرها أقبلت عربات أخرى وأنشأت تنفتل في تعاقب سريع: عربات الوزير، والمستشار، وملتزم جباية الضرائب، والطبيب، والمحامي، ورجل الدين، والـ«غران أوبرا»، و«الكوميدي»،

والحفلة الراقصة الرسمية كلها. وكانت الجرذان قد خرجت من أجحارها لتشهد الموكب، ولقد ظلت تشهده ساعات طوالاً. وكان الجنود ورجال الشرطة كثيراً ما يحولون بينهم وبين متابعة المشهد، مقيمين حاجزاً كان الناس يدبّون خلفه ويختلسون النظر من خلاله. وكان الأب قد حَمَل صرّتَهُ منذ فترة طويلة، وتوارى بها عن الأنظار عندما جلست النسوة عند قدم الفوارة حيث سبق لهنّ أن حَدَبْنَ على الصرّة الملقاة هناك، ورحن يراقبن المياه الجارية وعربات الحفلة الراقصة المتدفقة، في حين كانت المرأة الوحيدة التي سبق لها أن وقفت تحبك الصوف لا تزال تحبكه بمثل ثبات القَدَر ورسوخه. واتخذت مياه الفوارة سبيلها، واتخذ النهر السريع سبيله، واتخد النهار سبيله نحو الليل، واتخذ كثير من مظاهر الحياة في المدينة سبيله إلى الموت تبعاً للقاعدة، ولم ينتظر الدهر وصروفه رجلاً ما، ونامت الجرذان متلاصقةً في أجحارها المظلمة، وتوهج قصر مولانا بالأنوار عند تناول العشاء، وجرى كل شيء مجراه العادي.

- 8 -

مولانا في الريف

كان مشهداً طبيعياً جميلاً تومض فيه الحنطة ولكن على غير وفرة. فقد كانت رُقَعٌ من القطانيّ(*) السقيم تقوم حيث كان ينبغي أن تنهض الحنطة، وكان ثمة رُقَعٌ أخرى من الحمص والفول السقيمين، ورقعٌ من أغلظ البقول بدلاً من القمح. وعلى وجه الطبيعة الخامدة، كما على وجوه الرجال والنساء الذين حرثوها، رانت سيما الخمول القسري، وطَفَتِ انطباعة كئيبة تؤذن بوشك الذبول واليأس.

وبعربته التي يقودها أربعة جياد يمتطي رجلان اثنين منها، والتي كان في الإمكان أن يُخَفّف من ثقلها بعض الشيء، صعّد حضرة المركيز في مرتفع شديد الانحدار. ولم يكن في الحمرة التي غلبت على محيّا المركيز ما يطعن في رفيع تهذيبه، فهي ما كانت منبعثة من داخل. لقد سبّبها ظرف خارجي لا سلطان له عليه، هو الشمس الجانحة إلى المغيب.

ذلك بأن الغروب انعكس على العربة حين بلغت أعلى الكثيب، انعكاساً وهاجاً إلى حد نُقِعَ معه ممتطيها بالقرمز. وقال حضرة المركيز ناظراً إلى يديه: «إنها سوف تموت في الحال.»

والواقع أن الشمس كانت شديدة الانخفاض، فما هي إلا لحظة حتى احتجبت عن الأبصار. وحين أحكِم وضع المكبح الثقيل على

(*) نوع من الحنطة ويُعرف أيضاً بالجاودار.

العجلات وشرعت العربة تزلق هابطةً الكثيب، وقد انبعثت منها رائحة احتراق، وسط غمامة من الغبار، زال الوهج الأحمر في سرعة. وإذ كانت الشمس والمركيز يهبطان معاً فلم يبق أي وهج عندما رُفع المكبح عن الدواليب.

ولكن بقي ثمة ريفٌ مهيض الجناح، صارخ منفتح الرحاب؛ قرية صغيرة عند سفح الكثيب؛ منعطف عريض يعقبه مرتفَعٌ؛ برج كنيسة، وطاحونة هوائية، وأجمة للصيد، وهضبة صخرية سامقة تعلوها قلعة اتُخذَتْ سجناً. حول هذه الأشياء المكفهرّة شيئاً بعد شيء فيما كان الليل يهبط، أجال المركيز بصره وعلى وجهه سيما الرجل الموشك أن يصل إلى بيته.

وكان للقرية شارعها الأوحد الفقير المشتمل على مصنع جعة فقير، وفندق فقير، وفناء إسطبل فقير لاستبدال جياد البريد، وعين ماء فقيرة، و مختلف المرافق المألوفة الفقيرة. وكان لها أهلها الفقراء أيضاً. وفي الحق إن أهلها كلهم كانوا فقراء، وكان كثير منهم جالسين على عتبات بيوتهم يقطعون بعض البصل الهزيل وما شابه لطعام العشاء، بينا كان آخرون عند العين يغسلون أوراقاً وأعشاباً وغير ذلك مما تنبته الأرض من أشياء يمكن أن تؤكل. ولم تكن الأمارات الناطقة بالذي جعلهم فقراء مفقودة. فقد كانت ضرائب الدولة، وضرائب الكنيسة، وضرائب النبلاء، والضرائب العامة والضرائب الخاصة ـ كلها يجب أن تُدفع هنا، أو يجب أن تدفع هناك، وفقاً لقانون مقدّس في القرية الصغيرة، حتى لقد كان من حق المرء أن يعجب كيف بقيت أيما قرية من القرى سالمةً لمّا تُبْتلع بعد.

ولم يكن المرء ليرى في تلك القرية غير قليل من الأطفال، على حين لم يكن ليرى فيها كلاباً قط. أما الرجال والنساء، فكان عليهم أن يختاروا لأنفسهم إحدى خطتين: الحياة بأدنى الشروط التي تسدّ الرمق، هناك في القرية الصغيرة تحت الطاحونة؛ أو الأسر والموت في السجن الرابض فوق الهضبة.

وازداد حضرة المركيز اقتراباً من اصطبل خيل البريد، يبشر بقدومه أحد الرسل، وفرقعة سوطي الدليلين المرافقين العربة، وكانا يلتفّان فوق رأسيهما في هواء المساء كما تلتفّ الأفاعي، فكأنما كانت آلهات الانتقام تحفّ بموكبه. كانت العربة على مقربة من العين، فأقلع الفلاحون عن أعمالهم وطفقوا ينظرون إليه. ونظر هو إليهم فرأى على وجوههم، من غير أن يشعر، آثار الضنا والبؤس التي جعلت الهزال الفرنسي مضرب المثل عند الإنكليز إلى ما بعد مئة عام انقضت على تخلص الفرنسيين من تلك الآفة.

وحدق المركيز إلى الوجوه الخاشعة أمامه، خشوعَ أفراد طبقته أمام مولانا في قصره، مع فارق وحيد هو أن هذه الوجوه نُكّست لتقاسي الآلام لا لكي تسترضي وتستعطف. وما هي إلا لحظة حتى انضمّ إلى الجمع مصلح طرق أشيب.

قال المركيز موجهاً الخطاب إلى الرسول: «إيتِ بذلك الرجل إلى هنا!»

وجيء بالرجل، وقلنسوته في يده، وتحلّق القوم حول العربة ليروا ويسمعوا، فِعْلَ الناس أمام فوارة الماء بباريس.

ـ «لقد مررتُ بك في الطريق؟»

ـ «هذا صحيح، يا مولاي. لقد أولِيتُ شرف مرورك بي في الطريق.»

ـ «لقد مررت بك وأنا أرتقي الكثيب وحين بلغت أعلاه؟»

ـ «هذا صحيح يا مولاي.»

ـ «ما الذي كنتَ تحدّق إليه ذلك التحديق الموصول؟»

ـ «لقد نظرتُ إلى الرجل يا مولاي.»

وانحنى قليلاً، وأشار بقلنسوته الزرقاء البالية إلى ما تحت العربة. وانحنى رفاقه كلهم ليروا إلى حيث أشار.

ـ «أيّ رجل هذا، أيها الخنزير؟ ولمَ تنظر إلى هناك؟»

ـ «عفوك يا مولاي. كان متعلقاً بسلسلة المكبح.»

فسأله المركيز: «من كان متعلقاً؟»

ـ «الرجل، يا مولاي.»

ـ «ليخطف الشيطان هؤلاء المعتوهين! ما اسم ذلك الرجل؟ أنت تعرف جميع الرجال في هذا الجزء من الريف. من كان ذلك الرجل؟»

ـ «رَحمتك، يا مولاي! إنه لم يكن من أبناء هذه المنطقة. أنا لم أره في أي يوم من أيام حياتي.»

ـ «تقول إنك رأيته متعلقاً بالسلسلة، فهل كان يريد أن يشنق نفسه؟»

ـ «عفوك يا مولاي، فقد كان ذلك هو موضع العجب. كان رأسه متدلياً ـ هكذا.»

وارتدّ، على نحو جانبيّ إلى العربة، وانحنى إلى الوراء، مستقبلاً السماء بوجهه، مدلِّياً رأسه إلى جانب. ثم إنه قوّم وضعه، حاملاً قلنسوته في غير لباقة، وانحنى احتراماً.

ـ «كيف كان شكله؟»

ـ «كان يا مولاي أشد بياضاً من الطحان. كان مغطىً كله بالغبار، أبيض كالشبح، طويلاً كالشبح!»

وأحدثت الصورة انفعالاً عميقاً في الحشد الصغير، ولكن العيون كلها تطلعت من غير أن يستجلي بعضها انطباعات بعض، إلى حضرة المركيز. ولعلها فعلت ذلك لكي ترى ما إذا كان ثمة شبح ما في ضميره.

وقال المركيز، شاعراً بأن مثل هذه الدودة أعجز من أن تكدر صفوه: «حقاً، لقد أجدتَ صنعاً إذ رأيت لصاً يتعلق بعربتي ولم تفتح فمك الكبير هذا! تباً لك! نحِّ الرجل جانباً، يا مسيو غابيل!»

وكان مسيو غابيل هو صاحب البريد في المنطقة وموظفاً من موظفي

جباية الضرائب في الوقت نفسه. وكان قد خرج في ذلة بالغة ليشهد هذا التحقيق، ممسكاً بالمستنطَق من كمّه، على نحو رسمي.

وقال مسيو غابيل: «تباً لك! تنحّ جانباً!»

ـ «إقبض على ذاك الغريب إذا حاول النزول في قريتك الليلة، يا غابيل:»

ـ «يشرفني يا مولاي أن أقف نفسي لتنفيذ أمرك.»

ـ «هل فرّ، يا رجل؟ أين ذلك الملعون؟»

وكان الملعون قد دخل منذ برهة تحت العربة، تصحبه نصف دزينة من أصدقائه المقدّمين، وأنشأ يشير إلى السلسلة بقلنسوته الزرقاء. ولكن نحواً من نصف دزينة أخرى من أصدقائه المقربين نادوه في الوقت المناسب، وقدّموه مبهوراً منقطع النفس إلى حضرة المركيز.

ـ «هل فرّ الرجل، أيها الأبله، عندما توقفنا لنضع المكبح على العجلات؟»

ـ «مولاي، لقد قذف بنفسه من أعلى الكثيب راكباً رأسه فِعْل الغاطس في النهر.»

ـ «تدبّرِ الأمر، يا غابيل. إنطلق!»

كان النفر الستة المحدقون إلى السلسلة لا يزالون بين العجلات، كالخراف. ودارت العجلات على نحو مفاجئ جداً يجعلهم يسعدون باستنقاذ جلودهم وعظامهم، ولم يكن عندهم ما ينقذونه غير ذلك، وإلا لما كانوا محظوظين إلى هذا الحدّ.

وما لبث ارتفاع الكثيب وشدة انحداره أن وضعا حداً للاندفاعة التي انطلقت بها العربة من القرية وارتقت بها المرتفع الذي يليها. وشيئاً بعد شيء تباطأ تقدمها حتى غدا أشبه بالسعي على القدمين، وراحت تصعّد في الكثيب متمايلة متثاقلة وسط رواغ ليلة من ليالي الصيف. وفي تؤدة، شدّ كل من الدليلين ذبالة سوطه إلى الجزء الرئيسي منه بعد أن طوّفت

حولهما آلاف من البعوض حلّت محل آلهة الانتقام التي حفت بهما من قبل. ومشى المرافق في محاذاة الجياد. وسُمع صوت الرسول وهو يخبّ في المدى البعيد المظلم.

وعند النقطة الأكثر انحداراً من الكثيب كانت مقبرة وصليب عليه تمثال جديد ضخم لمخلصنا يسوع المسيح. كان تمثالاً خشبياً سقيماً نحتته يد مثال جلف غير صناع. بيد أن ذلك المثّال انتزع صورة المخلص من صميم الحياة ـ وربما من صميم حياته هو ـ فقد كانت نحيلة مهزولة على نحو مروّع.

وكانت إحدى النساء راكعة عند هذا التمثال التعس الرامز إلى بؤس عظيم يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، ولمّا ينته بعد إلى أسوئه. فلم تكد العربة تقترب منها حتى التفتت، وسارعت إلى النهوض، واقفة لدى باب العربة.

ـ «هذا أنت يا مولاي! إن لي عندك حاجة، يا مولاي!»

وفي صيحة تؤذن بالتضايق ونفاد الصبر، ولكن من غير أن يطرأ على صفحة وجهه تغير ما، أطلّ مولانا من العربة وقال، «وما ذاك؟ أي شيء تريدين؟ أليس هناك غير الحاجات والمطالب؟»

ـ «مولاي، أستحلفك بمحبة الله العظيم! زوجي، الحطاب!»

ـ «ما بال زوجك، الحطاب؟ ذاك هو شأنكم دائماً، أيها الناس. ألا يستطيع أن يدفع شيئاً؟»

ـ «لقد دفع كل شيء، يا مولاي. لقد مات.»

ـ «حسناً! إنه يتمتع بالطمأنينة. هل أستطيع أن أبعثه لك حياً من جديد؟»

ـ «لا، وأأسفاه، يا مولاي. ولكنه يثوي هناك تحت كومة صغيرة من العشب السقيم.»

ـ «وماذا بعد؟»

ـ «مولاي، إن ثمة كثيراً من أكوام العشب السقيم الصغيرة؟»

ـ «وماذا بعد أيضاً؟»

لقد بدت عجوزاً، ولكنها كانت في ريعان الشباب. وكانت تعصف بها لوعة ثاقبة، فهي تضم يديها البارزتي العروق الكثيرتي العقد ضماً عنيفاً ثم تضع كلاً منهما بدورها على باب العربة في لطف وحنان، وكأنما هو صدر بشري يُتوقع منه أن يهتزّ للّمسة المستغيثة.

ـ «إسمع لي يا مولاي! إستمع إلى شكواي يا مولاي! لقد مات زوجي من الفاقة. كثيرون هم الذين يموتون من الفاقة. ولسوف يموت أضعافهم من الفاقة أيضاً.»

ـ «وماذا بعد؟ هل أستطيع أن أطعمهم؟»

ـ «الله أعلم، يا مولاي. ولكني لا أسألك ذلك. كل ما أسألك إياه أن تقام على قبر زوجي قطعة من حجر أو من خشب تحمل اسمه لتكون دليلاً على المكان الذي يثوي فيه. وإلا فإن مثواه سوف يُنسى عما قريب، ولن يعثر عليه أحد عندما أموت أنا بالداء نفسه، وعندئذ أدفن تحت كومة أخرى من العشب السقيم. مولاي، إن ثمة أكواماً كثيرة من العشب السقيم. إنها تتعاظم في سرعة بالغة. إن ثمة فقراً كثيراً. مولاي! مولاي!»

ونحّاها المرافق عن الباب. واندفعت العربة تخبّ في رشاقة، وألهب الدليلان ظهور الجياد بسوطيهما فازدادت اندفاعاً، وغودرت المرأة خلفهم، وأنشأ مولانا، وقد حفت به آلهة الانتقام من جديد، ينهب بضعة الأميال التي تفصله عن قصره، في سرعة خاطفة.

وانطلقت روائح ليلة الصيف الفاغمة من حوله. انطلقت، فيما كان المطر يهطل، انطلاقاً لا يشوبه تمييز أو تعصّب من حول الجماعة المغبرّة الوجوه، الرثة الثياب، المكدودة الأجساد بالكدح، المحتشدة حول العين القائمة غير بعيد جداً. وكان مصلح الطرق لا يزال يحدثهم،

مستعيناً بقلنسوته الزرقاء التي ما كان يصلح بدونها لشيء، حديث الرجل الشبح الذي رآه، ما أطاقوا الاستماع إلى كلامه المسهب. وشيئاً بعد شيء انفضّوا من حوله، واحداً إثر واحد. وأومضت الأضواء في النوافذ الصغيرة. حتى إذا أظلمت تلك النوافذ وتكاثرت النجوم، بدت الأضواء وكأنها لم تطفأ بل قُذف بها إلى كبد السماء.

وكان حضرة المركيز قد دخل في ظل بيت ضخم، عالي السماك، وظلال كثير من الأشجار السامقة. ثم استعيض الظلّ بضوء أحد المشاعل، فيما وقفت العربة وفُتح باب القصر الكبير له.

- «مسيو شارل الذي أترقبه، هل وصل من إنكلترة؟»

- «لا، يا مولاي، إنه لمّا يصل بعد.»

ـ 9 ـ

رأس الغول

كان قصر المركيز ذاك بناء بالغ الضخامة، ينبسط أمامه فناء حجري رحب وسلّمان حجريتان تلتقيان عند سَطِيحة حجرية قائمة أمام الباب الرئيسي. إنه وجود حجري كله، ذو درابزونات ثقيلة من حجر، وقوارير من حجر، وأزهار من حجر، ووجوه رجال من حجر، ورؤوس أسود من حجر منتشرة في كل ناحية. لكأن رأس الغول(*) قد أطلّ عليه، حين تم بناؤه منذ مئتي عام.

وغادر حضرة المركيز عربته، يتقدمه المشعل، وراح يرتقي درجات السلم العريضة الضحلة، مزعجاً دجنة الليل إزعاجاً حمل إحدى البوم على أن تطلق احتجاجاً عالياً من سقف الإسطبل القائم بعيداً وسط الأشجار. وفي ما خلا ذلك، كان كل شيء ساكناً إلى حد أن المشعل الذي يتقدم المركيز على السلم والمشعل المعلق فوق الباب الكبير كانا يضيئان وكأنهما في حجرة نوم صغيرة موصدة على ظهر باخرة أو قطار، لا في فضاء العشية الطلق. وغير نعيق البوم، لم يكن هناك صوت آخر باستثناء خرير الفوارة الساقطة مياهها في حوضها الحجري. ذلك بأن الليلة كانت من تلك الليالي التي تحبس نفسَها ساعة بطولها، ثم تُطلق تنهدة طويلة خفيضة، وتحبس نفَسها من جديد.

(*) gorgon وفي الميثولوجيا الإغريقية أن الغول إذا نظر إلى شيء أصابه التحجر. (المعرب)

وقعقع الباب الكبير خلفه، واجتاز حضرة المركيز رواقاً قاتماً بحراب الخنازير العتيقة، والسيوف، ومُدى الطّرَد ـ رواقاً كانت تزيده قتاماً قضبانُ فروسيةٍ ثقالٌ، وسياط جياد استشعر وطأتها كثير من الفلاحين، الذين غضب عليهم سيدهم ففزعوا إلى الموت من ذلك الهول العظيم.

اجتنب المركيز، يتقدمه حامل المشعل، غرف القصر الكبرى التي كانت مظلمة بعد أن أوصدت إثر هبوط الليل، وارتقى سلماً أفضت به إلى مجاز قاده بابه إلى جناحه الخاص المؤلف من ثلاث غرف: حجرة نومه، وحجرتين أخريين. غرف عالية العقود ذات أرض باردة غير مفروشة بالسجاد، وأثافيّ ضخمة فوق الموقد لإضرام النيران في الشتاء، ومختلف ضروب الترف اللائقة بمركيز يعيش في عصر مترف وبلاد مترفة. وكان الزّي الذي درج في عهد لويس الرابع عشر ـ آخر ملك حكم فرنسة قبل الملك الحاليّ، باستثناء لويس الخامس عشر، من تلك السلالة التي بدت وكأن رجالها سوف يرثون العرش إلى آخر الدهر ـ كان ذلك الزي بارزاً في الرياش النفيس المنتثر في تلك الغرف إلى جانب أشياء كثيرة تمثل صفحات قديمة من تاريخ فرنسة.

ومُدت مائدة العشاء لرجلين اثنين في ثالثة الغرف: غرفة مستديرة قائمة في أحد أبراج القصر الأربعة التي تعلوها المطافئ. غرفة صغيرة شامخة، فُتحت نافذتها على مصراعيها وأوصِدت ستائرها الخشبية ذات القدد المستطيلة بحيث لم يبدُ من الليل المظلم غير خطوط أفقية ضئيلة سوداء مفصّلة بخطوط عريضة حجرية اللون.

وقال المركيز وهو يتطلع إلى المائدة المعدّة: «يقولون إن ابن أخي لمّا يصِلْ بعد.»

ـ «لا. إنه لمّا يصل. ولكنه كان من المتوقع أن يصل مع مولانا.»

ـ «آه! ليس من المحتمل أن يصل هذه الليلة. ومع ذلك فاتركوا المائدة كما هي. سوف أكون مستعداً في مدى ربع ساعة.»

وبعد ربع ساعة كان مولانا مستعداً وجلس وحده إلى مائدته الفخمة الفاخرة. كان كرسيه تجاه النافذة، وكان قد تناول حساءه ورفع كأس الخمر إلى شفتيه عندما أعادها فجأة إلى المائدة.

وفي سكون، تساءل وهو يتأمل الخطوط الأفقية السوداء والخطوط الحجرية اللون: «ما هذا؟»

ـ «مولانا؟ هذا؟»

ـ «خارج الستائر الخشبية: إفتح الستائر!»

وفتحت الستائر.

ـ «هذا ليس شيئاً يا مولاي. ليس ههنا غير الليل والأشجار.»

وكان الخادم الذي تكلم قد فتح الستائر إلى أبعد مدى مستطاع، وحدّق في الظلمة الخالية، ثم استدار وذلك الفراغ من ورائه ينتظر أوامر المركيز.

وقال السيد الوقور: «حسن. أقفلها من جديد.»

وأقفلت الستائر من جديد، وواصل المركيز تناول عشائه. وما كاد يبلغ منتصفه حتى كفّ عن الأكل، والكأس في يده، بعد أن طرق أذنيه صوت عجلات. لقد أقبلت في خفة ورشاقة، حتى انتهت إلى باب القصر.

ـ «سل من القادم.»

كان ابن أخي مولانا. وكان يفصله عن عربة مولانا، عند صدر الأصيل، بضعة فراسخ. ولقد وفق إلى تقصير تلك الشقة في سرعة، ولكن سرعته تلك ما كانت خاطفة إلى درجة تمكنه من أن يدرك مولانا في بعض الطريق. كان قد سمع عند مركز البريد أن مولانا انطلق بعربته أمامه.

وأصدر مولانا أمره بإعلام الوافد أن العشاء ينتظره، وأن السيد يرجوه أن يشاركه الطعام. وما هي إلا لحظة حتى دخل ابن أخيه

الحجرة. كان يُعرف في إنكلترة باسم تشارلز دارني.

ورحب مولانا به في كياسة، ولكنهما لم يتصافحا.

وقال لمولانا وهو يجلس إلى المائدة: «لقد برحتَ باريس أمس، يا سيدي؟»

ـ «أمس. وأنت؟»

ـ «لقد جئتُ مباشرة.»

ـ «من لندن؟»

ـ «نعم.»

وقال المركيز في ابتسامة: «لقد تباطأتَ في رحلتك هذه.»

ـ «على العكس. لقد جئت مباشرة.»

ـ «عفوك! لست أعني أنك أبطأت في السفر، ولكن أعني أنك أبطأت حتى اعتزمت السفر.»

ـ «لقد عاقتني عنه،» قال الشاب ذلك ثم تمهل لحظة في الجواب، «أعمال مختلفة.»

فقال العم ذو المنطق الناعم المصقول: «لا شك في ذلك.»

ولم يتطارحا أيما حديث آخر ما شهدَ مجلسهما أحد الخدم. حتى إذا قُدّمت إليهما القهوة، وخُلّيا منفردين، نظر الشاب إلى عمه فالتقت عيناه عينَيْ ذلك الوجه الشبيه بقناع بارع، واستهل حديثاً جديداً.

ـ «لقد عدتُ، يا سيدي، كما توقعتَ، لأتابع الهدف الذي أقصاني عن البلاد. لقد قادني ذلك إلى مخاطر عظيمة غير مرتقبة، ولكنه هدف مقدس، ولو انتهى بي إلى الموت إذن لاستقبلته من أجله راضياً.»

فقال العم: «لا تقل إلى الموت. ليس من الضروري أن تقول إلى الموت.»

فأجاب ابن الأخ: «لستُ أدري يا سيدي إلى أيّ مدى كنتَ تهتم ـ لو أني بلغت تخوم الموت القصوى ـ بإيقافي عند ذلك الحد.»

وهنا بدت مشؤومةً نقرتا أنفه اللتان تعاظم عمقهما، وخطوط وجهه الوحشي المستقيمة المتعاظم طولها. وأومأ العم إيماءة احتجاج لطيفة كان من الواضح جداً أنها شكل طفيف من أشكال التهذيب الرفيع فهي غير مُطَمْئِنة البتة.

وتابع ابن الأخ: «بل إني أميل إلى الإعتقاد بأنك كنت جديراً بأن تعمل جاهداً لكي تزيد الظروف التي أحاطت بي والتي تكتنفها الشبهات قتاماً على قتام.»

فقال العم في بشاشة: «لا، لا، لا.»

فتابع ابن الأخ كلامه وهو يرمقه بنظرة تنضح بأعمق الإرتياب: «ولكن أياً ما كان، فأنا أعلم أن ديبلوماسيتك خليقة بأن تنقذني مهما كلف الأمر، وإنك ما كنت لتحجم عن استخدام أي وسيلة في هذه السبيل.»

فقال العم وقد نبضت النقرتان اللتان على منخريه نبضاً رفيقاً: «يا صديقي، لقد قلت لك ذلك. أرجوك أن تتذكر أني قلت لك ذلك منذ زمن بعيد.»

ـ «أذكر.»

فقال المركيز بنبرة بالغة الحلاوة حقاً: «أشكرك.»

وتوانى جَرْسه في الهواء وكأنه نغم منبعث من آلة موسيقية.

وتابع ابن الأخ حديثه: «الواقع يا سيدي إني أعتقد بأن سوء حظك وحسن حظي هما اللذان تعاونا على الحيلولة بيني وبين دخول السجن هنا في فرنسة.»

فأجاب العم وهو يرشف قهوته: «لست أفهم تماماً ما تقول. أتسمح لي بأن أتجرأ فأسألك تفسيراً؟»

ـ «أنا أعتقد بأنك لو لم تكن على غير حظوة في البلاط، ولو لم تظلّك تلك الغمامة طوال سنوات خلت لكان من الراهن أن تبعث بي

رسالة من «الرسائل المختومة» إلى بعض القلاع حيث أقضي بقية عمري في غياهبها.»

فقال العم في هدوء كثير: «جائز. أنا لا أحجم، من أجل شرف الأسرة، عن أن أدفع بك إلى مثل هذا المصير. أرجوك أن تعذرني.»

فلاحظ ابن الأخ: «يخيّل إليّ في ارتياح، أن حفلة الاستقبال التي أقمتها أمس الأول كانت كالعادة حفلة باردة.»

فأجاب العم في كياسة مهذبة «أنا لا أجد في ذلك ما يدعو إلى الإرتياح. أنا لست واثقاً من ذلك. وربما كان في ميسور العزلة، بما تتيحه من فُرص للتفكير أن تؤثر في مصير المرء تأثيراً حسناً لا يتسنى له في غير تلك الحال. ولكن من العبث البحث في هذا الموضوع. إني، كما تقول، لا أتمتع بالحظوة. ذلك بأن أدوات التأديب الصغيرة هذه، تلك الوسائل اللطيفة الموطّدة لسلطان الأسر وشرفها، أو قل تلك المنن الطفيفة التي قد تُنزل بك أعظم البلاء، أمست اليوم لا تُنال إلا بالرشوة واللجاجة. إن كثيرين ليلتمسونها، ولكنها لا تُمنح إلا لقلة نسبياً! ولم تكن الحال كذلك من قبل، ولكن فرنسة قد تغيرت في هذه الأشياء كلها وأمثالها، نحو الأسوأ. إن أسلافنا الأقربين عهداً كانوا يملكون حق التحكم في حياة مَن حولهم من الغوغاء أو موتهم. فكم كلبٍ من أمثال هذه الكلاب سيق من هذه الحجرة إلى حيث شُنق. وفي الغرفة المجاورة (وهي حجرة نومي) طُعن بالخنجر، على ما نعرف، رجلٌ تحدّث عن ابنته حديثاً وقحاً فيه مساسٌ بنا. لقد خسرنا كثيراً من الامتيازات، ونشأت فلسفة جديدة غدت هي الزي الشائع. وإذا حاولنا أن نؤكد مكانتنا، في هذه الأيام، فقد يسبب ذلك لنا (ولست أذهب إلى حد القول إنه سوف يسبب) متاعب حقيقية. وكل ذلك شر، أيُّ شر!»

وتناول المركيز مقداراً صغيراً من السعوط وهز رأسه، في يأس رفيق لطيف كأكثر ما يمكن أن يكون اليأس من بلد لا يزال ينطوي على شخصه هو ـ تلك الوسيلة العظمى للتجدد الروحي ـ رفيقاً لطيفاً.

وقال ابن الأخ مكفهر الوجه: «لقد بالغنا في توكيد مكانتنا، سواء في العهود الماضية أو العصر الحاضر، إلى درجة أمسى إسمنا معها، في ما أعتقد، أبغض الأسماء كلها إلى نفوس الفرنسيين.»

فقال العم: «فلنرجُ ذلك. إن بُغض العلية من الناس لا يعدو أن يكون احتراماً غير إراديّ من جانب السفلة من الناس.»

وتابع ابن الأخ: «لست أرى في طول هذا البلد وعرضه وجهاً واحداً ينظر إليّ وعليه سيما الاحترام الحقّ. إن احترامهم لنا ناشئ عن الخوف والعبودية ليس غير.»

فقال المركيز: «هذا إطراء لعظمة الأسرة استحقته بالطريقة التي عرَفتْ كي تحافظ بواسطتها على أمجادها.» وتناول مقداراً آخر صغيراً من السعوط ووضع رجلاً على رجل، في خفة ورشاقة.

ولكن ما إن أسند الفتى أحد مرفقيه على المائدة، وحجب عينيه بيده في تأمل واكتئاب حتى نظر إليه القناع الرقيق البارع شزراً، وقد ران عليه من الحدة والصرامة والكراهية ما لا يتفق مع تظاهر لابِسه باللامبالاة.

وقال المركيز: «إن الاضطهاد هو الفلسفة الوحيدة الخالدة. إن الاحترام الناشئ عن الخوف والعبودية، يا صديقي، سوف يبقي الكلاب خاضعة للسياط ما حجب هذا السقفُ (ورفع بصره نحوه) وجهَ السماء.»

بيد أن ذلك لا يدوم بقدر ما توهم المركيز. ولو قد كان في الإمكان أن يتبين تلك الليلة صورة القصر في الحال التي كان مقدراً له، ولخمسين قصراً من مثله، أن تنتهي إليها إذن لما كان قادراً على أن يميز قصره من بين الأنقاض التي أتت عليها النار وعبثت بها الغارات. أما السقف الذي اعتز به فلعله أن يجده حاجباً وجه السماء على وجه جديد، وذلك بأن يحجبه إلى الأبد عن أعين الأجساد التي صوّبت إليها النيران من فوهات مئة ألف من البنادق القديمة الطراز.

وقال المركيز: «وفي الوقت نفسه، سوف أعمل على صيانة شرف

الأسرة وطمأنينتها، إذا أحجمت أنت عن ذلك. ولكن لا ريب في أنك متعَب. فهل ترى أن نرجئ اجتماعنا إلى غد؟»

ـ «لحظة أخرى.»

ـ «بل ساعة إذا شئت.»

قال ابن الأخ: «سيدي، لقد غالينا في الظلم، وها نحن نجني ثمرات الظلم.»

فكرر المركيز في ابتسامة متسائلة: «نحن غالينا في الظلم؟» وفي رقة، أشار إلى ابن أخيه أولاً ثم إلى نفسه.

ـ «أسرتنا؛ أسرتنا المجيدة التي يهمنا كلينا شرفُها كلاً على طريقته المناقضة لطريقة الآخر. حتى في عهد والدي غالينا في ظلم الناس، منزلين الأذى بكل كائن بشري يعترض ما بيننا وبين ملذاتنا مهما تكن. ولماذا أتحدث عن عهد أبي وهو صنوٌ لعهدك؟ هل أستطيع أن أفصل توأم والدي وشريكه في الميراث وخليفته، عن نفسه؟»

فقال المركيز: «لقد فعل الموت ذلك.»

فأجاب ابن الأخ: «وتركني مشدوداً إلى نظام أكرهه،، نظام أنا مسؤول تجاهه، ولكني عاجز في نطاقه. أحاول أن أنفذ آخر رجاء وجهته إليّ شفتا أمي العزيزة وأطيع آخر نظرة من عينيها وقد توسلت إليّ فيها أن أكون رحيماً وأن أصلح الخطأ وأقوّم الإعوجاج، ولكني ألتمس القوة والعون على ذلك فلا أوفق، فأتمزق غيظاً وألماً.»

فقال المركيز، موجْهاً سبابته إلى صدر ابن أخيه، وكانا واقفين الآن قرب المدفأة: «وإذا ما التمستهما عندي، يا ابن أخي، فإن التماسك هذا سوف يظل على غير طائل. في ميسورك أن تكون على ثقة من ذلك.»

كان كل خط من خطوط وجهه الأبيض المستقيمة صارماً يرشح بالقسوة والمكر فيما وقف ناظراً إلى ابن أخيه في سكون. حاملاً علبة سعوطه بيده. ومرة ثانية وجّه سبابته نحو صدر ابن أخيه، وكأن إصبعه

نصلٌ دقيق لسيف صغير يشك به جسده في تلطف رفيق، وقال: «سوف أموت، يا صديقي، مخلّداً النظام الذي عشت في ظله.»

حتى إذا نطق بذلك تناول مقداراً ختامياً من السعوط، ووضع العلبة في جيبه.

ثم إنه أضاف بعد أن قرع جرساً على المائدة «من الخير لك أن تكون عاقلاً وترتضي مصيرك الطبيعي. ولكنك ضالّ خسر نفسه، يا مسيو شارل، على ما أرى.»

فأجابه ابن أخيه في صوت محزون: «لقد خسرتُ هذه الثروة، وخسرت فرنسة. إني أتخلى عنهما جميعاً.»

ـ «وهل هما ملك لك حتى تتخلى عنهما؟ قد تكون فرنسة ملكاً لك، ولكن أتكون هذه الثروة لك أيضاً؟ إنها لا تستحق الذكر، ولكن أهي ملكك حقاً؟»

ـ «أنا لم أقصد، في كلماتي، أن أزعم ذلك. وإذا ما انتقلت منك إليّ في غد. . .»

ـ «وهو أمر أرجو من صميم فؤادي أن يكون بعيد الإحتمال.»

ـ «. . . أو بعد عشرين عاماً. . .»

فقال المركيز: «إنك لتخلع عليّ شرفاً كبيراً. ومع ذلك فأنا أوثر هذا الفرض.»

ـ «فلسوف أتخلى عنها، وأعيش على نحو آخر وفي مكان آخر. إنها ليست شيئاً ذا بال. وهل هي غير قفر من البؤس والخراب!»

فقال المركيز مجيلاً طرفه في الغرفة المترفة: «هه!»

ـ «هذه الممتلكات جميلة في نظر العين. أما إذا نفذتَ إلى ما وراء الظاهر ورأيت الأشياء على حقيقتها، تحت قبة السماء، وعلى وضح النهار، فعندئذ تجد أنها برج متداع من الإسراف، وسوء التدبير، والابتزاز، والدين، والرهن، والجور، والجوع، والعري، والعذاب.»

فقال المركيز مرة ثانية كمن اكتفى بما سمع: «هه!»

ـ «ولو أصبحت ملكي في يوم من الأيام فعندئذ أعهد في أمرها إلى أيد أكثر أهلية ابتغاء تحريرها تدريجياً (إذا كان شيء مثل هذا ممكناً) من الأثقال التي تشدّ بها إلى أدنى، بحيث يكون في ميسور البؤساء الذين لا يستطيعون مفارقتها والذين احتملوا من العذاب أقصى ما يستطيع إنسان احتماله، أن يقاسوا، بعد جيل واحد، آلاماً دون آلامهم الحاضرة. ولكنها ليست لي. لقد حلّت بساحتها اللعنة، كما حلّت بساحة هذه البلاد كلها.»

فقال العم: «وأنت؟ إغفر لي فضولي. هل تعتزم، في ظل فلسفتك الجديدة هذه، أن تعيش وتقيم أودك؟»

ـ «يجب أن أعمل ـ لكي أعيش وأقيم أودي ـ ما قد يتعين على مواطنيّ، حتى أولئك الذين حملوا في يوم من الأيام شارة النبالة، أن يعملوه. يجب أن أشتغل.»

ـ «في إنكلترة، مثلاً؟»

ـ «أجل. إن شرف الأسرة، يا سيدي، سوف يكون في نجوة مني في هذه الديار. إن اسم الأسرة لن يُلطّخ بأعمالي في أي بلد لأني لن أحمله في أي بلد آخر.»

وكان رنين الجرس سبباً في إضاءة حجرة النوم المحاذية. ولقد وهجت الآن مشرقة، من خلال الباب. ونظر المركيز في ذلك الاتجاه، وأصغى لوقع خطى خادمه المتراجعة.

ثم إنه قال مديراً وجهه إلى ابن أخيه، في ابتسام: «يبدو لي من عيشك الرغد اللامبالي في إنكلترة أن لتلك البلاد سحراً في نفسك.»

ـ «لقد سبق لي أن قلت إني أحسّ بأني قد أكون مديناً لك، يا سيدي، في عيشي الرغد هناك. أما في ما عدا ذلك فإنكلترة هي الملجأ الذي لجأت إليه.»

ـ يزعم هؤلاء الإنكليز المعتزون بأنفسهم أن بلادهم ملجأ لكثير من الناس. هل تعرف مواطناً وجد ملجأ هناك؟ مواطناً طبيباً؟»

ـ «نعم.»

ـ «مع ابنته؟»

ـ «نعم.»

فقال المركيز: «أجل. أنت متعَب. طاب مساؤك!»

وفيما كان يحني رأسه بأبلغ الكياسة، طَفَت على وجهه الباسم سيما لغز خفيّ. وأسبغ على تلك الكلمات طابعاً من الغرابة والغموض أذهل عيني ابن أخيه وأذنيه. وفي الوقت نفسه التَوَت الخطوط الرقيقة المستقيمة المحيطة بمحجريه، والشفتان الرقيقتان المستقيمتان، والنقرتان التي فوق الأنف، التوَت كلها في سخرية بدت شيطانية على نحو ظريف.

وكرر المركيز: «طبيب وابنته. نعم. هكذا تبدأ الفلسفة الجديدة! أنت متعَب. طاب مساؤك!»

ولم يكن استنطاق وجهه ذاك بأيسر كثيراً من استنطاق أيما وجه حجريّ خارج القصر. ونظر ابن الأخ إليه، فيما هو يتخذ سبيله نحو الباب، ولكن على غير طائل.

قال العم: «طاب مساؤك؟ أرجو أن أسعد برؤيتك كرة ثانية، في الصباح. أتمنى لك استراحة طيبة! أنِرْ يا سيدي طريق ابن أخي إلى غرفته هناك! واحرق يا سيدي ابن أخي في فراشه، إذا شئت!» كذلك أضاف في ما بينه وبين نفسه، قبل أن يقرع الجرس كرة ثانية ويستدعي خادمه إلى حجرة نومه الخاصة.

أقبل الخادم ورجع، وأنشأ حضرة المركيز، يذرع الغرفة جيئة وذهوباً، وعلى جسده مَبْذَل(*) فضفاض، لكي يعدّ نفسه إعداداً رفيقاً للنوم في تلك الليلة القائظة. كان ثوبه ذاك يُحدث بعض الحفيف في الغرفة، ولكن نعليه الخفيفتين لم تثيرا أيما ضجة على أرضها. ولقد بدا هو في غدوّه ورواحه مثل نمر مروّض. لقد بدا وكأنه مركيز مسحور من

(*) المبذل: «الروب دو شامبر».

نوع شرير لا تعرف التوبة سبيلاً إلى نفسه، على ما في الحكايات، مركيز كان تحوله الدوري إلى شكل نمر إما واقعاً منذ لحظة، أو على وشك الوقوع بعد لحظة.

وسار من أقصى حجرة نومه المترفة إلى أقصاها مستعرضاً كرة ثانية صور الرحلة التي توافدت، غير مدعوة، على ذهنه: التصعيد الجاهد البطيء في الكثيب عند غروب الشمس، ثم المغيب، والانحدار، والطاحونة، والسجن القائم على الصخرة الشاهقة، والقرية الصغيرة الجاثمة في الغور، والفلاحين أمام العين، ومصلح الطرق يشير بقلنسوته الزرقاء إلى السلسلة التي تحت العربة. وذكّرته عين القرية بفوّارة الماء في باريس، والصرة الصغيرة المنطرحة عند أدناها، والنسوة حانيات فوقها، والرجل الفارع الطول رافعاً يديه؛ صارخاً «لقد مات!»

قال حضرة المركيز: «لقد زايلني الشعور بالقيظ. الآن، وفي استطاعتي أن آوي إلى الفراش.»

وعندئذ أطفأ جميع الأضواء ما خلا ضوءاً واحداً مشتعلاً فوق المدفأة الضخمة، وأسدل الكلّة الشاشية الرقيقة من حوله، وسمع الليل يخترق حجاب صمته بتنهيدة طويلة، فيما كان هو يستعد للرقاد.

وطوال ساعات ثقيلة ثلاث حدّقت الوجوه الحجرية المعلقة على الجدران الخارجية تحديقاً أعمى إلى الليل البهيم. طوال ساعات ثقيلة ثلاث حمحمت الجياد في الإسطبل أمام مذاودها، ونبحت الكلاب، وأطلقت البوم صوتاً لا يشبه الصوت الذي اصطلح الشعراء على نسبته إليها، إلا قليلاً. ولكن من العادات العنيدة المستحوذة على أمثال هذه المخلوقات أن لا تقول في أيما يوم من الأيام، تقريباً، ما يُعدّ لها من كلام.

ثلاث ساعات ثقيلة ووجوه القصر الحجرية من أُسُود وبشر، تحدق تحديقاً أعمى إلى وجه الليل. وكانت الظلمة الميتة تنتشر فوق المشهد القروي كله؛ ظلمة ميتة أضافت سكونها الخاص إلى الغبار الساكن فوق

الطرق كلها. وخيمت الدجنة على المقبرة حتى لصار من المتعذر التمييز بين واحدة من أكوام العشب السقيم فيها وبين الأخرى. وكان في ميسور التمثال القائم فوق الصليب أن يكبّ على وجهه؛ إذ لم يكن يُرى منه شيء. وفي القرية استغرق جباة الضرائب والمكلفون بدفعها، في النوم. أجل، نام أهلها المهزولون نوماً عميقاً، ولعلهم أن يكونوا قد حلموا بالموائد والولائم، شأن الجائعين عادةً، وبالرفه والراحة، شأن الرقيق المسوق والثور الرازح تحت النير، فملأوا بطونهم واستروحوا عبق الحرية.

وفاضت عين القرية في خفاء وسكون، وتساقطت القطرات من فوارة القصر في خفاء وسكون أيضاً ـ فإذا بالماء يُسفح منهما كليهما كما سفحت الدقائق المتساقطة من ينبوع الزمن ـ طوال ثلاث ساعات مظلمة. حتى إذا تنفس الصبح غدت المياه المنبثقة من كل منهما شجية، وفُتحت عيون الوجوه الحجرية في القصر.

وتدفق النور شيئاً بعد شيء حتى مست الشمس آخر الأمر رؤوس الأشجار الساكنة وصبّت أشعتها على الكثيب. وفي الوهج، بدت مياه فوارة القصر وكأنها حالت إلى دم، وشاع الدم في وجوه التماثيل الحجرية. وأنشدت الطير في نبرات عالية. وعلى إطار نافذة حجرة نوم المركيز ـ تلك النافذة الكبيرة التي خرّبتها الرياح ـ غنى طائر صغير أجمل أغانيه بأقصى ما يستطيع من قوة. وعندئذ بدا أشدّ الوجوه الحجرية قرباً وكأنه يحدق ذاهلاً فاغر الفم مروَّعاً.

غمرت الشمس الوجوه بالضياء، ودبّت الحياة في القرية. وفُتحت النوافذ، ورفع الحديد عن الأبواب الواهنة، وانطلق الناس مرتجفين، وقد أنعشهم الهواء العذب النقي. ومن ثم استهل أبناء القرية كدحهم الذي لا يعرف الهوادة إلا لِماما. فأما بعضهم فمضوا إلى العين، وأما بعضهم الآخر فمضوا إلى الحقول. كان ههنا رجال ونساء يحفرون ويعزقون، وكان ههناك رجال ونساء يعنون بالماشية الهزيلة ويقودون

الأبقار البارزة العظام إلى تلك المراعي الشحيحة التي لا يمكن أن يجدوها على جوانب الطريق، وفي الكنيسة وعند الصليب ركع شخص أو شخصان. وشهدت بقرة مسوقة صلوات هذين الراكعين، ملتمسةً طعام الصباح بين الأعشاب البرية حول قدميها.

أفاق القصر، جرياً على مألوف عادته بعد أن استيقظت القرية كلها، ولكنه أفاق تدريجياً ومن غير ريب. فقد احمرّت، أول ما احمرت، حراب الخنازير ومُدى الطرَد المستوحشة، شأنها في الأيام الخالية. ثم أومضت ماضيةً تحت أشعة شمس الصباح. ثم إن الأبواب والنوافذ فتحت على مصاريعها؛ وتلفّتت الجياد في اصطبلاتها نحو النور والنضارة المتدفقين من الأبواب، والتمت أوراق الأشجار في حفيفها عند النوافذ ذات القضبان الحديدية، وأنشأت الكلاب تجذب سلاسلها في عنق، وتشبّ متلهفة إلى الانطلاق.

والواقع أن هذه الحوادث الطفيفة كلها كانت تؤلف جزءاً من نمطية الحياة كلما أصبح الصباح. أما قرعُ ناقوس القصر الكبير، وَعدْوُ الناس على سلالمه صاعدين نازلين، وإسراعهم إلى الاحتشاد على السّطحية، وخبطهم خبط عَشواء ههنا وههناك وفي كل مكان، وإسراجهم الخيلَ في مثل لمح البصر وانطلاقهم بها ـ أما هذه كلها فلم تكن لتؤلف، من غير شك، جزءاً من نمطية الحياة في تلك القرية كلما أصبح الصباح.

أيّ ريح حملت أصداء هذا الهرج إلى مصلح الطرق الأشيب وكان قد استهل عمله عند قمة الكثيب خلفَ القرية، ووضع غداءه الخفيف الحمل المستقر في صرة تزهد فيها حتى الغربان، فوق ركام من الحجارة؟ أتكون الطيور، الحاملة بعض بذور ذلك الهرج إلى المدى البعيد، قد ألقت عليه إحداها كما تُنثر بذور الحظ؟ وسواء أصح هذا أم لم يصحّ، فقد أنشأ مصلح الطرق يعدو في ذلك الصباح الحارّ الرطب، وكأنما يفر من براثن الموت، هابطاً الكثيب، غائصاً في التراب حتى الركبتين، غيرَ مُلوٍ على شيء حتى انتهى إلى العين.

كان أهل القرية محتشدين كلهم حول العين، وقد رانت الكآبة على وجوههم وشرعوا يتهامسون ولكن من غير أن يتكشّفوا عن أيما انفعال غير الفضول والدهش الكالحين. وكانت البقرات التي سيقت على عجل وشدّت إلى أيما شيء يمسك بها، تجيل الطرف في ما حولها في جنون، أو تستلقي على الأرض مجترة غذاءً لا يتكافأ مع تعبها كانت قد وقعت عليه في جولتها المبتورة. وكان نفر من أهل القصر، ونفر من العاملين في مركز البريد، وجميع جباة الضرائب مسلحين كثيراً أو قليلاً؛ وكانوا قد احتشدوا على الجانب الآخر من الشارع الصغير على نحو حائر مشحون بالفراغ. وكان مصلح الطرق قد انسلّ الآن وسط جماعة مؤلفة من خمسين صديقاً من أصدقائه الخلص، وراح يلطم صدره بقلنسوته الزرقاء: علامَ كان يدل ذلك كله؟ وعلام كان يدلّ وثوب مسيو غابيل إلى فرسه وثوباً سريعاً، ولحاقُهُ بخادم ما على جناح البرق (برغم أن الفرس كانت مثقلة بحملٍ مضاعف) فكأنما هو ترجمة جديدة لأنشودة ليونورا الجرمانية؟

لقد دلت على أن الوجوه الحجرية، هناك في القصر، قد زادت وجهاً جديداً.

لقد أشرف الغول كرة أخرى على ذلك القصر، تلك الليلة، وأضاف إلى الوجوه الحجرية الوجه الذي كان يعوزها، الوجه الحجري الذي انتظرته منذ مئتي عام.

كان مستلقياً على وسادة حضرة المركيز. وكان أشبه بقناع بارع، أصابه الذعر فجأة، واستبد به الغضب، واستحال إلى حجارة. وكانت مدية قد غُيّبت في قلب ذلك الجسم الحجري. وكانت حول مقبض المدية ورقة خطت عليها الكلمات التالية خطاً رديئاً:

«سوقوه في سرعة إلى قبره. هذا من: جاك.»

ـ 10 ـ

وعدان

وانقضى اثنا عشر شهراً، وعُيّن مستر تشارلز دارني في انكلترة مدرساً للغة الفرنسية، وكان مطلعاً اطلاعاً حسناً على آدابها. ولو عاش دارني في هذا العصر إذن لكان أستاذاً، أما في ذلك العصر فقد كان معلماً بسيطاً. كان يدرّس نفراً من الشبان الذين وجدوا متعة وفراغاً يمكّنانهم من دراسة لغة حية يُنطق بها في طول العالم وعرضه، وكان يغرس في نفوس طلابه حسن التذوق لما تنطوي عليه تلك اللغة من كنوز المعرفة والخيال. وكان إلى ذلك يجيد الكتابة عن تلك الكنوز بإنكليزية سليمة ويحسن نقلها إلى تلك اللغة. ولم يكن هذا الضرب من المعلمين قريب المنال في ذلك العصر. فما كان بين جماعة المعلمين أمراء كالذين عرفتهم الأيام الخالية، ولا كان بينها ملوك كالذين جاءوا في الأيام اللاحقة، ولم يكن ثمة نبلاء حلّت النكبة بساحتهم فأُسقطت أسماؤهم من دفاتر مصرف تلسون وأثبتت في عداد الطهاة والنجارين. وما هي إلا فترة حتى حظي دارني الشاب ـ بوصفه مدرّساً يمكّنه علمه الواسع من إمتاع الطالب وإفادته على نحو فائق للعادة، وبوصفه مترجماً أنيقاً يُفرغ في عمله شيئاً غير مجرد المعرفة المعجمية ـ بالشهرة والتشجيع. وكان فوق ذلك على علم بظروف بلاده وأحوالها. وكان اهتمام الإنكليز بذلك يتعاظم يوماً بعد يوم. وهكذا نَعِمَ بعيش رغد استحقه بالاجتهاد والكدّ.

وما كان ليتوقع أن يمشي، في لندن، على أرضٍ مفروشة بالذهب،

أو أن ينام على سُرر من الزهور. ولو أنه كان يطمع بمثل ذلك إذن لما وفّق إلى النجاح. لقد توقع العمل الكادح، ووجده، ونهض بعبئه، وأفاد منه أحسن الإفادة. على هذه الأسس قام نجاحه.

كان يقضي جزءاً من وقته في كمبريدج حيث درّس فريقاً من الطلاب الجامعيين غير المنتهين وكأنه مهرّب غضّت السلطات طرفها عنه فهو يقوم بتجارة غير مشروعة قوامها تهريب اللغات الأوروبية المحدثة، بدلاً من استيراد اللغتين اليونانية واللاتينية ودفع المكوس المفروضة عليهما إلى الجمرك. أما سائر وقته فكان يقضيه في لندن.

الآن، ومنذ تلك الأيام التي كانت كلها صيفاً في جنة عَدْن إلى هذه الأيام التي تكاد تكون كلها شتاء في خطوط العرض الساقطة من تلك العلياء، والرجل يتخذ أبداً سبيلاً واحداً ـ سبيل تشارلز دارني ـ سبيل حب المرأة.

لقد أحب لوسي مانيت منذ اللحظة التي تهدد الخطر فيها حياته. فهو لم يسمع قط صوتاً أعذب ولا أروع من صوتها الحنون. و لم يرَ قط وجهاً أروق وأجمل من وجهها حين جابهَ وجهَهُ عند حافة القبر الذي حُفر له. ولكنه لمّا يحدثها شيئاً عن هذه المسألة. كان مصرع المركيز في ذلك القصر المهجور القائم وراء الأمواج المتلاطمة والطرق المغبرة الطويلة، الطويلة ـ القصر الحجري الراسخ الذي انتهى إلى أن يصبح ضبابَ حُلمٍ ليس غير ـ قد حال عليه الحول، ومع ذلك فلم يكشف لها، ولو بكلمة واحدة، عما يعتلج في فؤاده من الوجد.

كان يدري جيداً أن له في ذلك معاذيره. وكان يوماً صائفاً أيضاً ذلك الذي رجع فيه إلى لندن، منذ قريب ـ بعد أن أنجز عمله التعليمي ـ وعرّج على الزاوية الهادئة في «سوهر» موطّناً النفس على أن يغتنم أول فرصة تسنح له لمفاتحة الدكتور مانيت بالذي يجول في ذهنه. كان ذلك النهار الصائف على وشك الاحتضار. وكان يعلم أن لوسي قد خرجت من غير شك مع مس بروسّ.

وجد الطبيب قاعداً في كرسيه ذي الذراعين يُطالع قرب النافذة. لقد عاودته على نحو تدريجي تلك الطاقة التي أسعفته في احتمال آلامه القديمة وزادتها حدة في آن معاً. فهو الآن رجلٌ بالغ النشاط حقاً، وطيد الهمة، راسخ العزم مقدام. وكانت تصيب طاقتَهُ المستعادة هذه انتكاسات طفيفة بعض الأحيان، كمثل تلك التي كانت تصيبه أول الأمر، عند ممارسة سائر ملكاته المستعادة. ولكنّ هذا لم يكن ليُلحظ في فترات متعاقبة، وقد غدا أمراً نادراً آخذاً سبيله إلى الزوال.

لقد درس كثيراً، ونام قليلاً، وصبر على كثير من التعب في ارتياح وسعة صدر، وفي بشاشة وابتهاج.

وما أن رأى تشارلز دارني داخلاً عليه حتى وضع كتابه جانباً وبسط يده نحوه، قائلاً: «تشارلز دارني! أنا سعيد بأن أراك. لقد كنا ننتظر عودتك في الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضيات. كان كل من مستر سترايفر وسيدني كارتون هنا أمس، ولقد اتفقا على أنك تأخرت في العودة أكثر من عادتك.»

ـ «أنا أشكر لهما اهتمامهما بذلك،» قال هذا في نبرة من البرود الضئيل؛ في ما يتصل بهما، وإن يكن في خطابه للطبيب كثير من الحرارة. ثم أردف: «مسّ مانيت...»

فقال الطبيب حين كفّ تشارلز عن الكلام: «إنها في صحة جيدة، ولا ريب في أن عودتك سوف تبهجنا جميعاً. لقد خرجت في بعض الشؤون المنزلية، ولكنها سوف ترجع عما قريب.»

ـ «كنت أعرف أنها ليست في المنزل، يا دكتور مانيت. ولقد اغتنمت فرصة غيابها هذا لأستأذنك في التحدث إليك.»

وران على الغرفة سكون كامل.

ثم قال الطبيب في ارتباك ظاهر: «نعم؟ قرّب كرسيك إلى هنا وتحدث.»

وامتثل أمره في ما يتصل بالكرسي؛ ولكنه بدا وكأنه يجد الكلام أقلّ يسراً.

وأخيراً استهل حديثه بالقول: «لقد أسعدني حظي، يا دكتور مانيت، بالتردد على منزلكم هذا منذ سنة ونصف، بحيث أرجو أن لا يكون في الموضوع الذي أوشك أن أقرّ به ما. . . .»

كان الطبيب قد بسط يده نحوه ليوقفه، فكفّ عن الكلام. حتى إذا أبقاها هكذا فترة قصيرة قال وهو يثنيها: «وهل لوسي هي موضوع الحديث؟»

ـ «نعم.»

ـ «من العسير عليّ أن أتحدث عنها في أيما وقت. من العسير عليّ أن أسمع أحداً يتحدث عنها في مثل نبرة صوتك هذه، يا تشارلز دارني.»

فقال في احترام: «إن ذلك بسبب الإعجاب المتقد، والإكبار الصحيح، والحب العميق، يا دكتور مانيت!»

وران على الغرفة صمت آخر كامل قبل أن يضيف الطبيب: «أنا أصدق ذلك. لست أحب أن أظلمك. أنا أصدق ذلك.»

وكان عدم ارتياحه لإثارة هذا الموضوع واضحاً إلى درجة جعلت تشارلز دارني يتردد.

ـ «هل أتابع الحديث، يا سيدي؟»

وساد الصمت كرة أخرى.

ـ «نعم، تابع.»

ـ «قد تحزر ما الذي سوف أقوله، ولكنك لن تستطيع أن تعلم مدى إخلاصي في قولي إياه، ومدى الصدق الذي ينطوي عليه إحساسي به من غير أن تعرف سريرة فؤادي، والآمال والمخاوف وضروب القلق التي تثقله. إني أحب ابنتك، يا عزيزي الدكتور مانيت، حباً قوياً غامراً، خلواً من الغرض، يكاد يبلغ مرتبة التقديس. وإذا كان في العالم حبّ، فذلك

هو حبي لها. لقد أحببتها أنت نفسك، فليكن حبك القديم شفيعي عندك!»

كان الطبيب مشيحاً بوجهه عنه، مطرقاً ببصره إلى الأرض. حتى إذا نطق دارني بكلماته الأخيرة سارع إلى بسط يده كرة ثانية وصاح: «لا تقل هذا يا سيدي! دع عنك ذلك! أستحلفك بالله أن لا تهيج ذكرى ذلك!»

وكانت صيحة أشبه ما تكون بصراخ الألم الحقيقي حتى لقد ظلت ترنّ في أذني تشارلز دارني بعد فترة طويلة من اعتصام الطبيب بالصمت. وأومأ باليد التي سبق له أن بسطها، فكأنما كان يلتمس من دارني أن يمسك عن الكلام. وفهمها دارني على هذا النحو فظل صامتاً.

وبعد لحظات قال الطبيب بصوت محزون: «عفوك يا سيدي. أنا لا أشك في حبك للوسي. إطمئن من هذه الناحية.»

ثم إنه تحوّل نحوه بكرسيه، ولكنه لم ينظر إليه، ولم يرفع عينيه. وأسند ذقنه بيده. ونشر شعره الأبيض ظله على وجهه.

ـ «هل تحدثتَ إلى لوسي ذات يوم، في هذا الموضوع؟»

ـ «لا.»

ـ «ولا كتبتَ إليها؟»

ـ «مطلقاً.»

ـ «ليس من الشهامة أن أتظاهر بجهلي أن إنكارك لذاتك لا يعدو أن يكون مراعاة منك لحرمة أبيها. إن أباها يشكرك على ذلك.»

ومدّ يده إليه، ولكن عينيه لم تسايراها.

وقال دارني في احترام: «أنا أعرف، يا دكتور مانيت، وكيف أستطيع أن لا أعرف، وأنا الذي شهدتكما معاً يوماً بعد يوم، إن بينك وبين مسّ مانيت مودة مؤثّرة هي وراء المودات، مودة شديدة الاتصال بالظروف التي نشأت في جوها بحيث يندر أن يقع المرء على نظائر لها حتى في الحنان الذي يشدّ الأب إلى طفله. أنا أعرف، يا دكتور مانيت،

وكيف أستطيع أن لا أعرف، أنها تحبك حبّ الطفلة بما ينطوي عليه من تبعية واتكال، وحبّ البنت التي أصبحت امرأة بما ينطوي عليه من مودة وشعور بالواجب. أنا أعرف أنها، وقد افتقدت في طفولتها عطف الأب، تقف نفسها اليوم لخدمتك بكل ما في شخصيتها وسنواتها الحاضرة من وفاء وحميّة، ممزوجاً بألفة الأيام السالفة التي فقدتك خلالها، وثقتها. أنا أعرف أحسن المعرفة أنك لو أرجعت إليها من العالم الذي وراء هذه الحياة إذن لكان متعذراً، في نظرها، أو يكاد، أن تتحلى بخُلق أكثر قدسية من ذلك الذي يتبدّى لها منك كل يوم. أنا أعرف أنها إذا عانقتك طوّقتْ جيدك بأذرع الطفلة والفتاة والمرأة مجتمعة كلها في واحد. أنا أعرف أنها إذ تحبّك إنما ترى وتحب أمها كما قد كانت وهي في مثل سنها، وتراك وتحبّك كما كنتَ وأنت في مثل سني، تحبّ أمها الكسيرة الفؤاد، وتحبّك أنت من خلال البلاء المروّع الذي شقيتَ به ومن خلال نجاتك الميمونة. لقد عرفتُ ذلك، وإني لأذكره، ليل نهار، منذ أن عرفتك في بيتك هذا.»

كان أبوها معتصماً بالصمت مطرقاً بوجهه إلى الأرض. وكانت أنفاسه قد تسارعت بعض الشيء، ولكنه كبتَ سائر إمارات الاهتياج.

ـ «وإذ كنت أعرف ذلك دائماً، يا عزيزي الدكتور مانيت، وإذ كنت أراها وأراك تحفّ بكما هالة من النور المقدس فقد اصطبرتُ واصطبرتُ على مقدار ما تتسع طبيعة الإنسان للصبر. لقد استشعرت، بل إني لأستشعر الآن، أن إقحام حبي بينكما يعني مسّ تاريخكما بشيء لا يدانيه روعةً ومجداً. ولكني أحبها. وإني لأشهد الله على هذا الحب.»

فأجاب الأب بصوت حزين جداً «أنا أعتقد ذلك. لقد خطر لي من قبل. أنا أعتقد ذلك.»

فقال دارني وقد وجدت أذنه في الصوت الحزين جداً معنى من التأنيب: «ولكن حذار أن تعتقد أني ـ إذا ما أسعدني حظي يوماً فغدت لي زوجة ـ سأرضى بأن أفرّق ما بينك وبينها. والحق إني لو لم أكن

واثقاً من ذلك لما أجزت لنفسي أن أقول كلمة واحدة مما قلتُهُ الآن. إن في ذلك لخسّةً ودناءة، فضلاً عن أنه متعذر. ولو قد كنت أعتزم أيما شيء مثل هذا، حتى بعد سنين متطاولة، وأكنّه في ضميري أو أخبئه في فؤادي ـ لو كان ثمة إمكانية كهذه، بل لو كان من الجائز أن تنشأ في يوم من الأيام إمكانية كهذه، إذن لما استطعت الآن أن ألمس هذه اليد الشريفة.»

ووضع يده عليها فيما هو يتكلم.

ـ «لا، يا عزيزي الدكتور مانيت. أنا مثلك مبعدٌ من فرنسة إبعاداً اختيارياً، أنا مثلك أخرجتني منها مساوئ الحكم والمظالم وآيات البؤس والشقاء. أنا مثلك أكافح للعيش بعيداً عن ذلك كله بنشاطي وكدّي، وأتطلع إلى مستقبل أسعد. أنا لا أطمع في شيء غير مشاطرتك حظوظك، ومشاركتك حياتك وبيتك، وغير الإخلاص لك حتى الموت. ولست أبغي من وراء ذلك أن أقاسم لوسي امتيازاتها بوصفها ابنتك، ورفيقتك، وصديقتك، بل أن أوطّد تلك الامتيازات، وأزيد لوسي قرباً إليك إذا كان شيء مثل ذلك ممكناً.»

وكانت يده لا تزال على يد أبيها. وجواباً عن تلك اللمسة، ولكن من غير برود، أراح الطبيب يديه على ذراعي كرسيه، ورفع بصره للمرة الأولى منذ بدء الحديث. كانت تبدو على وجهه إمارات صراع، إمارات صراع تغلب عليها بين الفينة والفينة سيما الشك والذعر.

ـ «إنك تتحدث، يا تشارلز دارني، حديثاً يزخر بالعاطفة والرجولة، إلى درجة تحملني على أن أشكرك من صميم فؤادي وعلى أن أفتح لك قلبي كله، أو معظمه على الأقل. ألديك من الأسباب ما يحملك على الإعتقاد بأن لوسي تحبك؟»

ـ «لا ليس عندي شيء من ذلك حتى الآن.»

ـ «وهل تهدف من وراء هذه المُسارّة إلى أن تتيقن من ذلك في الحال، بالتفاهم معي؟»

ـ «ولا هذا أيضاً. إني قد لا أطمع في أن أفعل ذلك بعد أسابيع. ومن يدري، فقد أرجو ذلك (مخطئاً أو غير مخطئ) في غد.»

ـ «أتلتمس مني إرشاداً ما؟»

ـ «أنا لا أسألك شيئاً يا سيدي. ولكن قد خطر ببالي أن من الممكن أن يكون في وسعك، إذا كنت تقرّ ذلك، أن تزودني ببعض هذا الإرشاد.»

ـ «أتسألني وعداً ما؟»

ـ «أجل، إني أسألك ذلك.»

ـ «وما هو؟»

ـ «أنا أدري جيداً أنه لا أمل لي بدونك. أنا أدري جيداً أنه حتى ولو كانت الآنسة مانيت تنزلني في هذه اللحظة في مكان ما من قلبها البريء ـ وأرجو أن لا تحسب أن عندي من الغرور ما يحملني على افتراض ذلك ـ فلست أستطيع الاحتفاظ بأيما مكان من قلبها يتعارض وحبها لأبيها.»

ـ «إذا كان ذلك كذلك، فهل تعرف، من ناحية أخرى، ما الذي يترتب على هذا؟»

ـ «أنا أدرك جيداً أن كلمة يقولها أبوها في الثناء على أيما خاطب يطلب يدها خليقةٌ بأن تَرْجَحَ ميلها الخاص وترجح العالم كله. ومن أجل ذلك،» قال دارني هذا في حياء ولكن في عزم، «فلن أكلفك قول هذه الكلمة ولو كانت تساوي حياتي.»

ـ «أنا واثق من ذلك. واعلم، يا تشارلز دارني، أن الألغاز تنبثق من الحب الوثيق بقدر ما تنبثق من الانفصال الجافي. وهي في الحال الأولى خفية دقيقة يصعب النفاذ إليها. والواقع أن ابنتي لوسي هي، من هذه الناحية، لغز غامض بالنسبة إليّ. أنا لا أستطيع أن أحزر ما الذي يعتلج في فؤادها.»

ـ «هل لي أن أسألك يا سيدي، إذا ما كنت تفكر أنها . . .» حتى إذا رأى الطبيب إلى تردده أتم الجملة بالنيابة عنه:

ـ «. . . إن خاطباً آخر يطلب يدها؟»

ـ «هذا ما عنيت أن أقوله.»

وفكر أبوها، بعض الشيء، قبل أن يجيب: «لقد رأيت مستر كارتون هنا، بعينك. كذلك يزورنا مستر سترايفر بين الفينة والفينة. فإن كان ثمة من يفكر في خطبتها فقد يكون واحداً من هذين.»

فقال دارني: «أو كليهما.»

ـ «أنا لم أفكر في أنهما كليهما قد يرغبان فيها. وينبغي أن لا أفكر، في أغلب الظن. لقد سألتني أن أعدك وعداً. فقل ما هو؟»

ـ «هو أنه إذا ما سارّتك مس مانيت، في أيما وقت، بمثل هذا الحديث الذي جرؤت على الإفضاء به إليك، فأدل إليها بالذي قلته لك، وبرأيك فيه. وأرجو أن يكون في ميسورك أن تحسن الظن بي بحيث لا توحي إليها بشيء ليس في مصلحتي. أنا لا أقول شيئاً إضافياً عن حظي في هذا الميدان. ذلك ما أسألك إياه. أما الشرط الذي أقيم عليه سؤالي هذا، والذي يحق لك من غير شك أن تطلبه، فسوف أنفذه في الحال.»

فقال الطبيب: «إني أعدك بذلك من غير قيد ولا شرط. أنا مؤمن بصدق ما تقول، ولست أشك في أنك ترمي إلى توثيق الروابط التي تشدّ ما بيني وبين نفسي الأخرى الأعز على قلبي، لا إلى توهينها. فإذا ما أفْضت إليّ في أيما يوم بأن سعادتها الكاملة لا تتم إلا بالزواج منك فعندئذ أقدّمها لك. وإذا كان ثمة ـ يا تشارلز دارني، إذا كان ثمة. . .»

وكان الشاب قد أمسك بيد الدكتور مانيت إقراراً بفضله، وكانت يداهما متصافحتين فيما تابع الطبيب حديثه:

«. . . أيما أوهام، أو أيما أسباب، أو أيما مخاوف، أو أيما شيء على الإطلاق قديماً كان أو حديثاً، ضد الرجل الذي تحبه حقاً ـ وكانت

مسؤولية ذلك المباشرة لا تقع على كاهله ـ فينبغي أن يُمحى ذلك كله من أجلها. إنها كل شيء عندي. إنها عندي فوق العذاب؛ إنها عندي فوق الظلم؛ إنها عندي. . . حسناً! ذلك لغو لا غناء فيه.»

وكانت الطريقة التي لجأ بها إلى الصمت ونظرته المركّزة، عندما كف عن الكلام، غريبتين إلى حد جعل دارني يحس بأن يده هو قد أصابها البرد في يد الطبيب التي أفلتتها شيئاً بعد شيء.

وقال الدكتور مانيت وقد افترّ ثغره عن ابتسامة: «لقد قلتَ لي شيئاً. ما ذلك الشيء الذي قلته لي؟»

ولم يدر دارني بماذا يجيب، إلا بعد أن تذكر أنه تحدث عن شرط ما. وعندئذ سري عنه وأجاب قائلاً: «يتعين عليّ أن أبادلك ثقة بثقة. إن اسمي الحالي، وإن يكن غير مختلف إلا اختلافاً طفيفاً عن اسم أمي، ليس ـ كما تذكر ـ اسمي الحقيقي. وأحب الآن أن أبوح لك بهذا الاسم وأكشف عن السبب الذي من أجله أعيش في انكلترة.»

فقال الطبيب: «قف!»

ـ «إنما أحببت أن أفعل ذلك لكي أكون أجدر بثقتك، ولكي لا أخفي عليك سراً ما.»

ـ «قف!» قال الطبيب ذلك ووضع يديه الاثنتين على أذنيه، لحظة، ثم وضعهما على شفتي دارني، لحظة أخرى.

ـ «قل لي ذلك حين أسألك، لا الآن. فإذا ما وفقت في خطبتك، وإذا ما أحبتك لوسي فعندئذ يكون في ميسورك أن تخبرني بذلك صباح يوم زفافك. هل تعدني بهذا؟»

ـ «بكل سرور.»

ـ «مُدّ إليّ يدك. إنها سوف تعود في الحال، ومن الخير أن لا ترانا معاً هذه الليلة. وليباركك الله!»

كان الظلام مخيماً عندما فارقه دارني، وكان أشد حلكة عندما

عادت لوسي، بعد ساعة، إلى المنزل. ولقد هرعتْ إلى الغرفة منفردة ـ ذلك بأن مس بروسّ صعدت السلم إلى الدور العلوي مباشرةً ـ وأخذها الدهش إذ رأت كرسي أبيها الخاص بالمطالعة خالياً.

ونادته: «أبي! أبي العزيز!»

ولم تلق جواباً ما، ولكنها سمعت صدى طرقٍ خفيض ينبعث من حجرة نومه. وفي خفة، اجتازت الغرفة المتوسطة، واختلست النظر من خلال بابها، ثم انكفأت مروّعةً صائحة وقد ارتعدت أوصالها:

ـ «ما الذي ينبغي أن أفعله! ما الذي ينبغي أن أفعله!»

ولم يطل ترددها غير لحظة. ثم هُرعت راجعةً إلى حجرته، وقرعت بابها، ونادته في رقة. وانقطع صدى الطرق حين سمع صوتها، وفي الحال خرج ملبياً نداءها، وأنشآ يذرعان الغرفة جيئة وذهوباً، فترة طويلة.

وفي تلك الليلة غادرت فراشها لتراه وهو نائم. كان غارقاً في نوم عميق، وكان الطبق المشتمل على أدواته الخاصة بصنع الأحذية، والحذاء القديم الذي لمّا يتم بعد، لا يزالان في موضعهما المعتاد.

ـ 11 ـ

صورة رفيقين

وفي تلك الليلة نفسها أو ذلك الصباح عينه، قال المستر سترايفر لابن آواه: «سيدني، أعدّ مقداراً إضافياً من شراب البنش. إن عندي شيئاً أقوله لك.»

كان سيدني قد عمل ضعف عمله المعتاد تلك الليلة، والليلة التي قبلها. والليلة التي قبل هذه الأخيرة، ولياليَ كثيرة متعاقبة، مجرياً تصفية واسعة بين أوراق مستر سترايفر قبل أن تبدأ العطلة القضائية الكبرى. ولقد أنجِزت هذه التصفية آخر الأمر، وجُمعت ديون سترايفر المتأخرة كلها، في براعة، وتم التخلص من كل شيء حتى يأتي تشرين الثاني بضبابه الجوي وضبابه القانوني، ويحمل القمح إلى المطحنة، كرة أخرى.

ولم يكن سيدني من النشاط والصحو بمكان يجعله أقدر الناس على هذه المهمة الضخمة. ولقد اقتضته مزيداً من المناشف المرطبة تعينه على إنفاق الليل كله في العمل الدائب الموصول. وكان مقدار من الخمر إضافي قد سبق تبليل المناشف، وكان قد انتهى إلى حال من الإعياء البالغ، فهو ينزع عمامته عن رأسه ويقذف بها إلى الحوض الذي غُمست فيه، بين الفينة والفينة، خلال الساعات الست الأخيرة.

ـ «هل تُعدّ قدراً إضافياً من شراب البنش؟» كذلك تساءل سترايفر الضخم البدين، ويداه في حزامه، مجيلاً طرفه في الغرفة من فوق الأريكة التي كان مستلقياً عليها.

ـ «أجل.»

ـ «إسمع. سوف أخبرك شيئاً لا بد أن يدهشك، وقد يجعلك تفكر أني لست ذكياً بقدر ما تعوّدتَ أن تحسبني. أنا أعتزم أن أتزوج.»

ـ «حقاً.»

ـ «نعم. وليس من أجل المال. فما قولك الآن؟»

ـ «إني لا أجد في نفسي ميلاً إلى الإسهاب في الكلام. من هي؟»

ـ «إحزر.»

ـ «هل أعرفها؟»

ـ «إحزر.»

ـ «أنا لا أريد أن أحزر، وقد بلغت الساعة الخامسة صباحاً، وشرع دماغي يغلي ويتطاير رشاش منه في رأسي. فإذا كنت تريد مني أن أحزر، فينبغي أن تمهلني حتى المساء وتدعوني إلى العشاء.»

فقال سترايفر مستوياً على الأريكة في تثاقل وبطء: «حسناً إذن، سوف أخبرك. لقد يئست من أن أوفق إلى حملك على فهمي، يا سيدني، لأنك في الواقع كلب فاقد الحس إلى أبعد الحدود!»

فأجابه سيدني وهو منهمك في إعداد الشراب: «أما أنت فروح شاعرية حساسة إلى أبعد الحدود!»

أردف سترايفر ضاحكاً في اعتزاز: «على رسلك! أنا لا أحب أن أدّعي أنني ذو خيال وشاعرية (لأني أرجو أن أكون أعقل من ذلك) ومع هذا فلا شك في أني رجل أرق عاطفة منك.»

ـ «أنت أكثر حظاً، إذا كنت تعني ذلك.»

ـ «لا، لست أعني ذلك. أنا أعني أنني رجل أكثر.. أكثر..»

وأوحى إليه كارتون بتتمة الكلام: «قل إنك أكثر غزلاً ما دمت تحوم حول هذه الكلمة.»

فأجاب سترايفر نافخاً نفسه في وجه صديقه المنهمك في إعداد

الشراب: «حسناً! سوف أقول ذلك. أقصد أني رجل يُعنى أكثر مما تُعنى بأن يكون قريباً إلى النفس. رجل يتجشّم تعباً أكثر مما تتجشّم لكي يكون قريباً إلى النفس. رجل يعرف أكثر مما تعرف كيف يجعل نفسه قريباً إلى النفس في حضرة المرأة.»

فقال سيدني كارتون: «تابعْ.»

فقال سترايفر وهو يهزّ رأسه بطريقته المرحة: «لا. ولكن قبل أن أتابع أريد أن أتفاهم معك على هذه المسألة. لقد ترددتَ على منزل الدكتور مانيت قدرَ ما ترددتُ أنا، أو أكثر من ذلك. والواقع أني كنت أخجل من شكاستك هناك! لقد كان سلوكك من ذلك النوع الصامت المقطّب الزريّ إلى حد جعلني، وأقسم لك بحياتي، أستحي بك يا سيدني!»

فأجاب سيدني: «يجب أن يكون من النافع جداً لرجل متمرس بالدفاع أمام المحاكم أن يستحي من أيما شيء. يجب أن تشكرني أجزل الشكر على ذلك.»

فقال سترايفر: «إنك لن تتخلص بهذه الطريقة. لا، يا سيدني، إنّ من واجبي أن أخبرك ـ أن أخبرك في وجهك حرصاً مني على مصلحتك ـ إنك رجل لا يحسن التكيُّف في ذلك النوع من المجتمعات. إنك إنسان منفِّر.»

كرع سيدني كأساً مترعة بشراب البنش الذي أعده، وضحك.

وقال سترايفر رافعاً كتفيه في استخفاف: «انظر إليَّ! أنا أقلّ منك حاجة إلى أن أجعل نفسي قريباً إلى قلوب الناس بوصفي أكثر استقلالاً في كسب الرزق. فلماذا أفعل هذا؟»

فغمغم كارتون: «أنا لم أرك تفعل ذلك قط حتى الآن.»

ـ «أنا أفعل هذا لأنه ضربٌ من الحكمة. أنا أفعله في سبيل المبدأ. وانظر إليّ! أنا رجل ناجح.»

فقال كارتون في غير مبالاة: «أنت غير ناجح في روايتك لمقاصدك من الزواج. وإني لأرجو أن تظل كذلك. أما فيما يتصل بي ـ أما آن لك أن تدرك أني رجل لا سبيل إلى إصلاحه؟»

وإنما طرح سؤاله هذا في شيء من الازدراء.

فأجابه صديقه بصوت لا ينطوي على كثير من المؤاساة: «ليس من حقك أن تكون رجلاً لا سبيل إلى إصلاحه.»

فقال سيدني كارتون: «بل لست أعرف سبباً يجعل من حقي أن أكون في هذا العالم. من هي السيدة؟»

فأجابه مستر سترايفر مهيئاً صديقه في تلطف ظاهر، لسماع ما سوف يصرِّح له به: «ولكن، حذار أن تقلقك إذاعة الاسم يا سيدني، لأني أعلم أنك لا تعني نصف ما تقول. ولو أنك عنيت كل ما قلتَه لما كان لذلك أي خطر. وإنما قدَّمتُ لاسمها بهذه المقدمة الصغيرة لأنك أشرت إلى السيدة الشابة في بعض أحاديثك السالفة، إشارة انتقصتَ فيها من قدرها.»

ـ «أنا فعلتُ ذلك؟»

ـ «من غير ريب. وفي هذا المكان بالذات.»

ونظر سيدني كارتون إلى شراب البنش الذي أمامه، ونظر إلى صديقه المتلطّف. ثم احتسى شرابه ونظر إلى صديقه المتلطف أيضاً.

ـ «لقد أشرتَ إلى تلك السيدة الشابة بوصفها دميةً ذات شعر ذهبي. إن السيدة الشابة هي مس مانيت. ولو كنت، يا سيدني، رجلاً يتمتع بأقل قدر من الرقة واللطف إذن لأخذني الغيظ بعض الشيء بسببٍ من كلمتك تلك. ولكنك لستَ ذلك الرجل. إنك لا تملك ذرة من هاتين الصفتين، ومن أجل ذلك أجدني لا أغتاظ حين أفكِّر في تعبيرك إلا بمقدار ما يغيظني رأي رجل تعوزه العين الفنية في صورة من صوري، أو رأي رجل تعوزه الإذن الموسيقية في لحن من ألحاني.»

واحتسى سيدني كارتون شراب البنش في سرعة بالغة. كان يُترع كأسه ثم يكرعها دفعة واحدة، ناظراً إلى صديقه.

وقال مسترسترايفر: «ها قد عرفت كل شيء عن ذلك يا سيدني. أنا لا أبالي بأمر المال: إنها فتاة فاتنة، ولقد وطنت العزم على أن أمتع نفسي. وعلى الجملة، أحسب أن في طاقتي أن أمتع نفسي. ولسوف تجد في شخصي رجلاً ذا نعمة، رجلاً يشق طريقه إلى المجد في سرعة، رجلاً يتمتع ببعض المكانة والصيت. إن هذا لمن حسن حظها، ولكنها جديرة بالحظ الحسن. أمتعجبٌ أنت؟»

وأجاب كارتون وهو لا يزال يحتسي شراب البنش: «وما الذي يحملني على العجب؟»

ـ «هل توافق؟»

فأجاب كارتون وهو لا يزال يحتسي شراب البنش أيضاً: «وما الذي يحملني على أن أوافق؟»

فقال صديقه سترايفر: «حسناً، لقد تلقيت النبأ بلامبالاة أكثر مما كنت أتوقع؛ وإنك لتبدي من الإخلاص أكثر مما كنت أحتسب، وإن كنتَ انتهيت إلى أن تعرف الآن، معرفة جيدة أن صديقك القديم رجل ذو إرادة حديدية. أجل، يا سيدني، لقد مللت هذا الطراز من الحياة الذي لا يتغيَّر، وإني لأحس بأن من الجميل أن يكون للرجل بيت يأوي إليه حين يؤانس من نفسه الرغبة في ذلك (أما حين لا يؤانس من نفسه تلك الرغبة ففي ميسوره أن يظل بعيداً عنه). وأنا أعتقد أن مسّ مانيت خليقة بأن تترك أثراً صالحاً حيثما كانت، وأنها سوف تكون دائماً أهلاً لثقتي. وهكذا وطنتُ العزم على الزواج. والآن يا سيدني، أيها الغلام العجوز، أريد أن أقول لك كلمة في ما يتصل بمستقبلك. إنني كما تعرف، في حال لا ترضي. إنك حقاً في حالٍ لا ترضي. أنت لا تعرف قيمة المال. أنت تحيا حياة قاسية، ولسوف يصيبك الإعياء ذات يوم، وتسقط صريع المرض والفقر. إن من واجبك أن تفكِّر في امرأة تُعنى بك.»

وكان في اللهجة الرعائية التي قال بها ذلك الكلام ما جعله يبدو ضخماً أكثر مما هو مرتين. وعدوانياً أكثر مما هو أربع مرات.

وتابع سترايفر: «والآن دعني أنصح لك أن تواجه المسألة من غير مواربة. لقد واجهتها أنا من غير مواربة، على طريقتي الخاصة. ويتعيَّن عليك أنت أن تواجهها من غير مواربة، على طريقتك الخاصة. تزوّج. التمس امرأة ما تُعنى بك. ولا يؤخرك عن ذلك نفْرتك من عشرة النساء، وعدم فهمك لها، وقلَّة براعتك فيها. إبحث عن امرأة ما. إبحث عن امرأة محترمة على شيء من الثروة ـ امرأة صاحبة فندق مثلاً، أو امرأة صاحبة غرف تؤجرها ـ وتزوّجها وقايةً لنفسك في اليوم المطير. هذا هو الصنيع اللائق بك. فكِّر في ذلك، الآن، يا سيدني.»

فقال سيدني: «سوف أفكِّر في ذلك.»

ـ 12 ـ

الرجل اللطيف

وإذْ كان مستر سترايفر قد وطن العزم على أن يُسبغ على ابنة الطبيب هذه الحلةَ الشريفة من الحظ الحسن، فقد قرَّر أن يُشعرها بتلك السعادة قبل أن تحين العطلة الكبرى ويغادر المدينة. وبعد أن درس المسألة ملياً انتهى إلى أن من الخير له كذلك أن يقوم بجميع الخطوات التمهيدية، وعندئذ يكون في ميسورهم أن يختاروا، على مهل، إحدى خطتين: إما أن يطلب يدها قبل أسبوع أو أسبوعين من بدء الموسم القضائي، وإما أن يفعل ذلك في عطلة عيد الميلاد القصيرة.

ولم يكن في شك من سلامة دعواه وقوتها، بل لقد رأى سبيله إلى الحكم بيّناً واضحاً. وإذ أقامَ حجته أمام المحلفين على أسس مادية ودنيوية ـ وهي الأسس الوحيدة الجديرة أبداً بأن تؤخذ بعين الاعتبار ـ فقد كانت قضيته صريحة ليس فيها موطن ضعف. لقد اتخذ موقف الادعاء، ولم يكن ثمة داعٍ إلى أن يأتي بشهوده، وألقى محامي الدفاع دفاعه الموجز، وأصدر المحلفون حكمهم من غير مذاكرة أو مداولة. وهكذا وقع في روع المستر سترايفر أن ليس بين القضايا أوضح من قضيته.

افتتح المستر سترايفر العطلة القضائية الكبرى بأن عرض على مس مانيت، رسمياً، أن تذهب معه إلى حدائق فوكسهول، حتى إذا أخفق هذا العرض اقترح أن يذهبا إلى راينلاغ. وحين أخفق هذا العرض الثاني

إخفاقاً لا سبيل إلى تعليله، تعيَّن عليه أن يقصد إلى «سوهو» حيث يعلن عن غرضه النبيل.

وإذن فقد شق مستر سترايفر طريقه من «تامبل بار» إلى «سوهو» فيما كانت العطلة القضائية الكبرى التي يستقبلها بنعومة ناضرةً، ما تزال، على وجهه. ولو رآه أيما امرئ وهو يُقحم نفسه في «سوهو» برغم أنه لا يزال على جانب «سانت دانستان» من «تامبل بار» دافعاً المستضعفين من الناس عن طريقه، إذن لرأى رجلاً بالغ القوة عظيم الثقة بالنفس.

وإذ كانت طريقة تقوده في اتجاه مصرف تلسون، وإذ كان يعامل تلك المؤسسة المالية ويعرف في آن معاً الصداقة الوثيقة التي تربط مستر لوري بأسرة مانيت، فقد فكّر مستر سترايفر أن يدخل المصرف ويكشف لمستر لوري عن السعادة التي تلوح على أفق «سوهو». وهكذا دفع الباب ذا الصرير الواهن وهبط درجتي السلم تعثراً، واجتاز بأميني الصندوق العجوزين وشق طريقه نحو الحجيرة العفنة السوداء حيث قعد مستر لوري وقد انطرحت أمامه الدفاتر الضخمة المسطرة تسطيراً خاصاً بالأرقام، واستقامت عند نافذته قضبان حديدية عمودية يخيل إلى الناظر أنها سُطرت هي الأخرى تسطيراً خاصاً بالأرقام، وبدا كل شيء تحت الشمس وكأنه حاصلُ ذلك الجمع.

قال مستر سترايفر: «هالو! كيف أنت؟ أرجو أن تكون في حالة حسنة.»

وكانت أكبر خصائص سترايفر أنه يبدو دائماً أضخم من أن يتسع له مكان أو فسحة ما. فلا عجب إذا ما ضاق به مصرف تلسون إلى درجة جعلت الموظفين الشيوخ القابعين في الزوايا القصية يرفعون أبصارهم في احتجاج، وكأنه قد زحمهم على صفحة الجدار. ليس هذا فحسب، بل إن مدير المصرف نفسه، المنصرف في جلال إلى قراءة الصحيفة في أقصى مكان من المؤسسة، عبس مغضباً وكأنّ رأس مستر سترايفر قد أقحِم في صدرته المسؤولة.

قال مستر لوري الحكيم بنبرة خاصة يلجأ إليها في مثل تلك الظروف: «وكيف أنت يا مستر سترايفر؟ كيف أنت يا سيدي؟» وصافحه. وكانت له طريقة في المصافحة تلفت النظر، وهي تلك التي يصطنعها أيما رجل من رجال مصرف تلسون حين ينظر في غمرة العمل إلى أحد الزبائن. لقد صافحه في موضوعية وإنكار ذات، وكأنما يصافح نيابةً عن تلسون وشركائه.

وتساءل مستر لوري بوصفه رجل أعمال: «هل أستطيع أن أقدِّم إليك أيّ خدمة يا مستر سترايفر؟»

ـ «لا، شكراً. هذه زيارة شخصية لك، يا مستر لوري. لقد جئت لكي أقول لك كلمة خاصة.»

ـ «أوه، حقاً!» كذلك قال مستر لوري، لاوياً أذنه إلى أدنى، فيما اتجهت عينه إلى مركز الإدارة النائي.

وقال مستر سترايفر مسنداً ذراعيه، في ثقة، إلى المنضدة التي ضاقت بهما برغم أنها ضخمة مزدوجة، وكأنها نصف منضدة: «سوف أطلب يد الآنسة مانيت، صديقتك الصغيرة القريبة إلى الفؤاد، يا مستر لوري.»

فصاح مستر لوري، وهو يحك ذقنه وينظر إلى زائره في ارتياب: «أوه، عجباً!»

فكرر مستر سترايفر مرتداً إلى الوراء: «أوه عجباً، يا سيدي؟ ما الذي تعنيه بذلك يا مستر لوري؟»

فقال رجل الأعمال: «إن ما أعنيه طبعاً ودّيّ ينضح بتقدير لفكرتك، ويشير إلى أن هذه الفكرة سوف تكسبك الحمد والثناء. وعلى الجملة فأنا أعني كل الأشياء التي ترغب فيها. ولكن، في الواقع، أنت تعلم، يا مستر سترايفر...» وتمهل مستر لوري وهزّ رأسه أمامه هزاً عجيباً وكأنما كان مضطراً إلى أن يضيف بينه وبين نفسه، «أنت تعلم أنك تخلع على نفسك أهمية أكثر مما تستحق!»

فقال سترايفر صافعاً المنضدة بيده المخاصمة، محملقاً، آخذاً نفساً طويلاً: «أكون جديراً بالشنق إذا فهمت كلامك يا مستر لوري!»

وعدّل مستر لوري وضع لمّته المستعارة الصغيرة عند أذنيه كلتيهما كوسيلة لبلوغ تلك الغاية، وعضّ على ريشة القلم.

وحدّق مستر سترايفر إليه وتساءل: «لعنها اللّه يا سيدي! ألستُ رجلاً مرغوباً فيه؟»

فأجاب مستر لوري: «أوه، نعم! نعم! أوه نعم، أنت رجل مرغوب فيه! إذا قلتَ ذلك فليس من شك في أنه كذلك.»

وتساءل سترايفر: «ألستُ ثرياً؟»

فأجاب مستر لوري: «أوه، إذا نظرنا إلى ناحية الثراء فأنت ثري.»

ـ «ألست أشق طريقي إلى المجد؟»

فقال مستر لوري وقد ابتهج لقدرته على أن يعترف له بميزة أخرى: «وإذا جئنا إلى شق الطريق إلى المجد استطعنا أن نقول إن هذا ما لا يشك به أحد.»

فتساءل مستر سترايفر وقد كاد يُسقَط في يده: «إذن فخبرني بحقّ الجحيم ما المعنى الذي رميت إليه؟»

فسأله مستر لوري: «حسناً! أنا..... هل كنت ذاهباً إلى هناك الآن؟»

فقال سترايفر وهو يضرب المنضدة بجمع كفه: «مباشرة!»

ـ «لو كنت مكانك لما أقدمت على ذلك.»

فقال سترايفر: «لماذا؟ الآن سوف أحرجك! وهزّ سبابته في وجه صاحبه على نحو قضائي جدليّ: «أنت رجل أعمال، وخليق بك أن يكون لديك سبب يحملك على ذلك. أفصح عن هذا السبب. لماذا تحجم عن الذهاب؟»

فقال مستر لوري: «لأنني لا أحب أن أذهب في مثل هذا الغرض

من غير أن يكون لديّ سبب ما يدعوني إلى الاعتقاد بأني سوف أنجح.»

فصاح سترايفر: «لعنني اللَّه! ولكن هذا يفوق كل ما قلتَه غرابة!»

ونقل مستر لوري طرفه من مقرّ الإدارة القصي إلى سترايفر المغضب.

وقال سترايفر: «هو ذا رجل أعمال ـ رجل سنين ـ رجل حنكة وتجربة ـ في مصرف، أجمِلُ له ثلاثة أسباب رئيسية للنجاح الكامل ثم يقول إنه ليس ثمة سبب على الأطلاق! يقول ذلك ورأسه بين كتفيه؛» وإنما أرسل مستر سترايفر هذه الملاحظة الأخيرة وكأنما كان الأمر أقلّ غرابة، إلى حدّ لا نهائي، لو أن مستر لوري قال ذلك وليس بين كتفيه رأس!

قال مستر لوري مربّتاً في رفق على ذراع سترايفر: «حين أتحدث عن النجاح فإنما أقصد النجاح لدى السيدة الشابة. وحين أتحدث عن العلل والأسباب التي تجعل النجاح ممكناً فإنما أقصد العلل والأسباب التي تترك أثرها في نفس السيدة الشابة. السيدة الشابة، يا سيدي الطيب، السيدة الشابة. إن مشيئة السيدة الشابة مقدّمة على كل مشيئة.»

فقال سترايفر رافعاً كتفيه في استخفاف: «وإذن فأنت تريد أن تخبرني، يا مستر لوري، إنك تعتقد بأن السيدة الشابة التي نتحدث عنها هي مجنونة متأنفة؟»

فقال مستر لوري وقد صعد الدم إلى وجهه: «لست أقصد ذلك تماماً. أريد أن أقول لك إني لم أسمع من شفتيك أي كلمة تنتقص من قدر تلك السيدة الشابة. وإني لو عرفت أيما رجل ـ وأرجو أن لا أفعل ـ عنده من خشونة الذوق وصلف المزاج ما يجعله لا يمسك لسانه عن الانتقاص من قدر تلك السيدة الشابة أمام هذه المنضدة فلن يثنيني شيء، حتى حرمة المصرف نفسه، عن أن أسمعه رأيي فيه.»

وكانت ضرورة التعبير عن الغضب في جرْسٍ مكظوم قد تركت أوعية

مستر سترايفر الدموية في حال خطرة كلما جاء دوره في الغضب. ولم تكن عروق مستر لوري ـ برغم جريان الدم فيها على نحو نظامي في الأحوال العادية ـ بأحسَن حالاً وقد جاء دوره الآن في الغضب.

وقال مستر لوري: «ذلك ما قصدتُ إلى قوله، يا سيدي. أرجو أن لا تسيئ فهمي مطلقاً.»

وأنشأ مستر سترايفر يمتصّ طرف مسطرة ما، فترةً قصيرة، ثم أرسل من بين أسنانه، بواسطة تلك المسطرة، صوتاً. ولعل ذلك هو الذي أورثه وجعاً في الأسنان. وأخيراً، قطع الصمتَ الثقيل بقوله: «هذا شيء جديد عليَّ، يا مستر لوري. إنك تنصح لي، بعد روية وتفكير، أن لا أمضي إلى «سوهو» وأعرض نفسي... أنا سترايفر المحامي في محاكم الملك؟»

ـ «هل تسألني نصيحة ما، يا مستر سترايفر؟»

ـ «أجل.»

ـ «حسن جداً. سوف أقدمها إليك. ولقد كرَّرتها أنتَ تكريراً صائباً.»

وضحك سترايفر ضحكةً مغيظة: «وكل ما أستطيع أن أقوله عن هذا إنه ـ ها، ها ـ أمر يفوق غرابةً كلَّ الأشياء الماضية، والحاضرة، والمستقبلية.»

فتابع مستر لوري: «والآن، إفهمني. إني، بوصفي رجل أعمال، يحقّ لي أن أقول شيئاً عن هذه المسألة، لأني، كرجل أعمال، لست أعرف شيئاً عنها. أما بوصفي رجلاً عجوزاً سبق له أن حمل مس مانيت بين ذراعيه، رجلاً يحظى بصداقة مس مانيت وثقتها وصداقة أبيها وثقته أيضاً، رجلاً تشدّه إليها عاطفة قوية، فقد قلت ما ينبغي أن أقوله. ولا تنسَ أني لم أسعَ إلى هذه المسارّة سعياً. والآن، هل تظن أن من الجائز أن لا أكون مصيباً؟»

فقال سترايفر صافراً: «لستُ أنا الذي يظن ذلك. أنا لا أستطيع أن أبحث عن الفريق الثالث في القضايا التي تحتاج إلى عقل سليم. في

ميسوري أن أقرر هذه الأشياء بنفسي. أنا أفترض العقل في مواطن بعينها، وأنت تفترض أن كسب الرزق وضرورات المعيشة هراء. ذلك شيء جديد عليَّ، ولكني أستطيع أن أقول إنك على صواب.»

فقال مستر لوري وقد احتقن الدم في وجهه مرّةً أخرى: «ما أفترضه حقّ من حقوقي أصفه لنفسي. وأفهمني، يا سيدي، أنا لن أسمح ـ لن أسمح حتى في مصرف تلسون ـ بأن يصفه لي أيما إنسان على وجه الأرض.»

فقال سترايفر: «كفى! ألتمس منك المعذرة!»

ـ «لقد منحتك إياها، شكراً لك. حسناً، يا مستر سترايفر، لقد كنتُ على وشك أن أقول: قد تتألم إذا اكتشفتَ أنك مخطئ، وقد يتألم الدكتور مانيت إذا وجد نفسه مضطراً إلى مصارحتك بالحقيقة، وقد تستشعر الآنسة مانيت أعظم الألم إذا تعين عليها أن تصارحك هي الأخرى بالحقيقة. أنت تعرف منزلتي عند الأسرة وما أتمتع به من شرف صداقتها. والرأي عندي أن أمضي بنفسي إلى هناك، من غير أن يكون في ذهابي معنى تمثيلك أو النطق بلسانك، وأحاول أن أصحح رأيي من طريق الملاحظة الجديدة والتبصر الحكيم. فإن لم ترتح إلى مشورتي بعد ذلك فعندئذ يكون في ميسورك أن تختبر سلامتها بنفسك. أما إذا ارتحتَ إليها، وكانت ما قلته لك الآن، كُفِيَ جميع الفرقاء مؤونة يجب أن يُكفَوْها. ماذا تقول؟»

ـ «وكم سوف تُبقيني في المدينة؟»

ـ «أوه، إنها مسألة ساعات قليلة، ليس غير. في استطاعتي أن أذهب إلى سوهو، عندما يهبط الليل، ثم أرجع إلى منزلك بعد ذلك.»

فقال سترايفر: «إذن أوافق، أنا لن أذهب إلى هناك الآن، ولست بمتلهف على ذلك. أقول إني أوافق، وإني أتوقع أن تعرّج عليّ هذه الليلة. طاب صباحك!»

واستدار مستر سترايفر وانطلق خارجاً من المصرف، مثيراً في الهواء

رجة اقتضت الموظفين العجوزين المنحنيين خلف منضدتيهما بذلَ البقية الباقية من قوّتهما ابتغاء الصمود في وجهها. وكان هذان الرجلان الجليلان الواهنان لا يبدوان لأعين الجمهور إلا منحنيين، وكان الناس يعتقدون أنهما إذا ما انحنيا مودّعين رجلاً يغادر المصرف، أقاما على ذلك الوضع، في المكتب الخالي، حتى يدخل المصرف رجل فيستقبلانه بتلك الانحناءة.

وكان المحامي من الذكاء بحيث يفطن إلى أن المصرفي ما كان ليندفع ذلك الاندفاع في التعبير عن رأيه لو لم يكن واثقاً مما يقول كل الثقة. وهكذا ازدرد ذلك القُرص الضخم المرير، على الرغم من أنه ما كان مستعداً لهذا قط. وقال مستر سترايفر، حين انتهى القُرص إلى معدته، هازاً سبابته القضائية الجدلية في وجه «تامبل بار» كله: «والآن، إن سبيلي إلى الخلاص من ذلك هو أن ألبسكم جميعاً ثوب المذنب.»

كان ذلك جزءاً من حنكة متمرس بمحكمة الجنايات عاد عليه بأعظم العزاء. وقال مستر سترايفر: «إنكِ لن تلبسيني ثوب المذنب النادم، أيتها السيدة الصغيرة. أنا الذي سوف ألبسكِ ذلك الثوب.»

وحين انكفأ مستر لوري في الساعة العاشرة من تلك الليلة بدا مستر سترايفر، وسط ركام من الكتب والأوراق بعثرها خصيصاً لهذه الغاية، وكأنه قد نسي المسألة التي أثارها في الصباح نسياناً تاماً. بل لقد أبدى الدهشَ لرؤيته مستر لوري، وبدا وكأنه خالي الذهن من هذه القضية، مشغول البال بغيرها.

وقال الرسول الدمث بعد ثلاثين دقيقة كاملة قضاها في محاولات لا جدوى فيها لرده إلى الموضوع: «حسناً! لقد ذهبت إلى سوهو.»

فكرر مستر سترايفر في برود: إلى سوهو؟ أوه من غير شك! ما الذي أفكِّر فيه الآن؟»

وقال مستر لوري: «وليس لديّ شك في أني كنت مصيباً في ما قلته لك. لقد أيدت هذه الزيارة رأيي، ومن أجل ذلك أكرر نصيحتي لك.»

فأجابه مستر سترابفر بنبرة ترشح بالودّ: «أؤكد لك أني إذا كنت مستاء لهذه النتيجة فمن أجلك، ومن أجل ذلك الوالد المسكين. واعلم أن هذه المسألة سوف تثير الأسف والحزن على نحو موصول في جو تلك الأسرة منذ اليوم. فلننتقل إلى موضوع آخر.»

فقال مستر لوري: «لستُ أفهم ما تقول.»

فأجابه سترايفر مومئاً برأسه إيماءة ختامية ملطّفة: «لا أستطيع أن أوضح. هذا لا يهمّ؛ هذا لا يهمّ.»

فأصرّ مستر لوري: «بل إنه ذو أهمية كبيرة.»

ـ «لا، إنه ليس بذي أهمية. أؤكد لك أنه ليس بذي أهمية. إني بعد أن افترضتُ وجود العقل حيث لا يوجد عقل، والطموح المحمود حيث لا يوجد طموحٌ محمود رجعت عن خطئي، من غير أن يصاب أحد بأذى. لقد ارتكبت الفتيات مثل هذه الحماقة كثيراً من قبل، ولقد دفعن ثمنها دائماً فقراً وخمولَ ذكر. والواقع أني إذا نظرتُ إلى الأمر نظرةً غير أنانية استشعرتُ الأسف لاطّراح الفكرة، لأن ذلك الزواج كان خليقاً به أن يكون شيئاً رديئاً، بالنسبة إليّ، من وجهة النظر المادية الخالصة. أما إذا نظرتُ إلى الأمر نظرة أنانية فعندئذ أستشعر السعادة لإطّراح الفكرة لأن ذلك الزواج كان خليقاً به أن يكون شيئاً رديئاً بالنسبة إليّ، من وجهة النظر المادية الخالصة أيضاً. ومن نافلة القول أن أنصّ على أنه ما كان ليُكسبني شيئاً البتة. وعلى أية حال فلم يُضارّ أحدٌ بذلك. أنا لم أطلب يد السيدة الصغيرة، وبيني وبينك أستطيع أن أقول إني لست واثقاً البتة، عند التفكير في المسألة، من أنني كنتُ خليقاً بأن أذهب إلى ذلك الحد. إنك لا تستطيع أن تضبط غرور الفتيات الفارغات الرؤوس وطيشهنّ يا مستر لوري. ينبغي أن لا تتوقع ذلك وإلا خاب ظنك أبد الدهر. والآن، أرجوك أن تقفل البحث في هذا الموضوع. لقد قلت لك إني آسف لما وقع، لأنه، سبّب بعض الازعاج للآخرين. أما أنا شخصياً فمرتاح للنتيجة. وإني في الحق شاكر لك أجزل الشكر سماحك لي بأن أجسّ

نبضك، وشاكرٌ لك أيضاً نصيحتك التي أسديتها إليّ. أنت تعرف السيدة، تعرف السيدة الصغيرة أحسن مما أعرفها. ولقد كنتَ مصيباً. فما كانْ مثل هذا العمل لينجح على الإطلاق.»

وفوجئ مستر لوري إلى حدّ جعله ينظر في بلاهة إلى مستر سترايفر وهو يزحمه نحو الباب، وقد بدت على رأسه التائه سيما الكرم الدافق، والحلم والإرادة الحسنة. وقال سترايفر: «تقبّل هذه النتيجة السيئة بالصبر، يا سيدي العزيز، ولا تفتح هذا الحديث منذ اليوم. أشكرك مرةً ثانية لسماحك لي بأن أجس نبضك. طاب مساؤك!»

وغمر الظلام مستر لوري قبل أن يعرف أين هو. واستقلى مستر سترايفر على الأريكة، غامزاً سقف الحجرة بعينيه.

ـ 13 ـ

الرجل الفظّ

إذا كان سيدني كارتون قد لمعَ ذات يوم، في مكان ما، فالراهن أنه لم يلمع قط في يوم من الأيام في منزل الدكتور مانيت. لقد تردد إلى هناك كثيراً، خلال عام كامل، فكان ذلك الجليس النكد الشكس نفسَهُ. وكان إذا ما عُني بأن يتكلم، يتكلم جيداً. ولكن سحابة اللامبالاة، التي ظلّلته بقتام قاتل، نادراً ما كان يخترقها النورُ الذي في داخله.

ومع ذلك فقد بالى بعض الشيء بالشوارع المحيطة بهذا المنزل، والحجارة الصمّ المرصوفة في أرضها. فكم من ليلة طوّف هناك على نحو هائم كئيب، بعد أن عجزت الخمر عن أن توقع في نفسه ابتهاجاً آنيّاً. وكم من ضحىً موحش كشف عن وجهه المتوحّد يتسكع هناك حين كانت أشعة الشمس الأولى تُبرز على نحو قويّ جمال الفن المعماري في قباب الكنائس المستدقة والمباني الشامخة، فيما كانت اللحظات الساكنة تحمل إلى ذهنه إدراكاً ما لأشياء أفضل، كانت تُعتبر في غير ذلك المكان منسيةً بعيدةً عن متناول اليد. وإذا كان من النادر أن يأوي إلى فراشه المهمل، فقد أمسى إيواؤه ذاك أكثر ندرةً في الفترة الأخيرة. وكثيراً ما كان ينطرح فوقه بضع دقائق ليس غير، لينهض من جديد ويمضي إلى تلك البقعة.

وفي أحد أيام آب، عندما حمل مستر سترايفر رقّتهُ (وكان قد أخبر ابن آواه أنه أعاد النظر في مسألة الزواج تلك) إلى ديفونشاير، وعندما

كان مشهد الزهور وعبيرها العابق في شوارع المدينة يوقعان الصلاح في نفس أسوأ الناس، والصحة في جسم أشدّهم مرضاً، والشباب في دماء أكبرهم سناً، كانت قدماً سيدني كارتون لا تزالان تطآن تلك الحجارة. وفجأة انتقلت هاتان القدمان من حال التردد وانعدام الغاية إلى نشاط المقصد الواضح والعزم الوطيد، فقادتاه إلى باب منزل الطبيب.

ودُعي إلى الدور العلوي فألفى مسّ لوسي منفردةً، وقد انصرفت إلى عملها. كانت تستشعر دائماً شيئاً في الارتباك في حضرته، فكان طبيعياً أن يستولي عليها شيء من ذلك حين اتخذ مجلسه قرب طاولتها. حتى إذا رفعت بصرها إلى وجهه؛ خلال تبادل العبارات القليلة الأولى التي يكررها الزائرون والمزورون، لاحظتْ أن تغيراً قد طرأ عليه.

ـ «أخشى أن لا تكون في صحة جيدة، يا مستر كارتون!»

ـ «لا، ولكن الحياة التي أعيشها، يا مس مانيت، لا تفضي إلى الصحة. وما الذي ينتظره المرء من مثل هذه الحياة الخليعة أو بواسطتها؟»

ـ «أليس من الـ . . . ـ ألتمس عفوك. لقد بدأت بالسؤال الذي على شفتيّ ـ أليس من المؤلم أن لا تستطيع أن تحيا حياة أفضل؟»

ـ «اللّه يعلم، إن ذلك خزي وعار!»

ـ «إذن، فلماذا لا تغيّرها؟»

حتى إذا نظرت نحوه في رقة أدهشها وأحزنها أن ترى الدموع تترقرق في عينيه. ولقد كانت ثمة دموع في صوته أيضاً حين أجابها: لقد فات أوان ذلك. أنا لن أكون في يوم من الأيام أحسن مني الآن. سوف أنحدر إلى درك أدنى، ولسوف تزداد حالي سوءاً.»

وأسند أحد مرفقيه إلى طاولتها وحجب عينيه بيده. وارتعدت الطاولة في غمرة الصمت الذي ران على الغرفة.

إنها لم ترَ حاشيته ترقّ قبل اليوم، ولقد عصف بها الحزن لحاله.

واستشعر حزنها من غير أن ينظر إليها وقال: «أرجوك أن تغفري لي يا مسّ مانيت. إني أنهارُ أمام علمي بالذي أريد أن أقوله لك. هل ترغبين في أن تستمعي إليّ؟»

ـ «إذا كان استماعي يعود عليك بفائدة ما، يا مستر كارتون. . . إذا كان يجعلك أكثر سعادةً فعندئذ يبهجني جداً أن أستمع إليك.»

ـ «فليباركك اللّه لحنانك العذب!»

وكشف عن وجهه بعد فترة قصيرة، وتحدّث في إطّراد.

ـ «لا تخافي أن تسمعيني. لا تُجفلي من أيما شيء أقوله. أنا أشبه بفتىً مات في ريعان الشباب. ولعل حياتي كانت تكون خيراً مما هي، ولكنها لم تعد تتسع لذلك.»

ـ «لا، يا مستر كارتون. أنا واثقة من أن جزأها الأفضل لا يزال أمامك. أنا واثقة من أنك قد تكون خلال هذا الجزء من حياتك أكثر جدارة بنفسك الرفيعة.»

ـ «هذا رأي لك، يا مس مانيت، لن أنساه أبد الدهر، إن كنت أعرف نفسي أكثر مما تعرفينها، وأعرف لغز قلبي البائس أكثر مما تعرفينه.»

كانت شاحبة الوجه، مرتعدة الأوصال، فتقدم لإسعافها يائساً من نفسه يأساً راسخاً جعل لقاءهما ذاك مختلفاً عن أيما لقاء آخر يمكن أن يجمع ما بينهما.

ـ «لو كان من الميسور، يا مس مانيت، أن تبادلي هذا الرجل الذي ترينه أمامك حباً بحبّ ـ برغم ما تعرفينه من أنه مخلوق بائس، سكّير؛ مدمّر، نابذ نفسَهُ ـ إذن لوعى في هذا اليوم وهذه الساعة بأنه قد يقودكِ إلى البؤس، ويشدّك إلى الحزن والندامة ويُذبل نضرتك، ويُلحق بك العار، ويسفّ بك إلى الحضيض. أنا أعلم أحسن العلم إنه ليس في ميسورك أن تحبيني. ولست أسألك شيئاً من ذلك. بل إني لأشكر اللّه على أن هذا الأمر متعذر.»

ـ «هل أستطيع إنقاذك يا مستر كارتون، بغير هذا الحب؟ هل أستطيع أن آخذ بيدك ـ عفوك مرّة أخرى ـ في سبيل أفضل؟ أليس ثمة طريقة تمكنني من أن أجزيك على حسن ثقتك بي؟ أنا أعرف أن هذه مسارّة» قالت ذلك بعد قليل من التردد والدمع يترقرق في مقلتيها، «وإنك لن تفضي بذلك إلى أحد غيري. أفلا أستطيع أن أفيدك في شيء يا مستر كارتون؟»

وهزّ رأسه.

ـ لا، ليس في ميسورك أن تفيديني، يا مسّ مانيت فائدة ما. وإذا رغبتِ في الاستماع إليّ فترة أخرى قصيرة، فعندئذ تكونين قد قمتِ نحوي بكل ما تستطيعين القيام به. أودّ أن تعرفي أنك كنت آخر حلم من أحلام نفسي. وإني لم أسفّ يوماً إلا وكان في مشهدك مع أبيك، وفي مشهد هذا البيت الذي جعلِتهِ بيتاً نموذجياً، شيء يثير في ذات نفسي ظلالاً قديمة كنت أحسب أنها انمحت من مخيلتي. ومنذ أن عرفتك أخذ وخز الضمير يقلق حياتي، وكنتُ أظنه لن يَقْرَبني أبد الدهر، وأخذت أسمع همسات من أصوات قديمة تهيب بي إلى التعالي عن درك الضلال، وكنت أظنها قد سكتت أبد الدهر. لقد عرفتُ أفكاراً فجة تقول باستئناف الكدح والبدء من جديد، ونفض غبار الكسل والانغماس في الشهوات، ورفع راية النضال. كان ذلك كله حلماً، حلماً ينتهي إلى لا شيء، ويغادر النائم حيث يضطجع. ولكني أحب أن تعرفي أنك أنت التي أوحيتهِ.»

ـ «أليس ممكناً أن يبقى شيء من ذلك كله؟ أوه، يا مستر كارتون، فكّر مرة أخرى! جرّب مرة أخرى!»

ـ «لا، يا مسّ مانيت. كنت عارفاً طوال تلك الفترات، أني لا استحقّ ذلك. ومع هذا فقد نازعتني نفسي، وما تزال تنازعني نفسي، إلى أن أخبرك بأيّ أستاذية مفاجئة استطعتِ أن تحيلي ركام الرماد ـ الذي هو أنا ـ إلى نار، وإن تكن ناراً لا تنفصل طبيعتها عن طبيعتي، فهي لا تورث

نشاطاً، ولا تنير شيئاً، ولا تؤدي خدمة؛ ناراً تشتعل في وهن ولغير ما غاية.»

ـ «ما دمت قد جعلتُك، لسوء حظي، يا مستر كارتون، أكثر تعاسة مما كنتَ قبل أن تعرفني...»

ـ «لا تقولي ذلك، يا مسّ مانيت، لأنكِ كنتِ خليقةً بأن تُصلحيني لو كان في ميسور أيما امرئ أن ينهض بهذا العبء. إنك لن تكوني سبباً في أن أصبح أسوأ مما كنت.»

ـ «إذا كانت حالتك النفسية التي وصفتَها ناشئةً، على أية حال، عن بعض سلطاني عليك، أفلا أستطيع أن أستخدم هذا السلطان ـ ذلك ما أعنيه إذا عرفتُ كيف أوضحه ـ لخدمتك؟ أليست لي أيما قوة على الخير، في ما يتصل بك، على الإطلاق؟»

ـ «إن أقصى الخير الذي أقدر عليه الآن، يا مسّ مانيت، هو ما جئت إلى هنا، في هذه الساعة، لتحقيقه، اسمحي لي أن أحمل، طوال الأيام الباقية من حياتي الموجهة توجيهاً خاطئاً، هذه الذكرى: وهي أنكِ آخر من فتحتُ له قلبي، وأنه كان لا يزال فيّ شيء تستطيعين أن تأسفي عليه، وترثي له.»

ـ «شيء تضرعتُ إليك، مرةً ومرةً، وفي حماسة منبثقة من صميم فؤادي، أن تؤمن بأنه قادر على أن يفعل أشياء أفضل، يا مستر كارتون!»

ـ «تضرّعي إليّ أن لا أؤمن بذلك منذ اليوم، يا مس مانيت. لقد خبرت نفسي. وأنا أعرفها خيراً مما تعرفينها. إني أوقع الحزن في نفسك، ومن أجل ذلك سأسارع إلى الانسحاب. فهل تسمحين لي بأن أؤمن، حين أذكر هذا اليوم، بأن آخر سر من أسرار حياتي يستريح في صدرك الطاهر البريء، وأنه يستريح هناك منفرداً، وأن أحداً لن يشاركك حمله؟»

ـ «لك ما تريد، إذا كان في ذلك تعزية لك.»

ـ «حتى ولو كان ذلك المشارك أعزّ مخلوق قد تتعرفين إليه؟»

فقالت، بعد تمهل مضطرب: «مستر كارتون، السرّ سرّك، لا سرّي. وأنا أعدك باحترامه.»

ـ «أشكرك. ومرة ثانية، فليباركك اللّٰه.»

ورفع يدها إلى شفتيه وتقدّم نحو الباب.

ـ «لا يساورك الخوف، يا مسّ مانيت، من أن استأنف في يوم من الأيام هذا الحديث ولو بكلمة عابرة. إني لن أشير إليه أبداً منذ اليوم. في استطاعتك أن تثقي بذلك ثقة ليس في وسع الموت أن يزيدها قوة فوق قوتها. وفي ساعة موتي سأظلّ أقدّس هذه الذكرى الوحيدة الطيبة، ولسوف أشكرك وأباركك من أجلها: وهي أن آخر بَوْحٍ بما يجيش في نفسي من لواعج إنما كان لكِ، وأن اسمي، وآثامي، وضروب شقائي مصونة في فؤادك. أسأل اللّٰه أن يكون فؤادك في كل ما عدا ذلك مرِحاً وسعيداً!»

كان مشهده غير ما بدا عليه في أيما وقت سلف، وكان من أدعى الأمور إلى الحزن أن يفكر المرء كم قد أضاع هذا الرجل من حياته، وكم أمعن في الغواية والضلال حتى لقد سفحتْ لوسي مانيت العبرات من أجله، على نحو فاجع، فيما وقف ملتفتاً إليها.

وقال لها: «لا تحزني. أنا لا أستحق مثل هذه العاطفة، يا مسّ مانيت. فما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى يحيلني الرفاق الوضيعون والعادات الوضيعة، التي أزدريها ولكني أستسلم إليها، إلى إنسان هو أقل استحقاقاً لهذه العبرات من أيما بائس يدب خلال الشوارع. لا تحزني. ولكني، في قرارة نفسي، سوف أظلّ دائماً، في ما يتصل بك، ما أنا الآن وإن بقي مظهري الخارجي على ما عرفتني دائماً. وإن آخر توسل أتقدم به إليك، قبل التوسل النهائي، هو أن تصدقي كلامي هذا.»

ـ «سوف أصدقه، يا مستر كارتون.»

ـ «أما آخر توسلاتي فهو هذا. وبه سوف أريحك من زائر أعرف جيداً أن ليس ثمة ما يجمعك به؛ زائر يفصل ما بينك وبينه فضاء لا سبيل إلى اجتيازه. أنا أدري أن ليس ثمة فائدة من قول ذلك، ولكنه منبثق من شغاف قلبي. إني مستعد لأن أتجشم عناء القيام بأيما عمل فيه خدمة لك، ولأي عزيز على فؤادك. ولو أصبحت سيرتي من ذلك النوع الأفضل بحيث تنطوي على أيما فرصة للتضحية أو قدرة عليها إذن لكنت مستعداً لأي تضحية في سبيلك، وفي سبيل أيّ عزيز على فؤادك. حاولي أن تذكريني، في بعض الأوقات الهادئة، وتؤمنين بأني جدّ صادق في هذا الذي أقوله. ولسوف يأتي زمان، ولن يتأخر ذلك كثيراً، تنشأ حولك روابط جديدة، روابط تشدّك في حنان أكثر وقوة أعظم إلى البيت الذي يزدهي بك هذا الازدهاء كله ـ أعني الروابط التي ليس أغلى منها، والتي ستزيدك نعمة على نعمة، وسعادة على سعادة. آه. يا مس مانيت، حين تنظر إلى وجهك صورةٌ صغيرة لوجه أب سعيد، عندما تَرَيْن جمالك المشرق ينبثق من جديد عند قدميك، فكري بين الفينة والفينة أن ثمة رجلاً يرغب في أن يضحي بحياته لكي يُبقي إلى جانبك حياة تحبينها!»

وودعها قائلاً: «فليباركك اللّه!» وفارقها.

ـ 14 ـ

التاجر الأمين

كانت عينا مستر إرميا كرانتشر، إذ يجلس على مقعده الخفيض في «فليت ستريت» وإلى جانبه ولده السليط الأغبر، تستعرضان، كل يوم، شكولاً مختلفة من الأشياء المضطربة ههنا وهناك. ومن ذا الذي يستطيع أن يقعد على أيما شيء، في «فليت ستريت»، خلال ساعات النهار الناشطة، ولا يذهل ويصاب بالصمم لموكبين هائلين أحدهما لا يفتأ يجنح غرباً مع الشمس، والآخر لا يفتأ يجنح شرقاً بعيداً عن الشمس، وكلاهما لا يفتأ يجنح نحو السهول المنبسطة وراء النطاق الأحمر الأرجواني حيث تغرب الشمس!

وراح مستر كرانتشر، والقشة في فمه، يراقب الجدولين معاً، مثل ذلك الفلاح الوثني الذي كُلِّف طوال عدة قرون مراقبة أحد الجداول مع فارق وحيد وهو أن جيري ما كان يتوقع قط أن ينضب الجدولان في يوم من الأيام. وما كان مثل ذلك التوقع من النوع المرجوّ لأن جزءاً صغيراً من دخله كان مستقى من مرافقة النسوة الوجلات، ومعظمهن في ثياب كاملة، وقد تجاوزن خريف العمر، من شاطئ تلسون إلى الشاطئ الآخر. وعلى الرغم من قِصر تلك المرافقة، ما كان ليفوت مستر كرانتشر أن يبدي من الاحتفال بالسيدة ما يحمله على أن يعبر لها عن رغبته الشديدة في أن يتشرف بشرب كأس من الخمر على صحتها. فكانت السيدات يمنحنه بعض المال، ابتغاء تمكينه من تحقيق ذلك الغرض

الشريف، فهو يُصلح به من حالته المالية، كما لاحظنا منذ قريب.

ولقد مضى زمان كان أحد الشعراء يستوي فيه على كرسي لا ظهر له، في بعض الأماكن العامة، وينظر إلى الناس في غدوّهم ورواحهم، مفكِّراً متأملاً. وإذ لم يكن مستر كرانتشر شاعراً، فإنه لم يفرغ من على كرسيه الخفيض الذي لا ظهر له ـ إلا لأقل قسط من التأمل. وأنشأ يجيل الطرف فيما حوله.

واتفق أن كان متخذاً مجلسه ذاك في فترة خف أثناءها ازدحام السابلة، وقلَّت النسوة المتأخرات، وكسدت سوقه على نحو أثار في ذات نفسه اعتقاداً شبه راسخ بأن السيدة كرانتشر منهمكة في سجودها المعهود، من غير ريب، عندما لفت نظره سيلٌ من الناس لا عهد له بمثله من قبل يتدفق هابطاً «فليت ستريت» متجهاً نحو الغرب. ولم يكد مستر كرانتشر يرى ذلك السيل حتى أدرك أن جنازة ما تتخذ سبيلها هناك، وإن تلك الجنازة أثارت معارضة شعبية نشأ عنها لغطٌ وهدير.

قال مستر كرانتشر، وقد التفت إلى نجله: «انظر، يا جيري الصغير، إنها جنازة!»

فصاح جيري الصغير: «هورّا، هورّا يا أبتِ!»

وأطلق السيد الصغير هذا الصوت المتهلل على نحو ذي دلالة عجيبة، ساء الوالد الظن بها، فانتهز أول فرصة سنحت له وضرب السيدَ الصغير على أذنه.

قال مستر كرانتشر وهو يرمي ابنه بنظرات صعوداً وهبوطاً: «ماذا تعني؟ علام تصيح هذا الصياح المتهلل؟ ما الذي تريد أن تقوله لأبيك أيها الولد السافل؟ لقد ضقتُ ذرعاً بهذا الصبي! ضقت ذرعاً به وبصيحاته! حذار أن تسمعني صوتك بعد الآن، وإلا أشعرتك بمزيد من بطشي. أسمعتَ؟»

فاحتج جيري الصغير، ماسحاً خده: «أنا لم أؤذِ أحداً.»

فقال مستر كرانتشر: «أقلع عن ذلك إذن. أنا لا أريد أن أرى شيئاً

من أعمالك اللامؤذية. قف على ظهر ذلك المقعد وانظر إلى الحشد.»

وامتثل ابنه الأمر، واقترب الحشد. كانوا يصيحون ويفحّون حول عربة موتى قذرة قاتمة، وعربة حِداد ليس فيها غير مشيِّع واحد لابس ثوباً مزخرفاً مظلماً اعتُبر ضرورياً للحفاظ على وقار الموقف. ولكن الموقف لم يُرضه، على أية حال، بعد أن تكاثر السوقة من حول العربة، وأنشأوا يسخرون منه، ويكشّرون عن أنيابهم في وجهه، ولا يفتأون يصيحون: «ياه! جواسيس! تستْ! ياها! جواسيس!» إلى غير ذلك من صنوف الإطراء التي لا مجال لذكرها بسببٍ من كثرتها وشدّة لذعها.

وكانت الجنائز تثير فضول مستر كرانتشر دائماً، وفي مختلف الظروف. فما إن تمر جنازة بمصرف تلسون حتى يرهف حواسه ويأخذه الاهتياج. فكان طبيعياً أن تثيره تلك الجنازة العجيبة التي وصفناها إثارة كبيرة، فسأل أول رجل كان يركض في اتجاهه:

ـ «ما المسألة، أيها الأخ؟ ما القصة؟»

فأجاب الرجل: «لست أدري. جواسيس! ياها! تُسِت! جواسيس!»

وسأل رجلاً آخر: «من هذا؟»

ـ «لست أدري،» كذلك أجاب الرجل. بيد أنه ما لبث أن صفق فمه بيديه وهتف في مرارة تثير الدهش وبعزم ليس أقوى منه ولا أشدّ: «جواسيس! ياها! تستْ، تستْ! جواسـ ـ يـ ـس!»

وأخيراً عثر على رجل أكثر معرفة بحقيقة ذلك الموكب، ومنه فهم أن تلك الجنازة كانت جنازة شخص يدعى روجر كلاي.

وسأله مستر كرانتشر: «وهل كان جاسوساً؟»

فأجابه مخبره: «جاسوس من جواسيس «أولد بيلي». ياها! تستْ! ياه! جواسيس أولد بيـ ـ ـيـ ـ لي!»

وصاح جيري وقد ذكر المحاكمة التي شهدها: «أوه، هذا صحيح من غير شك. لقد رأيته ذات يوم. أهو ميت؟»

فقال الرجل: «ميت كلحم الضأن. ولا يستطيع أن يكون ميتاً بأكثر من ذلك. خذوا الجواسيس إلى هناك! اسحبوا الجواسيس إلى هناك!»

وإذ كانت أذهان القوم خالية من أيما فكرة أخرى، فقد لقيت تلك الفكرة قبولاً حماسياً لديهم، فراحوا يرددون الاقتراح القائل بأخذ الجواسيس إلى هناك، وسحبهم إلى هناك، ويُحكمون تحلقهم حول العربتين حتى أكرهوهما على التوقف. وحين فتحت الغوغاء أبواب العربتين حاول المشيع الأوحد النجاة بنفسه؛ وما كاد الحشد يمسك به حتى مكّنته يقظته من أن يفيد من فرصة سنحت له، ففر من خلال شارع فرعيّ ضيق بعد أن سفح جبّته، وقبعته، والعصابة الحدادية المطوّقة لها، ومنديل الجيب الأبيض، وغيرها من الدموع الرمزية.

ومزّق القوم هذه كلها إرباً إرباً، وانتشروا في الأرض في ابتهاج غامر، فسارع التجار إلى إغلاق حوانيتهم. ذلك بأن الحشود في تلك الأيام ما كانت لتتورع عن شيء، فهي ماردٌ جدّ مخيف، وكانوا قد انتهوا إلى أن يفتحوا عربة الموتى ليخرجوا النعش منها عندما برز منهم عبقري أكثر لمعاناً فاقترح عليهم، بدلاً من ذلك، أن يشيعوا النعش في مقره الأخير وسط الابتهاج العام. وإذ كانوا في أمسّ الحاجة إلى المقترحات العملية، فقد استُقبل ذلك الاقتراح أيضاً بالتهليل. وفي الحال غصّت عربة الحداد بثمانية رجال في داخلها واثني عشر رجلاً في خارجها، على حين وثب إلى سقف عربة الموتى أكبر عدد كان في ميسور الحذق أن يُلصقه فوقه. وكان أوائل هؤلاء الرواد جيري كرانتشر نفسه، الذي أخفى، في كثير من التواضع، شعره الشائك في أقصى زوايا عربة الحداد، خشية أن يراه أحد من جماعة المصرف.

واحتج المجنزون المشرفون على الموكب بعض الاحتجاج على هذا التعديل الذي طرأ على البرنامج، ولكن لما كان النهر على قيد خطوات، ولما كانت عدَّة أصوات قد أشارات إلى أن التغطيس في الماء البارد خليقٌ به أن يُعيد أعضاء الحرفة المتمردين إلى صوابهم، فقد تقاصر

الاحتجاج وغدا واهناً خافتاً. وسار الموكب الذي اتخذ قالباً جديداً، وقد ساق عربة الموتى منظّف مداخن ـ يرشده السائق النظامي الذي حُمل على أن يجثم أمامه، تحت أشد المراقبة، وفاءً بذلك الغرض ـ وتولى قيادة عربة الحداد صانع فطائر ومن حوله وزيره أيضاً. وأكره على الاشتراك في الموكب مرقّص دببه ـ وكان من سمات الشارع الشعبية في تلك الأيام ـ بوصفه حلية إضافية، قبل أن يمعن الحشد في الهبوط نحو الشاطئ. والواقع أن دبه، وكان أسود شديد القذارة، قد خلع سيما جنائزية على جزء من الموكب هو ذلك الذي كان يسير فيه.

وهكذا اتخذ الموكب الفوضوي سبيله، في غمرة من شرب الجعة، وتدخين الغلايين، وإنشاد الأغاني الصاخبة، وإظهار الحزن على نحو كاريكاتوري إلى أبعد الحدود، متعاظماً إثر كل خطوة، مكرهاً أصحاب الحوانيت على إقفال حوانيتهم قبل أن ينتهي إليها. وكان الموكب قاصداً إلى كنيسة سانت بانكراس القديمة، القائمة بعيداً في الحقول. وقد بلغ طِيّته آخر الأمر، وأصرَّ على التدفق نحو المقبرة، فدَفن روجر كلاي على طريقته الخاصة، ووفق ارتياحه الخاص إلى حد بعيد.

حتى إذا غُيّب الميت في التراب، واستشعر القوم الحاجة إلى تسلية أخرى، برز عبقري آخر (ولعله أن يكون العبقري السابق نفسه) واقترح أن يعمدوا إلى إتهام بعض عابري السبيل بالتجسس لحساب محكمة الجنايات، وإنزال الانتقام بهم. فراحوا يطاردون عشرات من الأبرياء الذين لم يقربوا «أولد بيلي» في حياتهم، تحقيقاً لهذا الاقتراح، ويدفعونهم دفعاً عنيفاً، ويسيئون معاملتهم على نحو خشن. وكان الانتقال إلى تحطيم النوافذ، ومن ثم إلى نهب الأماكن العامة، سهلاً وطبيعياً. وأخيراً، وبعد بضع ساعات، عندما دمرت أكواخ صيفيةٌ شتى، ونزعت درابزونات الأراضي لكي تتسلح بها النفوس الأكثر رغبة في الحرب، سرت بين أفراد الحشد شائعة تقول بأن الحرس قد أقبل. وكان الحشد قبل أن تسري تلك الشائعة، قد شرع يتقلص شيئاً فشيئاً. ومن يدري،

فلعل الحرس أن يكون على وشك المجيء، ولعله لا يجيء أبداً. وعلى أية حال فقد كانت تلك هي طبيعة الغوغاء دائماً.

ولم يشارك مستر كرانتشر في ضروب القنص الختامي، بل أقام في فناء الكنيسة ليتذاكر مع المجنزين ويشاطرهم الأسى. وكان لذلك الموطن أثر ملطِّف في نفسه. فاشترى غليوناً من أحد الحوانيت المجاورة، وأنشأ يدخنه، ناظراً إلى الدرابزون، متأملاً في المكان في حنكة.

وقال مستر كرانتشر مخاطباً نفسه على طريقته المألوفة: «جيري، لقد رأيتَ كلاي ذلك اليوم، ولقد رأيت بعينيك الاثنتين أنه كان شاباً، وأنه كان حسن القوام.»

حتى إذا استنفد غليونه، وتأمل بعض الشيء، استدار راجعاً لكي يُثبت وجوده في مقره، أمام مصرف تلسون، قبل أن تحين ساعة الانصراف، ولكنه عرّج في طريق عودته على طبيبه، وكان جراحاً بارزاً، لسبب لا نعرفه على التحقيق. فلعل تأملاته في الموت أن تكون قد قرَّحت كبده، ولعل صحته العامة كانت معتلة من قبل، ولعله أراد أن يعلن ولاءه وإخلاصه لأحد الرجال اللامعين. وأيّاً ما كان، فليس يقدم ذلك ولا يؤخّر من الأمر شيئاً.

وكان جيري الصغير قد قام مقام أبيه على أحسن وجه، حتى إذا رجع أبلغه أن أيما مهمة لم يُعهد بها إليه طوال غيبته. وأقفل المصرف، وخرج الموظفون الشيوخ، وأقيمت الحراسة المعتادة، ومضى مستر كرانتشر وابنه إلى المنزل لتناول الشاي.

وقال مستر كرانتشر لزوجته حين دخل البيت: «والآن، أحب أن تفهمي هذا جيداً: إذا ذهبت جهودي التي سأبذلها هذه الليلة، بوصفي تاجراً أميناً، أدراج الرياح، فسوف أجزم بأنكِ كنت تصلين ضدي، ولسوف آخذك بجريرة ذلك وكأنني رأيتكِ تصلين ضدي رأي العين.»

وهزت مسز كرانتشر المحزونة رأسها.

وقال مستر كرانتشر وقد بدت على وجهه إمارات الخوف الغاضب: «عجيب أمرك! إنكِ لتفعلين ذلك في وجهي!»

ـ «أنا لا أقول شيئاً!»

ـ «حسناً، إذن. حذار أن تنوي القيام بعمل ما. إن عقد النية على السجود كالسجود نفسه. وفي استطاعتكِ أن تعملي على إلحاق الضرر بي من طرق مختلفة. فدعي عنك ذلك كله.»

ـ «نعم، يا جيري.»

فكرر مستر كرانتشر وهو يجلس إلى مائدة الشاي: «نعم، يا جيري. آه! تقولين نعم يا جيري. هذا كل ما عندك من جواب! في استطاعتك أن تقولي نعم يا جيري!»

ولم يقصد مستر كرانتشر من وراء هذا التكرير النكد إلى معنى بعينه. ولكنه أفاد منه، فِعْلَ الناس عادة، للتعبير عن عدم الارتياح تعبيراً تهكمياً.

وقال مستر كرانتشر وهو يقضم قضمة من الخبز المأدوم بالزبدة والمربى، وبدا وكأنه يساعد نفسه على ابتلاعها بدفعها بواسطة محارة ضخمة غير منظورة كانت في صحن فنجانه: «لقد فلقتنِي بقولك نعم يا جيري! آه، أحسب ذلك! أنا أصدق ما تقولين.»

وسألته زوجته اللطيفة حين قضم قضمة أخرى، «أخارج أنت هذه الليلة؟»

ـ «نعم، أنا خارج.»

فسأله ابنه في سخرية: «هل أستطيع أن أرافقك يا أبتِ؟»

ـ «لا، ليس في استطاعتك ذلك. أنا ذاهب ـ كما تعرف أمك ـ لأصطاد السمك. ذلك ما أنا ذاهب من أجله. لأصطاد السمك.»

ـ «إن الصنارة التي تصطاد بها السمك قد صدئت. أليس كذلك، يا أبت؟»

ـ «ليس هذا بالأمر الخطير.»

ـ «وهل ستحمل إلينا شيئاً من السمك يا أبتِ؟»

فقال ذلك السيد وهو يهز رأسه: «إذا لم أفعل فسوف يقتصر طعامك غداً على الجراية المطفَّفة. كفاكِ أسئلةً. أنا لن أخرج ما لم تستغرق في النوم.»

ووقف نشاطه بقية المساء على مراقبة مسز كرانتشر على نحو دقيق، وإلهائها بالحديث، إلهائاً مقطباً، لكي يحول بينها وبين أن ترفع إلى اللّه أيما صلاة ضده. ثم إنه حرض ابنه على إلهائها بالحديث أيضاً، ابتغاء الغرض نفسه، وراح يسوم تلك المرأة القليلة الحظ صنوف الشقاء لكي لا يتركها تفرغ لتأملاتها لحظة واحدة. وما كان في ميسور أتقى الناس أن ينكبّ على عبادة الخالق بقدر ما انكبّ هو على تنغيص حياة زوجته على ذلك النحو. وكان في هذا كله أشبه بجاحد لوجود الأرواح روّعته حكاية من حكايات العفاريت الراعبة.

وقال مستر كرانتشر: «وانتبهي جيداً. أنا لا أريد شيئاً من نوادركِ غداً! فإذا وفِّقت، بوصفي تاجراً أميناً، إلى أن آتيك بقطعة من اللحم أو قطعتين فلست أحب أن أراك تبتعدين عنهما ملتزمة الخبز القفار. وإذا ما وفقت، بوصفي تاجراً أميناً، إلى أن آتي بشيء من الجعة فلست أحب أن أسمعك تصرِّين على الاكتفاء بالماء. فحين تذهبين إلى رومة، عليك أن تتخلقي بأخلاق أهلها. فإن لم تفعلي لم يطب لك العيش في رومة. إني أنا «رومتك» كما تعرفين!»

ثم عاد إلى الغمغمة والتذمر: «إنك تعاندين العناية الإلهية التي تسوق إليك الطعام والشراب! ولست أدري إلى أي حد يطفف اللّه رزقنا من الطعام والشراب بسبب سجودكِ الماكر وسلوكك الخالي من الحنان. انظري إلى ابنكِ. إنه ابنك، أليس كذلك؟ إنه هزيل مثل عمود من الحطب. أتزعمين أنك أم ولا تعرفين أن أول واجبات الأم أن تنفخ ابنها وتسمّنه؟»

فأثار ذلك الكلام كامن الشعور في نفس جيري الصغير، فراح يناشد أمه أن تنهض بأول واجباتها، وأن تضع توكيداً خاصاً ـ مهما عملت ومهما أهملت ـ على تلك المهمة الأمومية التي نبّهها أبوه إليها، في كثير من الرقة والحنان.

وهكذا أمضت أسرة كرانتشر شطراً من الليل، حتى دعا الأب ابنه، آخر الأمر، إلى الإيواء للفراش، ودعا زوجته إلى مثل ذلك فنزلت عند إرادته. وقتل مستر كرانتشر الأجزاء الأولى من الليل في تدخين متوحّد، ولم ينشط لمغامرته إلا عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل تقريباً. وحوالي تلك الساعة الصغيرة المخوفة نهض عن كرسيه، وتناول من جيبه مفتاحاً فتح به خزانة مقفلةً، وأخرج كيساً ومخلاً ذا حجم مناسب، وحبلاً، وسلسلة، وما شابه ذلك من أدوات الصيد. ثم إنه تقلَّد هذه الأدوات كلها تقلّدَ المتمرس، وألقى على مسز كرانتشر نظرة تحدٍّ وداعيّة، وأطفأ النور، وخرج.

ولم يتخلّف جيري الصغير ـ وكان قد تظاهر بنزع ملابسه حين مضى إلى الفراش ـ كثيراً عن والده. لقد غادر الغرفة، وتبعه تحت جنح الظلام، وتبعه في هبوط السلم، وتبعه في اجتياز الفِناء، وتبعه في الاندفاع نحو الشوارع. ولم يستشعر أيما جزع في ما يتصل بعودته إلى المنزل، فقد كان في البناء كثير من المستأجرين، وكان الباب منفتحاً، طوال الليل، نصف انفتاح.

لقد أغراه طمع جيد بحل لغز تلك الحرفة الشريفة التي ينهض بها أبوه ليلاً فأنشأ يلاحق أباه المبجّل بنظره، غير مبتعد عن واجهات المنازل، وعن الجدران، والأبواب إلا بقدر ما تبتعد إحدى عينيه عن الأخرى. ولم يكن أبوه المبجل المتجه شمالاً قد ذهب إلى بعيد عندما انضم إليه تلميذ آخر من تلامذة إسحق والتون(*) وانطلقا معاً.

(*) Izaak Walton كاتب بريطاني برع بصيد السمك (1593-1983) (المعرب).

وبعد نصف ساعة من الانطلاقة الأولى انتهيا إلى ما وراء المصابيح المتغامزة، والعسس الذين كانت أعينهم تطرف بأكثر من الغمز، وإذا هما على قارعة طريق متوحّد موحش. وهنا انضم إلى الرفيقين صياد سمك ثالث. وإنما تم ذلك في غاية من السكون، فلو كان جيري الصغير ممن يؤمنون بالخرافات إذن لكان من الجائز أن يفترض أن الرفيق الثاني من أهل تلك الحرفة اللطيفة انشطر، فجاءة، شطرين اثنين، وبذلك أصبح الرفيقان ثلاثة رفاق.

وانطلق الثلاثة معاً، وانطلق جيري الصغير في أثرهم حتى كفّ الثلاثة عن المسير عند مرتفع من الأرض مشرف على الطريق. وكان فوق ذلك المرتفع جدار آجري خفيض يحيط به درابزون حديدي. وفي ظل المرتفع والجدار تحوّل الثلاثة عن الطريق، وصعدوا في زقاق غير نافذ يشكّل الجدارُ ـ حيث يرتفع عنده إلى نحو ثمانية أقدام أو عشرة ـ جانباً من جوانبه. أما جيري الصغير فجثم في إحدى الزوايا وأنشأ يختلس النظر إلى الزقاق فإذا به يرى أباه المبجّل، وقد بدا واضح المعالم في ضو قمر واهن تكتنفه السحب، يتسلق في رشاقة باباً حديدياً. وما هي إلا لحظة حتى بلغ قمته، ليتبعه صياد السمك الثاني، ثم الثالث. ثم إنهم وثبوا جميعاً، في تلطف، إلى الأرض الواقعة خلف الباب، وتمددوا هناك فترة لعلهم أمضوها في الأصغاء. وبعد ذلك أنشأوا يزحفون على أيديهم وركبهم.

وجاء دور جيري الصغير، الآن، في أن يقترب نحو الباب؛ فقام بذلك حابساً أنفاسه. ثم إنه جثم كرة أخرى في زاوية هناك، وأخذ يختلس النظر، فبصر بالصيادين الثلاثة يدبون خلال بعض العشب الغزير القذر، وقد أطلّت جميع شواهد القبور في فناء الكنيسة ـ وكان ذلك الفناء رحباً ـ وكأنها أشباح تتشح بالبياض، على حين أطلّ برج الكنيسة نفسه وكأنه شبح عملاقٍ راعب. وما إن دبوا فترة قصيرة حتى كفوا عن الدبيب وانتصبوا واقفين. وعندئذ شرعوا يصطادون السم.

واصطنعوا المسحاة، أول الأمر، في صيدهم ذاك. وفي الحال بدا الوالد المبجّل وكأنه يعدّل آلة ما تشبه مِبرماً كبيراً. وأيّاً ما كانت الأدوات التي أحضروهاا فقد استخدموها كلها في جهد ومشقة حتى روّعت ضربات ساعة الكنيسة المخيفة قلب جيري الصغير فولى هارباً، وقد وقف شعر رأسه وغدا شائكاً كشعر أبيه.

بيد أن رغبته القديمة في أن يكشف النقاب عن هذه الشؤون لم تحمله على أن يكفّ عن الجري وحسب، بل أغرته بالعودة إلى باب الكنيسة أيضاً. وكانوا لا يزالون يتصيدون في كدح موصول عندما اختلس النظر من ذلك الباب كرة أخرى؛ ولكن صنارتهم بدت وكأنها فازت بصيد هذه المرة. وانبعث من أدنى الأرض صرير وصوتٌ متذمر، وبدت أجسادهم المحنية، وكأنها تنوء بحمل ثقيل. وشيئاً بعد شيء، وعلى غاية من التمهل، شقّ الحملُ التربة التي تعلوه واستوى فوق سطح الأرض. وأدرك جيري ماهية ذلك الحمل أحسن الإدراك؛ ولكنه ما إن رآه، ورأى إلى أبيه المبجل على وشك أن يمزّقه حتى استبدّ به الرعب ـ فقد كان يشهد ذلك المشهد للمرة الأولى ـ فأطلق ساقيه للريح، كرة أخرى، ولم يتمهل إلا بعد أن ركض ميلاً أو أكثر من ميل.

وكان خليقاً به أن لا يتمهل ساعتئذٍ سوى لأخذ النّفَس، إذ كان يخوض سباقاً مع الأشباح يتمنى لو ينتهي إلى غاية. كان مؤمناً إيماناً قوياً بأن التابوت الذي رآه كان يطارده. ويتمثله قافزاً خلفه على كلتا قدميه، منتصباً يجري على أضيق طرفيه. وعلى وشك أن يدركه أبداً، ويحاذيه ـ وربما أن يمسك به من ذراعه ـ فقد وجد فيه مطارداً ينبغي أن يفرّ منه بأيّ ثمن. ولقد كان مارداً غير منسجم مع نفسه، قادراً على أن يوجَدَ في جميع الأمكنة في وقت معاً. ذلك أن جيري، حين رأى إليه يملأ الليل من ورائه رعباً، انطلق إلى الطريق البيّن الواضح ليتجنب الأزقة المظلمة، خشية أن ينبثق منها قافزاً على كلتا قدميه مثل طيارة طفل مصابة بمرض الاستسقاء ليس لها ذَنَب ولا جناحان. فإذا به يجد المارد مختبئاً خلف

مداخل البيوت أيضاً، يحك منكبيه الهائلين بأبوابها، ويرفعهما حتى أذنيه وكأنه يضحك. ليس هذا فحسب، بل لقد خُيِّل إليه أن المارد كان يلبس ظلال الطريق وينطرح على ظهره في مكر لكي يُزلّه(*) وكان طوال ذلك الوقت لا يفتأ يقفز من ورائه على قدميه جميعاً ويزداد منه قرباً بحيث ما كاد الصبيّ يبلغ باب بيته حتى بدا وكأنه نصف ميت. ومع ذلك لم يفارقه الشبح، بل لحق به مرتقياً السلّم، مصطدماً بكل درجة من درجاتها، واندسّ في الفراش معه، وسقط ميتاً ثقيلاً على صدره حين استسلم للرقاد في حجيرته.

وبعيد الضحى، وقبل أن تشرق الشمس، استيقظ جيري الصغير من نومه المثقَل على صوت أبيه. لقد مُني بالإخفاق في ناحية ما، أو على الأقل ذلك ما أستنتجه جيري الصغير من رؤيته ممسكاً بأذني مسز كرانتشر ضارباً مؤخر رأسه بلوحة السرير الأمامية.

وقال مستر كرانتشر: «لقد قُلتُ لكِ إني سأفعل بك هذا، وها أني أفي بوعدي!»

وتضرعت إليه زوجته: «جيري! جيري! جيري!»

وقال جيري: «إنك تتنكرين لنعمة الربح التجاريّ، وهكذا أشقى أنا ويشقى شركائي. وكان من واجبك أن تشرفيني وتطيعيني. تُرى ما الذي يحملك، بحق الشيطان، على أن لا تفعلي ذلك؟»

فاحتجت المرأة المسكينة، سافحةً العبرات: «إني أحاول أن أكون زوجة صالحة، يا جيري.»

ـ «هل من شروط الزوجة الصالحة أن تقف حجر عثرة في سبيل أعمال زوجها؟ أيكون تشريف المرأة لزوجها بأن تفسد عليه تجارته؟ أم أن طاعة المرأة لزوجها تكون بالتمرد عليه في موضوع تجارته الحيوي؟»

(*) أزل فلاناً: أزلقه وحمله على الزلة.

ـ «إذن، فأنت لم تباشر ذلك العمل المروّع، يا جيري.»

فأجابها مستر كرانتشر: «حسبك أن تكوني زوجة تاجر أمين، وأن لا تشغلي عقلك الأنثوي بالتفكير أباشرَ عمله أم لم يباشره. إن الزوجة المطيعة المشرّفة لا تتدخل البتة في عمل زوجها. أنتِ تسمّين نفسك امرأة تقية؟ إذا كنتِ تقية، فمن هي المرأة التي ينقصها التقى؟! إن الحسّ الطبيعي بالواجب يعوزك بقدر ما يعوز نهر التايمس الحسّ بالعمود الحديدي الذي يقوم في مجراه، والذي يجب أن يُدفع في جوفك.»

وإنما جرت هذه المشاحنة في صوت خفيض، واختُتمت بأن نزع التاجر الأمين حذاءه الملوّث بالطين وتمدَّد على أرض الغرفة. حتى إذا اختلس ابنه النظر في رعب فألقاه مستلقياً على ظهره متوسداً يديه الصدئتين، استلقى هو الآخر في فراشه، واستسلم للنوم مرّة أخرى.

ولم يكن ثمة سمك يَطْعَمونه عند الصباح، بل لم يكن ثمة شيء يستحق الذكر من أيما شيء. وكان مستر كرانتشر مغضباً حانقاً، وقد احتفظ إلى جانبه بغطاء قدر حديدي بوصفه قذيفة يؤدب بها مسز كرانتشر إذا ما لاحظ عليها أيما عَرَض من أعراض الصلاة. ثم إنه غسل وجهه وسرّح شعره في الساعة المعتادة وانطلق هو وابنه للالتحاق بوظيفته الظاهرية.

وكان جيري الصغير، الماشي متأبطاً كرسيه الخفيض إلى جانب والده في «فليت ستريت» المشمس المزدحم، يختلف اختلافاً عظيماً عن جيري الصغير الهارب في الليلة البارحة، وسط الظلمة والوحشة، من مطارده المخيف. لقد جدَّد الصباح مكرَهُ ودهاءه، وذهب الليل بهواجسه ومَخَاوفه؛ وهي حال ليس من غير المحتمل أن يكون كثيرٌ من الناس في «فليت ستريت» ومدينة لندن قد شاركوه فيها.

وقال جيري الصغير فيما هو يجوز الشارع حريصاً دائماً على أن يبقى على قيد ذراع من والده وعلى أن يجعل من الكرسي الخفيض حائلاً يفصل ما بينهما: «أبي، ماذا يقصدون بقولهم «ناشر الجثث؟»

وتمهل مستر كرانتشر متوقفاً عن السير قبل أن يجيب: «ومن أين لي أن أعلم؟»

فقال الغلام الساذج: «لقد حسبتُ أنك تعرف كل شيء يا أبي!»

فأجاب مستر كرانتشر مستأنفاً سيرهُ، رافعاً قبعته لينفّس عن شعره الشائك: «همْمْم! إنه تاجر.»

فسأله جيري الصغير المشتعل حيوية: «وما البضاعة التي يتاجر بها، يا أبي؟»

فأجابه مستر كرانتشر بعد أن أدار السؤال في ذهنه: «بضاعته هي ضرب من البضاعة العلمية.»

فسأله الصبي النشيط: «جثث الناس، أليس كذلك يا أبت؟»

فقال مستر كرانتشر: «أحسب أنها شيء مثل ذلك.»

ـ «أوه يا أبت، كم أتمنى لو أصبح ناشر جثث حين أصبح رجلاً!»

وسُرّي عن مستر كرانتشر، ولكنه هزّ رأسه على نحوٍ أخلاقي مرتاب، ثم قال: «ذلك رهن بالطريقة التي تشحذ بها مواهبك. أعتنِ بمواهبك أعظم العناية، واكبح جماح لسانك، وعندئذ تصبح أهلاً لكل ما تصبو إليه في المستقبل.»

وشجع هذا الكلام جيري الصغير، فتقدم أباه بضعة أقدام ليركز الكرسيّ الخفيض في ظل «تامبل بار»، بينا أضاف مستر كرانتشر قائلاً بينه وبين نفسه: «جيري، أيها التاجر الأمين، هناك أمل في أن يصبح هذا الغلام نعمة عليك وفي أن ينسيك كل البلاء الذي تلقاه من أمه!»

ـ 15 ـ

الحبك

كانت معاقرة الخمر قد بدأت أبكر من العادة في حانة مسيو دوفارج. فمنذ الساعة السادسة صباحاً كانت بعض الوجوه الصفر، تختلس النظر من خلال قضبان نوافذها فترى في داخلها وجوهاً أخرى منكبّةً على كؤوس الخمر. وكان مسيو دوفارج يقدِّم في أحسن الأوقات خمراً هزيلة قليلة الخير، ولكن الخمر التي قدَّمها هذه المرة بدت هزيلة قليلة الخير فوق العادة. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت خمراً حامضةً، أو مُحْمِضَة لأنها كانت توقع الاكتئاب في نفوس شاربيها. إنّ شيئاً من اللهب الباخوسيّ(*) ما كان يثب من عصارة العناقيد عند مسيو دوفارج. ولكن كانت تختبئ في ثمالاتها نارٌ خانقة الدخان مُضْرَمةٌ في الظلام.

وكان ذلك الصباح ثالث صباح استُهلّ فيه الشراب على هذا النحو المبكر في حانة مسيو دوفارج. لقد بدأ ذلك يومَ الاثنين، وها قد أشرقت الآن شمس الأربعاء. والحقّ أن الشاربين كانوا عاكفين على التفكير والتأمل بأكثر مما عكفوا على احتساء الخمر. ذلك بأن كثيراً من الرجال الذين أصاخوا وهمسوا وانسلّوا ههنا وهناك، منذ أن فتحت الحانة أبوابها، كانوا لا يملكون شيئاً من المال ينفقونه إمتاعاً للنفس والروح. ومع ذلك فقد كانوا يبدون من الاهتمام بالمكان وكأنهم يستطيعون أن

(*) نسبة إلى باخوس إله الخمر.

يصدروا أمرهم بأن يزوَّدوا ببراميل من الخمر، وكانوا ينسلّون من مقعد إلى مقعد، ومن زاوية إلى زاوية، محتسين الكلام بدلاً من الراح، متبادلين النظرات الشرهة.

وعلى الرغم من تدفق القوم على الحانة تدفقاً استثنائياً، فلم يكن الخمّار بادياً للعيان. وما افتقده أحد من الجماعة، إذ إن أياً ممن تخطوا العتبة لم يلتمسه، ولم يسأل عنه، ولم يعجب لأن يرى مدام دوفارج في كرسيها تشرف على توزيع الخمر، وأمامها وعاء فيه قطع نقدية صغيرة، متداعية، أصابها من ضروب التشويه التي أحالتها عن صورتها الأولى مثل الذي أصاب تلك القطع النقدية البشرية الصغيرة التي خرجت(*) من جيوبها الرثة البالية.

ولعل الشوق المتوتر والذهول الشامل كانا موضع ملاحظة الجواسيس الذين ألّموا بالحانة كما كانوا يلمون بكل مكان، رفيعاً كان أم حقيراً، من قصر الملك إلى سجن المجرم. لقد تطاول لعب اللاعبين بالورق، وراح لاعبو الدومينو يشيدون بحجارتها، في إطراق وتفكير، أبراجاً عالية، وأنشأ الشاربون يرسمون على الموائد، بقطرات الخمر المسفوحة، صُوَراً ورسوماً. حتى مدام دوفارج نفسها عكفت على نقب ردنها بعود أسنانها، ورأت وسمعت شيئاً لا يُرى ولا يُسمع في مكان بعيد.

وظلَّت هذه السيما ترين على حي سان انطوان حتى الظهر. وعندئذ اتخذ رجلان أغبران سبيلهما في شوارعه وتحت مصابيحه المتأرجحة. فأما أول هذين الرجلين فكان مسيو دوفارج، وأما ثانيها فكان مصلح الطرق معتمراً قلنسوة زرقاء، فدخلا الحانة وقد استبدّ بهما الظمأ وكساهما الغبار. وكان وصولهما قد أضرم ضرباً من النار في صدر «سان انطوان» انتشرت ألسنته مع خطواتهما المتقدمة، فهو يضطرب ويترجرج شُعَلاً على الوجوه الواقعة لدى الكثرة الكبيرة من الأبواب

(*) أي القطع النقدية الحقيقية المجتمعة في الوعاء.

والنوافذ. ومع ذلك، فلم يلحق بهما أحد، ولم يتكلم أحد عندما دخلا الحانة، على الرغم من أن عيني كل إنسان صُوبتا إليهما.

وقال مسيو دوفارج: «طاب يومكم، أيها السادة!»

ولعل تلك التحية كانت إيذاناً بأن تنطلق الألسن من عقالها. إذ ما كاد دوفارج ينطق بها حتى أجابه الجمع بلسان واحد: «طاب يومك!»

وقال دوفارج هازاً رأسه: «الأحوال الجوية رديئة، أيها السادة.»

وهنا نظر كلٌ إلى جاره، ثم أطرقوا جميعاً بأبصارهم واعتصموا بالصمت. ما خلا واحداً نهض وغادر المكان.

وقال دوفارج موجهاً الخطاب إلى مدام دوفارج: «لقد اجتزت عدة فراسخ أيتها الزوجة، مع مصلح الطرق الطيّب هذا، المسمى جاك. لقد لقيته، مصادفةً، على مسيرة يوم ونصف خارج باريس. إنه طفل طيب، مصلح الطرق هذا، المسمى جاك. قدّمي إليه شيئاً من الخمر، أيتها الزوجة!»

ونهض رجلٌ ثانٍ وغادر المكان. وقدَّمت مدام دوفارج الخمر لمصلح الطرق المسمى جاك، الذي خلع قلنسوته الزرقاء تحيةً للجماعة وشرب، وكان يحمل في صدر قميصه شيئاً من الخبز الأسود الخشن قضم منه قضمةً حيناً بعد حين، وجلس يمضغ، ويحتسي الخمر قرب منضدة مدام دوفارج. ونهض رجل ثالث وغادر المكان.

أنعش دوفارج نفسه بقليل من الشراب ـ ولكنه احتسى مقداراً أقلّ من ذلك الذي قُدِّم للرجل الغريب، إذا كانت الخمر مبذولةً عنده ـ ووقف ينتظر حتى يتمّ الريفي فطوره. ولم ينظر إلى أحد من الحاضرين، ولم ينظر أحدٌ في تلك اللحظة إليه. حتى مدام دوفارج كانت قد تناولت حبكها وانكبّت على العمل.

وسأله دوفارج في الوقت المناسب: «هل أتممت طعامك، أيها الصديق؟»

ـ «نعم، أشكرك.»

ـ «تعال، إذن! سوف ترى الغرفة التي قلتُ لك إنك ستحتلها. إنها سوف تناسبك إلى حد مدهش.»

وانطلقا من الحانة إلى الشارع، ثم انطلقا من الشارع إلى الفناء، ثم غادرا الفناء مصعدين في سلّم شديدة الانحدار، وتقدّما من تلك السلم إلى علّيّة هناك ـ كانت في ما سلف من الأيام مقرّ رجل أبيض الشعر، جالسٍ على مقعد خشبي منخفض، مكبٍّ على عمل الأحذية في اهتمام بالغ.

لم يكن ثمة رجل أبيض الشعر الآن. ولكنْ كان ثمة أولئك الرجال الثلاثة الذين غادروا الحانة منفردين. وكانت تجمع ما بينهم وبين الرجل الأبيض الشعر المقيم الآن في مكان قصي صلة صغيرة، هي أنهم اختلسوا النظر إليه، ذات يوم، من خلال صدوع الجدار.

وأغلق دوفارج الباب في رفق وتحدّث في صوت مكظوم: «جاك رقم واحد؛ جاك رقم اثنين؛ جاك رقم ثلاثة! هذا هو الشاهد الذي لقيتُه أنا، جاك رقم أربعة، كما أمِرت أنه سوف يخبركم كل شيء. تكلم يا جاك رقم خمسة!»

ومسح مصلح الطرق جبينه الداكن بقلنسوته وقال: «من أين أبدأ، يا سيدي؟»

وكان جواب دوفارج حكيماً إذ قال: «ابدأ من البداية!»

واستهلّ مصلح الطرق حديثه: «لقد رأيتهُ، أول مرة، أيها السادة، منذ عام، وكان متعلقاً بالسلسلة تحت عربة المركيز. انظروا كيف كان ذلك. كنت قد انصرفت من عملي، على الطريق، وكانت الشمس قاصدةً إلى الفراش، وكانت عربة المركيز تهبط التل في بطء، وهو متعلق بالسلسلة ـ هكذا.»

وكرةً أخرى مثّل مصلح الطرق المشهد بكامله، وكان قد برع في تمثيله من غير شك، بعد أن وجد فيه تسلية لا غنى عنها لقريته طوال عام كامل.

وهنا قاطعه جاك رقم واحد، وسأله هل رأى الرجل قطّ من قبل؟

فأجابه مصلح الطرق ناصباً قامته: «لا، على الإطلاق.»

وسأله جاك رقم ثلاثة كيف استطاع أن يعرفه بعد ذلك إذن؟

فأجاب مصلح الطرق. في رقة، واضعاً إصبعه على أنفه: «من طول قامته». فعندما سألني حضرة المركيز تلك الليلة: «ما شكله؟» أجبته قائلاً: «طويل كالشبح.»

فقال جاك رقم اثنين: «كان ينبغي أن تقول قصيرٌ كالقزم.»

ـ «ومن أين لي أن أعلم؟ فهو لم يكن قد فعل شيئاً آنذاك، لا، ولم يُسِرّ إليّ بخبيئة صدره. لاحظوا! حتى في تلك الأحوال لم أدلِ بشهادتي. وأومأ إليّ حضرة المركيز بإصبعه، واقفاً قرب عين الماء الصغيرة، وقال: «إيتوني به! إيتوني بذلك الوغد!» وأقسم لكم، أيها السادة، إني لم أدْلِ بأي شيء.»

وغمغم دوفارج مخاطباً الرجل الذي قاطعه: «إنه مصيب في ذلك، يا جاك. تابع حديثك!»

فقال مصلح الطرق: «حسناً. لقد فُقد الرجل الطويل، وأخذوا يبحثون عنه ـ كم شهراً؟ تسعة، عشرة، أحد عشر؟»

فقال دوفارج: لا يهمنا العدد. لقد اختبأ في مكان خفيّ. ثم عثروا عليه لسوء الحظ. تابع حديثك!»

ـ «وكنت أعمل، مرة ثانية، فوق سفح الكثيب، وكانت الشمس على وشك أن تأوي إلى الفراش أيضاً. وكنت أجمع أدواتي لأهبط إلى كوخي في القرية القائمة في أدنى الكثيب، حيث كان الظلام قد خيّم، عندما رفعتُ بصري ورأيت ستة جنود يرتقون التل. وكان في وسطهم رجل طويل قد أوثقت ذراعاه وشدّتا إلى جانبيه ـ هكذا!»

وبمساعدة قلنسوته التي لا غنى عنها، أراهم كيف كان مرفقاه مغلولين إلى وركيه بحبال أوثقت من خلفه.

ـ «ووقفتُ، يا سادتي، جانباً، قرب ركام من الحجارة، لكي أرى الجند وأسيرَهم يمرون (فقد كانت الطريق موحشة، وكان أيما مشهد جديراً بأن يلفت النظر). وحين أقبلوا بادئ الأمر، لم أعد أرى أنهم ستة جنود يسوقون رجلاً طويل القامة موثق اليدين، وأنهم كانوا سوداً في ناظري، أو يكادون، إلا من ناحية الشمس الذاهبة إلى فراشها، حيث كانت لهم، يا سادتي، حافة حمراء. وإلى هذا، رأيت ظلالهم الطويلة تنبسط فوق الهضبة الغائرة على الجهة المقابلة من الطريق، وفوق الكثيب الذي فوقها، وكأنها ظلال العمالقة. ليس هذا فحسب، بل لقد رأيت أن الغبار يكسوهم، وأن الغبار يتحرك أمامهم وهم يتقدمون بخطاهم العسكرية. حتى إذا اقتربوا مني عرفت الرجل الفارع الطويل، وعرفني. آه، ولكنه كان يتمنى لو يستطيع أن يلقي بنفسه من قنّة الكثيب، مرّة أخرى، كما قد فعل ليلة التقيتُهُ أول مرة، قرب تلك البقعة ذاتها!»

ووصف المشهد وكأنه هناك وكان واضحاً أنه يراه في وضوح حيّ. ولعله لم يرَ شيئاً كثيراً في حياته.

ـ «ولم أرِ الجنود أنني عرفت الرجل الطويل. ولم يُرِهم هو أيضاً أنه عرفني. لقد عهد كل منا إلى عينيه بأن تنقلا إلى الآخر أنه عرفه وتبيّنه. وقال كبير الجند مشيراً إلى القرية: «هيا! اذهبوا به سريعاً إلى قبره!» وذهبوا به إلى هناك بأقصى السرعة. وتبعتُهُم. كانت ذراعاه متورّمتين بسب من الوثاق المحكم، وكانت نعلاه الخشبيّتان ضخمتين سمجتين، وكان هو أعرج. وإذ كان يمشي نتيجة لذلك في بطء، فقد ساقوه ببنادقهم ـ هكذا!»

وقلّد حركة رجل أكرِه بأعقاب البنادق على أن يتقدم إلى أمام.

ـ «وفيما هم يهبطون الكثيب مثل مجانين يتسابقون، سقط الرجل على الأرض فتضاحكوا وأنهضوه على قدميه. كان وجهه دامياً، وكان يعلوه التراب، ولكنه لم يستطع أن يمسّه بيديه. وتضاحكوا كرةً أخرى واستاقوه إلى القرية. فهرعت القرية كلها لتراه. لقد اجتازوا به الطاحونة

ومن ثم صعدوا نحو السجن. ورأت القرية كلها باب السجن يُفتح في ظلام الليل ويبتلعه ـ هكذا؟»

وفتح فمه أقصى ما يستطيع أن يفتحه ثم أطبقه صاكّاً إحدى فكيه بالأخرى صكاً مدوّياً. وإذ لاحظ دوفارج أنه غير راغب في أن يفتح فمه خشية أن يُفسد الأثر الذي أحدثه في نفوس القوم، قال: «تابع حديثك، يا جاك.»

واستأنف مصلح الطرق كلامه، في صوت منخفض، وقد وقف على رؤوس أصابعه: «وتراجعت القرية كلها. وتهامست القرية كلها قرب العين. ونامت القرية كلها. ورأت القرية كلها ذلك التعس، في ما يراه النائم، وقد ألقي به في غياهب السجن القائم فوق الهضبة الشاهقة، فليس في مقدوره أن يخرج منه إلا حين يساق إلى حتفه. وفي الصباح طفْتُ بالسجن، وأنا في طريقي إلى عملي، وقد طرحتُ أدواتي على كتفي، ورحت أمضغ كسرةً من الخبز الأسود. وهناك رأيته مرفوعاً، خلف قضبان قفص حديدي شامخ، ناظراً إليَّ وعلى وجهه آثار الدم والتراب، شأنه الليلةَ البارحة. ولم تكن أيّ من يديه طليقة لكي يلوّح بها إليّ. ولم أجرؤ على أن أناديه. لقد نظر إليّ وكأنه رجلٌ ميت.»

وتبادل دوفارج والرجال الثلاثة نظرات مغضبَة. كانت نظراتهم كلها قاتمة، مكظومة، تنضح بالانتقام، فيما كانوا يستمعون إلى قصة الرجل الريفيّ. وعلى الرغم من أنهم كظموا مشاعرهم فقد غلبت على وجوههم سيما الصرامة والسلطان. كانوا أشبه ما يكونوا بقضاة غلاظ. فأما جاك رقم واحد وجاك رقم اثنين فكانا قاعدين على فراش عتيق من قش، وقد أسند كل منهما ذقنه إلى يده، وسمّر عينيه على مصلح الطرق. وأما جاك رقم ثلاثة فكان راكعاً خلفهما على إحدى ركبتيه، وقد سمّر عينيه على الرجل أيضاً، وأنشأ يجيل يده المضطربة فوق شبكة الأعصاب الدقيقة المحيطة بفمه وأنفه. وأما دوفارج فكان واقفاً بينهم وبين الزاوية في ضوء النافذة، وشرع ينقّل بصره منه إلى الجماعة، ومن الجماعة إليه.

وقال دوفارج: «تابع حديثك.»

ـ «ولبث هناك في قفصه الحديدي بضعة أيام، والقرية كلها تنظر إليه سراً، فقد كانت خائفة. ولكنها ما رفعت أبصارها، من بعيد، عن السجن القائم فوق الهضبة الشاهقة. وفي المساء كان أهل القرية يجتمعون، بعد أن ينجزوا عمل النهار، حول العين، فيتجاذبون أطراف الحديث. وكانت الوجوه كلها موجّهة نحو السجن. لقد كانت في الأيام السالفة توجّه نحو مركز البريد، أما الآن فقد صارت توجه نحو السجن. وتهامس القوم، عند العين، بأن الرجل لن يُعدم على الرغم من صدور الحكم عليه بالموت. وقالوا إن عرائض قد قدَّمت في باريس تُظهر أن مصرع ولده قد أفقده الصواب وذهب بعقله. وقالوا إن عريضة قد رُفعت إلى الملك نفسه. ومن أين أدري؟ هذا جائز. قد يكون قولهم صحيحاً، وقد يكون غير صحيح.»

واعترضه جاك رقم واحد مقطب الجبين: «اسمع إذن، يا جاك. يجب أن تعرف أن عريضةً قد قدمت إلى الملك والملكة، وكلٌّ من في هذه الغرفة، ما عداك، رأى الملك يتسلمها، في مركبته التي تجتاز الشارع. وكانت الملكة إلى جانبه. إن دوفارج هذا هو الرجل الذي غامر بحياته فوثب أمام الخيل والعريضة في يده.»

وقال رقم ثلاثة، الراكع على الأرض، وأصابعه ما تفتأ تهيم حول أعصابه الدقيقة، في سيما من الشره الصارخ، وكأنما هو جائع إلى شيء ما ـ ليس هو بطعام ولا بشراب: «واسمع، مرة أخرى، يا جاك! ولقد أحاط الحرس، من فرسان ومشاة، بمقدّم العريضة، وسددوا إليه الضربات، هل تسمع؟»

ـ «أسمع، أيها السادة.»

فقال دوفارج: «تابع حديثك، إذن.»

واستأنف الريفي كلامه: «ومن ناحية ثانية، تهامس أهل القرية، عند العين، بأنه سيق إلى منطقتنا لكي يُصرع في مكان الحادث نفسه، وإنه

سوف يُعدم من غير شك. ليس هذا فحسب. بل لقد تهامسوا قائلين: لما كان قد صرع مولانا، ولما كان مولانا أباً لعبيده والعاملين على أرضه فإنهم سوف يُنزلون به العقوبة الخاصة بكل من يقتل أباه أو أمه. وقال رجل عجوز، عند العين، إن يده اليمنى التي حملت المدية سوف تحرق أمام ناظريه. وإنهم سوف يصبّون في الجراحات التي ستُحدث في ذراعيه، وصدره، ورجليه، مقادير من الزيت الغالي، والرصاص المذاب والراتينج(*) الحامي، والشمع، والكبريت، وأخيراً يُصار إلى تمزيقه عضواً عضواً بواسطة أربعة جياد قوية. ولقد ذكر الرجل العجوز أن ذلك كله قد أنزل فعلاً بسجين حاول الاعتداء على حياة الملك السابق، لويس الخامس عشر، ولكن ما يدريني أنه يكذب؟ أنا لست عالماً من العلماء.»

وقال الرجل ذو اليد القلقة والانطباعة النهمة: «إسمع مرة أخرى إذن، يا جاك! إن اسم ذلك السجين هو داميان ولقد فُعل به ذلك كله في وضح النهار، وعلى قارعة الطريق في مدينة باريس هذه. ولم يُشاهَد أحدٌ في الساحة الواسعة التي ارتكبت فيها تلك الفظائع غير جماعة من السيدات ذوات الحسب النبيل والزيّ الأنيق اللائي استبد بهنّ توقٌ عارم إلى أن يتابعن المشهد حتى النهاية ـ حتى النهاية، يا جاك، المتطاولة إلى غروب الشمس حين كان السجين قد خسر رجلين وذراعاً، وكان لا يزال يتنفس! أجل، لقد فعلوا به ذلك ـ ولكن كيف لم تسمع بهذا؟ ما سنّك؟»

فقال مصلح الطرق، الذي بدا وكأنه بلغ الستين: «خمسة وثلاثون عاماً.»

ـ «لقد وقع ذلك وأنت في سنّ تزيد على العاشرة. ولقد كان من الجائز أن تراه.»

فقال دوفارج في نفاد صبر كالح: «كفى. عاش الشيطان! تابع حديثك.»

(*) الراتينج: صمغ الصنوبر.

ـ «حسناً. كان بعضهم يهمس بهذا، وكان بعضهم يهمس بذاك. ولم يتحدثوا عن أيما شيء آخر. حتى مياه العين بدت وكأنها تتساقط وفقاً لذلك اللحن. وأخيراً، في مساء الأحد، حين كانت القرية كلها مستسلمة للرقاد، هبط الجند من السجن، وأخذوا يضربون أرض الشارع الصغير بأعقاب بنادقهم. وطفق العمال يحفرون، وطفق العمال يدقّون المسامير بمطارقهم، والجنود يضحكون ويغنّون. وفي الصباح كانت مشنقةٌ ارتفاعها أربعون قدماً تنتصب قرب العين مسمّمةً المياه.

ونظر مصلح الطرق من خلال السقف بأكثر مما نظر إليه، وأومأ بإصبعه وكأنه يرى المشنقة في مكانٍ ما من المساء.

ـ «وترك القوم أعمالهم كلها، واحتشدوا كلهم هناك. ولم يَقُد أحد الأبقار إلى المرعى، فظلّت الأبقار هناك مع الجمع. وعند الظهر قرعت الطبول. كان الجند قد مضوا إلى السجن في أثناء الليل، وكان هو وسط جمهرة كبيرة منهم. كان موثقاً شأنه من قبل. وكانت في فمه كمامة مُحكمة الربط، إلى درجة جعلته يبدو وكأنه يبدو وكأنه يضحك أو يكاد.» وأوحى إليهم بتلك الصورة بأن غضّن وجهه بإبهاميه من زوايا فمه حتى أذنيه. «وعلى قمة المشنقة رُكزت المدية، وشفرتها إلى أعلى ورأسها في الهواء. لقد شنقوه هناك على ارتفاع أربعين قدماً، وتركوه يتأرجح، مسمّماً المياه.»

وتبادلوا النظرات، فيما راح هو يمسح وجهه بقلنسوته الزرقاء، وكان العرق قد تفصّد منه كرة أخرى، وقد ذكر المشهد.

ـ «شيء مخيف، أيها السادة. كيف تستطيع النسوة والأطفال أن يستقوا؟ كيف يستطيع القوم أن يتجاذبوا أطراف الحديث، عندما يهبط الليل، تحت ذلك الظل؟ هل قلتُ تحته؟ فحين غادرتُ القرية مساء الاثنين، وكانت الشمس تأوي إلى فراشها، ونظرت من الكثيب، كان الظل منتشراً فوق الكنيسة، وفوق الطاحونة، وفوق السجن ـ بل لقد بدا وكأنه منتشر فوق الأرض؛ أيها السادة، إلى حيث تستقر السماء عليها!»

وقرض الرجل الجائع إحدى أصابعه فيما هو ينظر إلى الثلاثة الآخرين، وارتعدت إصبعه بالنهم المغيظ الذي كان يبدو عليه.

ـ «هذا كل ما هنالك، أيها السادة. لقد غادرت القرية عند الغروب (كما طُلب إليّ أن أفعل) فرحت أمشي طوال تلك الليلة، ونصف النهار التالي، حتى لقيت (كما نبّئت) هذا الرفيق. ثم إني تابعت المسير معه، راكباً حيناً، بقية نهار أمس وطوال الليلة البارحة. وها أنا ذا الآن بين أيديكم!»

وبعد صمت قاتم قال جاك رقم واحد: «حسن! لقد عملتَ في إخلاص، ورويتَ في صدق. هل لك أن تنتظرنا قليلاً خارج الغرفة؟»

ـ «بكل سرور،» قال مصلح الطرق. ورافقه دوفارج إلى أعلى السلم حيث أجلسه وانقلب راجعاً.

كان الثلاثة قد نهضوا، وأقبل بعضهم على بعض يتهامسون، عندما عاد دوفارج إلى العلية.

وتساءل رقم واحد: «ما تقول، يا جاك؟ هل نضيف أسماءهم إلى اللائحة؟»

فأجاب دوفارج: «نضيف أسماءهم إلى سجل المحكوم عليهم بالهلاك.»

فتعب الرجل المنهوم: «رائع!»

وتساءل الأول: «القصر والسلالة على بكرة أبيها؟»

فأجاب دوفارج: «الهلاك للقصر وللسلالة على بكرة أبيها!»

وكرر الرجل الجائع، في نعيبٍ طرِبٍ إلى حد بعيد: «رائع!» وشرع يقرض إصبعاً أخرى.

وسأل جاك رقم اثنين دوفارج: «أواثق أنت من أن طريقتنا في الاحتفاظ بثبت الأسماء لن تورثنا بعض المتاعب؟ لا ريب في أنها طريقة مأمونة، إذ ليس في ميسور أحد غيرنا أن يحل رموزها. ولكن هل سيكون

في استطاعتنا دائماً أن نحل رموزها؟ وبكلمة ثانية، يجب أن أقول هل تستطيع هي أن تحل رموزها؟»

فأجاب دوفارج متصدراً: «جاك، لو شاءت زوجتي أن تحفظ ذلك الثبت في ذاكرتها فحسب، إذن لما أضاعت منه كلمة واحدة، بل لما أضاعت منه مقطعاً واحداً. فكيف وهي تطرز تلك الأسماء بقطباتها الخاصة، ورموزها الخاصة. إنها خليقة بأن تكون، إذن، واضحة لديها كالشمس في رائعة النهار. ثقوا بمدام دوفارج. فلأن يمحوَ أضعف الجبناء نفسه من سجل الوجود أسهل من محو حرف واحد من اسمه أو جرائمه من الثبت الذي تحبكه مدام دوفارج حبكاً.»

وغمغموا بعبارات الثقة والموافقة، وعندئذ تساءل الرجل الجائع: «هل نعيد ذلك الريفي إلى قريته في الحال؟ أرجو ذلك. إنه ساذج جداً. أليس هو خطراً بعض الشيء؟»

فقال دوفارج: «إنه لا يعرف شيئاً، أو على الأقل إنه لا يعرف أكثر من تلك الأشياء التي ترفعه في سهولة إلى مشنقة على مثل ذلك الارتفاع. إني أكفله. دعوه يبقى معي. ولسوف أتولى أمره، وأبلغه طريقه. إنه يود أن يرى العالم الجميل: الملك، والملكة، والبلاط. دعوه يرى ذلك كله يوم الأحد.»

فصاح الرجل الجائع محملقاً: «ماذا؟ أمن الإمارات الطيبة أن يرغب في رؤية الملك وجماعة الأمراء والنبلاء؟»

فقال دوفارج: «إذا أردت أن تجعل الهرة ظمأى إلى الحليب فكن حكيماً وَضعْهُ أمامها. وإذا أردت أن تثير ضراوة الكلب فكن حكيماً وأرِهِ فريسته الطبيعية.»

واعتصموا بعد ذلك بالصمت. وإذ رأوا إلى معبّد الطرق يهوّم من فرط النعاس، عند أعلى السلم، فقد سألوه أن يستلقي على فراش القش، ويأخذ قسطاً من الراحة. ولم يحتج إلى إقناع، واستسلم سريعاً للرقاد.

والواقع أنه كان من اليسير أن يُعثر في باريس على مواطن أسوأ من

خمّارة دوفارج يأوي إليها عبدٌ ريفي من تلك الطبقة. ولولا ذعر عجيب استبدّ به من السيدة دوفارج، إذن لكان في استطاعتنا أن نقول إن حياته كانت جديدة جداً، سائغة جداً. ولكن مدام دوفارج كانت تنفق ساعات اليوم كلها جالسة إلى منضدتها، معرضة عنه إعراضاً صارخاً، موطنة العزم على أن لا تدرك أن لوجوده هناك أيما علاقة بأيما شيء أعمق من السطح، حتى لقد غدا يرتجف في نعليه الخشبيَّتين كلما وقعت عيناه عليها. كان يجادل نفسه قائلاً بأن من المتعذر عليه أن يتنبأ بالذي سوف تدّعيه هذه السيدة بعد ذلك. وقد أحسّ، أعمق الإحساس، بأنه إذا ما وقع في رأسها المزدان بالحلى المشرقة أن تدّعي أنها رأته يقتل رجلاً ما ثم يسلخ جلده فليس من ريب في أنها لن تحجم عن ذلك، وأنها خليقة بأن تمضي في تلك الطريق حتى تبلغ غايتها.

من أجل ذلك لم يُسرّ معبّد الطريق (برغم أنه تظاهر بالحبور) حين أقبل يوم الأحد ووجد أن مدام دوفارج سوف ترافق زوجها وترافقه هو إلى فرساي. وزاد في انزعاجه وارتباكه أن مدام دوفارج لم تكف لحظة عن الحبك، في العربة العمومية، طوال الطريق إلى هناك. وزاد في انزعاجه وارتباكه أكثر أن تظل مدام دوفارج مكبّة بعد الظهر على حبكها، فيما كان الحشد من حولها ينتظر رؤية المركبة التي تقلّ الملك والملكة.

وقال رجلٌ كان واقفاً إلى جانبها: «إنك لتجهدين نفسك بالعمل، يا سيدتي.»

فأجابت مدام دوفارج: أجل. إن لديّ عملاً كثيراً يجب أن أقوم به.»

ـ «ماذا تعملين، يا سيدتي؟»

ـ «أشياء كثيرة.»

ـ «مثلاً...»

فأجابت مدام دوفارج في رباطة جأش: «أصنع أكفاناً، مثلاً.»

وابتعد الرجل عنها بأسرع ما يستطيع؛ وروّح مصلح الطرق وجهه بقلنسوته الزرقاء، وقد استشعر وطأة الزحام والحر الشديد. وإذا كان في

حاجة إلى ملك وملكة ليعيداه إلى حاله الأولى من النشاط فليس من شك في أنه سعِدَ بأن يجد دواءه في متناول يده. إذ ما هي إلا لحظة حتى أقبل الملك ذو الوجه العريض والملكة ذات الوجه المليح في مركبتهما الذهبية تحف بها جمهرة زاهية من رجال البلاط وباقة وضاءة من السيدات الضاحكات والنبلاء الفاتني المظهر. وفي ذلك البحر من الجواهر، والثياب الحريرية، والذرور، والبهاء، والأجساد المتكبرة في أناقة، والوجوه المترفعة في ملاحة، من الجنسين جميعاً ـ في ذلك البحر ابترد مصلح الطرق، وقد غلبت عليه نشوة الابتهاج حتى لقد صاح: عاش الملك! عاشت الملكة! عاش كل إنسان وكل شيء! وكأنه لم يسمع قطّ بأن في عصره أناساً يحملون اسم جاك ويتمتعون بالقدرة على أن يكونوا في كل مكان. ثم وقعت عينه على حدائق، وأفنية، وسطائح، وينابيع، وضفاف خضر، وعلى الملك والملكة مرّة ثانية، وعلى جمهرة إضافية من رجال الحاشية والنبلاء والسيدات، فصاح من جديد داعياً لهم بطول البقاء، حتى لقد بكى من الانفعال وفرط الابتهاج. وطوال هذا المشهد، الذي استمر نحواً من ثلاث ساعات، لم يكفّ عن إطلاق الصيحات، وسفح العبرات، وإظهار ضروب الانفعال الصاخب. وطوال هذا المشهد كان دوفارج يمسك به من طوق قميصه وكأنما يريد أن يحول بينه وبين الطيران إلى أولئك الأشخاص الذين جعلهم موضع تقديسه الموجز، وتمزيقهم إرْباً إرْباً.

وقال دوفارج، وهو يربت على ظهره، حين انتهى ذلك كله، وكأنه يؤيده: «مرحى! إنك غلام طيب!»

وكان مصلح الطرق قد شرع يثوب إلى رشده، متسائلاً بينه وبين نفسه: ألم يخطئ في هذا الذي بدر منه؟ ولكن لا.

وهمس دوفارج في أذنه: «إنك أنت الشخص الذي نطلب. إنك تجعل هؤلاء المجانين يؤمنون بأن دولتهم سوف تستمر إلى الأبد. وعندئذ يسرفون في طغيانهم، فيكون ذلك أدعى لذهاب سلطتهم.»

وصاح مصلح الطرق وعلى وجهه سيما التأمل والتفكير: «هاي! هذا صحيح.»

ـ «هؤلاء المجانين لا يعرفون شيئاً. فبينما يزدرون بأنفاسك، ويعملون على إخمادها إلى الأبد في صدرك وصدور مئات من مثلك، كارهين لأيّ من جيادهم أو كلابهم مثل هذا المصير، تجدهم لا يعلمون من أمرك إلا ما تنطق به أنفاسك من حسن الدعاء لهم. دع تلك الأصوات تخدعهم فترة أخرى، فليس في ميسورها أن تخدعهم دهراً طويلاً.»

وألقت مدام دوفارج نظرة متشامخة، على الزبون، وهزت رأسها علامة الموافقة والتأييد.

وقالت: «أما أنت فسوف تصيح وتسفح العبرات لأيما شيء، إذا ما كان ذا مشهد جميل وصوت مدوٍّ، قل! أليس كذلك؟»

ـ «حقاً، يا سيدتي، إني أظن ذلك. سوف أفعل ذلك إلى حين.»

ـ «إذا ما عُرض على ناظريك ركام ضخم من الدمى، وطُلب إليك أن تحطمها وتسلبها حلاها لمصلحتك الخاصة فإنك تختار أبهاها وآنقَها. قل! أليس كذلك؟»

ـ «نعم، يا سيدتي.»

ـ «أجل. وإذا ما أراك أحدٌ سرباً من الطير مهيض الأجنحة فليس يستطيع الطيران، وطلب إليك أن تقتلع ريشها عن أجسادها لمصلحتك الخاصة فإنك تختار أجمل الطير ريشاً وتبدأ بها، أليس كذلك؟»

ـ «هذا صحيح، يا سيدتي.»

فقالت مدام دوفارج ملوّحة بيدها نحو المكان الذي تجلّت فيه تلك المشاهد آخر مرة: «لقد رأيتَ اليوم دمى وطيوراً في آن معاً. فارجعِ الآن إلى منزلك!»

ـ 16 ـ

ألحبك يستمر

ورجعت مدام دوفارج وزوجها في أمنٍ إلى قلب سان انطوان، فيما أصغى لهمس الأشجار شبحٌ ضئيل على رأسه قلنسوة زرقاء كان يغذّ السير وسط الظلام، ووسط الغبار، هابطاً الشارع الطويل المُجْهِد الذي تكتنفه الأشجار من جانبيه، والذي يؤدي في بطء إلى نقطة الدائرة القائم عندها قصر مولانا المركيز ـ الراقد في جدثه. والحقّ أن وجوه ذلك القصر الحجرية قد فرغت الآن للاستماع إلى همس الأشجار وخرير العين إلى درجة جعلت «فزاعات» القرية القلائل المتقدمين إلى مقربة من الفناء الحجري الكبير وسلّم القصر ـ أثناء إلتماسهم لشيء من العشب يأكلونه وشيء من الأعواد اليابسة يحرقونها ـ يتوهمون بخيالهم السقيم أن الانطباعة التي تعلو تلك الوجوه قد تغيَّرت. فقد سرت في القرية بُعيد مصرع المركيز إشاعة ـ مهزولة جرداء كوجوه أهل القرية ـ تقول بأن الوجوه بدّلت، حالما غُيّبت المدية في جسد القتيل، سيما الكبر والغرور واستبدلت بها سيما الغضب والألم. وإنه حين نُصِبت تلك الجثة المتدليّة على أعواد يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً فوق عين الماء، تغيَّرت تلك الوجوه من جديد فغلبت عليها سيما المنتقم المدرك ثأرَهُ، تلك السيما التي قدَّر لها أن لا تزايلها بعد ذلك أبد الدهر. وعلى الوجه الحجري القائم فوق نافذة حجرة النوم الضخمة حيث صُرع ربّ القصر تبدّت نقرتان دقيقتان على الأنف المنحوت لم تغفل عنهما الآن عين أحد من

أهل القرية، ولم تقع عليهما من قيل عين أحد من أهل القرية قطّ. ولقد قدَّر لاثنين أو ثلاثة من الفلاحين البالي الثياب أن ينفصلوا في بعض الأحوال النادرة عن الحشد ليختلسوا نظرةً إلى تمثال حضرة المركيز الحجري. فكانوا لا يكادون يومئون إليه بأصبع معروقة حتى يستبد بهم الذعر فتحملهم أرجلهم إلى حيث الطحالب وأوراق الأشجار، فكأنهم الأرانب المحظوظة أكثر منهم، القادرة على أن تجد رزقها هناك.

كان كلٌ من القصر والكوخ؛ والوجه الحجري والجثة المتدلية؛ واللطخة الحمراء على الأرض الحجرية، والمياه الصافية في عين القرية ـ بل كانت آلاف من الفدادين الواسعة، ومقاطعة كاملة من فرنسة، وفرنسة نفسُها برمّتها تستلقي تحت سماء الليل، وقد رُكِّزت كلها في خط ضئيل أشبه بالشعرة الدقيقة. وهكذا يكمن عالم بكامله، بكل ما فيه من عظمة وحقارة، في نجمة متألقة. وكما تستطيع المعرفة الإنسانية نفسُها أن تطلق شعاعاً من نور وتحلل طبيعة تكوينها، كذلك قد يتيسّر للذكاء الأرفع أن يقرأ في تألق أرضنا الواهن كلّ فكرة وعمل، وكل رذيلة وفضيلة يصدر عنها كل كائن مسؤول من الكائنات التي تحيا على سطحها.

أجل، لقد تقدَّمت مدام دوفارج وزوجها في عربتهما العمومية المتنقلة تحت ضوء النجوم، إلى باب باريس ذاك، الذي كان لا بدَّ من أن تفضي رحلتهما إليه. وهناك وقفت بهما العربة وقفتها المعتادة عند مقرّ الحرس، وأقلبت الفوانيس المألوفة تومضُ ابتغاء القيام بعملية التحقيق المعهودة. وترجّل مسيو دوفارج، إذ كان يعرف جندياً أو جنديين هناك، ورجلاً من رجال الشرطة. وكان على صداقة وثيقة بهذا الأخير، فعانقه في حرارة.

وحين أظلّ سان انطوان مرّة أخرى كلاً من مدام دوفارج ومسيو دوفارج بجناحيه القاتمين، واتخذا سبيلهما، بعد أن ترجّلا قرب تخوم الحيّ، وسط الوحل الأسود والنفايات المالئة طرقَهُ وشوارعه، قالت

مدام دوفارج لزوجها: «قل إذن، يا صديقي. ماذا قال «جاك» الشرطة لك؟»

ـ «شيئاً قليلاً هذه الليلة، ولكنه أنبأني بكل ما يعرفه. لقد عُهِدَ بأمر حيّنا إلى جاسوس جديد. وقد يكون ثمة جواسيس جدد غيره، ولكنه لا يعرف غير واحد منهم.»

فقالت مدام دوفارج رافعةً حاجبيها في انطباعة تجارية باردة: «حسناً! أمن الضروري أن ندوّن اسمه في الثبت؟ ماذا يدعون هذا الرجل؟»

ـ «إنه إنكليزي.»

ـ «ذلك أفضل. ما أسمهُ؟»

ـ «بارساد» قال دوفارج ذلك لافظاً الاسم بنبرة فرنسية. ولكنه كان شديد الحرص على أن ينقله إليها في دقة حتى لقد تهجّاه بعد ذلك تهجية صحيحة.

وكررت السيدة: «بارساد. حسن، واسمه الأول؟»

ـ «جون.»

فكررت السيدة بعد أن غمغمت بذلك الاسم مرةً بينها وبين نفسها: «جون بارساد. وشكله... هل تعرفه؟»

ـ «في نحو الأربعين من عمره؛ طوله خمسة أقدام وتسعة إنشات تقريباً. أسود الشعر؛ داكن البشرة؛ جميل الطلعة على العموم؛ داكن العينين؛ ذو وجه نحيل طويل شاحب اللون. وأنف أعقف ولكنه غير مستقيم إذ إن به مَيَلاً غريباً نحو الخد الأيسر. وإذن فالملامح التي تغلب على وجهه شريرة مشؤومة.»

فقالت السيدة ضاحكة: «يا إلهي. هذه لوحة فنية. سوف ندوّن اسمه غداً.»

وانتهيا إلى الخمارة الموصدة (فقد كان الليل قد انتصف). وفي

الحال اتخذت مدام دوفارج مجلسها إلى المنضدة، وأنشأت تعدّ القطع النقدية التي اجتمعت خلال غيابها، وتفحص محتويات الخمارة. ثم ألقت نظرة على «النفدات» المدوّنة في الدفتر، ودوّنت «نفدات» أخرى من عندها، مدققةً في مراجعة الحساب الذي قدَّمه إليها الخادم بكل الوسائل الممكنة، وأذنت له في أن يأوي إلى فراشه، ثم أفرغت الوعاء مما اجتمع فيه من القطع النقدية، كرةً أخرى، وأخذت تعقد منديلها عليها عُقداً مستقلةً صيانةً لها بقيةَ ساعات الليل. وفي تلك الأثناء كان مسيو دوفارج يذرع المكان جيئة وذهوباً، وغليونه في فمه، مبدياً الإعجاب والرضا، ولكنْ من غير أن يتدخّل البتة. والواقع أن تلك الحال غلبت عليه في قضايا العمل والشؤون المنزلية فهو يذرع هذا الميدان، جيئة وذهوباً، طوالَ الحياة.

كان الليل قائظاً، وكان هواء الخمارة الموصدة المحاطة بمثل تلك البيوت البالغة القذارة حبيساً كريه الرائحة. ولم تكن حاسة الشمّ عند مسيو دوفارج مرهفة بأية حال. ولكن عبق الخمر التي اشتمل عليها المكان كان أقوى منه في أيما وقت سلف، وكذلك عبق الـ «الروم» والـ «براندي» وبزر اليانسون. ونفخ مقصياً ذلك العبق المركّب عنه، وأزاح غليونه المستنفَد.

قالت السيدة رافعة بصرها فيما هي تعقد القطع النقدية: «أنت متعَب. ليس ههنا غير الروائح المألوفة.»

فأقرّ زوجها بما ذهبت إليه قائلاً: «أنا متعب، بعض الشيء.»

فقالت السيدة التي لم تسمّر عينيها على الحسابات كما سمّرتها الليلة، وإن تكن قد وجّهت إليه نظرة أو نظرتين: «ولكنك مكتئب بعض الشيء أيضاً. آه، الرجال، الرجال!»

فقال دوفارج: «ولكن يا عزيزتي!»

فكررت السيدة هازّة رأسها في عزم: «ولكن يا عزيزي! ولكن يا عزيزي! إنك مخلوع الفؤاد هذه الليلة، يا عزيزي!»

فقال دوفارج وكأن فكرة ما قد نُزعت من صدره نزعاً: «حسناً، إن الوقت قد طال.»

فكررت زوجته: «نعم، إن الوقت قد طال. ولكن دلني على شأن من الشؤون الخطيرة لم يتطاول الوقت فيه؟ إن الانتقام والاقتصاص يقتضيان زمناً طويلاً. هذه هي القاعدة.»

وقال دوفارج: إن قتل المرء بالصاعقة لا يحتاج إلى زمن طويل.»

فتساءلت السيدة في هدوء: «ولكن ما المدة التي يقتضيها صُنع الصاعقة وادّخارها؟ قل لي!»

ورفع دوفارج رأسه في تفكير وكأن في ذلك شيئاً يستدعي التفكير حقاً.

وقالت السيدة: «إن الزلزال لا يحتاج إلى وقت طويل لكي يبتلع مدينة. أليس كذلك؟ ولكن قل لي ما المدة التي تحتاج إليها الطبيعة حتى تُعدّ الزلزال؟»

فأجاب دوفارج: «مدة طويلة، في ما أحسب.»

ـ «ولكن ما إن يتم إعداده حتى يقع، ويسحق كل شيء أمامه سحقاً. وهو أثناء ذلك رهن الأعداد أبداً، وإن لم يُرَ ولم يَسْمع. هذا هو عزاؤك عما أنت فيه. فاذكر ذلك.»

وعقدت إحدى العقد، وعيناها تقذفان بالشرر وكأنها تخنق عدوّاً.

وقالت السيدة باسطةً يدها اليمنى للتوكيد: «أقول لك إنها وإن طال طريقها سائرةٌ على الدرب ولا بدَّ أن تصل. أقول لك إنها تنكفئ، ولكن لن تتوقف أبداً. أقول لك إنها لا تفتأ تتقدّم. انظر حواليك وفكِّر في حيوات جميع الناس الذين تعرفهم، وتأمل في وجوه جميع الناس الذين تعرفهم، واعتبر الغيظ والسخط اللذين يعمل إخواننا على إشاعتهما، في ثقة متعاظمة، ساعة بعد ساعة. أمن الممكن أن تستمرّ هذه الأشياء؟ إني أتحداك.»

فقال دوفارج وقد وقف أمامها منكساً رأسه بعض الشيء عاقداً يديه خلف ظهره، مثل طالب سهل القياد، حسن الانتباه بين يدي مدرس يعلّمه أصول الإيمان: «يا زوجتي الباسلة. أنا لا أشك في هذا كله. ولكني أقول إنه قد تأخّر كثيراً، ومن الجائز ـ أنتِ تعرفين، يا زوجتي، من الجائز ـ أن لا ينحسر عنا هذا العهد ونحن على قيد الحياة.»

ـ «حسناً وأيّ بأس في ذلك؟» قالت السيدة هذا، عاقدةً عقدة أخرى، وكأنما كان ثمة عدوّ آخر تخنقه.

فقال دوفارج هازاً كتفيه هزةً نصف متشكّية ونصف معتذرة: «حسناً! إنا لن نرى النصر بأعيننا.»

فأجابت زوجته باسطةً ذراعها في قوة: «ولكنا في هذه الحال نكون قد أسهمنا في تحقيق النصر. إن شيئاً مما نفعله لن يذهب أدراج الرياح. وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أننا سنشهد النصر. ولكن حتى لو لم يتم ذلك، حتى لو كنت أعرف أنه لن يتمّ، فدلّني على عنق رجل ارستقراطيّ طاغية أقدِمْ على...»

ثم إن السيدة أطبقت أسنانها إطباقاً محكماً، وعقدت عقدةً فظيعة حقاً.

وصاح دوفارج محمرّاً بعض الشيء وكأنه شعر أنه مشحونٌ جُبناً: «كفى. أنا كذلك، يا عزيزتي، لن يثنيني عن الغاية شيء.»

ـ «أجل، ولكنّ فيك ناحية ضعف تجعلك، بعض الأحيان، في حاجة إلى أن ترى ضحيتك وفرصتك لكي تثبت قدميك في الميدان. ثبّت قدميك بدون ذلك. وحين يجدّ الجِدّ أطلِقْ نمراً وشيطاناً. ولكنْ فيما أنتَ تنتظر الساعة لفاصلة أبقِ النمر والشيطان مغلولين ـ في الخفاء ـ ولكن على استعداد دائماً.»

وأكدت السيدة ختام هذه النصيحة بأن ضربت منضدتها بعَقْد دراهمها وكأنما تريد أن تسحق دماغها، ثم طوت المنديل الثقيل تحت

ذراعها على نحوٍ هادئ رزين، ولاحظت أن أوان الإيواء إلى الفراش قد حان.

حتى إذا كانت ظهيرة الغد، اتخذت المرأة الرائعة مجلسها المعهود وأنشأت تحبك في جدّ بالغ. وكانت إلى جانبها وردة ترنو إليها بين الفينة والفينة، ولكن من غير أن يكسر ذلك شيئاً من صرامة وجهها المألوفة وما يرين عليه من انطباعة المنهمك في العمل. وكان قد انتثر في أرجاء الخمارة بضعة زبائن بين شارب وغير شارب، وقائم وقاعد. وكان النهار قائظاً جداً، وكانت أكوام الذباب، التي حاولت أن تُخضع جميع الأقداح الصغيرة اللزجة القائمة أمام السيدة لأبحاثها واستطلاعاتها المغامرة، قد هوت صرعى في القعر. ولم يترك موتها أثراً ما في جماعة الذباب الأخرى المتنزهة في الخارج، والتي كانت تنظر إليها بأقصى البرود (وكأنما هي فيلة لا ذباب، أو شيء آخر أبعد ما يكون عن الذباب) حتى لقيت المصير نفسه. ما أكسل الذباب وما أغفله! ـ لعل أهل البلاط الملكي لم يكونوا أقلّ كسلاً وغفلةً من جماعة الذباب في ذلك اليوم الصائف المشمس.

ودخل باب الحانة شخص ألقى على مدام دوفارج ظلاً استشعرت أنه جديد. فوضعت حبكها جانباً، وشرعت تشكّ وردتها في غطاء رأسها قبل أن ترفع ناظريها إلى القادم.

ومن عجب أنها ما كادت ترفع الوردة إلى رأسها حتى كفّ الزبائن عن الكلام، وجعلوا ينسحبون من الحانة واحداً إثر واحد.

وقال الوافد الجديد: «طاب يومك، يا سيدتي.»

ـ «طاب يومك، يا سيدي.»

قالت ذلك في صوت عالٍ ولكنها أضافت بينها وبين نفسها فيما استأنفت حبكها: «هاه! طاب يومك، يا رجلاً في نحو الأربعين، طوله خمسة أقدام وتسعة إنشات تقريباً؛ أسود الشعر؛ داكن البشرة؛ جميل الطلعة على العموم؛ داكن العينين؛ ذا وجه نحيل طويل شاحب اللون،

وأنف أعقف ولكنه غير مستقيم فيه مَيَلٌ غريبٌ نحو الخدّ الأيسر، مما يخلع عليه انطباعة شريرة مشؤومة! طاب يومك!»

ـ «هل تتكرمين فتقدمين إليّ قدحاً صغيراً من الكونياك المعتق، وجرعة من الماء البارد العذب، يا سيدتي؟»

فامتثلت السيدة أمره في لطف.

ـ «هذا كونياك رائع، يا سيدتي.»

كانت تلك أول مرة أطري فيها ذلك الكونياك على هذا النحو. وكانت مدام دوفارج تعرف من سوابقه ما يجعلها في نجوة من أن تُخدع. وعلى أية حال، فقد قالت إن الكونياك لا يستحق كل هذا الثناء، واستأنفت حبكها. وراقب الوفد أصابعها بضعَ لحظات، واغتنم الفرصة فأجال طرفه في أرجاء الخمارة.

ـ «أنتِ تحبكين في حذق عظيم، يا سيدتي.»

ـ «لقد تعودتُ ذلك.»

ـ «والنمط جميل أيضاً!»

فقالت السيدة ناظرة إليه في ابتسامة: «تظنّ ذلك؟»

ـ «من غير شك. هل لي أن أسأل لأيّ شيء تقومين بهذا الحبك؟»

ـ «قتلاً للوقت،» قالت السيدة ذلك وهي لا تزال تنظر إليه في ابتسامة، فيما انطلقت أصابعها في خفة ورشاقة.»

ـ «لا للانتفاع بالعمل؟»

ـ «جائز أن يكون هذا وجائز أن يكون ذاك. ومن يدري، فقد أجد له فائدة في يوم من الأيام. فإذا كان ذلك... حسناً،» قالت مدام دوفارج هذا وحبست نفسَها وأومأت برأسها في ضرب من الدلال المقطب. ثم أردفت: «حسناً، فسوف أفيد منه.»

كان شيئاً رائعاً. ولكن ذوق سان انطوان بدا وكأنه لا يُسيغ وجود وردة على رأس مدام دوفارج. كان رجلان قد دخلا على انفراد، وكانا

على وشك أن يطلبا حاجتهما من الخمر عندما وقعت أعينهما على تلك الظاهرة الجديدة فما كان منهما إلا أن اضطربا وتلعثما، وتظاهرا بأنهما يجيلان الطرف في أرجاء المكان بحثاً عن صديق لم يكن هناك، ثم مضيا لسبيلهما. والواقع أن أياً من الذين كانوا في الحانة عندما ولجها هذا الزائر لم يبقَ فيها. لقد انسحبوا كلهم. وكان الجاسوس قد فتح عينيه جيداً، ولكنه لم يهتدِ إلى إمارة ما. لقد قتلوا الوقت على نحو مُعدِم، عَرَضيّ، لا هدف له ـ نحوٍ طبيعي جداً، ليس إلى انتقاده من سبيل.

وفكَّرت السيدة، متفحصةً شغلها فيما كانت أصابعها منطلقة في الحبك، واتجه بصرها نحو الرجل الغريب: «جون. إبقَ فترة كافية من الوقت، وعندئذ أحبكُ لفظة «بارساد» قبل أن تذهب.»

ـ «ألكِ زوج، يا سيدتي؟»

ـ «نعم.»

ـ «وأولاد؟»

ـ «ليس عندي أولاد.»

ـ «والسوق هل تبدو كاسدة؟»

ـ «السوق كاسدة جداً. إن الناس في غاية الفقر.»

ـ «آه، يا للناس التعساء، البؤساء! إنهم مظلومون أيضاً، إلى أبعد الحدود كما تقولين.»

ـ «كما تقول أنتَ،» كذلك أجابت السيدة، مصححةً له، حابكةً في مهارة شيئاً إضافياً إلى جانب اسمه لا يبشّره بخير ما.»

ـ «أرجو عفوكِ. إني أنا الذي قلتُ ذلك من غير شك. ولكن من الطبيعي أن تفكري بمثل ذلك أيضاً.»

فأجابت مدام دوفارج في صوت عال: «أنا أفكر؟ إن عندي وعند زوجي من المهام في هذه الخمارة ما يجعلنا لا نجد متسعاً للتفكير. كل ما نفكر فيه هنا هو كيف نكسب الرزق. هذا هو الموضوع الذي نفكّر فيه

نحن، وأنه ليشغلنا منذ الصباح إلى المساء إلى درجة تحول بيننا وبين إزعاج رأسينا بالتفكير في شؤون الآخرين. أنا أفكِّر في قضايا الآخرين؟ لا. لا.»

كظم الجاسوس خيبته ـ وهو الذي ما قدم إلى هناك إلا ليلتقط ما يستطيع العثور عليه أو اختلاقه من فتات الأخبار ـ فلم يسمح للخيبة بأن تبيِّن على وجه المشؤوم. ثم إنه اتخذ موقف المتغزل المُسامر، مسنداً مرفقه إلى منضدة مدام دوفارج الصغيرة، مرتشفاً الكونياك حيناً بعد حين.

ـ «إن مصرع غاسبار مؤلم حقاً، يا سيدتي. آه، مسكين غاسبار!» قال ذلك وتنهد في إشفاق عظيم.

فأجابت السيدة، في فتور واستخفاف: «يا إلهي، إذا استعمل الناس المُدى لمثل هذه الأغراض فينبغي أن يدفعوا الثمن. لقد كان يعرف، قبل أن يقدم على فعلته، أيّ ثمن سيكلفه ذلك المطلبُ العزيز. ولقد دفع الثمن.»

فقال الجاسوس وقد خفض صوته الناعم إلى طبقة توحي بالثقة معبراً في كل عضلة من عضلات وجهه الشرير عن إحساس ثوريّ مكلوم: «أعتقد أن أهل هذا الحيّ قد استبدّ بهم الإشفاق والغضب حين تناهى إليهم نبأ ذلك الرجل المسكين؟ فنحن نتحدث في ما بيننا.»

فسألته السيدة في برود: «أتظن ذلك؟»

ـ «أليس هذا صحيحاً؟»

فقالت مدام دوفارج: «هوذا زوجي!»

وفيما كان الخمّار يدخل إلى الحانة حيّاه الجاسوس رافعاً قبعته قائلاً بابتسامة متودّدة: «طاب يومك يا جاك!»

فأجفل دوفارج وحدّق إليه.

وكرّر الجاسوس: «طاب يومك يا جاك!» ولكن في ثقة أضعف من ذي قبل، وابتسامة لم يعد في وسعها، تحت ذلك التحديق، أن تكون طَلْقة سمحة.

فقال الخمّار: «أنت تتوهمني شخصاً آخر. هذا ليس اسمي. أنا أرنست دوفارج.»

فقال الجاسوس في بهجة ولكن في ارتباك أيضاً: «لا فرق. طاب يومك!»

فأجاب دوفارج في جفاء: «طاب يومك!»

ـ «كنت أقول للسيدة، التي سعدتُ بالتحدث إليها قبيل دخولك، إني علمتُ بأن موجة قوية من العطف والغضب اجتاحت حيّ سان انطوان، بسبب المصير التعس الذي انتهى إليه غاسبار المسكين.»

قال دوفارج هازاً رأسه: «لم يخبرني بذلك أحد. أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك.»

حتى إذا قال هذا استدار حول المنضدة الصغيرة، ووقف واضعاً يده على ظهر كرسي زوجته، ناظراً من فوق ذلك الحاجز إلى الشخص الذي كان هو وزوجته يواجهانه، والذي كان أيّ منهما يمكنه أن يطلق عليه النار وهو راضٍ عن ذلك أعظم الرضا.

ولم يغيّر الجاسوس، المتمرّس بصناعته، مسلكه غير الواعي، ولكنه استنزف قدح كونياكه الصغير، وتناول جرعة من الماء القراح، وطلب قدحاً آخر من الكونياك. وملأت مدام دوفارج القدح له، واستأنفت حبكها من جديد، وهي تهمهم فوقه بأغنية صغيرة.

ولاحظ دوفارج: «يبدو أنك تعرف هذا الحيّ معرفة جيدة، بل إنك لتعرفه أحسن مما أعرفه أنا.»

ـ «على الاطلاق. ولكني أرجو أن أعرفه معرفة أفضل. أنا مهتم أعمق الاهتمام بحالة سكانه البؤساء.»

فهمهم دوفارج: «هَهْ!»

وتابع الجاسوس حديثه: «إن سعادتي بالتحدث إليك يا مسيو دوفارج تعيد إلى مخيلتي ذكريات اقترنت باسمك.»

فقال دوفارج في كثير من اللامبالاة: «حقاً!»

ـ «أجل، حقاً. فعندما أطلق سراح الدكتور مانيت، توليت أنت، خادمه القديم، العناية بأمره، على ما أعرف. لقد أسلِم إليك. وهكذا ترى أني مطلع على تلك الظروف.»

فقال دوفارج: «تلك هي الحقيقة من غير شك.» وكانت امرأته قد أوعزت إليه، بلمسة عابرة من مرفقها فيما هي تحبك وتتغنى، بأن يجيب، ولكن في إيجاز دائماً.

وقال الجاسوس: «وإليك جاءت ابنته، ومن رعايتك نقلتْهُ مصحوبة بسيد أسمر حسن البزّة. ماذا يسمونه؟... يعتمر لمّة مستعارة صغيرة... لوري... من مصرف تلسون وشركائه... إلى إنكلترة.»

فكرر دوفارج: «تلك هي الحقيقة.»

فقال الجاسوس: «ذكريات ممتعة جداً! لقد عرفت الدكتور مانيت وابنته في إنكلترة.»

فقال دوفارج: «نعم؟»

فقال الجاسوس: «أنت لا تسمع كثيراً عنهما، الآن؟»

فأجابه دوفارج: لا.»

وهنا تدخلت السيدة في الحديث، رافعةً بصرها عن عملها: «في الواقع أننا لا نسمع عنهما شيئاً البتة. لقد تلقينا نبأ وصولهما سالمين ورسالةً أخرى، أو ربما رسالتين أخريين. ولكن منذ ذلك الحين اتخذا سبيلهما في الحياة، واتخذنا نحن سبيلنا، ثم لم نتراسل قطّ.»

فقال الجاسوس: «تماماً، يا سيدتي. إنها سوف تتزوج.»

فرددت السيدة: سوف؟ كانت جميلة إلى حدّ يجعل المرء يعجب كيف لم تتزوج منذ عهد بعيد. أنتم معشرَ الإنكليز باردون، على ما يبدو لي.»

ـ «أوه! أنتِ تعرفين إني إنكليزي.»

فأجابت السيدة: «ألاحظ أن لسانك إنكليزي. وكما يكون اللسان يكون الإنسان.»

ولم يرتح إلى معرفتها هويته. ولكنه تقبّل المسألة في رحابة صدر وتجاهلها في ابتسامة. وبعد أن ارتشف آخر جرعة من الكونياك أضاف: أجل، إن مس مانيت سوف تتزوج. ولكنها لن تتزوج فتى إنكليزياً، بل فتىً فرنسيّ المولد مثلها. وعلى ذكر غاسبار (آه، مسكين غاسبار! لقد كانت نهايته وحشية! وحشية!) أقول إن العجيب في الأمر أنها سوف تتزوج ابن أخي المركيز، الذي من أجله نُصب غاسبار على تلك الأعواد البالغ ارتفاعها عشرات الأقدام، وبكلمة ثانية إنها ستتزوج المركيز الحاليّ. ولكنه يحيا في إنكلترة مجهول النسب. فهو ليس مركيزاً هناك. إنه مستر تشارلز دراني. إن دولنيه هو الاسم الذي يُطلق على أسرة أمه.»

وحبكت مدام دوفارج حبكاً موصولاً، ولكن النبأ هزّ زوجها على نحوٍ واضح. ولقد حاول أن يخفي اضطرابه، وهو واقف خلف المنضدة الصغيرة، بأن يقدح عود ثقاب ويشعل غليونه، ولكن إمارات القلق ظلّت بادية على وجهه وعلى يده المرتعدة. ولو عجز الجاسوس عن ملاحظة ذلك أو عن تسجيله في ذهنه إذن لما كان جاسوساً على الإطلاق.

حتى إذا وُفق بارساد إلى هذا الصيد المُفرد، مهما يكن حظه من الخطَر، وبدا له أن أحداً من الزبائن لن يأتي ليساعده على الفوز بصيد آخر، أدى ثمن ما شرب واستأذن بالانصراف مغتنماً هذه الفرصة ليقول، في كياسة، إنه يرجو أن تسعده الأيام بالاجتماع إلى السيد دوفارج وزوجته كرةً أخرى. وبعد مغادرته الحانة ظل الزوج والزوجة بضع دقائق على الحال التي تركهما عليها، خشيةً أن يفاجئهما بعودته.

ثم قال دوفارج، في صوت خافت، خافضاً بصره نحو زوجته، وقد وقف يدخن ويده على ظهر كرسيها: «هل يمكن أن يكون هذا الذي قاله عن الآنسة مانيت صحيحاً؟»

فأجابته السيدة، رافعةً حاجبيها بعض الشيء: «أغلب الظن أن الخبر

ـ في الصيغة التي أورده بها ـ غير صحيح. ولكنه قد يكون، في ذاته، صحيحاً.»

وقال دوفارج: «وإذا كان. . .؟» ولم يتم كلامه.

فكررت زوجته: «إذا كان؟»

ـ «إذا كان صحيحاً، وإذ قدّر لنا أن نعيش حتى نشهد النصر، فإني أرجو، لخيرها، أن تُبقي الأقدار زوجها خارج فرنسة.»

فقالت مدام دوفارج في هدوئها المعهود: «إن قَدَرهُ سوف يحمله إلى حيث ينبغي أن يذهب، ولسوف يقوده إلى النهاية التي ينتهي بها أجله. هذا كل ما أعرفه.»

فقال دوفارج وكأنه يتوسل إلى زوجته محاولاً حملها على أن تُقرّ كلامه: «ولكن من العجيب جداً ـ أجل، على الأقل، أليس عجيباً جداً، بعد كل ما أظهرناه من إشفاق على أبيها وعليها، أن يحكم على زوجها بالهلاك فتضيف يدك اسمه، في هذه اللحظة، إلى اسم ذلك الكلب الجهنمي الذي غادرنا الآن؟»

فأجابته زوجته: «سوف يقع ما هو أعجب من هذا حين نبلغ ذلك اليوم. لقد دوّنت اسميهما هنا من غير ريب. وإنما فعلتُ ذلك لأنهما جديران به. وفي هذا القدر كفاية.»

ولم تكد تنطق بهذه الكلمات حتى طوت حبكها، ونزعت الوردة عن المنديل الذي يطوق رأسها. وسواء أكان سان انطوان قد أدرك إدراكاً غريزياً بأن تلك الحلية البغيضة قد رُفعت، أو أن سان انطوان كان يتوقع رفعها، فالذي لا ريب فيه أن القديس آنس في نفسه الشجاعة، فعاد إلى الحانة بعد وقت قصير، واستردت الحانة مظهرها المألوف.

وفي المساء، حين يخرج ذلك الحيّ من إهابه فيجلس سكانه فوق عتبات البيوت، وحوافي النوافذ، ويهرعون إلى الأفنية وزوايا الشوارع القذرة، إلتماساً لنسمة من الهواء، كان من دأب مدام دوفارج أن تحمل حبكها بيدها وتنتقل من مكان إلى مكان، ومن جَمع إلى جمع: مبشرةً

ـ وكان ثمة كثير مثلها ـ يحسن العالم صنعاً بأن لا ينجب نظيراً لها كرةً أخرى. كانت النسوة كلهن يحبكن. كن يحبكن أشياء قد لا تنفع. ولكن العمل الميكانيكي كان عوضاً ميكانيكياً عن الطعام والشراب. كانا الأيدي تتحرك نيابةً عن الأضراس والأجهزة الهضمية. ولو أن تلك الأصابع المعروقة التزمت السكون إذن لاستشعرت المعد ألم الجوع على نحو أقوى.

ولكنْ فيما كانت الأصابع تتحرك، كانت الأعين تتحرك، وكذلك الأفكار. وبينا كانت مدام دوفارج تنتقل من زمرة إلى زمرة كانت الثلاثة جميعاً(*) تتحرك على نحو أسرع وأكثر ضراوة بين العُقد الصغيرة التي عقدتها النسوة اللائي تحدثت إليهن ثم خلفتهن وراءها.

ودخّن زوجها غليونه عند باب الخمّارة، مُتبعاً نَظَرهُ إياها في إعجاب وقال: «امرأة عظيمة! امرأة قوية! امرأة جليلة! امرأة جليلة مروّعة!»

خيم الظلام، وقُرعت نواقيس الكنائس، ودقت الطبول العسكرية النائية في ساحة القصر الملكي، بينما راحت النسوة يحبكن ويحبكن. وأحدقت الظلمة بهنّ. ولكنّ ظلمةً من نوع آخر كانت تحدق بفرنسة كلها من غير شك لتذيب النواقيس التي كانت تُقرع الآن، بعذوبة، في عشرات من الأبراج الكنسية، وتحوّلها إلى مدافع مُرعدة، ولتجعل تلك الطبول العسكرية تقرع لكي تغرق صوتاً بائساً كان في تلك الليلة كليّ القدرة كصوت القوة والخصب، والحرية والحياة. لقد كانت هذه الظلمة تحدق بالنسوة اللواتي يحبكن ويحبكن إلى حدّ جعلهن هن أنفسهن يطوّقن بناءً لما يشيّد بعد(**) حيث سيقدر لهن أن يجلسن فيحبكن ويحبكن ويحصين الرؤوس المتساقطة.

(*) يقصد الإصبع والعين والفكر. (المعرب)

(**) يقصد المقصلة أو «الغيوتين». (المعرب)

ـ 17 ـ

ذات ليلة

لم تغرب الشمس، عند زاوية «سوهو» الهادئة، في روعة أزهى من روعتها في إحدى الأمسيات التي لا تنسى، حين جلس الدكتور مانيت وابنته في ظل شجرة الدلب. ولم يطلع القمر على لندن العظيمة في إشراق أكثر نضارة ولطفاً مما فعل تلك الليلة عندما وجدهما ما يزالان قاعدين تحت الشجرة، فتألق على وجهيهما من خلال أوراقها.

كان اليوم التالي قد حُدد موعداً لزواج لوسي. وكانت قد خصّت أباها بهذه الليلة الأخيرة، فخلا كل منهما إلى الآخر تحت ظل شجرة الدلب.

ـ «أنت سعيد يا والدي العزيز؟»

ـ «سعيد جداً، يا صغيرتي.»

وكانا قد تحدثا قليلاً، على الرغم من أنهما قضيا هناك مدة طويلة. وفي الفترة التي سبقت الغروب لم تشغل نفسها بعملها المألوف، ولم تتل على مسمعه شيئاً. لقد قامت بالمهمتين معاً، وهي إلى جانبه تحت الشجرة، مرات ومرات. ولكن هذه الساعة لم تكن مثل أي من أخواتها، وما كان في ميسور شيء أن يجعلها كذلك.

ـ «وأنا أيضاً سعيدة جداً هذه الليلة، يا أبي العزيز. أنا سعيدة من أعماق قلبي بالحب الذي باركته السماء أعظم المباركة: حبي لتشارلز،

وحب تشارلز لي. ولكن إذا قُدر لحياتي أن لا تظل وقفاً على خدمتك، أو إذا قدّر لزواجي أن يفصلني عنك، ولو مسافة بضعة شوارع، فعندئذ يغمرني من الشقاء وتعنيف الذات ما لا أستطيع أن أصفه لك. حتى والحال كما هي. . .»

وخانها صوتها فطوقت عنقه، في ضوء القمر المحزون، ووضعت وجهها على صدره، في ضوء القمر المحزون أبداً، شأن نور الشمس نفسه، شأن النور الذي ندعوه الحياة الإنسانية، عند إشراقه وانطفائه.

ـ «يا أعز الأعزاء! هل تستطيع أن تخبرني، هذه المرة الأخيرة، إنك واثق من أنه لن يكون في أي من عواطفي الجديدة، ومهامي الجديدة، ما يفصل بيننا أبد الدهر؟ أنا أعلم أن ذلك لن يكون أبداً ولكن هل تعلم أنت ذلك؟ هل تحس في أعمق أعماقك أنك واثق من ذلك؟»

ـ «فأجابها والدها في ثقة مبتهجة لم يستطع أن يتظاهر بها إلا بشق النفس: «أنا على أتم الثقة، يا حبيبتي.» ثم أضاف وهو يقبلها في حنان: «وفوق ذلك فإن مستقبلي ليبدو أكثر إشراقاً، يا لوسي، من خلال زواجك، مما كان يمكن أن يكون ـ بل مما كان في أيما وقت من الأوقات ـ بدونه.»

ـ «لشد ما أرجو أن يكون الأمر كذلك، يا أبتِ!. . .»

ـ «صدقيني، يا حبيبتي! إنه لكذلك من غير شك. وإنه لطبيعي جداً وواضح جداً أن يكون كذلك. إنك، بوصفك نضرة العود عامرة القلب بالإخلاص، لا تستطيعين أن تدركي أتم الإدراك مبلغ ما كنت استشعره من القلق عليك والخوف من أن تضيعي شبابك. . . .»

ومدت يدها نحو شفتيه، ولكنه أمسك بها في يده وكرر الكلمة: «. . . تضيعي شبابك، يا صغيرتي، وتُقصَيْ عن سنة الأشياء الطبيعية، من أجلي. إن غيرتك وإيثارك لا يستطيعان أن يدركا كم فكّرت في هذا. ولكن حسبك أن تسألي نفسك كيف يمكن لسعادتي أن تتم ما دامت سعادتك منقوصة؟»

ـ «لو لم تقع عيناي قط على تشارلز، يا أبت، لتحققت بأكمل السعادة معك.»

وابتسم لإقرارها اللاواعي بأنها كانت خليقة بأن تكون غير سعيدة بدون تشارلز، بعد أن قُدر لها أن تراه، ثم قال: «لقد رأيته يا صغيرتي. وإنه تشارلز. ولو لم تقع عيناك على تشارلز إذن لوقعتا على شخص آخر. وإذا لم تقعا على أيما شخص غيره فعندئذ أكون أنا السبب، وعندئذ يبسط الجزء المظلم من حياتي ظلّه لا عليّ فحسب، بل عليك أيضاً.»

وكانت هذه أول مرة، باستثناء يوم المحاكمة، سمعته يشير فيها إلى محنته القاسية. وأحسّت، فيما كانت كلمته ترن في أذنيها، بشعور غريب جديد. ولقد ظلّت تذكر هذا فترة طويلة بعد ذلك.

وقال طبيب «بوفيه» رافعاً يده نحو القمر: «انظري! لقد نظرتُ من شباك سجني يوم لم أكن أطيق ضوءه. لقد نظرت إليه يوم كان مجرد التفكير بأنه يشرق على ما فقدتُهُ يعذبني أشد التعذيب حتى لأنطح برأسي جدران السجن. لقد نظرت إليه في حال من كلال الذهن والوسن البالغين بحيث لم أفكِّر في شيء غير عدد الخطوط الأفقية التي أستطيع أن أرسمها حوله، وهو بدر، وعدد الخطوط العمودية التي أستطيع أن أقاطعها بها.» وصمت لحظة ثم أضاف، وكأنه يخاطب نفسه، على طريقته، ناظراً إلى القمر: «كان عددها عشرين أفقياً وعمودياً، كما أذكر، وكان عسيراً عليّ أن أقحِم الخط العشرين بينها.»

وتعاظمت الانتفاضة الغريبة التي أخذَتْها وهي تسمعه يتحدث عن أيامه تلك بسبب من إسهابه في الكلام. ولكن لم يكن ثمة ما يصدمها في طريقة إشارته إلى تلك الأيام. لقد بدا وكأنه لا يقصد إلى أكثر من مقارنة ابتهاجه وهناءته الحاليين بالآلام الراعبة التي تقضّت.

ـ «لقد نظرتُ إليه مفكراً آلاف المرات في الجنين الذي أُقصِيتُ عنه. ألا يزال حياً؟ أوُلِد حياً أم أن الصدمة التي أصابت أمه المسكينة قضت عليه؟ أهو صبيّ يستطيع في يوم من الأيام أن يثأر لأبيه؟ (لقد

عرفتُ فترة في السجن اشتدت خلالها رغبتي في الثأر إلى حد لا يطاق.) أم هو صبي لن يقدّر له أن يعرف قصة أبيه أبداً، صبي قد يعيش ليتأمل حتى في إمكانية اختفاء والده برغبته وبتدبير منه؟ أم هي بنتٌ سوف تنمو يوماً وتصبح امرأة؟»

وازدادت منه قرباً وطبعت قبلة على خده ويده.

ـ «لقد تصورتُ ابنتي وكأنها قد نسيتني نسياناً كاملاً ـ أو على الأصح وكأنها جاهلةٌ امري، خالية الذهن مني بالكلية. لقد حسبت سنوات عمرها، سنة بعد سنة. لقد رأيتها تتزوج من رجل لا يعرف شيئاً من مصيري. فقد كانت ذكراي ميتة في أذهان الأحياء، وكان مكاني بين أهل الجيل التالي شاغراً.»

ـ «أبي! إن مجرد السماع بأن مثل هذه الأفكار قد راودتك حول طفلة لم توجد قط ليحزّ في فؤادي وكأنني كنت أنا تلك الطفلة.»

ـ «أنت، لوسي؟ إذا كانت هذه الذكريات تنطلق بيننا وبين القمر في هذه الليلة الأخيرة فهي إنما انبثقت من العزاء والبرء اللذين حملتِهما إليّ. ما الذي قلته منذ لحظة؟»

ـ «إنها لم تعرف شيئاً عنك. إنها لم تُعنَ قط بأمرك.»

ـ «هكذا! ولكنْ في الليالي القمراء الأخرى، حين كان الحزن والصمت يهيجان نفسي على نحو آخر، حين كانا يوقعان في ذاتي شيئاً أشبه بإحساس حزين بالأمن، على قدر ما تستطيع عاطفة قوامها الألم أن تفعل ـ تخيّلتها مقبلة عليّ في محبسي، قائدة إياي خارج السجن، حيث أتنشق نسيم الحرية. وكثيراً ما رأيت صورتها في ضوء القمر، كما أراك الآن. بيد أني لم يقدر لي أن أضمها بين ذراعي قط. لقد وقفت بين النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية وبين الباب. ولكنك تدركين أن هذه ليست هي الطفلة التي أتحدث عنها؟»

ـ «إن الوجه لم يكن. ولكن الـ. . . الصورة، الخيال؟»

ـ «لا. كان ذلك شيئاً آخر. لقد وقف أمام حاسة بصري المضطربة، ولكنه لم يتحرك قط. إن الطيف الذي تعقبه ذهني كان طفلة أخرى أكثر واقعية. ولست أعرف، عن شكلها الخارجي، أكثر من أنها كانت مثل والدتها. ولقد كان لذلك الطيف الآخر مثل هذا الشبه أيضاً ـ شأنك أنت ـ ولكنه لم يكن مماثلاً. هل تستطيعين أن تتابعي حديثي، يا لوسي؟ أظنك قادرة على ذلك، في عسر؟ ويخيّل إليّ أن على المرء أن يكون قد ابتلي بالسجن المنفرد حتى يفهم هذه الفروق المشوّشة.»

وعجزت رزانته وهدوؤه عن أن يحولا دون جمود الدم في عروقها، فيما حاول أن يشرح حالته القديمة على هذا النحو.

ـ «وفي تلك الحال الأحفل بالأمن والهدوء تخيلتُها، في ضوء القمر، مقبلة عليّ، منطلقة بي إلى الخارج لتريني أن بيتها الزوجي حافل بالذكريات الحبيبة عن أبيها المفقود. وكانت صورتي في حجرتها، وكنت أنا في صلواتها. كانت حياتها فعالة، بهيجة، نافعة، ولكن قصتي البائسة خالطت ذلك كله وتخللته.»

ـ «لقد كنتُ أنا تلك الطفلة يا أبي. لم أكن أتمتع بنصف ما تمتعت به من بِرّ وحنان، ولكني ما كنت لأقلّ عنها حباً.»

وقال طبيب بوفيه: «ولقد أرتني أولادها، وكانوا قد عرفوا قصتي، ولُقنوا أن يرثوا لي. كانوا لا يجتازون بسجن من سجون الدولة إلا ابتعدوا عن جدرانه العابسة، ورفعوا أبصارهم إلى قضبانه الحديدية، وأنشأوا يتحدثون في همس. ولكنها لم تستطع قط أن تحررني من أساري. لقد خُيل إليّ أنها كانت تعيدني دائماً إلى محبسي بعد أن تريني هذه الأشياء. بيد أني، وقد فرّجت الدموع من كربي، ركعتُ على الأرض. وباركتُها.»

ـ «لقد كنت أنا، في ما أرجو، تلك الطفلة يا أبتِ. أوه، يا عزيزي، يا عزيزي، هل لك أن تباركني بمثل هذه الحرارة غداً؟»

ـ «أنا ما استعدت ذكرى هذه الارزاء القديمة، في هذه الليلة، يا

لوسي، إلا لأعبر لك عن أني أحبك أكثر مما تستطيع الكلمات أن تعبر، ولأشكر اللّٰه على سعادتي العظيمة. وثقي أن أفكاري لم ترتفع حتى في لحظات إمعانها في الخيال أقصى ما يكون الإمعان، إلى قريب من السعادة التي أسبغتِها عليّ، والتي تحيا في ظلها.»

وطوّقها بذارعيه وأسلمها في خشوع إلى عناية السماء، شاكراً للّٰه إنعامه عليه بها. وبعد هنيهة انقلبا إلى الدار.

ولم يُدعَ إلى حفلة الزواج أحد غير مستر لوري. وكانت مس بروس الشاحبة هي وحدها إشبينة العروس. ولقد تمّ الرأي على أن لا يُحدث الزواج شيئاً من التغيير في دارهم. والواقع أنهما استطاعا أن يوسّعا نطاقها بأن اتخذا لنفسيهما الحجرات العليا التي كان يقطنها في ما سلف النزيلُ الخرافيّ غير المنظور، وما كانا ليطمعا بأكثر من ذلك.

وكان الدكتور مانيت شديد البِشْر عند العشاء المختصَر. ولم يكن جالساً إلى المائدة غير ثلاثة نفر فيهم الآنسة بروس. لقد أسف لعدم وجود تشارلز معهم، ونازعته نفسه إلى أن يعترض على الدعابة الحبيّة التي أقصته عنهم. ثم شرب نخبه في مودّة غامرة.

وهكذا حان الوقت الذي تمنى فيه لابنته ليلة سعيدة. وافترقا. ولكن لوسي هبطت السلّم، في سكون الساعة الثالثة من ساعات الصباح، وانسلّت إلى غرفته، غير متحررة، منذ البدء، من ضروب المخاوف المبهمة.

بيد أنها ألفتْ كل شيء في وضعه. كان السكون يرين على الغرفة، وكان هو نائماً، وقد ازدهت الوسادة الآمنة بشعره الأشيب، واسترخت يداه فوق اللحاف. ثم إنها وضعت شمعتها غير الضرورية على مسافة ما، في الظل، وزحفت نحو سريره فوضعت شفتيها على شفتيه. ثم انحنت فوقه وأنشأت تنظر إليه.

كانت دموع الأسر المريرة قد حفرت في وجهه المليح سُبلاً ومجاري. ولكنه عرف كيف يخفي تلك السبل والمجاري بعزم وطيد إلى

درجة جعلته سيداً عليها حتى رقاده. إن وجهاً أعظم روعة في كفاحه الهادئ، العنيد، المحترس ضد مُغير غير منظور ما كان يمكن أن يُرى في عالم النيام العريض، كله، تلك الليلة.

وفي وجل، وضعت يدها على صدره الغالي، وابتهلت إلى اللّٰه أن يثبّت في قلبها الإخلاص له أبد الدهر، على قدْر ما يطمح إليه حبها، وتستحقه آلامه السالفة. ثم سحبت يدها، وقبّلت شفتيه كرةً أخرى وغادرت الحجرة. وهكذا أشرقت الشمس، وتحركت أوراق شجرة الدلب فاضطربت ظلالها على وجهه، في مثل الرقة التي اضطربت بها شفتاها في الصلاة من أجله.

ـ 18 ـ

تسعة أيام

كان يوم الزفاف زاهياً مشرقاً، وكانوا على أتمّ الاستعداد خارج حجرة الطبيب الموصدة حيث كان يتحدث إلى تشارلز دارني. كانوا على أتم الاستعداد للذهاب إلى الكنيسة: العروس الجميلة، ومستر لوري، ومس بروس التي كانت جديرة ـ بما راضت عليه نفسها من الإذعان التدريجي لما لا بد منه ـ بأن يغمرها الحادث بفيض من السعادة. ولكن تلك الفكرة القديمة كانت ما تزال تراودها: إن أخاها سليمان كان ينبغي أن يكون هو العريس.

وقال مستر لوري الذي لم يعرف إعجابه بالعروس حداً، والذي كان يطوف حولها ليلاحظ كل نقطة من ثوبها الساجي الجميل: «وهكذا، وهكذا فلمثل هذا يا لوسي الحبيبة اجتزت بك القناة وأنت طفلة صغيرة! فليباركني اللّه! ما أقلّ ما فكَّرت في الذي كنت أصنعه، وما أقلّ ما قدَّرتُ الفضل الذي أسديتهُ إلى صديقي مستر تشارلز!»

فعلّقت مس بروس ذات العقلية الواقعية العملية: «أنت لم تكن تعني ذلك، وإذن فكيف يكون في ميسورك أن تدركه؟ هراء!»

فقال الرجل اللطيف: «حقاً؟ حسناً، ولكنْ لا تبكي.»

فقالت مس بروس: «أنا لا أبكي. إنك أنت الذي تبكيني.»

ـ «أنا، يا بروسّتي» (وكان مستر لوري قد انتهى الآن إلى أن يجرؤ على أن يتحبب إليها، بين الفينة والفينة).

فقالت مس بروس: «كنتَ تفعل ذلك هذه اللحظة. أنا رأيتك بعينيّ. ولست أجد فيه غرابة. مثل هذه الهدية من آنية المائدة المعدنية النفيسة جديرة بأن تُفيض الدموع في عيني كل إنسان. وليس في المجموعة شوكة أو ملعقة لم أذرف الدمع فوقها، حين جيء بالصندوق الليلةَ البارحة، حتى غشيَتْ عيناي ولم يعد في ميسوري أن أراها.»

فقال مستر لوري: «أنا مبتهج أعظم الابتهاج. وإن كنت لم أقصد، وأقسم بشرفي، إلى أن أخفي أدوات الذكرى الهزيلة هذه عن ناظرَي أحد من الناس. واأسفاه! هذه مناسبة خليقة بأن تحمل الرجل على التفكير في أيامه المضاعة. واأسفاه! واأسفاه! واأسفاه! كم يحزّ في فؤادي أن أفكّر في أنه كان من الجائز أن يكون في أيما وقت من الخمسين السنة التي انصرمت، أو نحوها، امرأة تحمل اسم مسز لوري!»

فقالت مسّ بروسّ: «لا، على الإطلاق.»

فتساءل السيد الحامل الاسم نفسه: «تظنين أنه ما كان من الجائز مطلقاً أن يكون ثمة مسز لوري؟»

فأجابت مس بروس: «بووه! لقد كنتَ أعزب وأنت في المهد.»

فقال مستر لوري معدِّلاً وضع لمته المستعارة الصغيرة، في بشاشة: «حسناً، هذا يبدو جائزاً أيضاً.»

وتابعت مسّ بروس، «ولقد خُلِقتَ أعزب قبل أن توضع في مهدك.»

فقال مستر لوري: «إذن فأنا أعتقد بأني ظُلمت ظلماً فادحاً وكان ينبغي أن يكون لي رأي في اختيار نمطي الخاص. كفى! والآن، يا عزيزتي لوسي،» وطوّقها بذراعه في رفق، «إني اسمعهما يتحركان في الغرفة الأخرى. وأنا ومس بورسّ راغبان، بوصفنا من أهل الأعمال الرسميين، أن لا نخسر هذه الفرصة الأخيرة التي تمكّننا من أن نقول لك شيئاً ترغبين في سماعه. إنك تتركين أباك الطبيب، يا عزيزتي، بين أيدٍ مثل يديك إخلاصاً ومحبةً. إنه سوف يحاط بكل عناية ممكنة. وخلال

الأسبوعين القادمين، بينا تكونين أنتِ في وور ويكشاير وما حولها، سأهتم بأمره أعظم الاهتمام ولو اضطررت إلى أن أهمل مصالح مصرف تلسون نفسه، نسبياً. حتى إذا تقضّى الأسبوعان، ورافقكِ أنت وزوجك الحبيب في رحلتكما الأخرى التي ستستغرق أسبوعين أيضاً إلى ويلز فعندئذ تقولين إننا بعثنا به إليك في الصحة الفضلى وعلى أعظم ما يكون من السعادة. والآن، ها إني أسمع وقع قدم تسعى إلى الباب. فاسمحي لي أن أقبّل فتاتي العزيزة وأقدِّم إليها بركة أعزب عتيق، قبل أن يأتي أحدٌ ويطالب بك مِلكاً له.»

وأمسك بالوجه الجميل لحظة، مبعداً إيّاه بعض الشيء، ليرى إلى الانطباعة التي رانت يوماً على جبينها. والتي لم ينسَها قط. ثم وضع الشعر الذهبي المشرق في محاذاة لمّته المستعارة الداكنة، في رقة وحنان أصيلين يرجعان ـ إذا كانت الرقة والحنان شيئين عتيقين ـ إلى عهد آدم.

وفُتح باب غرفة الطبيب، وخرج منها هو وتشارلز دارني. كان شاحباً شحوب الموتى ـ ولم يكن كذلك عندما دخلا الحجرة معاً ـ فليس يُرى على وجهه أثر لونٍ البتة. ولكن شيئاً ما لم يطرأ على رزانته ورباطة جأشه، وإن تكون نظرة مستر لوري الذكية قد نفذت إلى إمارة مبهمة ما، تؤذن بأن سيما الأعراض والرعب القديمة قد ألمّت به مثل ريح باردة.

وأسلم ذراعه لابنته وهبط بها السلم إلى المركبة التي كان مستر لوري قد استأجرها لهذه المناسبة السعيدة. وتبعهما سائر الجماعة في عربة أخرى. وما هي إلا برهة حتى زُفت لوسي مانيت زفافاً سعيداً إلى تشارلز دارني في كنيسة مجاورة، حيث لم تشهد الاحتفال أيما عين غريبة.

وإلى جانب الدموع المتلألئة التي أومضت وسط ابتسامات الجماعة الصغيرة حين تم ذلك، تألقت على يد العروس بضع ماسات شديدة الإشراق والالتماع أطلِقت قبل لحظات من غياهب أحد جيوب مستر لوري. وانقلبوا إلى الدار لتناول الفطور. وجرى كل شيء على ما يرام.

وفي الوقت المناسب كان الشعر الذهبي الذي سبق له أن اختلط بشعر صانع الأحذية البائس الأشيب في عليّة باريس، قد اختلط به كرةً ثانيةً على أشعة شمس الصباح، عند عتبة الباب، ساعة الفراق.

كان فراقاً عسيراً، وإن لم يكن طويل الأجل. ولكن أباها طيّب نفسها وقال آخر الأمر، وهو يتخلص في رفق من بين ذراعيها الملتفتين حوله: «خذها، يا تشارلز! إنها لك!»

ومن نافذة مركبة ذات عجلتين، لوّحت لهم بيدها المضطربة، ومضت لسبيلها.

وإذْ لم يكن في زاوية «سوهو» مَراد للمتبطّلين والفضوليين، وإذ كانت الاستعدادات للزفاف بسيطة ويسيرة، فقد خُلّف الطبيب، ومستر لوري، ومسّ بروس في عزلة هادئة. حتى إذا دخلوا في ظل الحجرة القديمة الباردة لاحظ مستر لوري أن تغيّراً كبيراً طرأ على الطبيب، لكأنّ الذراع الذهبية المرتفعة هناك قد أصابته بضربة مسمومة.

كان واضحاً أنه كبت مشاعره كبتاً عنيفاً، وأن تغيّراً مفاجئاً كان متوقعاً أن يصيبه بعد إنقضاء المناسبة التي ألجأته إلى الكبت. ولكن النظرة القديمة المروِّعة الذاهلة هي التي أقلقت مستر لوري. حتى إذا رآه يطوّق رأسه بيديه، على نحو شارد، ويهيم على وجهه مكتئباً قاصداً إلى غرفته الخاصة، بعد أن انتهوا إلى أعلى السلم، تذكَّر مستر لوري الخمّارَ دوفارج، وامتطاءهم العربة تحت أشعة النجوم.

وهمس في أذن مس بروسّ بعد تأمل جازع: «أعتقد أن من الخير لنا أن لا نتحدث إليه الآن، أو أن نقلق راحته على الاطلاق. ينبغي أن ألقي نظرةً على المصرف، وهكذا فسوف أقصد إلى هناك في الحال وأرجع على جناح السرعة. وعندئذ نذهب به في نزهة إلى الريف، ونتناول الطعام هناك، فتعود المياه إلى مجاريها.»

ولكن ذهاب مستر لوري إلى مصرف تلسون كان أيسر عليه من الخروج منه. فقد حُبس هناك ساعتين اثنتين. حتى إذا انقلب إلى دار

الدكتور مانيت ارتقى السلّم العتيقة وحده، من غير أن يسأل أيما سؤال عن الخادمة وحين انتهى إلى حجرة الطبيب استوقفه صدى دقات خفيض.

وقال مجفلاً: «يا إلهي! ما هذا؟»

وفجأة ألفى مس بروس واقفة، بوجه مروع، عند أذنه، وقد راحت تصيح قارعةً إحدى يديها بالأخرى: «يا للمصيبة! يا للمصيبة! لقد خسرنا كل شيء! ما الذي سأقوله لعصفورتي؟ إنه لا يعرفني، وهو منصرف إلى صنع الأحذية!»

وقال مستر لوري ما استطاع أن يقوله ليهدئ من روعها، ومضى إلى غرفة الطبيب. فرأى منضدة العمل قد حُوّلت نحو النور، كما كانت يوم رأى صانع الأحذية منهمكاً في عمله من قبل، وكان الطبيب مكباً على عمله لا يلوي على شيء.

ـ «دكتور مانيت! يا صديقي العزيز، دكتور مانيت!»

ورفع الطبيب بصره لحظةً ملقياً على مستر لوري نظرةً فيها شيء من الاستفهام وفيها شيء من الغضب لأن شخصاً ما يخاطبه، ثم انكبّ على عمله من جديد.

كان قد وضع سترته وصدرته جانباً. وكان قميصهُ يكشف عن نحره شأنه يومَ كان ينصرف إلى هذا العمل في الأيام السالفة. وحتى تلك الانطباعة القديمة الذابلة الشاحبة عاودت وجهه في تلك اللحظة. كان يعمل في جدّ، وفي تبرُّم وكأنما ساءهُ أن يُقاطعَ أثناء العمل.

اختلس مستر لوري نظرة إلى ما في يده، فإذا هو فردة حذاء من الحجم القديم نفسه والشكل القديم نفسه. فما كان منه إلا أن تناول فردةً أخرى كانت ملقاةً إلى جانبه، وسأله ما هي.

فغمغم من غير أن يرفع بصره: «حذاء فتاة خاصّ للمشي. كان ينبغي أن يُنجز منذ عهد بعيد. دَعهُ يُنْجَز.»

ـ «ولكن يا دكتور مانيت انظر إليّ!»

ونزل عند رغبته مذعناً على طريقته الآلية القديمة، من غير أن تكفّ يداه عن العمل.

ـ «أتعرفني، يا صديقي العزيز؟ فكِّرْ مرةَ أخرى. هذه ليست حرفتك الحقيقية. فكّرْ، أيها الصديق العزيز.»

ولم يستطع أيما شيء أن يغريه بأن يقول أكثر مما قال. كان يرفع بصره لحظةً، كل مرة، ولكنْ ما كان في ميسور أحد أن ينتزع منه كلمة واحدة. لقد عملَ، وعمل، وعمل، في صمت، ولقد وقعت الكلمات عليه وقوعها على جدار لا يُرْجع صدى، أو وقوعها على الهواء. كانت بارقة الأمل الوحيدة التي وفّق مستر لوري إلى اكتشافها أن الطبيب كان يرفع بصره خلسةً، في بعض الأحيان، من غير أن يُسأل. ولقد وجد مستر لوري في ذلك معنى واهناً من الفضول والحيرة، وكأنما كان الطبيب يحاول أن يجلو بعض الشكوك، ويوفق في ذهنه بين أشياء متناقضة.

وفَرَضَ أمران اثنان نفسيهما على مستر لوري بوصفهما على خطورة ليست لسائر الأمور. أولهما أن هذا الذي أصاب الدكتور مانيت ينبغي أن يظلّ سراً مغلقاً على لوسي؛ وثانيهما أنه ينبغي أن يظل سراً مغلقاً على جميع الذين يعرفون الطبيب. وبمساعدة مسّ بروس، قام بالخطوات العاجلة لتحقيق الاحتراس الثاني. فأذاعا أن الطبيب معتلّ الصحة وأنه في حاجة إلى راحة كاملة بضعة أيام. وتحقيقاً للاحتراس الأول القاضي بإخفاء الحقيقة عن ابنته فقد تمّ الرأي على أن تكتب إليها مس بروس رسالة تصف فيها كيف استدعي لعيادة أحد المرضى، مؤيدة قولها هذا برسالة خيالية تتألف من سطرين أو ثلاثة أسطر كتِبت على عجل تقليداً لخط الطبيب، زاعمة أنه وجّهها إليها بالبريد نفسه..

وإنما اتخذ مستر لوري هذه الاحتياطات، المستحسن اتخاذها على أية حال، وهو يرجو أن يثوب الطبيب إلى رشده. فإذا ما تم ذلك

عاجلاً، كان خليقاً به أن ينهج نهجاً احتفظ به من باب الاحتياط. وكان ذلك النهج يستدعي أن يحصل، وهذا أفضل، على استشارة طبية حول حادث الدكتور مانيت.

وعلى رجاء أن يثوب الطبيب إلى رشده ويصبح في الإمكان انتهاج الخطة الثالثة عزم مستر لوري على أن يراقبه مراقبةً دقيقة، من غير أن يبدو عليه، ما استطاع، إنه يفعل ذلك. وهكذا اتخذ الترتيبات الضرورية للتغيب عن مصرف تلسون لأول مرة في حياته، وأقام قرب النافذة في الغرفة نفسها.

وما عتم أن اكتشف أن من العبث الذي لا طائل تحته أن يحاول التحدث إلى الطبيب، إذ كان إقناعه لا يزيده إلا غماً. وهكذا تخلّى عن هذه المحاولة منذ اليوم الأول، ووطن النفس على البقاء أمامه دائماً، كاحتجاج صامت على الوهم الذي سقط الطبيب في دياجيره، أو كان بسبيل السقوط فيها. وهكذا لم يبرح كرسيه، قرب النافذة، آخذاً في القراءة والكتابة، معبراً بأكثر ما يستطيع من الطرائق السائغة الطبيعية عن أن المكان ينعم بهواء الحرية وليس محبساً يُزج فيه السجناء.

وتناول الدكتور مانيت ما قدّم إليه من طعام وشراب، وواصل العمل، ذلك اليومَ الأول، حتى هبط الظلام ولم يعد يمكنهه أن يرى عمله ـ أجل واصل العمل نصف ساعة بعد أن عجز مستر لوري عن القراءة والكتابة بأيّ ثمن. وحين يئس من إمكان المتابعة، وترك أدواته ليستأنف العمل من صباح الغد نهض مستر لوري وقال له: «أتحبّ أن تنطلق إلى الخارج؟»

وخفض بصره إلى أرض الغرفة ناظراً عن يمين وشمال، شأنه في علية باريس، ثم رفع بصره بالطريقة القديمة نفسها، وكرّر في صوته القديم الخفيض: «إلى الخارج؟»

ـ «نعم، تخرج وتتمشى معي. ولم لا؟»

ولم يبذل أيما جهد لشرح السبب الذي يحول بينه وبين الخروج،

ولم ينبس بعدُ ببنت شفة. ولكن مستر لوري حسب أنه رآه ـ فيما كان ينحني على منضدته عند الغسق، وقد وضع مرفقيه على ركبتيه وطوّق رأسه بيديه يسائل نفسه بطريقة ضبابية ما: «ولم لا؟». فوجد رجلُ الأعمال الحكيم في ذلك سانحة، ووطد العزم على أن ينتهزها.

تناوب هو ومس بروس السهر عليه، وراقباه بين الفينة والفينة من الغرفة المجاورة. وذرع الغرفة جيئة وذهوباً قبل فترة طويلة من إيوائه إلى الفراش، ولكنه ما إن استلقى على السرير حتى غرق في رقاد عميق. وعند الصباح نهض في الوقت الذي اعتاد أن ينهض فيه، ومضى تواً إلى منضدته وأكبّ على العمل.

وفي هذا اليوم الثاني حياه مستر لوري، باسمِهِ، في بشاشة، وتحدث إليه في موضوعات كانت مألوفة لديه في الفترة الأخيرة. بيد أنه لم يحر جواباً. ولكنْ كان واضحاً أنه سمع ما قِيل، وأنه فكّر فيه ولو تفكيراً مشوّشاً. وكان في ذلك ما شجع مستر لوري على أن يأذن لمس بروس بأن تدخل بعملها إلى الغرفة، بضعَ مرات في اليوم. وفي تلك الأحوال كانا يتحدثان حديثاً هادئاً عن لوسي وعن أبيها الماثل أمامهما، حديثاً عادياً خلو من التكلف، وكأنّ شيئاً ما لم يحدث. وإنما تم ذلك من غير مبالغة في إظهار العواطف، ومن غير ما إسهاب ولا تكرار يورثانه ضيقاً وَبرَماً. ولقد سرّى عن قلب مستر لوري الودود ما لاحظه من أن الطبيب زاد التفاتُهُ إليهما، ومن أنه بدا وكأنه شرع يحسّ بأن جواً من المتناقضات يكتنفه.

وحين هبط الليل مرّةً أخرى سأله مستر لوري فِعْلَهُ من قبل: «أيها الطبيب العزيز، أتحب أن تنطلق إلى الخارج!»

فكرّر الطبيب فِعْلهُ من قبلُ أيضاً: «إلى الخارج؟»

ـ «أجل، تخرج وتتمشى معي. ولِم لا؟»

وهذه المرة تظاهر مستر لوري بأنه ذهب حين لم يوفّق إلى انتزاع جواب منه، حتى إذا غاب ساعةً انقلب عائداً. وفي تلك الأثناء كان

الطبيب قد انتقل إلى الكرسي القائم قرب النافذة، وجلس هناك خافضاً بصره نحو شجرة الدلب، ولكنْ ما إن رجع مستر لوري حتى انسلّ عائداً إلى منضدته.

وتقضّى الزمان بطيئاً بطيئاً، وأظلمت آمال مستر لوري، وأثقل الهمّ فؤاده، كرة أخرى، وازداد حزناً واكتئاباً يوماً بعد يوم. وأطل اليوم الثالث وانصرم، ثم أطلّ الرابع والخامس. ثم كان السادس فالسابع فالثامن فالتاسع.

وأمضى مستر لوري هذه الفترة القلقة الراعبة وآلامه لا تزداد إلا إظلاماً، وفؤاده لا يزداد إلا غماً. كانا قد أحسنا صيانة السرّ؛ ونَعِمَت لوسي بالسعادة ولم تعرف من أمر أبيها شيئاً. ولكنه لم يفته أن يلاحظ أن يد الطبيب التي كانت ثقيلة بادئ الأمر أخذت تحذق الصناعة حذقاً مخيفاً، وأنه لم ينكبّ على عمله في أيما وقت انكبابه عليه الآن. وإن يديه لم تكونا في أيما فترة أبرع وأرشق مما انتهتا إليه عند مغرب الشمس من اليوم التاسع.

- 19 -

استشارة

أرهقت المراقبة الجازعة مستر لوري فاستسلم، وهو على كرسيه، للرقاد. وفي صباح اليوم العاشر أجفلته أشعة الشمس المتسربة إلى الغرفة، حيث غلب على أجفانه نومٌ ثقيل بعد أن أحلولك الظلام.

فرك عينيه ونفض النعاس عنهما. ولكن الشك خامره، حين فعل ذلك، وتساءل: ألا يزال نائماً حقاً؟ ذلك بأنه حين مضى إلى باب حجرة الطبيب وأطلّ منه رأى منضدة صانع الأحذية وأدواته قد نُحّيَت جانباً والطبيب نفسه كان جالساً يقرأ أمام النافذة. كان مرتدياً ثياب الصباح المألوفة، وكان وجهه (الذي استطاع مستر لوري أن يراه في وضوح) تعلوه آية الجدّ والاهتمام، برغم أنه لا يزال شديد الشحوب.

وحتى بعد أن أيقن مستر لوري أنه يقظ وليس نائماً، استشعر الدوارَ بضعَ لحظات وأنشأ يتساءل في ارتياب: أليس من الجائز أن يكون صنع الأحذية المتأخر هذا ليس غير حُلم رآه في ما يرى النائم؟ ألم تُره عيناه صديقه ماثلاً أمامه في ثيابه العادية، ومظهره العادي، وعمله العاديّ؟ ألم يَعدَم في ما حوله أيما دليل يؤذن بأن التغيُّر المخلّف في نفسه أعمق الأثر قد حدث فعلاً؟

بيد أن ذلك الارتياب ما لبث أن زال بعد أن وقع على الجواب واضحاً. إذا كان ذلك كله مجرد حلم، فما الذي جاء به هو، جارفيس لوري، إلى هناك؟ كيف جاز أن يستسلم هو للرقاد، وفي ثيابه، وعلى

الأريكة التي في عيادة الطبيب، وأن يناقش هذه النقاط كلها خارج حجرة الطبيب في ذلك الصباح الباكر؟

وما هي إلاّ دقائق حتى أقبلت مس بروس ووقفت إلى جانبه تهامسه. ولو كان في نفسه ذرّة من الشك بعدُ إذن لكان حديثها خليقاً بأن يبدِّد ذلك الشك ضرورةً. ولكن الصفاء كان قد عاودَ ذهنه، فليس يخامره أيّ ارتياب. واقترح عليها أن يدعا الوقت يمر حتى تحين ساعة الفطور النظامية، وعندئذ يلتقيان الطبيب وكأنه شيئاً غير عادي لم يحدث قطّ. فإذا ما ظهر لهما أنه في حاله العقلية الطبيعية، تقدّم في احتراس إلى الاسترشاد بتلك الاستشارة التي كان في غمرة من قلقهِ ذاك، شديد الحرص على الفوز بها.

حتى إذا نزلت مس بروس عند رغبته، شرع في تنفيذ الخطة في إحكام. وإذ وجد مستر لوري متسعاً كبيراً من الوقت لغسل الوجه وتسريح الشعر والتعطّر على النحو الذي تعوّده كل يوم، فقد سعى إلى مائدة الطعام في ثوبه الكتاني الأبيض وبنطلونه الأنيق المألوف. ودُعي الطبيب إلى الطعام على النحو النظامي المعتاد، فوفدَ على المائدة.

تحدث مستر لوري إلى الدكتور مانيت، ملتزماً تلك المقدمات التمهيدية التي استشعر أنها ضرورية للنجاح في ما يقصد إليه. لقد لاحظ أن الطبيب كان يعتبر، بادئ الأمر، أن زواج ابنته لم يتم إلا أمس. فما كان منه إلا أن أشار إشارة عرضية، ولكنها مقصودة، إلى يومهما ذاك وموقعه من الأسبوع والشهر: فإذا بالطبيب يفكِّر ويحسب، ويأخذه القلق على نحو واضح. أما في ما عدا ذلك، فقد كان محتفظاً بهدوئه ورباطة جأشه إلى درجة شجعت مستر لوري على أن يلتمس العون الذي يريد.

وهكذا ما إن رُفعت الأطباق عن المائدة، وغادر هو والطبيب وحدهما، حتى قال مستر لوري في تأثّر: «عزيزي مانيت، أنا شديد التوق إلى أن أستطلع رأيك، على نحو سرّي، في حالة عجيبة جداً تشغل بالي إلى أبعد الحدود. أعني أنها عجيبة جداً بالنسبة إليّ، أما بالنسبة

إليك، بما تتمتع به من علم ليس عندي بعضه، فقد لا تكون عجيبة إلى هذا الحد.»

وألقى الطبيب نظرة على يديه اللتين غيّر لونهما عملُهُ الأخير، وبدا قلقاً مضطرباً، وأصغى في انتباه. لقد سبق له أن نظر إلى يديه غير مرة من قبل.

وقال مستر لوري وهو يمس ذراعه في حنان: «إن تلك الحالة الخطيرة يا دكتور مانيت هي حالة صديق عزيز عليّ إلى حد بعيد. من أجل ذلك أرجو أن توليها اهتمامك كله، وأن ترشدني إلى ما فيه خيرُهُ. ليس هذا فحسب بل إلى ما فيه خير ابنته قبل كل شيء ـ أجل، ابنتِهِ يا عزيزي مانيت.»

فقال الطبيب في صوت مكظوم: «إذا كنت أفهم، كانت تلك صدمة عقليةً ما...؟»

ـ «نعم!»

فقال الطبيب: «كن واضحاً. ولا تُهمل شيئاً من التفاصيل.»

ورأى مستر لوري أن كلاً منهما قد فهم الآخر فتابع حديثه: «يا عزيزي مانيت، إنها حالة صدمةٍ قديمة متطاولة كان لها أثر حاد جداً، قاسٍ جداً، في العواطف والمشاعر والـ... والـ... ـ كما تعبرون أنتم ـ والعقل. أجل، العقل. إنها حالةُ صدمة رزح تحتها المصاب دهراً لا يستطيع أحدٌ أن يحدد مداه، لأنه هو نفسه يجهل ذلك في ما أعتقد، وليس ثمة وسيلة أخرى للوصول إلى الحقيقة. إنها حالة صدمةٍ شُفي منها المصاب بطريقة لا يستطيع هو أن يذكرها ـ كما سمعتُهُ يعلن ذات يوم على نحوٍ مؤثر. إنها حالة صدمةٍ شُفي منها شفاءً تاماً حتى عاد رجلاً ذا ذكاء وقّاد، قادراً على النظر في أصعب القضايا وعلى بذل أعظم النشاط الجسدي، والاستزادة من العلم على وفرة ما عنده منه. ولكن لقد أصيب وأسفاه،» وتمهّل هنا لحظة وشهق شهقة عميقة ثم أضاف: «بنكسة طفيفة.»

وفي صوت خفيض سأله الطبيب: «كم دامت؟»

ـ «تسعة أيام وتسع ليال.»

ونظر إلى يديه كرةً ثانيةً ثم سأل: «في أيّ صورة تجلّت؟ أحسب أنها تجلت في استئناف عمل قديم ما، ذي صلة بالصدمة؟».

ـ «تلك هي الحقيقة.»

وتساءل الطبيب في وضوح ورباطة جأش، ولكن بذلك الصوت الخفيض نفسه: «هل قُدّر لك أن تراه منصرفاً إلى عمله ذاك من قبل؟»

ـ «مرة واحدة.»

ـ «وحين فاجأته النكسة، هل كان في معظم النواحي ـ أو في جميع النواحي ـ مثلَهُ آنذاك؟»

ـ «أظنه كان مثلَه في جميع النواحي.»

ـ «لقد أشرتَ إلى ابنته. فهل عرفت ابنتُهُ بتلك النكسة؟»

ـ «لا. كُتم النبأ عنها. وأرجو أن يظل مكتوماً عنها دائماً. إن أحداً لم يطَّلع على ذلك غيري وغير شخص آخر جدير بالثقة.»

فأمسك الطبيب بيده وغمغم: «لقد كان ذلك فضلاً كبيراً منك يؤذن بكثير من بُعد النظر!» وأمسك مستر لوري، بدوره، بيد الطبيب، وانقضت فترة قصيرة اعتصم فيها كل منهما بالصمت.

وأخيراً قال مستر لوري بأسلوبه الذي يفيض بالرفق والحنان: «والآن يا عزيزي مانيت، أنا مجرد رجل من رجال الأعمال ولست أهلاً للخوض في مثل هذه الشؤون الدقيقة العسيرة. أنا لا أملك ذلك الضرب من العلم الذي تقتضيه هذه الأمور. أنا لا أملك الذكاء الخاص الذي تحتاج إليه. من أجل ذلك أجدني في حاجة إلى نصح وإرشاد. قل لي، كيف اتفق لتلك النكسة أن أصابته، وهل ثمة خطر من أن تعاوده؟ هل يمكن الحؤول دون وقوع تلك الانتكاسة الجديدة؟ وكيف تعالج في حال وقوعها؟ كيف تحصل النكسة على أية حال؟ ما الذي أستطيع أن أصنعه

لصديقي؟ أحسب أنه لا يمكن أن يكون ثمة رجل أصدق رغبة في خدمة صديق من الأصدقاء مني في خدمة ذلك الصديق، لو أستطيع أن أعرف السبيل إلى ذلك. ولكني لا أعرف كيف أبدأ في مثل هذه الحال. ولو هدتني حكمتك ومعرفتك وخبرتك سواء السبيل إذن لغدوت قادراً على أن أصنع شيئاً كثيراً. أما إذا لم أبصّر بالأمر وأوَّجه توجيهاً صحيحاً فعندئذ أكون عاجزاً عن أن أعمل شيئاً غير النزر اليسير. أتوسل إليك أن تدرس هذه المسألة معي. أتوسل إليك أن تبصّرني بحقيقتها، وأن تعلمني كيف أكون أكثر نفعاً، بعض الشيء، لذلك الصديق.»

وأنشأ الدكتور مانيت يفكِّر ويتأمل بعد أن سمع هذه الكلمات الصادقة. ولم يستعجله مستر لوري في أداء الجواب.

وقال الطبيب قاطعاً حبل الصمت في جهد: «أحسبُ يا صديقي العزيز، أن النكسة التي وصفتَها لم تكن غير متوقعة تماماً من قِبَل المصاب.»

فاجترأ مستر لوري على أن يسأل: «هل كان يخشاها؟»

فقال في رعدة غير إرادية: «كثيراً جداً. والواقع أنك لا تستطيع أن تدرك مدى تأثير هذا الخوف في عقل المريض، وإلى أي حد يصعب عليه ـ أو يتعذر، تقريباً ـ أن يُكره نفسه على النطق بكلمة عن البلاء الذي يرزح تحته.»

فسأله مستر لوري: «وهل تحسب أن في حمله نفسَهُ على الإفضاء بتلك الأفكار الخفية، حين تراوده، إلى أي شخص، ما يسرّي عن نفسه تسرية محسوسة؟»

ـ «أحسب ذلك. ولكنه، كما قد ذكرتُ لك، شيء يجاور المستحيل. بل إني لأعتقد ـ في بعض الأحوال ـ إنه مستحيل مئة بالمئة.»

فقال مستر لوري، معاوداً وضع يده في لطف على ذراع الطبيب بعد أن اعتصم الرجلان بالصمت فترة قصيرة: «والآن، إلام تعزو هذه النكسة؟»

فأجاب الدكتور مانيت: «أعتقد أن مردّ ذلك إلى أن ذكرياته عن السبب الأول الذي أورثه ذلك الداء قد استيقظت فجأة وعلى نحو عنيف. أحسب أن بعض الخواطر الراعبة بُعثت في ذهنه، من طريق التداعي، بعثاً عنيفاً. ومن الراجح أن يكون قد كبت هذه القرائن المخوفة في عقله دهراً طويلاً فهي تستيقظ في بعض الظروف ـ أو قل لمناسبة معيَّنة. لقد حاول أن يُعد نفسه لذلك، ولكن على غير طائل. ولعل الجهد الذي بذله في هذا الأعداد جعله أقل قدرة على احتمال الصدمة.»

فسأله مستر لوري، في تردد طبيعي: «وهل سيكون في وسعه أن يذكر ما حدث في تلك النكسة؟»

وفي اكتئاب، أجال الطبيب بصره في الغرفة، وهزّ رأسه وأجاب في صوت خفيض: «لا، على الاطلاق.»

فألمع مستر لوري: «والآن، فلننتقل إلى الكلام عن المستقبل.»

فقال الطبيب وهو يستعيد ثباته: أما المستقبل فينبغي أن يكون قوي الأمل فيه. كيف لا يكون قوي الأمل في المستقبل وقد أسبغت السماء رحمتها عليه ومنت عليه بالشفاء العاجل؟ وما دام المصاب قد رزح تحت وطأة شيء معقد، شيء طالما خافه وطالما توقعه على نحو غامض وطالما قاومه، ثم زايله البلاء بعد أن أظلته تلك السحابة لتنقشع بعد قليل، فأملي عظيم في أن يكون أسوأ ما في الأمر قد انقضى.»

فقال مستر لوري: «حسناً، حسناً! إن في كلامك هذا لعزاءً كبيراً. أنا أشكرك!»

فكرر الطبيب، حانياً رأسه في إجلال: «أنا أشكرك!»

فقال مستر لوري: «بقيت نقطتان أتوق إلى أن أستطلع رأيك فيهما. هل أستطيع أن أتابع؟»

ـ «إنك لن تستطيع أن تسدي إلى صديقك خدمةً أفضل.» وأعطاه الطبيب يده.

ـ «فلنبدأ بالنقطة الأولى. إنه مجدّ يطيل القراءة والدرس، بالغ النشاط إلى حدّ استثنائي. إنه يرهق نفسه أعظم الإرهاق في اكتساب المعرفة المهنية، وفي إجراء الاختبارات، وفي أشياء أخرى كثيرة. أفليس خليقاً به أن ينوء بمثل هذا الإرهاق؟»

ـ «أظن ذلك. ولعل طبيعة عقله أن تكون هي التي تفرض عليه ذلك الانصراف الاستثنائي إلى العمل. وقد يكون بعض ذلك طبيعياً، وقد يكون بعضه نتيجة المصيبة التي حلّت به، وكلما تضاءل انشغاله بالأشياء السليمة المفيدة، تعاظم عليه الخطر من الجنوح إلى الاتجاه غير السليم. ولعله يكون قد لاحظ نفسه، وانتهى إلى ذلك الكشف.»

ـ «أواثق أنت من أنه لا يرزح تحت وطأة إجهاد أثقل مما يحتمل؟»

ـ «أعتقد أني واثق من ذلك.»

ـ «يا عزيزي مانيت، إذا أرهق نفسه بالعمل الآن. . . .»

ـ «يا عزيزي لوري، أشك في إمكان ذلك في يسر. لقد تعرض لإرهاق شديد من ناحية، فينبغي أن يوازن ذلك بإرهاق مثله.»

ـ «أرجو أن تغفر لي إلحاحي بوصفي رجل أعمال. لنفرض أنه أثقل على نفسه إثقالاً لا يطيقه فعندئذ تتجلى آثار ذلك في تجددٍ ما لهذا الاختلال.»

فقال الدكتور مانيت في ثقة المقتنع بصحة أمر من الأمور: «لست أظن ذلك. لست أظن أن شيئاً غير تداعي الأفكار يمكن أن يجدده. وأعتقد أن شيئاً ما لن يستطيع أن يجدده، من الآن فصاعداً، غير الضرب على ذلك الوتر ضرباً عنيفاً. وبعد الذي حدث له من النكسة والشفاء يصعب عليَّ أن أتخيّل أيما ضرب عنيف على ذلك الوتر، منذ اليوم. وإني لأرجو أن تكون الظروف القادرة على تجديده قد استُنفدت. بل إني أكاد أؤمن بذلك إيماناً.»

لقد تحدث في تردد الرجل العارف أن شيئاً طفيفاً إلى أبعد الحدود

قد يعطل نظام العقل الدقيق، ومع ذلك فقد هيمنت على حديثه ثقة الرجل الذي انتزع اطمئنانه، شيئاً بعد شيء، من المعاناة الشخصية وطول البلاء. وما كان لصديقه أن يقلّص من تلك الثقة. ومن هنا أعلن أنه سعيد بهذا التوكيد أكثر مما كان فعلاً، وتقدم إلى بسط النقطة الثانية والأخيرة. لقد استشعر أنها أصعب الأشياء جميعاً، ولكنه ما إن تذكّر حديثه القديم مع مس بروس، ذات يوم من أيام الأحد، وما إن تذكّر ما رآه في الأيام التسعة الخالية حتى أدرك أن عليه أن يواجهه مهما يبدُ عسيراً.

قال مستر لوري متنحنحاً: «لنطلق على العمل الذي استأنفه تحت وطأة ذلك البلاء العابر الذي شفي منه بحمد اللّه ـ لنطلق عليه... اسم الحدادة... اسم الحدادة. ولنقل تحديداً للموضوع وعلى سبيل التوضيح إنه تعوّد في أيامه السوداء أن يستعمل كوراً صغيراً. ولنقل أيضاً إنه وُجد، على حين غرة، منصرفاً إلى العمل بذلك الكور مرة أخرى. أفلا يحق للمرء أن يزعم، بعد ذلك كله، أن من المؤلم أن يحتفظ بتلك الأداة إلى جانبه؟»

وحجب الطبيب جبينه بيده وراح يضرب الأرض بقدمه في عصبية.

وقال مستر لوري ناظراً إلى صديقه في لهفة: «لقد احتفظ بها إلى جانبه دائماً. أفلا تعتقد أن من الخير له أن يتخلص منها؟»

وواصل الطبيب، ويده ما تزال على جبينه، ضرب الأرض بقدمه ضرباً عصبياً.

فقال مستر لوري: «هل تجد أن من العسير عليك أن تنصحني بشيء في هذه المسألة؟ أنا أدرك جيداً أنها مسألة دقيقة جداً. ومع ذلك، فأنا أعتقد...» وهنا هز رأسه، وكف عن الكلام.

فقال الدكتور مانيت ملتفتاً إليه بعد صمت قلق: «الواقع أن من العسير جداً أن يشرح المرء شرحاً متّسقاً النشاط الباطني الذي يقوم به عقل ذلك الرجل البائس. لقد تاق ذات يوم إلى تلك الحرفة توقاً راعباً،

حتى إذا تسنّت له رحب بها ترحيباً عظيماً. وليس من ريب في أنها سرّت عن نفسه كثيراً لأنها عوضته ارتباك الذهن بارتباك الأصابع، ولأنها عوضته ـ بعد أنْ تمَّ له تمرسٌ بذلك العمل ـ من براعة العذاب العقلي ببراعة اليدين، حتى لقد غدا غير قادر على أن يطيق التفكير في إبعاد تلك الأداة عنه. وفي هذه اللحظة نفسها، التي تعاظم فيها رجاؤه بالشفاء الكامل، على ما أعتقد، بأكثر مما تعاظم في أيما وقت مضى، والتي أخذ يتحدث فيها عن نفسه بنوع من الثقة، يتراءى لي وكأن مجرد التفكير في أنه قد يحتاج ذات يوم إلى تلك الأداة القديمة فلا يجدها يُلقي في قلبه رعباً مفاجئاً مثل ذلك الذي يستشعره فؤاد الطفل إذا ما تاه وافتقد أهله.»

وحين رفع بصره إلى وجه مستر لوري بدا أشبه ما يكون بذلك الطفل الذي ضرب المثل به.

ـ «ولكنْ. . . ـ وأرجو أن تنتبه إلى أني ألتمس المعرفة بوصفي رجلَ عملٍ مثابراً على التحصيل، لا يشتغل إلا بالأشياء المادية من مثل الجنيهات، والشلنات، والأوراق ـ أليس من الجائز أن يؤدي الاحتفاظ بالأداة إلى الاحتفاظ بالفكرة؟ وإذا ما ذهبت الأداة، يا عزيزي مانيت، أفلا يكون من الجائز أن يذهب الخوف معها؟ وباختصار، أليس الاحتفاظ بالكور ضرباً من الاستسلام للهواجس؟»

وران الصمت على الغرفة، كرة أخرى.

وقال الطبيب في صوت مرتعش: «ثم إنك ترى، فوق ذلك، أن تلك الأداة صديق عريق في القدم.»

فقال مستر لوري، هازاً رأسه، بعد أن شجّعه استحواذ القلق على الطبيب: «أمّا أنا فلستُ أرى أن يحتفظ بها. إني لأشير عليه بأن يضحي بها. وليس يعوزني في هذا الموقف غير تفويضك. أنا واثق من أن ذلك سيعود عليه بالخير. تعال! إمنحني موافقتك، مثل رجل طيّب عزيز. إكراماً لابنته، يا عزيزي مانيت!»

كان عجباً من العجب أن يشهد المرء ذلك الصراع الذي نشأ في ذات نفسه!

ـ «إفعل ذلك باسمها إذن. أنا أجيزه. ولكني لا أرى أن تُنبذ تلك الأداة على مشهد منه. من الخير أن تُرفع وهو بعيد عن المكان. دَعْهُ يفتقد رفيقه القديم بعد غياب.»

وفي الحال وعده مستر لوري بذلك، واختُتم الحديث. وأمضيا النهار في الريف، واستعاد الطبيب صحته كاملةً. واستمرّ في أحسن حال طوال الأيام الثلاثة التالية. ثم إنه سافر في اليوم الرابع عشر ليلتحق بلوسي وزوجها. وكان مستر لوري قد شرح للطبيب الخطة الاحتياطية التي انتهجتها لتبرير سكوته عن الكتابة، وكان الطبيب قد كتب رسالةً إلى لوسي بما يؤيد ذلك، فلم يخامرها أيما شك.

وفي مساء اليوم الذي سافر فيه الطبيب قصد مستر لوري إلى غرفته(*) ومعه ساطور ومنشار وأزميل ومطرقة، تصحبه مس بروس حاملةً ضوءاً. وهناك، ضمن الأبواب الموصدة، وعلى طريقة اتهامية مستسرّة، حطم مستر لوري منضدة صانع الأحذية إرْباً إرْباً، فيما كانت مس بروس ترفع الشمعة وكأنها تشارك في جريمة قتل ـ وهو معنى كان يلائم وجهها المقطّب المكفهرّ ملاءمة كبيرة. ثم إنهما أحرقا الجثة (بعد أن قُطّعت أجزاءً تتفق وهذا الغرض) في غير ما إبطاء وسط نار المطبخ، على حين دُفنت الأدوات، والأحذية، والجلد في أرض الحديقة. وإذْ يبدو التحطيم والكتمان عملاً شريراً إلى أبعد الحدود، في نظر العقول الأمينة المخلصة، فقد كاد مستر لوري ومسّ بروس، فيما هما منهمكان في أداء مهمتهما والطمس على آثارها، يستشعران، بل كادا يَظهران وكأنهما مجرمان يتعاونان على جريمة رهيبة.

(*) أي غرفة الطبيب.

ـ 20 ـ

توسّل

حين رجع العروسان إلى منزلهما كان سيدني كارتون أول من وَفَدَ عليهما مهنئاً. وكان وفوده ذاك، بُعيد عودتهما ببضع ساعات. كان على حاله القديمة المألوفة لم يتغيّر فيه شيء من حيث المظهر أو العادات أو أسلوب العيش. بيد أنه كانت تبدو على محياه سيما رثّة من الإخلاص جديدة على تشارلز دارني.

وانتهز إحدى الفرص فانتحى بدارني مكاناً قرب النافذة وراح يتحدّث إليه على غير مسمع من أحد.

قال كارتون: «مستر دارني، أرجو أن نتمكن من أن نكون صديقين.»

ـ «ولكنا كنا ولا نزال صديقين، في ما أرجو.»

ـ «جميلٌ منك أن تقول ذلك على سبيل المجاملة. ولكني لا أقصد إلى المجاملة البتة. والواقع أني حين أقول إني أودّ لو نكون صديقين لا أعني ذلك تماماً، أيضاً.»

وكان طبيعياً أن يسأله تشارلز دارني ماذا عناه بذلك، وكان سؤاله هذا ينضح بالمودة والبشاشة.

فأجابه كارتون مبتسماً: «لعمري إني لأجد أيسرَ عليّ أن أفهم هذا الكلام في ذهني من أن أنقله إلى ذهنك. وعلى أية حال، دعني أجرب. أتذكر مناسبة شهيرة كنت فيها ثملاً... أكثر من العادة؟»

ـ «أذكر مناسبة شهيرة أكرَهتني فيها على الاعتراف بأنك ثمل.»

ـ «أنا أذكر جيداً. إن لعنة هذه المناسبات ثقيلة عليّ، لأني لا أفتأ أذكرها، وأرجو أن تؤخذ بعين الاعتبار ذات يوم، حين تُستنفد أيامي كلها! لا لا تخف! أنا لا أعتزم أن أعظ.»

ـ «لست بخائف على الاطلاق. إن حماستك قد تلقي على نفسي أيما شيء ولكنها لا تلقي الخوف.»

فقال كارتون ملوحاً بيده في لامبالاة، وكأنما يقصي ذلك عنه: «آه! في تلك المناسبة النشوى التي نتحدث عنها (وهي واحدة من مئات، كما تعلم)، أثقلتُ عليك أثقالاً شديداً في الكلام على حبي لك وكراهتي إياك. فأرجو أن تكون قد نسيت ذلك.»

ـ «لقد نسيتُهُ منذ زمن بعيد.»

ـ «وهذا ضرب من الكياسة أيضاً! ولكن النسيان، يا مستر دارني، ليس يسيراً عليّ إلى ذلك الحد الذي تُصَوِّره بالنسبة إليك. أنا لم أنسه بأية حال. والجواب الذي يعوزه الجد لا يساعدني على نسيانه.»

فقال دارني: «إذا كان جوابي غير جدّي فأسألك المعذرة. ولم يكن لي من غرض غير إقصاء أمر هزيل يبدو، وهنا موضع دهشي، إنه يقلقك أكثر مما ينبغي. وأقسم لك، بشرفي، أني صرفتُ هذه المسألة من ذهني منذ عهد طويل. يا إلهي، أي شيء كان هناك مما ينبغي أن يُصرف!؟ ألم يكن عندي في تلك الخدمة الجلّى التي أسديتها إليّ في ذلك اليوم شيء أعظم خطراً ينبغي أن أتذكره؟»

فقال كارتون: «أما فيما يتصل بتلك الخدمة الجلى فأراني مضطراً إلى أن أعترف لك، حين تتحدث عنها على هذا النحو، أنها لم تكن غير مجرد حيلة من حيل المهنة. أنا لا أحسب أني كنت أُبالي بالذي سيحلّ بك حين قمتُ بها. انتبه، أقول عندما قمتُ بها. أنا أتحدث عن الماضي.»

فأجابه دارني: «إنك تنتقص من قدر تلك المنّة. ولكني لن أناقشك كثيراً في جوابك هذا الذي يعوزه الجد. . .»

ـ «أقول لك الحقيقة خالصةً، يا مستر دارني، صدقني! لقد بعدتُ عن الهدف. كنت أقول إننا ينبغي أن نكون صديقين. والآن، إنك تعرفني. أنت تعرف أني عاجز عن أن أسمو إلى أرفع ما يسمو إليه الرجل. وإذا ما شككتَ في هذا فسَلْ سترايفر، يقلْ لك مثل ذلك.»

ـ «أفضل أن أكوّن رأيي الخاص من غير مساعدة منه.»

ـ «حسناً، على أية حال، أنت تعرفني كلباً فاسقاً لم يفعل قطّ خيراً ما، ولن يفعله أبداً.»

ـ «أنا لا أعرف أنك لن تفعله أبداً.»

ـ «ولكني أعرف، وينبغي أن تصدّقني في هذا. حسناً! إذا كنت تطيق أن يزورك بين الفينة والفينة رجل لا قيمة له، رجل له مثل هذه السمعة المستهترة فأسألك أن تجيز لي أن اختلف إلى بيتك كشخص ذي امتياز؛ وأن أُعتَبَر قطعةً من أثاث لا حاجة إليها (ولقد كنت جديراً بأن أضيف لولا الشبه الذي اكتشفته بيني وبينك فأقول) قطعة من الأثاث عاطلة غير مزخرفة تُحتَمل لسابق خدمتها ولا تحظى بالتفات أحد. ولست أظن أني سأسيء اصطناع هذا الإذن. وأنا واثق كل الثقة من أني لن أفيد منه غير أربع مرّات في العام. حَسْبُ نفسي أن أعرف أني مُنحتُ هذا الإذن.»

ـ «وهل ترغب في أن تجرّب؟»

ـ «هذا أسلوب آخر لإعلامي بأني قد وُضعت في المنزلة التي أشرتُ إليها. شكراً لك، يا دارني. هل أستطيع أن أتصرّف بهذه الحرية في ما يتصل باسمك؟»

ـ «أصبحتُ أحسب الآن أن في ميسورك أن تفعل يا كارتون.»

وتصافحا على ذلك، وانصرف سيدني عن صاحبه. وبعد دقيقة واحدة استغرق في عالمه الوهمي فليس يحس بوجوده أحد.

حتى إذا مضى كارتون لسبيله، وخلال سهرة قضاها مع مس بروس

والطبيب ومستر لوري أشار تشارلز دارني إشارة عامة إلى هذه المحادثة، وتكلم عن سيدني كارتون فقال إنه مشكلة من مشكلات الإهمال والطيش. وباختصار، فإنه لم يتحدث عنه حديث الحاقد عليه أو القاصد إلى الانتقاص من قدره، ولكن حديثَ أيما رجل قد يرى إليه كما يتبدّى للناس.

ولم يكن يخطر بباله أن هذا الكلام سوف يستقر في ذهن زوجته الشابة الحسناء، ولكنه ما إن لحق بها بعدُ إلى حجرتهما الخاصة حتى وجدها تنتظره رافعة جبينها، تلك الرفعة القديمة الجميلة، على نحو صارخ.

وقال دارني مطوّقاً إياها بذراعه: «نحن نكثر من التفكير هذه الليلة!»

فقالت وقد وضعت يديها على صدره، وسدّدت نحوه تلك النظرة المستطلعة الواعية: «أجل، يا عزيزي تشارلز، إننا نكثر من التفكير هذه الليلة، لأن بالنا مشغول بشيء ما هذه الليلة.»

ـ «وما هو يا لوسي.»

ـ «هل تعدني بأن لا تلحّ عليّ بسؤال ما، إذا رجوتك أن لا توجّهه إليّ؟»

ـ «هل أعدك؟ وأي شيء لا أعدُ به حبيبة نفسي؟»

أجل، أي شيء لا يعدها به، وهو يقصي الشعر الذهبي عن خدها، بإحدى يديه، على حين يضع يده الأخرى على القلب الذي يخفق له!

ـ «أعتقد، يا تشارلز، أن مستر كارتون المسكين يستحق منك مقداراً من الاهتمام والاحترام أكثر مما أظهرت نحوه هذه الليلة.»

ـ «حقاً، يا حبيبتي؟ ولم ذلك؟»

ـ «هذا ما ينبغي أن لا تسألني إياه. ولكني أعتقد ـ ولكني أعرف ـ أنه يستحق.»

ـ «إذا كنتِ تعرفين ذلك فهذا حسبي. ما الذي تريدين مني أن أفعله يا حياتي؟.»

ـ «أسألك يا أعز الناس، أن تكون بالغ اللطف معه دائماً وأن تتغاضى عن أخطائه حين يمضي لسبيله. وأسألك أن تؤمن بأن له قلباً نادراً ما يكشف عن سريرته، وأن في ذلك القلب جراحاتٍ عميقة. لقد رأيتُ الدم، أيها العزيز، يقطر منه.»

فقال تشارلز دارني وقد غلب عليه ذهول شديد: «يحزّ في نفسي أن أفكِّر بأني أسأت إليه. أنا ما كنت أحسبه على الحال التي تذكرين.»

ـ «إنه لكذلك يا تشارلز، وأخشى أن لا يكون ثمة مجال لهدايته. والذي يخيّل إليّ أن شخصيته ومصائره غدت مستعصية، بعدُ، على الإصلاح والتعديل. ولكني واثقة من أنه قادر على القيام بأشياء صالحة، أشياء كريمة، بل أشياء تنضح بالشهامة.»

وبدت في صفاء إيمانها بهذا الرجل الضائع على جمال ساحر جعل زوجها خليقاً بأن يحدّق إليها، على حالتها تلك، ساعاتٍ وساعات.

وأصرت وهي تتشبث به مسندة رأسها إلى صدره، رافعة عينيها إلى عينيه. «أذكرْ كم نحن قويان في سعادتنا، وكم هو ضعيف في شقائه!»

فمسّ هذا التوسل فؤاده وقال: «سوف أذكر ذلك دائماً، يا منية القلب! سوف أذكره ما دمتُ على قيد الحياة.»

وانحنى على الرأس الذهبي، ووضع الشفتين الورديتين على شفتيه، وطوّقها بذراعيه. ولو كان في استطاعة تائه بائس(*) يذرع في تلك اللحظة الشوارع المظلمة أن يرى إلى قطرات الإشفاق يلتقطها زوجها بقُبَله عن العينين الزرقاوين الناعستين المحبّتين لذلك الزوج أعظم الحب، إذن لصاح مخاطباً الليل بهذه الكلمات التي لم تنطلق من شفتيه للمرة الأولى:

ـ «فليباركها اللّه لحنانها العذب!»

(*) يقصد سيدني كارتون. (المعرب)

ـ 21 ـ

صدى وقع الأقدام

لقد سبق منا القول إن تلك الزاوية التي يقطن فيها الطبيب كانت حافلة بالأصداء إلى حد عجيب. فكانت لوسي المنهمكة أبداً في نسج الخيط الذهبي الذي ينتظم زوجها، وأباها، ونفسها، وموجّهتها القديمة ورفيقتها، في حياة رغدة تكتنفها الهناءة ـ كانت لوسي تجلس في ذلك البيت الهادئ القائم في سكينة تلك الزاوية المدوّية تصيخ إلى إقدام السنوات ذات الصدى.

وفي بادئ الأمر كانت تمر بها أوقات يسقط فيها عملها شيئاً فشيئاً من بين يديها، برغم أنها كانت زوجة شابة سعيدة إلى أبعد الحدود وتغرورق عيناها بالدمع. ذلك بأنه كان ثمة شيء مقبلٌ مع الأصداء، شيء رشيق، ناء لا يكاد يُسمع، هزّ فؤادها هزاً عنيفاً. كانت تراودها آمال مصفِّقة وشكوكٌ ـ آمال تؤذن بحب لا تزال في جهل منه، وشكوك في أنها سوف تبقى على ظهر هذه الأرض لتستمتع بتلك البهجة الجديدة ـ فهي موزعة اللب شاردة البال. وبين تلك الأصداء كان ينبعث صدى وقع أقدام على ضريحها المدفون فيه شبابها الريان، وخواطر عن زوجها الذي سوف يُغادَر في وحشة الوحدة، والذي سوف يتفجع عليها أعظم التفجع، خواطر تسايرها فتقرّح جفنيها وتنفجر كالأمواج المتلاطمة.

وتقضّى ذلك العهد فإذا بابنتها لوسي الصغيرة تتوسد صدرها. ثم

أقبلت، وسط تلك الأصداء الزاحفة، خطى قدميها الضئيلتين، وصدى كلماتها الهادرة. ولتدوِّ الأصداء الكبرى بعد ذلك ما شاءت، ففي ميسور الأم الشابة الجاثية أمام المهد الصغير أن تسمع أبداً تلك الأصداء الصغيرة مقبلة نحوها. وأقبلت تلك الأصداء، فإذا بالبيت الظليل يشرق بضحكة طفل. وبدا صديق الأطفال الإلهي، الذي أسلمت إليه طفلها وهي في غمرة من بلائها، وكأنه يضم طفلها بين يديها كما ضم ذلك الطفلَ القديم، في العهود الغابرة، وجعله بهجةً مقدسةً لها.

وأخذت لوسي، وهي ما تفتأ تفتل الخيط الذهبي الذي ينتظمهم جميعاً، مسبغة على حياتهم فيضاً من حنانها وأثرها السعيد، غير مفرّقة بين أحد منهم ـ أخذت تسمع في أصداء السنين أصواتاً بهيجة كلها، سارّة كلها. كان وقع قدمي زوجها قوياً وسط تلك الأصداء، يكتنفه السعد. وكان وقع قدمي أبيها ثابتاً متسقاً. وها هي مس بروس، مشدودة إلى ذلك الخيط، تثير الأصداء، وكأنها فرس جموح يؤدّبه السوط فتنخر وترفس الأرض تحت شجرة الدلب في الحديقة!

وحتى حين كانت بعض أصداء الحزن تندسّ بين سائر الأصداء، لم تكن هذه عنيفةً أو قاسية. وحتى حين كان الشعر الذهبي، الشبيه بشعرها، يتألق على الوسادة مثل هالة تحيط بوجه طفل صغير ذابل يقول في ابتسامة مشرقة: «بابا، ماما، أيها العزيزان، أنا آسف جداً لأني سأفارقكما كليكما، وسأفارق أختي الجميلة. ولكني قد دُعيت. ويجب أن أمضي!» ما كانت تلك الدموع التي بلّلت خد الأم الشابة كلها دموع حزن وكمد فيما كانت الروح الغضّة تنفصل عن صدرها الذي كُلِّف رعايتها. «دعهم، ولا تمنعهم. إنهم سوف يلقَوْن وجه أبي.» أوه، أيها الأب، مباركةٌ تلك الكلمة!

وكذلك اختلط حفيف جناحي ملاك من الملائكة بسائر الأصداء، ولم تكن أرضيةً كلها، ولكن كان فيها عبقٌ من السماء. وامتزجت بها أنّات الرياح الهابّة فوق رمس صغير في حديقة، أيضاً. وسمعت لوسي

ذلك الحفيف وتلك الأنات في غمغمة مكظومة ـ مثل أنفاس بحر صيفيّ مضطجع على رمال الشاطئ ـ فيما كانت لوسي الصغيرة تضحِك الناظر إليها وهي منكبّة على عملها الصباحي، أو مستغرقة في إلباس دميتها عند كرسي أمها الخفيض، تثرثر بلساني **المدينتين** اللتين امتزجتا في حياتها.

ونادراً ما رجّعت الأصداء وقع خطى سيدني كارتون الحقيقية. ذلك بأنه ما كان يفيد من الامتياز الذي مُنِحه، والذي خوّله أن يفد على المنزل من غير ما دعوة، إلا ست مرّات في العام أو نحو ذلك. فهو يقعد معهم طوال السهرة، كما اعتاد أن يفعل في وقت من الأوقات. ولم يكن لِيَفِدَ عليهم ثملاً قط. وكانت الأصداء تهمس بشيء يتصل به، شيء همست به جميع الأصداء الحقيقية أجيالاً إثر أجيال.

فما من رجل أحبّ امرأة ما حباً صادقاً وخسرها، ثم عرفها حين أمست زوجة وأماً فلم يقف منها موقف اللائم وإن لم يتغيّر رأيه فيها قطّ ـ ما من رجل هذا شأنه إلا تكشّف له أولاد تلك المرأة من عطف عجيب، عن إشفاق غريزي. أما ما هي الأحاسيس الرقيقة المحجوبة التي تُمَسّ أوتارها في مثل هذه الحال فذلك ما لا تفصح عنه الأصداء أبداً. ولكن تلك هي الحقيقة، وكذلك كانت ههنا. فقد كان كارتون هو أول غريب فتحت له لوسي الصغيرة ذراعيها القصيرتين البدينتين، ولقد ظل محتفظاً، مع تقدّم الأيام بها، بتلك المنزلة من قلبها. ولم ينسه الطفل الصغير، حتى في ساعاته الأخيرة، إذ قال: «مسكين كارتون! قبّلوه عني!»

وشق مستر سترايفر طريقه في زحمة من رجال القانون كما يُقحم قارب بخاري ضخمٌ نفسه وسط المياه العكرة، وسحبَ صديقه النافع في أثره، وكأنه الزورق الذي يُقطَر إلى مؤخرة سفينة ما. وكما يكون الزورق الناعم بهذه الحظوة في ورطة قاسية عادةً، وتحت سطح الماء في معظم الأحوال، كذلك عاش سيدني حياة مغمورةً مرهقة بالأعمال بسبب من ذلك. ولكن العادة اليسيرة القوية ـ ومن سوء حظه أنها كانت أيسر عنده

وأقوى من خوف الجزاء والخزي ـ أغرته بتلك الحياة، فلم يفكِّر بعد بأن ينفض عنه صفة ابن آوى العامل في خدمة الأسد إلا بمقدار ما يحاول ابن آوىً حقيقي أن يفكِّر في السموّ فوق حقيقته ليغدو أسداً. كان سترايفر غنياً، وكان قد تزوج أرملة ناضرة الوجه ذات ثروة وثلاثة أولاد ليس فيهم شيء يسطع غير شعرهم السّبط البارق فوق رؤوسهم الشبيهة ببعض أصناف الفطائر.

وكانت مسام مستر سترايفر كلها ترشح برعاية صارمة مؤذية يحيط بها هؤلاء السادة الثلاثة الصغار. وهكذا قادهم أمامه، ذات يوم، وكأنهم خرافٌ ثلاثة، إلى الزاوية الهادئة في «سوهو»، وقدمهم إلى زوج لوسي بوصفهم تلاميذ يرغبون في تلقي العلم عليه، قائلاً في رقة: «هالو! ههنا ثلاث كتل من الخبز والجبن تستعين بها على رحلتك الزوجية، يا دارني!» ولكن رفض دارني المهذب لتلك الكتل الثلاث من الخبز والجبن أثار غيظ مستر سترايفر إثارة صارخة أفاد منها بعد في تنشئة السادة الصغار فنصحهم بأن يتقوا كبرياء الشحاذين، من مثل ذلك المدرس. وكان من دأبه كذلك أن يحدث مسز سترايفر، وهو جالس إلى الشراب، عن الشراك التي نصبتها مسز دارني في عهد ما، «لاصطياده» وعن الأساليب البارعة التي اصطنعها لإفساد تلك الشراك المنصوبة له، على قاعدة «لا يقطع الماس إلا الماس». وكان بعض أصدقائه من رجال القضاء الذين جرت العادة بأن ينادموه على الشراب ويستمعوا إلى فِريته تلك يغتفرونها له قائلين إنه أكثرَ من روايتها إلى حد جعله هو نفسه يصدقها ـ وهو إغراق في الإثم يبرر نقل المجرم إلى بقعة نائية وشنقه هناك.

تلك كانت بعض الأصداء التي ما فتئت لوسي تستمع إليها، كئيبةً حيناً، مبتهجةً ضاحكة حيناً، في تلك الزاوية الكثيرة الترجيع، حتى بلغت ابنتها الصغيرة السادسة من عمرها. أما إلى أيّ مدى اقتربت أصداء قدمي طفلتها من فؤادها، وأصداء قدمي أبيها الغالي، النشيط أبداً، الرصين

أبداً، وأصداء قدمي زوجها العزيز؛ فهذا ما لا نحتاج إلى أن نكتب عنه. كما لا نحتاج إلى الكتابة عن الصدى الأكثر ضآلة؛ المنبعث من بينهم المتحد الذي أشرفت هي على قيادته في حسن تدبير حكيم دمث هو أخصب وأكرم من الإسراف ـ كان له وقع الموسيقى في مسمعيها. أو إلى الكتابة عن الأصداء كانت تطوف بها، عذبة مستساغة، ترجّع ما قاله أبوها لها غير مرة من أنه وجدها بعد الزواج أكثر حدباً عليه مما كانت قبله (إن جاز أن يكون ذلك ممكناً)، وما قاله لها زوجها غير مرة من أنه ما من هموم أو واجبات تستطيع في ما يبدو أن تخفف من حبها له أو معونتها إياه، والسؤال الذي وجّهه إليها قائلاً: «ما السر السحري الذي يمكّنك، يا حبيبتي، من أن تسبغي علينا كلنا فضلاً من اهتمامك ورعايتك، وكأن ليس ثمة غير واحد منا فحسب، ثم لا يبدو عليك أثر من آثار العجلة أو الإرهاق؟»

ولكن كان هناك أصداء أخرى مقبلة من بعيد، مدوية دوياً متوعداً في زاوية سوهو خلال تلك الفترة كلها. وقد بلغ دويها الآن حداً مروعاً، حوالى عيد ميلاد لوسي الصغيرة السادس، وكأن عاصفة شديدة قد هبت على فرنسة فأثارت البحر على نحو مخيف.

وذات ليلة من ليالي منتصف تموز، سنة ألف وسبعمئة وتسع وثمانين، غادر مستر لوري مصرف تلسون ووفد على منزل الطبيب حيث جلس إلى جانب لوسي وزوجها قرب النافذة المظلمة. كانت ليلة قائظة موحشة أذكرتهم ثلاثتهم بليلة الأحد القديمة تلك، التي جلسوا فيها في المكان عينه وراحوا يشيمون البرق.

وقال مستر لوري راداً لمته المستعارة السمراء إلى الوراء: «لقد بدأت أحسب أنه بات يتعيَّن عليّ أن أقضي الليلة في مصرف تلسون. فقد تدفقت علينا الأعمال اليوم إلى حد جعلنا لا ندري بادئ الأمر ما الذي ينبغي أن نصنع، وكيف نتجه. إن في باريس قلقاً حدا بالناس إلى أن يتدافعوا بالمناكب، نحو مصرفنا. ويبدو وكأن زبائننا هناك لا يستطيعون

أن يعهدوا إلينا بأموالهم في سرعة كافية. وليس من ريب في أن شبه جِنّة أصابت بعضهم فهم يريدون نقل ثرواتهم إلى إنكلترة.»

فقال دارني: «إن ذلك لينذر بشر.»

ـ «تقول إنه ينذر بشرّ، يا عزيزي دارني؟ أجل، ولكنا لا ندري السبب الكامن وراء ذلك. إن الناس لا يصطنعون المنطق على الاطلاق! والواقع أن بعض زملائنا في مصرف تلسون قد بلغوا سناً عالية. فنحن لا نتبرّم من غير أن يكون ثمة ما يدعو إلى التبرم حقاً.»

فقال دارني: «ومع ذلك فأنت تعرف مبلغ إكفهرار السماء وتوعدها.»

فأجابه مستر لوري، محاولاً أن يقنع نفسه أن مزاجه العذب اعتراه شيء من النكد، وأنه قد تذمّر: «أنا أعرف ذلك من غير شك. ولكني موطّن العزم على أن أكون سيئ الخُلُق بعد إضجار تطاول يوماً كاملاً. أين مانيت؟»

وقال الطبيب وهو يدخل الغرفة المظلمة في تلك اللحظة بالذات: «ها هو ذا.»

ـ «أنا سعيد جداً بأن تكون في المنزل. ذلك بأن نُذرُ الشر التي أحاطت بي طوال النهار وتسابُقَ الناس إلى المصرف قد جعلتني عصبياً لغير ما سبب. أنت لا تنوي مغادرة البيت الآن، في ما أرجو؟»

فقال الطبيب: لا. سوف ألعب بالنرد معك، إذا شئت.»

ـ «لست أظن أني قادر على ذلك، هذا إذا أحببتُ أن أكون صريحاً. أنا غير أهل لمنافستك الليلة. ألا تزال مائدة الشاي هناك، يا لوسي؟ أنا لا أستطيع أن أرى.»

ـ «طبعاً. لقد احتفظنا بها من أجلك.»

ـ «أشكركِ، يا عزيزتي. هل الطفلة الغالية آمنة في سريرها؟»

ـ «ومستغرقة في النوم.»

ـ «هذا صحيح. كل شيء آمن وحسن. ولست أدري لِمَ لا يكون كل شيء آمناً وحسناً هنا بحمد اللّه. ولكني لقيت طوال النهار نصَباً وانزعاجاً بالغين، ولست بعد شاباً كما كنت من قبل! الشاي يا عزيزتي! أشكرك. والآن تعالي وخذي مكانك في الحلقة، ولنجلس في سكون، ولنصِـخْ إلى الأصداء التي لك فيها نظرية خاصة.»

ـ «إنها ليست بنظرية. ولكنها وهم.»

ـ «فقال مستر لوري مربّتاً على يدها: «فلتكن وهماً، إذن، يا عزيزتي. إنها متعددة جداً، صارخة جداً، أليس كذلك؟ حسبك أن تسمعيها!»

وفيما كانت الحلقة الصغيرة جالسة إلى تلك النافذة اللندنية المظلمة انطلق بعيداً هناك في سان انطوان، وقع خطى متعجلٌ، مجنون، خطِر خليقٌ به إن يشقّ طريقه إلى حياة كل إنسان، وقع أقدام ليس من اليسير أن يُنزع خضابه الدموي إذا ما تخضّب بالدم يوماً.

كان حيّ سان انطوان ذلك الصباح، كتلةً ضخمة مظلمة من الفزاعات المتمايلة ذات اليمين وذات الشمال، وقد التمع فوق رؤوسها المتلاطمة تلاطم الموج وميضٌ منبعث من الشفرات الفولاذية والحراب المتلألئة في وجه الشمس. لقد ارتفعت من حنجرة سان انطوان صيحة هائلة. واصطرعت في الهواء غابة من الأذرع العارية فكأنها أغصان الأشجار غضّنتها ريح الشتاء، وقد تشبثت الأصابع، متشنجةً، بأيما سلاح مما لفظته أحشاء الأرض مهما نأت عن المتناول.

أما مَن الذي قذف بتلك الأسلحة، ومن أين جاءت أخيراً، وأين بدأت، وما القوة التي كانت تحمل عشراتٍ منها على أن ترتعش في كل مرة وتهتزّ ملتويةً فوق رؤوس الحشد مثل ضرب من البرق فذلك ما لم يستطع الإجابةَ عنه أحد من الجمع. كل ما عرفوه أن البنادق قد وزعت، وكذلك قراطيس البارود، والرصاص، وقضبان الحديد والخشب، والسكاكين، والفؤوس، والمعاول وكل سلاح تستطيع الفطنة الغضبى أن

تكتشفه وتستنبطه. وأخذ أولئك الذين لم يوفقوا إلى سلاح ما ينتزعون الحجارة والآجرّ من الجدران بأيدٍ يسيل الدم من جنباتها. لقد عصفت الحمّى بكل نبضة وكل فؤاد في حيّ انطوان. وأرخص كل امرئ هناك حياته، فهو مستعدٌ لبذلها والتضحية بها في حماسة بالغة.

وكما أن لكلِّ دردور(*) من المياه الغالية مركز دائرة، كذلك تمركز هذا الحشد الهائج حول حانة دوفارج. وكانت كل قطرة من القطرات البشرية المجتمعة في ذلك المرجل تنزع إلى أن تندفع نحو نقطة الدائرة حيث كان دوفارج نفسه يُصدر الأوامر، وقد لوّثه البارود والعرق، ويوزع الأسلحة، ويدفع هذا إلى وراء، ويجذب ذاك إلى أمام، وينزع سلاح رجل ليسلّح به آخرَ، عاملاً مناضلاً في غمرة اللغط والصياح البالغين أقصاهما.

وصاح دوفارج: «إبقَ على مقربة مني، يا جاك رقم ثلاثة. وأنتما يا جاك رقم واحد ويا جاك رقم اثنين افترقا، وليضع كل منكما نفسه على رأس أكبر عدد ممكن من الوطنيين. أين زوجتي؟»

ـ «إيه، حسناً! ها أنت تراني أمامك!» كذلك قالت السيدة، وهي أكثر ما تكون رزانة ورباطة جأش، ولكنها لم تكن تحبِكُ هذه المرة. كانت في يدها الحازمة فأسٌ حلّت محل الأدوات الرقيقة التي أَلِفَتْها، وكان في حزامها مسدس ومدية مروّعة.

ـ «إلى أين أنت ذاهبة، يا زوجتي؟

فأجابته السيدة: «أنا ذاهبة معك، الآن. ولسوف تراني على رأس النساء بعد هنيهة.»

فصاح دوفارج في صوت مدوٍّ: «تعالي، إذن! أيها الوطنيون والأصدقاء، نحن على استعداد! هيّا إلى الباستيل!»

وفي هدير دوّى وكأن جميع الأنفاس في فرنسة قد أفرغت في

(*) الدردور موضع في البحر يجيش ماؤه ويدور، يخاف فيه الغرق.

الكلمة البغيضة، طما البحر البشري، موجةً أثرِ موجة، وعمقاً أثر عمق، متجهاً نحو ذلك الموضع، حتى غمر المدينة. وعلى رنين أجراس الخطر، وقرع الطبول، وهديرِ البحر وإرعاده فوق ساحله الجديد، بدأ الهجوم.

خنادقُ عميقة، وجسرٌ متحرك مزدوج، وأسوار ضخام، وثمانية أبراج عالية، ومدافع، وبنادق، ونار، ودخان. ومن خلال النار ومن خلال الدخان ـ بل في غمرة النار وغمرة الدخان، لأن البحر الطامي قذف به نحو أحد المدافع، فإذا به يصبح لتوِّهِ مدفعياً ـ عمل دوفارج الحانة مثل جنديّ باسل، طوال ساعتين رهيبتين.

خندق عميق، وجسر متحرك منفرد، وأسوار ضخام، وثمانية أبراج عالية، ومدافع، وبنادق، ونار، ودخان. لقد انهار واحد من الجسرين! وصاح دوفارج الحانة، وهو ما يزال واقفاً من وراء مدفعه المضطرم بالحرارة: «إعملوا، أيها الرفاق، إعملوا جميعاً، إعمل يا جاك رقم واحد، ويا جاك رقم اثنين، ويا جاك رقم ألف، ويا جاك رقم ألفين، ويا جاك رقم خمسة وعشرين ألفاً. باسم جميع الملائكة ـ وإن شئتم ـ فباسم جميع الشياطين، إعملوا!»

وصاحت زوجته: «إليّ أيتها النساء! ماذا! إن في ميسورنا أن نفتك فتك الرجال حين تسقط القلعة في أيدينا!» وهرعت النساء؛ في صرخة جهورية ظمأى، وقد تنوّعت أسلحتهن وتباينت، ولكنهن اشتركن جميعاً في حمل سلاح واحد، هو سلاح الجوع والانتقام.

مدافع، وبنادق، ونار، ودخان. ولكن كان لا يزال أمامهم ذلك الخندق العميق، والجسر المنفرد، والأسوار الضخام، والأبراج الثمانية العالية. وأدى سقوط الجرحى إلى إحداث تعديلات طفيفة في ذلك البحر الهائج. وأومض السلاح، وتوهجت المشاعل، وانبعث الدخان من التبن الرطب المكدس في العربات، ونشط العمل في كل ناحية من نواحي المتاريس المجاورة، وتعالت الصيحات، وهطل وابل من رصاص

وسباب، وتجلت الشجاعة في غير استبقاء، ودوّت أصداء التخريب والتحطيم، وأصم هديرُ البحر البشري، الآذان. ومع ذلك فلا يزال أمامهم ذلك الخندق العميق، والجسر المنفرد، والأسوار الضخام، والأبراج الثمانية العالية، ولا يزال دوفارج الحانة منكباً على مدفعه، وقد تضاعف اضطرامه بالحرارة بعد أربع ساعات ضاريات من العمل المتواصل.

وانبثقت من داخل القلعة راية بيضاء، وجرت مفاوضة لم يُسمع حرف واحد منها وسط العاصفة الهوجاء. وفجأة تعاظمَ المدّ الزاخر تعاظماً هائلاً، فهو أكثر ارتفاعاً من ذي قبل، وأكثر اتساعاً من ذي قبل، وحمل «دوفارجَ الحانة» فوق الجسر المتداعي، وعبر الأسوار الخارجية الضخام؛ ليلقي به وسط الأبراج الثمانية العالية المستسلمة.

كانت قوة الأوقيانوس الذي يحمله عارمة لا تقاوَم إلى حد جعل من العسير عليه أن يأخذ نفسَاً، أو يلتفت يمنة أو يسرة ـ فكأنما هو يناضل وسط لجج «البحر الجنوبي». وظلّت الحال على ذلك حتى استقرت به قدماه في فناء الباستيل الخارجي. وهناك، عند زاوية من جدار، بذل جهداً جاهداً لإجالة البصر في ما حوله. كان جاك رقم ثلاثة إلى جانبه تقريباً. وكانت مدام دوفارج تُرى، على رأس بعض النسوة دائماً، في المدى الداخلي، ومديتها في يدها. كان الصخب، والتهليل، والدَهش الهستيري المُصِمّ، والضوضاء المحيرة ـ بالإضافة إلى ضروب الإشارات الخرساء الهائجة ـ كان كل ذلك يغمر المكان من جوانبه جميعاً.

ـ «السجناء!»

ـ «السجلات!»

ـ «الحجيرات السرية!»

ـ «أدوات التعذيب!»

ـ «السجناء!»

ومن بين هذه الصيحات كلها، وعشرة آلاف غيرها متنافرات، كانت

«السجناء» هي الصيحة الأكثر تردداً في ذلك الخضم الزاحف، وكأن ثمة أبديةَ بشر، على غرار أبدية الزمان والمكان. حتى إذا انقلبت الأمواج الأمامية مجتازةً السدود، حاملة ضباط السجن على متنها، مهددة إياهم جميعاً بالموت الفوري إذا ما أبقوا زاوية من زوايا الأسرار محجوبة، وضع دوفارج يده القوية على صدر واحد من هؤلاء الرجال ـ رجل أشيب الرأس، يحمل مشعلاً مضاءً في يده ـ وفصله عن سائر الجماعة، وحصره ما بينه وبين الجدار.

وقال دوفارج: «أرني البرج الشمالي! عجّل!»

فأجابه الرجل: «سوف أفعل ذلك في أمانة وإخلاص إذا سِرْتَ معي ولكنه خالٍ لا أحد فيه.»

وسأله دوفارج: «ما معنى: مئة وخمسة، البرج الشمالي؟ عجّل!»

ـ «ما معناها يا سيدي؟»

ـ «هل تعني سجيناً أو مكاناً يُحبس فيه السجناء؟ أم تعني أنني سوف أضربك ضربة تقضي عليك؟»

ونعب جاك رقم ثلاثة وكان قد اقترب منه: «أقْتُلْهُ!»

ـ «إنها حجيرة، يا سيدي.»

ـ «أرني إياها!»

ـ «تعال من هنا، إذن.»

وتشبث جاك رقم ثلاثة ـ وعلى وجهه سيما النهم المعهودة، وقد ساءه أن يتخذ الحوار مجرى لا يؤذن بقرب سفك الدم ـ تشبّث بذراع مسيو دوفارج كما تشبث بذراع السجان. كانت رؤوسهم الثلاثة شبه متلاصقة أثناء هذا الحديث القصير، وكان ذلك كل ما استطاعوا أن يفعلوه لكي يسمع أحدهم الآخر، حتى في تلك اللحظة: فقد كان هدير الأوقيانوس البشري بالغاً عنان السماء في اندفاعه المفاجئ نحو القلعة، وفي إغراقه الأقنيةَ والممرات والسلالم بطوفان غامر. وفي خارج القلعة

كذلك راح الأوقيانوس يلطم الأسوار بتهدار عميق أجشّ، كانت تنطلق منه بين الفينة والفينة صيحات، وتثب في الهواء مثل رشاس الماء.

وبعد أن اجتاز دوفارج، والسجّان، وجاك رقم ثلاثة، متشابكي الأذرع، سراديب مظلمة لم تعرف قطّ ضوء النهار، ودخلوا أبواباً شوهاء تنفتح على كهوف وأقفاص مظلمة، هبطوا سلماً غائرةً، ثم ارتقوا ركاماً من الحجارة والآجرّ شديد الانحدار وعراً هو أشبه بشلاّل جاف منه بسلم، ليندفعوا بعد ذلك بأقصى ما يستطيعون من سرعة. وههنا وهناك، وبخاصة في بادئ الأمر، اندفع الطوفان نحوهم وتدفق. ولكنهم ما إن أتموا هبوط السلّم وشرعوا يدورون مصعدين في أحد الأبراج حتى غودروا وحدهم. وإذْ كانت العاصفة المنطلقة في داخل القلعة وخارجها قد طُوّقت هنا بغلاظة الجدران والأقواس الهائلة، فقد تناهت إلى أسماعهم على نحو خافت مكظوم، وكأن الضجة التي انبثقوا منها قد عطّلت، أو كادت، حاسة السمع عندهم.

ووقف السجان عند باب خفيض، وأقحم مفتاحاً في قفل مفرقِع، وفتح الباب في تؤدة، وقال فيما هم يحنون رؤوسهم ويدخلون: «مئة وخمسة، البرج الشمالي!»

كانت ثمة في أعلى الجدار نافذة صغيرة، مشبّكة بقضبان حديد كثيفة، وغير مزجّجة، وكان تجاهها حجاب حجري يجعل من المتعذر على المرء أن يرى السماء إلا إذا خفض جسمه ونظر إلى أعلى. وكانت على بضعة أقدام من الباب مدخنة صغيرة مشبّكة بقضبان حديدية ثقيلة مستعرضة. وكان على الموقد ركام عتيق من رماد الحطب، خفيف يكاد لا يكون له وزن. كان ثمة كرسي لا ظهر له، وطاولة، وفراش من قشّ، وكان ثمة أيضاً الجدران المسودّة الأربعة، وفي أحدها حلقة حديدية صدئة.

قال دوفارج للسجان: «إمِرّ ذلك المشعل بالقرب من هذه الجدران حتى أتمكن من مشاهدتها.»

امتثل الرجل للأمر، وأتبعَ دوفارج المشعلَ بصرَهُ محدّقاً إلى الجدران.

ـ «قف! أنظر هنا، يا جاك!»

قرأ جاك في نهم: «أ. م.»

فهمس دوفارج في أذنه، متتبّعاً الأحرف بأنامله القاتمة الملطخة بالبارود: «الكسندر مانيت. وهنا كتبَ «طبيب بائس». ولقد كان هو من غير شك الذي نكَتَ هذا الحجر مدوّناً عليه تقويماً. ما هذا الذي في يدك؟ قضيب حديدي؟ أعطني إياه!»

وكان لا يزال يحمل العصا التي تُستخدم لإطلاق النار من المدفع فرماها فجأةً وأمسك بالقضيب الحديدي، واستدار نحو الطاولة والكرسي المنخفض اللذين أكلتهما الديدان، وسدّد إليهما بضع ضربات سحقتهما سحقاً.

وقال للسجان في غضب: «إرفع الضوء إلى أعلى تأمل هذه الشظايا الصغيرة في عناية، يا جاك، وقل لي. ها هي ذي مديتي،» وقذف بها إليه: «فغرزها في ذلك الفراش، وتفحّص القشّ. إرفع الضوء أكثر، يا هذا!»

وبنظرة متوعدة ألقاها على السجان زحف نحو الموقد، مرسلاً طرفه في المدخنة، ضارباً إياها، رافعاً جوانبها بالقضيب الحديدي، وانصرف إلى العمل على زحزحة القضبان الحديدية المستعرضة. وما هي إلا بضع دقائق حتى تساقط الملاط والغبار من حوله فأشاح بوجهه اجتناباً لهما. ثم إنه عبث بإصابعه الحذرة في هذا كله، وفي رماد الخشب العتيق، وفي ذلك الشقّ الذي أغمد فيه سلاحه.

ـ «ألم تجد شيئاً لا في الخشب، ولا في القش، يا جاك؟»

ـ «لم أجد شيئاً على الاطلاق.»

ـ «فلنجمعها كلها في منتصف الحجيرة. هكذا! أضرِم النار فيها، يا هذا!»

وأضرم السجان النار في الكومة الصغيرة، فانطلقت ألسنتها عاليةً حامية. ثم انحنوا من جديد ليخرجوا من الباب الخفيض المتطامن، وغادروا الكومة تحترق، وانقلبوا عائدين إلى فناء القلعة. ولقد بدا لهم أنهم استعادوا حاسة السمع، شيئاً بعد شيء، في طريق عودتهم، حتى انتهوا إلى الطوفان الهائج مرّة أخرى.

وألفَوه متلاطم الأمواج التماساً لدوفارج نفسه. وكان حيّ سان انطوان يصرّ على أن يكون خمّارُهُ في طليعة المطوّقين للضابط الذي دافع عن الباستيل وأطلق النار على الشعب. وإلا فلن يساق الضابط إلى الـ «أوتيل دي فيل» حيث تجري محاكمته، وإلا هرب الضابط، وذهب دم الشعب (الذي غدا فُجاءةً ذا قيمة، بعد سنوات طوال اعتُبر فيها شيئاً تافهاً لا أهمية له) هدراً ولم يُدْرَك بثأره.

ووسط هذا العالم العاصف بالانفعال والجدال المطوِّق هذا الضابطَ العجوز الكالح الوجه المتميّز في ذلك الحشد بسترته الرمادية وحليتها الحمراء، لم يبرز غير وجه واحد رصين رابط الجأش، وكان ذلك الوجه وجه امرأة. وصاحت مشيرة بإصبعها: «انظروا، ها هو زوجي! ها قد أقبل دوفارج!» ووقفت جامدة إلى جانب الضابط العجوز الكالح الوجه، واحتفظت بجمودها إلى جانبه. احتفظت بجمودها إلى جانبه حين ساقه دوفارج وسائر الجماعة في الأسواق، واحتفظت بجمودها إلى جانبه حين اقتربوا به من حتفه وأنشأوا يضربونه من الخلف، واحتفظت بجمودها إلى جانبه حين هطل عليه وابل الطعنات والضربات المجتمع منذ عهد بعيد، واحتفظت بجمودها إلى جانبه حين خرّ صريعاً تحت ذاك الوابل الثقيل. وفجأةً دبت فيها الحياة فداست عنقه بقدمها وفصلت رأسه عن جسده بمديتها الوحشية تلك، التي أعدّتها لهذه اللحظة دهراً طويلاً.

وآن لسانْ انطوان أن ينفذ فكرته الرهيبة القائلة بضرورة نَصْب الرجال محلّ المصابيح ليُظهر للملأ إلام يستطيع أن ينتهي، وما الذي يستطيع أن يفعله. لقد ارتفع دم سان انطوان، وانخفض دم الطغيان

والحكم باليد الحديدية وسال ـ سالَ على سلّم «أوتيل دو فيل» حيث انطرحت جثة الضابط ـ سالَ على نعل حذاء مدام دوفارج الذي داست به الجثة تثبيتاً لها أثناء تشويهها وتقطيع أوصالها. وصاح سان انطوان بعد أن أجال في ما حوله عينين ملتهبتين بحثاً عن وسيلة جديدة من وسائل الموت: «إخفضوا المصباح الذي هناك. هوذا رجلٌ من جنده سوف يُترك لحراسته!» ورُفع الحارس المتأرجح، واندفع البحر في سبيلة ـ البحر ذو المياه السوداء المتوقّدة، والأمواج المتلاطمة المدمّرة، والأعماق التي لم تُسبَرْ بعد، والقوى التي لم تُكتشف حتى الساعة. البحر القاسي الفؤاد، الحافل بأشكال مترنحة ترنحاً صاخباً، وبأصوات الانتقام، وبوجوه اكتسبت صلابتَها في أتون العذاب فهي ممتنعة على مسحة من الرحمة والإشفاق.

بيد أنه كان في أوقيانوس الوجوه، حيث تجلّت انطباعات القسوة والضراوة على نحو صارخ، طائفتان من الوجوه ـ في كلّ منهما سبعة ـ مختلفتان عن كل ما عداهما اختلافاً قوياً يشهد أن البحر لم يحمل في يوم من الأيام حطاماً كمثل ذلك الحطام. فأما أولاها فوجوه سبعة من السجناء الذين أخرجتهم العاصفة فجأة من أجداثهم، وقد رفعت على أعناق القوم، مروَّعة، ذاهلة، متسائلة، مشدوهة وكأن الناس قد حشروا ليوم الحساب، وهؤلاء المبتهجون من حولهم أرواح ضالة. وأما الطائفة الثانية فتتألف من سبعة وجوه أخرى أعلى مَحملاً. سبعة وجوه ميتة كانت أجفانها المسبلة، وأعينها نصف المحجوبة تنتظر يومَ الحشر. وجوه عديمة الشعور، تعلوها برغم ذلك انطباعة معلّقة لا انطباعة دارسة. وجوه تجتاز فترة مروّعة سترفع بعدها أجفان عيونها المسبلة وتشهد بشفاهٍ فارقها الدم: «أنتم فعلتم ذلك!»

سبعة سجناء مطلقي السراح، وسبعة رؤوس تخثرت دماؤها على الحراب، ومفاتيح القلعة الملعونة ذات الأبراج الحصينة الثمانية، وبعض الرسائل المكتشفة وغير ذلك مما خلّفه السجناء في سالف الزمن قبل أن

يقضوا نحبهم كسيري القلوب ـ بهذه وأمثالها انطلقت خطى سان انطوان المدوّية خلال شوارع باريس في منتصف تموز سنة ألف وسبعمئة وتسع وثمانين. وبعد، فلتكذّب السماء هواجس لوسي دارني، ولتُبقِ هذه الأقدام بعيدة عن حياتها! ذلك بأن هذه الأقدام كانت متعجلة، مجنونة، خطرة. وفي السنوات الطويلة التي تصرّمت على حادث اندلاق الخمر عند باب حانة دوفارج، لم يكن من اليسير غسلها بعد أن تُخضّب مرةً بالدم.

ـ 22 ـ

البحر لا يزال طامياً

كان حي سان انطوان المهزول قد أمضى أسبوعاً واحداً ليس غير أطلق فيه لابتهاجه العنان، وألان من قسوة خبزه المطفّف القاسي المرير، أقصى ما يستطيع أن يُلين بالعناق الأخوي والتهاني القلبية، عندما جلست مدام دوفارج إلى منضدتها، على مألوف عادتها، وأنشأت تسوس الزبائن وتدبر شؤونهم. كان رأسها خالياً من أيما وردة، لأن أخوية الجواسيس الكبيرة انتهت، حتى في مدى أسبوع صغير واحد، إلى أن تغدو شديدة الاحتراس فهي أعقل من أن تُسلم نفسها إلى رحمة سان انطوان. كانت المصابيح المعلقة في طرفه تتأرجح تأرجحاً مرناً ينذر بالسوء.

وجلست مدام دوفارج، طاوية ذراعيها، في ضوء الصباح وحرارته، تتأمل الحانة والشارع. كان في كل منهما عدة أكوام من المتبطّلين، أكوام قذرة بائسة، ولكنّ حسّاً من القوة غدا الآن متوّجاً على كربها وآلامها. كانت أشد القلانس الليلية رثاثةً، تلك القلانس المنحرفة على أشدّ الرؤوس بؤساً، تحمل هذا المعنى الملتوي: «إني أدرك كم قد أصبح من العسير عليّ، أنا لابسَ هذه القلنسوة، أن أبقي على الحياة في جسدي. ولكن هل تعرفون كم قد غدا هيناً عليّ، أنا لابسَ هذه القلنسوة، أن أدمر الحياة في أجسادكم؟». كانت كل ذراع من الأذرع المهزولة العارية، التي لم يكن لها عملٌ من قبل، قد وجدت الآن هذا العمل جاهزاً أمامها دائماً

إذ صار في ميسورها أن تَضْرِب. وكانت أصابع النسوة الحابكات قد أمست، بفضل المران، شرسة إلى حد جعلها قادرة على أن تُنشب أظفارها وتمزّق تمزيقاً ضارياً. لقد طرأ تغيّر على هيئة سان انطوان. لقد طُرّق تمثاله مئاتٍ من السنين حتى انتهى إلى تلك الشاكلة، وكانت الطرَقات الأخيرة المُنْجِزة توحي بالقوة والجبروت.

وقعدت مدام دوفارج تراقبه في رضا مكظوم كالذي يُستحب في زعيمة نساء سان انطوان، وإلى جانبها رفيقة لها منكبّة على الحبك. كانت امرأة قصيرة، بدينة بعض الشيء، زوجةَ سمّان جائع، وأماً لولدين اثنين. وكانت قد وُفقت إلى أن تكسب لقب «الانتقام» المبجّل.

وقالت «الانتقام»: «أنصتي! إسمعي، إذن! من القادم؟»

وهنا اندفعت غمغمة سريعة الانتشار، فكأنّ خطاً من خطوط البارود التي تندفع إلى اللغم لأشعاله قد أطلق فجأةً من أقصى تخوم الحيّ إلى باب الحانة.

وقالت السيدة: «إنه دوفارج. الصمت، أيها الوطنيون.»

وأقبل دوفارج مبهور النَفَس، ونزع قلنسوة حمراء كان يعتمر بها، وأجال طرفه في ما حوله.

وقالت السيدة كرةً ثانية: «اسمعوا كلكم! أصيخوا إليه!»

ووقف دوفارج لاهثاً، أمام خَلْفيّة من الأعين المتلهفة والأفواه الفاغرة تشكّلت خارج الباب. وكان كل من في الحانة قد وثب واقفاً على قدميه.

ـ «قل، إذن، يا زوجي! ما وراءك؟»

ـ «أنباء من العالم الآخر!»

فصاحت السيدة في استخفاف: «وكيف ذلك؟ من العالم الآخر؟»

ـ «هل تذكرون كلكم فولون العجوز الذي قال للجائعين إن في استطاعتهم أن يأكلوا العشب، والذي مات وذهب إلى الجحيم؟»

فأجابت جميع الحناجر: «كلنا!»

ـ «إني أحمل إليكم أنباء عنه. إنه بيننا!»

فتساءلت جميع الحناجر أيضاً: «بيننا! وهو ميت؟»

ـ «إنه ليس ميتاً. لقد خافنا خوفاً بالغاً ـ ومن حقه أن يفعل ـ خوفاً حمله على أن يتظاهر بالموت، فشُيِّع في جنازة مهيبة زائفة. ولكنهم وجدوه حياً يُرزق، مختبئاً في الريف، وساقوه إلى هنا. ولقد رأيته اللحظة أسيراً يتخذ سبيله إلى «أوتيل دوفيل». لقد قلتُ إن من حقه أن يخشانا. قولوا جميعاً! أليس ذلك من حقه؟».

فلو كان ذلك الآثم الذليل البالغ من العمر سبعين عاماً لا يعرف عن مصيره بعدُ شيئاً إذن لغدا في ميسوره أن يدرك، في أعماق أعماقه، ذلك المصير بعد أن سمع صيحة القوم الجوابية.

وعقبت ذلك لحظة من الصمت العميق، وتبادل دوفارج وزوجته نظراتٍ مسدّدة. وانحنت «الانتقام». وهنا سُمِع صرير طبلة حرّكتها عند قدميها وراء المنضدة.

وقال دوفارج في صوت ينضح بالعزم: أيها الوطنيون! هل نحن مستعدون؟»

وفي الحال برزت مدية مدام دوفارج في حزامها. كانت الطبلة تُقرع في الشوارع وكأنما طارت هي وقارعها معاً بمثل السحر. وكانت «الانتقام» تطلق صيحات مروّعة، وتطرح ذراعيها حول رأسها مثل آلهة الانتقام الأربعين كلها في وقت واحد، منتقلة من بيت إلى بيت، تثير النساء وتحرضهم.

كان الرجال مخيفين حقاً. لقد أطلوا من النوافذ، وقد عصف بعيونهم غضب متعطش إلى الدم، وتشبثوا بأيما سلاح وجدوه في متناولهم، ثم اندفعوا كالسيل العرم نحو الطرق والشوارع. ولكن مشهد النسوة كان مثيراً يوقع القشعريرة في أوصال أجرأ الناس وأكثرهم بسالة.

لقد فارقن تلك المهام المنزلية التي يتسع لها فقرهن، وفارقن أولادهن، وفارقن عجائزهن ومرضاهن جاثمين على الأرض الجرداء جَوْعى عراة، وهرعن إلى الشوارع يحضّ بعضهن بعضاً، ويحضُضنَ أنفسهن، على الأخذ بأسباب الجنون، من طريق الصيحات المدوية والأعمال الضارية، حاسرات الرؤوس، متطايرات الشعور في الهواء. لقد ألقي القبض على فولون النذل، يا أختاه! لقد ألقي القبض على فولون العجوز، يا أماه! لقد ألقي القبض على فولون الكافر، يا بنتاه! ثم إن عشرين أخريات اندفعن إلى وسط هاته النسوة وأنشأن يلطمن صدورهن، ويقطّعن شعورهن، ويصحن: فولون حيّ! فولون الذي قال للجائعين إن في استطاعتهم أن يأكلوا العشب! فولون الذي قال لأبي العجوز إن في استطاعته أن يأكل العشب حين لم يكن عندي خبز أقدمه إليه! فولون الذي قال لطفلي إن في استطاعته أن يمتص العشب حين جففت الفاقة هذين الثديين! أوه، يا أم الإله، إن فولون بيننا! أوه، أيتها السماء، إنتقمي لعذابنا! إسمع يا طفلي الميت ويا والدي الذابل: إني لأركع على هذه الحجارة وآخذ على نفسي عهداً لأنتقمن لكما من فولون! أيها الأزواج، أيها الأخوة، أيها الشباب أعطونا دم فولون! أعطونا رأس فولون! أعطونا قلب فولون! أعطونا جسد فولون وروح فولون! مزقوا فولون إرْباً إرْباً، واغرسوه في التراب حتى ينبت العشب من رفاته! بهذه الصيحات أخذت عشرات من النساء، اللواتي جَلَدهن الغيظ المجنون بسياطه، يطوّفن في الشوارع، ويضربن صواحبَهنّ أنفسَهن ويحاولن تمزيقهن حتى لقد أغمي عليهن وكادت الأقدام تدوسهن لولا أن هُرع لنجدتهن رجالهنّ وأنسباؤهن.

ومع ذلك فلم يُضع القوم دقيقة. لم يضيعوا دقيقة واحدة! كان فولون في «أوتيل دو فيل» ومن الجائز أن يطلق سراحه.. لا، إن هذا لن يتم! إذا كان سان انطوان ذاكراً ما قاساه من ألم، وإهانة، وظلم! لقد اندفع الرجال والنساء المسلحون من أرجاء الحي في سرعة بالغة،

ساحبين خلفهم حتى تلك الثمالات الأخيرة، في قدرة على الامتصاص قوية إلى حد جعل سان انطوان يخلو، بعد ربع ساعة ليس غير، من جميع الكائنات البشرية، خلا نفر قليل من العجائز والأطفال النائحين.

لا. لقد غصّت بهن الآن قاعة الاستنطاق حيث كان هذا الرجل العجوز، البشع، الشرير، وفاضت بجموعهم الطرق والساحات المجاورة. وكان الدوفارجان، زوجاً وزوجةً، وزوجة السمّان الملقبة بـ «الانتقام»، وجاك رقم ثلاثة في الصف الأول، وعلى مقربة منه في القاعة.

وصاحت السيدة مشيرةً بمديتها: «أنظروا! أنظروا إلى الوغد العجوز موثقاً بالحبال. لقد أحسنوا صنعاً حين شدّوا حزمة من العشب على ظهره. ها، ها! لقد أحسنوا صنعاً. دعوه يأكل ذلك العشب الآن.» ووضعت مدام دوفارج مديتها تحت ذراعها، وصفقت وكأنها في مسرح من مسارح التمثيل.

وفي الحال التفت المحاذون لمدام دوفارج وشرحوا للواقفين خلفهم السبب الذي دعاها إلى التصفيق، وشرح هؤلاء ذلك السبب لمن خلفهم، وهؤلاء شرحوه بدورهم لقوم آخرين، فإذا الشوارع المجاورة تدوّي كلها بالتصفيق. وطوال ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات من الكلام المتقطع، ومن غربلة أكياس عديدة من الألفاظ، سرت علائم الضيق وفروغ الصبر التي تجلت على وجه مدام دوفارج، في سرعة عجيبة، إلى مدى بعيد. وكان سريانها ذاك أيسر وأشيع لأن نفراً من ذوي الرشاقة الرائعة الذين تسوّروا جدران البناء الخارجية ليشهدوا سير المحاكمة من خلال النوافذ كانوا يعرفون مدام دوفارج جيداً، فمثلوا دور التلغراف بينها وبين الجموع المحتشدة خارج البناء.

وأخيراً تقدمت الشمس في معارج السماء حتى لقد أرسلت على رأس الأسير العجوز، مباشرةً، شعاعاً كريماً هو أشبه ما يكون ببارقة الأمل أو الحماية. وكانت هذه المنّة أكبر من أن يحتملها القوم. فما هي

إلا لحظة حتى أطاحت الحشود بالحاجز الواهي الذي فصل ما بينها وبين المجرم، والذي صمد فترةً طويلة تدعو إلى العجب، ووضع سان انطوان يده على غريمه!

وسرى النبأ بمثل سرعة البرق إلى آخر صف من صفوف الحشد. كان دوفارج قد وقف فوق درابزون وطاولة، وعانقَ المجرمَ البائس عناقاً كاد يطلع روحه. وكانت مدام دوفارج قد اقتفت أثره وأدارت يدها في أحد الحبال التي أوثق بها. ولم يكن جاك رقم ثلاثة و«الانتقام» قد التحقا بهما بعد، ولم يكن الرجال المطلّون من النوافذ قد انقضوا على القاعة ـ كما تنقض جوارح الطير من مجاثمها العالية ـ عندما انطلقت صيحة بدت وكأنها تدوّي في أرجاء المدينة كلها: «أخرجوا به! أخرجوا به إلى المصباح!»

وخفضوه ورفعوه، ورأسه إلى أدنى، هابطين به سلّم البناء. فهو حيناً على ركبتيه، وهو حيناً على قدميه، وهو حيناً على ظهره، وسدّدوا إليه الضربات، وخنقوه بحزَم العشب والتبن التي قذفتها مئات الأيدي إلى وجهه. كان ممزقاً، مرضوضاً، لاهثاً، دامياً، وهو على ذلك كله يتوسل ويسترحم. وبينا كنتَ تراه يتميّز من الألم إلى حدّ يغريه بالنضال، بعد أن أبعد الناس بعضهم بعضاً عنه ليتمكنوا من النظر إليه، إذا بك تراه قطعة من الخشب الميت تُجرّ وسط غابة من الأرجل. وساقوه إلى أقرب زاوية من زوايا الشارع حيث يتأرجح أحد المصابيح المشؤومة. وهناك أطلقته مدام دوفارج ـ فِعْلَ الهرة بالفأرة ـ ثم أنشأت تنظر إليه في صمت ورباطة جأش، فيما انصرف الجمع إلى إعداد العدة، وفيما راح هو يتضرع إليها ويتوسل. وكانت النسوة يصرخن في وجهه طوالَ ذلك صراخاً محموماً، على حين كان الرجال ينادون مكفهرّي الوجوه بأن يُقتل والعشبُ يملأ فمه. ثم إنهم رفعوه عن الأرض، فانقطع به الحبل، فأمسكوا به صائحين. ورفعوه عن الأرض كرةً ثانية، فانقطع به الحبل، فأمسكوا به صائحين أيضاً. أما في المرة الثالثة فكان الحبل رحيماً به، فلم ينقطع.

وما هي إلا لحظة حتى رُكِّز رأسه على حربة، وفي فمه مقدار من العشب خليق بحيّ سان انطوان كله أن يرقص لدى رؤيته.

وما كان هذا ليختم نشاط ذلك النهار السيئ. ذلك بأن سان انطوان أمعن في الصياح والرقص على نحو جعل الدم يغلي في عروقه كرةً أخرى، عندما تسامع قبيل الغروب بأن صهر القتيل، وكان هو أيضاً أحد أعداء الشعب ومهينيه، سوف يفد على باريس يحرسه خمسمئة من الفرسان الأشداء، عدا جمهرة كبيرة من الحرس المشاة. فدوّن سان انطوان جرائمه على قصاصات من الورق منشورة متوهجة، وألقى القبض عليه ـ وكان خليقاً به أن ينتزعه من قلب جيش برمّته ليُلحقه بفولون ـ وركّز رأسه وقلبه على الحراب، واندفع بالغنائم الثلاث خلال الشوارع في موكب من مواكب الذئاب الضارية.

ولم ينقلب الرجال والنساء إلى أطفالهم النائحين الجوْعى إلا بعد أن اشتدت حلكة الليل. وعندئذ غصّت أفران الحيّ البائسة بصفوف منهم طويلة، راحت تنتظر، في صبر، دورها في شراء الخبز الخبيث. وفيما كانوا ينتظرون، فارغي البطون خائري القوى، احتالوا على الوقت بالعناق ابتهاجاً بالانتصارات التي أحرزوها ذلك النهار وبانتزاع تلك الانتصارات كرةً أخرى، من طريق اللغو والهذر. وشيئاً بعد شيء تقاصرت تلك الخطوط، خطوط الناس ذوي الأسمال البالية، وتساقط زغبها. وعندئذ أخذت أضواء شاحبة هزيلة تشع في النوافذ العالية، وأضرمت في الشوارع نيران هزيلة طبخ الجيران طعامهم بها على نحوٍ مشترك، ليتناولوا بعدُ عشاءهم عند أبواب منازلهم.

كانت عشاءاتهم تلك مطففة غير وافية، بريئةً من اللحم ومن كل إدام آخر يُغمس فيه الخبز الشقيّ. ومع ذلك فقد أفرغت الإلفة الإنسانية بعض الغذاء في الطعام الصّلب، وقدحت بعض شرارات البهجة منه. وانصرف الآباء والأمهات الذين شاركوا مشاركةً كاملة في نشاط النهار الأسوأ، إلى ملاعبة أولادهم المهازيل وملاطفتهم. وتجاذب العشاق، وقد

أحاطت بهم وتراءت أمامهم دنيا جديدة، أحاديث الهوى، وأخذوا بأسباب الأمل.

وكان الصبح على وشك الانبلاج عندما غادر حانة دوفارج آخر فوج من أفواج الزبائن. وفي صوت أجشّ قال مسيو دوفارج للسيدة زوجته فيما هو يوصد الباب: «وأخيراً حانت الساعة، يا عزيزتي!»

فأجابته السيدة: «إيه، حسناً! لقد اقتربَتْ.»

ونام سان انطوان، ونام الدوفارجان: حتى «الانتقام» نامت مع زوجها السمان الجائع، وأخلدت الطبلة إلى الراحة. وكانت تلك الطبلة هي الصوت الوحيد، الذي لم يغيّره الدم والهرج، بين أصوات سان انطوان جميعاً. فقد كان في ميسور «الانتقام»، بوصفها المكلفة بحراسة الطبلة، أن توقظها من سباتها وتُنطقها بمثل الكلام الذي أنطقتها به قبل أن يسقط الباستيل، أو قبل أن يُلقى القبض على فولون العجوز. وهو وضعٌ ما كان ليصحّ في أصوات الرجال والنساء المبحوحة التي ينطوي عليها صدر سان انطوان.

ـ 23 ـ

النار تتأجج

وطرأ تغيّر على القرية التي تنبع فيها العين: والتي كان معبّد الطرق ينتقل فيها كل صباح ليستخرج من حجارة الطرق كِسَراً من الخبز تصلح أن تكون رُقَعاً تُبقي روحه الشقية الجاهلة وجسده الشقيّ المهزول مجتمعَيْن. وكان السجن القائم على الهضبة الشاهقة مهيمناً على أرجاء المنطقة شأنه قديماً. كان ثمة جنود يحرسونه، ولكن عددهم لم يكن كبيراً. وكان ثمة ضباط يحرسون الجنود، ولكن أياً منهم لم يكن يدري ما الذي سوف يفعله رجاله. وفوق ذلك: لقد كان كل منهم يعرف أن عمل رجاله قد لا يكون، في أغلب الظن، وفقَ الأوامر الصادرة إليه.

وفي رقعة بعيدة واسعة انبسطَ ريفَ خَرِب ليس يُثمر غير الوحشة والخراب. كانت كل ورقة خضراء، وكل نصل من نصال العشب، وكل قشرة من قشور الحنطة فقيرةً متغضّنةً كأهل القرية البائسين. وكان كل شيء منكّساً، كسير القلب، مكظوماً، محطّماً. وكانت المساكن، والأسيجة، والحيوانات المدجّنة، والرجال، والنساء، والأطفال، والأرض التي تقلّهم، كانت هذه كلها متهرّئة بالية.

وكان مولانا (وكثيراً ما يكون فرداً يتمتع بأعظم الكفاءات) نعمة قومية تخلع على الأشياء صبغة فروسية. وكان نموذجاً كيّساً للحياة المترفة المتألقة، بل نموذجاً يتمتع من هذه الناحية بكياسة تزيد على الحاجة. ومع ذلك، فقد انتهى مولانا بوصفه ممثلاً لطبقة اجتماعية، إلى

أن يدفع بالأشياء بطريقة من الطرق إلى هذا الوضع. ومن عجب أن تصاب الخليقة، التي أوجِدت خصيصاً لخدمة مولانا، بمثل هذا الجفاف العاجل والنضوب السريع! يجب أن يكون ثمة شيء من قصر النظر في ترتيب الأشياء الأبديّ، من غير شك! ومهما يكن، كذلك كانت الحال. حتى إذا استُنزفت من حجارة الصوان آخر قطرة دم، وأدير لولب آلة التعذيب على نحو موصول حتى تحطم سنادها وأخذت الآن تدور وتدور وليس لديها ما تأكله، بدأ مولانا وزملاؤه يفرون من ظاهرة حقيرة إلى هذا الحد، وغير قابلة للتفسير إلى هذا الحدّ.

ولكن ذلك لم يكن هو التغيّر الذي طرأ على القرية، وعلى كثير من القرى المماثلة. فطوال عشرات من السنين ومولانا وزملاؤه يمتصون الحياة منها ويعتصرونها ولا يمنّون عليها بزيارة منهم إلا في الأحوال النادرة سعياً وراء لذات القنص والطرَد ـ وكانوا يقعون عليها في تصيّد الناس حيناً وفي تصيّد البهائم حيناً، البهائم حيث أفسد مولانا وزملاؤه كثيراً من الرياض والحقول وأحالوها إلى مجاهل موحشة جرداء ابتغاء صيانتها والمحافظة على سلامتها. لا. لقد تبدّى التغيّر في بروز الوجوه العجيبة من أبناء الطبقة الوضيعة، أكثر مما تبدّى في اختفاء أسارير مولانا الرفيعة المنحوتة نحتاً، الناعمة، في ما عدا ذلك، بالطوبى، التي تخلع الطوبى على الناس.

ذلك بأنه في هذه الأوقات، حين كان مصلح الطرق يعمل وحيداً في التراب، غير مزعج نفسه في كثير من الأحيان بالتفكير في أنه من تراب، وإلى تراب سوف يعود، إذ كان باله مشغولاً معظم الوقت في التفكير بعشائه الهزيل إلى أبعد الحدود وفي أنه كان خليقاً به أن يأكل أكثر من ذلك بكثير لو حصل على الطعام ـ في هذه الأوقات، حين كان مصلح الطرق يرفع عينيه عن عمله المتوحّد لينظر إلى المدى البعيد، كان يرى وجهاً خشناً يقترب سعياً على القدمين، وجهاً كان نادراً ما يُرى في تلك الأرجاء، ولكنه انتهى الآن إلى أن يصبح شيئاً مألوفاً. وفيما كان ذلك

الوجه يتقدّم، كان مصلح الطرق يتبيّن من غير ما دهش أنه وجه رجل أشعث الشعر، ذي منظر وحشي بالغ، فارع الطول، ينتعل حذاء بدا مستهجناً حتى في عيني معبّد طرق، كالح الوجه، جاف، أسمر، غائص في تراب طرق عديدة ووحولها، مبلل برطوبة سبخة أورثه إياها التخويض في كثير من الأراضي المنخفضة، منضوح بالأشواك والأوراق والطحالب التي علقت به وهو يجتاز عدة مسالك فرعية ضيقة خلال الغابات.

لقد وفدَ مثل هذا الرجل عليه، وكأنه الشبح، في الظهيرة من جوّ تموز، فيما هو يجلس على ركام الحجارة تحت أحد المرتفعات وقاية لنفسه، ولو جزئياً، من وابل من البرَد.

نظر الرجل إليه، ونظر إلى القرية التي في الغَور، وإلى الطاحونة، وإلى السجن القائم على الهضبة السامقة. حتى إذا تبيَّن هذه الأشياء بعقله المظلم، قال في لهجة ما تكاد تُفهم:

ـ «كيف الحال يا جاك؟

ـ «كل شيء حسن، يا جاك.»

ـ «هات يدك، إذن!»

وتصافحا، وجلس الرجل على ركام الحجارة.

ـ «أليس عندك غداء؟»

فقال مصلح الطرق، في وجه جائع: «ليس عندي غير العشاء الآن.»

فهزّ الرجل: «ذلك هو الزيّ الجديد. إن عيني لا تقع على غذاء في أي مكان.»

وأخرج غليوناً مسوّداً، وملأه، وأشعله بزناد، وأخذ منه نفسَاً حتى غدا متوهجاً. ثم أبعده فجأة عنه وأسقط فيه من بين سبابته وإبهامه شيئاً ما لبث أن التهب وأطلق سحابة من دخان.

ـ «هات يدك، إذن.»

لقد قالها مصلح الطرق هذه المرة، بعد أن رأى إلى هذه الأعمال. وتصافحا كرةً أخرى.

وقال مصلح الطرق: الليلة؟»

فأجاب الرجل واضعاً الغليون في فمه: «الليلة.»

ـ «أين؟»

ـ «هنا.»

وجلس هو ومصلح الطرق على ركام الحجارة يتبادلان النظرات في صمت والبرَد ينهمر بينهما مثل غارة حرابٍ واهنة حتى بدأت السماء تصفو فوق القرية.

وقال الرحالة عندئذ، وقد تقدَّم نحو منحدَر الكثيب: أرِني!»

فأجابه مصلح الطرق، باسطاً إحدى أصابعه: «انظر! تهبط من هنا، ثم تمضي خلال الشارع على نحو مستقيم، وتجتاز عين الماء...»

فقاطعه الرجل مديراً عينه نحو القرية: «إلى الجحيم بهذا كله! أنا لا أمضي خلال أيما شارع، ولا اجتاز أيما عين. ثم ماذا؟»

ـ «حسناً! على نحو فرسخين وراء قمة ذلك الكثيب، فوق القرية.»

ـ «حسن. ومتى تفرغ من عملك؟»

ـ «عند مغيب الشمس.»

ـ «هل لك أن توقظني قبل أن تبرح المكان؟ لقد مشيتُ ليلتين دمنما توقف. دعني آتي على غليوني وعندئذ أنام كما ينام الطفل. هل لك أن توقظني؟»

ـ «من غير شك.»

وأتى ابنُ السبيل على غليونه، ووضعه في جيب صدرته، وخلع خفيه الخشبيّين الضخمين واستلقى فوق ركام الحجارة. وما هي إلا لحظة حتى استسلم للرقاد.

وفيما كان معبّد الطرق مكباً على عمله المغبرّ، وفيما كانت سحائب

البرَد تندفع فتنحسر عن أقلام وخطوط سماوية زاهية تقابلها على صفحة الأرض لمعٌ فضية، بدا ذلك الرجل الضئيل (وكان يعتمر هذه المرة بقلنسوة حمراء لا زرقاء) مفتوناً بمشهد الرجل المستلقي على ركام الحجارة. . كانت عيناه تلتفتان نحوه التفاتاً شبه متواصل حتى لقد جعل يستخدم أدواته استخداماً آلياً، وحتى أنه كان في ميسور المرء أن يزعم أن ذلك العمل لم يكن ذا عَناء كبير. وكان في داخل الوجه البرونزي، والشعر الأسود الأشعث واللحية السوداء الشعثاء، والقلنسوة الصوفية الجافية الحمراء، والنسيج الصوفي الخشن من قماش بلدي الصنع ومن أوبار البهائم، والبنية القوية التي أذابها العيش البائس، وانطباق الشفتين انطباقاً مقطباً يائساً في أثناء النوم ـ كان في هذا كله ما ألقى الرعب والهلع في قلب معبّد الطرق. وكان الرحالة قد قطع مسافات طوالاً فالألم يَخزُ قدميه، والدم يسيل من كعبيه. كانت نعلاه الضخمتان المحشوتان بالأوراق والأعشاب أثقل من أن يجرهما أميالاً متعددة، وكان في ثيابه من الثقوب بقدْر ما كان في جسده هو من البثور والنَفَط(*) وانحنى مصلح الطرق إلى جانبه وحاول أن يختلس نظرةً إلى الأسلحة السرية التي يحملها في صدره أو أيما مكان آخر من جسمه؛ ولكنه لم يهتدِ إلى شيء، ذلك بأنه نام وذراعاه متصالبتان فوقه مطبِقتان على صدره كمثل إطباق شفتيه على فمه. والواقع أن المدن الحصينة بأسوارها وأبراجها وأبوابها وخنادقها وجسورها المتحركة بدت هباءاً في عين مصلح الطرق بالقياس إلى منعة هذا الرجل وإحكام تحصّنه. وحين رفع عينيه لينظر إلى الأفق ويجيل الطرف في ما حوله رأى بعين خياله الصغير وجوهاً مماثلة تتخذ سبيلها في طول فرنسة وعرضها فليس تستطيع عقبة ما أن تصدّها أو أن تعوق اندفاعها.

واسترسل الرجل في الرقاد غير عابئ بالبرَد المنهمر وبفترات

(*) النفط: بثر يخرج في اليد من العمل ويكون ملآن ماء.

الإشراق، وغير مبالٍ بتراوح الأشعة والظلال على وجهه، وبالجليد الكليل الذي كان يتساقط على جسده أو بالماس الذي كانت الشمس تحيل ذلك الجليد إليه، حتى جنحت الشمس إلى المغيب وتخضب الأفق بوهج الشفق. وكان مصلح الطرق قد جمع أدواته وتأهب للهبوط نحو القرية، فدنا من ابن السبيل وأيقظه.

وقال النائم رافعاً مرفقه: «حسن! فرسخان وراء قمة الكثيب؟»

ـ «تقريباً.»

ـ «تقريباً. حسن!»

ومضى مصلح الطرق إلى بيته يتقدمه الغبار وفقاً لاتجاه الريح. وما هي إلا فترة حتى انتهى إلى عين الماء وراح يزاحم عجاف الماشية التي جيء بها لتشرب. وقد بدا وكأنه يهمس حتى في آذانها فيما هو يهمس في آذان القرية كلها. وحين تناول القرويون عشاءهم الفقير لم يزحفوا إلى فُرشهم، جرياً على مألوف عادتهم، ولكنهم انطلقوا إلى الأبواب من جديد، وأقاموا هناك. وسرت حول الأبواب عدوى همس عجيبة، وكذلك حين اجتمع القوم حول عين الماء سرت بينهم عدوى عجيبة أخرى، فهم يصوّبون أعينهم، في توقّع، إلى ناحية واحدة ليس غير. واستبد القلق بمسيو غابيل، الموظف الرئيسي في المنطقة، فصعد وحده إلى سطح منزله وحدَّق في ذلك الاتجاه أيضاً. واختلس النظر، من وراء مداخنه، إلى الوجوه المكفهرة المتحلقة حول عين الماء من تحته، ووجّه إلى السادن المحتفظ بمفاتيح الكنيسة من يخبره بأن الحاجة قد تدعو إلى قرع ناقوس التحذير بعد هنيهة.

واشتدت حلكة الليل. وترنحت في وجه الريح الثائرة تلك الأشجار المحيطة بالقصر العتيق المحافظة على وضعه المتوحد، وكأنها تتوعد البناء الذي بدا هائلاً قاتماً في غمرة الظلام. وجرى المطر في ضراوة على سلّمي القصر، وقرَع البابَ الكبيرَ مثلَ رسول متعجل يوقظ النائمين فيه. واندفعت الرياح قلقة خلال القاعة بين الرماح والمدى العتيقة،

وصعدت السلم مُعولةً، وهزّت سُجف السرير الذي كان المركيز الأخير يضطجع فيه. وفي شرقي الغابة وغربيها، وشماليها وجنوبيها، كان أربعة رجال ثقيلي الوطأ، شُعث الشعور يتقدمون في احتراس ليلتقوا في فناء القصر، ساحقين في تقدمهم الأعشابَ، ومحطمين الأغصان. لقد برزت ثمة أربعة أضواء، ثم انطلقت في اتجاهات مختلفة. وخيم الظلام على الأرجاء، كرة أخرى.

ولكن إلى أجل غير طويل. وفي الحال، أخذ القصر يعلن عن نفسه على نحوٍ عجيب بضوء منبعث من داخله، وكأنه آخذ في التوقد والإشراق. ثم إن وميضاً مرتعشاً التمع خلف واجهة القصر متخيّراً المواطن الشفافة، كاشفاً عن موضع الدرابزونات، والأقواس، والنوافذ. ثم إن ذلك الوميض سما إلى أعلى وتعاظم سعة وإشراقاً. وفجأة اندلعت ألسنة اللهب من عشرات النوافذ الضخمة، واستيقظت الوجوه الحجرية، وحدقت وسط النار.

وانطلقت حول القصر من أفواه النفر القلائل الذين غودروا هناك، همهمةٍ خافتة، وأسرِج جواد ما لبث أن انطلق براكبه. كان ثمة في حواشي الليل نخسٌ بالمهماز وتخويض في الوحول. حتى إذا انتهى الفارس إلى الساحة القريبة من العين، كبح عنان الجواد، فوقف مزبداً لدى باب مسيو غابيل.

ـ «النجدة يا غابيل! النجدة، أيها الناس!»

وقرِع ناقوس الخطر في نفاد صبر، ولكن لم ترِدْ أيما نجدة أخرى (إذا جاز أن نعتبر قرع الناقوس نجدة.) ووقف معبّد الطرق ومئتان وخمسون من أصدقائه الخُلّص، مكتوفي الأذرع عند عين الماء، وأنشأوا يحدقون إلى عمود النار المحلّق نحو السماء. وقالوا في عبوس: «يجب أن يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً!» ولم يتحركوا من مواقعهم قط.

انطلق الفارس وجواده المزبد خلال القرية انطلاقاً مجلجلاً، وارتقيا المنحدر الصخري في اتجاه السجن القائم على الهضبة الشاهقة. وعند

باب السجن كان عدد من الضباط ينظرون إلى النار، وقد وقفتْ بعيداً عنهم بعض الشيء جمهرةٌ من الجند.

ـ «النجدة، أيها السادة الضباط! لقد أضرمت النار في القصر. إن بعض النفائس يمكن إنقاذها من النيران إذا حصلنا على المعونة العاجلة! النجدة! النجدة!

والتفت الضباط إلى الجنود الذين كانوا ينظرون إلى النار. ولم يصدروا أيما أمر إليهم. لقد كان جوابهم: «يجب أن يحترق.» ولقد قالوا ذلك وهم يهزون أكتافهم، ويعضون على شفاههم.

وتألقت القرية فيما اندفع الفارس هابطاً الكثيب من جديد، مجتازاً الطرق. كان مصلح الطرق، والمئتان والخمسون من أصدقائه الخلّص، قد انقلبوا كالسهام إلى منازلهم، بعد أن ألهموا، وكأنهم رجل واحد وامرأة واحدة، فكرةَ الإضاءَة ابتهاجاً بهذا الحدث. وأخذوا يضعون الشموع وراء كلٍّ من ألواح الزجاج الصغيرة القاتمة. وقضت الندرةُ التي عانتها القرية في كل شيء بأن تُستعار الشموع عنوةً من مسيو غابيل. حتى إذا بدا من جانب ذلك الموظف إحجام أو تردد مصلح الطرق، الذي كان من قبل بالغ الإذعان للسلطة، إلى القول بأن العربات تَصْلُح لإضرام نيران الزينة، وأن جياد البريد سوف تُشوى على لهبها.

وغودر القصر وشأنَهُ، تلتهمه ألسنة النيران. وفيما الحريق يتأجج ويهدر هبّت ريحٌ قائظة حتى التوهج ـ ريح منطلقة من أعماق الجحيم مباشرةً ـ وبدت وكأنها تريد أن تدك الصرح دكاً. ومع ارتفاع ألسنة اللهب وانخفاضها، تراءت الوجوه الحجرية وكأنها تُقاسي ضروب الألم والعذاب. حتى إذا تهاوت قطع ضخام من الحجارة والخشب حُجب الوجه الذي على أنفه نقرتان. ولكنه ما لبث أن ناضل للخروج من غمرة الدخان، فبرز مرّةً أخرى وكأنه وجه مركزي وحشيّ يُحرَق على الخازوق ويصارع النيران.

احترق القصر. وامتدت النار إلى أقرب الأشجار، فسفعتها

وغضّنتها. وطوّقت الأشجار النائية ـ التي أحرقها الرجال الأربعة القساة ـ القصرَ الملتهب بغابةٍ جديدة من الدخان. وغلى الرصاصُ والحديد الذائبان في حوض العين الرخاميّ. وغاض الماء. وتلاشت ذوائب المطافئ المعدّة فوق الأبراج وكأنها الثلج مسّتهُ النار، ورشح ذوبها فكأنه أربعة ينابيع من اللهب وعرة. وفي الجدران الصلبة، تفرّعت شقوق وفجوات. وطوّفت الطيور المشدوهة في أرجاء المكان ثم سقطت في اللهب. وأغذّ الرجال الأربعة القساة السير، شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً، مجتازين الطرق المكفّنة بالليل، تقودهم المنارة التي أضرموها إلى هدفهم الثاني. وكان أهل القرية المتألقة قد استولوا على الناقوس، فاقصوا عنه قارعه الشرعيّ وأخذوا يدقونه دقات الفرح والابتهاج.

ليس هذا فحسب. ذلك أن أهل القرية ـ وقد كاد الجوع والنار وقرع الناقوس أن يذهب بعقولهم ـ ذكروا أن مسيو غابيل كان هو الذي يجمع منهم الأجور والضرائب، على الرغم من أنه لم يحصّل في تلك الأيام القريبة غير جزء صغير من الضرائب ولم يستوفِ أجوراً ما على الاطلاق، فتشوّقت نفوسهم إلى لقائه، وحاصروا منزله ودعوه إلى أن يخرج إليهم لحديث شخصي. عندئذ أحكم غابيل إيصاد بابه بقضبان حديدية ثقال، وانقلب للتحادث مع نفسه. وكانت نتيجة ذلك المداولة أن صعد غابيل كرة ثانية إلى سطح بيته وراح يختلس النظر من وراء مداخنه الآجرية، وقد عقد النية هذه المرة، إذا ما حُطّم الباب (وكان غابيل رجلاً ضئيل الجسم من أهل الجنوب ذا مزاج نزاع إلى الأخذ بالثأر) على أن يقذف بنفسه من جدار السطح فيسحق رجلاً أو رجلين من محاصري داره، قبل أن يموت.

وأغلب الظن أن ليل ميسو غابيل تطاول فوق سطح منزله، وقد زوّده القصر القصيّ بالنار والشموع، وقام الطّرْق على باب داره وقرع النواقيس ابتهاجاً بما قد حدث، مقام الموسيقى. ليس هذا فقط، بل لقد تأرجح مصباح مشؤوم عبر الطريق المنبسطة أمام باب مركز البريد الذي يعمل

به، وكان أهل القرية شديدي التوق إلى أن يُنزلوا ذلك المصباح عن موضعه ليحلوه هو محله. وفي الحق أنه لموقف عسير ذلك الذي حمله على أن يقضي ليلة بطولها من ليالي الصيف على شفا هذا الأوقيانوس الأسود، متهيّئاً للغوص في لجته تنفيذاً للخطة التي رسمها لنفسه! ولكن الضحى الودود ارتفع آخر الأمر، وخَبتِ الشموع المصنوعة من لباب القصب المغموس في الدهن، وتفرّق القوم على ابتهاج، وهبط مسيو غابيل إلى داره مصطحباً حياته حتى حين.

وفي مدى مئة ميل، وعلى ضوء حرائق أخرى، كان ثمة موظفون آخرون لم ينعموا بما نعم به هو من حسن الحظ، في تلك الليلة وفي ليالٍ غيرها، فقد أشرقت عليهم الشمس جثثاً معلقة وسط الشوارع التي كانت من قبل آمنة، حيث وُلِدوا ونشأوا. وكان ثمة قرويون ومدنيون أقل حظاً من مصلح الطرق وأصحابه، فانقض عليهم الموظفون والجنود وشنقوهم بدورهم. ولكن الوجوه الأربعة القاسية ظلّت برغم ذلك تتخذ سبيلها شرقاً، وغرباً، وشمالاً وجنوباً. وأيّاً ما كان الجسد المعلق المشنوق، فقد ظلّت النيران مشبوبة أبداً. وكان في ميسور أيما موظف، مهما كان متمكناً من الرياضيات، أن يحسب على وجه الدقة مدى ارتفاع المقصلة التي ستصبّ الماء على تلك النيران وتخمدها.

ـ 24 ـ

صخرة المغناطيس

انقضت ثلاث سنين عاصفات على مثل هذه النيران المتأججة، والبحار الطامية. وزُعزعت الأرض الوقور أمام هجمات أوقيانوس غاضب لم يعد يعرف الجزر قط فهو متواصل الفيض مطّرد الارتفاع، يوقع الرعب والدهش في نفوس الناظرين إليه من الساحل. ونسج الخيط الذهبي ثلاثاً أخرى من سني لوسي الصغيرة لاحماً إياها في نسيج حياة ذلك البيت الآمن.

وما كان أكثر الليالي والأيام التي أصاخ فيها سكان ذلك البيت إلى الأصداء المترددة في زاوية «سوهو» بقلوب يستبدّ بها الرّوع كلما سمعوا وقع الأقدام المحتشدة. ذلك بأن وقع الأقدام ذاك أمسى في أذهانهم وقع أقدام شعب يسير في صخب تحت ظلّ راية حمراء، بعد أن رأى أن بلاده في خطر، فانقلب إلى وحوش كاسرة بفعل سحر رهيب انكبّ عليه أصحابه منذ دهر طويل.

وكان مولانا، بوصفه طبقةً اجتماعية، قد تناسى أنه ظاهرة غير مرغوب فيها ولا تتمتع بشيء من التقدير في فرنسة: فأثار غضبَه أن يتلقى الأمر بمغادرتها ومغادرة هذه الحياة في آن ما. وكما نشأ ذلك الريفي الأسطوري إبليسَ متحملاً في سبيل ذلك عذاباً لا متناهياً ثم بلغ به الذعر، حين رآه، حداً جعله لا يسأله سؤالاً ما مؤثراً أن يفرّ في الحال، كذلك سلخ مولانا دهراً طويلاً وهو يتلو، في قحة، الصلاة الربانية عكساً

لا طرداً، وأعدّ كثيراً من الرقى الفعالة الأخرى لإخضاع «الشرير» ولكنه ما إن رأى إليه في أهواله المروعة حتى انقلب على عقبيه النبيلتين وولى فراراً.

كان البلاط قد هرب حاملاً معه إنسان عينه، ولو لم يفعل إذن لأمسى إنسان عينه ذاك هدفاً لإعصار من رصاص الشعب. إنها ما كانت في يوم من الأيام عيناً تحسن الإبصار. كان يغشاها منذ عهد طويل قذىً من غرور إبليس، وترف ساردانا بالوس(*) وعمى الخلد الذي يحيا في باطن الأرض ـ ولكنها فُقئت وزالت. كذلك زال البلاط كله، ابتداءً من تلك الحلقة الداخلية الضيقة إلى الحلقة الخارجية العفنة التي قوامها الكيد والفساد والنفاق. لقد زال النظام الملكي، بعد أن حوصر في قصره وعُلِّق الحكم عليه، حين جازت الأنباء الأخيرة القناة الإنكليزية.

وأقبل شهر آب من سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة بعد الألف، وكانت طبقة النبلاء قد تناثرت في مختلف الأصقاع.

وكان طبيعياً أن يكون مصرف تلسون هو ملتقى هؤلاء النبلاء الأعظم، في مدينة لندن. وكما يُفترض في الأرواح أن تغشى المواطن التي تعوّدت أجسادها الاختلافَ إليها، كذلك غشي مولانا، وليس في جيبه جنيه واحد، ذلك الموطن الذي اعتادت جنيهاته الاحتشاد فيه. وفوق ذلك فقد كان مصرف تلسون هو البقعة التي تهرع إليها أصدق الأنباء الفرنسية وأسرعها. وكان المصرف سخياً فهو يُحسن وفادة العملاء القدماء الذين زحزحهم الدهر عن مكانتهم الرفيعة. وكان بعض النبلاء من التبصّر وبُعد النظر بحيث أحسّوا بالعاصفة قبل هبوبها، وتوقعوا السلب أو المصادرة، فاحتاطوا للأمر وحوّلوا أموالهم إلى مصرف تلسون في الوقت المناسب. فكان في هذا ما جعل إخوانهم من النبلاء المعوزين يختلفون إلى المصرف عساهم يجدون عندهم بعض

(*) هو أشور بانيبال أحد ملوك (الأشوريين (668 = 626؟ ق.م.). (المعرب)

العون. يضاف إلى هذا كله أن معظم القادمين حديثاً من فرنسة كانوا يقصدون أول ما يقصدون إلى مصرف تلسون حيث يزوّدون القومَ بآخر الأخبار. لهذه الأسباب المختلفات غدا مصرف تلسون في ذلك الحين المركز الرئيسي الذي تُستقى منه أنباء فرنسة. ولقد عرف الجمهور ذلك أحسن المعرفة، وتكاثرت الأسئلة على المصرف، حتى لقد وجد القيّمون عليه أن من الخير أن يكتبوا الأنباء الأخيرة في سطر أو سطرين، ويعلقوها على نوافذ المصرف لكي يطلع عليها كل من هُرع خلال تامبل بار لقراءتها.

وذات أصيل كثير السحاب والضباب جلس مستر لوري إلى مكتبه وقد وقف تشارلز دارني أمامه، متكئاً على ذلك المكتب، وأنشأ يتحدث إليه في صوت خفيض. وكان كهف التوبة الذي أفرِد في وقت ما للاجتماع بعمدة المصرف قد جُعل الآن مركزاً لتبادل الأنباء، فهو يغصّ بمن فيه ويفيض. وإنما جرى هذا الحديث قبل موعد إغلاق المصرف بنصف ساعة.

وقال تشارلز دارني في شيء من التردد: «ولكن على الرغم من أنك أكثر الناس فتوةً ونشاطاً، فإني أحبّ أن أقول لك. . .»

فقال مستر لوري: «أفهم. تريد أن تقول لي إني شيخ عالي السن؟»

ـ «إن الجو متقلب، والرحلة طويلة، ووسائل السفر رديئة، والفوضى متفشية في البلاد. ثم إن مقامك في المدينة قد لا يكون مأمون العاقبة.»

فقال مستر لوري في ثقة مستبشرة: «هذه بعض الأسباب التي تحملني على الذهاب، لا على البقاء يا عزيزي تشارلز، إن في باريس قدراً من الأمن يكفيني. وما أحسب أن ثمة من يرغب في التحرش برجل عجوز كاد أن يبلغ الثمانين، على حين تغصّ المدينة بآلاف من الشباب الناضرين. أما قولك إن حبل الأمن مضطرب فجوابي عنه أنه لولا ذلك الاضطراب لما كان ثمة داعٍ إلى أن يرسل المصرف من مركزه هنا إلى

فرعه هناك، رجلاً يعرف المدينة. وشؤون العمل منذ عهد بعيد، ويتمتع بثقة تلسون وشركائه. وأما كلامك على وسائل المواصلات الرديئة، وطول الرحلة، وتقلّب الأحوال الجوية فليس لي جواب عنه إلا القول: «إذا لم أنشط أنا لتجشّم بعض المتاعب من أجل مصرف تلسون، بعد هذه السنوات كلها، فمن ذا الذي يُنتظر منه أن يفعل ذلك؟»

وفي شيء من القلق قال تشارلز دارني وكأنه امرؤ يفكّر بصوت عال: «ليتني أذهب أنا إلى هناك.»

فصاح مستر لوري: «حقاً! إنك خير من يعترض ويسدي النصيحة! تتمنى لو تذهب إلى هناك، وأنت فرنسي المولد؟ إنك لمستشار حكيم!»

ـ «ولكن يا عزيزي مستر لوري، إن كوني فرنسي المولد هو الذي جعل هذه الفكرة (التي أقصد إلى التعبير عنها هنا) تراود ذهني كثيراً. إن المرء الذي سبق له أن أبدى بعض العطف على البائسين وتخلى لهم عن بعض الأشياء،» وهنا تحدّث بطريقته التأملية السالفة، «لا معدى له عن التفكير في أنه قد يكون مسموع الكلمة في وطنه، وأنه قد يوفق إلى إقناع القوم بضرورة الاعتدال. في الليلة البارحة فقط، بعد أن فارقتَنا، حين كنت أحادث لوسي. . .»

فكرر مستر لوري: «حين كنتَ تحادث لوسي. . . أجل. لست أدري كيف لا تستحي من أن تذكر اسم لوسي! وتتمنى لو تذهب إلى فرنسة في هذه الساعة من النهار!»

فقال تشارلز دارني في ابتسامة: «أنا لست بذاهب، على أية حال. ولكنك أنت الذي تقول إنك ذاهب.»

ـ «أجل، إني ذاهب حقاً. الواقع، يا عزيزي تشارلز،» وهنا وجّه مستر لوري طرفه نحو فرع المصرف النائي، هناك في فرنسة، وخفض صوته مُضيفاً: «الواقع أنك لا تدري المصاعب التي نلقاها في القيام بعملنا، والخطر الذي يتهدد دفاترنا وأوراقنا في تلك الديار. واللّهُ الذي في السماء يعرف أيّ شرّ سوف يحيق بكثير من الناس إذا ما نُهبت بعض

وثائقنا أو أتلفت، وهو شيء قد يقع ـ كما تعرف ـ في أيما لحظة، إذ من ذا الذي يستطيع أن يقول إن باريس لن تغدو طعمة للنار غداً، أو هدفاً للسّلب بعد غد؟ وعلى آية حال فإن غربلة هذه الوثائق واختيار أهمها في أقصر وقت ممكن، ثم دفنه في مكان ما أو إبعاده عن طريق الخطر ـ أقول إن هذا كله ليس في ميسور أحد سواي القيام به من غير أن يضيع شيئاً من الوقت الثمين، هذا إذا كان لبشريّ أن يزعم القدرة على النهوض بهذا العبء الثقيل. فهل يجوز لي أن أتردد؛ حين يعرف مصرف تلسون ذلك ويقوله ـ مصرف تلسون الذي أكلت خبزه هذه السنوات الستين ـ لمجرد أن مفاصلي متصلبة بعض الشيء؟ ماذا؟ إني لغلام صغير، يا سيدي، إذا ما قستُ نفسي إلى نصف دزينة من هؤلاء الشيوخ البائسين، العاملين هنا!»

ـ «ما أشد إعجابي بروحك الفتية الشهمة، يا مستر لوري!»

فقال مستر لوري وهو يبسط نظره نحو المصرف القائم في فرنسة: «هراء، يا سيدي وينبغي أن تذكر، يا عزيزي تشارلز، أن إخراج أيما شيء من باريس، في الوقت الحاضر، يكاد يكون مستحيلاً. والحق أن بعض الأوراق والأشياء النفيسة قد حُملت إلينا هذا النهار (وأرجو أن يظل هذا الكلام سراً في صدرك لأنه ليس من شِيمة رجل الأعمال الحصيف أن يهمس بأشياء كهذه في أذن أحد، حتى في أذنك أنت) بأيدي حَمَلةٍ ليس أعجب منهم ولا أغرب، حَمَلةٍ تأرجح رأس كل منهم، حين اجتاز الحدود، وليس يُمسكه غير شعرة واحدة. كانت طرودنا تروح وتجيء في مثل السهولة التي عهدناها في إنكلترة القديمة ذات الروح التجارية. أما الآن فقد تغيّرت الحال تغيّراً تاماً.»

ـ «وهل ستذهب الليلة حقاً؟»

ـ «أجل، سوف أذهب الليلة، لأن المسألة غدت ملحّة إلى حد لا يجيز التأجيل.»

ـ «ولن تصطحب أحداً؟»

ـ «لقد عُرضت عليّ أسماء كثيرة لم أرتح إلى أحد منها. أنا أعتزم

أن أصطحب جيري. فهو طالما نهض بعبء حراستي في ليالي الأحد، حتى لقد ألفتُهُ. إن أحداً لا يخاله غير كلب إنكليزي من نوع عفراس(*)، ولن يظنه إلا منقضاً على أيما امرئ يمسّ سيده بسوء.»

ـ «يتعيَّن عليّ أن أقول، مرّة ثانية، إنني معجب من صميم فؤادي بشهامتك وفتوتك.»

ـ «ويتعيَّن عليّ أن أقول، مرّة ثانية، إنّ هذا هراء، هراء! وإذا ما نهضتُ بهذه المهمة الصغيرة فقد أقبل ما عرضه عليّ المصرف فأتقاعد وأخلد إلى الراحة. وعندئذ يتسع لي مجال التفكير في الشيخوخة.»

دار هذا الحوار عند مكتب مستر لوري المعهود، وقد احتشد على ياردة أو ياردتين منه جمهور من النبلاء الفرنسيين المتبجحين بأنهم سوف ينتقمون لأنفسهم من الطغام، في وقت قريب. فقد كان من دأب أولئك النبلاء اللاجئين، ومن دأب أنسبائهم البريطانيين، أن يتحدثوا عن هذه الثورة الرهيبة وكأنها الحصاد الأوحد، تحت قبة السماء، التي لم تُزرع قط ـ وكأنه لم يُصنع شيء أو يُجتنبْ صنع شيء مما أدّى إليها ـ وكأن المراقبين لملايين المساكين الفرنسيين، وللموارد التي أسيئ استعمالها والتي كانت جديرة بأن تجعلهم في رغد من العيش، لم يروها محتمّة الاندلاع، قبل وقوعها بسنوات وسنوات، ولم يدوّنوا ما قد رأوه بكلام واضح صريح. والواقع أنه كان من العسير على أيما رجل عاقل يعرف الحقيقة أن يستمع إلى هذا التبجح، وإلى الخطط المتطرفة التي كان النبلاء يرسمونها لإعادة وضعٍ استنفد نفسه، وأبلى الأرضَ والسماء كما أبلى نفسه. وإنما كان هذا التبجح المرَسل من حوله ـ وكأنه غليان الدماء في رأسه ـ مضافاً إلى قلق كامنٍ في ذهنه ـ هو الذي أورث تشارلز دارني القلق.

(*) كلب غليظ الرأس والعنق شرس الطباع. وهو المعروف عند الإنكليز بـ «بولدوغ» Bulldog. (المعرب)

وكان بين المتحدثين سترايفر المحامي الذي خطا خطوات واسعة في معارج التقدم الرسميّ، فهو ينضح بالتعصب على الثورة، وهو يشرح لممثلي مولانا في لندن وسائله لنسف الشعب ومحوه كله من على وجه الأرض والعيش من غير ما حاجة إليه، وللقيام بأشياء كثيرة مماثلة في طبيعتها للقضاء على النسور بِذَرّ الملح على أذيال الجنس كله. واستمع دارني إلى كلامه ذاك، وهو ساخطٌ إلى حد بعيد. ووقف متحيراً لا يدري ما يفعل: أيغادر المصرف لكي لا يسمع شيئاً إضافياً أم يبقى ليقول كلمته؟ ولكنّ حيرته لم تطل كثيراً إذْ وقع ما كان القدر قد قضى بوقوعه.

وتفصيل ذلك أن القيّم على المصرف أقبل على مستر لوري ووضع تحت بصره رسالة مختومة قذرة، وسأله ما إذا كان قد اهتدى إلى أيما أثر من آثار الرجل الموجهة إليه. وكان القيّم على المصرف قد وضع الرسالة على مقربة من دارني، بحيث استطاع أن يقرأ عنوانها. وإنما ساعده على الإسراع في ذلك أن العنوان كان يحمل اسمه هو. فقد كان الكلام الذي على ظاهر الرسالة يجري هكذا، مترجماً إلى الإنكليزية:

«عاجل جداً. إلى السيد سان ايفريموند المركيز الفرنسي السابق، بواسطة السادة تلسون وشركائهم، أصحاب مصرف تلسون. لندن، إنكلترة.»

وكان الدكتور مانيت قد رجا مستر تشارلز دارني أحرّ رجاء، صباح يوم الزواج، أن يبقى سر هذا الاسم مغلقاً على الجميع إلا إذا أحلّه الطبيب من هذا الالتزام. من أجل ذلك لم يعرف أحد غير الدكتور مانيت اسمه الحقيقي. ولم تستشعر زوجته أيما شك من هذه الناحية. وكذلك ما كان في طوق مستر لوري أن يشك بحال من الأحوال.

وقال مستر لوري مجيباً مدير المصرف: «لا. لقد سألت كل امرئ هنا، ولكن أحداً لم يستطع أن يدلني على مكان هذا الرجل.»

وإذ انحرف عقربا الساعة نحو موعد الإغلاق، فقد اندفع تيار المتحدثين قوياً عارماً أمام مكتب مستر لوري. فرفع الرسالة مستطلعاً

رأي القوم عن صاحب هذا العنوان. ونظر مولانا إلى الرسالة، في شخص هذا اللاجئ الساخط المتآمر. ونظر مولانا إليها في شخص ذلك اللاجئ الساخط المتآمر. ونظر إليها هذا، وذاك، وذلك، وقالوا كلهم، بالفرنسية أو بالإنكليزية، كلاماً يرشح بالاستخفاف بهذا المركيز الذي ما كان ليوجد في مكان ما.

وقال أحدهم: «أعتقد أنه ابن عم المركيز الرفيع التهذيب الذي قُتل. ولكنه خلَفٌ متفسّخ سافل، على كل حال. أنا سعيد بأن أقول إني لم أعرفه قط.»

وقال آخر ـ وكان مولانا هذا قد أخرِج من باريس، مرفوع الرجلين إلى أعلى، نصف مختنق وسط حمل من التبن ـ: «إنه جبان تخلى عن مركزه منذ بضع سنوات.»

وقال ثالث حادجاً العنوان من خلال نظارتيه، فيما هو يمر بالمكتب: «لقد أصابته عدوى الأفكار الجديدة. فوقف من المركيز السابق موقفاً معارضاً وهجر الإقطاعات حين ورثها عنه، وتركها للأوغاد من الغوغاء. إنهم سوف يجازونه، الآن، في ما أرجو، الجزاء الذي يستحق.»

وصاح سترايفر المتفاخر المنتفخ: «هاي؟ هل فعل ذلك؟ إيكون الرجل الذي تبحثون عنه من هذا النوع؟ دعونا نلقي نظرة على اسمه المقيت. لعن اللّه الرجل.»

ولم يعد في ميسور دارني أن يحتمل أكثر مما فعل، فمسّ كتف مستر سترايفر وقال: «أنا أعرف الرجل.»

فسأله سترايفر: «أتعرفه، وحق المشتري(*)؟ أنا آسف لذلك.»

ـ «لماذا؟»

(*) جوبيتير.

ـ «لماذا، يا مستر دارني؟ ألم تسمع ماذا فعل؟ لا تسأل لماذا، في هذه الأيام.»

ـ «ولكني أحب أن أسأل لماذا؟»

ـ «إذن أكرر لك القول، يا مستر دارني، إني آسف لذلك، أنا آسف لأن أسمعك تطرح أياً من هذه الأسئلة العجيبة. ههنا رجل أصابته عدوى مذهب شيطاني لم يعرف التاريخ أحفل منه بالفساد والتجديف، فتخلى عن ممتلكاته لأحط حثالة في الأرض ارتكبت الجرائم بالجملة، ومع ذلك فأنت تسألني لماذا آسف لأن يعرفه رجل يهذب الناشئة؟ حسناً، ولكني سوف أجيبك. أنا آسف لأن في مثل هذا الوغد دنساً. هذا هو السبب.»

وذكر دارني العهد الذي قطعه للدكتور مانيت بالحفاظ على السر، فكبح جماح غضبه وقال: «لعلك لم تفهم الرجل.»

فقال سترايفر المخاصم: «أنا أفهم كيف أدحض حجتك يا مستر دارني، ولسوف أفعل ذلك. فإذا كان هذا الرجل سيداً فاضلاً فأنا لا أفهمه أبداً. في استطاعتك أن تقول له هذا مع تحياتي. وفي إمكانك أيضاً أن تقول له، بالنيابة عني، إني لأعجب كيف لم يضع نفسه على رأس الغوغاء السفاكين بعد أن تخلّى لهم عن مركزه وممتلكاته كلها. ولكن لا، أيها السيد،» قال سترايفر ذلك وأجال طرفه في ما حوله، مطقطقاً أصابعه، «أنا أعرف شيئاً عن الطبيعة البشرية، وإني لأقول لك إنك لن تجد أبداً رجلاً مثل هذا الرجل يُسلم نفسه لرحمة هؤلاء المحميّين المبجّلين. لا، أيها السادة، إنه خليق بأن ينقلب على عقبيه بُعيد نشوب المعركة ويولّي الإدبار.»

قال مستر سترايفر هذه الكلمات، وطقطق أصابعه للمرة الأخيرة، ثم راح يشق طريقه إلى «فليت ستريت»، وسط استحسان عام من مستمعيه. وغُودر مستر لوري وتشارلز دارني وحدهما عند المكتب بعد أن أخذ القوم كلهم يغادرون مصرف تلسون.

وقال مستر لوري: «هل تحب أن تتولى أمر هذه الرسالة؟ أنت تعرف الرجل الذي ينبغي أن تُسلم إليه؟»

ـ «أجل، أعرفه.»

ـ «هل لك أن توضح له أننا نفترض أن هذه الرسالة وُجِّهت إلينا على اعتبار أننا قد نعرف مقرّ الشخص الذي ينبغي أن تسلم إليه، وأنها لبثتْ عندنا فترة من الزمن؟»

ـ «سوف أفعل ذلك. أتعتزم أن تنطلق إلى باريس، من هنا؟»

ـ «أجل من هنا. في الساعة الثامنة.»

ـ «سوف أرجع لأودعك.»

ووسط عاصفة من النقمة على نفسه وعلى سترايفر ومعظم الرجال الآخرين، مضى دارني مسرعاً إلى موطن هادئ من تامبل بار، وفض الرسالة وقرأها، فإذا هي تقول:

«سجن آباي، باريس

«21 حزيران، 1792

«سيدي المركيز السابق.

«بعد أن هدد أهل القرية حياتي بالخطر، فترة طويلة من الزمان، ألقي القبض عليّ في كثير من العنف والإهانة، وأكرهت على أن أقطع المسافة الشاسعة التي تفصلنا عن باريس مشياً على القدمين. وعلى الطريق، قاسيت عذاباً كثيراً. ليس هذا فحسب، بل لقد خرب بيتي وسوّي بالأرض.

«إن الجريمة التي سجنت من أجلها، يا سيدي المركيز السابق، والتي سأمثل من أجلها أمام القضاء، وأخسر حياتي ـ إذا لم تسدِ إلي مساعدة كريمة ـ هي، كما يقولون، خيانة قضية الشعب العظيم، خيانة تتمثل في أني عملت ضد الشعب لمصلحة أحد النبلاء المهاجرين. وعبثاً حاولت أن أقنعهم بأني عملت من

أجل الشعب لا ضد الشعب، وفقاً لأوامرك. عبثاً حاولت أن أقنعهم بأني قبل أن يصار إلى مصادرة أموال المهاجرين، أمهلتهم في دفع الضرائب التي رفضوا أداءها، ولم أحصل منهم على أيما أجر من الأجور، ولم ألجأ إلى اتخاذ أيما إجراء قانوني. لقد كان جوابهم الوحيد على هذا كله أني عملت لمصلحة نبيل مهاجر، وأين ذلك النبيل المهاجر؟

«آه، يا سيدي المركيز السابق الذي لا يدانيه أحد في الفضل والكرم، أين ذلك النبيل المهاجر؟ أنا أصيح في نومي، أين هو؟ أنا أسأل السماء، ألن يأتي لإنقاذي؟ ولكن، لا جواب، آه، يا سيدي المركيز السابق: إني أرسل صرختي اليائسة عبر البحر، راجياً أن تبلغ مسمعيك من طريق مصرف تلسون العظيم، المعروف في باريس!

«إني أستحلفك بحب الرب، والعدالة، والكرم، وبشرف اسمك النبيل، وأتضرع إليك، يا سيدي المركيز السابق، أن تغيثني وتطلق سراحي. كل خطيئتي أنني كنت مخلصاً لك. آه، يا سيدي المركيز السابق، أتوسل إليك أن تكون مخلصاً لي!

«ومن هذا السجن الراعب، الذي يدنيني من الهلاك ساعة بعد ساعة، أبعث إليك، يا سيدي المركيز السابق، توكيداً بأني سأظل خادمك البائس الكئيب.

«المعذب المنكوب: غابيل»

واستثارت هذه الرسالة القلق الكامن في عقل دارني وبعثت فيه حياة عنيفة. ذلك بأن الخطر المحدق بخادم قديم ومطيع كلّ جريمته أنه أخلص الولاء له ولأسرته، أنشأ يحدّق إلى وجهه تحديقاً يقطر منه التقريع والتعنيف، فإذا هو يذرع «تامبل بار» جيئة وذهوباً، مفكراً في ما يتعيّن عليه أن يفعله، حاجباً وجهه ـ أو يكاد ـ عن أعين السابلة.

لقد عرف جيداً أنه في استفظاعه للعمل الذي توّج مساوئ أسرته

القديمة وسمعتها الرديئة، وفي سوء ظنه بعمه، وفي الاشمئزاز الذي واجه به ضميرُهُ ذلك البناء المتقوّض الذي كان يُفترض فيه أن يدعمه، لم يسلك المسلك الكامل. لقد عرف جيداً إن تخلّيه ـ في غمرة من حبه للوسي ـ عن مركزه الاجتماعي، وإن لم يكن جديداً على تفكيره بحالٍ، كان عملاً متعجلاً ناقصاً. لقد عرف أنه كان يتعيَّن عليه أن يدبّر ذلك الإرث تدبيراً نظامياً ويتعهده بالإشراف عليه، وأنه كان يعتزم أن يفعل ذلك، ولكنه لم يفعل قط.

كانت تحيط به ظروف خاصة، من مثل السعادة التي فاز بها في بيته الإنكليزي المختار، واضطراره إلى أن يعمل عملاً مرهقاً متواصلاً، وتعاقب الأحداث وتطورها على نحو سريع جعل وقائع هذا الأسبوع تُفسد خطط الأسبوع السابق الفجّة، وجعل وقائع الأسبوع التالي تفسد الخطط التي وُضعت وفق وقائع الأسبوع الذي قبله. ولقد عرف جيداً أنه استسلم لسلطان هذه الظروف، ضيّقاً بها بعض الشيء ولكنْ من غير ما مقاومة متواصلة متراكمة، ولقد عرف جيداً أنه رصد الزمان ريثما يحين أوان العمل، وأنه كدح وناضل حتى تقضَّى الزمان وأطلق النبلاء سُوقهم للريح فوق كل طريق من الطرق العامة والفرعية، وصودرت ممتلكاتهم وخربت، وجفّت حتى أسماؤهم وامَّحت. أجل، لقد عرف ذلك جيداً بقدر ما تستطيع أن تعرفه أيّ سلطة فرنسية قد توجّه إليه التهمة من أجل ذلك.

ولكنه لم يظلم إنساناً ما. ولم يسجن إنساناً ما. وكان يكره انتزاع الرسوم والضرائب في قسوة ووحشية بحيث آثر أن يتنازل عنها بمحض إرادته، وأن يطوّح بنفسه إلى عالم لا حظوة له فيه، فينعم باحترام الناس، ويكسب خبزه بعرق جبينه. ولقد عهد إلى غابيل بأمر القرية الفقيرة بعد أن أوصاه وصايا مكتوبة، نصّ فيها على أن عليه أن يرفق بأهلها، وأن يعطيهم القليل الذي كان في وسعه أن يعطيهم إياه، من مثل ذلك المقدار من الوقود الذي يسمح لهم الدائنون الكبار بأخذه، في الشتاء، وذاك

المقدار من المحصول الذي يمكن أن يُنتزع من القبضة نفسها، في الصيف. ولا ريب في أنه قد أقام الحجة والبرهان على صحة هذه الواقعة ـ حفاظاً على سلامته الخاصة، بحيث يكون من المحتوم أن تُجلى الآن للعيان.

وكان في ذلك ما عزّز العزم اليائس الذي كان تشارلز دارني قد شرع يوطده والذي يقضي بأن يسافر إلى باريس.

أجل. فمثلَ ذلك الملاح الذي تتحدث عنه الأسطورة القديمة، كانت الرياح والتيارات قد ساقته إلى صخرة المغناطيس، فهي تجذبه إليها، وهو مضطر إلى الذهاب. كانت كل خاطرة من الخواطر التي راودته تسوقه سوقاً أسرع فأسرع، وفي اطّراد أكثر فأكثر، نحو تلك الصخرة الرهيبة. لقد كان يقلقه من قبلُ أن توجَّه الثورة في بلاده التعسة، وبأيدي نفر من الرجال غير الصالحين، وجهة منحرفة، على حين كان يستطيع أن يغفل عن أنه، وهو أفضل منهم جميعاً، لم يكن هناك. ولو كان هناك إذن لسعى جهده إلى وضع حدّ لإراقة الدماء وإلى التعلق بأهداب الرحمة والإنسانية. وفيما كان ذلك القلق الذي ساوره يخمد تارة، ويثور تارة، قارن ما بين موقفه وموقف ذلك الرجل العجوز الشجاع الملتهب بالحرص على أداء الواجب. وما إن فرغ من عقد هذه المقارنة (التي حزّت في نفسه) حتى ذكر سخريات النبلاء التي لسعته لسعاً مريراً، وسخريات سترايفر التي كانت خشنة جارحة بخاصة، لأسباب قديمة. وبعد ذلك ألّمت بمخيلته رسالة غابيل كصرخة سجين بريء، مهدد بالموت، يستحلفه بمروءته وشرفه وباسمه الطيب أن يبادر إلى إنقاذه.

لقد وطد العزم. إن عليه أن يذهب إلى باريس.

أجل، كانت صخرة المغناطيس تجتذبه. فيتعيَّن عليه أن يبحر حتى يلتصق بها. كان غافلاً عن تلك الصخرة، وكان لا يستشعر ـ أو يكاد ـ خطراً ما. فقد خيِّل إليه أن النية التي أصدر عنها حين عمل ما عمله،

على الرغم من أن ذلك الصنيع لم يبلغ حد الكمال، كفيلة بأن تجعل القوم يرحبون بمقدمه ترحيباً كبيراً. ثم تمثلت له تلك الرؤيا المجيدة التي تحفز المرء إلى أن يعمل صالحاً ـ والتي كثيراً ما كانت سراباً دامياً قضى على كثير من أصحاب النفوس الرضية حتى لقد خيِّل إليه أنه سوف يصبح، إذا ما انقلب إلى وطنه، رجلاً ذا نفوذ، رجلاً قادراً على أن يوجّه هذه الثورة المتعاظمةَ ضراوتُها يوماً بعد يوم، وجهةً خيّرة.

وفيما هو يغدو ويروح، وقد وطّن النفس على السفر، بدا له أن الأفضل أن لا تعلم لوسي وأبوها بالذي وطّد العزم عليه إلا بعد أن يسافر فعلاً. وبذلك تُكفى لوسي مؤونة الفراق، ويعرف أبوها (وكان ما يزال يكره التفكير في موطنه السابق الذي أورثه ضروب الآلام) بالرحلة بوصفها أمراً مقضياً، لا مجال فيه للتردد والشك. ولم يحاول أن ينظر إلى أيّ مدى كان والدها مسؤولاً عما أعوز موقفه من الكمال، نتيجة لقلقه الموجع من بعث ذكريات السجن القديمة في ذهن الطبيب. ولكن هذا العامل أيضاً كان له أثره في المسلك الذي انتهجه.

وأنشأ يذرع المكان جيئة وذهوباً، موزّع اللب، مضطرب البال، حتى حان موعد العودة إلى المصرف لتوديع مستر لوري، وقد عزم على أن لا يكشف لهذا الصديق القديم عمّا استقرّ عليه رأيه إلا بعد أن يبلغ باريس.

كانت مركبةٌ ذات جياد واقفة بباب المصرف. وكان جيري كامل العدّة منتعلاً حذاءه العالي الساق.

وقال تشارلز دارني لمستر لوري: «لقد أسلمت تلك الرسالة إلى صاحبها. ولست أرضى أن تُحمّل أيما جواب خطي، ولكنْ لعلك لا تجد بأساً في أن تحمل جواباً شفهياً؟»

فقال مستر لوري: «أنا مستعد لذلك، بطيبة خاطر، إذا لم يكن الجواب خطراً.»

ـ «لا، على الإطلاق. برغم أنه موجّه إلى معتقل في سجن إباي.»

فقال مستر لوري ومفكرته مفتوحة في يده: «غابيل. وما الرسالة التي تريد أن أحملها إلى التعِس غابيل في سجنه؟»

ـ «قل له: إنه تلقى الرسالة، وإنه سوف يأتي.»

ـ «هل ثمة وقت محدد؟»

ـ «سوف يسافر غداً مساء.»

ـ «هل أذكر له اسماً ما؟»

ـ «لا.»

وساعد مستر لوري في التلفّع بعدد من المعاطف والأبراد، وانطلق معه من دفء المصرف القديم إلى هواء «فليت ستريت» الضبابيّ. وقال مستر لوري وهو يودعه: «إحمل محبتي إلى لوسي، وإلى لوسي الصغيرة، وأعتن بهما أعظم العناية ريثما أعود.»

هزّ تشارلز دارني رأسه وابتسم في ارتياب، بينما كانت العربة تمضي لسبيلها.

سهر تلك الليلة ـ من اليوم الرابع عشر من آب ـ حتى ساعة متأخرة. وخطّ رسالتين متقدمتين إحداهما للوسي، وهي تشرح الواجب الذي يفرض عليه الذهاب إلى باريس وتظهر لها، آخر الأمر، الأسباب التي تحمله على الاعتقاد بأنه سوف يكون في مأمن من كل خطر هناك. والأخرى للدكتور، يعهد فيها إليه بأمر العناية بلوسي وطفلتها العزيزة ويعالج الموضوع نفسه في أشد التوكيد. ولقد كتب لكل من لوسي والطبيب أنه سوف يوجّه إليهما الرسائل المؤذنة بسلامته، بعد وصوله إلى باريس مباشرة.

كان يوماً عسيراً ذلك اليوم الذي قضاه معهما، وقد أضمر لأول مرة في حياتهم المشتركة شيئاً عنهما. لقد كان عسيراً عليه أن يضمر المخادعة البريئة التي كانا في غفلة كاملة عنها. ولكن نظرةً محبةً إلى زوجته، المنهمكة في عملها وقد غمرتها السعادة، جعلته يحجم عن إنبائها

بالخطوة التي يوشك على القيام بها (كانت نفسه تنازعه إلى إنبائها، إذ وجد من المستغرب جداً أن يقدم على عمل لا تساعده هي فيه). وتقضَّى النهار في سرعة. وفي أوائل المساء عانقها، وعانق سَميّتها التي ما كان حبه لها ليقلّ عن حبه لأمها، متظاهراً بأنه سوف يرجع بعد هنيهة (زاعماً أنه على موعد مع شخص وهمي، وكان قد أخفى حقيبة ملأى بالثياب) وانطلق إلى الشوارع الكئيبة الرازحة تحت الضباب الثقيل، وبين ضلوعه قلب أكثر كآبة.

كانت القوة غير المنظورة، تجذبه الآن نحوها جذباً سريعاً، وكانت جميع الرياح والأمواج تتجه به في استقامة وعنف إلى هناك. لقد دفع الرسالتين إلى حاجب موثوق ليسلّمهما إلى لوسي وأبيها قبل منتصف الليل بنصف ساعة لا قبل ذلك. وامتطى جواداً إلى دوفر، وبدأ رحلته. وكانت صرخة السجين البائس «أستحلفك بحب الرب، والعدالة، والكرم، وبشرف اسمك النبيل!» هي الرُّقية التي قوّى بها فؤاده الغائر، فيما هو يخلّف وراءه كل أثير لديه، في هذه الأرض، ويطفو بعيداً نحو صخرة المغناطيس.

الكتاب الثالث

أثر عاصفة

- 1 -

في السر

كانت رحلة بطيئة تلك التي قام بها صاحبنا من إنكلترة إلى باريس، خريف سنة اثنتين وتسعين وسبعمئة بعد الألف. كانت الطرق الرديئة، والعربات الرديئة، والخيل الرديئة تعوق المسافر على الرغم من أن ملك فرنسة المحطّم المنكود الحظ كان لا يزال على عرشه محوطاً بآيات المجد كلها. ولكن الفترة الجديدة كانت مثقلةً بعوائق أخرى غير هذه. كان يقوم عند باب كل بلدة ومركز جباية الضرائب في كل قرية عصبة من المواطنين المجاهدين، المستعدة بنادقهم الوطنية للانطلاق استعداداً انفجارياً ما بعده، فهم يعترضون سبيل المارّين، ويستجوبونهم، ويتحرون أوراقهم، ويبحثون عن أسمائهم في لوائح خاصة بهم، ثم يردّونهم على أعقابهم، أو يسمحون لهم بمواصلة السير، أو يوقفونهم حيث هم ويلقون عليهم القبض حسبما يتراءى لوهمهم أو لتقديرهم العجيب أنه خير وأبقى للجمهورية البازغ فجرها، الجمهورية الواحدة التي لا تتجزأ، جمهورية الحرية والمساواة والإخاء، أو الموت.

وكان تشارلز دارني قد اجتاز بضعة فراسخ من الأرض الفرنسية عندما بدأ يدرك أنه لا أمل له في العودة من هذه الطرق الريفية إلا إذا أعلِن مواطناً صالحاً من مواطني باريس. ومهما يحلّ به الآن فيتعيَّن عليه أن يواصل رحلته إلى منتهاها. والحق أنه لم تُطبَق، أبواب قرية حقيرة من خلفه، ولم يُقَم حاجز عادي عبر الطريق من ورائه إلا ووجد في ذلك

جداراً حديدياً آخر في السلسلة التي كانت تُقام بينه وبين إنكلترة. كان الاحتراس الكلي يطوقه تطويقاً صارماً، فلو أنه اقتيد مقيّداً أو دُفع إلى مصيره في قفص، لما استشعر أنه مسلوب الحرية بقدر ما يستشعر ذلك الآن.

ولم يوقفه هذا الاحتراس الكلي على الطريق العام عشرين مرة في كل محطة، فحسب، بل لقد عاق تقدمه عشرين مرة في اليوم الواحد، باللحاق به على متون الخيل وإرجاعه إلى نقطة بعينها، أو بسبقه على متون الخيل وإيقافه احتياطاً، أو بالانطلاق إلى جانبه ليظل رهن الرقابة. وكانت رحلته قد استغرقت في فرنسة وحدها أياماً عديدة عندما أوى إلى الفراش، وقد هدّه الإعياء، في بلدة صغيرة قائمة على الطريق العام، وما تزال تفصله عن باريس مسافة بعيدة.

إن شيئاً ما كان يمكن أن يبلغ به تلك البلدة غير رسالة غابيل المعذب من محبسه في سجن آباي. ولقد لقي من المصاعب في مخفر هذه البلدة الصغيرة ما جعله يشعر بأن رحلته قد انتهت إلى أزمة. من أجل ذلك عجب أقل ما يستطيع المرء أن يعجب إذ وجد نفسه يوقَظُ في النزل الصغير الذي أُخِر فيه حتى الصباح، عند منتصف الليل.

وإنما أيقظه موظف محلي جبان، وثلاثة وطنيين مسلحين، يعتمرون قلانس حمراء خشنة وقد جلسوا على الفراش وأنشأوا يدخنون الغليون.

قال الموظف: «أيها المهاجر، سوف أبعث بك إلى باريس تحت الحراسة.»

ـ «أيها المواطن، أنا لا أرغب في شيء أكثر من الذهاب إلى باريس، وإن كان في ميسوري أن أستغني عن الحراسة.»

ـ «فهرّ أحد لابسي القلانس الحمراء ضارباً غطاء السرير بعقب بندقيته: «اصمت! اصمت! أيها الأرستوقراطي!»

فقال الموظف الجبان: صحيح ما يقوله الوطني الصالح. أنت أرستوقراطي، ويجب أن تُحاط بحرس، وأن تدفع ثمن ذلك.»

فقال تشارلز دارني: «ليس لي أي خيار.»

صاحت القلنسوة الحمراء العابسة نفسها: «خيار؟ اسمعْ ما يقول! كأن حمايته من سلاح المصابيح ليست فضلاً ومنة!»

فقال الموظف: وما يقوله الوطني الصالح صحيح دائماً. إنهض وارتدِ ملابسك، أيها المهاجر.»

وامتثل دارني الأمر، وأعيد إلى المخفر، حيث كان وطنيون آخرون على رؤوسهم قلانس حمراء خشنة، يدخنون، ويشربون، وينامون قرب نار الحراسة. وهنا دفع ثمن حراسته غالياً، وانطلق مع الحرس مجتازاً الطرق المبتلة الرطبة في الساعة الثالثة صباحاً.

وكان الحرس يتألف من وطنيين اثنين يعتمر كل منهما قلنسوة حمراء تحيط بها شريطة مثلثة الألوان، ويحمل بندقية وطنية، وسيفاً طويلاً، وككل منهما يواكبه من جانب. كان تشارلز دارني يمسك بزمام فرسه، ولكن حبلاً مرخىً كان قد شُدّ إلى عنانه، ولُف طرفه حول معصم أحد الوطنيين. انطلقوا على هذه الحال، والمطر العنيف يصفع وجوههم، وقد أخذت أفراسهم تطأ شوارع البلدة غير المستوية وطأً ثقيلاً مجلجلاً، لتمضي بهم بعد إلى الطرق الغائصة في الوحل. هكذا اجتازوا جميع الطرق الموحلة التي تفصلهم عن العاصمة على نحو مطرد لا يعرف من التغيّر شيئاً غير تغيّر الأفراس وسرعة السير.

لقد انطلقوا ليلاً، متوقفين بعد ساعة أو ساعتين من انبلاج الفجر، ليستلقوا هناك حتى الغسق. كانت ثياب الجنديين من الرثاثة بحيث فتلا القش على أرجلهما العارية، ووضعا أكتافهما البالية على القش والطين لكي يقيا نفسيهما من أذى البلل. وفي ما عدا الضيق الشخصي الناشئ عن مثل هذه المراقبة، والمخاوف التي كانت تستبد به بسبب من أن أحد الرجلين الوطنيين كان ثملاً أبداً فهو يحمل بندقيته في طيش وعدم تبصّر، لم يسمح تشارلز دارني لهذه القيود المفروضة عليه أن تثير في صدره أيما ذعر جدي، إذ قدّر في ما بينه وبين نفسه أن لا علاقة لذلك كله بالظروف

الجوهرية الخاصة بقضية شخصية لمّا يُنظر فيها، والإفادات الممكن إثبات صحتها بشهادة سجين آباي، والتي لمّا تقدّم بعد.

ولكنهم ما إن انتهوا إلى بلدة بوفيه ـ وقد هبط الليل وغصت الشوارع بالناس ـ حتى لم يعد في طوقه أن يخفي عن نفسه أن المظاهر كلها تؤذن بخطر شديد. لقد اجتمع حشد مشؤوم ليرى إليه يترجل في فناء المركز البريدي، وانطلقت عشرات الأصوات صائحة: «ليسقط المهاجر!»

وكان على وشك أن يفارق سرج الفرس حين بدا له أن يرتدّ إليه بوصفه المكان الأكثر أمناً. وقال: «مهاجر، يا أصدقائي! ألا ترونني هنا، في فرنسة، بمحض إرادتي؟»

فصاح بَيْطار راح يتقدم نحوه على نحو هائج، وسط الحشد، وفي يده مطرقة: «أنت مهاجر ملعون. وأنت أرستوقراطي ملعون!»

وحال صاحب البريد بين هذا الرجل وبين زمام الراكب (وكان واضحاً أنه يسعى نحوه)، وقال في نبرة تهدئة: (دعه وشأنه! دعه وشأنه! إنه سوف يحاكم في باريس.»

فكرر البيطار ملوحاً بمطرقته: «سوف يحاكم! آي! وسيحكم عليه بتهمة الخيانة!» وهنا هدر الحشد هدير الموافقة والاستحسان.

وصد دارني صاحب البريد، الذي كان ينبغي أن يدير رأسه إلى الفناء (وكان الوطني الثمل قاعداً على سرجه في رصانة يراقب المشهد،والحبلُ يطوق معصمه). وقال حالما وُفق إلى أن يُسمع الناس صوته: «أيها الأصدقاء، أنتم تخدعون أنفسكم. أو لعلكم قد خُدعتم. أنا لست خائناً.»

فصاح الحداد: «إنه يكذب. إنه يعتبر خائناً منذ صدور المرسوم. إن حياته أصبحت ملكاً للشعب. إن حياته اللعينة لم تعد ملكه!»

وفي اللحظة التي رأى دارني خلالها إلى أعين الحشد مُفصحة عن

قرب الهجوم، وجه صاحب البريد فرسه نحو الفِناء، وتقدم الوطنيان محيطَيْن بفرسه عن يمين وشمال، وأوصد صاحب البريد الأبواب المزدوجة المجنونة ودعّمها بالقضبان الحديدية. وصفعها البيطار بضربة من مطرقته، وهدرَ الحشدُ، ولكنهم لم يأتوا أيما عمل آخر.

وسأل دارني صاحب البريد، بعد أن شكره ووقف إلى جانبه في الفناء: «ما ذلك المرسوم الذي أشار إليه الحداد؟»

ـ «إنه قانون يقضي ببيع ممتلكات المهاجرين.»

ـ «ومتى أقِرّ؟»

ـ «في اليوم الرابع عشر من هذا الشهر.»

ـ «يوم غادرت إنكلترة!»

ـ «الناس كلهم يقولون إنه واحد من عدة مراسيم سوف تُقرّ قريباً ـ إذا لم تقر حتى الآن ـ وهي تقضي بنفي جميع المهاجرين والحكم بالموت على كل من يعود منهم إلى الوطن. ذلك ما عناه حين قال إن حياتك ليست ملكاً لك.»

ـ «ولكن مثل هذه المراسيم لمّا تسنّ بعد؟»

فأجابه صاحب البريد رافعاً كتفيه: «وما يدريني؟ لعلها قد سُنّت، ولعلها لم تُسن بعد. سيان. ماذا تريد؟»

واستراحوا على بعض التبن في عليّة ما، حتى منتصف الليل، ثم انطلقوا كرة ثانية بعد أن نامت القرية كلها. والواقع أن تغيُّرات كثيرة طرأت على الأشياء المألوفة فجعلت هذه الرحلة وهمية. ولم تكن نُدرة النوم الظاهرية هي أقلّ هذه التغيرات شأناً وبروزاً. كانوا كلما اندفعت بهم أفراسهم اندفاعاً متطاولاً متوحِّداً على بعض الطرق الموحشة ينتهي بهم المكان إلى مجموعة من الأكواخ الفقيرة غير المغموسة في الظلام، أكواخ فقيرة تشع أضواء من جنباتها. وهناك كانوا يجدون الناس، على نحو شبحيّ في جوف الليل، يطوّفون متشابكي الأيدي حول شجرة

متغضنة من شجرات الحرية أو مصطفّين كالجند ينشدون إحدى أغاني الحرية. ولكن النوم لم يُجافِ «بوفيه»، لحسن الحظ، تلك الليلة، فسهل عليهم الخروج منها منطلقين مرة أخرى في خضم العزلة والوحشة، مجلجلين خلال البرد والبلل السابقين لأوانهما، وسط الحقول المقفرة التي لم تُطلع شيئاً من ثمرات الأرض ذلك العام، والتي رقشتها أنقاض البيوت المحترقة المسودة، والانبثاق المفاجئ من مكمنها وانطلاق العسس الوطني بخيولهم انطلاقاً عنيفاً فوق طرقها جميعاً.

طلع عليهم الصباح، آخر الأمر، أمام سور باريس. وكان الحاجز موصداً محروساً حراسة شديدة، حين اندفعت جيادهم نحوه.

تساءل رجل ينضح وجهه بصرامة السلطان، وكان الحرس قد دعوه: «أين أوراق هذا السجين؟»

وطبيعي أن تصدم هذه الكلمة البغيضة تشارلز دارني، فالتمس من المتكلم أن يعلم أنه مسافر حرّ ومواطن فرنسي تحيط به حراسة فرضتها عليه أحوال البلاد المضطربة، ودفع نفقاتها.

وكرر الرجل نفسُه من غير أن يعيره أقل التفات: «أين أوراق هذا السجين؟»

وكان الوطني الثمل يحتفظ بها في قبعته، فأخرجها منها. حتى إذا ألقى الرجل ذو السلطان نظرة على رسالة غابيل عراه بعض الاضطراب والدهش، ونظر إلى دارني في اهتمام بالغ.

ثم إنه فارق الحرس والمحروس من غير أن ينطق بكلمة، ومضى إلى المخفر. وظلوا هم، في أثناء ذلك؛ على جيادهم، خارج الباب. وفي فترة الانتظار تلك أجال تشارلز دارني بصره في ما حوله فألفى حرساً مختلطاً من الجند والوطنيين قائماً لدى الباب، عدد الوطنيين فيه أكثر من عدد الجند. ولاحظ أن الدخول إلى المدينة ميسّر لعربات الفلاحين المحمّلة بالمؤن وأشباهها من وسائل النقل، في حين كان الخروج منها عسيراً حتى على أبسط الناس وأكثرهم سذاجة. كان حشد من الرجال

والنساء، والبهائم والعربات على اختلافها، ينتظر الانطلاق، ولكن عملية التحقق من الهوية كانت دقيقة قاسية، فهم يرشحون من خلال الحاجز في بطء كثير. وعرف بعض هؤلاء الناس أن دورهم في المثول بين يدي الحرس متأخر جداً، فاستلقوا على الأرض ليناموا أو يدخنوا بينا أخذ غيرهم بأطراف الحديث، وراح آخرون يتسكعون ههنا وههناك. وكان القوم كلهم، نساء ورجالاً، يعتمرون قلانس حمراً تطوّقها شرائط مثلثة الألوان.

حتى إذا أمضى دارني، على صهوة جواده، نحواً من نصف ساعة لاحظ خلالها هذه الأشياء كلها، رجع الرجل ذو السلطان وأصدر أمره إلى الحرس بأن يرفعوا الحاجز. ثم إنه دفع إلى الرجلين المرافقين لدارني، صاحيهما وثمِلِهما، إيصالاً به، وطلب إليه أن يترجل عن جواده. وامتثل الأمرَ، فاقتاد الوطنيان جواده المتعَب، واستدارا وانطلقا من غير أن يدخلا المدينة.

وسيقَ دارني إلى غرفة للحرس تفوح منها رائحة الخمر والتبغ، وتضم عدداً من الجنود والوطنيين، بين نائم ويقظان، وصاحٍ وسكران، وفي مختلف الحالات المتوسطة ما بين النوم واليقظة، والصحو والسكر، بعضهم واقف وبعضهم مستلق على ظهره. وكان نور الغرفة مستمَداً بعضُهُ من مصابيح الزيت التي توشك أن تحتضر، ومستمَداً بعضه من نور النهار الغائم القاتم، فهو في حال من التردّد والغموض مماثلة. كانت بعض الدفاتر مفتوحة فوق مكتبٍ ما، وكان ضابط مظلم الأسارير قاسي الملامح ينظر فيها.

قال الضابط للرجل الذي اقتاد دارني، فيما هو يتناول قصاصة من الورق ليكتب عليها: «أيها المواطن دوفارج. أهذا هو المهاجر إيفريموند؟»

ـ «هذا هو.»

ـ «ما سنك، يا أيفريموند؟»

ـ «سبع وثلاثون.»

ـ «متزوج، يا أيفريموند؟»

ـ «نعم.»

ـ «أين؟»

ـ «في إنكلترة.»

ـ «من غير شك. أين زوجتك، يا أيفريموند؟»

ـ «في إنكلترة.»

ـ «من غير شك. سوف تساق يا أيفريموند إلى سجن لافورس.»

فصاح دارني: «يا لعدالة السماء! بأيّ قانون؟ وبأية جريمة؟»

ورفع الضابط بصره، لحظةً، عن قصاصة الورق.

وقال في ابتسامة صارمة: «أصبح عندنا، منذ مغادرتك البلاد، يا أيفريموند، قوانين جديدة، وجرائم جديدة.» ثم عاود الكتابة من جديد.

ـ «أرجو أن تلاحظ أني قدمتُ إلى هنا بمحض إرادتي استجابةً لهذا النداء الذي أمامك والموجّه إليّ من مواطن زميل.. أنا لا أطلب أكثر من أن تتحيوا لي الفرصة للقيام بهذا الواجب من غير إبطاء. أليس ذلك من حقي؟»

فأجابه الضابط في برود: «المهاجرون لا حقوق لهم، يا أيفريموند.»

وواصل الكتابة. حتى إذا أتمها تلا على نفسه ما كتب، وجفّف الحبر بالرمل، وقدَّم القصاصة إلى دوفارج، قائلاً: «في السر.»

وأومأ دوفارج بتلك القصاصة إلى السجين أن يرافقه. وأذعن السجين يحيط به حرس مؤلف من وطنيين مسلحين.

وفيما هم يهبطون سلم المخفر ويتجهون نحو باريس قال دوفارج في صوت خفيض: «أأنت الذي تزوجت بنت الدكتور مانيت الذي كان سجيناً ذات يوم في الباستيل المندثر؟»

فأجاب دارني ناظراً إليه في دهش: «نعم.»

ـ «إن اسمي دوفارج، وأنا أدير حانة في حيّ سان انطوان. لعلك سمعت بي.»

ـ «لقد وفدت زوجتي على بيتك تطلب أباها؟ أجل!»

وبدت كلمة «زوجة» وكأنها مذكّر قاتم حمل دوفارج على أن يقول في نفاد صبر: «بحق تلك الأنثى الماضية الحدّ التي وُلدت حديثاً، والتي يدعونها المقصلة، ما الذي جاء بك إلى فرنسة؟»

ـ «لقد سمعتني حين ذكرت السبب منذ دقيقة. ألا تؤمن أن ذلك هو الحق؟»

فقال دوفارج وقد زوى ما بين عينيه وحدّق النظر إلى أمام: إنه حق مشؤوم بالنسبة إليك.»

ـ «أنا ضائع هنا حقاً. إن كل شيء في هذا المكان جديد لم يُسبق إلى مثله. وإن كل شيء قد تغيّر تغيُّراً فجائياً ظالماً إلى درجة تجعلني أحس بأني ضائع تماماً. هل لك أن تسدي إليّ خدمة صغيرة؟»

فقال دوفارج وهو لا يزال يحدق إلى الأمام: «لا، لست أستطيع مطلقاً.»

ـ «هل لك أن تجيبني على سؤال وحيد؟»

ـ «ربما. ذلك رهن بطبيعة السؤال. سَلْ ما تشاء.»

ـ «في هذا السجن الذي سألقى فيه ظلماً وعدواناً، ألا أستطيع أن أتصل بعض الاتصال الحرّ بالعالم الخارجي؟»

ـ «سوف ترى.»

ـ «أنا لن أدفن هناك، قبل أن أحاكم، ومن غير أن أزوّد بأي وسيلة تمكّنني من الدفاع عن نفسي؟»

ـ «سوف ترى. ولكنْ، أين موضع الغرابة في ذلك؟ لقد دُفن ناسٌ آخرون على هذا النحو، في سجون أسوأ من ذلك السجن، قبل اليوم.»

ـ «ولكني أنا لم أسجن أحداً قط، أيها المواطن دوفارج.»

ـ «وكان جواب دوفارج أن رَمَقَهُ بنظرة، وتابع سيره في صمتٍ مطبق. وكلما تناهى الصمت من حول دارني تضاءل أمله ـ أو هكذا خُيِّل إليه ـ في أن يعطف قلب دوفارج. من أجل ذلك سارع إلى القول:

ـ «إنه لمن أهم الأمور بالنسبة إليّ (وأنت تعرف، أيها المواطن، أكثر مني خطورة هذه الأهمية) أن أتمكن من الاتصال بمستر لوري الموظف في مصرف تلسون ـ وهو رجلٌ إنكليزي موجود الآن في باريس ـ لأبلغه هذه الحقيقة المجردة، ومن غير ما تعليق، وهي أني قد ألقي بي في سجن لافورس. هل لك أن تسدي إليّ هذه الخدمة؟»

فأجابه دوفارج في فظاظة: «أنا لن أسدي إليك خدمةً ما. إن الواجب يقضي عليّ بخدمة بلادي وشعبها. لقد أخذت على نفسي عهداً بأن أخدمهما كليهما ضدّك. أنا لن أفعل شيئاً من أجلك.»

وشعر تشارلز دارني أن من العبث الذي لا طائل تحته أن يتوسل إليه أكثر مما فعل؛ هذا فضلاً عن أنه أحسّ بأن كبرياءه قد جُرحت. وفيما هما يواصلان السير في صمت، لاحظ أن الناس اعتادوا رؤية السجناء يساقون خلال الشوارع. حتى الأطفال الصغار نادراً ما التفتوا إليه. لقد حوّل بعض السابلة أبصارهم نحوه وهزّ بعضهم أصابعهم في وجهه بوصفه أرستوقراطياً، وفي ما عدا ذلك لم يكن في مشهد رجل حسن البزّة يساق إلى السجن شيء غير عاديّ بأكثر مما كان في مشهد عامل قاصد إلى مقر عمله بثياب الشغل. وفي أحد الشوارع الضيقة المظلمة القذرة التي مروا بها، كان رجل مهتاج يخطب بالهائجين من فوق كرسي منخفض لا ظهر له، عن الجرائم التي ارتكبها الملك وارتكبتها الأسرة المالكة ضدّ الشعب. وكان في الكلمات القليلة التي التقطها من شفتي هذا الرجل ما أفهمه، لأول مرة، أنّ الملك في غياهب السجن، وأن السفراء الأجانب قد غادروا باريس. ذلك بأنه لم يسمع على الطريق (إلا في بوفيه) شيئاً على الاطلاق. كان حجاب المراقبة الكلية قد عزله عن الناس عزلاً تاماً.

لقد أدرك من غير ريب أنه تردّى في مخاطر أعظم بكثير من تلك التي تعرّض لها عندما غادر فرنسة. وأدرك كذلك أن تلك المخاطر تكاثفت من حوله في سرعة، وأنها قد تتكاثف أسرع فأسرع منذ اليوم. ولم يكن في وسعه إلا أن يسلّم بينه وبين نفسه بأنه ما كان ليقدم على هذه الرحلة لو قُدِّر له أن يتنبأ بالأحداث التي واجهها في هذه الأيام القليلة. ومع ذلك فلم تكن هواجسه قاتمة بقدر ما كان يُفترض أن تبدو على ضوء ما حدث في هذه الفترة الأخيرة. فقد كان المستقبل، على شدة اضطرابه، هو المستقبل المجهول، وفي ثنايا غموضه كان أملٌ ساذج غبيّ. لقد كان خالي الذهن من المذبحة الرهيبة، التي ستدور رحاها أياماً وليالي متطاولة، والتي سوف تلطّخ، بعد دورات قليلة تقوم بها عقارب الساعة، زمانَ الحصاد المبارك ببقعة من الدم هائلة. كان خالي الذهن من هذه المذبحة وكأنها تبعد عنه مئة ألف عام. إن «الأنثى الماضية الحدّ التي وُلِدت حديثاً والتي يدعونها المقصلة» كادت تكون غير معروفة الاسم عنده، وعند الجمهرة الكبرى من الناس. ولعل الأعمال التي قُدِّر لها أن تتم عما قريب لم تراود، في ذلك الحين، مخيّلات الذين أقدموا عليها. فكيف تستطيع أن تجد مكاناً ما بين الأفكار القاتمة التي تطيف بعقل من العقول الدمثة الكريمة؟

لقد هداه حدسُهُ إلى أن من المحتمل، أو من الثابت المؤكد، أنه سوف يلقى في السجن معاملة قاسية ظالمةً وسوف يحال بينه وبين زوجته وطفلته على نحو وحشي. ولكنه ما كان يخشى، وراء ذلك، شيئاً خشيةً واضحة. وإنما كان ذلك في ذهنه ـ وليس يحتاج المرء إلى أن يحمل شيئاً أكثر إلى فناء سجن موحش ـ عندما وصل تشارلز دارني إلى سجن لافورس.

وفتح رجلٌ ذو وجه متورم بُوَيْباً مكيناً ضمن الباب الكبير، فقدَّم دوفارج السجينَ إليه قائلاً: المهاجر أيفريموند.»

فصاح الرجل ذو الوجه المتورم: «يا للشيطان! كم قد بقي منهم!»

وتناول دوفارج إيصاله من غير أن يلقي بالاً إلى كلام الرجل، وانسحب مع زميليه الوطنيين.

صاح السجان وقد غودر مع زوجته: «يا للشيطان، أقول مرة ثانية! كم قد بقي منهم!»

وإذ لم يكن عند زوجة السجان ما تجيب به فقد اكتفت بالقول: «يجب على المرء أن يعتصم بالصبر، يا عزيزي!» وردّد صدى الفكرة ثلاثة سجانين أقبلوا استجابة لجرس قرَعتْهُ، وأضاف أحدهم: «حباً بالحرية.» وهو كلام بدا في ذلك المكان أشبه بالخاتمة غير الملائمة إلى أبعد الحدود.

وكان سجن «لافورس» سجناً قاتماً مظلماً، قذراً، تنبعث منه رائحة النوم غير الصحي الكريهة. فيا عجباً، ما أسرع ما تعلن نكهة النوم الحبيس البغيضة عن نفسها في جميع هذه المواطن التي لا تحظى بشيء من العناية والاهتمام!

دمدم السجان، ناظراً إلى قصاصة الورق: «في السرّ، أيضاً. كأن المكان لم يمتلئ حتى الآن إلى حد الانفجار!»

وشكّ الورقة مغضباً في سفّود خاص بجمع مختلف القصاصات. وانتظر تشارلز دارني أن ينعم بالجزء الثاني من متعتِهِ نحواً من نصف ساعة: ذارعاً الغرفة الحصينة ذات الأقواس، جيئة وذهوباً، حيناً، ومستريحاً فوق مقعد حجري حيناً، وفي الحالتين كان كبير السجانين ومعاونوه ينعمون النظر إليه حتى تنطبع صورته في أذهانهم.

وأخيراً قال كبير السجانين وقد حمل مفاتيحه: «تعال! تعال معي، أيها المهاجر!»

وخلال ظلمة السجن الموحشة رافقته وديعته الجديدة عبرَ الأروقة والسلالم. وصرّت عدة أبواب خلفهما وأغلقت أقفالها، حتى انتهيا إلى حجرة واسعة خفيضة ذات أقواس، غاصة بالسجناء من الجنسين جميعاً.

كانت النسوة جالسات إلى مائدة طويلة، يقرأن، ويكتبن، ويحبكن، ويخطن، ويطرزن. وكان معظم الرجال واقفين خلف كراسيهم أو ذارعين الحجرة جيئة وذهوباً.

وإذ ربط، على نحو غريزيّ، ما بين السجناء وبين الجريمة والخزي، فقد أعرض الوافد الجديد عن نزلاء الحجرة ونأى بنفسه. ولكن أعجب ما انطوت عليه رحلته الطويلة العجيبة تلك أن أولئك النزلاء نهضوا كلهم لاستقباله نهضة رجل واحد، وفقاً لأدق قواعد الكياسة في ذلك العصر، وبجميع مظاهر الظرف واللباقة.

لقد غشّى ظلام السجن وآدابهُ تلك الكياسة كلها، فغدتَ شبحية إلى أبعد الحدود وسط القذارة والبؤس اللذين أحاطا بها، حتى لقد بدا تشارلز دارني وكأنه واقف مع جماعة من الموتى. كانوا كلهم أشباحاً! شبح الجمال، وشبح الأبهة، وشبح الأناقة، وشبح الغرور، وشبح الطيش، وشبح الظرف، وشبح الشباب، وشبح الشيخوخة ـ كلهم ينتظرون أن يُسرَّحوا من الشاطئ المهجور، وكلهم يديرون نحوه عيوناً غيّرها الموت الذي ماتوه خلال مجيئهم إلى هناك.

وجمد في مكانه لا يبدي حراكاً. وبدا السجان الواقف إلى جانبه، والسجانون الآخرون المتحركون من حوله، والذين كان يمكن أن يكون مظهرهم وهم يقومون بوظائفهم عادياً ـ بَدَوا كلهم قساة غلاظاً إلى حد متطرف أمام الأمهات اللواتي يوقعن الغم في النفس، والفتيات الناضرات اللواتي كنّ هناك ـ وعلى وجوههنّ أطياف المرأة المغناج، والكاعب الحسناء، والسيدة الناضجة المنشّأة تنشئةً ناعمة ـ حتى لقد بلغت غرابة المشهد وابتعاده عن المألوف غايتهما القصوى. حقاً أنهم كلهم أشباح! حقاً أن تلك الرحلة الطويلة الوهمية لا تعدو أن تكون داءً قد استفحل وجاء به إلى هذه الظلال المظلمة!

وتقدّم نحوه رجل نبيل المظهر وأسلوبِ الكلام وقال: «باسم هذه الجماعة المحتشدة في البؤس والشقاء يشرفني أن أرحب بك في سجن

لافورس وأن أشاطرك الكارثة التي ساقتك إلينا. أسأل اللّه أن يكشف عنك كربها وشيكاً! وقد يكون من الفضول، في غير هذا المكان، أن نسألك عن اسمك ووضعك. أما هنا فأحسب أن في استطاعتنا أن نسألك ذلك.»

رفع تشارلز دارني نفسه، وأجابه إلى ما طلب بأنسب الكلمات التي استطاع أن يعثر عليها.

وقال الرجل مُتبعاً نظرَه كبيرع السجانين الذي تقدّم عبر الغرفة: «ولكني أرجو أن لا تكون «في السر»؟

ـ «أنا لا أفهم معنى هذا الاصطلاح. ولكني سمعتهم ينطقون به.»

ـ «آه، مسكين أنت! كم نأسف عليك ونرثي لك! ولكن تشجّعْ. إن عدداً كبيراً من أبناء طبقتنا أقاموا «في السرّ»، بادئ الأمر، ولكن ذلك لم يستمر غير وقت قصير.» ثم أضاف رافعاً صوته: «يحزنني أن أخبر الجماعة ـ إنه في السرّ.»

وسرت همهمة من العطف والإشفاق فيما اجتاز تشارلز دارني الغرفة إلى باب مقضّب بالحديد حيث كان السجان ينتظره، وانطلقت في أثره أصوات عديدة ـ كانت أصوات النسوة الناعمة الناضحة بالحنان واضحةً بينها ـ تتمنى له تمنيات طيبة وتشجعه. حتى إذا بلغ الباب التفت ليقدم إلى الجماعة شكر قلبه. وأُوصِد الباب تحت ذراع السجان، وغابت أطياف الموت عن ناظريه، إلى الأبد.

انفتح البُويَب على سلّم حجرية تؤدي إلى الدور الأعلى. حتى إذا ارتقيا أربعين درجة (وكان السجين الذي لم يمضِ على دخوله المحبس غير نصف ساعة قد أحصاها عدداً) فتح السجان باباً أسود خفيضاً دخلا منه إلى حجيرة منعزلة. كانت تلك الحجيرة باردة رطبة، ولكنها لم تكن مظلمة.

وقال السجان: «هذه حجرتك.»

- «ولماذا أسجن منفرداً؟»

- «ومن أين لي أن أعرف؟»

- «هل أستطيع أن أشتري قلماً وحبراً وورقاً؟»

- «إن الأوامر الصادرة إليّ لا تنطوي على شيء مثل هذا. سوف يزورك آخرون، وفي ميسورك أن تسأل. أما الآن ففي إمكانك أن تشتري طعامك، ليس غير.»

كان في الحجيرة كرسي وطاولة وفراش من قش. وفيما كان السجان يلقي نظرة تفتيشية عامة على هذه الأشياء وعلى الجدران الأربعة قبل أن يغادر الحجيرة طافت خاطرة تائهة في ذهن السجين المتكئ على الجدار الذي يقابله، وهي أن هذا السجان متورّم، وجهاً وجسداً، على نحو غير صحيّ إلى حدّ يبدو معه وكأنه امرؤ غرق في اللجة وامتلأت جثته ماءً. حتى إذا مضى السجان لسبيله، قال بينه وبين نفسه، بالطريقة التائهة نفسها: «ها قد تُركتُ الآن وحدي، وكأنني ميت.» ثم إنه خفض بصره نحو فراش القش، ثم أشاح بوجهه عنه، وقد ألمّ به شعور مريض وفكر: «وهنا في هذه الكائنات الزاحفة على الأرض تتمثل أولى حالات الجسد بعد الموت.»

- «خمس خطوات بأربع خطوات ونصف، خمس خطوات بأربع خطوات ونصف، خمس خطوات بأربع ونصف.» راح السجين يذرع حجيرته جيئة وذهوباً، يقيس طولها وعرضها. وارتفع هدير المدينة مثل طبول معصوبة واهنة الصوت وقد انضاف إليه مدّ من الأصوات الآبدة. «لقد صنع أحذية؛ لقد صنع أحذية؛ لقد صنع أحذية.» وراح السجين يقيس طول الحجيرة وعرضها كرة أخرى، وأغذّ الخطوَ لكي يدفع عقله معه نائياً به عن تلك العبارة المكرورة. «تلك الأشباح التي تلاشت حين أغلق الباب... لقد كان بينها شبح تبدو عليه إمارات سيدة تتلفع بالسواد، وتتكئ عند كوة صغيرة، وقد أومض الضياء فوق شعرها الذهبي، ونظرت مثل... لنمتطِ صهوات الخيل كرة أخرى، إكراماً للّه،

خلال القرى المضاءة الساهر أهلها جميعاً!... لقد صنع أحذية؛ لقد صنع أحذية؛ لقد صنع أحذية... خمس خطوات بأربع خطوات ونصف.» كانت هذه العبارات المتقطعة وأمثالها تتقلّب وتتدحرج منطلقة من أعماق عقل السجين، فيما تسارعت خطواته، وأنشأ يعدّ ويعدّ في عناد، وقد تغيّر هدير المدينة تغيّراً بالغاً ـ إنه ما يزال يتقلب مثل أصوات الطبول المخنوقة، ولكنه ممتزج بعويل الأصوات التي عرفها، وبالمدّ الآبد الذي انطلق فوقها.

ـ 2 ـ

حجر الشحذ

كان مصرف تلسون، القائم في حي سان جرمان بباريس، يشغل جناحاً من بناء كبير ذي فناء يفصله عن الشارع سورٌ عالٍ وباب مكين. وكان ذلك البناءِ ملكاً لنبيل عظيم ظل يحيا فيه حتى ولى ناجياً بنفسه من الاضطرابات. فاجتاز الحدود متنكراً بملابس طاهيه نفسه. وعلى الرغم من أنه كان في فراره ذاك مجرد طريدة من طرائد القنص، فقد ظلّ في تناسخِه رجلاً لا يختلف في شيء عن مولانا نفسه، مولانا الذي شغل تقديم شراب الشوكولا إلى شفتيه، في يوم من الأيام، ثلاثة رجال أشداء بالإضافة إلى الطاهي.

لقد ذهب مولانا الآن، وتحرر الرجال الثلاثة الأشداء من إثم الإفادة من رواتبه العالية بأن غدوا على أحسن الاستعداد وأعظم الرغبة في حزّ حنجرته على مذبح الجمهورية البازغ فجرها، الجمهورية الواحدة التي لا تتجزأ، جمهورية الحرية والمساواة والإخاء، أو الموت. فإذا بقصرِ مولانا يُحجز أولاً ثم يُصادر. ذلك بأن كل شيء جرى في سرعة بالغة، وتبعَ المرسومُ المرسومَ على ذلك النحو الخاطف المخيف، حتى لقد كان رُسل القانون الوطنيون يحتلون الآن، في الليلة الثالثة من شهر أيلول الخريفيّ، قصر مولانا المبجّل، بعد أن رفعوا عليه الراية المثلثة الألوان، فهم يحتسون البراندي في مقاصيره الفخمة.

ولو أن بيتاً مالياً في لندن وجد نفسه في مثل هذه الظروف

والملابسات التي أحاطت ببيت تلسون المالي في باريس إذن لسارع إلى تصفية أعماله إذ ما الذي يمكن للرصانة ولروح المسؤولية البريطانيتين الوقورتَيْن آن تقولاه في أشجار البرتقال ذات الأقفاص ونهوضها في فناء مصرف من المصارف؟ بل ما الذي يمكن لهما أن تقولاه في قيام تمثال لكيوبيد(*) فوق منضدة المحاسب؟ ومع ذلك، فقد كانت نظائر هذه الأشياء حقيقةً واقعةً. وكانت إدارة مصرف تلسون قد طلت بالكلس تمثال كيوبيد، ولكنه ظلّ يُرى على السقف، في أرقّ الكتان وأبرَدِه، محدّقاً (شأنه في كثير من الأحيان) إلى المال من الصباح إلى المساء. وكان من المحتم أن تمنى المؤسسة بالإفلاس، في شارع لومبارد بلندن، بسبب من هذا الوثني الشاب، وبسبب من مخدع أسدِلت عليه السجف خلف الغلام الخالد، وبسبب أيضاً من مرآة أقحِمت في الجدار، وبسبب من الموظفين غير الشيوخ بحال من الأحوال، الموظفين الذين يرقصون على مرأى من الناس مهما كانت الآثار طفيفة. ومع ذلك، فقد كان في وسع فرع تلسون الفرنسي أن يعمل في مثل هذا الجو في نجاح كثير، وما دامت الأيام متماسكة، فإن أحداً لم يستبدّ به الجزع لذلك، ولم يسحب أمواله من خزائن المصرف.

أما الأموال التي قد تسحبت من مصرف تلسون من الآن فصاعداً؛ أما ما سوف يبقى هناك ضائعاً منسياً؛ أما الجواهر والصحاف الذهبية والفضية التي ستفقد نضرتها في مخابئ تلسون، بينا يصدأ مودعوها في السجون، وقد يساقون بعد ذلك إلى الموت؛ أما عدد الحسابات التي لن تُرصَّد عند تلسون، في هذا العالم أبداً والتي ينبغي أن تُحول إلى العالم الآخر، فذلك ما لم يكن في وسع أحد أن يحزره، تلك الليلة، بأكثر مما استطاع مستر جارفيس لوري أن يفعل، برغم أنه فكَّر ملياً في هذه المسائل. لقد جلس إلى جانب نار أوقد حطبها منذ قريب (كانت السنة

(*) كيوبيد: إله الحب. (المعرب)

الخربة العقيم قد تعاظم بردها قبل إبّانه)، وكان على وجهه الباسل المخلص ظل أعمق مما كان في ميسور المصباح المتدلي أن يلقيه، أو في ميسور أيما شيء في الغرفة أن يعكسه محرّفاً: ـ كان على وجهه ظلّ ذعر.

لقد احتل بعض الغرف في المصرف، وفرغ لخدمة المؤسسة التي غدا جزءاً منها لا يتجزأ، مثل نبتة متسلقة قوية الجذور. واتفق أن أستمدّ المصرف ضرباً من الطمأنينة من الاحتلال الوطني للبناء الرئيسي، ولكن الشيخ الجريء الفؤاد لم يحسب حساب ذلك قط. إنه لم يبالِ بهذه الملابسات كلها، وإنه لمنصرف إلى إنجاز مهمته. وفي الناحية المقابلة من الفناء، تحت صف من الأعمدة، كان موقف رحب للعربات ـ حيث كانت بعض عربات مولانا لا تزال واقفة فعلاً. ولقد عُلّق على اثنين من الأعمدة مشعلان كبيران متوهجان، وعلى ضوئهما كان يقوم في الهواء الطلق مشحذ ضخم: شيء مَعدّ إعداداً غير بارع أبداً وكأنه نُقِلَ على عجل من دكان حداد مجاور أو غيره من الدكاكين. وإذ نهض مستر لوري وأطل من النافذة على هذه الأشياء غير المؤذية أخذته رجفة، وارتد إلى مقعده قرب النار. ذلك بأنه لم يفتح النافذة الزجاجية وحسب، بل فتح النافذة ذات العوارض الخشبية المتقاطعة أيضاً، ثم أعاد إغلاقهما جميعاً، وارتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.

ومن الشوارع المترامية خلف السور العالي والباب المكين أقبلت همهمة المدينة الليلية المألوفة، يتخللها بين الفينة والفينة رنين لا سبيل إلى وصفه، رنين سحري غير أرضيّ، وكأن أصواتاً غريبة ذات طبيعة مخوفة كانت ترتفع إلى السماء.

وقال مستر لوري شابكاً يديه: «أحمد اللّه على أنه ليس ثمة في هذه المدينة الرهيبة، الليلة، أحد من معارفي أو أحد عزيز عليّ. وإني لأسأله تعالى أن يسبغ رحمته على جميع من يتهددهم الخطر.

وما هي إلا لحظات حتى قرع جرس الباب الكبير، فقال في ذات

نفسه: «لقد رجعوا!» وجلس يصغي. ولكن فناء الدار لم يتعرض لغارة ما، كما قد توقع، وسمع الباب يُصفَق من جديد، وران الهدوء على كل شيء.

وكان في العصبية والهلع اللذين استبدّا به ما أوقع في نفسه ذلك القلق الغامض في ما يتصل بالمصرف، والذي كان خليقاً بأي تغيّر كبير أن يوقظه، بعد أن أثيرت مثل هذه المشاعر والأحاسيس. كانت الحراسة التي أحيط بها قوية، ولقد نهض ليمضي إلى أولئك النفر الموثوقين الذين يحمونه، عندما فُتح بابه فجأة، واندفع إلى داخل الغرفة شخصان لم يكد يراهما حتى أجفل دهشاً.

لوسي وأبوها! لوسي وقد بسطت ذراعيها نحوه، وعلى وجهها سيما الجدّ القديمة تلك، مركّزةً مكثّفةً إلى حد بدت معه وكأنها انطبعت على محيّاها خصيصاً لكي تمنحه العزم والقوة في هذه المرحلة من حياتها.

وصاح مستر لوري مبهوراً مضطرباً: «ما هذا؟ ما المسألة؟ لوسي! مانيت! ما الذي حدث؟ ما الذي جاء بكما إلى هنا؟ ما هو؟»

فلهثت بين ذراعيه، وقالت في توسل مركزةً نظرتها عليه، وقد غلب الشحوب والاضطراب على وجهها: «آه يا صديقي العزيز! زوجي!»

ـ «زوجك، يا لوسي؟»

ـ «تشارلز.»

ـ «ما باله؟»

ـ «إنه هنا.»

ـ «هنا، في باريس؟»

ـ «إنه هنا منذ بضعة أيام ـ ثلاثة أو أربعة ـ لست أدري على وجه الضبط ـ أنا لا أستطيع أن أجمع شتات أفكاري. لقد دعاه إلى هنا داعي الشهامة على غير علم منا، فاعتُقل عند باب المدينة، وألقي به في السجن.»

وأطلق الشيخ صرخة لم يستطع لها كبتاً. وفي تلك اللحظة نفسها تقريباً قُرِع جرس الباب الكبير كرةً أخرى، وتدفقت على الفِناء ضجة عالية من أصوات الناس ووقع أقدامهم.

وقال الطبيب ملتفتاً إلى النافذة: «ما هذه الضجة؟»

فصاح مستر لوري: «لا تنظر! لا تطلّ من النافذة! مانيت، حذارِ أن تمس النافذة الخشبية حرصاً على حياتك!»

والتفت الطبيب ويده على مِشبك النافذة، وقال في ابتسامة باردة جريئة: «يا صديقي العزيز، لقد عشتُ في هذه المدينة حياة مسحورة. لقد كنت سجيناً في الباستيل، وليس ثمة وطنيّ في باريس ـ في باريس؟ بل، في فرنسة ـ يمسّني حين يعرف أني كنت سجين الباستيل، إلا لكي يغمرني بالعناق، أو يحملني مبتهجاً بالنصر. لقد أمدّني ألمي القديم بقوة مكّنتنا من أن نتخطى الحدود ونفوز ببعض أنباء تشارلز، ونجيء إلى هنا. لقد عرفتُ أن الأمر سيكون كذلك. لقد عرفت أن في استطاعتي أن أنقذ شارلز من كل خطر. لقد قلت للوسي ذلك. ـ ما هذه الضجة؟» كانت يده على النافذة كرةً أخرى.

وصاح مستر لوري وقد غلب عليه يأسٌ مطلق: «لا تطلّ! لا، وأنتِ يا عزيزتي لوسي، لا تطلي أيضاً.» وطوّقها بذارعه، وأمسك بها. «لا تخافي، يا حبيبتي. أقسم لك أغلظ الإيمان أني لا أعلم أن أذىً ما قد ألمّ بتشارلز، بل إني لم يدر في خلدي قط أنه في ذلك المكان المهلك. في أيّ سجن هو؟»

ـ «في سجن لافورس!»

ـ «لافورس! لوسي، يا طفلتي، إذا كنت في يوم ما شجاعة نافعة ـ ولقد كنت هكذا دائماً ـ فينبغي أن تفعلي ما أدعوك إليه تماماً. إذ يتوقف على ذلك شيء أكثر مما تظنين أو مما أستطيع أن أقول. إن أيما عمل تقومين به الليلة لن يعود عليك بفائدة. وليس من الخير أن ترخي العنان لعواطفك. أقول ذلك لأن ما سوف أدعوك إلى عمله إكراماً

لتشارلز هو أصعب الأشياء على الاطلاق. يجب أن تكوني، في الحال، مطيعةً، ساكنةً، هادئة. يجب أن تسمحي لي بأن أضعك في غرفةٍ خلفية، هنا. يجب أن تتركيني أنا ووالدك وحدنا، دقيقتين اثنتين. ولما كان في الدنيا حياة وموت فينبغي أن تفعلي ذلك من غير إبطاء.»

ـ «سوف أمتثل أمرك. أنا أقرأ في وجهك أنك تعرف أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر غير هذا. أنا أعرف أنك مخلص.»

وقبّلها الشيخ، وأسرع بها إلى غرفته، وأقفل الباب. ثم إنهُ هرع عائداً إلى الطبيب، وفتح الزجاج، وفتح النافذة الخشبية جزئياً، ووضع يده على ذراع الطبيب، وأطلا معاً على فناء الدار.

أطلا على حشد من الرجال والنساء، لم يكن كافياً أو شبه كافٍ، لأن يملأ الفِناء: حشد لا يزيد عدد أفراده كلهم على أربعين أو خمسين. كان المهيمنون على البناء قد فتحوا الباب في وجههم، فاندفعوا نحو حجر الشحذ وانكبوا على العمل. كان واضحاً أنه أقيم هناك لأغراضهم هذه، بوصفه في بقعة مناسبة منعزلة.

ولكن يا لهم من عمال رهيبين، ويا له من عمل رهيب!

كان لحجر الشحذ مقبض مزدوج، وكان يديره في ضراوة رجلان اثنان بدا وجهاهما فيما كان شعرهما الطويل يتدلى إلى الوراء كلما رفعت دورات المشحذ وجهيهما إلى أعلى ـ أكثر وحشية من وجوه أشد الناس توحشاً في تنكرّهما البالغ أقصى حدود البربرية. لقد أُلصِق بوجه كل منهما حاجبان زائفان وشارب زائف، وكانت أساريرهما الكريهة داميةً كلها ناضحة بالعرَق، ملتويةً بالعواء، محدقة مضطرمة باهتياج بهيميّ وبالنعاس. وفيما هذان السفاحان يدوران ويدوران كان شعرهما الحصيريّ المتسخ يتدلى حيناً فوق عينيهما، ويتدلى حيناً آخر فوق عنقيهما، وكان بعض النسوة يقرّبن الخمر إلى فم كل منهما ليحتسي منها. وإذا كان الدم يقطر من وجهيهما، والخمر تقطر من شفاههما، والشرر يتطاير كالسيل من الحجر، فقد بدا الجو الشرير كله جوّ دمٍ ونارٍ.

إن العين ما كانت قادرة على أن تجد شخصاً واحداً بين الجماعة لم يلطخه الدم. كانوا يتدافعون ليبلغوا حجر الشحذ تدافعاً: رجال عراة حتى الخصور، وقد خضّب الدم سائر أوصالهم وأجسادهم. رجال في مختلف ضروب الخرق البالية. وقد خضّب الدم هذه الخرق البالية. رجال انطلقوا على نحو شيطاني بغنائم من شفوف النساء المخرّمة وحريرهن وعصائبهن وقد خضّب الدم ذلك كله تخضيباً. فؤوس، ومُدى، وحراب، وسيوف جيء بها كلها لكي تشحذ، فصبغها الدم بصبغته. وكانت بعض السيوف العتيقة المثلمة مشدودةً إلى معاصم حامليها بسيور من الكتان وقطع من الثياب: روابط مختلفٌ ألوانها، ولكنها كلها مصبوغة بلون واحد قانٍ. حتى إذا انتزع القوم الهائجون هذه الأسلحة من فيض الشرر وانطلقوا بها إلى الشوارع توهجت الصبغة الحمراء نفسُها حمراءَ في أعينهم المجنونة ـ أعين كان أيما مشاهد رقيق الفؤاد خليقاً بأن يدفع عشرين سنة من حياته ثمناً لتحجيرها بنار بندقية مسدّدة تسديداً حسناً.

كل ذلك رأياه في لحظة، بقدر ما يستطيع بَصَر الرجل المشرف على الغرق، أو أيّ كائن بشري في موقف صعب بالغ الخطر، أن يتبين عالماً قد يكون قائماً هناك. وارتدّا على النافذة، والتفت الطبيب يلتمس إيضاحاً في وجه صديقه الرمادي اللون.

وهمس مستر لوري ملقياً نظرة جازعة على الغرفة الموصدة: «إنهم يذبحون السجناء. فإذا كنت واثقاً مما تقول؛ إذا كانت لك فعلاً تلك القوة التي تحسب أنك تملكها ـ والتي أؤمن بأنك تملكها ـ فعرّف نفسك إلى هؤلاء الأبالسة ثم أذهب معهم إلى سجن لافورس. لعلك قد تأخرت أكثر مما يجب ـ لست أدري ـ ولكن ينبغي أن لا تتأخر أكثر من ذلك دقيقة واحدة!»

وضغط الدكتور مانيت على يده، واندفع حاسر الرأس إلى خارج الغرفة. وكان قد انتهى إلى فناء الدار عندما رجع مستر لوري إلى النافذة.

وفي لحظة، حملهُ شعرهُ الأشيب المتموج، ووجهه الغريب، وسلوكه المفعم بالثقة المتهورة ـ إذ راح يردّ الأسلحة جانباً وكأنها الماء ـ حمله ذلك كله إلى قلب الجمع المحتشد حول المشحذ. وما هي إلا لحظات حتى ساد تمهّلٌ، فتعجّلٌ، فهمهمة، عَقِبَها صوته غير المفهوم. وعندئذ رآه مستر لوري، مطوّقاً بهم جميعاً، ووسط خطّ طوله عشرون رجلاً، متراصون كتفاً إلى كتف، ويداً إلى كتف، وقد اندفعوا مطلقين هذه الهتافات: «فليحي سجين الباستيل! النجدة لنسيب سجين الباستيل في لافورس! أفسحوا لسجين الباستيل، هناك، في المقدمة! أنقذوا السجين أيفريموند في لافورس!» وآلافاً غيرها من الصيحات الجوابية.

وأغلق النافذة الخشبية كرة أخرى في قلب مصفّق الجناح، وأغلق زجاجها وستارتها، وأسرع إلى لوسي، وأنبأها أن الشعب قد نصر أباها وأنه مضى في سبيله بحثاً عن زوجها. وألفى طفلتها ومس بروس عندها. ولكنه لم يخطر في باله قط أن يدهش لمظهرهن إلا بعد وقت طويل، عندما قعد يراقبهن في سكون الليل الساجي.

كانت لوسي قد انطرحت آنذاك على الأرض، عند قدميه، وقد تعلقت، في غيبوبة، بإحدى يديه. وكانت مس بروس قد حملت الطفلة إلى سريرها الخاص، وتساقط رأسها شيئاً بعد شيء على الوسادة إلى جانب وديعتها الجميلة. يا لها من ليلة طويلة طويلة قَطّعَتْها الزوجة البائسة بأنّاتها! ويا لها من ليلة طويلة طويلة لم يرجع فيها أبوها، ولم تَفزْ خلالها بنبأ ما!

ومرتين أخريين قُرع جرس الباب الكبير في ظلمة الليل، وتكرّرت الغارة، ودار حجر الشحذ دوراناً صاخباً. وصاحت لوسي مذعورة: «ما هذا؟» فقال مستر لوري: «هش! إن سيوف الجند تُشحذ هناك. لقد غدا المكان مِلكاً وطنياً، وهم يتخذون منه الآن مخزناً للسلاح.»

ومرتين إضافيتين أيضاً قُرع جرس الباب الكبير، ولكن دورة العمل

الأخيرة كانت واهنة تتخللها فترات استجمام. وما هي إلا برهة قصيرة حتى شرعت الشمس في البزوغ، وتملص في رفق من اليد المتعلقة به، وأطل من النافذة كرة أخرى في حذر واحتراس. كان رجل وسخٌ إلى حدّ يجعله أشبه بجندي مثخن بالجراح يزحف نحو اليقظة فوق ساحة تغص بالقتلى ـ كان هذا الرجل ينهض عن الأرض المعبدة إلى جانب حجر الشحذ ويجيل الطرف في ما حوله على نحو ذاهل. وبعد لحظات اكتشف ذلك السفاح الخائر القوى، على ضوء الفجر الباهت، إحدى عربات مولانا، فمضى مترنحاً إلى تلك المركبة الفخمة، وتسلق بابها، ثم أغلقه دونه لينعم بالراحة على أرائكها الوثيرة.

وكان حجر الشحذ الكبير ـ الأرض ـ قد دار عندما أطل مستر لوري، من النافذة، كرة أخرى، وكانت الشمس حمراء فوق فناء الدار. أما حجر الشحذ الصغير فكان قائماً، وحده هناك، في نسيم الصباح الساجي، وعلى وجهه إحمرار لم تخلعه الشمس قط عليه، وما كان لها أن تزيله عند أبد الدهر.

ـ 3 ـ

الظلّ

كانت هذه هي إحدى الفكرات الأولى التي نشأت في ذهن مستر لوري التجاري العملي، حين حانت ساعة العمل: إنه ليس من حقه أن يعرّض مصرف تلسون للخطر بإيوائه زوجة سجين مهاجر تحت سقف المؤسسة. لقد كان خليقاً به أن لا يتردد لحظةً في المجازفة بممتلكاته الخاصة، وبسلامته، وبحياته من أجل لوسي وطفلتها، ولكن الوديعة الضخمة التي عُهِد إليه في المحافظة عليها ليست مِلكه. وهو في ما يتصل بهذه الوديعة رجل أعمال دقيق.

واتجه ذهنه، بادئ الأمر، إلى دوفارج، وبدا له أن يبحث عن الحانة كرة أخرى ويستطلع رأي سيدها عن آمَنِ الأحياء في تلك المدينة التي اضطرب فيها حبل الأمن. ولكن الفكرة التي أوحت إليه بذلك ما لبثت هي نفسها أن أنكرته. فقد كان دوفارج يحيا في أشدّ الأحياء عُنفاً، ولا ريب في أنه عظيم النفوذ هناك، بعيد المشاركة في نشاط الحيّ الخطر.

وانتصف النهار، ولم يرجع الطبيب. وإذ كانت كل دقيقة تأخّرٍ تعرّض مصرف تلسون للخطر، فقد تحدث إلى لوسي في الأمر. وقالت له إن أباها سبق له أن تحدث عن رغبته في استئجار مأوىً ما، لأجل قصير، في ذلك الحيّ المجاور للمصرف. وإذ لم يكن ثمة أيّ اعتراض مصلحيّ على ذلك، وإذ أظهرت له بصيرته أن تشارلز لن يوفّق إلى مغادرة

المدينة ولو أطلق سراحه، فقد انطلق للبحث عن مثل ذلك المأوى، فوجد مسكناً مناسباً في مكان عالٍ من شارع فرعي منعزل حيث كانت مصاريع النوافذ الخشبية الموصدة في جميع الأبنية العالية الكئيبة تنمّ عن بيوت هجرها أصحابها.

إلى ذلك المسكن نَقَلَ لوسي، وطفلتها، ومس بروسّ في الحال. وقدّم إليهنّ من أسباب الراحة أقصى ما كان في ميسوره أن يفعل، وأكثر مما كان هو نفسه يتمتع به. وترك جيري معهنّ بوصفه رجلاً يستطيع أن يسدّ باباً برمّته، ويتحمّل مقداراً كبيراً من الضرب على الرأس، وانصرف إلى أعماله. وظلّ باله مضطرباً عليهن، محزوناً من أجلهنّ، طوال النهار. وفي بطء وتثاقل تقضّت الساعات واحدةً إثر أخرى.

وأبلى النهار عزيمة مستر لوري، وأبلى نفسه معه، حتى أغلق المصرف أبوابه. وكان قد خلا إلى نفسه في غرفته التي قضى فيها الليلة البارحة، يقلّب الرأي متسائلاً ما الذي سوف يفعله بعدُ، عندما سمع وقع أقدام على السلم. وما هي إلا لحظات حتى وقف أمامه رجل ألقى عليه نظرةً يقظة إلى حد بعيد وخاطبه باسمه.

وقال مستر لوري: «خادمك. هل تعرفني؟»

كان رجلاً قويّ البنية ذا شعر داكن جَعْد، يُراوح عمره ما بين الخامسة والأربعين، والخمسين. ولم يجب عن سؤال مستر لوري بأكثر من ترديده كلماته عينها من غير ما تغيير في التوكيد: «هل تعرفني؟»

ـ «لقد رأيتك في مكان ما.»

ـ «لعلّ ذلك كان في حانتي.»

وهنا قال مستر لوري وقد استبدّ به الشوق والاضطراب: «لقد أقبلت من عند الدكتور مانيت؟»

ـ «أجل، لقد أقبلتُ من عند الدكتور مانيت.»

ـ «وما الذي يقوله؟ بأي شيء بعث إليّ؟»

وقدّم إلى يده المتلهفة قصاصة من الورق منشورةً، مكتوباً عليها بخط الطبيب:

«تشارلز آمن، ولكني لا أستطيع حتى الآن أن أغادر هذا المكان في سلام. ولقد وفقتُ إلى أن أحظى من أولي الأمر بفضلٍ، فأجيزَ لحامل هذه الرسالة أن ينقل مذكرة قصيرة من تشارلز إلى زوجته. دعْ حامل الرسالة يرى زوجة تشارلز.»

وكان مدوّناً على الرسالة أنها صادرة عن سجن لافورس، منذ ساعة من الزمان.

وقال مستر لوري، وقد سُرّي عنه وابتهج إثر قراءة هذه الرسالة بصوت عال: «هل لك أن تصحبني إلى حيث تقيم زوجته؟»

فأجابه دوفارج: «نعم.»

ولم يلاحظ مستر لوري، إلا قليلاً، بأيّ طريقة آلية ومتحفظة على نحو غريب كان دوفارج يتكلم. فاعتمر قبعته، وهبطا السلم إلى الفِناء. وهناك وجدا امرأتين، كانت إحداهما تَحبِكُ.

ـ «مدام دوفارج، من غير شك!» كذلك قال مستر لوري الذي سبق له أن غادرها على مثل هذه الحال، تماماً، منذ سبعة عشر عاماً تقريباً.

فقال زوجها: «إنها هي.»

وتساءل مستر لوري وقد رآها تنطلق معهما حين انطلقا: «وهل ستذهب السيدة معنا؟»

ـ «نعم. لكي يكون في ميسورها أن تتبيّن الوجوه وتعرف الأشخاص. إن ذلك من أجل سلامتهم.»

وإذ شرع مستر لوري يدهش لسلوك دوفارج، نظر إليه في ارتياب وسار في المقدمة. وسارت المرأتان على أثرهما، وكانت السيدة الثانية هي الموسومة بـ «الانتقام».

اجتازوا الشوارع المعترضة بأسرع ما استطاعوا، وارتقوا سلّم المسكن الجديد، فأدخلهم جيري، فوجدوا لوسي، وحدها، تبكي.

وفاض قلبها بالبشر عندما سمعت الأخبار التي نقلها إليها مستر لوري عن زوجها، وهصرت اليد التي أسلمتها رسالتَهُ، غير مفكّرة إلا قليلاً بما كانت تلك اليد تفعله قربَهُ في موهن من الليل، وما الذي كان يمكن لها أن تفعله به لولا أن حالت بينه وبين ذلك مصادفة ما.

«يا أعز الناس، ـ كوني شجاعة، أنا في خير، وإن لأبيك نفوذاً من حولي. أنتِ لا تستطيعين أن تجيبي عن رسالتي هذه. قبّلي طفلتنا بالنيابة عني.»

كان ذلك كل ما كتَبَ. ولكنه كان شيئاً كثيراً، على أية حال، بالنسبة إليها، هي التي تلقّتِ الرسالة، حتى لقد تحوّلت عن دوفارج إلى زوجته، وقبّلت إحدى اليدين المنهمكتين في الحبك. كان ذلك عملاً أنثوياً يرشح حناناً ومحبة واعترافاً بالجميل، ولكن اليد لم تستجب استجابةً ما، بل سقطت باردةً ثقيلةً، وعاودت حبكها من جديد.

وكان في ملمسها شيء أوقع الرعدة في أوصال لوسي. فجمدت يداها اللتان كانتا بسبيلهما إلى وضع الرسالة في صدرها، وتطلّعت مذعورة ـ ويداها ما تزالان على جيدها ـ إلى مدام دوفارج. وتلقّت مدام دوفارج الجبين والحاجبين المرفوعة نحوها بنظرة باردة جامدة.

وهنا تدخّل مستر لوري إيضاحاً للموقف: «كثيراً ما تشهد الشوارع انتفاضات واضطرابات. وعلى الرغم من أن أحداً لن يمسّك بسوء فإن مدام دوفارج تحبّ أن ترى أولئك الذين تملك القوةَ على حمايتهم في مثل هذه الظروف لكي تعرفهم، ويكون في ميسورها بعدُ أن تتبيّن هويّاتهم. وأعتقد،» قال مستر لوري ذلك وقد أقلع عن الإسترسال في حديثه المُطَمْئِن بعد أن أخذه الدهش أكثر فأكثر لسلوك الزائرين الثلاثة الحجريّ، «أعتقد أني أصوّر الوضع تصويراً صحيحاً، أيها المواطن دوفارج، أليس كذلك؟»

ونظر دوفارج إلى زوجته نظرةً قاتمة، ولم يجب عن السؤال بأكثر من صوت شكسٍ فظّ من أصوات الموافقة الضمنية.

وقال مستر لوري باذلا كل ما يستطيع لكي يطرّي بلهجته ومسلكه الجوّ العابس: «من الخير أيضاً يا لوسي أن تستدعي الطفلة العزيزة إلى هنا، وآنستنا الطيّبة بروسّ. إن بروسّنا الطيبة، يا دوفارج، سيدة إنكليزية، وهي لا تعرف الفرنسية على الإطلاق.»

وبرزت السيدة المشار إليها، التي ما كان لإيمانها الراسخ بأنها أكثر من ندّ لأيما أجنبي أن تزعزعه محنة أو خطر ـ برزت طاويةً ذراعيها، وقالت بالإنكليزية لـ «الانتقام» التي وقعت عيناها أول ما وقعتا عليها: «حسناً، أنا واثقة من أني وقحة سليطة! أرجو أن تكوني في خير حال!» ثم إنها حيّت مدام دوفارج بسَعْلةٍ بريطانية. ولكن أياً من المرأتين لم تُولِها كبير اهتمام.

وقالت مدام دوفارج، منقطعةً عن عملها لأول مرة، مسددة إبرتها الحابكة إلى لوسي الصغيرة، وكأنها إصبع القَدَر: «أهذه بنته؟»

فأجابها مستر لوري: «نعم، يا سيدتي. هذه بنت سجيننا البائس الحبيبة ـ بنتُهُ الوحيدة.»

وبدا الظل الملازم لمدام دوفارج ورفيقيها وكأنه ألقِي على الطفلة الصغيرة قاتماً متوعداً إلى درجة جعلت أمها تركع على نحو غريزيّ، إلى جانبها، وتضمّها إلى صدرها. وعندئذ بدا الظل الملازم لمدام دوفارج ورفيقيها وكأنه ألقِي قاتماً متوعداً على الأم والطفلة جميعاً.

وقالت مدام دوفارج: «حسْبُنا هذا يا زوجي. لقد رأيتُهم. نستطيع أن نذهب.»

ولكنّ المسلك المكظوم كان حافلاً بوعيد غير صريح ولكنه غامض مكبوت، بحيث أوقع الرعب في فؤاد لوسي ودفعها إلى القول، فيما هي تُلقي يدها المتضرعة على ثوب مدام دوفارج: «سوف تحسنين معاملة زوجي المسكين. إنك لن تمسّيه بسوء. إنك سوف تساعدينني على أن أراه إذا استطعتِ، أليس كذلك؟»

فأجابتها مدام دوفارج، خافضة بصرها نحوها في رصانة كاملة: «إن زوجك ليس موضع اهتمامي هنا. إن ابنة زوجك هي التي تهمني هنا.»

ـ «إكراماً لي إذن، كوني رحيمةً بزوجي. إكراماً لابنتي الصغيرة! إنها سوف تضمّ إحدى يديها إلى الأخرى وتتضرع إليك أن تكوني رحيمة. إننا نخافك أكثر مما نخاف هذين الآخرين.»

ـ «وتقبّلت مدام دوفارج ذلك وكأنه إطراء لها، ونظرت إلى زوجها. وكان دوفارج يقرض ظفر إبهامه في قلق وينظر إليها، فما كان منه إلا أن زوى ما بين عينيه وغلّب الصرامة على وجهه.

وسألتها مدام دوفارج في ابتسامة عابسة: «ما ذاك الذي يقوله زوجك في تلك الرسالة الصغيرة؟ نفوذ. لقد قال شيئاً ما عن النفوذ؟»

فأجابت لوسي، وسارعت إلى إخراج الورقة من صدرها، ولكن عينيها المذعورتين كانتا تحدقان إلى السائلة لا إلى قصاصة الورق: «قال إن لأبي نفوذاً كبيراً حوله.»

فقالت مدام دوفارج: «ولا شك في أن هذا النفوذ سوف يطلق سراحه! دعيه يفعل ذلك.»

وصاحت لوسي في انفعال غامر: «إني كزوجة وأم أتوسّل إليك أن ترحميني وأن لا تستخدمي أيّ قوة تملكينها ضد زوجي البريء. على العكس أتوسّل إليك أن تستخدمي تلك القوة لصالح زوجي. أوه، يا شقيقتي في الأنوثة، فكّري فيَّ! فكّري فيّ كزوجة وكأم!»

ونظرت مدام دوفارج، في مثل برودها المعهود، إلى المتوسلة، وقالت ملتفتة إلى صديقتها «الانتقام»:

ـ «إن أحداً لم يفكِّر كثيراً بالزوجات والأمهات اللواتي تعوّدنا أن نراهن منذ أن كنا في سنّ مثل هذه الطفلة، وأصغر بكثير. لقد عرفنا أن أزواجهن وآباءهن كثيراً ما أبعِدوا عنهن ليُلْقى بهم في غياهب السجن. لقد عشنا حياتنا كلها ونحن نرى شقيقاتنا في الأنوثة يقاسين، هنّ

وأولادهن، الفقرَ، والعريَ، والجوع، والعطش، والمرض، والبؤس، والظلم، والإهمال على اختلاف ضروبه.»

فأجابتها «الانتقام»: «نحن لم نرَ أيّ شيء غير هذا.»

فقالت مدام دوفارج، مديرة عينيها كرةً أخرى إلى لوسي: «لقد صبرنا على ذلك دهراً طويلاً. قدّري الأمر بنفسك. هل تظنين أن آلام زوجة وأمّ واحدة سوف تهمنا كثيراً اليوم؟»

واستأنفت حبكها وخرجت. وتبعتها «الانتقام». ومضى دوفارج على أثرهما وأوصد الباب.

وقال مستر لوري وهو يرفعها: «تشجعي، يا عزيزتي لوسي. تشجعي، تشجعي! إن كل شيء يجري معنا على ما يرام ـ حتى الآن ـ وهو على كل حال خير ألف مرة مما أصاب كثيراً من النفوس البائسة، في الفترة الأخيرة. ابتسمي واشكري اللّه.»

ـ «لستُ بمنكرة فضل اللّه عليّ، في ما أرجو. ولكنْ يخيّل إليّ أن تلك المرأة المخيفة تُلقي عليّ وعلى جميع آمالي ظلاً ثقيلاً.»

فقال مستر لوري: «كفى! كفى! ما هذا القنوط الذي يهيمن على الصدر الصغير الباسل؟ إنه ظلٌ حقاً! وهو كسائر الظلال شيء وهميّ، يا لوسي.»

ولكن الظل الذي ألقته مدام دوفارج بمسلكها ذاك كان مشؤوماً عنده، برغم ذلك، أيضاً. وفي سريرة نفسه، استشعر لذلك الظل وطأة ثقيلة وأخذه منه قلق شديد.

ـ 4 ـ

هدوء في العاصفة

ولم يرجع الدكتور مانيت إلا صباح اليوم الرابع لذهابه. ولقد أخفى كثيراً من الأحداث التي وقعت في تلك الفترة الرهيبة، والتي كان قادراً على إخفائها، عن لوسي، ومن هنا لم تعرف إلا بعد عهد طويل ـ حين بَعُدت الشقة بينها وبين فرنسة ـ أن ألفاً ومئة من السجناء، الذين لا نصير لهم، وفيهم الرجال والنساء والشيوخ والشباب والأطفال، فتكَ بهم الشعب، وأن أربعة أيام وأربع ليال قد سُوّدت بهذا العمل الرهيب، وأن الهواء الذي من حولها كان ملوّثاً بدماء القتلى. كل ما عرفته أن هجوماً قد شنّ على السجون، وأن جميع المعتقلين السياسيين كانوا في خطر، وأن الحشد ساق بعضهم إلى الخارج وفتك بهم.

وأسرّ الطبيب إلى مستر لوري ـ موصياً إياه بالكتمان، وهو أمر ما كان الطبيب في حاجة ماسة إلى توكيده ـ قائلاً إن الحشد قد ساقه، وسط مذبحة دامية، إلى سجن لافورس. وإنه وجد هناك محكمة أقامت نفسها بنفسها والتأمت في قلب السجن، فالسجناء يساقون إليها على انفراد، لتصدر حكمها العاجل بقطع رؤوسهم، أو بإطلاق سراحهم أو بإعادتهم (في بعض الأحوال النادرة) إلى حجيراتهم. وإنه حين قدّمه مرافقوه إلى هذه المحكمة صرح أمامها باسمه وبمهنته وبأنه قد أمضى ثمانية عشر عاماً في إحدى حجيرات الباستيل السرية من غير أن توجّه إليه تهمة ما.

وإن عضواً من أعضاء المحكمة نهض من مقعده وأعلن أنه يعرفه، وأن هذا الرجل هو دوفارج.

وأضاف أنه تيقن علاوة على هذا ومن طريق اللوائح التي على الطاولة، أن صهره كان بين السجناء الأحياء، فتوسل إلى المحكمة توسلاً حاراً ـ وكان بعض أعضائها نائماً وبعضهم يقظان، وكان بعضهم ملوثاً بدم القتلى وبعضهم نظيفاً، وكان بعضهم صاحياً وبعضهم نشوان ـ أن يُبقوا على حياة تشارلز ويمنحوه الحرية. وإن المحكمة ـ في غمرة من الترحيب المبدئي العارم الذي أغدقته عليه بوصفه ضحية بارزة من ضحايا النظام الذي طوّح به الشعب ـ وافقت على النظر في قضية تشارلز دارني. وإنه ما إن بدا له أن صهره على وشك أن يطلق سراحه في الحال حتى اصطدم المدّ الموالي له بعقبة غامضة (لم يُوفق الطبيب إلى حلها) قادت إلى مُسارّة قصيرة بين أعضاء المحكمة. وإن الرجل المتربع في كرسي الرئاسة أعلم الدكتور مانيت، بعدئذ، أن السجين يجب أن يبقى في محبسه، ولكنه سوف يكون آمناً، إكراماً له. حتى إذا أومأ الرئيس إلى المكلفين بحراسة دارني أعادوه في الحال إلى داخل السجن. وأردف الطبيب أنه التمس من المحكمة، في توسل كثير، أن تسمح له بالبقاء هناك لكي يطمئن إلى أن صهره لن يُسْلَم، بطريقة من الطرق سواء من طريق العمد أو الخطأ، إلى الجماهير الحاشدة التي كانت صيحاتها الدموية الفاتكة خارج سور السجن تطغى في كثير من الأحيان على جو المحكمة فيتعذر سماع أصوات المتكلمين فيها، وأن المحكمة أقرت طلبه فأقام في «قاعة الدم» تلك حتى زال الخطر.

أما المشاهد التي رآها هناك ـ ولم يَطعَمْ خلال ذلك غير فتات هزيل، ولم ينعم بالنوم إلا قليلاً ـ فلن تُروى أبداً. والحق أن الابتهاج المخبول الذي أحيط به السجناء المُسْتَنْقَذون لم يوقع في نفسه دهشاً أقل من ذلك الدهش الذي أوقعته في نفسه الضراوة المخبولة التي عومل بها أولئك الذين قُطعوا إرباً إرباً. فقد أطلق سراح أحد السجناء، فاندفع إلى

الشارع، ولكن أحد الفُتّاك طعنه، على غير قصد منه، بحربة، فيما هو يتخذ سبيله إلى الشارع. حتى إذا استدعي الطبيب لتضميد الجرح انطلق من الباب نفسه فألفاه بين أذرع جماعة من ذوي القلوب الرقيقة المؤاسية للمنكوبين، القاعدين على جثث ضحاياهم. وفي تناقض لا يقل هولاً عن أيما شيء في ذلك الكابوس الرهيب قدموا يد المساعدة إلى الطبيب، وعُنوا بالجريح في لهفة بالغة الرقة وصنعوا له نقالة وواكبوه في اهتمام من مكان الحادث، ولكنهم ما لبثوا أن شهروا أسلحتهم ثم أعملوها من جديد في مذبحة مروّعة إلى حد حمل الطبيب على أن يحجب عينيه بيديه، وغاب عن الوعي وسط ذلك المشهد.

وفيما كان مستر لوري يسمع هذا الحديث السريّ ويراقب وجه صديقه البالغ عمره، الآن، الثانية والستين، ساوره هاجسٌ بأن مثل هذه الخبرات المروّعة قد تبعث الخطر القديم. ولكنه لم يرَ قطّ صديقَه على تلك الحال: إنه لم يعرفه قط في شخصيته الحاضرة. فللمرة الأولى استشعر الطبيب أن آلامه قوةٌ وعزم. لقد استشعر، أول مرة، أنه طرق على نحو تدريجي، في تلك النار الحامية، ذلك الحديدَ القادر على أن يحطم باب السجن المغلق على زوج ابنته، وينقذه منه. «لقد قُصد بذلك كله إلى غاية صالحة، أيها الصديق. إنه لم يكن مجرد هَذْرٍ وخراب. وكما كانت ابنتي الحبيبة عوناً لي على استعادة ذاتي، فسوف أبذل غاية جهدي الآن لكي أعيد إليها شطر ذاتها الأعز. سوف أفعل ذلك بعون من اللّه!» كذلك قال الدكتور مانيت. وحين رأى جارفيس لوري إلى العينين المتقدتين، والوجه الحازم، والنظرة الهادئة والمظهر القويّ التي تكشّف عنها ذلك الوجه الذي تراءى له دائماً أن حياته قد وقفت، كما تقف الساعة عدة سنوات طوالٍ لتنطلق مرّة أخرى في عزيمة كانت كامنة فيها طوالَ فترة انقطاعها عن العمل ـ حين رأى جارفيس لوري إلى ذلك كله آمن واطمأن.

وكانت أشياء أعظم بكثير من تلك التي اصطرع الطبيب معها،

آنذاك، خليقة بأن تتحطم على صخرة إرادته الصلبة. فبينا أقام في مسكنه بوصفه طبيباً يقوم عمله على خدمة أبناء الجنس البشري على اختلاف درجاتهم، أرقاءَ وأحراراً، فقراء وأغنياء، طالحين وصالحين، استخدم نفوذه الشخصي في كثير من الحكمة بحيث عُيِّن بعد فترة قصيرة طبيباً مراقباً لسجون ثلاثة كان سجن لافورس واحداً منها. لقد غدا في ميسروه الآن أن يؤكد للوسي أن زوجها لم يعد معزولاً في المحبس المنفرد، بعد أن نُقِل إلى المكان الذي حُشدت فيه جمهرة السجناء. وأنشأ يرى زوجها مرة كل أسبوع، فهو يحمل إليها من شفتيه مباشرة بعض الرسائل الحلوة. وفي بعض الأحيان كان زوجها نفسه يبعث إليها برسالة (وإن يكن لم يُسلم تلك الرسالة قطّ إلى يد الطبيب)، ولكنْ لم يسمح لها بأن تكتب إليه: لأن رجال السجن كانوا يخشون أن يعمد المعتقلون إلى الفرار؛ وكانت شكوكهم الضارية تنصبّ أكثر ما تنصبّ على ذلك النفر من المهاجرين الذين كان لهم أصدقاء أو صلات دائمة عبرَ البحار.

كانت حياة الطبيب الجديدة هذه حياة تدعو إلى القلق، من غير شك. ومع ذلك فقد وجد مستر لوري الحكيم أن ؛ بها غروراً جديداً مسعِفاً. ولم يُشرَب ذلك الغرور بشيء غير لائق. كان غروراً طبيعياً مستحباً، ولكنه راقبه بوصفه شيئاً جديراً بالملاحظة. فقد أدرك الطبيب أنّ سَجْنَه كان، حتى ذلك العهد، مرتبطاً في ذهني ابنته وصديقه، بمصيبته الشخصية، وحرمانه وضعفه. أما وقد تغيّر ذلك الآن، وأدرك أنه قد مُنِح بفضل تلك المحنة القديمة قوىً تطلّع إليها كلاهما في توقهما لاستنقاذ تشارلز نهائياً ـ أما وقد تمّ له هذا فقد زاده ذلك التغيُّر رفعةً وقدْراً حتى لقد تولى أمر القيادة والتوجيه وسألهما، على اعتبار أنهما هما الضعيفان، أن يتّكلا عليه، باعتبار أنه هو القويّ. وهكذا تبادل هو ولوسي وضعيهما السابقين، ولكنْ على خير ما يستطيع الحنان والاعتراف بالجميل أن يعكساه، إذ لم يكن ليستطيع أن يلتمس الفخرَ من غير طريق واحد: أن يسدي خدمةً ما إلى من أسدت إليه تلك الخدمات

كلها. وقال مستر لوري على طريقته الذكية اللطيفة: «ولكن هذا طبيعي وحقّ. وإذن فتولّ القيادة يا صديقي العزيز، واحتفظ بها. إنها لا يمكن أن تسْنَد إلى يدين خيرٍ من يديك.»

وسعى الطبيب جاهداً، وعلى نحو موصول، من أجل إطلاق سراح تشارلز دارني، أو تقديمه على المحاكمة على الأقل، ولكن تيار الأحداث كان أقوى وأسرع من أن يتغلّب ذلك الشيخ عليه. لقد بدأ العهد الجديد وحوكم الملك، وحكِم عليه بالموت، وأعدِم؛ وأعلنت جمهورية الحرية والمساواة والإخاء أو الموت أنها تعمل من أجل النصر أو الموت في وجه عالم مدجج بالسلاح؛ وخفقت الراية السوداء ليلاً ونهاراً فوق أبراج كنيسة نوتردام الكبيرة؛ وكان ثلاثمئة ألف رجل قد دُعوا إلى الوثوب في وجه طغاة الأرض، فوثبوا من مختلف أجزاء الأرض الفرنسية، وكأن أسنان التنين قد زرِعت في كل جهة وناحية، فآتت ثمارها في التلال والسهول، وعلى الصخور وفي الحصباء والطين الغرينيّ تحت سماء الجنوب الصافية وتحت سماء الشمال ذات السُّحب، في الهضاب والغابات، في الكروم وحقول الزيتون، بين العشب المحصود وبقايا سوَيقات القمح، وعلى ضفاف الأنهار العريضة المثمرة وفي رمال الشواطئ. وأي همّ شخصي كان يستطيع أن يَثبُتَ في وجه طوفان السنة الأولى من عهد الحرية ـ الطوفان المنبثق من أدنى، لا الهابط من فوق، ونوافذ السماء موصدة لا مفتوحة!

لم يكن ثمة تمهّل، أو رحمة، أو سلم، أو فترة استجمام متسامحة، أو قياس للزمن. فعلى الرغم من أن الأيام والليالي دارت دوراناً نظامياً كذلك الذي عرفته حين كان الزمان غضاً، وحين ألّف الليل والنهار اليوم الأول، فلم يكن ثمة وسيلة أخرى لحساب الوقت. لقد فقِدت السيطرة عليه في غمرة من حمى هائجة عصفت بأمة، كالذي يقع في الحمّى التي تلمّ بالمريض الفَرْد. فكان الجلاد يقطع حبل الصمت اللاطبيعي الذي ران على مدينة كاملة، بأن يُري الشعبَ رأس الملك حيناً، وبأن يريه حيناً

آخر ـ في اللحظة نفسها تقريباً ـ رأس زوجته الجميل الذي سلخ ثمانية أشهر مملّة من الترمّل والبؤس السجينين أحالته أبيض شائباً.

ومع ذلك فقد أبى قانون التناقض الغريب الذي يسود في مثل هذه الأحوال جميعاً إلاّ أن يجعل الوقت طويلاً، فيما هو يتلظى على ذلك النحو الخاطف. فمحكمة ثورية في العاصمة، وأربعون ألفاً أو خمسون ألفاً من اللجان الثورية في مختلف أنحاء البلاد، وقانون المشبوهين الذي أطاح بكل ضمان لحرية المواطنين وحياتهم والذي كان يمكن أن يُسلم أيما شخص صالح بريء إلى أيما شخص طالح مجرم؛ واختناق السجون بالمعتقلين الذين لم يرتكبوا جرماً ما، والذين ما كانوا يجدون من يصغي إلى شكواهم ـ هذه كلها غدت جزءاً من النظام القائم ومن طبيعة الأشياء، وبدت وكأنها عُرفٌ عتيق قبل أن تبلغ من العمر بضعة أسابيع. وفوق ذلك، فإن وجهاً مقيتاً مخوفاً انتهى إلى أن يصبح مألوفاً جداً حتى لكأن أبصار الناس ما انفكّت تقع عليه منذ بدء الخليقة ـ هو وجه تلك الأنثى الماضية الحدّ التي يدعونها «المقصلة».

كانت موضوع مَجون الناس وهزلهم. فهي خير دواء للصداع، وهي تحول بين الشيب وبين الشعر على نحو لا يخطئ أبداً، وهي تخلع على البشرة نعومة خاصة، وهي «الشفرة القومية» التي تحلق أنعم ما تكون الحلاقة. كان الذي يقبل المقصلة يطل من النافذة الصغيرة ويعطس في الكيس. كانت إمارة من إمارات خَلق الجنس البشري خلقاً جديداً. لقد أبطلت الصليب وحلّت محله. كانت أنماط منها تزيّن صدوراً نُزعت عنها الصلبان، وكان القوم يحنون الرؤوس لها ويؤمنون بها حيثما أنكروا الصليب وكفروا به.

لقد قطعت من الرؤوس عدداً كبيراً إلى حد جعلها وجعل الأرض التي دنّستها، أكثر ما دنستها، حمراء عفنة. كانت تُفَكّك أجزاءً، مثل دميةٍ لُغزٍ لشيطان فتى، ثم تُجمع أجزاؤها من جديد كلما استدعى الموقف ذلك. لقد أخرست الفصيحَ، وصرعت القويّ، ومَحتِ الجميل

والصالح. وفي صباح واحد جزّت رؤوس اثنين وعشرين صديقاً ـ واحدٌ وعشرون منهم أحياء وواحد ميت، وكلهم من مشاهير الرجال ـ في مثل هذا العدد من الدقائق. وكان اسم الرجل الجبار(*) الذي يتحدث عنه «العهد القديم» قد هبط ليُخلع على الموظف الرئيسي الذي يُعملها؛ ولكن ذلك الموظف ـ وقد سُلِّح على هذا النحو ـ كان أقوى من سَميّهِ وأشدّ عمىً، وكان يمزق أبواب هيكل الرب نفسه كلّ يوم.

وسطَ هذه الأهوال، والمتاعب الناشئة عنها مشى الطبيب رابط الجأش، ثبت الجنان، واثقاً بقوّته، مواصلاً مساعيه في احتراس، غير شاكٍّ أبداً بأنه سوف ينقذ زوج لوسي آخر الأمر. ومع ذلك فقد اندفع تيار العصر، قوياً عميقاً، جارفاً معه العصر كله في ضراوة بالغة، بحيث كان تشارلز قد سلخ في السجن سنة وثلاثة أشهر عندما كان الطبيب رابط الجأش واثقاً من نجاحه على هذا النحو. وكان جنون الثورة ونزعتها إلى الشر قد بلغا في كانون الأول ذاك غايةً ما بعدها غاية فإذا بأنهار الجنوب تغصّ بجثث المغْرَقين عنوةً في الليل، وإذا بالسجناء تطلق عليهم النار، صفوفاً صفوفاً ومربعاتٍ مربعات، تحت أشعة الشمس الجنوبية الباردة. ومع ذلك فقد ظل الطبيب يمشي وسط الأهوال رابط الجأش ثبت الجنان. فلم يكن في باريس، آنذاك، رجلٌ أكثر شهرة منه، أو أغرب وضعاً. كان صامتاً، كريم الخلق، لا يُستغنى عنه في المستشفى والسجن، يخدم بفنّة السفاكين والضحايا على حدّ سواء: وكان بذلك كله رجلاً نسيجَ وحده. وفي ممارسته لذلك الفنّ كان مظهر سجن الباستيل وقصتُه يجعلانه مختلفاً عن جميع الرجال الآخرين. إن أحداً لم يَشكّ به إلا بمقدار شكّهم في أنه بُعِث من الموت حقاً قبل ثماني عشرة سنة تقريباً، أو لو أنه كان روحاً تتحرك بين مخلوقات فانية، غير خالدة.

(*) يقصد شمشمون الذي تتحدث عنه التوراة. (المعرب)

ـ 5 ـ

ناشر الحطب

عام وثلاثة أشهر. وطوال هذه الفترة لم تكن لوسي واثقة، بين ساعة وساعة، إلا من شيء واحد وهو أن المقصلة قد تطيح برأس زوجها في غدٍ. وكل يوم كانت مركبات النقل الغاصة بمن حكِم عليهم بالموت تهتزّ متقلقلةً في تثاقل خلال الشوارع المرصوفة بالحجارة. فتيات حسان، ونسوة فاتنات بعضهن سمراوات الشعر وبعضهن فاحمات الشعر وبعضهن بيضاوات الشعر، وشباب ورجال أشداء وشيوخ، ومترفون وفلاحون، كانوا يقدِّمون كلهم نبيذاً للمقصلة، نبيذاً يُخرَج كل يوم من ظلمة السجون الكريهة إلى النور ويُحمَل عبر الشوارع لإطفاء ظمأها المفترس. الحرية، المساواة، الإخاء، أو الموت، ولكن هذا الأخير كان أيسر تحقيقاً وأقرب منالاً من أيّ من الثلاثة الأوائل. إيه أيتها المقصلة!

ولو قد أذهلت مفاجأة الكارثة وعجلات الزمن الدائرة ابنة الطبيب وجعلتها تنتظر النتيجة في يأس كسول، إذن لكان شأنها شأن كثيرات غيرها. ولكنها منذ الساعة التي أسندت فيها الرأسَ الأشيب إلى صدرها الغضّ في عليّة سان انطوان، كانت أمينة لواجباتها. ولقد كانت أكثر أمانةً لها في زمن المحنة، شأن الأوفياء الصالحين، العاملين في كثير من الهدوء إبداً.

فلم يكد المقام يستقر بهم في مسكنهم الجديد، وينهمك والدها في

نمطية أعماله المهنية حتى نظمت ذلك المأوى الصغير وكأن زوجها كان معهم تماماً. كان لكل شيء مكانه المحدد، وزمانه المحدد. ونهضت بعبء تعليم لوسي الصغيرة تعليماً نظامياً وكأن شملهم كان مجتمعاً في بيتهم الإنكليزي. وكانت الوسائل الطفيفة التي خادعت بها نفسها متظاهرة بالاعتقاد بأن شملهم سوف يلتئم عما قريب، والاستعدادات الصغيرة التي اتخذتها لعودته العاجلة، والاحتفاظ بكرسيه وكتبه ـ كانت هذه كلها، والصلاة الخاشعة في الليل من أجل سجين عزيز بخاصة بين كثير من الأرواح التعسة في السجن وشبح الموت، هي المنافذ الصريحة التي تسرّي بها وحدها، تقريباً، عن نفسها المضطربة وذهنها الموزّع.

ولم يطرأ على مظهرها تغيّر كبير. كانت الملابس القاتمة المماثلة لثياب الحداد التي ارتدتها هي وطفلتها أنيقة حسنة الذوق كأزهى الملابس التي تُرتدى في الأيام السعيدة. لقد فارقتها نضرة الوجه، وغدت الانطباعة المجدّة القديمة شيئاً دائماً لا عارضاً. أما في ما عدا ذلك فقد ظلّت مليحة قريبة إلى النفس. وكانت آلامها التي كبتتها طوال النهار تتفجر بعضَ الأحيان إذ تُقبّل أباها في موهن من الليل وتقول إن اتكالها الوحيد، في هذه الأرض، مقصور عليه. وكان يجيبها، أبداً، في عزم: «إن شيئاً لا يمكن أن يصيبه من غير علمي، وأنا أعرف أن في استطاعتي أن أنقذه، يا لوسي.»

ولم يكن قد انقضى عليهما، في حياتهما الجديدة، أسابيع كثيرة عندما قال أبوها لدى عودته إلى البيت ذات مساء:

ـ «يا عزيزتي، هناك نافذة عليا في السجن يستطيع تشارلز أن يبلغها، أحياناً، في الساعة الثالثة بعد الظهر. وهو يعتقد أن في إمكانه حين يبلغها ـ وهو شيء يتوقف على كثير من المصادفات وما إليها ـ أن يراك في الشارع إذا وقفتِ في مكان ما أستطيع أن أدلك عليه. ولكنك لن تستطيعي أن تَرَيْهِ، يا طفلتي المسكينة؛ وحتى لو استطعت فعندئذ يكون من غير المأمون أن تبدي أية إمارة تؤذن بأنك عَرَفتِهِ.»

ـ «أوه، أرني المكان، يا والدي، أذهبْ إلى هناك كل يوم.»

ومن ذلك الحين وهي تنتظر هناك، في مختلف حالات الجو، ساعتين اثنتين. فما إن تعلن الساعةُ الثانيةَ حتى تكون هناك، لتنقلب إلى البيت، في إذعان واستسلام، عند الساعة الرابعة. وكانت كلما وجدت الجو غيرَ رطب وغير قارسٍ جداً اصطحبت طفلتها. أما في الأحوال الأخرى فكانت تمضي وحدها. ولكنها لم تتخلف يوماً واحداً عن الذهاب.

كانت زاويةً مظلمة قذرة في شارع صغيرٍ ملتوٍ. وكان كوخ رجل ينشر الحطب قطعاً طويلةً للوقود في البيت الوحيد في تلك الزاوية، على حين كان سائرها جدراناً، وفي يوم ذهابها الثالث، رآها.

ـ «طاب صباحك، أيتها المواطنة.»

ـ «طاب صباحك، أيها المواطن.»

وكان هذا الطراز من النداء مفروضاً بقانون. لقد اصطنعه الوطنيون الأكثر تطرّفاً منذ فترة ما، أما الآن فقد غدا قانوناً ينبغي على كل امرئ أن ينفذه.

ـ «عُدتِ إلى السير هنا، أيتها المواطنة!»

ـ «أنت تراني، أيها المواطن!»

وألقى ناشر الحطب ـ وكان رجلاً ضئيل الجسم كثير الحركات والإيماءات عَمِل من قبلُ معبّد طرق ـ نظرة إلى السجن، وأشار إليه واضعاً أصابعه العشر أمام وجهه ممثلاً بها قضباناً حديدية، وحدّق من خلالها مازحاً.

وقال: «ولكن هذا ليس من شأني،» وواصل نشر الحطب.

وفي اليوم التالي بحث عنها، فلم تكد تبرز حتى اقترب منها.

ـ «ماذا؟ تسيرين هنا مرة أخرى، أيتها المواطنة؟»

ـ «نعم، أيها المواطن!»

ـ «آه، ومعك طفلة أيضاً! إنها أمك، أليس كذلك، يا مواطنتي الصغيرة؟»

فهمست لوسي الصغيرة مقتربة منها: «هل أقول له نعم، يا ماما؟»

ـ «نعم، يا أعز الناس.»

ـ «نعم، أيها المواطن.»

ـ «آه! ذلك ليس من شأني. أنا لا أعنى إلا بعملي. انظري إلى منشاري! أنا أدعوه مقصلتي الصغيرة. لاّ لاّ لاّ! لاّ لاّ لاّ! وكذلك يُطاح برأسه!»

وسقطت قطعة الحطب فيما هو يتحدث فألقاها في إحدى السلال.

ـ «أنا أدعو نفسي شمشون مقصلة الحطب. انظري إلى هنا مرةً أخرى! لوو، لوو! لوو، لوو! وكذلك يطاح برأسها! والآن هو ذا طفل. كر، كر، كر! كر، كر، كر! وكذلك يُطاح برأسه. لقد قُضي الآن على الأسرة كلها!»

وارتعدت لوسي عندما ألقى قطعتي الحطب في سلته، ولكنْ كان من المتعذر عليها أن تقف هناك فيما النشّار يعمل، وأن تنأى بنفسها عن عينيه. من أجل ذلك كان من دأبها أن تتحدث إليه أولاً، وكثيراً ما كانت تعطيه بعض المال يشتري به خمراً، فيأخذه من غير معارضة.

كان فضولياً مدققاً، وكثيراً ما كانت تنساه وهي تحدّق إلى سطح السجن ونوافذه المشبّكة بالحديد، أو وهي ترفع قلبها إلى زوجها. حتى إذا ثابتْ إلى نفسها وجدته ينظر إليها، ورُكبتُه على مقعده، ومنشارُهُ مُخلد إلى الراحة. وعندئذ يسارع إلى القول: «ولكن ذلك ليس من شأني!» وينكبّ على عمله من جديد.

وعلى تباين الأحوال الجوية، في ثلج الشتاء وصقيعه، في رياح الربيع الصاخبة، تحت أشعة شمس الصيف اللاهبة، وتحت أمطار الخريف ثم تحت ثلج الشتاء وصقيعه، أمضت لوسي ساعتين من كل يوم في ذلك المكان حتى إذا غادرته قبّلت جدران السجن. ولقد رآها زوجها

(كذلك علمت من أبيها) مرّة كل خمس زيارات أو ست زيارات، وقد تتعاقب هذه الرؤية مرتين أو ثلاثاً، وقد ينقضي أسبوعان قبل أن يراها مرة واحدة. كان حسْبها أن يتمكن من رؤيتها وأن يراها فعلاً حين تسمح الظروف بذلك؛ ولقد كانت مستعدّة، من أجل هذه الإمكانية، أن تنتظر النهار بطوله، سبعة أيام كل أسبوع.

واستمرت على تلك الحال حتى شهر كانون الأول، وكان أبوها ما يزال يمشي وسط الأهوال رابط الجأش ثبت الجنان. وذات أصيل تساقط فيه الثلج خفيفاً واهناً، قصدت إلى تلك الزاوية المعهودة. كان يوم عيد يضجّ بالابتهاج الصاخب المجنون. وكانت قد رأت إلى البيوت، في طريقها، مزدانةً برماح صغيرة علّقت عليها قلانس صغيرة حمراء، وبعصائب مثلثة الألوان، وبالشعار النموذجي ـ وكانت الأحرف المثلثة الألوان هي المفضلة: الجمهورية الواحدة التي لا تتجزأ. الحرية، المساواة، الإخاء، أو الموت!

وكانت دكان النشّار الحقيرة بالغة الصغر بحيث كادت صفحتها كلها تضيق عن أن تتسع لهذا الشعار. ومع ذلك فلقد عهد إلى شخصٍ ما في أن يخطه خطاً رديئاً على دكانه فحشر لفظة «الموت» في آخره بكثيرٍ من العسر. ورفعَ على سطح بيته رمحاً وقلنسوة، كما يتعيّن على كل مواطن صالح أن يفعل، وعلّق على إحدى النوافذ منشاره وقد كُتب عليه أنه «مقصلته الصغيرة المقدسة» ـ ذلك بأن الشعب كان قد رفع الانثى العظيمة الماضية الحدّ إلى مقام القديسين والقديسات. كانت دكانه مغلقة، ولم يكن هو هناك، فسُرّي بذلك عن نفس لوسي. ومكّنها من أن تنعم بوحدة هادئة.

ولكنه لم يكن في مكان بعيد، إذ ما لبث أن سمعت حركة مضطربة وصياحاً منطلقاً نحوها، أوقعتا في نفسها أشدّ الذعر. وما هي إلا لحظة حتى تدفق حول الزاوية، قرب جدار السجن، سيلٌ من الخلق وفي وسطهم ناشر الحطب شابكاً يده بيد المرأة الموسومة بـ «الانتقام». كان

عددهم لا يقلّ عن خمسمئةٍ، وكانوا يرقصون مثل خمسة آلاف عفريت. ولم يكن ثمة غير أصواتهم موسيقى، فهم يرقصون على أنغامها ضابطين الإيقاع، على نحو ضارٍ هو أشبه بصرير الأسنان المتساوق. لقد رقص الرجال والنساء معاً، ورقصت النسوة معاً، ورقص الرجال معاً كما شاءت المصادفات أن تجمع بعضهم إلى بعض. وفي البدء، كانوا مجرد عاصفة من القلانس الحمراء الخشنة، والأسمال الصوفية الغليظة، ولكنهم ما إن ملأوا المكان ووقفوا ليرقصوا حول لوسي حتى برز بينهم شبحٌ أصفر الوجه كالأموات لراقص أخذته حالٌ من الوجد الصوفي الغامر.

وتقدموا، وتراجعوا، وضرب بعضهم أيدي بعضهم الآخرين، وتشبث بعضهم برؤوس بعضهم، وانفتلوا فرادى، وأخذ فريق منهم بأيدي فريق، وانفتلوا أزواجاً، حتى تساقط كثير منهم على الأرض. وفيما كان أولئك منطرحين فوق الثرى شابك سائرهم الأيدي، وانفتلوا كلهم مجتمعين. ثم انفرط العقد وشكلوا حلقات مستقلة تتألف كل منها من اثنين أو من أربعة وأنشأوا يدورون ويدورون، حتى توقفوا جميعاً دفعة واحدة، ثم استأنفوا النشاط من جديد، فضربوا، وتشبثوا، ومزقوا، وعكسوا الدوران، وانفتلوا كلهم في الاتجاه الآخر. وفجأة توقفوا كرة أخرى، وتمهلوا، وضبطوا الإيقاع من جديد، وكوّنوا صفوفاً يمتد كل منها من جانب من الطريق العام إلى جانب، ثم طأطأوا رؤوسهم ورفعوا أيديهم، وانقضوا صائحين مُعولين. والحق أن أيما شجار ما كان يمكن أن ينتهي إلى نصف الفظاعة التي اتسم بها هذا الرقص. كان من غير شك رياضة سقطت عن مكانتها الرفيعة: كانت بريئة في يوم، فغدت شيطانية حتى الأذنين، وكانت تسلية تُزجى بها أوقات الفراغ، فأمست وسيلة لإثارة الدم، وإذهال الحواس، وفَوْلذة(*) الفؤاد، وكان بعض الخير

(*) أي جعله قاسياً كالفولاذ.

الذي فيها يجعلها أكثر بشاعة مما يُظهر إلى أي حدّ حرّفت الأشياء الخيّرة بالفطرة، وشْوّهت. كان صدر العذراء المعرّى من أجلها، والرأس الطفليّ الجميل المخبّل على هذا النحو، والقدم الرفيقة المخوّضة في حمأة الدم والقذرة هذه ـ كانت تلك كلها نماذج من هذا العصر الذي يعوزه التناسق والانسجام.

كان ذلك هو الكارمانيول(*) حتى إذا مضى القوم لسبيلهم، تاركين لوسي مروّعة ذاهلة عند مدخل بيت النشّار، تساقط الثلج الريشيّ الوزن، وانطرح أبيض ناعماً كما لم يتساقط ولم ينطرح قطّ من قبل.

قالت وقد رفعت عينيها اللتين حجبتهما بيدها فترة قصيرة من الزمن: «أوه، أبي»، ذلك بأنها وجدته واقفاً أمامها، «يا له من مشهد قاس كريه!»

ـ «أدري، يا عزيزتي، أدري. لقد رأيته عدة مرات. لا تخافي. إن أحداً منهم لن يؤذيك.»

ـ «أنا لست خائفة على نفسي، يا أبتِ. ولكن حين أفكّر في زوجي، وفي أنه تحت رحمة هؤلاء الناس...»

ـ «سوف ننقذه من رحمتهم عما قريب. لقد تركته يتسلق النافذة، وجئت لأخبرك. ليس ثمة أحد يستطيع أن يراك. وفي ميسورك أن تبعثي له قبلة بأن تقبّلي يدك في اتجاه ذلك السطح الأعلى الذي يشبه الرفوف.»

ـ «سأفعل، يا أبتِ، وسأبعث إليه بروحي معها!»

ـ «أنت لا تستطيعين أن تريه، يا عزيزتي الشقية؟»

ـ «فقالت لوسي متلهفة باكية وهي تقبّل يدها: «لا يا أبتِ. لست أستطيع.»

وسمع وقع قدمين على الثلج. إنها مدام دوفارج. وقال الطبيب:

(*) Carmagnole ضرب من الرقص والغناء، شاع أثناء الثورة الفرنسية. (المعرب)

«أحييك، أيتها المواطنة.» فأجابت وهي تتابع سبيلها: أحييك، أيها المواطن.» ولم يزيدا. ومضت مدام دوفارج، وكأنها الظل فوق الطريق البيضاء.

ـ «أعطني ذراعك، يا حبيبتي. ولننطلق من هنا في ابتهاج وشجاعة، من أجله هو. لقد أحسنتِ صنعاً ـ وكانا قد غادرا المكان ـ ولن يذهب ذلك سدى. سوف يدعى تشارلز غداً إلى المحاكمة.»

ـ «غداً.»

ـ «ليس عندنا وقت نضيعه. أنا على أحسن استعداد. ولكن ثمة احتياطات يجب أن تُتخذ ولم يكن في الإمكان اتخاذها قبل أن يدعى للمثول فعلاً أمام المحكمة. إنه لم يتلقّ إشعاراً بذلك بعد، ولكني أعلم أنه سوف يُدعى على التو، ويُنقل إلى «الكونسييرجيري»(*). إن الأنباء تأتيني في حينها. أنتِ لست خائفة؟»

فأجابته وهي لا تكاد تبيِّن: «إن لي ثقة بك.»

ـ «ثقي بي، من غير تردد. لقد أشرف انتظارك الطويل على الانتهاء، يا حبيبتي. سوف يعاد إليك بعد ساعات قليلة. ولقد أحطته بكل ضروب الحماية. يجب أن أرى لوري.»

وكفّ عن الكلام. لقد سمعا عجلات تمضي متقلقلة متثاقلة. وعرف كل منهما معنى ذلك معرفة حسنة. واحد. اثنان. ثلاثة. لقد انطلقت ثلاث عربات مثقلة بأحمالها الراعبة فوق الثلج الساجي.

وكرر الطبيب متجهاً بها وجهة أخرى: «يجب أن أرى لوري.»

وكان الشيخ المخلص الراسخ العزم لا يزال في المصرف. إنه لم يفارقه قط.

والواقع أن ممثلي السلطة كانوا كثيراً ما يفتشون دفاتره التماساً

(*) Conciergerie سجن محاذ لقصر العدل في باريس، كان المحكوم عليهم بالموت يحشدون فيه خلال عهد الإرهاب من الثورة الفرنسية. (المعرب)

للأملاك التي يستطيعون مصادرتها وتحويل ملكيتها إلى الشعب. فكان لا يجد فرصة تمكنه من إنقاذ بعض الأملاك من يد السلطة والاحتفاظ بها لأصحابها، إلا اغتنمها. وعلى أية حال، فقد كان أقدر من يستطيع مصرف تلسون أن يعهد إليه في تولي شؤونه في فرنسة وتجنيبه المتاعب وضروب البلاء.

كانت سماءٌ حمراء قاتمة وصفراء، وضباب منطلق من ناحية نهر «السّين» يعلنان اقتراب الظلمة. وكانت العتمة قد خيمت على الكون، أو كادت، عندما انتهيا إلى المصرف. كان قصر مولانا الفخم قد هُجر فذوى وذهب رونقه، وفوق ركام من التراب والغبار، في الفناء، جَرَتِ الأحرف التالية: «ممتلكات الشعب. الجمهورية الواحدة التي لا تتجزأ. الحرية، والمساواة، والإخاء، أو الموت.»

من كان ذلك الزائر الذي طرح معطف سفره على كرسي في مقر مستر لوري، والذي ما كان ينبغي لأحد أن يراه؟ من لدن أيّ قادم منذ قريب خرج مستر لوري، مهتاجاً دهشاً، ليضم المرأة الأثيرة على قلبه بين يديه؟ لمن كان يكرر كلماتها المتهدجة عندما رفع صوته وأدار رأسه نحو باب الغرفة الذي كان قد انبثق منه، وقال: «نُقل إلى الكونسييرجيري وسيحاكم غداً!»

ـ 6 ـ

نصر

كانت المحكمة الرهيبة المؤلفة من خمسة قضاة، ونائب عام، ومحلّفين عنيدين تنعقد كل يوم. كانت لوائحها تنطلق كل مساء فيتلوها المسؤولون عن مختلف السجون على مسامع السجناء. وكانت نكتة السجان التقليدية أن يقول: «اخرجوا واسمعوا إلى جريدة المساء، أنتم الذين هناك في الداخل!»

ـ «تشارلز أيفريموند، المدعو دارني!»

وهكذا بدأت «جريدة المساء» آخر الأمر في سجن لافورس.

وكان كل من ينادى على اسمه يتقدم إلى بقعة خصصت لمن نصّت اللائحة على أسمائهم. وكان تشارلز أيفريموند، المدعو دارني، جديراً بأن يعلم هذا العُرف. لقد رأى مئاتٍ يتخذون هذا السبيل من قبله.

ورمقه سجّانه المنتفخ، اللابس نظارتين يقرأ بهما، ليتأكد من أنه قد مضى إلى مكانه، وتابع تلاوة الأسماء، متمهلاً بعض الشيء عند كل منها. كانت اللائحة تنتظم ثلاثة وعشرين اسماً، ولكن عشرين استجابوا للنداء ليس غير. ذلك بأن واحداً من السجناء الذي تُليت أسماؤهم كان قد قضى نحبه في محبسه ونُسي، واثنين آخرين احتزت المقصلة رأسيهما ثم نُسيا. وتليت اللائحة في الغرفة ذات الأقواس حيث التقى دارني حشد السجناء ليلة وصوله. كان كل امرئ من هؤلاء قد لقي حتفه في المجزرة؛ كان كل مخلوق بشري أنسَ إليه منذ ذلك الحين وفُصل عنه قد مات.

وتبودلت على عجل كلمات التوديع والملاطفة، ولكن الوداع ما لبث أن انتهى. كان ذلك يحدث كل يوم، وكان مجتمع لافورس منهمكاً في أعداد بعض الألعاب التغريمية وحلفة موسيقية صغيرة لتلك الليلة. لقد احتشدوا حول قضبان النوافذ وسفحوا العبرات. ولكن عشرين مقعداً كان ينبغي أن تملأ من جديد في الحفلة العتيدة، ولم يكن بين الجماعة وبين موعد الإيواء إلى النوم غير فترة قصيرة تُسلم الغرف العامة والأروقة، بعدها، إلى الكلاب الكبيرة التي تحرس المكان طوال الليل. والحق أن السجناء ما كانوا غلاظ الأفئدة عديمي الشعور، ولكن مسالكهم هذه انبثقت من روح العصر ووضعه العام. وعلى هذا النحو، ولكن مع فارق طفيف يستطيع المرء أن يقول إن ذلك الضرب من الشوق والافتتان الذي حمل بعض الأشخاص على أن يتحدّوا المقصلة، لغير ما داع، ويموتوا بها لم يكن مجرد مباهاة وافتخار، ولكنه كان عدوىً ضارية ألمّت بأولئك الأشخاص من عقل آلامه المضطرب اضطراباً ضارياً. ففي مواسم الطواعين والأوبئة ينجذب بعضنا انجذاباً سرياً إلى المرض. ومن هنا تنشأ نزعة رهيبة زائلة إلى الموت به. إن صدر كل منا ينطوي على مثْل العجائب والمعجزات. ولكن تلك المكنونات في حاجة دائماً إلى ظروف تستحضرها.

كان المجاز المؤدي إلى الكونسييرجيري قصيراً مظلماً؛ وكان الليل في حجيراته التي تختلف إليها ضروب الهوامّ، طويلاً بارداً. وفي اليوم التالي مَثُلَ خمسة عشر سجيناً أمام هيئة المحكمة قبل أن يُدعى تشارلز دارني. وحكم بالموت على الخمسة عشر جميعاً، ولم تستغرق محاكمتهم كلهم غير ساعة ونصف.

وسيق «تشارلز أيفريموند المدعو دارني» آخر الأمر إلى المحاكمة.

لقد جلس قضاته على المنصة معتمرين قبعات مزدانة بالريش، ولكن القلنسوة الحمراء الخشنة ذات الشريطة المثلثة الألوان كانت هي لباس الرأس السائد في قاعة المحكمة. ولقد كان من الجائر أن يفكِّر، حين

ألقى نظرة على المحلفين والنظارة المشاغبين، أن نظام الأشياء قد عُكس، وأن المجرمين يحاكمون الرجل الأمين. كان أحط أهل المدينة وأقساهم وأسوأهم ـ وما كانت المدن لتخلو من جمهرة كبيرة من المنحطين والقساة والشريرين ـ هم الروح الموجهة للمشهد: كانوا يعلقون في صخب، ويصفقون، ويستنتجون، ويتوقعون، ويتعجلون النتيجة، على غير انقطاع. وكانت كثرة الرجال العظمى مسلحة بطرائق مختلفات. أما النسوة فكان بعضهن يحمل مُدىً، وبعضهن يحمل خناجر؛ وكان بعضهن يأكل ويشرب فيما هن يتابعن سير المحاكمة، على حين نشطت كثيراتٌ منهنّ في الحبك. وبين هاته الأخيرات كانت واحدة تتأبط أثناء عملها قطعة من الحبك إضافية. كانت في إحدى الصفوف الأمامية، إلى جانب رجل لم يره قطّ منذ وصوله إلى باريس، ولكنْ ما إن وقعت عينه عليه الآن حتى عرف فيه دوفارج. ولاحظ أنها همست في أذنه مرة أو مرتين. وإنها تبدو وكأنها زوجته. ولكن أكثر ما لاحظه في هذين الشخصين أنهما برغم احتلالهما مقعدين بالغَيْ القرب منه، لم ينظرا نحوه قط. لقد بدا وكأنهما ينتظران، في عزم عنيد، شيئاً ما. وكانا ينظران إلى المحلفين ولكن نظراتهما لم تتجاوز هؤلاء إلى أحدٍ البتة. وتحت منصة الرئيس جلس الدكتور مانيت في مظهره الساكن المألوف. ولقد كان هو ومستر لوري ـ على قدر ما استطاع السجين أن يرى ـ الرجلين الوحيدين، غير المتصلين بالمحكمة، اللذين ارتديا ملابسهما العادية، ولم يتخذا ثوب الكارمانيول الخشن.

واتهم النائب العام تشارلز أيفريموند المدعوّ دارني بأنه مهاجرٌ رجع إلى الوطن فينبغي للدولة أن تنتزع حياته وفقاً لأحكام القانون الذي قضى بإبعاد جميع المهاجرين تحت طائلة الموت. إما أن القانون قد صدر بعد عودة تشارلز إلى فرنسة فذلك شيء لم تكن له أيما أهمية في نظر النائب العام. فها هو ذا تشارلز وها هو ذا القانون. لقد ألقي عليه القبض في فرنسة. فالنائب العام يطالب برأسه.

وصاح النظارة: «اقطعوا رأسه! إنه عدو للجمهورية!»

وقرع الرئيس جرسه ليخرس هذه الصيحات، وسأل السجين أليس صحيحاً أنه عاش عدة سنوات في إنكلترة؟

لقد فعل ذلك من غير ريب.

وإذن فلِمَ لا يكون مهاجراً؟ وأيّ شيء يدعو نفسه؟

فأجاب تشارلز إنه لا يدعو نفسه، وفق معنى القانون وروحه، مهاجراً.

ولِمَ لا؟ لقد أراد الرئيس أن يعرف.

لأنه تخلى بمحض إرادته عن لقب كان بغيضاً إليه، وعن مكانة كانت كريهة عنده، وغادر البلاد قبل أن يصبح لكلمة مهاجر ذلك المدلول الذي تأخذ به المحكمة الآن، لكي يعيش في إنكلترة بعرق جبينه، لا بعرق جبين الشعب الفرنسي المرهَق.

وأي برهان كان عنده على ذلك؟

وقدّم اسمي شاهدين: تيوفيل غابيل، وألكسندر مانيت.

وذكّره الرئيس: «ولكنك قد تزوجت في إنكلترة؟»

ـ «ولكني لم أتزوج امرأة إنكليزية.»

ـ «مواطنة فرنسية؟»

ـ «نعم. مواطنة بالولادة.»

ـ «وما اسمها واسم أسرتها؟»

ـ «لوسي مانيت، وهي البنت الوحيدة للدكتور مانيت، الطبيب الصالح الذي يجلس هناك.»

وكان لهذا الجواب أثرٌ بهيج في نفوس النظارة. ودوّت هتافات التعظيم للطبيب الصالح الواسع الشهرة، في أرجاء القاعة. وغلب التأثر على الناس، غلبةً غريبة، حتى لقد تدحرجت الدموع، في الحال، على عدد من الوجوه الضارية التي كانت تحدق قبل لحظة إلى السجين،

وكأنها تريد، في نفاد صبر، أن تقتلعه من مكانه لتمضي به إلى الشارع وتقتله.

وإنما مشى تشارلز دارني هذه الخطوات القليلة في طريقه الخطرة وفقاً لتوجيهات الدكتور مانيت المتكررة. ولقد وجّه الناصحُ المحترس نفسُهُ كل خطوة ما تزال أمامه، وكان قد مهّد له كل إنش في تلك الطريق.

وسأله الرئيس لماذا رجع إلى فرنسة في ذلك الموعد الذي رجع فيه، لا قبله؟

فأجابه بقوله إنه لم يرجع قبل ذلك لسبب بسيط وهو أنه ما كان له مورد رزق في فرنسة غير ممتلكاته التي تخلى عنها، على حين عاش في إنكلترة على تدريس اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي. وإنما رجع في الموعد الذي رجع فيه إثر تضرّعٍ عاجلٍ مكتوب تلقّاه من مواطن فرنسي يقول إن حياته مهدّدة بالخطر بسبب من غيابه عن الوطن. وهكذا انقلب إلى فرنسة لينقذ حياة مواطن، وليؤدي شهادته لوجه الحقّ ولو تعرّضت حياته للخطر. فهل يُعتبر ذلك جريمة في نظر الجمهورية؟

وصاح القوم في حماسة: لا!» فقرع الرئيس جرسه لكي يهدّئهم. ولكنه لم يوفق إلى ذلك، إذ واصلوا صياحهم: «لا!» حتى كفّوا عنه من تلقاء أنفسهم.

وسأله الرئيس عن اسم ذلك المواطن. فأوضح المتهم أنه شاهدُهُ الأول. كذلك أشار في ثقة إلى رسالة المواطن التي انتُزعت عند الحاجز، والتي لا يشك في أنها بين الأوراق الموضوعة أمام الرئيس.

وكان الطبيب قد سعى إلى أن تكون هناك ـ وكان قد أكد له أنها سوف تكون هناك ـ وعندئذ أخرجت وتُليت. ودُعي المواطن غابيل لإثباتها، ففعل. وألمع المواطن غابيل في لطف بالغ وكياسة لا نهاية لها، إلى أن اضطرار المحكمة إلى الفصل في قضايا المئات من أعداء الشعب أدى إلى إهماله بعض الشيء في سجن آباي ـ وفي الحق، لقد غاب عن ذاكرة القضاة الوطنية ـ ليُطلق سراحه منذ ثلاثة أيام ليس غير،

حين دُعي إلى المثول بين يدي المحكمة، فأعيدت إليه حريته بعد أن أعلن المحلفون اقتناعهم بأن التهمة الموجهة إليه إنما يجيب عنها، لجهته هو، استسلامُ المواطن أيفريموند المدعو دارني.

ثم دُعي الدكتور مانيت، بعد ذلك، إلى أداء الشهادة. وتركت شعبيّته الشخصية الرفيعة ووضوح أجوبته أثراً بعيداً في النظارة. ولكنه ما إن استرسل في أداء الشهادة فأظهر أن المتهم كان أول صديق عرفه حين نعِمَ بالحرية إثر سجنه الطويل، وأن المتهم أقام في أنكلترة على الإخلاص له ولابنته في منفاهما، وأنه ما كان من مؤيدي الحكومة الأرستوقراطية هناك حتى لقد حُوكم مرةً وكاد يخسر حياته بوصفه عدواً لإنكلترة وصديقاً للولايات المتحدة ـ ما إن استرسل الطبيب في سرد هذه الأحداث، في تبصّر وروية، وبنبرة الصدق القلبيّ وقوّته، حتى غدا المحلفون وجمهور النظارة كلاً واحداً. حتى إذا استشهد، آخر الأمر، بمسيو لوري، وهو رجل إنكليزي كان آنذاك في القاعة، وقد أدلى بشهادته في تلك المحاكمة الإنكليزية، كما أدلى بها هو نفسُهُ، وفي استطاعته أن يثبت صحة روايته، أعلن المحلفون اكتفاءهم بما سمعوا، وأنهم على استعداد لإعطاء أصواتهم إذا رغب الرئيس في الاستماع إليها.

وعند كل صوت (قد صوّت المحلفون علانيةً وعلى نحو فرديّ) كان الجمهور يطلق صيحة الاستحسان. وجاءت جميع الأصوات في مصلحة السجين فأعلن الرئيس براءته.

عندئذ استُهلّ واحدٌ من تلك المشاهد الخارقة التي كان جمهور النظارة يُرضي بها في بعض الأحيان تقلّبه، أو حوافزه الفضلى إلى الشهامة والرحمة، أو التي كان الجمهور يرى فيها شيئاً مقابلاً يُقيمه في وجه اهتياجه الفظيع المتضخم حسابُهُ تضخماً كبيراً. وليس في ميسور أحد أن يجزم الآن إلى أيٍّ من هذه الدوافع ينبغي أن تُعزَى تلك المشاهد الخارقة. ولعل الراجح أن تُرَدَّ إلى مزاجٍ من الدوافع الثلاثة جميعاً مع التوكيد على سيطرة الدافع الثاني. فلم يكَد الرئيس يعلن براءة دارني حتى

سُفحت الدموع بمثل الغزارة التي سُفحت بها الدماء في مناسبات أخرى، واندفع القوم رجالاً ونساء نحو السجين يعانقونه عناقاً أخوياً حتى لقد خُشي عليه من أن يسقط مغشياً عليه من الإجهاد بعد أن سلخ في السجن دهراً بغيضاً طويلاً. وكان من أبرز العوامل التي هدّت قواه معرفته الجيدة بأنه لو قُدِّر لهؤلاء الناس أنفسهم أن ينجرفوا مع تيار مغاير إذن لاندفعوا نحوه بمثل تلك القوة، لكي يمزقوه إرباً إرباً، وينثروا أشلاءه في الشوارع.

وقد الحرس بإخراجه من القاعة لكي تتمكن المحكمة من النظر في قضايا المتهمين الآخرين، فكان في ذلك ما حرّره، إلى حين، من تلك الملاطفات. كان ثمة خمسة متهمين ينبغي أن يحاكموا بعده جملة واحدة بوصفهم أعداء للجمهورية، وذلك بسبب من أنهم لم يساعدوها بأقوالهم أو بأفعالهم. وكانت المحكمة حريصة على أن تعوّض نفسها والأمةَ من هذه الفرصة المضاعة، وأن تفعل ذلك بأقصى سرعة، حتى لقد أصدرت حكمها بأن يُعدم هؤلاء الخمسة في فترة لا تعدو الأربع والعشرين الساعة، وتشارلز لمّا يفارق المكان بعد. لقد التقاهم وهم يساقون إلى خارج القاعة، فأنبأه أحدهم ذلك بالإشارة التي يصطنعها السجناء رمزاً للموت ـ وهي الإصبع المرفوعة ـ بينا أضافوا جميعاً الكلام: «عاشت الجمهورية!»

والواقع أن أولئك الخمسة لم ينعموا بجمهور يطيل محاكمتهم، إذ ما كاد تشارلز والدكتور مانيت يجتازان الباب حتى وجدا حوله حشداً كبيراً بدا لهما وكأنه ينتظم كل وجه وقعت أعينهما عليه في قاعة المحكمة، ما خلا وجهين راحا يبحثان عنهما على غير طائل. وفي الحال، أحاط القوم به مرّة أخرى وأنشأوا يعانقونه ويبكون ويصيحون، كل بمفرده وعلى نحو جماعي، حتى لقد بدا وكأن أمواج النهر الذي وقع المشهد المجنون على ضفته قد أصابتها العدوى فاندفعت هي الأخرى في جنون، شأن الناس المتجمهرين على الساحل.

ووضعوه على كرسي ضخم كان وسطهم، وكانوا قد أخرجوه من المحكمة نفسها أو من إحدى غرفها أو ممراتها. وكانوا قد طرحوا فوق الكرسي راية حمراء، وشدّوا إلى ظهره رمحاً رُكزت على رأسه قلنسوة حمراء. وفي عربة النصر هذه، لم تستطع حتى توسلات الدكتور مانيت نفسُها أن تحول بينهم وبين حمله إلى البيت على كواهل الرجال وسط بحر هائج من القلانس الحمراء المتحركة حوله، الطالعة من الأعماق العاصفة مثلَ هذا الحطام من الوجوه، حتى لقد خامره الشك غير مرة، وتراءى له وكأنه يتخذ سبيله، في إحدى عربات الموت، إلى المقصلة.

حملوه في موكب هائج، هو بالحلم أشبه، وراحوا يعانقون كل من يلقونه في الطريق ويلفتون نظره إلى تشارلز، مخضبين الشوارع الحافلة بالثلج، فيما هم يطوّفون فيها ويطأونها، باللون الجمهوري السائد، كما قد سبق لهم أن خضبوا وجهها المحتجب تحت الثلج بصبغة أشد إحمراراً، وظلوا على ذلك حتى انتهوا به إلى فناء الدار القائم فيها مسكنه. وكان الطبيب قد سارع إلى البيت لكي يعدّ ابنته لتلقي النبأ السعيد، حتى إذا ترجل تشارلز سقطت بين ذراعيه مغشياً عليها.

وفيما هو يشدّها إلى قلبه ويدير رأسها الجميل بين وجهه وبين الحشد الصاخب لكي تلتقي عبراته وشفتاها في نجوة من الأعين، شرع نفرٌ من الناس يرقصون. وفي الحال أخذ سائرهم بأسباب الرقص، وضجّ الفناء بالكارمانيول. ثم إنهم رفعوا إلى الكرسي الشاغرة فتاة من الحشد ليحملوها بوصفها إلٰهة الحرية، واندفعوا كالسيل الطامي إلى الشوارع المجاورة، وفي محاذاة ضفة النهر، وفوق الجسر، وقد فني كل منهم في الكارمانيول وأخذ يدور ويدور.

وبعد أن أمسك بيد الطبيب، وقد وقف أمامه مظفّراً فخوراً، وبعد أن أمسك بيد مستر لوري الذي أقبل لاهثاً من نضاله ضدّ إعصار الكارمانيول؛ وبعد أن قبّل لوسي الصغيرة التي رُفعت لتطوّق جيده بذراعيها؛ وبعد أن عانق مسّ بروس المتحمسة أبداً، الوفية أبداً، وكانت

هي التي رفعت الطفلة ـ بعد أن قام تشارلز بذلك كله حمل زوجته بين ذراعيه وارتقى بها السلم إلى غرفتهما.

ـ «لوسي! حبيبتي! لقد نجوت.»

ـ «أوه، تشارلز، يا أعز الناس، دعني أشكر اللّٰه على هذا وأنا راكعة على الأرض كما قد فعلتُ حين صلّيت من أجلك.»

وفي خشوع حنى كل منهما رأسه وفؤاده. حتى إذا طوّقها بذراعيه من جديد قال لها: «والآن، تحدثي إلى أبيكِ، يا أعز الناس. فلم يكن في وسع أيّ رجل آخر في فرنسة كلها أن يصنع ما صنعه من أجلي.»

وألقت رأسها على صدر أبيها، كما ألقت رأسه المسكين على صدرها هي منذ عهد بعيد، بعيد. لقد أسعده أن يوفق إلى أن يفيها دَينها، ولقد عُوِّض من آلامه أحسنَ عِوَض، وإنه لفخور بقوته. وعاتبها بقوله: «ينبغي أن لا تكوني ضعيفة هكذا. لا ترتجفي هكذا. لقد أنقذتُهُ.»

ـ 7 ـ

دقة على الباب

«لقد أنقذته.» إن ذلك لم يكن حلماً جديداً من تلك الأحلام التي رجع فيها تشارلز إلى أهله. فقد كان بينهم فعلاً. ومع ذلك، فقد ارتعدت أوصال زوجته، واستبدّ بها جوع غامض ولكنه ثقيل الوطأة.

كان الهواء المحيط بها كثيفاً مظلماً، وكان الناس متقلبي الأهواء متعطشين إلى الانتقام. وكان الأبرياء ما يزالون يساقون إلى الموت لريبة غامضة ولضغينة سوداء. وكان من المتعذر عليها أن تنسى أن كثيرين في مثل براءة زوجها وفي مثل منزلته ومحبته عند الآخرين كانوا يلاقون كل يوم ذلك المصير الذي انتُزع هو منه ـ إلى حدّ جعل من العسير على قلبها أن يتخفف من حمله بالقدر الذي بدا لها ضرورياً. كانت ظلال الأصيل الشتوي قد شرعت تهبط، وحتى في تلك اللحظة كانت العربات الرهيبة ما تزال تتدحرج في الشوارع. ومضى عقلها في إثر تلك العربات، باحثاً عنه بين المحكوم عليهم بالموت؛ وعندئذ كانت تتشبث أكثر فأكثر بوجوده الواقعي، وتزايلها الرِّعدة.

وكان والدها يسرّي عنها مظهراً تفوّقاً حنوناً على ضَعف ابنته كان من الرائع أن يرى المرء إليه. لم يعد ثمة، الآن، عليّة، أو صنع أحذية، أو رقم مئة وخمسة، البرج الشمالي! لقد نهض بالمهمة التي ندب نفسَهُ لها؛ لقد أنجز وعده، وأنقذ تشارلز. فليتكلموا كلهم عليه.

وكانت معيشتهم البيتية تتمّ باقتصاد بالغ. لا لأن ذلك المسلك كان

أسلم المسالك، وأقلها استثارة لغيظ الناس ولكن لأنهم لم يكونوا أغنياء، ولأنه تعيَّن على تشارلز، طوال مقامه في السجن، أن يدفع غالياً ثمن طعامه الرديء، وأن يقدّم المال إلى حرسه وإلى بعض السجناء الأكثر فقراً. من أجل ذلك، ولاجتناب العيش مع جاسوسة منزلية، آثروا أن لا يُدخلوا إلى بيتهم خادمة. وكان المواطن والمواطنة المقيمان عند باب الفناء، والقائمان بمهمة الساعي أو الرسول، كثيراً ما يُسديان إليهم بعض الخدمات. وكان جيري (بعد أن حوّله مستر لوري إليهم تحويلاً كاملاً تقريباً) قد أمسى خادمهم اليوميّ، فهو ينام عندهم كل ليلة.

كانت قوانين الجمهورية الواحدة التي لا تتجزأ، جمهورية الحرية والمساواة والإخاء أو الموت، تقضي بأن يُخطّ على باب كل بيت أسماء نزلائه جميعاً، بأحرف واضحة ذات حجم محدد، وعلى ارتفاع ملائم. ومن هنا زيّن اسم جيري كرانتشر باب البناية السفلي. ولم تكد ظلال الأصيل تزداد عمقاً، حتى أطل صاحب ذلك الاسم نفسه من فوق كتف دهّان كان الدكتور مانيت قد عهد إليه في أن يضيف إلى ثبت الأسماء الذي على الباب اسم تشارلز أيفريموند، المدعو دارني.

ووسط الخوف والشك الشاملين اللذين سوّدا صفحة الزمان تغيّرت طرائق الحياة العادية غير المؤذية كلها. ففي منزل الطبيب الضيّق، كما في كثير من المنازل الأخرى، كانت مواد الاستهلاك اليومي التي تحتاج إليها الأسرة تُشترى كل مساء، بمقادير صغيرة، ومن دكاكين متباينة صغيرة. وكانت النزعة العامة تقضي باجتناب لَفْت النظر وإفساح أقل مجال ممكن للحديث والحسد.

كانت مس بروسّ ومستر كرانتشر قد نهضا، منذ بضعة أشهر، بمهمة تزويد البيت بحاجاته اليومية؛ وكانت الأولى تحمل الدراهم، وكان الثاني يحمل السلة. ففي كل مساء، حوالى الوقت الذي تضاء فيه المصابيح العامة، كانا ينطلقان لأداء وظيفتهما، فيشتريان تلك الحاجات وينقلبان إلى المنزل. وعلى الرغم من أن مس بروس كان لها من حياتها

الطويلة مع تلك الأسرة الفرنسية، ما يجعلها جديرة بأن تعرف لغة القوم كما تعرف لغتها هي لو رغبت في ذلك، إلا أنها لم توفق إلى هذا لانعدام رغبتها فيه. وهكذا لم تعرف من ذلك «الهراء» (كما كانت تحب أن تسمي تلك اللغة) أكثر مما عرف مستر كرانتشر. فكان شراؤها يقوم على قذف رأس البائع باسم من الأسماء، من غير ما مقدمة عن طبيعة الشيء الذي تريده. وإذا اتفق أن كان ذلك الاسم غير منطبق على السلعة المطلوبة، كان من دأبها أن تبحث عنها في أرجاء الدكان، وتضع يدها عليها، لتظل متشبثة بها حتى تُختم المساومة. وكانت تساوم على السلعة بأن ترفع، رمزاً لثمنها العادل، عدداً من أصابعها ينقص عن ذلك الذي يرفعه البائع، بالغاً ما بلغ هذا العدد.

قالت مس بروس، وكانت عيناها حمراوين بالهناءة: «والآن، يا مستر كرانتشر. إن كنتَ مستعداً للخروج فأنا كذلك مستعدة.»

وفي صوت أجش أعلن جيري أنه في خدمة مس بروس. كان قد استنفد كل صدأه منذ عهد طويل، ولكن أيما شيء ما كان قادراً على أن يسوّي شعره الشائك ويَبْرُده.

قالت مس بروس: «إننا في حاجة إلى أشياء من كل صنف، ولسوف نقضي وقتاً رائعاً في شرائها. نحن نحتاج إلى خمر أيضاً. ولسوف نجد ذوي الرؤوس الحمراء هؤلاء يشربون أنخاباً لذيذة حيثما اشتريناها.»

فقال جيري: ولن يكون ثمة فرق عندكِ، يا آنسة، في ما أعتقد، بين أن يشربوا على صحتك أو على صحة المخلوق القديم.»

فسألته مس بروس: «من؟»

وفي شيء من الاهتمام وأوضح لها مستر كرانتشر أنه يعني «صحة إبليس القديم.»

فقالت مس بروس: ها! لا يحتاج المرء إلى مفسر لكي يوضح معنى لهذه المخلوقات. إنها لا تعني غير شيء واحد، وهو الأذى وسفك الدماء عند منتصف الليل!»

فصاحت لوسي: «هش، يا عزيزي! أتوسل إليكِ، أتوسل إليك أن تحترسي في الكلام.»

فقالت مس بروس: «أجل، أجل، أجل، سوف أحترس. ولكني أستطيع القول في ما بيننا إني أرجو أن لا يكون الخنق بالتبغ والبصل، المتخذ شكل العناق، قائماً على قدم وساق في الشوارع. والآن، حذار يا عصفورتي أن تبتعدي عن تلك النار حتى أعود! إعتني بالزوج العزيز الذي استرجعته، ولا ترفعي رأسك الجميل عن كتفه كما فعلت الآن حتى تشاهديني مرّة أخرى! هل أستطيع أن أسأل سؤالاً واحداً، يا دكتور مانيت، قبل أن أذهب؟»

فأجابها الطبيب مبتسماً: «أحسب أن في استطاعتك أن تأخذي حريتك في ذلك.»

فقالت مس بروس: «إكراماً للربّ، لا تتحدث عن الحرية. لقد لقينا ما فيه الكفاية من ذلك.»

فأنّبتها لوسي: «هش، يا عزيزتي! عُدنا إلى هذا؟»

فقالت مس بروس وهي تومئ برأسها في توكيد: «حسناً، يا حبيبتي، خلاصة المسألة وتفسيرها أني من رعايا صاحب الجلالة السابغ الجود جورج الثالث.» وانحنت مس بروس احتراماً عندما لفظت الأسم. «وبوصفي ذاك، فإن مسلكي يقوم على هذه القاعدة: أفسدْ سياستهم. أحبط حيلهم الخادعة! إنه هو مناط آمالنا! فليحرس اللّه الملك!»

وفي فيضٍ من الولاء هرّ مستر كرانتشر مكرراً الكلمات إثر مس بروس وكأنه في الكنيسة.

وقالت مس بروس في استحسان: «أنا سعيدة بأن يكون في برديك هذا المقدار من روح الرجل الإنكليزي، وإن كنت أتمنى لو لم يصب صوتك بذلك الزكام. ولكن يا دكتور مانيت، أليس ثمة...» فقد كان من عادة تلك المخلوقة الصالحة أن تتظاهر بالاستخفاف بكل ما يشغل

بالهم جميعاً إلى حدّ بعيد، وأن تتصرّف بهذه الطريقة العابرة، «أليس ثمة أمل ما في أن نوفق إلى مغادرة هذا المكان؟»

ـ «أخشى أن يكون ذلك متعذراً الآن. مثل ذلك العمل يعرّض تشارلز للخطر.»

فقالت مس بروس وهي تكبت، في ابتهاج، تنهيدةً تريد أن تنطلق، فيما هي تنظر إلى شعر حبيبها الذهبي على ضوء النار: «هاي ـ هو ـ هووم! يجب أن نتذرع بالصبر، وننتظر: هذا كل ما هنالك. يجب أن نرفع رؤوسنا عالياً ونقاتل في رفق، كما كان أخي سليمان يقول. والآن هيا بنا يا مستر كرانتشر ـ حذار أن تتحركي، يا عصفورتي!»

وخرجا مخلّفين لوسي، وزوجها، وأباها، وابنتها الصغيرة، على مقربة من نار مشرقة. وكانوا يتوقعون أن يرجع مستر لوري من المصرف عما قليل. وكانت مس بروس قد أسرجت المصباح ولكنها وضعته جانباً في إحدى الزوايا رجاةً أن ينعموا بضوء النار على غير انزعاج. وجلست لوسي الصغيرة إلى جانب جدها شابكةً يديها بذراعيه، في حين شرع هو يروي لها، بصوت يشبه الهمس، حكاية عن جنية عظيمة شديدة البأس خرقت حائط سجن وأنقذت أسيراً كان قد أسدى إليها ذات يوم خدمة ما. كان كل شيء مكظوماً وساكناً، وكانت لوسي أكثر طمأنينة مما كانت من قبل.

وفجأة صاحت: «ما هذا؟»

فقال أبوها، قاطعاً حكايته، واضعاً يده على يدها: «كوني رابطة الجأش، يا عزيزتي! ما هذه الحال المضطربة التي أنتِ فيها؟ إن أقلّ شيء يجعلك تجفلين. بل إن ذلك الذي يُجفلك قد يكون لا شيء. يجب أن تكوني ابنة أبيك!»

فقالت لوسي مبررة نفسها، في وجهٍ شاحب وصوت متهدج: «لقد خُيّل إليّ، يا أبتِ، أنني شمعت وقع أقدام غريبة على السلم.»

ـ «السلّم، يا حبيبتي، ساكنة كالموت.»

ولم يكد يلفظ تلك العبارة حتى قُرع الباب.

ـ «أوه، أبي! أبي! أيّ شيء يمكن أن يكون ذلك؟ خبئ تشارلز! أنقذه!»

فقال الطبيب، وقد نهض ووضع يده على كتفها: «يا طفلتي، لقد أنقذتهُ. ما هذا الضعف، يا عزيزتي! دعيني أمضي إلى الباب.»

وحمل الطبيب المصباح، واجتاز الغرفتين الخارجيتين المعترضتين، وفتح الباب. كان في خارجه أربعة رجال غلاظ اعتمروا قلانس حمراء وتسلحوا بالسيوف والمسدسات.

وحين دخلوا الدار قال أحدهم: «المواطن أيفريموند، المدعو دارني.»

فقال دارني: «من الذي يطلبه؟»

ـ «أنا أطلبه. نحن نطلبه. إني أعرفك، يا أيفريموند. لقد رأيتك ماثلاً بين يدي القضاة اليوم. إنك سجين الجمهورية مرّةً ثانية.»

وأحاط به الرجال الأربعة حيثْ كان واقفاً وقد تشبثت به زوجته وابنته.

ـ «قل لي كيف ولماذا تريدون إعادتي إلى السجن؟»

ـ «حسبك أن ترجع مباشرة إلى الكونسييرجيري، ولسوف تعرف ذلك كله غداً. إنك ستحاكم غداً.»

وكانت هذه الزيارة قد حجرت الدكتور مانيت إلى حد جعله يقف والمصباح في يده، وكأنه تمثال صُنع خصيصاً لهذا الغرض. ولكنْ ما إن لفظ الرجل هذه الكلمات، حتى وضع المصباح جانباً، وتقدم نحوه فأمسك، في غير ما قسوة، بمقدّم قميصه الصوفي الأحمر المفتوح وقال:

ـ «لقد قلتَ إنك تعرفه. فهل تعرفني؟»

ـ «أنا أعرفك، أيها المواطن الطبيب.»

وقال الثلاثة الآخرون: «نحن جميعاً نعرفك، أيها المواطن الطبيب.»

ونقّل بصره ذاهلاً من واحد إلى آخر، وقال في صوت أكثر انخفاضاً، بعد تمهّل: «هل لكم أن تجيبوني، إذن، عن سؤاله؟ كيف حدث هذا!»

فقال أولهم في تبرّم: «أيها المواطن الطبيب، لقد اتهم حي سان أنطوان. هذا المواطن،» وأشار إلى رجل دخل الدار بعده مباشرة، «من أبناء سان انطوان.»

وأومأ ذلك المواطن برأسه وأضاف: «إن حي سان انطوان يتهمه.»

فسأله الطبيب: «يتهمه بماذا؟»

فقال أولهم في تبرمه السابق: «لا تسل أيّ سؤال إضافي، أيها المواطن الطبيب. وإذا ما طلبت الجمهورية أن تقدّم إليها بعض التضحيات، فليس من ريب في أنك، بوصفك وطنياً صالحاً، سوف تكون سعيداً بأدائها. الجمهورية فوق الجميع. الشعب هو صاحب الكلمة العليا. نحن مضطرون إلى الإسراع، يا أيفريموند.»

فتضرع الطبيب: «كلمة واحدة؟ هل لكم أن تخبروني من الذي وجّه إليه التهمة؟»

فأجابه الأول: «هذا مخالف للقانون. ولكنك تستطيع أن تسأل الرجل الذي ينتمي إلى سان انطوان.»

وأدار الطبيب عينيه نحو ذلك الرجل، الذي تحرك في قلق، وحك لحيته بعض الشيء، ثم قال آخر الأمر: «حسناً! هذا مخالف للقانون حقاً. ولكن التهمة موجّهة إليه، وعلى نحوٍ خطر، من المواطن والمواطنة دوفارج. ومن شخص آخر.»

ـ «من هو هذا الشخص الآخر؟»

ـ «أتسأل، أيها المواطن الطبيب؟»

ـ «نعم.»

فقال ابن سان انطوان في نظرة غريبة: «إذن، فسوف تُجاب غداً. أما الآن فأنا أبكم!»

ـ 8 ـ

يدٌ على الورق

وإذْ لم تشعر مس بروس، لحسن طالعها، بالمصيبة الجديدة التي ألمّت بالمنزل فقد راحت تشق طريقها، خلال الشوارع، في احتراس، وعبرت النهر فوق جسر الـ «بون نوف» محصية في ذهنها عدد الأشياء التي لم يكن لها غنى عن شرائها. وإلى جانبها مشى مستر كرانتشر حاملاً سلّته. وتلفّت كل منهما ذات اليمين وذات الشمال إلى معظم الدكاكين التي مرّا بها، وألقيا عيناً حذرةً على كل تجمهر، متحوّلين عن طريقه اجتناباً لكل جماعة تتحدث في اهتياج بالغ. كانت ليلة قارسة، وكان النهر المُضِبّ(*) الذي كادت الأنوار المتوهجة أن تحجبه عن العين، والضجة المنكرة أن تحجبه عن الأذن، يتكشّف عن مواقع السفن الحربية التي يعمل فيها الحدادون، صانعين المدافع لجيش الجمهورية. والويل للرجل الذي يحتال على ذلك الجيش، أو يفوز بترقية فيه على غير استحقاق! لقد كان من الخير له أن لا تنبت لحيته أبداً، لأن «الموسى الوطنية» كانت جاهزة لتحلق له حلقاً ناعماً جداً.

حتى إذا اشترت قليلاً من سلع السمّانين، ومقداراً من الزيت للإنارة، ذكّرت مس بروس نفسَها بالخمر التي كانوا في حاجة إليها. وبعد أن اختلست النظر إلى عدة خمارات وقفت عند لافتة «الجمهوري الصالح بروتوس العصور القديمة» غيرَ بعيد عن «القصر الوطني» الذي

(*) أضب المكان: صار ذا ضباب.

كان ذات يوم (ثم صار بعد ذلك مرّة أخرى) قصر التويلري، حيث أثار مظهرُ الأشياء خيالها. كان مظهر تلك الخمّارة أكثر هدوءاً من أيٍّ من الخمارات التي اجتازا بها؛ وبرغم أنها كانت حمراء بالقلانس الوطنية، فلم تكن قانية الحمرة مثل نظائرها. حتى إذا استطلعت رأي مستر كرانتشر فوجدته مطابقاً لرأيها، وطنت مس بروس العزم على دخول حانة «الجمهوري الصالح بروتوس العصور القديمة»، يصحبها فارسها.

وتقدّم الزبونان الاجنبيان نحو المنضدة وأعلنا عما يحتاجان إليه من الخمر، غير ملتفتين، إلا قليلاً، إلى المصابيح التي سوّدها الدخان، وإلى اللاعبين بالورق المترهّل والدومينو الصفراء وقد وضعوا غلايينهم في أفواههم، وإلى العامل المفرد العاري الصدر، الحاسر عن الذراعين، الملوّث بالسّخام، المنهمك في قراءة إحدى الصحف بصوتٍ عالٍ، وقد أصغى إليه الآخرون، وإلى الأسلحة التي تمنطق بها القوم أو وضعوها جانباً ليعاودوا التمنطق بها من جديد، وإلى الزبونين أو الثلاثة الذين غلبهم النعاس فطأطأوا رؤوسهم وناموا، والذين بَدَوا في ستراتهم القصيرة الشعبية السوداء الكثيفة العالية الأكتاف، وفي وضعهم ذاك، أشبه ما يكونون بدببة أو كلاب جائعة.

وفيما كانت الخمر التي طلباها تُكال لهما ودّع رجل كان في إحدى الزوايا رجلاً آخر ونهض يريد مغادرة المكان. وكان لا معدى له، وهو يمضي لسبيله، من أن يواجه مس بروس. فما إن فعلَ حتى أطلقتْ صيحةً وضربت كفاً بكف.

وما هي إلا لحظة حتى هبّ الجمع كلهم واقفين. كان أكثر الأحداث احتمالاً أن يكون شخصٌ ما قد صرع شخصاً ما بسبب من اختلاف في الرأي. وتطلع كل امرئ متوقعاً أن يرى كائناً مضرجاً بدمه، ولكنه لم يرَ غير رجل وامرأة واقفين يحدّق أحدهما إلى الآخر. كان مظهر الرجل الخارجيّ يؤذن كله بأنه فرنسيّ وجمهوريّ صميم. أما المرأة فكان واضحاً أنها إنكليزية.

أما ما قاله «تلامذة الجمهوري الصالح بروتوس العصور القديمة»، عند هذا الهبوط الفجائي من قمة التوقع على نحو مخيّب للآمال فلم تفهم منه مس بروس وحاميها شيئاً ما خلا أنه صاخب مهذار. كان بالنسبة إليهما أشبه شيء بالعبرية أو الكلدانية، على الرغم من أنهما كانا، كلّهما، آذاناً. ولكن آذانهما تلك ما كانت لتسمع شيئاً، بعد أن استبد بهما الدهش إلى ذلك الحد. ذلك بأنه يتحتم علينا أن نوضح أن مس بروس لم تكن وحدها التي غلب عليها الذهول والاهتياج، ولكن مستر كرانتشر أيضاً بدا ـ وإن يكن ذلك لأسباب خاصة به ـ وقد استحوذ عليه أعظم الدهش.

ـ «ما المسألة؟» كذلك قال الرجل الذي دعا مس بروس إلى الصياح، وقد تكلم في صوتٍ قلقٍ فظّ (برغم خفوت نبرته)، وباللغة الإنكليزية.

وصاحت مس بروس قارعةً كفاً بكفّ مرة أخرى: «أوه، سليمان! يا عزيزي سليمان! أأسعد بلقائك هنا بعد أن حُرمت عيناي النظر إليك وحرمت أذناي سماع أنبائك خلال هذه المدة المديدة!»

فقال الرجل بصوت خفي مذعور: «لا تناديني بهذا الاسم! أتريدين أن تكوني سبب هلاكي؟»

فصاحت مس بروس، وقد انفجرت بالبكاء: «أخي! أخي! هل كنتُ، ذات يوم، خشنة معك حتى توجه إليّ مثل هذا السؤال القاسي؟»

فقال سليمان: «إذن اكبحي جماح لسانك الفضولي، واخرجي من هنا إذا شئت أن تتحدثي معي. ادفعي ثمن الخمر التي اشتريتِها، واخرجي. مَنْ هذا الرجل؟»

فهزّت مس بروس رأسها المحب المحزون لأخيها الذي لم يعرف قلبه الحنان قط، وقالت من خلال عبراتها: «مستر كرانتشر.»

فقال سليمان: «دعيه يخرج أيضاً. أيحسبني شبحاً؟»

ولو أنه كان على المرء أن يجيب عن هذا السؤال على أساس من

مظهره العام، إذن لتراءى له أن مستر كرانتشر كان يحسبه شبحاً حقاً. بيد أنه لم ينبس بكلمة ما. نظرت مس بروس من خلال عبراتها أيضاً، إلى أعماق محفظتها، ودفعت ثمن الخمر في كثير من العسر. وفيما هي تفعل ذلك التفت سليمان إلى أتباع «الجمهوري الصالح بروتوس العصور القديمة» ووجه إليهم باللغة الفرنسية بضع كلمات تفسيرية حملتهم على الارتداد إلى مقاعدهم وشواغلهم الأولى.

وقال سليمان، وقد توقف عند زاوية الشارع المظلمة: «والآن ماذا تريدين؟»

فصاحت مس بروس: «كم يجب أن يكون فؤادك قاسياً حتى تستقبلني هذا الاستقبال الخالي من الحنان، وأنا أختك التي لم يصرفها عن حبك شيء قطّ!»

فقال سليمان، وطبع على شفتيها قبلة: «دونك هذه القبلة! لعنها اللّه! والآن هل أنت راضية؟»

وهزّت مس بروس رأسها، وبكت في صمت، ليس غير.

فقال أخوها سليمان: «إذا كنت تتوقعين أن أدهش، فأحب أن أقول لك إني لا أجد مبرراً لذلك. لقد عرفتُ أنك هنا. أنا ملمّ بأحوال معظم الناس المقيمين هنا. وإذا كنت راغبة فعلاً في أن لا تعرضي وجودي للخطر ـ وهو شيء أؤمن نصف إيمان بأنك تريدينه ـ فامضي لسبيلك في أسرع ما يمكن، ودعيني أمضي لسبيلي. أنا مشغول، أنا موظف.»

وأنتحبت مس بروس، رافعة عينيها المفعمتين بالعبرات: «أخي الإنكليزي سلميان، الذي كان يملك جميع المؤهلات التي تجعل منه أحد الرجال المقدّمين العظام في وطنه، أخي هذا يصبح اليوم موظفاً بين أجانب، وأي أجانب! لقد كنت أفضل لو رأيت الغلام الحبيب يرقد في....»

فصاح أخوها مقاطعاً إياها: «لقد قلتُ ذلك! لقد عرفته. أنت تريدين أن تكوني سبب هلاكي. سوف يشتبه القوم بي، وبسبب من؟

بسبب أختي نفسها. وفي هذه الفترة التي شققت فيها طريقي إلى النجاح!»

فصاحت مس بروس: أرجو أن لا يسمح الرب الرحيم بذلك. وإذا كان في وجودي خطر عليك فإني أفضل أن لا أراك بعد اليوم أبداً يا عزيزي سلميان، برغم أني أحبك أعظم الحب، وسوف أظل أحبك أعظم الحب. قل كلمة حنان واحدة ليس غير، وأخبرني أن ليس بيننا خلاف ما أو غضب، وعندئذ لا أعوقك أكثر مما فعلت.»

يا لمس بروس الطيبة القلب! كأن الخلاف بينهما قد نشأ عن أيما ذنب ارتكبته هي. كأن مستر لوري لم يعلم علم اليقين، منذ سنوات مضت، هناك في زاوية «سوهو» الهادئة، أن هذا الأخ النفيس قد أنفق أموالها وخلفها وراءه!

ومع ذلك، فقد كان يهمّ بقول تلك الكلمة الحنون في تفضّل متبرّم وفي مَنٍّ بالغ يفوقان إلى حد بعيد التفضلَ والمنّ اللذين كان يجب أن يتكشّف عنهما لو أن وضعهما كان معكوساً (وتلك هي الحال دائماً في طول العالم وعرضه) عندما مسّه مستر كرانتشر من كتفه، ووجّه إليه في صوت أجش، وعلى غير توقع، هذا السؤال العجيب:

ـ «أتسمح بإسداء هذه الخدمة إليّ؟ هل اسمكَ جون سليمان أم سليمان جون؟»

والتفت الموظف نحوه، في ارتياب مفاجئ. إنه لم ينطق قبل ذلك بكلمة واحدة.

وقال مستر كرانتشر: «تعال! تكلم! (وهو شيء ـ كان بالمناسبة ـ فوق طاقته). «جون سليمان، أم سليمان جون؟ إنها تدعوك سليمان، ومن الطبيعي أن تكون عارفة باسمك، لأنها أختك. وأنا أعرفك باسم جون، كما ترى. فأيّ الاسمين يتقدم الآخر؟ وفي ما يتعلق باسم بروس أيضاً؟ إن هذا لم يكن اسمك هناك، وراء البحر.»(*)

(*) يقصد: في إنكلترة. (المعرب)

ـ «ماذا تعني؟»

ـ «حسناً، أنا لا أعرف كل ما أعنيه. لأني لا أستطيع أن أذكر أيّ اسم كنت تحمل هناك، وراء البحر.»

ـ «لا تذكر؟»

ـ «لا. ولكني أقسم إنه كان اسماً مؤلفاً من مقطعين.»

ـ «حقاً؟»

ـ «نعم. كان عند الآخرين مؤلفاً من مقطع واحد. أنا أعرفك. لقد كنت شاهد زور في محكمة الجنايات بلندن. وإني أستحلفك باسم أب الأكاذيب الذي هو أبوك أنت، أن تخبرني أي اسم كنت تحمل في ذلك الوقت؟»

فأجابه صوت أجنبيّ لم يكن متوقعاً: «بارساد.»

فصاح جيري: «ذلك هو الاسم. أنا أراهن على هذا بألف جنيه!»

كان الرجل الذي أقحم نفسه في الحديث هو سيدني كارتون. لقد وضع يديه خلف ذيل معطفه الخاص بالسفر. ووقف إلى جانب مستر كرانتشر في مثل اللامبالاة التي كان متعوداً أن يصطنعها في «أولد بيلي» نفسه.

ـ «لا تخافي، يا عزيزتي مس بروس. لقد فاجأت مستر لوري بالزيارة أمسِ مساء. ولقد اتفقنا على أن لا أظهر في أيّ مكان آخر إلى أن يصبح كل شيء حسناً، أو إلى أن أغدو أنا ذا نفع. وإنما أقبلت إلى هذا المكان لألتمس من أخيك حديثاً صغيراً. لقد كنت أتمنى لو كان لك أخٌ ذو عمل أشرف من ذلك الذي يقوم به مستر بارساد. كنت أتمنى، من أجلكِ أنتِ، أن لا يكون مستر بارساد خروفاً من خراف السجون.»

وكانت لفظة الخروف تؤدي في رطانة ذلك العهد، معنى الجاسوس العامل في خدمة السجانين. وازداد الجاسوس الشاحب، شحوباً، وسأله كيف جرؤ على...

فقال سيدني: «سوف أقول لك. لقد رأيتك مصادفة، يا مستر بارساد، تخرج من سجن الكونسيير جيري، فيما كنتُ أتأمل الجدران منذ ساعة أو أكثر. إن لك لوجهاً يسهل على المرء أن يتذكره، وإني لأتذكر الوجوه جيداً. وأثار خروجك من السجن فضولي. وإذ كان لديّ سبب، لست أنت غريباً عنه، يحملني على أن أربط ما بينك وبين آلام صديق هو الآن في كرب عظيم، فقد اقتفيت أثرك. لقد دخلتُ هذه الحانة، على أعقابك مباشرةً، وجلستُ قريباً منك. ولم يكن عسيراً عليّ، بعد أن سمعت حديثك غير المتحفظ، والإشاعات المنتشرة بين المعجبين بك، أن أكتشف طبيعة عملك، وشيئاً بعد شيء بدا الشيء الذي قمتُ به، اتفاقاً، وقد تبلور وأصبح عزماً يا مستر بارساد.»

فسأله الجاسوس: «وما ذلك العزم؟»

ـ «قد يكون من العسير، بل قد يكون من الخطر أن أشرح لك ذلك في الشارع، فهل لك أن تتفضل فتمنحني بضع دقائق من وقتك أخلو بها إليك، في مكتب مصرف تلسون، مثلاً؟»

ـ «أتطلب إليّ ذلك متوعداً؟»

ـ «أوه، وهل قلتُ ذلك؟»

ـ «إذن، فلماذا أذهب إلى هناك؟»

ـ «حقاً، أنا لا أستطيع أن أقول، يا مستر بارساد، إذا كنت أنت لا تستطيع.»

فسأله الجاسوس في تردد: «هل تعني أنك لن تقول، يا سيدي؟»

ـ «أنت تفهمني فهماً واضحاً، يا بارساد. أما أنا فلا أفهمك.»

وسارعت لامبالاة كارتون المتهورة إلى إسداء يد العون القوي إلى براعته وحضور بداهته، في مثل هذه المهمة التي انطوت عليها سريرته، ومع مثل هذا الرجل الذي أمامه. لقد بصرت بها عينه المتمرسة، وأفادت منها أعظم الإفادة.

وقال الجاسوس وهو يحدج أخته في تعنيف: «والآن، لقد قلتُ لك إن أيما بلاء ينشأ عن هذا يكون من صنع يديك.»

فصاح سيدني: «تعال، تعال، يا مستر بارساد، لا تكن ناكراً للجميل. فلولا احترامي العظيم لأختك لما كان من الممكن أن أعرض عليك بمثل هذا اللطف اقتراحاً أرغب في تنفيذه تحقيقاً لمصلحتنا المتبادلة. هل تنوي أن تذهب معي إلى المصرف؟»

ـ «سأسمع ما تريد أن تقوله. أجل، سوف أذهب معك.»

ـ «أقترح أن توصل أختك سالمةً، قبل كل شيء، إلى زاوية الشارع الذي تقطن فيه. دعيني أمسك بذراعك، يا مس بروس. هذه ليست مدينة يحسن بالمرء أن يمشي فيها، في هذا الوقت، من غير حماية. ولما كان مرافقك يعرف مستر بارساد فسوف أدعوه أيضاً إلى أن يذهب معنا إلى مكتب مستر لوري. هل نحن مستعدون؟ إذن، هيا بنا!»

وذكرت مس بروس بعد ذلك بقليل، وظلت تذكر حتى اللحظة الأخيرة من حياتها، أنها حين ضغطت يديها على ذراع سيدني ونظرت إلى وجهه، متضرعة إليه أن لا يُنزل بسليمان أذىً ما، وجدت في الذراع عزماً وطيداً، وفي العينين ضرباً من الإلهام لم يتناقضا ونزعته المستهترة فحسب، بل غيّرا الرجل وخلقاه خلقاً جديداً، أيضاً. ولكنها كانت آنذاك منهمكة أشد الإنهماك بمخاوفها على أخيها، الذي ما كان يستحق شيئاً من حنانها، وبتوكيدات سيدني الودية، إلى درجة جعلتها لا تكترث بذلك الذي لاحظته.

وفارقاها عند زاوية الشارع، وقاد كارتون رفيقه إلى مكتب مستر لوري، وكان على مسيرة بضع دقائق. ومشى جون بارساد أو سليمان بروس، إلى جانبه.

كان مستر لوري قد فرغ قبل لحظات، من تناول طعام العشاء، وكان قد جلس قرب نار صغيرة مبتهجة ـ ولعله كان يبحث في وهجها عن صورة ذلك الموظف الكهل الأصغر سناً، العامل في خدمة تلسون،

والذي سبق له أن تأمل الجمرات الحمر في «أوتيل رويال جورج» بدوفر، منذ سنوات بعيدة. حتى إذا دخلا عليه، التفت وأبدى ذلك الدهش الذي يبديه المرء حين يلقى رجلاً غريباً.

وقال سيدني: «أخو مس بروس، يا سيدي. مستر بارساد.»

فكرر الشيخ: «بارساد؟ بارساد؟ هذا الإسم ليس غريباً عليّ ـ وهذا الوجه أيضاً.»

فلاحظ كارتون في برودة: «لقد قلت لك إن لك لوجهاً يلفت النظر، يا مستر بارساد. إجلس، أرجوك.»

وفيما هو يتخذ لنفسه كرسياً زوّد مستر لوري بالحلقة التي كان يبحث عنها، بأن قال له في عبوس: «شاهدٌ في تلك الدعوى.» وفي الحال، تذكّر مستر لوري كل شيء، وحدج زائره الجديد بنظرة ترشح بالكراهية والإشمئزاز الصريحين.

وقال سيدني: «لقد عرفَتْ مس بروس في مستر بارساد أخاها الشفوق الذي سمعتَ خبره، وقد اعترف هو بهذه القربى. فلأنتقل الآن إلى نبأ أسوأ. لقد اعتُقِل دارني من جديد.»

وصَعَقَ الشيخ دهشٌ راعب وصاح: «ماذا تقول؟ لقد تركتُه منذ ساعتين اثنتين آمناً حراً، وكنت على وشك أن أرجع فأراه كرة ثانية.»

ـ «لقد اعتقل برغم ذلك كله. متى تمّ هذا، يا مستر بارساد؟»

ـ «منذ لحظات، إذا كان قد اعتُقل حقاً.»

فقال سيدني: «مستر بارساد هو أصدق مصدر للأنباء يمكن أن تقع عليه يا سيدي. ولقد فهمت من حديث دار بين مستر بارساد وزميل له من الخراف، حول زجاجة خمر، أن الإعتقال قد تمّ. لقد فارق الرسلَ عند مدخل البناء، ورأى البواب يُدخلهم. وليس ثمة، على وجه الأرض. ريب في أنه اعتُقِل من جديد.»

وقرأت عين مستر لوري التجارية، على وجه المتحدث، أن في

الوقوف عند هذه النقطة إضاعة للوقت. وأخذه الاضطراب، ولكنه ما لبث أن ذكر أن شيئاً قد يتوقف على حضور ذهنه، فسيطر على أعصابه وتماسك، وأصاخَ في صمت.

وقال له سيدني: «أرجو أن يوفق اسم الطبيب ونفوذه إلى أن ينقذاه غداً كما قد أنقذاه. . . لقد قلتَ إنه سوف يمثل بين يدي المحكمة غداً يا مستر بارساد.»

ـ «نعم. أعتقد ذلك.»

«. . . . أن ينقذاه غداً كما قد أنقذاه اليوم. ولكن الأمر قد لا يكون كذلك. إني أعترف لك، يا مستر لوري، بأني عظيم القلق لعجز الدكتور مانيت عن الحيلولة دون اعتقاله.»

فقال مستر لوري: «لعله لم يعرف بذلك قبل وقوعه.»

ـ «وهذا بالذات مدعاة إلى القلق إذا عرفنا إلى أيّ حد يُوَحَّد ما بينه وبين صهره.»

ـ «هذا صحيح.» كذلك اعترف مسيو لوري، ويده المضطربة على ذقنه، وعيناه المضطربتان مركّزتان على كارتون.

قال سيدني: «وبالإختصار، فهذه فترة يائسة، تُلعب فيها ألعاب يائسة، ويراهن فيها مراهنات يائسة. دع الطبيب يلعب اللعبة الرابحة، ولألعب أنا اللعبة الخاسرة. إن حياة الناس ههنا لا قيمة لها. فقد يحمل الناس المرء إلى بيته، اليوم، ثم يصدر الحكم عليه بالموت، غداً. والآن، فإن الرهان الذي اعتزمتُ أن ألعب من أجله، في أسوأ الاحتمالات، هو الفوز بصديق يساعدني في الكونسيير جيري. والصديق الذي أطمع في أن أكسبه لهذا الغرض هو مستر بارساد.»

فقال الجاسوس: «ينبغي، إذن، أن تفوز بورق ممتاز، يا سيدي.»

ـ «سوف أكشف لك عن أوراقي. سوف أرى ماذا أحمل ـ مستر لوري، إنك تعرف أيّ رجل فظ أنا. أرجو أن تقدّم إليّ قليلاً من البراندي.»

وقُدّم إليه ما طلب، فاحتسى كأساً مترعة، وأتبعها بأخرى مترعة، ثم أبعد الزجاجة عنه وأنشأ يتأمل.

وتابع كلامه، بنبرة لاعب ينظر فعلاً إلى الورق الذي في يده: «إن مستر بارساد، خروف السجون، مبعوث اللجان الجمهورية، يعمل سجاناً حيناً وسجيناً حيناً، ولكنه دائماً جاسوس ومخبر سري ـ وأن له في هذه البلاد لشأناً أعظم لأنه إنكليزي، ومن هنا لن يشكّوا بشهادته بقدر ما يشكّون بشهادة الرجل الفرنسي ـ قدّم نفسه إلى رؤسائه باسم زائف. هذه ورقة جيدة جداً تنفعني. إن مستر بارساد الذي يعمل اليوم في خدمة حكومة فرنسة الجمهورية كان من قبلُ يعمل في خدمة حكومة إنكلترة الأرستوقراطية، فهو عدوّ فرنسة والحرية. وهذه ورقة ممتازة تنفعني أيضاً. إن الناس، في هذه البلاد التي يسود فيها الشك، سوف يخلصون من هذا كله إلى هذه الحقيقة الواضحة: إن مستر بارساد لا يزال في خدمة الحكومة الإنكليزية، إنه جاسوس «بيتّ»(*)، وعدو الجمهورية الغادر الجاثم في صدرها، والخائن الإنكليزي المسبّب لكل أذى يُكثر الناس من التحدث عنه ثم لا يكتشفون مصدره. وهذه كذلك ورقة لا يمكن أن تُقهر. هل عرفتَ أوراقي، يا مستر بارساد؟»

فأجابه الجاسوس في شيء من القلق: «ولكني لم أفهم الطريقة التي ستعتمدها في اللعب.»

ـ «سوف ألعب بأحسن الأوراق ـ ورقة الآص ـ فأوجّه التهمة إلى مستر بارساد عند أقرب لجنة من اللجان الوطنية. ألقِ نظرةً على يدك، لترى الورق الذي معك، يا مستر بارساد. لا تستعجل.»

وأدنى الزجاجة، وأترع كأساً أخرى بالبراندي، وكرعها. ورأى أن الرعب استبدّ بالجاسوس إذ وجده يكرع كؤوس الخمر استعداداً لتوجيه

(*) وليم بيتّ Pitt (1759 ـ 1806) رئيس وزراء بريطانية من سنة 1783 إلى سنة 1801 ومن سنة 1804 إلى سنة 1806. (المعرب).

التهمة إليه في الحال. فما كان من كارتون إلا أن أترع كأساً أخرى، واحتساها.

ـ «تأمّل ما في يدك، يا بارساد، جيداً. خذ ورقتك وتأنّ.»

كانت تلك اليد أسوأ مما توقّع. لقد وجد مستر بارساد فيها أوراقاً خاسرة ما كان سيدني كارتون عارفاً بها قط. ذلك بأنه بعد أن طُرد من عمله الشريف في إنكلترة لإسرافه في أداء اليمين الكاذبة ـ لا لأنه لم يكن مرغوباً فيه هناك، فالواقع أن الأسباب التي تجعلنا نتباهى بتفوقنا في ميدان التجسس ترجع إلى عهد قريب جداً ـ اجتاز القناة الإنكليزية وارتضى العمل في خدمة الحكومة الفرنسية: أولاً كجاسوس على أبناء وطنه المقيمين في فرنسة، ثم كجاسوس على الفرنسيين أنفسهم. إنه ليعرف ذلك جيداً. ويعرف، إلى هذا، أنه كان في ظل النظام القديم الذي قُوّضت أركانه، بتجسس على حيّ سان أنطوان وحانة دوفارج؛ وأنه تلقى من الشرطة اليقظة رؤوس معلومات عن سَجن الطبيب، وإطلاق سراحه، وتاريخه، تمهّد له سبيل التحدث الحميم مع دوفارج وزوجته، وأنه عمد إلى تجربة هذه الوسيلة على مدام دوفارج فأخفقت إخفاقاً ذريعاً. كان يذكر أبداً في خوف ورعدة، أن تلك المرأة الفظيعة كانت تَحبكُ ساعة تحدث إليها، وأنها نظرت إليه نظرةً تنذر بالويل فيما استرسلت أصابعها بالحبك. وكان قد رآها منذ ذلك الحين، في حي سان أنطوان، تُبرز سجلاتها المحبوكة حيناً بعد حين وتوجّه التهم إلى أناس ما تلبث المقصلة أن تبتلع حياتهم من غير ما تردد. كان يعرف، شأن أي امرئ من أهل صناعته، أنه غير آمنٍ البتة؛ وأن الفرار مستحيل، وأنه قد شُد شداً محكماً تحت ظل الفأس، وأنه على الرغم من مراوغته ومخادعته في تأييد الإرهاب السائد، تستطيع كلمة واحدة أن تُغري ذلك السيف المصلت بإطاحة رأسه. وتراءى له أنه ما إن توجّه إليه التهمة، على تلك الأسس الخطيرة التي تجلّت له اللحظة، حتى تُخرج تلك المرأة الرهيبة، ولديه عشرات البراهين على قساوة فؤادها، سجلاتها

المشؤومة وتسحق آخر أمل له في الحياة. وفوق هذا كله، فالجواسيس جميعاً جبناء مخلوعو الفؤاد. وهذه كلها أوراق مشؤومة تبرّر جزع حاملها، إذ تقع عليها عينُهُ، وتجعل وجهه كالحاً رصاصيّ اللون.

وقال سيدني في رباطة جأشٍ ما بعدها: «يبدو أن أوراقك لم تعجبك إلا قليلاً. هل تحب أن تلعب؟»

فقال الجاسوس، في ضعةٍ بالغة، وقد التفت إلى مستر لوري: «هل لي أن ألتمس من سيّد في مثل سنك وكرم نفسك أن تسأل هذا السيد الآخر، وهو أصغر منك، ما إذا كان يحسن به ـ بالنسبة إلى وضعه الاجتماعي ـ أن يلعب ورقة «الآص» تلك التي تحدّث عنها، بأي حال من الأحوال. أنا أعترف بأنني جاسوس، وبأن الجاسوسية تُعتبر عملاً غير شريف ـ وإنْ تكن شيئاً ينبغي أن ينهض به إنسان ما. ولكن هذا السيد ليس جاسوساً، فلماذا ينحطّ إلى هذا الدرك ويجعل من نفسه جاسوساً؟»

فقال كارتون متوليّاً الإجابة بنفسه، ناظراً إلى ساعته: «سوف ألعب ورقة «الآص»، يا مستر بارساد، في غير ما تردد، بعد دقائق قليلة جداً.»

فقال الجاسوس محاولاً أبداً أن يحثّ مستر لوري على الاشتراك في المناقشة: «لقد كنتُ أرجو، أيها السيدان أن يكون في احترامكما لأختي. . .»

فقال سيدني كارتون: «ليس في استطاعتي أن أقيم الدليل على احترامي لأختك بوسيلة أفضل من إنقاذها نهائياً من أخيها.»

ـ «هلاّ تروّيت يا سيدي؟»

ـ «لقد عقدت العزم على ذلك.»

واصطدمت نعومة الجاسوس ـ غير المنسجمة أبداً مع خشونة ملابسه المتباهية، وربما مع مسلكه المألوف ـ بغموض مستر كارتون، الذي كان صعباً حلُّهُ على رجال أوفر منه حكمة ونزاهة، وكانت الصدمة

قوية إلى حدّ جعل تلك النعومة تخونه. وفيما هو ذاهل لا يدري ما يفعل استعاد كارتون سيماه القديمة، سيما الرجل الذي يتأمل ورق اللعب، وقال:

ـ «والواقع أنه خطر لي الآن شيء جديد: أنا أشعر شعوراً قوياً بأن عندي ورقة أخرى طيبة لم أذكرها من قبل. ذلك الصديق و«الخروف الزميل» الذي قال عن نفسه إنه يرعى الكلأ في سجون الريف؛ من هو؟»

فسارع الجاسوس إلى القول: «فرنسي. أنت لا تعرفه.»

فكرر كارتون، متأملاً، بادياً وكأنه لم يلحظه قط على الرغم من أنه ردّد صدى كلمته: «فرنسي، إيه؟ حسناً؛ من الجائز أن يكون.»

فقال الجاسوس: «إنه لكذلك. أؤكد لك. على الرغم من أنها ليست مسألة هامة.»

فكرر كارتون بالطريقة الميكانيكية نفسها: «على الرغم من أنها ليست مسألة هامة. لا، إنها ليست هامة. لا. ومع ذلك فأنا أعرف وجهه.»

فقال الجاسوس: «لست أظن ذلك. لست متأكداً. هذا غير ممكن.»

فتمتم سيدني كارتون شارد الذهن متأملاً: «هذا... غير... ممكن.» وأترع كأسه (وكانت لحسن الحظ صغيرة) مرّة أخرى، وأضاف: «غير... ممكن. كان يتحدث بلغة فرنسية جيدة. ومع ذلك، فقد خيّل إليّ أنه أجنبي؟»

فقال الجاسوس: «ريفيّ.»

فصاح كارتون، ضارباً الطاولة بيده المبسوطة وقد أومضت في ذهنه بارقة: «لا. أجنبي! كلاي! كان متنكراً، ولكنه الرجل نفسه. لقد كان الرجل أمامنا في أولد بيلي.»

فقال بارساد، في ابتسامة زادت أنفه الأعقف انحرافاً إلى جانب:

«والآن، لقد تسرعت في هذا يا سيدي. إنك تجعل لي ميزة عليك في هذا. إن كلاي (الذي أقرّ، في غير تحفظ، بعد انقضاء هذه الفترة كلها، بأنه كان شريكاً لي) قد مات منذ عدة سنوات. لقد لزمتُه في مرضته الأخيرة. ولقد دفن بلندن، في كنيسة «سانت بانكراس إن ذي فليدز». إن كراهية السفلة والأوغاد له، في تلك الآونة، حالت بيني وبين السير في جنازته، ولكني ساعدت على وضع جثمانه في التابوت.»

وهنا، تنبّه مستر لوري، من مجلسه، لظلّ عفريتيّ عجيب يضطرب على الجدار. حتى إذا تعقبه إلى مصدره اكتشف أنه ناشئ عن انتصاب شعر رأس مستر كرانتشر وتصلبه، ذلك الشعر المنتصب أصلاً، المتصلب أصلاً.

وقال الجاسوس: «لنكن عاقلين، ولنكن منصفين. ولكي أظهر لك مدى خطئك، والأساس الواهي الذي ينهض عليه افتراضك، سأقدم إليك الشهادة التي تؤذن بدفن كلاي والتي اتفق أني حملتها في محفظتي،» وبيدٍ عجلى أخرج المحفظة وفتحها، «منذ ذلك الحين. ها هي ذي. أوه، أنظر إليها! أنظر إليها! في استطاعتك أن تأخذها بيدك. أنها ليست تزويراً.»

وهنا لاحظ مستر لوري أن الانعكاس على الجدار يتطاول ونهض مستر كرانتشر وخطا إلى الأمام. كان شعره منتصباً على سُوقه وكأنه الأسلاك.

ووقف مستر كرانتشر إلى جانب الجاسوس، من غير أن يدعه يراه، ووضع يده على كتفه مثل شبح عمدة ميت. ثم إنه قال بوجه صموت مطوّق بالحديد: ـ «أنتما تتحدثان عن روجر كلاي، يا أستاذ. وإذن فقد وضعته أنت في تابوته!»

ـ «لقد فعلت.»

ـ «ومن أخرجه منه؟»

وارتد بارساد، في كرسيه، إلى الوراء، وتلعثم: «ماذا تعني؟»

فقال مستر كرانتشر: «أعني أنه لم يكن في ذلك التابوت البتة. لا! لم يكن! إني أرضى بأن يقطع رأسي إذا ثبت أنه كان في ذلك التابوت.»

ونظر الجاسوس إلى كارتون ولوري. ونظر كل منهما، في دهش أبكم، إلى جيري.

وقال جيري: «أقول لك إنكم دفنتم حجارة وتراباً في ذلك التابوت. فلا تحاول أن تقنعني أنا بأنكم دفنتم كلاي. كانت تلك حيلة خادعة. أنا وإثنان آخران يعرفان ذلك.»

ـ «كيف عرفت ذلك؟»

فهزّ مستر كرانتشر: «وأي شأن لك بهذا؟ وعلى أية حال فإن لي ثأراً قديماً عندك، يا من كنت تحتال أبشع الإحتيال على التجار ورجال الأعمال! سوف آخذ بحنجرتك وأخنقك مقابل نصف جنيه!»

وكان سيدني كارتون ومستر لوري قد ذُهلا بتطور المسألة على هذا النحو. حتى إذا نطق مستر كرانتشر بعباراته الأخيرة سألاه أن يخفف من غلوائه ويوضح ما غمض من كلامه.

ـ «في وقت آخر، يا سيدي. إن الوقت الحاضر غير ملائم للشرح والتفسير. كل ما أريد أن أؤكده الآن هو هذا: إنه يعرف جيداً أن كلاي لم يكن في ذلك التابوت قطّ. دعه يقول إنه كان في التابوت، ولو بكلمة ذات مقطع واحد، وعندئذ آخذ بحنجرته وأخنقه مقابل نصف جنيه،» وكان مستر كرانتشر يكرر النص على ذلك بوصفه عرضاً سخياً جداً، «أو أتكلم وأفضحه.»

فقال كارتون: «همْمْمْ! إني أرى شيئاً. إني أمسك بورقة جديدة، يا مستر بارساد. وإنه لمن المستحيل أن تتمكن من أن تعيش دقيقة واحدة بعد توجيه التهمة إليك ـ هنا في باريس الهائجة المملوء هواؤها بالشك والريبة ـ حين تكون على اتصال بجاسوس ارستوقراطي آخر له مثل السوابق التي لك، ويحيط به فوق ذلك سرّ غامض قوامه أنه تظاهر

بالموت ثم عاد إلى الحياة من جديد! مؤامرة في السجون يقوم بها أجنبيان كلاهما عدو للجمهورية. ورقة قوية ـ ورقة تؤدي إلى المقصلة مباشرة! هل تريد أن تلعب؟»

فأجاب الجاسوس: «لا! إني أستسلم. وأعترف أن الغوغاء الهائجة كانت تكرهنا إلى درجة اضطرتنا إلى الفرار من إنكلترة، بعد أن تعرضت حياتي للخطر، وبعد أن تعقّب القوم روجر كلاي في كل مكان فلم يُنجه من الهلاك غير تلك الجنازة الزائفة. وإن كنتُ أعجب أعظم العجب كيف استطاع هذا الرجل أن يعرف أنها كانت زائفة!»

فقال مستر كرانتشر المولع بالخصام: «لا تُقلق رأسك أبداً بهذا الرجل. سوف تقلق نفسك كفايةً بالانتباه إلى ما يقوله هذا السيد الفاضل. وانظر هنا! مرة أخرى!» فلم يكن من الممكن أن يحال بين مستر كرانتشر وبين أن يتباهى أمامهم بسخائه البالغ ـ «سوف آخذ بحنجرتك وأخنقك مقابل نصف جنيه.»

ونقّل خروف السجون بصره من مستر كرانتشر إلى سيدني كارتون وقال في عزم أقوى: «لقد بلغنا النقطة الجوهرية. إني سأذهب إلى عملي بعد قليل، ولستُ أستطيع أن أتخلّف هنا بعد الآن. لقد قلتَ لي إن لديك عرضاً؟ فما هو؟ وعلى كل حال، فليس ثمة فائدة في أن تكلّفني ما لا أستطيع. إن في ميسورك أن تسألني أي شيء، أن أعرّض رأسي لخطر إضافي عظيم، ولكني أنزع في مثل هذه الحال إلى العمل على إنقاذ حياتي بالرفض لا بالقبول. وبكلمة موجزة؛ عندئذ أكون مضطراً إلى أن أفضّل سلوك هذه الطريق. إنك تتحدث عن اليأس. ولكنا كلنا يائسون، ههنا، تذكّر جيداً! في استطاعتي أنا أن أتهمك إذا وجدتُ ذلك مناسباً، وفي استطاعتي أن أشق طريقي، بيمين أقسمها خلال الأسوار الحجرية، وكذلك يستطيع آخرون مثل هذا. والآن، ماذا تريد مني؟

ـ «لست أريد منك شيئاً كثيراً. أنت تعمل سجاناً في الكونسيير جيري؟»

فقال الجاسوس في قوة: «أقول لك مرةً واحدة إن الهرب من هناك أمر مستحيل.

ـ «لماذا تقوّلني ما لم أقله؟ أنت تعمل سجاناً في الكونسيير جيري؟»

ـ «أحياناً.»

ـ «وتستطيع أن تكون هناك ساعةَ تشاء؟»

ـ «أستطيع أن أدخل إلى ذلك المكان وأن أخرج منه ساعةَ أشاء.»

وأترع سيدني كارتون كأساً أخرى، بالبراندي؛ ثم أفرغها في تؤدة فوق الموقد، مراقباً الخمر المسفوحة. حتى إذا أتى عليها نهض وقال:

ـ «كنا حتى الآن نتحدث أمام هذين الرجلين، لأنه كان من الخير أن لا أحتكر أنا وأنت معرفة مزايا الورق. تعال إلى الغرفة المظلمة التي هنا، ولنقل كلمة نهائية على انفراد.»

ـ 9 ـ

وضع الخطة

وفيما كان سيدني كارتون وخروف السجون في الغرفة المظلمة المجاورة يتحدثان في خفوت لم يُسمع معه صوت ما، نظر مستر لوري، في ارتياب شديد، إلى جيري. ولم يكن في الطريقة التي استقبل بها ذلك التاجر الأمين نظرة مستر لوري، ما يوحي الثقة. لقد غيّر الرِّجلَ التي كان يريح جسده عليها، وكأنما كانت له خمسون من مثل هذا العضو، فهو يختبرها جميعاً. كذلك تفحّص أظافر يديه في انتباه بالغ يثير الريب. ولم تقع عين مستر لوري عليه، مرةً، إلا وكان خاضعاً لنوبة من ذلك النوع الخاص من السعال القصير الذي يقتضي أن يوضع تجويف اليد أمامه، والذي نادراً ما يُعتبر ـ هذا إذا اعتُبر على الإطلاق ـ ملازماً لصراحة الشخصية التامة.

وقال مستر لوري: «جيري، تعال إلى هنا!»

وتقدم مستر كرانتشر، على نحو جانبيّ، تسبقه إحدى كتفيه.

ـ «أيّ عمل كنت تقوم به علاوة على كونك ساعياً في مصرف تلسون؟»

وبعد شيء من التفكير، المصحوب بنظرة موصولة إلى سيده، لمعت في رأس مستر كرانتشر خاطرة حملته على أن يجيب: «كنت أقوم بعمل زراعي.»

فقال مستر لوري، هازاً إصبعه في وجهه وقد أخذه الغضب: «إن

عقلي لفي شك عظيم من أمرك. إنه يخيّل إليّ أنك اتخذت من مصرف تلسون العظيم المحترم ستاراً تختبئ خلفه، وأنه كانت لك وظيفة غير شرعية، وظيفة ذات صفة مقيتة مجللة بالعار. فإذا صحّ ذلك فلا تنتظر مني أن أصادقك حين ترجع إلى لندن. إذا صح ذلك، فلا تنتظر مني أن أصون سرك. إن مصرف تلسون «لن يكون موضوع احتيال أحد من الناس.»

فتضرّع مستر كرانتشر الخجِل المرتبك: «أرجو يا سيدي أن يتروّى رجل فاضل مثلك؛ تشرّفت بالعمل معه حتى اشتعل الشيب في رأسي، ويفكر مرتين قبل أن يلحِق بي أي أذى، حتى ولو كان ذلك صحيحاً ـ أنا لا أقول إنه صحيح ولكن حتى ولو كان صحيحاً. والشيء الذي ينبغي أن يُدْخَل في الحساب أنه حتى ولو كان صحيحاً فلن يكون للمسألة ـ حتى في هذه الحالة ـ وجه واحد. سوف يكون للمسألة وجهان اثنان. وقد يوجد في هذه الساعة أطباء يكسبون جنيهاتهم حيث لا يستطيع التاجر الأمين أن يكسب فلوسه ـ فلوسه! لا، بل حيث لا يستطيع التاجر الأمين أن يكسب نصف فلوسه ـ نصف فلوسه! لا، بل حيث لا يستطيع التاجر الأمين أن يكسب ربع فلوسه، ثم يودعونها مثل الدخان، خزائن مصرف تلسون، ويصوبون أعينهم الطبية إلى ذلك التاجر الأمين في مكر ودهاء، وهم يدخلون عرباتهم الخاصة ويخرجون منها ـ آه! مثل الدخان تماماً، إذا لم يكن أكثر من ذلك. حسناً، هذا ينبغي أن يعتبر احتيالاً على مصرف تلسون أيضاً! لأنك لا تستطيع أن تلوم الأوزة وتعفي من لومك ذَكَر الأوز. وها هي مسز كرانتشر ـ أو أنها كانت في أيامنا القديمة في إنكلترة على الأقل، ولسوف تستأنف ذلك غداً ـ تسجد وتصلي ضد نجاح تجارتي إلى حدّ مدمّر، إلى حد مدمر تماماً! في حين أن زوجات أولئك الأطباء لا يصلين ضد أزواجهن ولا يعنّفنهم! بل إنهن إذا صلّين سألن الله أن يكثر عدد المرضى، إذ كيف يمكن أن يوجد واحد منهم من دون الآخر؟ بقي المشتغلون بدفن الموتى، وموظفو الأبرشية، وقندلفتات

الكنائس، والخفراء الخصوصيون وكلهم خسيس، وكلهم مشترك في ذلك. وهكذا ترى أن الرجل لا يكسب كثيراً من وراء هذا العمل: حتى ولو كان ذلك صحيحاً. والمال الضئيل الذي يكسبه الرجل من ذلك لا يزكو عنده، يا مستر لوري. إنه لا يفيد منه شيئاً على الإطلاق. ولذلك تجده يحاول دائماً أن يهجر هذا المسلك، إذا ما سلكه يوماً، إذا استطاع أن يجد السبيل الذي تنجيه منه ـ حتى إذا كان ذلك صحيحاً.»

فصاح مستر لوري، وإن يكن قد رق بعض الشيء: «تباً لك! إن رؤيتك تخضّني خضاً.»

فواصل مستر كرانتشر كلامه: «والآن، إن ما أقترحه عليك يا سيدي، في تواضع، حتى ولو كان ذلك صحيحاً، وهو شيء لا أقول إنه صحيح...»

فقال مستر لوري: «لا تراوغ!»

فأجاب مستر كرانتشر، وكأن ذلك كان أبعد الأشياء عن تفكيره أو عادته: «لا، لن أفعل، يا سيدي. كنت أقول إني سأقترح عليك، حتى ولو كان ذلك صحيحاً، اقتراحاً. أما الإقتراح فهو هذا: هناك على ذلك الكرسي المخفض الذي لا ظهر له، في «تامبل بار» ذاك، يجلس ولدي الذي نشّأته حتى صار رجلاً، والذي سوف يخدمك ويحمل رسائلك ويخفف من أعبائك، حتى تُصبح عَقِباك في موضع رأسك، إذا كنت ترغب في مثل هذا ـ أقول، إذا كان ذلك صحيحاً، وهو ما أصرّ على عدم الزعم أنه كذلك، (لأني لا أحب أن أراوغك) فَدَعْ ذلك الغلام يحتفظ بوظيفة أبيه ويتولى العناية بأمه. لا تفضح والد ذلك الغلام. أتوسل إليك أن لا تفعل ذلك، يا سيدي ـ ودع ذلك الوالد ينصرف إلى حفر القبور حفراً نظامياً ليكفّر عن نشاطه السابق في نبشها ـ إذا كان ذلك صحيحاً ـ أجل، إلى حفر القبور وتوطيد العزم على صيانتها في المستقبل. ذلك يا مستر لوري،» وهنا مسح مستر كرانتشر جبينه بذراعه، إيذاناً بأنه قد انتهى إلى ختام خطابه، «ذلك هو الإقتراح الذي أحب أن

أقدّمه إليك، في احترام، يا سيدي. إن الرجل لا يستطيع أن يرى كل ما يقع هنا في هذه البلاد، حيث يتعاظم عدد المواطنين المقطوعي الرؤوس إلى درجة تهبط بالسعر إلى مستوى أجرة الحمال أو أقلّ من غير أن يفكر في الأشياء تفكيراً جدياً. وإني لأرجو أن تذكر، حتى ولو كان ذلك صحيحاً، إني لم أقل هذا إلا لقصد حسن، وقد كان في إمكاني أن أخفيه عنك.»

فقال مستر لوري: «هذا على الأقل صحيح. لا تقل شيئاً إضافياً، الآن. وقد أبقى صديقاً لك إذا كنت تستحق ذلك، وإذا تبتَ بالعمل، لا بالكلام. أنا لا أريد كلاماً بعد الآن.»

وقطّب مستر كرانتشر حاجبيه عندما رجع سيدني كارتون والجاسوس من الغرفة المظلمة. وقال كارتون: «إلى اللقاء يا مستر بارساد. ليس ثمة ما تخشاه مني بعد أن تفاهمنا على هذا التدبير.»

واستوى في كرسي قائم قرب النار، بإزاء مستر لوري. حتى إذا خلا أحدهما إلى الآخر سأله مستر لوري عما فعله.

ـ «لم أفعل شيئاً كثيراً. ولكني ضمنتُ الوصول إلى السجين، مرة واحدة، إذا سارت الأحوال سيراً سيئاً.»

وزايلت مستر لوري رباطة جأشه.

وقال كارتون: «ذلك كل ما استطعت أن أفعله. إن الإفراط في المطالب يعني وضع رأس هذا الرجل تحت فأس المقصلة، وكما قال هو بنفسه، فإن اتهامه بالخيانة لن ينتهي به إلى ما هو أسوأ. كان واضحاً أن ذلك هو موضع الضعف في المسألة. وليس لنا في هذا الأمر حيلة.»

فقال مستر لوري: «ولكن الوصول إليه، إذا ساءت الأحوال أمام المحكمة، لن ينقذه.»

ـ «أنا لم أقل قطّ إنه سوف ينقذه.»

وشيئاً بعد شيء التمست عينا مستر لوري النار الموقدة. لقد أوهنه

عطفه على لوسي وجزعه لهذا الإعتقال الثاني، وهدّ من قواه تدريجياً. لقد أمسى شيخاً كبيراً أثقلته الهموم في الفترة الأخيرة، فتحدّرت الدموع من عينيه.

وقال كارتون في صوت مضطرب: «أنت رجل طيب وصديق وفيّ. إغفر لي إذا لاحظت أنك شديد التأثر. إنني لا أستطيع أن أرى إلى أبي يبكي وأقعد إلى جانبه، من غير حراك. ولست بقادر على احترام حزنك أكثر، لو كنتَ أبي. لقد حرّرَتْك المصادفة من هذا البلاء، على كل حال.»

وعلى الرغم من أنه قال الكلمات الأخيرة منزلقاً إلى طريقته المألوفة، فقد كان في صوته ونبرته شعور واحترام صادقان جعلا مستر لوري ـ الذي لم يرَ قطّ من قبلُ الجانب الأفضل من هذا الرجل ـ على غير استعداد لمواجهة الموقف بالكلية. وبسط يده نحوه، فضغط كارتون عليها ضغطاً رفيقاً.

وقال كارتون: «فلنعد إلى زوجة دارني المسكين. لا تُخبرها بنبأ هذه المقابلة أو هذا التدبير. إن ذلك لن يساعدها على أن تذهب وتراه. وقد يخيل إليها أن هذا التدبير وُضع، في أسوأ الأحوال، لكي يكون في الإمكان تزويده بالأداة التي تساعده على أن يستبق تنفيذ الحكم.»

ولم يكن شيء من هذا قد خطر ببال مستر لوري، فسارع إلي إلقاء نظرة على كارتون ليرى ما إذا كان ذلك يجول في ذهنه. وتراءى له وكأن الأمر كذلك. وبادله النظرة، وكان واضحاً أنه فهمها.

وقال كارتون: «قد تتوهم ألف وهم، ليس في ميسور أي منها إلا أن يزيد في شقائها وحسب. لا تحدثها عني. إنه لمن الأفضل أن لا أراها، كما قلتُ لك أولَ ما جئتُ إلى هنا. في استطاعتي أن أمدّ يدي للقيام بأي خدمة صغيرة يتيسر ليدي أن تُسْديها إليها، من غير أن أراها. إنك تعتزم زيارتها، في ما أرجو؟ لا ريب في أنها ستحس بوحشة بالغة هذه الليلة.»

ـ «إني ذاهب الآن، مباشرةً.»

ـ «يسرني ذلك. إنها شديدة التعلق بك والإعتماد عليك. كيف تراها؟»

ـ «إنها قلقة غير سعيدة. ولكنها بارعة الجمال.»

ـ «آه!»

كانت صوتاً طويلاً محزوناً أشبه بالتنهّد ـ بل لقد كاد أن يكون نشيجاً. ولقد لفتت عينيْ مستر لوري إلى وجه كارتون الذي كان منعطفاً نحو النار. وانطلق من ذلك الوجه شعاع أو ظلّ (فلم يكن في ميسور الشيخ أن يجزم) بمثل السرعة التي يرين فيها التغيّر على جانب كثيب في يوم مشرق عاصف. ورفع قدمه ليردّ إحدى قطع الحطب المشتعلة، وكانت على وشك أن تتعثر، إلى أمام. كان يرتدي رداء سفر، وينتعل حذاءً طويل الساق مصنوعاً أعلاه من مادة غير التي صُنع منها سائر الأحذية ـ وكان آنذاك زياً شائعاً. حتى إذا مس ضوء النار سطح ذلك الحذاء الرقيق جعل وجه كارتون يبدو شاحباً جداً، وقد تدلى حوله شعره الأسمر الطويل غير المشذّب. وكان في لا مبالاته بالنار ما حدا بمستر لوري على أن يحذّره مغبة ذلك. وكان حذاؤه ما يزال على جمرات حطبة الموقدة، الحامية، بعد أن تحطمت تحت وطأة قدمه.

وقال: «لقد نسيتُها.»

والتفتت عينا مستر لوري إلى وجهه مرّة أخرى. وإذ رأى إلى الإنطباعة المهمَلة التي تغيم على وجهه ذي القسمات المليحة في الأصل، وإذ كانت سيما وجوه السجناء طريّةً في ذهنه، فسرعان ما ذكر تلك السيما في قوة ووضوح.

وسأله كارتون وقد التفت إليه: «وهل انتهت مهمتك، هنا، إلى غايتها؟»

ـ «نعم. لقد أنجزت آخر الأمر كل ما أستطيع أن أعمله هنا كما قلت لك الليلة البارحة عندما أقبلت لوسي فجأة، وعلى غير توقع

بالكلية. وكنت أرجو أن أخلفهم في أمن كامل، وأغادر باريس بعدئذ. ولقد حصلت على إجازة بالسفر. وكنت على استعداد للانطلاق.»

وران الصمت عليهما.

ثم قال كارتون، شاردَ البال: «لقد عشتَ حياةً طويلة تستطيع أن تلتفت إليها وتتأمل فيها.»

ـ «أنا في الثامنة والسبعين من عمري.»

ـ «كنتَ نافعاً طوال عمرك، منصرفاً إلى العمل على نحو مطّرد موصول، موثوقاً، محترماً، متطلَّعاً إليك؟»

ـ «لقد كنت رجل أعمال منذ أن بلغتُ مبلغ الرجال. والحق، أن في استطاعتي أن أقول إني كنت رجل أعمال منذ صباي الأول.»

ـ «انظر أي مركز تملأه في الثامنة والسبعين. ما أكثر الذين سوف يفتقدونك حين تترك مكانك فارغاً!»

فأجابه مستر لوري، هازاً رأسه: «أنا عزبٌ شيخٌ متوحد. وليس هناك أي امرئ يبكي عليّ.»

ـ «كيف تقول ذلك؟ ألن تبكي هي عليك؟ ألن تبكي ابنتها الصغيرة؟»

ـ «نعم، نعم، شكراً لله، أنا لم أعنِ ما قلته تماماً.»

ـ «إن ذلك شيء يُشكر الله عليه. أليس كذلك؟»

ـ «من غير شك، من غير شك.»

ـ «لو كان في استطاعتك أن تقول لقلبك المتوحّد، الليلة، في صدق وإخلاص: لقد عجزتُ عن أن أكسب حب أي مخلوق بشري أو مودته أو شكره أو احترامه؛ لقد عجزت عن الفوز بأيما مكانة رقيقة الحاشية في ناحية من النواحي؛ أنا لم أعمل شيئاً صالحاً أو مفيداً يذكرني به الناس!
ـ إذا كان في استطاعتك أن تقول هذا فعندئذ تكون سنواتك الثماني والسبعون ثماني وسبعين لعنةً، أليس كذلك؟»

ـ «أنت تقول الحق يا مستر كارتون، أحسب أنها خليقة بأن تكون كذلك.»

وحوّل سيدني عينيه، كرة أخرى، نحو النار. وبعد صمت دام بضع لحظات قال: أحبّ أن أسألك: هل تبدو طفولتك نائية جداً؟ هل تبدو الأيام التي جلست فيها على ركبة أمك أياماً عريقة في القِدم؟»

واستجاب مستر لوري إلى موقف كارتون الملطّف، فأجاب: «كان ذلك منذ عشرين سنة. أما اليوم فلا. ذلك أني كلما اقتربت من النهاية أكثر فأكثر، طوّفت ضمن الحلقة مقترباً من البداية أكثر فأكثر. ويبدو لي أن ذلك لا يعدو أن يكون إحدى الوسائل الرفيقة لتذليل الطريق وتمهيدها. إن كثيراً من الذكريات التي اتخذتها سِنَةٌ من الذكرى طويلة والتي تتصل بأمي النضرة العود (وأنا في مثل هذا السّن!» لتمسّ فؤادي الآن فتثير لواعجه. وكذلك تفعل ذكريات أخرى ترقى إلى تلك الأيام التي كان فيها هذا الذي ندعوه «العالم» غير واقعي عندي إلى هذا الحدّ، والتي كانت أخطائي فيه غير محقّقةٍ في ذات نفسي.»

فصاح كارتون وقد شاع الدم في وجهه: «أنا أفهم شعورك هذا! وهل أنت أحسن حالاً لهذا السبب؟»

ـ أرجو ذلك.»

وهنا اختتم كارتون الحديث بأن نهض ليساعده على ارتداء معطفه. فقال مستر لوري، مستأنفاً الكلام في ذلك الموضوع: «ولكنك شاب في زهرة العمر.»

فقال كارتون: «أجل، أنا لست شيخاً. ولكن سبيلي الغضة لم تكن في يوم من الأيام سبيلاً تنتهي إلى الشيخوخة. لقد انتهيت.»

فقال مستر لوري: «وكذلك أنا، من غير شك. أخارج أنت؟»

ـ «سوف أمشي معك حتى باب دارها. أنت تعرف عاداتي المتشردة القلقة. فإذا وجدتني أتسكع في الشوارع لفترة طويلة فلا تقلق. سوف أعاود الظهور غداً صباحاً. أذاهب أنت إلى المحكمة غداً؟»

ـ «أجل مع الأسف.»

ـ «سوف أكون هناك. ولكن كواحد من الحشد ليس غير. إن جاسوسي سوف يبحث لي عن مقعد. ضع ذراعك بذراعي، يا سيدي.»

وأخذ مستر لوري بذراعه، وهبطا السلم وراحا يجتازان الشوارع، وما هي إلا دقائق معدودات حتى انتهيا إلى بيت الطبيب. فارقه كارتون هناك، ولكنه تمهل بعد أن جاز مسافة قصيرة، ثم انقلب راجعاً إلى الباب، وكان قد أوصِد، ولمَسَه. كان قد سمع بذهابها إلى السجن كل يوم. فقال وهو يجيل الطرف في ما حوله: «لقد خرجَتْ من هنا، وانعطفت من هنا، ولا ريب في أنها كثيراً ما وطئت بقدميها هذه الحجارة. دعني أقتفي آثارها.»

كانت الساعة العاشرة ليلاً عندما وقف أمام سجن لافورس، حيث كانت قد وقفت مئات المرات. وكان ناشر حطب ضئيل الجسم قد أغلق دكانه، وأنشأ يدخن غليونه عند بابها.

قال سيدني كارتون، متمهلاً في خطوه: «طاب مساؤك أيها المواطن!» ذلك بأن الرجل كان قد نظر إليه نظرة شك وارتياب.

ـ «طاب مساؤك، أيها المواطن.»

ـ «كيف حال الجمهورية؟»

ـ «أنت تعني المقصلة. إنها ليست عليلة. ثلاثة وستون في هذا اليوم. وسوف يرتفع الرقم إلى مئة عما قريب. إن شمشون ورجاله يشكون أحياناً الإجهادَ والخور. ها، ها، ها! إنه مضحك جداً شمشون ذاك! يا له من حلاق!»

ـ «وهل تذهب كثيراً لتراه....»

ـ «لأراه يحلق؟ دائماً. كل يوم. يا له من حلاق! هل رأيته وهو يعمل؟»

ـ «مطلقاً.»

ـ «إذهب وانظر إليه حين يكون عنده جمع غفير. تصوّر هذا أيها المواطن: لقد حلق الثلاثة والستين اليوم في أقل من غليونين(*). أجل، في أقلّ من غليونين أقسم لك بشرفي!»

وفيما الرجل الضئيل المتبسم ينزع من فمه الغليون الذي كان يدخنه لكي يفسر كيف كان يقيس سرعة الجلاد، استشعر كارتون الرغبة في أن يضربه ضربة تقضي على حياته، وكانت هذه الرغبة عارمة إلى درجة اضطر معها إلى أن يشيح بوجهه عنه. ومضى لسبيله.

وقال ناشر الحطب: «ولكنك لست إنكليزياً، على الرغم من أنك ترتدي الملابس الإنكليزية؟»

فأجابه كارتون، متمهلاً كرة أخرى، قائلاً من فوق كتفه: «نعم.»

ـ «أنت تتحدث كالفرنسيين.»

ـ «لقد تلقيت العلم في هذه البلاد.»

ـ «آها، رجل فرنسي كامل! طاب مساؤك، أيها الإنكليزي.»

ـ «طاب مساؤك، أيها المواطن.»

وألحّ الرجل الضئيل، صائحاً من ورائه: «ولكن إذهب وانظر إلى ذلك الكلب المضحك. وخذ معك غليوناً!»

وكان سيدني قد غاب بعيداً عن العيان عندما توقف في منتصف الشارع تحت مصباح ينبعث منه ضوء واهن، وأنشأ يخط بقلمه الرصاصي على قصاصة من ورق. ثم انطلق بخطى ثابتة كخطى رجل يذكر الطريق جيداً، فاجتاز عدة شوارع مظلمة قذرة ـ أشد قذارة من المألوف، لأن أفضل الشوارع ظلت من غير تنظيف في حقبة الرعب تلك ـ ليقف آخر الأمر عند دكان كيميائي كان صاحبها يوصدها بيديه. كانت دكاناً صغيرة مظلمة عقفاء، يملكها في شارع متعرج بأعلى الكثيب رجلٌ صغير مظلم أعقف.

(*) يقصد في مدة قصيرة لا تتجاوز المدة التي يدخن فيه المرء غليونين. (المعرب).

وإذ ألقى تحية المساء على هذا المواطن أيضاً، لحظة واجهه على منضدته، نشر قصاصة الورق أمامه. فصفر الكيميائي في رفق، وهو يتلو الورقة، وقال: «هاي، هاي، هاي!»

ولم يكترث سيدني كارتون. وقال الكيميائي: «لك، أيها المواطن؟»

ـ «لي.»

ـ «أرجو أن تنتبه إلى عزل بعضها عن بعض. أنت تعرف ما ينتج عن مزجها؟»

ـ «أعرف ذلك جيداً.»

وأعِدّت بضْع صُرَر صغيرة، وقدّمت إليه. فوضعها واحدة إثر واحدة في صدر سترته الداخلية، فدفع ثمنها إلى الكيميائي، وغادر الدكان، في تأنٍّ. وقال وهو يرفع بصره نحو القمر: «ليس ثمة شيء آخر ينبغي أن يُعمل، حتى غد. أنا لا أستطيع أن أنام.»

ولم تكن طائشة تلك الطريقة التي لفظ بها هذه الكلمات، في صوت عال. تحت السحائب المقلعة في سرعة، بل لم تكن لتفصح عن الإهمال أكثر من إفصاحها عن التحدي. كانت الطريقة الجازمة يصطنعها رجل متعَب تاه وناضل وضلّ، ولكنه اهتدى آخر الأمر إلى طريقه ورأى غايتها.

ومنذ عهد بعيد، يوم كان مشهوراً بين أنداده الأولين بأنه شاب ذو مستقبل عظيم، شيّع أباه إلى المقبرة حيث تُلي على ضريحه كلام مهيب: «أنا القيامة والحياة، يقول الرب. من آمن بي، ولو مات، فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت أبداً.» لقد برز هذا الكلام في ذهنه الآن، فيما هو يهبط الشوارع المظلمة، وسط الظلال الثقيلة، وقد أبحر القمر وأبحرت السحائب عالياً من فوقه.

وكان من اليسير العثور على سلسلة التداعي التي حملت تلك

الكلمات إلى ذهنه، كما تُحمل مرساة عتيقة صدئة من أعماق البحر، ما دام يذرع الشوارع وحيداً، في موهن من الليل، وسط مدينة تسيطر عليها شفرة المقصلة، وقد استبدّ به الحزن على الثلاثة والستين الذين أعدموا ذلك اليوم، وعلى ضحايا الغد المنتظرين نهايتهم في السجون، وضحايا بعد غد، واليوم الذي بعده. إنه لم يلتمس تلك الكلمات التماساً، ولكنه كرّرها وتابع طريقه.

في اهتمام خاشع بالنوافذ المضاءة حيث كان الناس يخلدون إلى الراحة متناسين، بضع ساعات، الأهوال المحيطة بهم؛ بأبراج الكنائس حيث لم تكن تتلى صلاة ما، لأن انقلاباً فجائياً طرأ على مشاعر القوم وانتهى إلى تلك الغاية من إهلاك النفس، بعد سنوات وسنوات عرفوا فيها دجل رجال الدين، ونهبهم، وفجورهم؛ بالمقابر القصيّة، المخصصة، كما هو مكتوب على أبوابها، للنوم الأبدي؛ بالسجون الموفورة؛ بالشوارع التي تدحرج خلالها الستّون إثر الستين نحو موتٍ كان قد أمسى عادياً ومادياً بحيث لم تنشأ بين الناس، نتيجةً لأعمال المقصلة، كلها، أيما قصة محزنة عن روح ميت تختلف إلى مكان ما ـ في اهتمام خاشع بحياة المدينة المخلدة إلى فترة قصيرة من الهدوء الليلي وبموتها عَبَرَ سيدني كارتون نهر السّين، كرة أخرى، إلى الشوارع الأكثر جذلاً.

ولم تكن تعبر النهر غير مركبات قليلة، لأن ركوب العربات كان مثاراً للرَّيب، فكانت الدماثة تخفي رأسها بقلنسوة ليلية حمراء وتنتعل حذاء ثقيلاً، وتمضي لسبيلها مشياً على القدمين. ولكن المسارح كانت ملأى بالقُصاد، وكان الناس يتدفقون منها مبتهجين، فيما هو يتابع طريقه، وينقلبون إلى بيوتهم متجاذبين أطراف الحديث. وعند باب من أبواب المسارح، وقفت فتاة وأمها، وكانتا تبحثان عن سبيل تمكنهما من عبور الشارع وسط الوحل. فحمل الطفلة وانتقل بها إلى الجانب الآخر. وقبل أن تنزلق الذراع الحيية عن عنقه سألها قبلةً.

ـ «أنا القيامة والحياة، يقول الرب، من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت أبداً.»

حتى إذا هدأت الشوارع، وأوشك الليل أن يحتضر، أمست الكلمات تتردد مع وقع قدميه، وفي الهواء. وفي ثبات ورباطة جأش كاملين كررها لنفسه، بعض الأحيان، فيما هو يمشي؛ ولكنه كان يسمعها على نحو موصول.

وتقضَّى الليل. وبينا وقف على الجسر يصيخ إلى الماء وهو يلطم ضفتي النهر الذي يخترق جزيرة باريس حيث كان اختلاط البيوت والكاتدرائيات الرائع يلتمع ساطعاً في ضوء القمر، أقبل النهار بارداً، وكأنه وجه ميت انبثق من السماء. وعندئذ شحب وجه الليل، بقمره ونجومه، ولفظ أنفاسه الأخيرة؛ وطوال برهة قصيرة بدا وكأن الخليقة قد أسلمت إلى سلطان الموت.

ولكن الشمس المجيدة، المشرقة، بدت وكأنها تُنْفذ تلك الكلمات، ذلك العبء الليلي، قويمةً دافئةً إلى فؤاده، بأشعتها الطويلة الساطعة. وإذ نظر إلى تلك الأشعة، تراءى له وكأن جسراً من النور يصل ما بينه وبين الشمس، فيما تلألأت مياه النهر من تحته.

كان المدُّ البالغ القوة، البالغ السرعة، البالغ العمق والثقة أشبه ما يكون بصديق لطيف المعاشرة، في سكون الصباح. مشى في محاذاة النهر، بعيداً عن البيوت، واستسلم للرقاد، على الضفة، يغمره ضوء الشمس ودفؤها. حتى إذا استيقظ ونهض كرة أخرى على قدميه تخلّف هناك برهةً إضافية: مراقباً دردوراً ينفتل وينفتل لغير ما غاية، حتى ابتلعه النهر، وحمله إلى البحر. ـ «مثلي أنا!»

عندئذ انسابت سفينة تجارية، ذات شراع في مثل لون ورقة ميتة، أمام ناظريه، وطفَتْ إلى جانبه، ثم تلاشت. وحين اختفى أثرها الصامت الذي خلّفته في الماء كانت الصلاة التي تفجّرت من فؤاده ابتغاء النظر إلى

جهالاته كلها وأخطائه كلها نظراً رحيماً، قد انتهت بهذه الكلمات: «أنا القيامة والحياة.»

كان مستر لوري قد غادر مكتبه حين انقلب هو إليه، وكان من اليسير عليه أن يحزر أين ذهب الشيخ الصالح. ولم يتناول سيدني كارتون شيئاً غير قليل من القهوة، وبعض الخبز. حتى إذا اغتسل وبدّل ثيابه إنعاشاً لنفسه مضى إلى مكان المحاكمة.

كانت المحكمة تضج بالحركة والأزيز، عندما دفعه الخروف الأسود ـ الذي ارتدّ كثير من الناس عن سبيله خائفين ـ إلى زاوية مظلمة وسط الحشد. كان مستر لوري هناك، وكان الدكتور مانيت هناك. وكانت هي هناك أيضاً، جالسةً إلى جانب أبيها.

حتى إذا سيق زوجها إلى المحكمة التفتت لتلقي نظرة عليه. وكانت نظرتها تلك تنضح بالتأييد، والتشجيع، والحب المكبِر، والحنان الراثي ـ وإن تكن باسلة إلى أبعد الحدود إكراماً له ـ حتى لقد استثارت الدم المعافى إلى وجهه، وأوقعت الإشراق في لمحته، والأمل في فؤاده. ولو كانت ثمة عين حتى ترى أثر نظرتها في نفس سيدني كارتون إذن لرأت ذلك الأثر عينه على وجهه بالضبط.

ولم يكن عند تلك المحكمة الظالمة شيء من النظام الإجرائي الذي يضمن لأيما متهم الحق في أن يُسمع القضاة صوته ويدافع عن نفسه. فالحق أنه ما كان ممكناً أن تنشب ثورة مثل هذه لو لم تُنتهك قبل ذلك جميع القوانين والأنظمة وتكاليف الإجراء انتهاكاً جعل انتقام الثورة الانتحاري يهدف أول ما يهدف إلى أن يبعثر ذلك كله فتذروه الرياح.

وتطلعت الأعين كلها إلى المحلفين. إنهم الوطنيون الأشداء أنفسهم والجمهوريون الصالحون أنفسهم الذي تصدّروا للحكم أمس، وأمس الأول، والذين سيتصدرون للحكم غداً وبعد غد. وكان بارزاً بينهم رجل ذو وجه نهم كانت أصابعه تحوم على غير انقطاع حول شفتيه، فيوقع منظره أعظم الرضا في نفوس النظارة. كان محلّفاً دموي التفكير، متعطشاً

إلى الأرواح، تبدو على وجهه آيات النهم إلى لحم البشر. كان هو جاك رقم ثلاثة الذي عرفناه في سان أنطوان، وكان المحلفون كلهم أشبه بمحلفين من الكلاب عُهِد إليهم في أن يحاكموا الظبي.

ثم تطلعت الأعين كلها إلى القضاة الخمسة والنائب العام. ولم يكن في تلك الناحية أيما اتجاه نحو الرفق، ذلك النهار. كان ثمة اتجاه عمليّ عنيد ضارٍ. عندئذ التمست كل من الأعين عيناً أخرى بين الحشد وبرقت لها في إقرار وموافقة. وأومأت الرؤوس بعضها إلى بعض، قبل أن تنحني إلى أمام في انتباه جاهد.

تشارلز ايفريموند، المدعوّ دارني. أُطلِق سراحه أمس، ثم اتّهم من جديد وأعيد إلقاء القبض عليه الليلة البارحة. لقد رُمي بأنه عدوّ الجمهورية، ارستوقراطي ينتسب إلى أسرة من الطغاة، وإلى طائفة حُكم عليها بالموت بسبب من أنها أساءت استخدام امتيازاتها فأنزلت بالشعب أبشع المظالم. من أجل ذلك أطلب الموت لتشارلز ايفريموند المدعو دارني.

ذلك كان مفاد المرافعة التي ألقاها النائب العام، وبمثل هذا العدد القليل من الكلمات، بل بأقلّ منه أيضاً.

وتساءل الرئيس عن الاتهام، أعلنيّ هو أم سرّي؟

ـ «علنيّ، يا حضرة الرئيس.»

ـ «ممّن؟»

ـ «من ثلاثة أصوات. ارنست دوفارج، صاحب حانة في سان أنطوان.»

ـ «حسن.»

ـ «تيريز دوفارج، زوجته.»

ـ «حسن.»

ـ «ألكسندر مانيت، طبيب.»

وثارت ضجة عارمة في المحكمة، وفي وسطها شوهد الدكتور مانيت، شاحب الوجه مرتجفاً ينهض من مقعده واقفاً.

ـ «يا حضرة الرئيس، إني أعلن أمامك في سخط أن هذا كذب وبهتان. أنت تعرف أن المتهم زوج ابنتي. إن ابنتي وكل عزيز عليها، أغلى عندي من حياتي. فمن هو، وأين هو، ذلك المتآمر الأفّاك الذي يزعم أني أتهم زوج ابنتي!؟»

ـ «إلزم الهدوء، أيها المواطن مانيت. إن عدم الإذعان لأوامر المحكمة يجعلك خارجاً على القانون. أما في ما يتصل بمن هم أغلى عندك من حياتك فاعلم أنه ما من شيء يمكن أن يكون أعزّ على قلب المواطن الصالح من الجمهورية.»

وهللت هتافات عالية لهذا الزجر. وقرع الرئيس جرسه، واستأنف كلامه بحرارة.

ـ «إذا سألتك الجمهورية أن تضحي بابنتك نفسها، فيجب أن لا يكون لك غير واجب واحد هو أن تضحي بها. إسمع إلى ما سوف يلي. وفي الوقت نفسه، إلزم الهدوء!»

وارتفعت، هذه المرة أيضاً، هتافات مذعورة. وقعد الدكتور مانيت، راجفَ الشفتين، مجيلاً الطرف في ما حوله. وازدادت ابنته منه قرباً. وفرك الرجل النهم، القاعد مع المحلفين، يديه ثم أعاد اليد المعهودة إلى فمه.

ودُعي دوفارج إلى الإدلاء بما عنده، بعد أن هدأت الضجة على نحو يمكّن من سماع كلامه، فروى قصة السَّجن في تعجّل، وكيف كان مجرد صبيّ يعمل في خدمة الطبيب، وقصة إطلاق السراح، وحالة السجين حين حُرّر وسُلم إليه. ثم إن المحكمة وجهت إليه هذه الأسئلة الموجزة، إذ كانت تبتغي إنجاز عملها على وجه السرعة:

ـ «لقد أبليت بلاءً حسناً يوم الاستيلاء على الباستيل، أيها المواطن؟»

ـ «أعتقد ذلك.»

وهنا صرخت امرأة مهتاجة وسط الحشد: «لقد كنت واحداً من أشجع الوطنيين هناك. لماذا لا تقول هكذا؟ لقد كنت مدفعياً ذلك اليوم، وكنت بين الأوائل الذين دخلوا القلعة اللعينة حين سقطت. أيها الوطنيون، إني أقول الحقيقة!»

كانت «الانتقام» هي التي شاركت في الإجراءات على هذا النحو، وفي غمرة من تأييد النظارة الحارّ. وقرع الرئيس جرسه. ولكن «الانتقام» صاحت وقد زادها التأييد حماسة: «أنا أتحدى ذلك الجرس!»، فأمطرها النظارة بمزيد من التهليل.

ـ «أنبئ المحكمة بما فعلتَهُ ذلك اليوم، ضمن جدران الباستيل، أيها المواطن.»

فقال دوفارج، خافضاً بصره نحو زوجته، الواقفة عند أدنى الدرجات التي رُفع عليها فهي ترنو إليه من غير انقطاع: «لقد عرفت أن هذا السجين، الذي أتحدث عنه، كان محبوساً في حجيرة تُعرف بمئة وخمسة، البرج الشمالي، لقد عرفت ذلك منه ذاته. كان لا يعرف نفسه باسم آخر غير مئة وخمسة، البرج الشمالي، عندما عُهد إليّ بالعناية به فانصرفَ إلى صنع الأحذية. وفيما كنت أطلق نيران مدفعي ذلك اليوم عزمت على أن أفحص حجيرته حين تسقط القلعة. وسقطت القلعة. وصعدت إلى الحجيرة، مع مواطن يقوم الآن بدور المحلف، وكان يقودنا أحد السجانين. وفحصت الحجيرة بدقة بالغة. وفي ثقب في المدخنة، حيث كان أحد الأحجار قد نُزع ثم أعيد إلى موضعه، وجدت ورقة مكتوبة. وهذه هي. لقد جعلتُ من همي أن أدرس بعض نماذج من خط الدكتور مانيت، وذلك هو خطه بعينه. إني أعهد بهذه الورقة، المكتوبة بخط الدكتور مانيت، إلى أيدي الرئيس.»

ـ «فَلتُتْلَ هذه الورقة.»

وفي صمت وسكون ميتين ـ وكان المتهم ينظر في حبّ إلى زوجته،

وكانت زوجته لا ترفع بصرها عنه إلا لكي تنظر إلى أبيها في غمّ وقلق، على حين كان الدكتور مانيت مسمّراً عينيه على القارئ، وكانت مدام دوفارج لا ترفع عينيها قط عن المتهم، وكان دوفارج لا يرفع بصره عن امرأته الجذلى، وكانت سائر الأعين مركّزة على الطبيب، الذي لم يرَ شيئاً ـ تُليت الورقة على الوجه الآتي:

ـ 10 ـ

حقيقة الخيال

«أنا ألكسندر مانيت، الطبيب البائس، المُبْصر النور في بوفيه، والمقيم بعد ذلك في باريس، أكتب هذه الورقة الكئيبة في حجيرتي الفاجعة في الباستيل، خلال الشهر الأخير من عام 1767. إني أكتبها في فترات مختلَسَة، وتحت وطأة مصاعب من كل نوع. وإني لأعتزم أن أخفيها في جدار، حيث وفقتُ في بطء ومشقة إلى أن أعدّ مكاناً لإخفائها. إن يداً عطوفاً قد تجدها هناك حين أمسي أنا وأحزاني تراباً.

وإنما كتبت هذه الكلمات في صعوبة برأس مسمار صدئ مصطنعاً سخام المدخنة ممزوجاً بالدم، في الشهر الأخير من السنة العاشرة لسجني. لقد زايل الأمل صدري نهائياً. وأنا أعرف من بعض النذر الفظيعة التي لمستها في ذات نفسي أن عقلي لن يظلّ، فترة طويلة، سليماً لم يُصَب بأذى، ولكني أعلن في خشوع أنني في هذه اللحظة مالكٌ عقلي السليم، وأن ذاكرتي دقيقة ملمّة بالتفاصيل، وأني أكتب الحقيقة إذ سأكون مسؤولاً عن آخر كلماتي المدونة هذه، سواء قرأها إنسان ذات يوم أم لم يقرأها، أمام العدالة الإلّهية.

في ليلة قمراء غائمة، في الأسبوع الثالث من كانون الأول (في الثاني والعشرين من الشهر على ما أعتقد) سنة 1757 كنت أتمشى، ابتغاء الاستمتاع بالهواء الطلق القارس، في جزء منعزل من رصيف السين، على مبعدة ساعة من مسكني في شارع كلية الطب، عندما أقبلت

من خلفي عربة منطلقة في سرعة خاطفة. حتى إذا وقفتُ جانباً لكي أفسح للعربة مجال المرور، وقد خشيت أن تدهسني إن لم أفعل، أطل من نافذتها رأس، وصاح صوتٌ يأمر السائق بالوقوف.

ووقفت العربة حالما وفق السائق إلى أن يكبح جماح خيله، وناداني الصوت نفسه باسمي. وأجبت. كانت العربة قد اجتازتني آنذاك إلى حد مكّن رجلين من أن يفتحا بابها ويترجّلا منها قبل أن أدركها. ولاحظت أنهما كليهما كانا متلفعين برداءين فضفاضين، وأنهما يحاولان إخفاء هويتهما في ما يبدو. وحين وقفا جنباً إلى جنب قرب باب العربة لاحظت أيضاً أنهما كليهما يبدوان في مثل سني أو أصغر، وأنهما متشابهان إلى حد بعيد في طول القامة والمظهر والصوت و(بقدر ما استطعت أن أرى) في الوجه أيضاً.

وقال أحدهم: «أنت الدكتور مانيت؟»

ـ «أنا هو.»

فقال الآخر: «الدكتور مانيت، الذي نشأ في بوفيه، وتخصّص في الأصل بالجراحة، والذي اكتسب في السنة الأخيرة أو في السنتين الأخيرتين شهرة متعاظمة في باريس؟

فأجبت: «أيها السيدان، أنا الدكتور مانيت الذي تتحدثان عنه بمثل هذا اللطف كله.»

فقال الأول: «لقد قصدنا إلى بيتك. وإذ كان من سوء حظنا أن لا نجدك هناك، وإذ قيل لنا إن من المحتمل أن تكون قد خرجتَ تتمشى في هذا الاتجاه، فقد تبعناك رجاة أن ندركك. هل لك أن تتفضل وتدخل العربة؟»

كانت هيئة الرجلين متغطرسة، ولقد تحرّكا، حين نُطِق بهذه الكلمات، وكأنما يريدان أن يحصراني ما بينهما وبين باب العربة. كانا مسلحين. أما أنا، فلا.

وقلت: «عفواً أيها السيدان! ولكن من عادتي أن أسأل من الذي يشرفني يطلب مساعدتي، وما طبيعة الحالة التي أدعى لمعالجتها.»

فجاءني الجواب من المتكلم الثاني: «إننا أيها الطبيب من أسرة رفيعة. وأما طبيعة الحالة فإن ثقتنا ببراعتك تؤكد لنا أنك سوف تتيقن منها بنفسك بأفضل مما نستطيع نحن أن نصفها. كفاية. هل تتفضل وتدخل العربة؟»

ولم يكن لي بدّ من النزول عند إرادتهما، فدخلتها في صمت. ودخلا كلاهما خلفي ـ وقد انبثق آخرهما فجأة بعد أن رفع موطئ العربة. واستدارت العربة، وانطلقت بسرعتها الأولى.

إني أكرر هذا الحوار كما دار تماماً. ولستُ أشك في أن الكلمات التي دوّنتها هي ما دار بيننا بالحرف الواحد. أنا أصف كل شيء كما حدث من غير زيادة أو نقصان، ضابطاً عقلي خشية أن يتيه أو يضلّ. أما الإشارات التالية فتفيد، حين أضعها، أنني اطّرحت الكتابة إلى حين، ووضعتُ ورقتي في مخبئها. ****

واجتازت العربة الشوارع، وتخطت الباب الشمالي، ثم اندفعت تجري على طريق الريف. وعلى بعد ثلثي فرسخ من باب المدينة ـ أنا لم أقدّر المسافة آنذاك ولكن في ما بعد حين اجتزتها ـ انحرفت عن الطريق الرئيسي ووقفت فجأة عند بيت منعزل. وترجلنا ثلاثتنا، ومشينا في ممرّ رطب يخترق حديقة ذات فوارة مهملة فاض ماؤها، حتى انتهينا إلى باب المنزل. ولم يُفتح إثر قرعنا الجرس مباشرة. وصفع أحد مرافقيّ، بقفازه الترحلي الثقيل، وجه الرجل الذي فتحه في ما بعد.

ولم يكن هذا الصنيع ما يلفت انتباهي على نحو خاص، إذ سبق لي أن شهدت العامة تُضرَب أكثر مما تُضرب الكلاب. ولكن ثاني الشخصين، وكان غاضباً أيضاً، صفع الرجل بذراعه صفعة مشابهة. وآنذاك بدت سيما الأخوين وسلوكهما متماثلين إلى حدّ أدركت معه لأول مرة أنهما توأمان.

ومنذ أن ترجلنا عند الباب الخارجي (الذي وجدناه موصداً، والذي فتحه أحد التوأمين لكي يُدخلنا ثم أغلقه من جديد) سمعت صيحات منطلقة من إحدى الغرف العليا. وفي الحال اقتاداني إلى تلك الغرفة، فإذا الصيحات تتعالى وتتعاظم ونحن نرتقي السلم. حتى إذا بلغناها ألفيت امرأة طريحة الفراش مصابة بحمى دماغية شديدة.

كانت تلك المرأة رائعة الجمال نضرة العود، فهي من غير شك لا تتجاوز العشرين إلا قليلاً. كان شعرها أشعث مشدوداً في عنف، وكانت يداها موثقتين إلى جانبها بأوشحة حريرية ومناديل. ولاحظت أن هذه الأربطة كلها كانت أجزاء من ثياب رجل من السادة. وعلى أحدها، وكان وشاحاً مطرزاً لثوب من ثياب الحفلات الرسمية، رأيت شعار أسرة أحد النبلاء، وحرف E.

رأيت ذلك في الدقيقة الأولى من تأملي في المرأة. ذلك بأنها في كفاحها القلق كانت قد انقلبت على وجهها عند حافة الفراش، وسحبت طرف الوشاح بفمها، فهي مهدّدة بالاختناق. وكان أول ما عملته أن بسطت يدي لأيسّر تنفُّسها؛ وإذ أزحت الوشاح جانباً، استرعى التطريز الذي في زاويته انتباهي.

وفي رفق قلبتها على ظهرها، ووضعت يديّ على صدرها لكي أهدئ روعها وأحول دون قيامها. ونظرت إلى وجهها. كانت عيناها منفغرتين مهتاجتين، وكانت ما تفتأ تطلق صيحات ثاقبة، وتكرر قولها: «زوجي! أبي! أخي!» ثم عدّت حتى الإثني عشر وقالت «هش!». وطوال لحظة ليس غير، كانت تتمهل وتُصيخ، ثم تطلق الصيحات الثاقبة من جديد، وتكرر صرختها: «زوجي! أبي! أخي» ثم تعدّ حتى الإثني عشر وتقول «هش!» ولم يكن ثمة تغير في طريقة ذلك أو نظامه، ولم يكن ثمة انقطاع، غير ذلك التمهل المطرد، المستمر لحظة فحسب، بين كل مرحلة ومرحلة.

وسألت: «كم مضى عليها على هذه الحال؟»

ولكي أميز ما بين التوأمين سوف أدعوهما الأخ الأكبر والأخ الأصغر. وإنما أعني بالأكبر الذي كان يتكشّف عن أعظم السلطان. ولقد كان الأخ الأكبر هو الذي أجابني قائلاً: «من حوالي هذه الساعة من الليلة البارحة.»

ـ «وهل كان لها زوج، وأب، وأخ؟»

ـ «لها أخ.»

ـ «أنا أخاطب أخاها؟»

فأجاب في ازدراء كثير: «لا.»

ـ «وهل وقعت لها منذ قريب حادثة ما تتصل بالرقم اثني عشر؟»

فأجاب الأخ الأصغر في نفاد صبر: «مع الساعة الثانية عشرة؟»

فقلت ويداي ما تزالان على صدرها: «أرأيتما أيها السيدان مدى عجزي وأنا على هذه الحال التي سُقتماني بها! فلو كنت أعرف أي حالة سوف أجد أمامي إذن لجئت مزوداً بكل ما أحتاج إليه. أما الآن فلا بدّ أن نضيع وقتاً ثميناً. إذ ليس ثمة أدوية يمكن أن تُشترى في هذا المكان المنعزل.»

ونظر الأخ الأكبر إلى الأخ الأصغر الذي قال في غطرسة: «يوجد هنا صندوق أدوية.» وأخرجه من إحدى الخزائن ووضعه إلى الطاولة

****

وفتحتُ بعض الزجاجات، وشممتها، وقربت السدادات إلى شفتيّ. ولو كنت قد أردت أن أستعمل إيما شيء خلا الأدوية المنوّمة التي هي سموم في ذاتها، لما وجدت شيئاً منها على الإطلاق.

وتساءل الأخ الأصغر: «أتشك فيها؟»

فأجبته: «ترى، يا سيدي، أنني سوف أستعملها» ـ ولم أقل شيئاً إضافياً.

وحملتُ الفتاة على أن تبتلع في كثير من العسر، وبعد جهود

متعددة، الجرعة التي رغبت في أن أعطيها إياها. وإذ كنت أعتزم أن أكرّرها بعد قليل، وإذ كان من الضروري أن أراقب تأثيرها، فقد جلستُ على جانب السرير. كان ثمة امرأة مذعورة (هي زوجة الرجل الذي لقيناه عند الباب) وكانت قد انكمشت في إحدى الزوايا. وكان المنزل رطباً عفناً لم يُعْتَنَ بتأثيثه ـ وكان واضحاً أنه أُهِّلَ منذ قريب وأنه يُسكن موقتاً. كانت بعض السجف الغليظة العتيقة قد سُمرت فوق النوافذ لكي تطمس على صيحات الفتاة، تلك الصيحات التي اتصل تعاقبها النظامي مع الصرخة: «زوجي! أبي! أخي!» والعدّ حتى الإثني عشر، و«هش!». وكان اهتياجها من العنف بحيث لم أعمد إلى حل الأربطة التي توثق ذراعيها، ولكنني ألقيت نظرة عليها لكي أطمئن إلى أنها غير موجِعة. وكان وميض الأمل الأوحد الذي شجعني هو أنه كانت ليَدي المراحة على صدر الفتاة البائسة آثار ملطّفة إلى حد جعل الوجه يهدأ بين الفينة والفينة فترات استمرت كل منها بضع دقائق. ولكنها لم تؤثر في الصيحات قط. إن رقاص الساعة ما كان أكثر منها اطراداً ونظامية.

وإذ أثّرت يدي هذا التأثير (في ما أحسب) جلستُ على حافة السرير نصف ساعة، كان الأخوان خلالها يراقبان تطور الحال. ثم إن أكبرهما قال:

ـ «هناك مريض آخر.»

وذُهلت، وتساءلت: «وهل هي حالة ملحّة؟»

فأجابني في غير مبالاة: «من الأفضل أن تراها بنفسك. ثم أخذ بيده مصباحاً.» *****

كان المريض الآخر مضطجعاً في غرفة خلفية عبر سلّم ثانية، غرفة كانت ضرباً من العليّة القائمة فوق اسطبل. كان جزء من سقفها المنخفض مجصصاً، وكان سائرها مكشوفاً، حتى حافة السطح المغطى بالآجر، وكان ثمة عوارض خشبية عبرها. كان الكلأ اليابس والتبن مخزونين في ذلك الجزء من البيت، وكذلك حطب الوقود، وركام من

التفاح. وكان عليّ أن أجتاز ذلك الجزء حتى أنتهي إلى الآخر. إن ذاكرتي سليمة لم تنسَ شيئاً. وإني لأختبرها بهذه التفاصيل، فأراها كلها، في حجيرتي هذه بسجن الباستيل، في أواخر السنة العاشرة من سنوات أسري، كما رأيتها تلك الليلة.

وفوق بعض التبن الملقى على الأرض، انطرح شاب قرويّ وسيم تحت رأسه وسادة ـ فتىً في السابعة عشرة من العمر، على الأكثر. كان مستلقياً على ظهره، مطبق الأسنان في إحكام، وكانت يده اليمنى تتشبث بصدره، وعيناه المتوهجتان تنظران إلى أعلى، مباشرة. ولم أستطع أن أرى أين كان جرحه، عندما ركعت على إحدى ركبتيّ فوقه. ولكني استطعت أن أرى أنه كان يحتضر بسبب من طعنة سلاح حادّ الرأس.

وقلت: «أنا طبيب، أيها الأخ المسكين. دعني أفحصك.»

فأجاب: «لا أريد أن أفحص. دعني وشأني.»

كان جرحه تحت يده، فحاولت أن أقنعه بتمكيني من إزاحة يده جانباً. وكان الجرح ناشئاً عن طعنة سيف أصابته قبل أربع وعشرين ساعة، ولكن لم يكن في مقدور أيما براعة طبية أن تنقذه حتى ولو عولج من غير إبطاء. كان يتقدم نحو الموت في خطى سريعة. وحين حوّلت عيني إلى الأخ الأكبر رأيته خافضاً بصره نحو هذا الفتى الوسيم الذي تفارق الحياة صدره، وكأنه طائر جريح، أو أرنب، لا أخٌ في الإنسانية على الإطلاق.

وقلت: «كيف حدث هذا، يا سيدي؟»

ـ «إنه كلب عامّي صغير السن مخبول! قِنّ من الأقنان! أكرهَ أخي على أن يشهر السيف عليه، وسقط بضربة من سيف أخي ـ وكأنه سيد من السادة.»

ولم يكن في جوابه ذاك إشارة من شفقة، أو حزن، أو إنسانية. وبدا المتحدث وكأنه يعترف بأن من غير الملائم أن يموت ذلك المخلوق

الذي ينتسب إلى فئة من البشر غير التي ينتسب هو إليها، في ذلك المكان. وإنه كان من الخير أن يموت بالطريقة المظلمة التي ألفتها جماعة الديدان التي كان واحداً منها. كان ذلك المتحدث عاجزاً عن أن يحس بأيما شفقة على الفتى، أو أسف لمصيره.

وكانت عينا الفتى قد تحركتا نحوه، في بطء أثناء كلامه، ثم تحركتا نحوي في بطء أيضاً.

ـ «أيها الطبيب، إنهم شديدو الاعتزاز بأنفسهم، هؤلاء النبلاء. ولكنا نحن الكلاب العامية نستشعر العزة أيضاً في بعض الأحيان. إنهم ينهبوننا، وينتهكون حرماتنا، ويضربوننا، ويقتلوننا؛ ولكننا نستشعر بقيةً من الكرامة، في بعض الأحيان. ولكن هي ـ هل رأيتها، أيها الطبيب؟»

كانت الصرخات والصيحات مسموعةً هناك، وإن تكن المسافة قد أخفتتها. لقد أشار إليهم، وكأنها كانت منطرحة أمامنا.

فقلتُ: «لقد رأيتها.»

«إنها أختي، أيها الطبيب. لقد استعمل هؤلاء النبلاء حقوقهم المخجلة في طهارة أخواتنا وبكارتهن طوال سنوات، ولكن كان بيننا فتيات مُحصَنَات. أنا أعرف ذلك، ولقد سمعتُ والدي يتحدث به. كانت فتاة طيبة وكانت مخطوبة لشاب طيب كان مكترياً قطعة من الأرض عنده. نحن كلنا نعمل على أرضه، ذلك الرجل الواقف هناك. والرجل الآخر هو أخوه، وهو أخبث وجه في سلالة خبيثة.»

كان الفتى يستجمع، في أشد العسر، قوته الجسدية لكي يتمكن من الكلام. ولكن روحه تفجرت في توكيد مروّع.

«لقد سرَقَنا ذلك الرجل الواقف هناك، كما يسرق أولئك البشرُ الممتازون جميع أمثالنا من الكلاب العامية، وفرض علينا الضريبة من غير رحمة، وأكرهنا على العمل من أجله دون أجر، وأجبرنا على أن نطحن قمحنا في طاحونه، وعلى أن نعيل عشرات من طيوره المدجّنة

بمحاصيلنا الهزيلة، نحن الذين حُرّم علينا طوال حياتنا أن نربي طيراً مدجّناً خاصاً بنا، والذين نُهبت أرزاقنا إلى درجة جعلتنا إذا ما وقعنا مصادفةً على قطعة من اللحم التهمناها في ذعر، بعد أن نُحكم إيصاد الأبواب بالقضبان الحديدية، ونغلق النوافذ الخشبية لكي لا يرانا رجاله وينتزعوها منا ـ أقول لقد عامَلَنا على هذه الشاكلة، وأفقرَنا إلى أبعد حدود الإفقار حتى لقد قال لنا والدنا إن من الجناية أن ينجب الرجل ولداً ويقذف به في هذا العالم، وأن ما يتعين علينا أن نطلبه من الله، قبل كل شيء، هو أن تكون نساؤنا عواقر، وأن يفنى عرقنا البائس!»

أنا لم أشهد الشعور بالظلم ينفجر انفجار النار، من قبل. كنتُ أحسبه كامناً في الناس في مكان ما. ولكني لم أره ينفجر إلا حين وقعت عيناي على ذلك الفتى المحتَضَر.

«ومع ذلك فقد تزوجت أختي، أيها الطبيب. كان المسكين مريضاً آنذاك، ولقد تزوجتْهُ لكي تتمكن من السهر على راحته في كوخنا ـ كوخ الكلاب الذي نسكن فيه، كما قد يحلو لذلك الرجل أن يدعوه. ولم ينقض على زواجها غير بضعة أسابيع حتى رآها أخو ذلك الرجل وأعجب بها وسأل زوجها أن يعيره إياها ـ إذ أيّ شأن للأزواج منّا! وكان السيد راغباً في ذلك، ولكن أختي كانت صالحة مُحصنة، وكانت تكره أخاه بقدر ما أكرهه أنا. فما الذي صنعه الرجلان لكي يقنعا الزوج بأن يستخدم نفوذه لديها ويحملها على القبول؟»

وفي بطء تحوّلت عينا الفتى، اللتان كانتا مسمّرتين على عينيّ، نحو الرجل الناظر إليه، فرأيت في وجهيهما أن ما قاله صحيح. إن في ميسوري الآن، حتى في سجن الباستيل هذا، أن أرى ذينك النوعين المتعارضين من الكبرياء وجهاً لوجه: السيّد، وكل ما فيه لا مبالاة مستهترة، والفلاح، وكل ما فيه عاطفة مَدُوسة وانتقام غاضب.

«أنت تعرف أيها الطبيب أن من بين حقوق هؤلاء النبلاء أن يشدّونا، نحن الكلاب العامية، إلى العربات ويسوقونا. وهكذا شدّوه إلى عربة

وأنشأوا يسوقونه. وأنت تعرف أن من بين حقوقهم أن يُبقونا في أراضيهم طول الليل نُسكت الضفادع لكي لا يمسّ رقادهم النبيل إزعاج ما. وهكذا أبقوه في العراء وسط ضباب الليل المؤذي، وعاودوا شده إلى العربة في النهار. ولكنه لم يقتنع. لا! وحين حُل من وثاقه ظهيرة يوم من الأيام، لكي يأكل ـ إذا ما وجد طعاماً ـ شهق اثنتي عشرة شهقة، مرةً عند كل دقة من دقات الجرس، ولفظ أنفاسه على صدرها.»

وما كان ثمة شيء بشري قادر على أن يمسك على الفتى حياته غير عزمه على أن يروي مَظلمته كلها. لقد صدّ ظلال الموت المحتشدة، فيما هو يكره يده المنشَبَة على أن تظل مُنشبة، وأن تخفي جرحه.

«وبعدئذ، وبإذن من ذلك الرجل، بل بمساعدته، اغتصبها أخوه ـ برغم ما أعرف أنها قالته لأخيه، من غير شك، وهو شيء لن يظل مجهولاً عندك، أيها الطبيب، فترة طويلة، إذا كان مجهولاً الآن ـ واتخذها لمتعته ولهوه، برهة قصيرة. لقد رأيتها تمرّ بي في الطريق. وحين نقلتُ النبأ إلى أهلي، انفجر فؤاد أبي، فلم يقل كلمة واحدة من تلك الكلمات التي كانت تملأه. وحملتُ أختي الصغيرة (ذلك بأن لي أختاً أخرى) إلى مكان لا يستطيع هذا الرجل أن يبلغه حيث لن تكون، على الأقل، أمَةً رقيقةً له. ثم إني تعقبت الأخ إلى هنا. وفي الليلة البارحة تسوّرت الحائط ـ كلباً من العوام، ولكنه يحمل سيفاً بيده. أين نافذة العليّة؟ كانت هنا في مكان ما؟»

كانت الغرفة تُظلم في عينيه؛ كان الكون يضيق من حوله. وأجلتُ طرفي في المكان فوجدت آثار الأقدام على الكلأ اليابس والتبن وكأن صراعاً كان قد نشب فوقهما.

وسمعتْني، فهرعت نحوي. وقلت لها أن لا تقترب منا إلا بعد أن يموت. ثم إنه أقبل، وقذف إليّ أولاً ببعض القطع النقدية، ثم راح يلهب جسدي بالسوط. وبرغم إني كلب من العامة، فقد هجمت عليه حتى أكرهته على التراجع قائلاً: دعه يكسر ذلك السيف الذي خضّب به دم

العاميّ ما شاء له أن يكسره. وارتد لكي يدافع عن نفسه، وانقضّ عليّ بأقصى ما يستطيع من براعة إبقاء على حياته.»

وكانت عيناي قد وقعتا، قبل بضع لحظات، على بقايا سيف محطم، منطرحة بين الكلأ اليابس. كان سلاح رجل من السادة. وفي مكان آخر، كان سيفٌ قديمٌ بدا لي وكأنه سيف جندي.

«إرفعني أيها الطبيب، إرفعني! أين هو؟»

فقلت مسنداً الفتى، معتقداً أنه يشير إلى الأخ: «إنه ليس هنا.»

فقال: «على الرغم من مغالاة هؤلاء النبلاء في الغرور فإنه يخشى أن يراني. أين الرجل الذي كان هنا؟ أدِرْ وجهي إليه.»

وفعلتُ ذلك، رافعاً رأسه على ركبتي. ولكن قوة خارقة دبت في جسده، موقتاً، فرفع نفسه على نحو كامل، مكرهاً إياي على أن أنهض أنا أيضاً، وإلا عجزت عن سنده.

ـ «أيها المركيز!» كذلك قال الفتى وقد التفت إليه محملقاً رافعاً يده اليمنى، «يومَ يُسأل الناس عن هذه الأشياء كلها، سوف أدعوك أنت وأعقابك حتى آخر رجل في سلالتك الخبيثة، أن تجيب عنها. إني أرسم هذا الصليب الدموي حولك، إيذاناً بأني سوف أفعل ذلك. وفي الأيام التي يجاب فيها عن هذه الأشياء كلها، سوف أدعو أخاك، وهو الوجه الأخبث في سلالة خبيثة، أن يجيب عنها على انفراد. إني أرسم هذا الصليب الدموي حوله إيذاناً بأني سوف أفعل.»

ومرتين وضع يده على الجرح الذي في صدره. وبسبابته رسم صليباً في الهواء ووقف لحظة وإصبعه ما تزال مرفوعةً، حتى إذا سقطت سقط معها، فمددتُهُ على الأرض فاقد الروح. ****

وحين عدتُ إلى فراش المرأة الشابة ألفيتها تهذي بمثل النظام والاطّراد اللذين هذت بهما من قبل. وعرفت أن ذلك قد يستمرّ عدة ساعات، وأن من المحتمل أن لا ينتهي إلا بصمت القبر.

وأعطيتها الأدوية عينها كرة أخرى، وقعدت على حافة الفراش حتى تقدم بنا الليل كثيراً. إنها لم تخفف من طبيعة صيحاتها الثاقبة، ولم تتعثر قط في وضوح كلماتها وتعاقبها. كانت دائماً: زوجي! أبي! أخي! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة، أحد عشر، إثنا عشر. هش!»

ودام ذلك ستاً وعشرين ساعة منذ اللحظة التي رأيتها فيها أول مرة. وكنت قد جئت وذهبت مرتين، وكنت جالساً إلى جانبها كرةً أخرى عندما بدأت تتلعثم. وفعلت كل ما كان في ميسوري أن أفعله. وشيئاً بعد شيء غرقت في سبات عميق وانطرحت وكأنها ميتة.

لكأن الريح والمطر قد سكنا آخر الأمر، بعد عاصفة طويلة مروّعة. وحررتُ يديها من عقالهما ودعوت المرأة إلى أن تساعدني على إعادة وجهها وثيابها التي مزقتها إلى حالتها الطبيعية. وعندئذ عرفت أنها في وضع من ظهرت عليها إمارات الأمومة الأولى. وعندئذ أيضاً فقدت ذلك الأمل الضئيل الذي كان لي في نجاتها.

وقال المركيز، الذي ما أزال أشير إليه بوصفه الأخ الأكبر، وقد دخل الغرفة منتعلاً حذاءه العالي الساق راجعاً من نزهة قام بها على متن فرسه: «هل ماتت؟»

فقلت: «لم تمت. ولكنها مشرفة على الموت.»

فقال خافضاً بصره نحوها في شيء من الفضول: «أيّ قوة تتمتع بها هذه الأجساد العامية!»

فأجبته: «هناك قوة هائلة في الحزن واليأس.»

وضحك لكلماتي أول الأمر، ثم عبس. وبإحدى قدميه قرّب كرسياً إلى كرسيّ، وأمر المرأة بالخروج، وقال في صوت مكبوح:

«أيها الطبيب، إني حين وجدت أن أخي يعاني هذه المتاعب مع ذينك الأجيرين اقترحت اللجوء إلى مساعدتك. إنك ذو شهرة عظيمة.

وبوصفك شاباً تعمل على بناء مستقبلك فمن الراجح أنك تفكر في مصلحتك. من أجل هذا، فإن الأشياء التي تراها هنا هي أشياء ينبغي أن تُرى ثم لا يُتحدث عنها بكلمة.»

وأصخت إلى أنفاس المريضة واجتنبت الإجابة.

ـ «أتشرفني بانتباهك يا دكتور؟»

فقلت: «من دأبي يا سيدي، أن أبقي جميع ما يُدلي إليّ به مرضاي، خلال قيامي بمهنتي، طيّ الكتمان.» وقد كنت متحفظاً في جوابي لأن ما سمعته ورأيته أوقع في عقلي القلق والاضطراب.

وكان تتبُّع أنفاسها عسيراً جداً حتى لقد عُنيت بأن أفحص النبض والقلب. كان ثمة حياة، ليس غير. وحين عدت إلى مقعدي وأجلت بصري في ما حولي رأيت الأخوين جميعاً يحدقان إليّ. ****

أنا أكتب في كثير من الصعوبة. فالبرد قارس جداً، وأنا خائف من أن أفاجأ على هذه الحال فأحبس تحت الأرض في حجيرة مظلمة تماماً بحيث يتعيّن عليّ أن أختصر هذه الرواية. ليس ثمة ضعف في ذاكرتي أو اختلاط. إن في استطاعتها أن تستحضر جميع التفاصيل وتستعيد كل كلمة دارت بيني وبين هذين الأخوين.

واستمرّت على ذلك أسبوعاً. وقبل النهاية، استطعت أن أسمع بعض المقاطع التي قالتها لي بأن وضعت أذني على مقربة من شفتيها. لقد سألتني أين هي، فأجبتها. وسألتني من أنا، فأجبتها. وسألتها عن اسم أسرتها، ولكن عبثاً. لقد هزت رأسها على الوسادة، وصانت سرها، فِعل أخيها من قبل.

ولم أجد فرصة تمكنني من أن أسألها أيما سؤال إلا بعد أن أخبرت الأخوين أنها تخطو نحو الموت خطواً سريعاً، وأنها لن تعيش يوماً آخر. كان أحدهما ـ حتى ذلك الحين ـ يجلس خلف الستارة القريبة من مقدّم السرير، كلما دخلتُ الغرفة، على الرغم من أن أحداً لم يُسمح له

بالاتصال بها غيري وغير تلك المرأة. ولكن ما إن انتهت إلى تلك الحال حتى بدا وكأنهما أمسيا لا يباليان بالأحاديث التي كان من المحتمل أن تدور بيني وبينها. لكأنني ـ وقد راودت تلك الفكرة خاطري ـ كنت أنا أحتَضَر أيضاً.

لقد لاحظت دائماً أن كبرياءهما تتبرم بهذه الواقعة: إن الأخ الأصغر (كما أدعوه) تصارع بالسيف مع فلاح، وأن ذلك الفلاح شابّ في أول العمر. لقد بدا لي وكأن الفكرة الوحيدة التي خامرت عقل أيّ منهما هي أن ذلك الصنيع يلحق بالأسرة أعظم العار، وأنه مدعاة للسخرية والتهكم. ولم تقع عيناي على عيني الأخ الأصغر مرة إلا ذكرتني نظرتهما أنه يبغضني أشد البغض بسبب من إني عرفت من الغلام ما عرفت. كان أكثر لطفاً معي من أخيه الأكبر، ولكني رأيت هذا. لقد رأيت كذلك أني كنت عبئاً يُثقل ذهن الأخ الأكبر أيضاً.

وماتت مريضتي قبل منتصف الليل بساعتين، في وقت يكاد يتطابق، وفقاً لساعتي، والدقيقة التي رأيته فيها أول مرة. ولم يكن أحد معي إلى جانبها، عندما هوى رأسها البائس الغضّ، في تؤدة ورفق، إلى جانب، وانتهت جميع أحزانها ومظالمها الدنيوية.

كان الأخوان ينتظران، فارغي الصبر، في غرفة من غرف الدور الأسفل، حتى يتسنى لهما السفر في الحال. لقد سمعتهما، وأنا وحدي عند جانب السرير، يصفعان حذاءيهما العاليين بسوطيهما ويذرعان الغرفة جيئة وذهوباً.

وقال الأكبر حين دخلت عليهما: «هل ماتت أخيراً؟»

فقلت: «لقد ماتت.»

فالتفت نحو أخيه وقال: «أهنئك، يا أخي.»

وكان قد عرض عليّ، قبل ذلك، مقداراً من المال أرجأت قبضه. فقدّم الآن إليّ صرة ذهب عمودية، فتناولتها من يده ولكني وضعتها على الطاولة. كنت قد فكرت في الأمر، وعزمت على أن لا آخذ شيئاً.

وقلت: «أرجوك أن تعذرني. لست أقبل ذلك في مثل هذه الظروف.»

وتبادلا النظرات، ولكنهما حنيا رأسيهما لي إذ حنيت رأسي لهما، وافترقنا من غير أن يقول أيّ منا كلمة واحدة. ****

أنا متعَب، متعَب ـ يهدّني الشقاء. أنا لا أستطيع أن أقرأ ما كتبتُه بهذه اليد المهزولة.

وفي الصباح الباكر تُركتْ صُرّة الذهب العمودية عند باب داري، وقد وُضعت في صندوق صغير، وخُط اسمي على ظاهرها. ومنذ البدء، كنت قد فكّرت في قلق واضطراب بالذي يتعين عليّ أن أفعله. ولقد عزمت ذلك اليوم على أن أكتب رسالة خاصة إلى الوزير أبلغه فيها طبيعة الحالتين اللتين دُعيت لمعالجتهما، والمكان الذي قصدتُ إليه، وأحدثه على الجملة بكل ما رأيت وسمعت. كنت أعلم أي نفوذ يتمتع به البلاط، والحصانة التي تعصم النبلاء، وتوقعت أن لا تظهر الحكومة أيما اهتمام بالحادث، ولكني أردتُ أن أريح ضميري. وكنت قد كتمت المسألة حتى عن زوجتي، وهذه الحقيقة أيضاً اعتزمتُ أن أنص عليها في رسالتي، ولم يخامرني خوف ما من أي خطر حقيقي، ولكني كنت أدرك أن ثمة خطراً على الآخرين إذا زوِّدوا بالوقائع التي أعرفها.

كنت مشغولاً جداً ذلك اليوم، ولم أستطع أن أتم رسالتي تلك الليلة. فنهضت في الصباح التالي أبكرَ من المعتاد بكثير، لكي أتمها. كان ذلك آخر يوم من أيام السنة. وكانت الرسالة منشورة أمامي، وقد أكمِلَت منذ لحظة، عندما قيل لي إن سيدة تنتظر، وأنها ترغب في مقابلتي. ****

أنا أغدو أقلّ قدرةً، يوماً بعد يوم، على النهوض بالمهمة التي ندبت نفسي لها. إن البرد قارس جداً، والمكان مظلم جداً. وإن حواسي خَدرةٌ إلى أبعد الحدود، والقتام الملمّ بي مروّع إلى أبعد الحدود.

كانت السيدة غضّة العود، جذابة، وسيمة، ولكنها غير مُعَدّة لأن

تعيش طويلاً. كانت في اهتياج بالغ. ولقد قدّمت نفسها إليّ بوصفها زوجة المركيز سان إيفريموند. وربطتُ ما بين اللقب الذي خاطب به الفتى الأخ الأكبر وبين الحرف المطرّز على الوشاح، فلم أجد صعوبة في أن أستنتج أني رأيت ذلك النبيل منذ وقت قريب جداً.

إن ذاكرتي لا تزال دقيقة، ولكني لا أستطيع أن أدوّن كلمات حديثنا. يخيّل إليّ أني مراقبٌ أكثر من ذي قبل، ولستُ أدري في أي وقت قد أراقب. وكانت قد عرفت ـ من طريق الشك حيناً ومن طريق الاكتشاف حيناً ـ مجمل القصة الوحشية، ونصيب زوجها فيها، واستعانة الأخوين بي كطبيب. إنها لا تعرف أن تلك الفتاة قد ماتت. وكانت ترجو، كما قالت لي في حزن شديد، أن تبدي عطفها الأنثوي عليها، سراً. كانت ترجو أن ترد غضب السماء عن أسرة كانت منذ زمن طويل بغيضة إلى نفوس جمهرة كبيرة من المعذبين.

وكانت لديها أسباب تحملها على الإعتقاد بأن لتلك المرأة المنكودة أخت صغيرة على قيد الحياة، وأن أعظم ما ترغب فيه هو أن تمد يد المساعدة إلى تلك الأخت. ولم أستطع أن أقول لها شيئاً أكثر من أن ثمة أختاً كهذه. هذا كل ما كنت أعرفه عن ذلك. وقالت لي إن الذي حدا بها إلى أن تزورني وتحدثني في هذا هو أملها في أن أتمكن من إعلامها باسم الفتاة ومقرّها. في حين أني حتى هذه الساعة التعسة أجهل كلاً من الاسم والمقر. ****

هذه القصاصات من الورق تخونني. لقد انتُزعت إحداها مني، أمس، مع تحذير. يجب أن أنهي قصتي اليوم.

كانت سيدة طيبة تفيض حناناً، ولم تكن سعيدة في زواجها. وكيف يمكن أن تكون! كان الأخ يرتاب فيها ويبغضها، وكان نفوذه كله موجّهاً ضدها. كانت تخافه خوفاً شديداً، وكذلك كانت تخاف زوجها. وحين شيعتُها إلى الباب وجدت طفلاً، طفلاً جميلاً يتراوح عمره ما بين الثانية والثالثة، في مركبتها.

وقالت وهي تومئ إليه دامعة العينين: «من أجله، يا دكتور، أراني مستعدة لأن أكفّر جهد طاقتي عما حدث. إنه لن يوفق في إرثه إن لم أفعل ذلك. إن شعوراً مسبقاً يوقع في نفسي أنه إذا لم يكفِّر عن ذلك تكفيراً بريئاً، الآن، فسوف يأتي يوم يُسأل فيه هو أن يقدم الكفّارة. من أجل ذلك سوف أوصيه بأن يكون أول عمل يأتيه بعد أن ألفظ الروح هو أن يقدّم إلى تلك الأسرة المظلومة كل ما بقي لي من ثروة خاصة ـ وهو قليل لا يعدو قيمة بضع جواهر ـ إذا كان في الإمكان العثور على الأخت الصغيرة.

وقبّلت الغلام وقالت مداعبةً إياه: «ذلك من أجلك، أيها الحبيب. ولسوف تكون وفياً، أليس كذلك يا تشارلز الصغير؟» فأجابها الطفل في شجاعة: «نعم!» وقبّلت يدها. وحملتْهُ بين ذراعيها، ومضت لسبيلها تلاطفه. ولم أرها بعد ذلك قط.

وإذ قد ذكرتْ اسم زوجها وهي معتقدة أني أعرفه، فلم أضف ذلك الاسم إلى رسالتي، ثم إني ختمت الرسالة وحملتُها بنفسي، ذلك اليوم، إلى الوزير، حرصاً مني على أن لا أعهد بها إلى أيما يد غريبة.

وفي تلك الليلة، آخر ليلة من ليالي السنة، في نحو الساعة التاسعة، قرع جرس داري رجل يرتدي ثوباً أسود، وطلب مقابلتي، ثم راح يرتقي السلّم في رفق، خلف خادمي الشاب، أرنست دوفارج. حتى إذا بلغ خادمي الغرفة التي كنت أجلس فيها مع زوجتي ـ أوه زوجتي، حبيبة فؤادي! زوجتي الإنكليزية الجميلة الشابة! ـ رأينا الرجل الذي كان مفروضاً فيه أن يكون لدى الباب، واقفاً خلف الخادم في صمت.

وقال: «هناك مريض في حال الخطر. شارع سان أونوريه.» إنه لن يأخذ كثيراً من وقتي، فقد كانت ثمة عربة في انتظارنا.

وجاءت بي تلك العربة إلى هنا، جاءت بي إلى قبري. ذلك بأني لم أكد أفارق المنزل حتى ألقي على وجهي، من خلاف، لثامٌ مُحكم، وأوثقتْ ذراعاي. وعبر الأخوان الطريق من زاوية مظلمة، وأثبتا هويتي

بإيماءة مفردة. ثم إن المركيز أخرج من جيبه الرسالة التي كنت قد كتبتُها، وأحرقها على ضوء مصباح مرفوع ساحقاً رمادها بقدمه. ولم يُتَلَفَّظْ بكلمة واحدة. وحُملتُ إلى هنا، حُملت إلى قبري في الحياة.

ولو شاء الله أن يُلين قلب أي من هذين الأخوين، طوال هذه السنين، فيبعث إليّ بأيما نبأ عن زوجتي العزيزة ـ بحيث أعرف ولو بكلمة واحدة أحية هي أم ميتة ـ إذن لجاز لي أن أعتقد بأن الله لم يتخلَّ عنهما بالكلية. ولكني أعتقد الآن أن إشارة الصليب الحمراء مهلكة لهما، وإنه ليس لهما من رحمة الله نصيب. وإني أنا، ألكسندر مانيت، السجين البائس، الرازح تحت ثقل من العذاب ليس يُحتمل أعلن في هذه الليلة الأخيرة من عام 1767، أني سوف أتهم ذينك الأخوين وأبناءهما وحفدتهما إلى آخر منتسب إلى سلالتهما يوم يُسأل كل امرئ عما قدمت يداه. إني أشكوهم إلى السماء والأرض.»

وثارت ضجة هائلة عقب الانتهاء من تلاوة هذه الوثيقة. أصوات ملحاحة متلهفة ليس فيها شيء جليّ غير الدم. فقد حركت الحكاية أحفل عواطف العصر بالانتقام. فليس في ميسور أيما رأس في البلاد أن يصمد أمامها.

وبعد ذلك لم تبق حاجة إلى أن يُظهر دوفاج في حضرة تلك المحكمة وذلك الحفل، كيف عزل هو وزوجته تلك الوثيقة عن مختلف ضروب التذكارات التي فاز بها القوم يوم سقوط الباستيل وساروا بها في موكب، وكيف أخفياها حتى الوقت المناسب. ولم تبق حاجة إلى النّص على أن اسم تلك الأسرة البغيض كان قد وُضع، عند أبناء سان أنطوان، تحت الحُرْم، ودوِّن في السجل المشؤوم. إن الرجل الذي تستطيع فضائله وخدماته أن تعصمه في ذاك المكان، ذلك اليوم، من مثل هذه النقمة العارمة، لم تطأ قدماه الأرض قط.

ومما زاد في سوء حظ الرجل الهالك أن متهمه كان مواطناً بعيد الشهرة، هو صديقه وحموه. وكان من مطامح الجمهور الهائجة أن تقلّد

فضائل العصور القديمة المشكوك فيها، وأن تُقدّم القرابينُ ويُضحّى بالنفس على مذبح الشعب. وهكذا لم يكد الرئيس يقول (ولو لم يفعل إذن لارتجف رأسه فوق كتفيه) إن طبيب الجمهورية الطيب خليق بأن يحرز احترام الجمهورية أكثر حين يساعد على استئصال أسرة ارستوقراطية بغيضة، وأنه لا شك يستشعر توهجاً وابتهاجاً مقدسين في ترميل ابنته وتيتيم طفلتها ـ لم يكد الرئيس يقول هذه الكلمات حتى أثارت في قاعة المحكمة حماسة وطنية واهتياجاً ضارياً، لا مسحةً من الرثاء والعطف الإنساني.

وغمغمت مدام دوفاج، مبتسمة للمرأة الموسومة بـ«الانتقام»: «إن لذلك الطبيب نفوذاً كبيراً من حوله؟ أنقِذْهُ الآن، يا طبيبي، أنقِذْهُ الآن!»

وكان هدير النظارة ينطلق كلما أدلى أحد المحلفين بصوته. لقد عَقِبَ الصوتُ الصوتَ، فعقب الهديرُ الهديرَ.

وبالإجماع صدر الحكم: ارستوقراطي قلباً ومحتداً؛ عدو للجمهورية؛ طاغية عُرف بظلمه للشعب. يعاد إلى الكونسيير جيري وينفذ فيه حكم الموت خلال أربع وعشرين ساعة!

ـ 11 ـ

الغسق

وصعق الحكم امرأة الرجل البريء البائسة، وكأنما أصابها بالضربة القاضية ولكنها لم تطلق صوتاً ما. ولقد كان الصوت الذي يضجّ في ذات نفسها، قائلاً إنها هي التي ينبغي لها من بين جميع الناس أن تسنده في بلائه لا أن تُثقل وطأة البلاء عليه ـ كان ذلك الصوت قوياً إلى درجة رفعتها وشيكاً، حتى من تلك الصدمة.

وإذ كان على القضاة أن يشاركوا في المظاهرات الشعبية في الشوارع فقد أرجئت الجلسة إلى موعد آخر. ولم تكن الضجة الغامرة والحركة العاجلة الناشئتان عن إفراغ القاعة نفسها قد هدأتا، عندما بسطت لوسي ذراعيها نحو زوجها؛ وليس في وجهها غير الحب والعزاء.

ـ «اسمحوا لي أن ألمسه! اسمحوا لي أن أعانقه مرة! أوه، أيها المواطنون الطيبون، ارحمونا!»

لم يكن قد بقي غير سجان واحد، مع اثنين من الرجال الذين استاقوه إلى السجن، الليلة البارحة، وبارساد. كان الحشد كله قد اندفع إلى الشارع ابتغاء التظاهر. واقترح بارساد على من بقي معه في القاعة قائلاً: «دعوها تعانقه إذن. إنها لحظة ليس غير.» ونزلوا عند رغبته صامتين. وأمرّوها من فوق مقاعد القاعة إلى موضع مرتفع حيث كان في ميسور المتهم، بالانحناء فوق الموقف الخاص بالمجرمين، أن يضمها بين ذراعيه.

ـ «وداعاً يا حبيبة روحي. إني أباركك قبل الرحيل. سوف نلتقي كرة أخرى، حيث المتعبون في راحة مقيمة.»

تلك كانت الكلمة التي قالها زوجها لها، وهو يضمها إلى صدره.

ـ «أستطيع أن أحتمل ذلك يا تشارلز. إن الله يؤيدني بروح من عنده. لا تبتئس من أجلي. بارك طفلتنا قبل الرحيل.»

ـ «إني أباركها بواسطتك. إني أقبّلها بواسطتك. إني أقول لها وداعاً بواسطتك.»

ـ «لا يا زوجي! لا! لحظة واحدة!» كان ينأى بنفسه عنها. «نحن لن نفترق طويلاً. أحس أن ذلك سوف يكسر قلبي عما قريب. ولكني سوف أنهض بواجبي ما دامت لي القدرة على هذا. وحين أفارقها يقيّض الله لها أصدقاء، كما قيّض الله لي.»

وكان والدها قد لحق بها، وأوشك أن يركع لها ولصهره، ولكن دارني بسط يده وصدّه عن ذلك صائحاً:

«لا، لا! ماذا عملتَ حتى تركع لنا! نحن نعرف الآن أيّ صراع خضته قديماً. نحن نعرف الآن أي عذاب تحملت حين شككت في نسبي وحين عرفته. نحن نعرف الآن البغض الطبيعي الذي ناضلت ضده، وتغلبت عليه، إكراماً لابنتك العزيزة. إننا نشكرك من صميم فؤادينا، ونرفع إليك كل حبنا واحترامنا. وليكن الرب معك!»

وكان جواب أبيها أن أمرّ يديه خلال شعره الأشيب، ثم شبكهما مطلقاً صيحة من الألم المبرّح.

وقال السجين: «ما كان في الإمكان أن تسير الأمور على غير هذا النحو. لقد تفاعلت الأشياء كلها لتنتهي إلى هذه الغاية. ولقد كانت جهودي العابثة إلى أن أفي بما عاهدت أمي عليه هي التي ساقت قدمي المشؤومتين، أول ما ساقتهما، نحوكم. إن الخير ما كان ممكناً أن ينشأ عن مثل هذا الشر، وأن مثل تلك البداية التعسة ما كان طبيعياً أن تؤدي إلى نتيجة أسعد من هذه. لا تبتئس، واغفر لي. ولتباركك السماء!»

حتى إذا جاء الجند ليستاقوا دارني إلى السجن، خلّته ذراعا لوسي، ووقفت ترنو إليه وقد تماسّت يداها في مثل الصلاة، وعلت محياها سيما متألقة كانت فيها حتى ابتسامة مسرّية. . وحين خرج من باب السجناء، استدارت، ووضعت رأسها، في محبّة، على صدر أبيها وحاولت أن تكلمه، وسقطت على قدميه.

عندئذ انبثق سيدني كارتون من الزاوية المظلمة التي لم يتحرك منها قطّ، وسارع إلى إنهاضها. لم يكن معها غير أبيها ومستر لوري. وارتجفت يده وهي ترفعها، وأسندت رأسها. ومع ذلك فقد كانت على وجهه انطباعة ليست إشفاقاً كلها ـ ولكنها مشوبة بتورّد الزهو والافتخار.

ـ «هل أنقلها إلى عربة! إن حِملها لن يرهقني أبداً.»

وحملها في رشاقة إلى الباب، ووضعها، برفق، في العربة. وامتطى أبوها وصديقهما القديم متن العربة، واتخذ هو مكاناً له إلى جانب السائق.

وحين انتهوا إلى باب الدار الخارجي حيث سبق له أن تمهل في الظلام قبل بضع ساعات ليس غير ليسير على حجارة الشارع الخشنة حيث سارت قدماها ـ حين انتهوا إلى هناك رفعها كرة ثانية وارتقى بها السّلم إلى بيتهم. وهناك مدّدها على الفراش، وراحت طفلتها ومس بروس تبكيان من فوقها.

وفي رفق قال لمس بروس: «لا تحاولي إيقاظها. من الخير لها أن تظل هكذا. لا تعملي على أن تعيدي إليها الوعي، فهي في حالة إغماء ليس غير.»

وصاحت لوسي الصغيرة واثبة على قدميها، طارحة ذراعيها حوله في انفعال وهي تنفجر حزناً وأسى: «أوه، كارتون، كارتون، يا عزيزي كارتون! ما دمتَ قد جئتَ فأعتقد أنك سوف تفعل شيئاً لمساعدة ماما، شيئاً لإنقاذ بابا! أوه، أنظر إليها، يا كارتون العزيز. هل تستطيع، من بين جميع الناس الذين يحبونها، أن تتحمل رؤيتها على هذه الحال؟»

وانحنى فوق الطفلة، ووضع خدها المنوِّر على خده. ثم إنه أبعدها عنه في رفق، ونظر إلى أمها الفاقدة الرشد.

«قبل أن أذهب. . .» قال ذلك ثم تمهّل، «هل أستطيع أن أقبّلها؟»

لقد تذكّر القوم في ما بعد أنه حين انحنى ومسّ وجهها بشفتيه غمغم ببضع كلمات. إن الطفلة التي كانت أشدهم قرباً منه أنبأتهم بعد، وأنبأت حفدتها يومَ غدت سيدة عجوزاً مليحة الوجه، أنها سمعته يقول: «حياة تحبينها.»

حتى إذا خرج إلى الغرفة المجاورة، استدار فجأة نحو مستر لوري والدكتور مانيت اللذين تبعاه، وقال للطبيب:

ـ «لقد كان لك نفوذ عظيم، أمس، يا دكتور مانيت، حاول أن تجرّب هذا النفوذ، على الأقل. هؤلاء القضاة، والرجال المسيطرون على مقاليد الحكم، تربطهم بك صداقة قوية، وكلهم يقدرون خدماتك حق قدرها، أليس كذلك؟»

فأجابه الطبيب في اضطراب عظيم، وبطء بالغ: «إنهم لم يُخفوا عني شيئاً يتصل بتشارلز. لقد قدّموا إليّ أقوى التوكيدات على أني سوف أنقذه. ولقد فعلْتُ.»

ـ «عُد إليهم كرة ثانية وحاول إقناعهم. إنه لا يفصلنا عن ظهيرة الغد غير بضع ساعات قصار، ولكن حاول.»

ـ «إني أعتزم أن أحاول. أنا لن أهدأ لحظة.»

ـ «حسن. لقد عرفتُ طاقات من مثل طاقاتك تفعل أشياء عظيمة قبل اليوم وإن لم توفق قط»، كذلك أضاف في ابتسامة وزفرة في آنٍ معاً، «إلى شيء عظيم مثل هذا. ولكن حاول! إن الأمر يستحق هذا الجهد بقدر ما لا تستحق الحياة جهداً ما حين نسيء استعمالها. ولولا ذلك لما كان القعود والاستهتار يكلّفان شيئاً.»

فقال الطبيب: «سوف أذهب إلى النائب العام وإلى الرئيس مباشرة،

وسوف أذهب إلى آخرين من الخير أن لا أسميهم. وسوف أكتب أيضاً و. . . ولكن انتظر! هناك احتفالات في الشوارع، ولن يكون في إمكاني أن أصل إلى أحد من هؤلاء حتى يهبط الليل.»

ـ «هذا صحيح، حسناً. إنه لأمل يائس، في أحسن الأحوال، ولن يزيده يأساً أن يؤخّر حتى العتمة. أنا أحب أن أعرف مدى نجاحك في هذا المسعى، وإن كنت لا أتوقع شيئاً! متى تنتظر أن يتمّ اجتماعك بذوي النفوذ الراعبين هؤلاء يا دكتور مانيت؟»

ـ «أرجو أن يتمّ ذلك عقب العتمة مباشرة. يعني بعد ساعة أو ساعتين.»

ـ «إن الليل يهبط بعد الرابعة بقليل. ولنؤخر الموعد ساعة أو ساعتين. إذا قصدتُ إلى مكتب مستر لوري في الساعة التاسعة فهل أستطيع أن أعرف ما الذي فعلتَهُ، سواء من صديقنا أو منك؟»

ـ «نعم.»

ـ «أتمنى لك التوفيق!»

ولحق مستر لوري بسيدني كارتون إلى الباب الخارجي. حتى إذا مسّه من كتفه فيما هو يمضي لسبيله استدار ليرى ماذا يريد.

ـ «ليس عندي أملٌ ما.» كذلك قال مستر لوري في همسٍ خفيض محزون.

ـ «وأنا أيضاً.»

ـ «لنفرض أن أياً من هؤلاء الرجال، أو جميع هؤلاء الرجال راغبون في إنقاذه ـ وهو افتراض أقصى، إذ أي قيمة لحياته، أو لحياة أي إنسان، عندهم! ـ فإني أشك في ما إذا كانوا يجرأون على أن يفعلوا ذلك بعد المظاهرة التي جرت في المحكمة.»

ـ «وكذلك أنا. لقد سمعت سقوط شفرة المقصلة في ذلك الصوت.» وأسند مستر لوري ذراعه إلى عمود الباب، وحنى وجهه فوقه.

وفي رفق بالغ، قال كارتون: «لا تقنط. لا تبتئس. لقد شجعتُ الدكتور مانيت على القيام بهذا المسعى لأني شعرت أن ذلك قد يوقع في قلبها العزاء ذات يوم. وإلاّ فقد تعتقد أن حياته قد «هُدرت هدراً، أو أُهملت في غير مبالاة وفي ذلك ما يقلقها.»

فأجاب مستر لوري، مكفكفاً عبراته: «أجل، أجل، أجل. أنت على صواب. ولكنه سوف يموت. ليس ثمة أمل حقيقي.»

فرجّع كارتون: «أجل، سوف يموت. ليس ثمة أمل حقيقي.» وهبط السلّم بقَدم ثابتة.

ـ 12 ـ

الظلمة

تمهّل سيدني كارتون في الشارع غير عالم على وجه الضبط إلى أين يمضي. وقال، وعلى وجهه أمارات التفكير: «في مصرف تلسون، عند الساعة التاسعة. هل من الخير لي، في غضون ذلك، أن أعلن عن نفسي؟ أحسب هذا. إنه لمن الأفضل أن يعرف هؤلاء الناس أن رجلاً مثلي موجود هنا. ذلك احتياط سليم، وقد يكون استعداداً ضرورياً. ولكن حذار، حذار، حذار! دعني أفكر في الأمر!»

وإذ كبح خطواته التي نزعت إلى أن تتجه نحو هدف ما، انعطف مرةً أو مرتين في الشارع الذي كان الظلام قد بدأ يغزوه وتتبّع الفكرة في ذهنه إلى نتائجها المحتملة. وأيّدت انطباعتُه الأولى. وقال وقد وطّن العزم آخر الأمر: «من الأفضل أن يعرف هؤلاء الناس أن رجلاً مثلي موجود هنا.» وأدار وجهه نحو سان أنطوان.

كان دوفارج قد وصف نفسه، ذلك اليوم، بقوله إنه صاحب حانة في ضاحية سان أنطوان. ولم يكن عسيراً على من يعرف المدينة جيداً أن يهتدي إلى بيته من غير أن يسأل سؤالاً ما. وإذ تأكد كارتون من موقعه غادر تلك الشوارع الأشد ضيقاً، كرة أخرى، وتناول طعام العشاء في أحد المطاعم، ثم غرق في نوم عميق. ولأول مرة منذ سنوات عديدة لم يشرب خمراً قوية. ولم يكن قد ذاق، منذ الليلة البارحة، غير قليل من الخمر الملطّفة بالماء؛ وكان قد سفح كأس البراندي، الليلة البارحة، في بطء، فوق موقد مستر لوري، مثل رجل أقلع عن الشراب.

ولم يفق من سباته إلا في الساعة السابعة، واندفع كرةً أخرى نحو الشارع خفيفاً نشيطاً. وفي طريقه إلى سان أنطوان، وقف عند حانة فيها مرآة، فعدّل وضع ربطة عنقه المتهدلة المشوّشة، وياقة سترته، وشعره المضطرب غير المشذّب تعديلاً طفيفاً. حتى إذا تم له ذلك اتخذ سبيله نحو حانة دوفارج مباشرة، ودخلها.

واتفق أن لم يكن في الحانة أحد من الزبائن غير جاك رقم ثلاثة ذي الأصابع التي لا تهدأ والصوت الناعب. وكان ذلك الرجل الذي رآه كارتون بين المحلفين، واقفاً يشرب الخمر أمام المنضدة الصغيرة، ويتحدث إلى دوفارج وزوجته. وشاركت «الانتقام» في الحديث، مثل عضو نظاميّ في المؤسسة، حتى إذا دخل كارتون الحانة، واتخذ مكانه فيها، وطلب (في فرنسية رديئة جداً) مقداراً صغيراً من الخمر، ألقت مدام دوفارج عليه نظرة لا تنطوي على شيء من الاهتمام، ثم أتبعتها بنظرة ثاقبة، ثم بأخرى فاقت سابقتيها حدّة، وتقدمت نحوه بنفسها، وسألته ما يطلب.

وكرّر ما سبق له أن قاله.

فتساءلت مدام دوفارج وهي ترفع حاجبيها الأسودين في فضول: «انكليزي؟»

وبعد أن نظر إليها وكأن تلك الكلمة الفرنسية الواحدة ذاتها كانت بطيئة في الكشف عن نفسها أمامه، أجاب في رطانته الأجنبية الصارخة التي اصطنعها من قبل: «نعم، يا سيدتي. نعم، أنا إنكليزي!»

وعادت مدام دوفارج إلى منضدتها لتُعدّ له الخمر. وفيما هو يتناول إحدى صحف «اليعاقبة(*)» ويتظاهر بإمعان النظر فيها ابتغاء حلّ رموزها سمع السيدة تقول: «أقسم لك، إنه يشبه إيفريموند!»

(*) هو الحزب الثوري الذي سيطر على فرنسة ابتداء من سنة 1793 وعرف عهده بعهد الإرهاب. (المعرب).

وحمل دوفارج الخمر إليه، وحياه تحية المساء.

ـ «ماذا؟»

ـ «طاب مساؤك.»

ـ «أوه! طاب مساؤك، أيها المواطن.» وملأ قدحه وأردف: «إنها خمر جيدة. أنا أشرب نخب الجمهورية.»

وانقلب دوفارج إلى المنضدة وقال: «إنه يشبهه قليلاً، من غير شك.» فأجابت السيدة في تجهم: «أقول لك إنه يشبهه كثيراً.» فلاحظ جاك رقم ثلاثة محاولاً تهدئتها: «إنك تفكرين فيه كثيراً يا سيدتي، حتى لقد انطبعت صورته في ذهنك.» وأضافت «الانتقام» الفاتنة الودود: «أجل، يا إلَهي، وإنك لتتلهفين في كثير من اللذة إلى أن تشاهديه غداً، كرةً أخرى!»

وتتبع كارتون أسطر صحيفته وكلماتها، بسبّابة متمهلة، وبوجهٍ متمعّن مستغرق. لقد تحلقوا كلهم حول المنضدة، مسندين أذرعهم إليها، متحدثين في صوت خفيض. وبعد صمت دام لحظات أنفقوها في النظر إليه من غير أن يصرفوا انتباهه الخارجي عن الصحيفة اليعقوبية، استأنفوا الحديث.

ولاحظ جاك رقم ثلاثة: «ما تقوله السيدة صحيح. لماذا نتوقف؟ إن كلامها ذاك مقنع جداً. لماذا نتوقف؟»

فقال دوفارج: «حسناً، حسناً، ولكن على المرء أن يتوقف عند نقطة ما، وأياً ما كان، فلا يزال علينا أن نحدد هذه النقطة.»

فقالت السيدة: «لن نقف حتى نستأصل شأفتهم.»

فنعب جاك رقم ثلاثة: «رائع!» وكذلك أعلنت «الانتقام» موافقتها التامة.

فقال دوفارج وكأن شيئاً من القلق قد استولى عليه: «الاستئصال مذهب جيد، يا زوجتي. ولست أقول شيئاً ضده، على العموم. ولكن

هذا الطبيب قد قاسى كثيراً. لقد رأيته اليوم. لقد لاحظت وجهه عندما تُليت الورقة.»

فكررت مدام دوفارج في استخفاف وغضب: «لقد لاحظتُ وجهه! أجل، لقد لاحظت وجهه. لقد لاحظت أن وجهه ليس وجه صديق مخلص للجمهورية. دعه يُعنى بوجهه!»

فقال دوفارج في توسّل وأسف: «ولقد لاحظتِ، يا زوجتي، آلام ابنته المبرّحة التي لا يشك أحد في أنها أورثته آلاماً مروّعة!»

فكررت السيدة: «لقد لاحظتُ ابنته. أجل، لقد لاحظت ابنته أكثر من مرة. لقد لاحظتها اليوم، ولاحظتها في أيام أخرى. لقد لاحظتها في المحكمة ولاحظتها في الشارع قرب السجن. دعني أرفع إصبعي...!» وبدت وكأنها ترفعها (كانت عينا المستمع مسمّرتين دائماً على صحيفته) ثم تدعها تسقط مدوّية على حافة المنضدة، وكأن شفرة المقصلة قد سقطت.

ونعب المحلَّف: «إن المواطنة عظيمة!»

فقالت «الانتقام»: «إنها ملاك!» وعانقتها.

وفي عناد تابعت السيدة دوفارج حديثها، موجّهةً الخطاب إلى زوجها: «أما في ما يتصل بك فليس عندي شك في أنه لو كانت مقاليد الأمور بيدك ـ ومن حسن الحظ أنها ليست بيدك ـ إذن لسارعتَ إلى إنقاذ هذا الرجل في هذه اللحظة بالذات.»

فاحتج دوفارج قائلاً: «لا! حتى ولو كان رفعُ هذه الكأس يؤدي إلى ذلك! ولكني أودّ أن نقف عند ذلك الحدّ، أقول، أن نقف عند ذلك الحد.»

فقالت مدام دوفارج وهي تتميز من الغضب: «إنتبه إذن، يا جاك، وانتبهي أنت أيضاً يا «انتقامي» الصغيرة. انتبها كلاكما! إسمعا! لقد دونتُ اسم هذه السلالة، منذ زمن بعيد، في سجلي، وحكمت عليها

بالموت واستئصال الجذور لجرائم غير الطغيان والبغي. اسألا زوجي أليس هذا صحيحاً؟»

فأقرّها دوفارج على قولها، من غير أن يُسأل: «هذا صحيح.»

ـ «في فجر تلك الأيام العظيمة، عندما سقط الباستيل، عثر على الوثيقة التي تُليت اليوم في المحكمة، وحملها إلى البيت. وفي منتصف الليل حين يخلو هذا المكان من قصاده ويُغلق بابه، قرأناها هنا في هذه البقعة؛ على ضوء هذا المصباح. اسألاه، أليس هذا صحيحاً؟»

فقال دوفارج: «هذا صحيح.»

ـ «وفي تلك الليلة قلتُ له، عندما فرغنا من قراءة الورقة، ونفد زيت المصباح، وأخذ الصبح يومض من خلال هذه النوافذ الخشبية والقضبان الحديدية، في تلك الليلة قلت له إن لديّ سراً أحب أن أبوح له به، اسألاه، أليس هذا صحيحاً؟»

فقال دوفارج مكرراً: «هذا صحيح.»

ـ «وبحتُ له بذلك السرّ. لقد لطمتُ صدره بهاتين اليدين كما ألطمه الآن، وقلت له: «دوفارج، لقد نشأتُ بين صيادي السمك على شاطئ البحر، وتلك الأسرة الريفية التي أنزل بها هذان الأخوان من آل ايفريموند هذا الأذى كله، كما تصف ورقة الباستيل هذه، هي أسرتي. دوفارج، إن أخت ذلك الغلام الذي أصيب بذلك الجرح القاتل هي أختي، وذلك الزوج هو زوج أختي، وذلك الطفل الذي لم يولد هو طفلهما، وذلك الأخ هو أخي، وذلك الأب هو أبي، وأولئك الموتى هم مَوْتاي. وهذا يقتضيني الانتقام لهذه المظالم التي نزلت بي. اسألاه، أليس هذا صحيحاً؟»

فقال دوفارج كرة أخرى: «هذا صحيح.»

ـ «إذن، قل للريح والنار أين ينبغي لهما أن تقفا، ولكن لا تقل ذلك لي.»

وعرا كلاً من سامعَيْها ابتهاج رهيب من طبيعة غضبها المهلك ـ وكان في ميسور السامع أن يستشعر إلى أي حد غار الدم في وجهها ـ وأثنى كلاهما عليها ثناء عظيماً. وأقحم دوفارج، وكان أقليةً ضعيفة، بضع كلمات ذكرهم فيها بزوجة المركيز ذات القلب الرقيق، ولكن ذلك لم ينتزع من زوجته غير جوابها الأخير: «قل للريح والنار أين ينبغي لهما أن تقفا، ولكن لا تقل ذلك لي.»

ودخل الحانة بعض الزبائن، وانفض الجمع من حول المنضدة. ودفع الزبون الإنكليزي ثمن ما شرب من خمر. وفي ارتباك، عدّ بقية المال التي أعيدت إليه، وسأل بوصفه أجنبياً، أن يُدَلّ على «القصر الوطني». فقادته مدام دوفارج إلى الباب، ووضعت ذراعها على ذراعه، وهدته إلى الطريق. وراودت الزبون الانكليزي، آنئذٍ، خواطر تقول بأن من الخير أن يقبض على تلك الذراع، ويرفعها، ويطعن ما تحتها طعنة حادة عميقة.

ولكنه مضى لسبيله، وما هي إلا فترة حتى ابتلعه ظل جدار السجن. وفي الموعد المضروب انبثق منه ليبرز في غرفة مستر لوري كرّة أخرى، حيث وجد الرجل العجوز يذرع المكان جيئة وذهوباً في جزع قلق. لقد قال إنه مكث حتى ذلك الحين مع لوسي، ولم يتركها إلا لبضع دقائق كي يأتي ويجتمع إليه كما وعد. وإنهما لم يريا الدكتور مانيت منذ غادر المصرف حوالي الساعة الرابعة. كانت تأمل في أن تنجح وساطته في إنقاذ تشارلز، ولكن آمالها تلك كانت واهنة. لقد انقضت على ذهابه خمس ساعات. ففي أي مكان يمكن أن يكون؟

وانتظر مستر لوري حتى العاشرة. وإذ لم يرجع الدكتور مانيت، وإذ كان هو غير راغب في أن يترك لوسي فترة أطول، فقد قر رأيهما على أن ينقلب إليها، على أن يرجع إلى المصرف من جديد عند منتصف الليل. وفي خلال ذلك ينتظر كارتون وحده، عودة الطبيب، قرب النار.

وانتظر، وانتظر ودقت الساعة الثانية عشرة؛ ولكن الدكتور مانيت لم

يرجع. وعاد مستر لوري غير مزود بأيما نبأ عنه. ففي أي مكان يمكن أن يكون؟

وكانا يحاولان الإجابة عن هذا السؤال، ذاهبين إلى حد تعليق بعض الأمل الواهي على غيابه المتطاول، عندما سمعا وقع قدميه على السلم، ولم يكد يدخل الغرفة حتى اتضح لهما أن كل شيء قد انتهى.

لم يدر أحد قط ما إذا كان قد اتصل بأي رجل من رجال السلطة، أم أنه قضى الوقت كله يذرع الشوارع. وحين وقف محدّقاً إليهما، لم يوجها إليه سؤالاً ما، لأن وجهه أنبأهما بكل شيء.

وقال: «أنا لا أستطيع أن أجدها؛ وينبغي أن أحصل عليها. أين هي؟»

كان حاسراً عن رأسه وأعلى صدره. وبينما كان يتحدث مجيلاً في ما حوله طرفاً ذاهلاً، نزع سترته وطرحها على الأرض.

ـ «أين منضدة عملي؟ لقد بحثت عنها في كل مكان، ولكني لم أجدها. ما الذي فعلوه بعملي؟ الوقت يزحمني، ويجب أن أنجز ذلك الحذاء.»

ونظر كل منهما إلى الآخر، وتفطّر قلباهما في صدريهما.

وقال في صوت خافت منتحب يدعو إلى الرثاء: «هيا، هيا! دعوني أنصرف إلى عملي! اعطوني عملي!»

حتى إذا لم يلقَ جواباً، أنشأ يشد بشعره، ويضرب الأرض بقدميه، مثل طفل مخبول.

وتوسل إليهما في صيحة مروّعة: «لا تعذبوا قلب بائس مسكين، ولكن أعطوني عملي! ما الذي سيحل بنا إذا لم يُنجز ذلك الحذاء الليلة؟»

لقد ضاع. ضاع ضياعاً كاملاً!

كان واضحاً جداً أن لا نفع في مناقشته أو في محاولة إعادته إلى الوضع الطبيعي، بحيث أن كلاً منهما ـ وكأنما كان ذلك باتفاق بينهما ـ

وضع يده على كتف الطبيب، وعمل على تهدئته وإقناعه بالجلوس قرب النار، واعداً بأن يأتيه بعمله في الحال. وألقى بنفسه في الكرسي، وراح يتأمل في الجمرات، ويسفح العبرات. ورآه مستر لوري ينكمش إلى تلك الصورة التي احتفظ بها دوفارج في علّيته، وكأن كل ما حدث منذ ذلك الحين لم يكن غير وهم مؤقت، أو حلم من الأحلام.

لقد غلب عليهما التأثر والذعر عندما وقعت أعينهما على هذا المشهد البائس، ولكن ذلك لم يكن هو وقتَ الاستسلام لمثل هذه الانفعالات. وتراءت لهما ابنته الوحيدة، وقد ثكلت أملها وسنادها الأخيرين، مستنجدةً مستصرخة. ومرّةً ثانية، وكأنما كان ذلك باتفاق في ما بينهما، نظر كل منهما إلى الآخر، وقد نمّ وجهاهما عن معنى واحد. وكان كارتون أسبق إلى الكلام:

لقد ضاع الأمل الأخير، ولم يكن أملاً قوياً. أجل، من الخير أن نأخذه إليها. ولكن هل لك، قبل أن نذهب، أن تصغي إليّ لحظة واحدة إصغاء موصولاً! لا تسلني لماذا أضع الشروط التي أعتزم أن أضعها، وأنتزع الوعد الذي أعتزم أن أنتزعه. إن لديّ سبباً يدعوني إلى ذلك ـ سبباً قوياً.»

فأجابه مستر لوري: «لست أشك في هذا. قل ما بدا لك.»

كانت الصورة القاعدة في الكرسي الفاصل ما بينهما تهز نفسها طوال الوقت هزاً رتيباً ذات اليمين وذات الشمال، وتئنّ وتنتحب. فتحدثا بمثل تلك النبرة التي كانا سيتحدثان بها لو أنهما كانا ساهرين قرب سرير أحد المرضى في موهن من الليل.

وتوقف كارتون ليرفع سترة الطبيب التي كانت تضايق قدميه. وفيما هو يفعل ذلك سقطت على الأرض محفظة صغيرة كان من عادة الطبيب أن يضع فيها لائحة بواجباته اليومية. ورفعها كارتون. فإذا فيها ورقة مطوية.

وقال: «يجب أن نقرأها!»

وأومأ مستر لوري برأسه موافقاً. ونشر كارتون الورقة وصاح: «شكراً لله!»

فتساءل مستر لوري في لهفة: «ماذا في تلك الورقة؟»

ـ «لحظةً واحدة! دعني أتحدث عنها في موضعها. قبل كل شيء،» ووضع يده في سترته وأخرج منها ورقة أخرى، «هذه هي الورقة التي ستمكنني من مغادرة هذه المدينة. أنظر إليها. ماذا تجد! سيدني كارتون، إنكليزي. أليس كذلك؟»

وأمسك مستر لوري بالورقة منشورة في يده، محدقاً إلى وجهه الصادق الجاد.

ـ «أبقِها معك حتى غد. أنت تذكر أني سوف أراه غداً، ومن الخير لي أن لا آخذها معي إلى السجن.»

ـ «ولم لا؟»

ـ «لست أدري. أنا أفضّل أن لا آخذها. والآن، خذ هذه الورقة التي كان الدكتور مانيت يحملها في جيبه. إنها شهادة مماثلة تمكّنه هو وابنته وطفلتها من أن يجتازوا باب المدينة، والحدود في أي وقت من الأوقات. أرأيت؟»

ـ «نعم.»

ـ «لعله حصل عليها أمس لتكون آخر احتراس يقيه غوائل الشر. ما التاريخ الذي تحمله؟ ولكن لا تمكث لترى. ضمها في عناية إلى ورقتي وورقتك. والآن أنظر! أنا لم أشك إلا منذ ساعة أو ساعتين، في أنه قد حصل، أو في أن بإمكانه أن يحصل، على مثل هذه الورقة. إنها حسنة، ما لم تُستردّ. ولكنها قد تُسترد وشيكاً، ولديّ من الأسباب ما يجعلني أعتقد أنهم سوف يستردونها.»

ـ «إنهم ليسوا في خطر؟»

ـ «إنهم في خطر شديد. إنهم في خطر من اتهام مدام دوفارج. لقد

عرفتُ ذلك من شفتيها. لقد سمعتُ كلمات نطقت بها تلك المرأة، الليلة، فتمثلت الخطر عليهم في ألوان صارخة. أنا لم أضع شيئاً من الوقت، ومنذ ذلك الحين اتصلت بالجاسوس، فأكد لي ذلك. إنه يعرف أن ناشر حطب مقيماً قرب سور السجن، خاضعاً لسلطان دوفارج وزوجته، قال لمدام دوفارج إنه قد رآها» ـ إنه ما كان يذكر اسم لوسي أبداً ـ «تُوجه بعض الإشارات إلى السجناء. ومن اليسير على المرء أن يتنبأ بأنهم قد يرمونها بالتهمة المعروفة، تهمة التآمر من أجل الفرار من السجن، وقد يذهب ذلك بحياتها ـ وربما بحياة ابنتها ـ بل وبحياة أبيها أيضاً، لأنهما شوهدا معها في ذلك المكان. لا تخف إلى هذا الحد. إنك سوف تُنجيهم جميعاً.»

ـ «فليهبني الله القوة على ذلك، يا كارتون! ولكن كيف؟»

ـ «سوف أخبرك كيف. إن الأمر مرهون بك، وما كان يمكن أن يكون مرهوناً برجل خيرٍ منك. ولا ريب في أن هذا الاتهام الجديد لن يقع قبل غد، ولعله أن لا يقع إلا بعد يومين أو ثلاثة، بل بعد أسبوع من ذلك في الأغلب. أنت تعلم أن العطف على ضحية من ضحايا المقصلة أو الانتحاب عليه جريمة عقابها الموت. ولسوف تُتهم هي وأبوها، من غير شك، بهذه الجريمة؛ ويمكن لتلك المرأة (التي لا أستطيع أن أصف صلابتها ومثابرتها العنيدة) أن تنتظر لتضيف هذه الدعامة إلى قضيتها، وتستوثق من أمرها على نحو مضاعف. هل تتابعني؟»

ـ «في انتباه بالغ، وفي كثير من الثقة بما تقول، إلى حد جعلني أفقد القدرة على أن أرى،» ـ وهنا مسّ ظهر كرسي الطبيب ـ «حتى هذا البؤس.»

ـ «إن لديك مالاً، وفي ميسورك أن تشتري وسائل السفر إلى شاطئ البحر بأسرع ما يمكن للمرء أن يقوم بتلك الرحلة. لقد أعددت عدّتك للسفر إلى إنكلترة منذ بضعة أيام. فأعدّ خيلك في ساعة مبكرة من صباح الغد، لكي تكون على أهبة السفر في الساعة الثانية بعد الظهر.»

ـ «وهو كذلك!»

كانت هيئته متقدة موحية إلى درجة مسّت نارها مستر لوري، فإذا هو رشيق كالشباب.

ـ «إنك قلب نبيل. ألم أقل إننا ما كان يمكن أن نتكل على رجل خير منك؟ أخبرها هذه الليلة بالذي عرفته عن الخطر المحدق بها بوصفه خطراً قد يتسع نطاقه فيشمل ابنتها وأباها. أسهب في الكلام على هذه النقطة لأنها يمكن أن تضع رأسها الجميل إلى جانب رأس زوجها في رضا وابتهاج.» وتلعثم لحظة، ثم أردف: أكِّد لها أن من الضروري، إكراماً لابنتها ولأبيها، أن تغادر باريس معهما ومعك، في تلك الساعة. قل لها إن هذه هي آخر رغبة من رغبات زوجها. قل لها إنه يتوقف على هذا أشياء أكثر بكثير مما تجرؤ على أن تعتقده أو تأمل فيه. هل تظن أن أباها، حتى في حالته المحزنة هذه، سوف ينصاع لها؟»

ـ «أنا واثق من ذلك.»

ـ «هذا ما بدا لي. قم بجميع هذه الاستعدادات، في سكون وثبات، هنا في فناء هذه الدار، ولا تنس أن تتخذ أنت نفسك مكانك في العربة. حتى إذا أقبلتُ، ضعني في مكاني منها وانطلق إلى خارج المدينة.»

ـ «هل أفهم من كلامك أن عليّ أن أنتظرك مهما تكن الظروف؟»

ـ «إن ورقتي بين يديك مع سائر الأوراق، كما تعرف، ولسوف تحتفظ لي بمكاني. لا تنتظر شيئاً غير هذا: أن يُشغل مكاني الشاغر. ثم انطلق إلى انكلترة.»

فقال مستر لوري وهو يمسك بيده المتلهفة، ولكن الثابتة غير المضطربة:

«وعندئذ لن يكون كل شيء مرهوناً برجل عجوز، ولكن سوف يكون إلى جانبي رجل شاب ملتهب الحماسة.»

ـ «أجل، سوف يتم ذلك بعون من الله! أقسمْ لي إن شيئاً مهما يكن لن يحملك على أن تعدّل الخطة التي نتعهد الآن بتنفيذها.»

ـ «لن يحملني على ذلك شيء يا كارتون.»

ـ «تذكّرْ هذه الكلمات غداً: إن أيما تغيير في الخطة أو إعاقة لها، مهما يكن السبب، يعني الإخفاق في إنقاذ حياة ما، وتضحية أرواح كثيرة على وجه حتميّ.»

ـ «سوف أذكرها. أرجو أن أقوم بدوري في إخلاص.»

ـ «وكذلك أرجو أن أقوم أنا بدوري. والآن، أستودعك الله!»

وعلى الرغم من أنه قال هذه الكلمات بابتسامة جادة كئيبة، وعلى الرغم من أنه رفع يد الرجل العجوز إلى شفتيه فإنه لم يفارقه تلك اللحظة. لقد ساعده على إيقاظ الطبيب المترنح ذات اليمين وذات الشمال أمام الجمرات المحتضرة، وإلباسه رداءاً فضفاضاً وقبعة، وإغرائه بالسير بحثاً عن مخبأ المنضدة التي كان ما يزال يلتمسها منتحباً. لقد قاد الشبح، مع مستر لوري، إلى فناء البيت حيث كان القلب المعذّب ـ ذلك الذي كان يرفل ببرد السعادة في تلك الأيام التي لا تُنسى حين باح له هو(*) بسر قلبه الموحش ـ يُساهر الليل الرهيب. ودخل فناء الدار، وأقام هناك وحده بضع لحظات، رافعاً بصره نحو النور المنبثق من نافذة غرفتها. وقبل أن يمضي لسبيله زفرَ مباركاً إياها ومودّعاً.

(*) أي كارتون. (المعرب).

ـ 13 ـ

اثنان وخمسون

وفي سجن الكونسيير جيري الأسود كان الذين حُكم عليهم بالموت، ذلك النهار، ينتظرون مصيرهم. كان عددهم مساوياً لعدد أسابيع السنة. ذلك أن اثنين وخمسين سجيناً كانوا على وشك أن يتدحرجوا ذلك الأصيل فوق أمواج الحياة في المدينة إلى البحر السرمديّ الذي لا حدود له. وكان نزلاء جدد قد اختيروا ليشغلوا حجيراتهم قبل أن يساقوا إلى المقصلة، وكان الدم الجديد الذي سيمتزج غداً بدمائهم قد أفرِد جانباً قبل أن تختلط دماؤهم هذه بالدم الذي أهرِق أمس.

لقد عُدّت أربعُ عشرات وإثنا عشر: من ملتزم جباية الضرائب الذي بلغ السبعين من العمر، والذي عجزت ثروته عن أن تشتري حياته، إلى الخياطة التي ما كانت تبلغ العشرين من العمر، والتي عجز فقرها وخمولها عن إنقاذها. وكما أن الأمراض الجسمانية الناشئة عن استهتار الناس ورذائلهم تبطش بالضحايا من مختلف الدرجات فكذلك يفعل الاضطراب الأخلاقي الرهيب الناشئ عن العذاب الذي لا يوصف، والظلم الذي لا يُحتمل، . والإهمال القاسي الفؤاد فيبطش بضحاياه من غير تمييز.

ولم يخدع تشارلز دارني نفسه، وهو وحيد في حجيرته، بالوهم المتملّق منذ أن سيق إلى هذه الغرفة. لقد سمع في كل سطر من أسطر الحكاية نذيراً بإدانته. لقد أدرك أكمل الإدراك أنه ليس في ميسور أيما

نفوذ شخصي أن يُنجيه: إن الملايين قد حكمت عليه، عملياً، بالموت فلن تغني جهود الآحاد عنه شيئاً.

ومع ذلك، لم يكن من اليسير عليه، ووجهُ زوجته الحبيبة ناضر أمامه، أن يروض عقله على احتمال ما قضي عليه أن يحتمله. كان تعلقه بالحياة مُحكماً غاية الإحكام فليس من سبيل إلى أن يُحلّ وثاقه. كان لا يوفق بالجهد التدريجي إلى إرخاء قبضته هنا بعض الشيء، حتى تزداد هناك تماسكاً وإحكاماً. وما أن يفرغ كامل قوته على هذه اليد إلى أن تستسلم، حتى تتشبث الأخرى بالحياة. وعصفت الأفكار برأسه ونشط قلبه إلى العمل على نحو صاخب مشبوب الأوار ابتغاء مقاومة كل نزعة إلى الاستسلام. فإذا ما استشعر الرغبة، لحظةً في الإذعان، فعندئذ كان يتبدى له وكأن زوجته وابنته اللتين تعيّن عليهما أن تعيشا من بعده ـ تحتجان عليه وتعتبران ذلك عملاً أنانياً.

ولكن ذلك كله كان في بادئ الأمر. وما هي إلا فترة حتى راوده التفكير بأن ليس في مصيره الذي كُتب عليه أن يلقاه ما يخجل، وبأن كثيراً من قبله سلكوا هذا السبيل ظلماً، ووطئوا أرضها كل يوم في عزم وثبات، فكان في ذلك عزاء له. وبعد ذلك خطر له أن كثيراً من الأمن العقلي الذي يحرص هو على أن يتمتع به أحباب قلبه في المستقبل رهنٌ بتجلّده ورباطة جأشه. وهكذا وفق إلى أن يستعيد هدوءه تدريجياً، بعد أن سما بأفكاره سمواً كبيراً واعتصم بالسلوى وطمأنينة الفؤاد.

وكذلك اجتاز هذه المسافة كلها من طريقه الأخيرة في الحياة قبل أن تغرب شمس اليوم الذي شهد صدور الحكم عليه بالموت. وإذ أُجيز له أن يشتري أدوات الكتابة وسراجاً فقد جلس للكتابة حتى ذلك الوقت الذي تطفأ فيه مصابيح السجن.

لقد كتب رسالة مسهبة إلى لوسي مظهراً لها أنه ما كان يعرف شيئاً عن سَجن أبيها حتى ذلك اليوم الذي حدثته فيه هي عن ذلك، وأنه كان جاهلاً، جهلها هي، مسؤولية أبيه وعمه في هذا الشقاء الذي حلّ بأبيها

حتى اللحظة التي تليت بها الورقة في قاعة المحكمة. وكان قد شرح لها من قبل أن عدم اطلاعها على الاسم الذي تخلى عنه كان هو الشرط الوحيد الذي اشترطه والدها ـ وقد غدا سبب ذلك واضحاً الآن ـ للموافقة على زواجهما، والوعد الوحيد الذي انتزعه منه صباح يوم الزفاف. وتوسل إليها، إكراماً لأبيها، أن لا تحاول أن تعرف ما إذا كان أبوها قد نسي تلك الورقة أم أنه ذُكِّر بها (مؤقتاً أو إلى الأبد) بقصة البرج التي رُويت في يوم من أيام الأحد القصيّة تحت شجرة الدلب العزيزة في الحديقة. وإذا كان قد احتفظ بأيما ذكرى منها فلا مجال للريب في أنه توهم أن سقوط الباستيل قد أتلفها، حين لم يجد أيما ذكر لها بين آثار السجناء التي اكتشفها جماهير الشعب هناك، والتي وُصفت للعالم كله. لقد تضرع إليها ـ برغم أنه أضاف معبّراً عن يقينه بأن لا ضرورة لذلك ـ أن تواسي أباها بأن تؤكد له بمختلف الوسائل الرقيقة التي تستطيع أن تفكر فيها أنه لم يأت أيما عمل يبرر تقريع الذات، وأنه على عكس ذلك قد نسي نفسه دائماً من أجل سعادتهما المشتركة. ثم إنه ناشدها ـ بالإضافة إلى رغبته في أن تتقبل حبه المعترف بالجميل وبركته الأخيرة، وأن تتغلب على أساها لتقف نفسها على خدمة ابنتها الغالية ـ أن تحوط أباها بأسباب الرعاية والرفه، خاتماً الرسالة بقوله إنهما سوف يجتمعان في دار البقاء.

وكتب إلى أبيها رسالة تدور حول الموضوع نفسه، ولكنه أخبره فيها أنه يعهد بزوجته وابنته إلى رعايته. ولقد قال له ذلك في توكيد شديد رجاةَ أن ينتشله من وهدة القنوط أو من أيما التفات خطِر إلى الماضي خيّل إليه في تلك اللحظة أن الطبيب مهدّد بالتردّي فيهما.

أما في رسالته إلى مستر لوري فقد عهد بهم جميعاً إليه، وشرح شؤونه الدنيوية. حتى إذا تم له ذلك، مضيفاً بضع عبارات تنمّ عن صادق ودّه واعترافه بالجميل، انتهى كل شيء. إنه لم يفكر قط بكارتون. فقد كان ذهنه مشغولاً بالآخرين إلى حد جعله لا يفكر فيه لحظةً واحدة.

ووفق إلى إنجاز هذه الرسائل قبل موعد إطفاء المصابيح. حتى إذا استلقى على فراشه المحشوّ بالقش، بدا له أن كل صلة بينه وبين هذا العالم قد انقطعت. ولكن ذلك العالم أنشأ يراوده في نومه بأشكال مشرقة. لقد رأى في ما يراه النائم أنه استعاد حريته وسعادته، وانقلب إلى ذلك البيت القديم القائم في سوهو (وإن لم يكن فيه شيء كالبيت الحقيقي) فهو يفيء إلى لوسي كرّة أخرى، وفؤاده يفيض بهجة وحبوراً، وهي تقول له إن ذلك كله لم يكن إلا حلماً، وأنه لم يفارقها قط. وانقضت فترة من النسيان، ثم ألمّت به الآلام، وانقلب إلى لوسي ميتاً لا حراك به، ومع ذلك فلم يتغير فيه شيء. وانقضت فترة أخرى من النسيان، وأفاق في الصباح الأغبش غير واعٍ أين كان وما الذي حدث حتى أومض في ذهنه إن «هذا هو يوم موتي!»

وهكذا أمضى الساعات التي تفصله عن اليوم الذي قدّر فيه على الرؤوس الاثنين والخمسين أن تسقط عن مناكبها. وفيما هو رابط الجأش، عظيم الأمل بأن يوفق إلى لقاء الموت في بطولة هادئة، بدأ شيء جديد يعمل عمله في أفكاره اليقظى، فمن العسير جداً ضبطه والسيطرة عليه.

إنه لم يرَ قط من قبلُ تلك الآلة التي ستضع حداً لحياته. ما مبلغ ارتفاعها عن الأرض، وما عدد درجاتها، وأين سيقف، وكيف سيلمسونه، وما إذا كانت الأيدي التي ستلمسه مخضبة باللون الأحمر، وفي أية ناحية سوف يدار وجهه، وهل سيكون الأول أم الأخير: هذه الأسئلة وكثير من مثلها راحت تقحم نفسها، على غير إرادته، في ذهنه مرات لا سبيل إلى إحصائها. كذلك لم تكن تلك الأسئلة مقرونة بالخوف: إنه ما كان يعي أيما خوف. لا، بل لقد نشأت تلك الأسئلة عن رغبة غريبة مقلقة في أن يعرف ما الذي ينبغي أن يفعله حين تزِفّ الساعة؛ رغبة غير متّسقة بحالٍ مع اللحظات القليلة الخاطفة التي تومئ إليها، وتساؤل كان أشبه بتساؤل روح أخرى في ذات نفسه لا روحه هو.

وتصرمت الساعات فيما هو يذرع الحجرة جيئة وذهوباً، ودقت الساعات دقات لن يقدّر له أن يسمعها منذ ذلك اليوم. لقد مضت الساعة التاسعة إلى الأبد، ومضت الساعة العاشرة إلى الأبد، ومضت الساعة الحادية عشرة إلى الأبد، وها هي ذي الساعة الثانية عشرة تُقبل لتمضي بدورها إلى الأبد. وبعد صراع قاسٍ مع تلك الأفكار غير السوية التي أربكتْهُ آخر الأمر، فاز بالغلبة عليها. وأنشأ يذرع الغرفة جيئةً وذهوباً، مردداً في رفق أسماء أحبّتِهِ. كان أسوأ جزء من الصراع قد انقضى. ولقد صار في ميسوره أن يذرع الغرفة متحرراً من الأوهام المشوّشة، مصلّياً لأجله ولأجلهم.

ومضت الساعة الثانية عشرة إلى الأبد.

كان قد أشعِرَ بأن حياته سوف تنتهي في الساعة الثالثة، وقد عرف أنه سوف يُدعى قبل ذلك الميعاد لأن العربات كانت تتقدّم مترجرجةً في ثقل وبطء خلال الشوارع. من أجل ذلك اعتزم أن يضع الساعة الثانية، نصب عينيه، بوصفها الساعة الأخيرة وراح يقوي من عزيمته لكي يكون قادراً، بعد ذلك، على أن يقوّي من عزائم الآخرين.

وإذ كان يذرع الحجيرة جيئة وذهوباً، وذراعاه مطويتان فوق صدره وقد بدا رجلاً مختلفاً تماماً عن ذلك السجين الذي سبق له أن ذرع الحجيرة جيئة وذهوباً في سجن لافورس ـ سمع الساعة تدق الواحدة فلم يجفل ولم يدهش. لقد امتدّت تلك الساعة، في مدى الزمن، امتداد معظم الساعات. وفي خشوع، شكر الله على ما وفق إليه من استعادة الهدوء ورباطة الجأش، وقال في ذات نفسه: «لم يبق، الآن غير ساعة. !» واستدار ليذرع الحجيرة من جديد.

وسمع وقد أقدام في المجاز الحجري خارج الباب. وجمد في مكانه.

ووُضع المفتاح في القفل، وأدير. وقبل أن يُفتح الباب، أو فيما هو يُفتح، قال رجل في صوت خفيض، باللغة الإنكليزية: «إنه لم يرني هنا

قط من قبل. لقد حرصتُ على الابتعاد من طريقه. أدخل أنت وحدك. سوف أنتظر هنا. لا تضعْ دقيقة واحدة!»

وفي سرعة فُتح الباب ثم أغلق، فإذا بسيدني كارتون يقف أمامه وجهاً لوجه هادئاً، محدقاً، وعلى أساريره وميض ابتسامة، وفوق شفته إصبع محترسة.

كان في سيماه شيء ساطع يلفت النظر إلى درجة جعلت السجين يحسبه أول ما وقعت عليه عيناه، طيفاً من أطياف خياله. ولكنه تكلم، ولقد كان ذلك صوتَهُ. لقد أمسك بيد السجين، وكانت تلك القبضة هي قبضتَهُ الحقيقية.

وقال: «لعلك كنت تنتظر أن ترى كل الناس ما عداي؟»

ـ «لم يكن في ميسوري أن أصدق أن هذا أنت. أنا لا أكاد أصدق ذلك الآن. أنت لست. . .»، لقد بدت له الفكرة فجأة، «أنت لست سجيناً؟»

ـ «لا. ولكني أملك بحكم المصادفة، سلطاناً على أحد السجّانين، وبفضل ذلك تجدني الآن واقفاً أمامك. لقد جئت من عندها، من عند زوجتك، يا عزيزي دارني.»

ولوى السجين يده.

ـ «إني أحمل إليك رجاءً منها.»

ـ «ما هو؟»

ـ «إنها ضراعة بالغة الخطورة، تنطوي على أشد الإلحاح والتوكيد موجهة إليك بأشجى النبرات من الصوت الأثير لديك إلى أبعد الحدود ـ الصوت الذي تتذكره جيداً.»

وأدار وجهه، إلى جانب، بعض الشيء.

ـ «ليس لديك متسع من الوقت لتسألني لماذا أحمل هذا الرجاء إليك، أو ما الذي يعنيه. وليس عندي متسع من الوقت لأخبرك. ينبغي

أن تنصاع له ـ إنزع الحذاء الذي تلبسه، بسرعة البرق. وانتعل حذائي هذا.»

كان خلف السجين كرسي بمحاذاة جدار الحجيرة. فما كان من كارتون إلا أن أقعده عليه، بسرعة البرق، ووقف من فوقه حافي القدمين.

ـ «وانتعِلْ حذائي هذا. هيّا أفرغ إرادتك في ذلك. عجّل!»

ـ «لا مجال للهرب من هذا المكان، يا كارتون. إنه شيء لا يمكن أن يُعمل. إن ذلك لن يؤدي إلا إلى موتك معي. إنه جنون.»

ـ «إنه يكون جنوناً لو أني سألتك أن تهرب. ولكن هل طلبت إليك ذلك؟ حين أسألك أن تجتاز هذا الباب فعندئذ قل لي إن ذلك جنون، وابقَ هنا. انزع رباط عنقك ذاك وضع هذا الرباط، واستبدل بسترتك تلك سترتي هذه. وفيما أنت تفعل ذلك دعني أرفع هذه العصابة عن شعرك، وانفض ذلك الشعر حتى يصبح كشعري هذا!»

وفي سرعة رائعة، وفي قوة في الإرادة والعمل جميعاً بدتا خارقتين حقاً، فرض هذه التغييرات كلها عليه. كان السجين أشبه بطفل صغير بين يديه.

ـ «كارتون! يا عزيزي كارتون! هذا جنون. إنه لا يمكن أن يتم؛ إنه لا يمكن أن يُعمل أبداً؛ لقد حاول ذلك كثير من قبل، فكان نصيبهم الإخفاق دائماً. أتوسل إليك أن لا تضيف موتك إلى مرارة موتي.»

ـ «هل سألتك يا عزيزي دارني، أن تجتاز الباب؟ عندما أسألك ذلك فلا تحجم عن الرفض. إن على هذه الطاولة قلماً وحبراً وورقاً. هل يدك ثَبْتة إلى حد يمكنك من الكتابة؟»

ـ «كانت ثبتة حين دخلتَ.»

ـ «ثبّتها ثانية، واكتب ما سوف أمليه عليك. عجّل، أيها الصديق، عجّل!»

وضغط دارني يده على رأسه الذاهل الدهِش، وجلس إلى الطاولة. ووقف كارتون إلى جانبه، ويده اليمنى في صدره.

ـ «اكتب ما أقوله بالحرف الواحد.»

ـ «إلى من أوجّه الخطاب؟»

فقال كارتون ويده ما تزال في صدره: «إلى لا أحد.»

ـ «هل أؤرخه؟»

ـ «لا.»

ورفع السجين بصره عند كل سؤال. على حين خفض كارتون طرفه، وقد وقف من فوقه واضعاً يده في صدره.

وقال كارتون مُملياً: «إذا كنتِ تذكرين الكلمات التي تبادلناها، منذ زمن بعيد، فلن تلبثي أن تفهمي هذا حالما يقع بصرك عليه. إنكِ تذكرينها ـ أنا واثق من ذلك. فليس من طبعك أن تنسيها.»

كان يستل يده من صدره. واتفق أن رفع السجين طرفه في غمرة من دَهَشِهِ العجلان فيما هو يكتب، فما كان من اليد إلا أن كفّت عن الحركة، مُطبقة على شيء ما.

وسأله كارتون: «هل كتبت: أن تنسيها؟»

ـ «نعم؟ هل ذلك الذي في يدك سلاح؟»

ـ «لا. أنا أعزل.»

ـ «ماذا في يدك؟»

ـ «سوف تعرف في الحال. واصِلِ الكتابة. لم تبقَ غير بضع كلمات.»

واستأنف الإملاء عليه: «أنا سعيد بأن يكون الوقت الذي يمكنني من إقامة الدليل على صحتها قد أزف. ولست أجد في عملي هذا موضعاً للندم أو الأسف.» وفيما هو ينطق بهذه الكلمات وعيناه مصوبتان إلى الكاتب، هبطت يده، في بطء ورفق، نحو وجه الكاتب حتى كادت تحاذيه.

وسقط القلم من بين أصابع دارني على الطاولة، وأجال بصره في ما حوله شارداً ذاهلاً.

وتساءل: «ما هذا البخار؟»
ـ «بخار؟»
ـ «أهو شيء انطلقَ نحوي؟»
ـ «أنا لا أستشعر شيئاً؛ ولا يمكن أن يكون هنا شيء ما. خذ القلم وأكمل الكتابة. عجّل! عجّل!»

وبذل السجين جهداً لتركيز انتباهه وكأن ذاكرته قد عُطّلت أو كأن قواه العقلية قد أصابها الاضطراب. وفيما هو ينظر إلى كارتون بعينين غائمتين وعلى نحو من التنفس مختلف، أنشأ كارتون ـ وقد انقلبت يده إلى صدره من جديد يراقبه من غير انقطاع.

ـ «عجّل! عجّل!»

وأكبّ السجين على الورق، كرة أخرى.

وفي احتراس ورفق عاودت يد كارتون التسلل إلى أدنى وهو يقول: «لولا إقدامي على هذا العمل لما كان في استطاعتي أن أفيد، أبدَ الدهر، من الفرصة الطويلة الأجل. لولا إقدامي على هذا العمل،» وكانت يده قد حاذت الآن وجه السجين، «لتعيّن عليّ أن أكفّر عن أشياء أكثر. لولا إقدامي على هذا العمل...» ونظر كارتون إلى القلم، فألفاه شارداً يخطّ علامات لا سبيل إلى فهمها.

ولم ترتدّ يدُ كارتون إلى صدره بعد ذلك. ووثب السجين وألقى على كارتون نظرة تأنيب، ولكنّ يد هذا الأخير كانت قريبة من أنفه ثابتةً فوق منخريه، في حين طوقت ذراعه اليسرى خصره. وطوال بضع ثوان اصطرع دارني مع الرجل الذي أقبل ليفتديه بروحه. ولكن ما هي إلا دقيقة أو نحوها حتى كان ممدداً على الأرض، فاقد الرشد.

وفي سرعة، ولكن بيدين وفيتين للهدف وفاء قلبه له، ارتدى كارتون الملابس التي كان السجين قد خلعها، وسرح شعره إلى وراء وأوثقه بالعصابة التي كان السجين يشدّ بها شعره. ثم نادى في رفق: «ادخل، ادخل!» وبرز الجاسوس.

وقال كارتون، رافعاً بصره، فيما هو يركع على إحدى ركبتيه بجانب السجين الفاقد رشده، واضعاً الورقة في صدره: «أترى؟ هل المجازفة التي ستقوم بها عظيمة جداً؟»

فأجابه الجاسوس مطقطقاً أصابعه طقطقة حيية: «إن مجازفتي لن تكون كذلك، في زحمة العمل هنا، إذا كنتَ وفياً لجميع شروط الاتفاق، يا مستر كارتون.»

ـ «لا تخشني. سوف أكون وفياً حتى الموت.

ـ «يجب أن تكون، يا مستر كارتون، إذا كان لعدد اثنين وخمسين أن يكون صحيحاً. إنه حين يتمّ بك، وأنت في هذه الملابس، فعندئذ لن أخشى شيئاً.»

ـ «لا تخف شيئاً. سوف أبتعد وشيكاً عن طريق أذاك، ولسوف يكون سائر الجماعة بعيدين عن هذا المكان، في وقت قريب، إن شاء الله. والآن، أطلب النجدة وخذني إلى العربة.»

فقال الجاسوس في عصبية: «أنت؟»

ـ «هو، يا رجل، هو، الذي بادلتُهُ شخصي. هل ستخرج من الباب الذي أدخلتني منه؟»

ـ «طبعاً.»

ـ «لقد كنتُ ضعيفاً خائر القوى حين جئتَ بي إلى هنا، وأنا الآن أشد ضعفاً وخوَراً وأنت تخرجني من هنا. لقد كان وداعي الأخير فوق ما أطيق. ومثل هذا حدث ههنا كثيراً، وكثيراً جداً. إن حياتك بين يديك. عجِّل! أطلب النجدة!»

فقال الجاسوس المرتجف، وهو يتمهل لحظة أخيرة: «أتقسم أنك لن تخونني؟»

فأجابه كارتون ضارباً الأرض بقدمه: «يا رَجُل! يا رَجُل، ألم أقسم لك على هذا بأغلظ الإيمان، من قبل، بحيث تمضي قدماً ولا تضيع هذه

اللحظات الثمينة؟ احمله بنفسك إلى الفناء الذي تعرف؛ ضعه بنفسك في العربة؛ أرِهِ بنفسك لمستر لوري؛ قل له بنفسك أن لا يعطيه أيما دواء غير الهواء الطلق، وأن يذكر الكلمات التي قلتها له الليلةَ البارحة، وما وعدني به الليلة البارحة أيضاً، ولينطلق بالعربة!»

وانسحب الجاسوس. وأجلس كارتون نفسَهُ إلى الطاولة، مسنداً جبينه بيديه. وفي الحال رجع الجاسوس يصحبه رجلان.

وقال أحدهما وهو يتأمل الجسد المنطرح على أرض الحجيرة: «كيف وقع هذا! أغلَبَ عليه التأثر إلى هذا الحد إذ رأى صديقه قد فاز بورقة رابحة في يانصيب القديسة المقصلة؟»

ورفعوا المغشيّ عليه ووضعوه في نقّالة كانوا قد جاءوا بها إلى الباب، وانحنوا لكي يحملوها ويمضوا.

وقال الجاسوس في نبرة تحذير: «الوقت قصير، يا إيفريموند.»

فأجاب كارتون: «أعرف ذلك جيداً. اعتنِ بصديقي، أرجوك، ودعني وشأني.»

فقال بارساد: «تعالا، إذن، يا ولديّ. إرفعاه، واخرجا.»

وأوصِد الباب، وتُرِك كارتون وحده. وأجهد قدرته على السمع حتى أقصى غاياتها، فلم يسمع شيئاً قد يؤذن بريبة أو خطر. لم يكن ثمة شيء من ذلك. لقد أديرت مفاتيح، وصُفقت أبواب، وجرت أقدام في ممرات قصية، ولكن لم ترتفع صيحة غير عادية أو يحدث هرج غير مألوف. وتنفس في انطلاق أكثر، فترة صغيرة، ثم جلس إلى الطاولة، وأصاخ كرة أخرى حتى دقت الساعة الثانية.

ثم إنه بدأ يسمع أصواتاً أخرى، أصواتاً لم يخشها، لأنه أدرك معناها. لقد فُتحت عدة أبواب، واحداً إثر واحد؛ وفتح باب حجيرته آخر الأمر. وأقبل سجّان، في يده لائحة، وألقى نظرة عليه، مجتزئاً بالقول: «إتبعني، يا إيفريموند!» وتبعه إلى غرفة رحبة مظلمة، تقوم على

مبعدة يسيرة. كان يوماً من أيام الشتاء القاتمة؛ وبسبب من الظلال الداخلية، وبسبب من الظلال الخارجية لم يستطع أن يتبين إلا تبيّناً غامضاً أولئك الذين سيقوا مثله إلى هناك لتوثق أذرعهم. كان بعضهم واقفاً. وكان بعضهم قاعداً. كان بعضهم ينتحب ويتحرك حركات قلقة، ولكن هؤلاء كانوا قلة. أما الكثرة الكاثرة فكانت صامتة ساكنة مسمِّرة نظراتها إلى الأرض.

وفيما هو واقف في محاذاة الجدار، عند زاوية مظلمة، بينا كان نفرٌ من الاثنين والخمسين يساقون إلى الغرفة من بعده، تمهل عنده رجل ليعانقه، وكأنما كان يعرفه. وارتجف كارتون وغمره الرعب من أن يُكتشف أمره، ولكن الرجل مضى لسبيله. وبعد بضع لحظات نهضت امرأة شابة ضئيلة الجسم كالفتيات الصغيرات، ذات وجه عذب هزيل ليس فيه آثار من اللون وعينين صابرتين محملقتين ـ نهضت هذه المرأة ومن المقعد الذي سبق له أن رآها تتخذه، وأقبلت نحوه لتتحدث إليه.

وقالت وهي تلمسه بيدها الباردة: «أيها المواطن إيفريموند. أنا خياطة صغيرة بائسة كانت معك في سجن لافورس.»

وغمغم مجيباً: «صحيح. لقد نسيتُ التهمة المنسوبة إليكِ.»

ـ «تهمة التآمر. برغم أن الرب العادل يعلم أني بريئة من كل ذلك. هل هذا ممكن؟ من الذي يفكر في التآمر مع مخلوقة صغيرة بائسة مثلي؟»

ومست الابتسامة الكئيبة التي افترت شفتاها عنها، وهي تنطق بذلك، شغافَ قلبه حتى لقد تفجّرت الدموع من عينيه.

ـ «أنا لست خائفة أن أموت، أيها المواطن إيفريموند، ولكني لم أقترف إثماً. أنا لست راغبة عن الموت إذا كانت الجمهورية (التي ينبغي أن تحمل إلينا نحن الفقراء خيراً كثيراً) تفيد من موتي. ولكني لا أدري كيف يمكن أن يكون ذلك، أيها المواطن إيفريموند، وأنا مخلوقة صغيرة ضعيفة بائسة!»

وإذ كانت هذه الفتاة المسكينة آخر شيء قدّر لفؤاده أن يأسى له ويرقّ، فقد أسيَ فؤاده لها ورقّ.

ـ «سمعت أنهم أطلقوا سراحك، أيها المواطن إيفريموند. لقد رجوت أن يكون ذلك صحيحاً؟»

ـ «لقد فعلوا. ولكني اعتقلت ثانية وحكم عليّ بالموت.»

ـ «إذا أجازوا لي أن أركب معك، أيها المواطن إيفريموند، فهل تأذن لي أن أمسك يدك؟ أنا لست خائفة، ولكني صغيرة، وضعيفة، وإن في ذلك ما يوقع في نفسي الشجاعة.»

حتى إذا ارتفعت العينان الصابرتان إلى وجهه، رأى فيهما شكاً مفاجئاً، ثم دهشاً. فضغط على الأصابع الغضة التي أبلاها العمل وأبلاها الجوع، ومسّ شفتيه

وهمست: «أتموت فداءً له؟»

ـ «وفداءً لزوجته وابنته. هش! نعم!»

ـ «أوه، إنك سوف تدعني أمسك يدك الباسلة، أيها الرجل الغريب؟»

ـ «هش! أجل، يا أختي المسكينة، حتى النهاية.»

* * *

كانت الظلال نفسها الهابطة على السجن تهبط، في تلك الساعة نفسها من ذلك الأصيل الباكر، على باب المدينة، وقد احتشد حوله خلق كثير عندما تقدمت عربةٌ تغادر باريس لكي يفتشها الحرس.

ـ «من يسير هناك؟ من عندنا في داخل العربة؟ أوراقكم!»

وقُدّمت الأوراق، وقرِئت.

ـ «ألكسندر مانيت. طبيب. فرنسي. أيهم هو؟»

ـ «هذا هو.» وأشير إلى الشيخ البائس، التائه، المغمغم بكلام غير مُبين.

ـ «يبدو أن الطبيب المواطن ليس في حالته العقلية السوية؟ لعل حمّى الثورة كانت أثقل وطأة من أن يحتملها؟»

ـ «أجل كانت أثقل وطأة من أن يحتملها.»

ـ «هاه! إن كثيرين يعانون من تلك الحمّى. لوسي. ابنته. فرنسية. أيّهم هي؟»

ـ «هذه هي.»

ـ «يظهر أنها ينبغي أن تكون هي. لوسي، زوجة إيفريموند، أليس كذلك؟»

ـ «أجل!»

ـ «هاه! إن إيفريموند على موعد في مكان آخر. لوسي ابنتها، انكليزية. أهذه هي؟»

ـ «إنها هي بعينها.»

ـ «قبّليني، يا ابنة إيفريموند. والآن، لقد قبّلتِ جمهورياً صالحاً. ذلك حدث جديد في أسرتك. اذكريه. سيدني كارتون. محامٍ. انكليزي. أيكم هو؟

ـ «إنه ملقىً هنا، في هذه الزاوية من العربة.» وأشير إليه، هو أيضاً.

ـ «يبدو أن المحامي الإنكليزي مغشيّ عليه؟»

ـ «يرجى أن يستعيد نشاطه حين يفوز بهواء أكثر طلاقة. ويخيل إليّ أنه لم يكن على صحة حسنة، وإنه فُصل فصلاً محزناً عن صديق له غضبت عليه الجمهورية.»

ـ «أهذا كل شيء؟ إنه ليس شيئاً كثيراً! هناك كثيرون أصابهم غضب الجمهورية، وينبغي أن يطلوا من النافذة الصغيرة. جارفيس لوري. مصرفيّ. إنكليزي. أيهم هو؟»

ـ «أنا هو، بالضرورة. لأني آخرهم.»

كان جارفيس لوري هو الذي أجاب عن جميع الأسئلة السابقة. كان

جارفيس لوري هو الذي ترجّل، ووقف واضعاً يده على باب العربة وأجاب عن أسئلة جماعة الموظفين. لقد طافوا متمهلين، حول العربة، وامتطوا، متمهلين أيضاً، متن الصندوق لكي يتمكنوا من إلقاء نظرة على الأمتعة القليلة الموضوعة فوق سطح العربة. وكانت طائفة من أهل الريف قد احتشدت من حولهم، فهم يتدافعون نحو أبواب العربة ليحدقوا في نهم إلى داخلها. كانت طفلة صغيرة، تحملها أمها، قد بسطت ذراعها القصيرة نحو العربة لكي تمس زوجة ارستوقراطي سيق إلى المقصلة.

ـ «دونك أوراقك، يا جارفيس لوري، موقّعاً عليها.»

ـ «هل نستطيع أن ننطلق أيها المواطن؟»

ـ «في استطاعتكم أن تفعلوا. إلى الأمام، يا سائقيّ! رحلة طيبة!»

ـ «أحييكم، أيها المواطنون. ـ لقد اجتزنا الخطر الأول!»

كانت هذه أيضاً كلمات جارفيس لوري، فيما هو يشبك يديه، وينظر إلى أعلى. كان في العربة ذعر، وكان فيها بكاء، وكانت فيها أنفاس ثقيلة يرسلها المسافر الفاقد الرشد.

وتساءلت لوسي متشبثة بالرجل العجوز: «ألسنا نمضي في بطء بالغ؟ أليس في استطاعتنا أن نحرض الخيل على الإسراع؟»

ـ «إن الإسراع قد يبدو وكأنه فرار، يا عزيزتي. ينبغي أن لا نحرّضها على أن تسرع أكثر. إن ذلك قد يثير الريبة.»

ـ «أنظر إلى الوراء، أنظر إلى الوراء، وتأكد أن أحداً لا يتعقبنا!»

ـ «الطريق خالية، يا أعز الناس. إن أحداً لا يتعقبنا حتى الآن.»

لقد اجتزنا بالبيوت، مثنى وثُلاث،(*) وبالمزارع المنعزلة، والأبنية الخربة، وبالمصابغ، والمدابغ، وأضرابها، وبأرض الريف الواسعة، وبشوارع على جوانبها أشجار عارية من الأوراق. إن حصباء الطريق

(*) أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة.

القاسية غير المستوية تمتد من تحتنا، وإن الوحل العميق الرخو ليحيط بنا من كل جانب. إننا نندفع في بعض الأحيان نحو الوحل المتاخم لكي نجتنب الحجارة التي تهزّنا وترجّنا. وفي بعض الأحيان تتعثر العربة، هناك، في الحمأة وأثلام الطريق الناشئة عن تعاقب العجلات عليها. وعندئذ يبلغ نفاد صبرنا الموجِع حداً بالغاً يجعلنا، في غمرة خوفنا الضاري من الأخطار المحدقة، نتوق إلى أن ننسلّ ونفرّ أو نختبئ أو نفعل أيما شيء غير الوقوف.

غادرنا أرض الريف الواسعة، واجتزنا ثانية الأبنية الخربة، والمزارع المنعزلة، والمصابغ، والمدابغ، وأضرابها، وبالأكواخ، مثنى وثلاث، وبشوارع على جوانبها أشجار عارية من الأوراق. هل خدعنا هؤلاء الرجال، وردّونا إلى الوراء من طريق أخرى؟ أليس هذا هو المكان نفسه الذي اجتزنا به من قبل؟ لا، والحمد لله. هذه قرية. أنظر إلى الوراء، أنظر إلى الوراء، وتأكد أن أحداً لا يتعقبنا! هش! محطة البريد!

إن أفراسنا الأربعة لتُنزع من العربة، على مهل. وإن العربة لتقف، على مهل، في الشارع الصغير، عاطلة من أفراسها، وليس يبدو أنها سوف تتحرك من جديد. وإن الأفراس الجديدة لتظهر للعيان على مهل واحداً إثر واحد. وعلى مهل يتقدم من ورائها السائقون الجدد، ضافرين سياطهم. ويعدّ السائقون القدماء أموالهم، على مهل أيضاً، ويخطئون في الجمع، وينتهون إلى نتائج مخيّبة الآمال. وطوال الوقت تنبض قلوبنا المثقلة بسرعة لا يرقى إلى مثلها أسرع خبب انطلقت به أسرع جياد ولدت على ظهر هذه الأرض.

ويمتطي السائقون الجدد صهوات الخيل، آخر الأمر، ويُخَلَّف السائقون القدماء حيث هم. ونجتاز القرية ونصعد في الكثيب، ونهبط الكثيب، ونمضي فوق الأراضي الرطبة المنخفضة. وفجأة يتبادل السائقون الحديث مستعينين بإشارات نابضة بالحياة، وتوقفُ الجياد على أوراكها، تقريباً. ـ هل يتعقبنا أحد. . .؟

ـ «هاي! أنت يا من في داخل العربة. تكلم إذن!»

فتساءل مستر لوري مطلاً من النافذة: «ماذا تريد؟»

ـ «كم قالوا؟»

ـ «أنا لا أفهم كلامك.»

ـ «. . . في المحطة الأخيرة. كم شخصاً قُدّم إلى المقصلة اليوم؟»

ـ «اثنان وخمسون.»

ـ «لقد قلتُ ذلك! رقم ممتاز! إن زملائي المواطنين، هنا، يقبلون أن نكون اثنين وأربعين. ولا ريب في أن عشرة رؤوس إضافية شيء يستحق أن يؤخذ بالاعتبار. إن المقصلة في صحة حسنة. أنا أحبها. هاي، إلى الأمام! هيا!»

ويهبط الليل قاتماً. إن الرجل الفاقد الرشد يتحرك أكثر من ذي قبل. لقد شرع يستعيد وعيه وينطق بكلام مفهوم. إنه يحسب أنهما لا يزالان معاً. وهو يسأله، باسمه، ما ذاك الذي في يده؟ آه، اشفق علينا، أيها الرب اللطيف، وساعدنا! أنظر إلى الوراء، أنظر إلى الوراء، وتأكد أن أحداً لا يتعقبنا!»

إن الريح تندفع من ورائنا، والسحب تسرع خلفنا، والقمر يمضي على إثرنا، والليل الموحش كله يلاحقنا، ولكن لم يكن أيما شيء آخر، حتى تلك اللحظة يتعقبنا.

ـ 14 ـ

اختتام الحبك

في تلك الساعة الرهيبة الحرجة التي انتظر فيها الاثنان والخمسون رجلاً وامرأة مصائرهم، كانت مدام دوفارج تعقد مؤتمراً مشؤوماً مع «الانتقام» وجاك رقم ثلاثة، المحلّف الثوري. ولم تتحدث مدام دوفارج إلى هذين الوزيرين في الخمارة، ولكن في سقيفة ناشر الحطب، الذي كان من قبل مصلح طرق. والواقع أن ناشر الحطب لم يشارك في هذا المؤتمر، بل أقام على مبعدة يسيرة، وكأنه قمر سيار خارجيّ يدور في فلكهم، فهو لا يتحدث إلا إذا سئل، ولا يُدلي برأي إلا إذا دُعي.

وقال جاك رقم ثلاثة: «ولكن صاحبنا دوفارج هو جمهوري صالح من غير شك، أليس كذلك؟»

فاحتجت «الانتقام» الذربة اللسان، بنبراتها الجهورية: «ليس في فرنسة كلها من هو أفضل منه.»

فقالت مدام دوفارج، وهي تضع يدها، في عبوس طفيف، على شفتي نائبتها: «الزمي الصمت؛ أيتها «الانتقام» الصغيرة، واسمعي إلى كلامي. إن زوجي، يا زملائي المواطنين، جمهوري صالح ورجل مقدام. لقد استحق شكر الجمهورية، وحظيَ بثقتها. ولكن فيه مواطن ضعف؛ وهو ضعيف إلى درجة تجعله يرق لذلك الطبيب.»

فنعب جاك رقم ثلاثة، هازاً رأسه في ارتياب، واضعاً أصابعه الوحشية على فمه الجائع: «مما يؤسف له أن هذا ليس من شيم الجمهوري الصالح. ذلك شيء يؤسف له.»

فقالت مدام دوفارج: «اسمعوا! أنا لا أبالي بهذا الطبيب على الإطلاق؛ قد يحمل رأسه وقد يخسره. سيان عندي هذا وذاك. ولكن أسرة ايفريموند يجب أن تستأصل، ويتعيّن على الزوجة والطفلة أن تلحقا بالزوج والأب.»

فنعب جاك رقم ثلاثة: «إن لها لرأساً جميلاً جديراً بالمقصلة. لقد رأيت عيوناً زرقاً وشعراً ذهبياً هناك، ولقد بدت فاتنةً عندما أمسك بها شمشون.» كان يتحدث، برغم شبهه بالغول، وكأنه رجل أبيقوري الهوى.

وخفضت مدام دوفارج عينيها، وفكّرت قليلاً.

وقال جاك رقم ثلاثة، مستمتعاً بكلماته في تأمّل وروية: «والطفلة أيضاً ذات شعر ذهبي وعينين زرقاوين. ونادراً ما نقع على طفل هناك. إن ذلك خليق بأن يكون مشهداً جميلاً!»

فقالت مدام دوفارج وقد خرجت من ذهولها القصير: «بالاختصار، إني لا أستطيع أن أثق بزوجي في هذه المسألة. أمسيت أشعر منذ الليلة البارحة أني لا أجرؤ على أن أسرّ إليه بتفاصيل مشروعاتي. ليس هذا فحسب، بل إني أخشى، إذا ما تأخرت في تنفيذها، أن يعمد إلى تحذيرهم. ومن الجائز عندئذ، أن يولوا فراراً.»

فنعب جاك رقم ثلاثة: «ينبغي أن لا يقع ذلك على الإطلاق. يجب أن لا يفرّ أحد. إن عدد الرؤوس التي تقدّم إلى المقصلة، في هذه الأيام، لا يبلغ نصف العدد الذي نحتاج إليه. ينبغي أن نقطع مئة وعشرين رأساً كل يوم.»

وتابعت مدام دوفارج: «وبالاختصار، فليس عند زوجي ما لديّ من الأسباب التي تحمل المرء على ملاحقة هذه الأسرة والقضاء عليها حتى آخرها، وليس لديّ ما لديه من الأسباب التي تحمل المرء على العطف على هذا الطبيب. من أجل ذلك يتعيّن عليّ أن أعمل بنفسي. تعال، أيها المواطن الضئيل الجسم.»

وكان ناشر الحطب يحترم مدام دوفارج أعظم الاحترام ويخشاها خشية مهلكة. فتقدّم نحوها واضعاً يده على قلنسوته الحمراء.

وقالت مدام دوفارج في تجهم: «هل أنت مستعد أن تدلي بشهادتك، في هذا اليوم بالذات، حول تلك الإشارات التي كانت تبعث بها إلى السجناء؟»

فصاح النشار: «إي، إي، ولم لا؟ كانت تأتي كل يوم، على اختلاف الأحوال الجوية، وتسلخ ساعتين، من الثانية حتى الرابعة، وهي تبعث بالإشارات تصحبها الطفلة الصغيرة حيناً. ولا تصحبها حيناً. أنا أعرف ما أعرف. لقد رأيت ذلك بعيني رأسي.»

كان يتكلم مصطنعاً مختلف ضروب الحركات والإشارات، وكأنما كان يقلِّد تقليداً عَرَضياً بعض صنوف الإشارات الكثيرة التي لم يرها قط.

وقال جاك رقم ثلاثة: «كانت تبيّت خطة ما. هذا شيء لا ريب فيه.»

وهنا سألته مدام دوفارج، محوّلة عينيها نحوه في ابتسامة مظلمة: «هل أنت واثق من المحلفين؟»

ـ «إتكلي على المحلفين الوطنيين، أيتها المواطنة العزيزة. إني أتكلم باسم زملائي المحلفين جميعاً.»

فقالت مدام دوفارج مستغرقة، مرّة أخرى، في التفكير: «والآن، دعني أرى! لقد بقيت مسألة أخرى! هل أستطيع أن أوفّر هذا الطبيب إكراماً لزوجي؟ أنا لا أحس بأي شعور معه، أو بأي شعور ضده. هل أستطيع أن أوفّره؟»

فلاحظ جاك رقم ثلاثة: «إنه يُكسبنا رأساً إضافياً. الواقع أن عدد الرؤوس المقدمة إلى المقصلة غير كاف. وهذا شيء مؤلم، في ما أرى.»

وقالت مدام دوفارج: «كان يشترك معها في إرسال الإشارات حين رأيتها. أنا لا أستطيع أن أتحدث عن واحد منهما دون الآخر. ويتعيّن

عليّ أن لا أسكت. أجل، ينبغي أن أعهد في هذه المسألة كلها إليه، إلى هذا المواطن الضئيل الجسم. ذلك أني لست شاهدة رديئة.

وتنافس كل من «الانتقام» وجاك رقم ثلاثة في الاحتجاج الصارخ على هذا الكلام، قائلين إنها أعظم الشهود وأبرعهم. وخشية أن يتفوّق أي منهما على المواطن الضئيل الجسم، في هذا الميدان، سارع إلى القول إنها شاهدة إلّهية.

وقالت مدام دوفارج: «ينبغي أن ينال نصيبه. لا، أنا لا أستطيع أن أوفّره! أنت مشغول في الساعة الثالثة. سوف تذهب إلى هناك لتشاهد المقصلة وهي تلتهم محصول النهار. أليس كذلك؟»

كان السؤال موجهاً إلى ناشر الحطب، الذي سارع إلى الإجابة بالإيجاب، مغتنماً الفرصة ليضيف قائلاً إنه أكثر الجمهوريين حماسة، وإنه خليق به أن يكون أكثر الجمهوريين تعاسةً إذا ما حال شيء بينه وبين التمتع بتدخين غليونه، جرياً على عادته كل أصيل، وهو يتأمل نشاط الحلاق الوطني المضحك. والحق أنه كان يغالي في إظهار عواطفه هذه إلى درجة كان من الجائز معها أن يُشك في أنه كان يعاني مخاوفه الفردية الصغيرة، في ما يتصل بسلامته الشخصية، كل ساعة من ساعات النهار (ولعل ذلك الشك قد راود، فعلاً، تَيْنك العينين اللتين نظرتا إليه في ازدراء من رأس مدام دوفارج.)

قالت مدام دوفارج: «أنا مشغولة كذلك، في المكان نفسه. وبعد أن ينتهي كل شيء ـ ولنقل في الساعة الثامنة مساء ـ تقصد أنت إليّ في سان أنطوان وعندئذ تقدّم المعلومات ضد هؤلاء القوم في لجنتي الخاصة.»

قال ناشر الحطب إنه يعتز ويبتهج بأن يصحب المواطنة. حتى إذا نظرت المواطنة إليه استولى عليه الإرتباك، واجتنب نظرتها، كما كان خليقاً بكلب صغير أن يفعل، وارتدّ وسط أحطابه، وأخفى ارتباكه وراء مقبض منشاره.

وأومأت مدام دوفارج إلى الرجل المحلف و«الانتقام» أن يتقدما

نحو الباب بعض الشيء، وهناك شرحت لهما أفكارها الإضافية على الوجه التالي :ـ

«إنها سوف تكون الآن في بيتها، منتظرة لحظة موته. ولسوف تكون باكية منتحبة. إنها ستكون في حال نفسية تدعوها إلى أن تتهم عدالة الجمهورية. وسيكون صدرها حافل بالمشاركة الوجدانية مع أعدائها. سوف أقصد الآن إلى بيتها.»

فصاح جاك رقم ثلاثة، في طرب بالغ: «أية امرأة مُعجِبة أنتِ! أية امرأة جديرة بالتقديس!»

وصاحت «الانتقام»: «آه يا عزيزتي!» وطوّقتها بذراعيها.

وقالت مدام دوفارج واضعة حبكها في يدي نائبتها: «خذي حبكي هذا، وانتظريني في مكاني المألوف. إحفظي لي مقعدي المألوف. اذهبي إلى هناك مباشرة، لأن الزحام سوف يكون اليوم أشدّ من المعتاد.»

فقالت «الانتقام» في نشاط وابتهاج، مقبّلة خدها: «سوف أطيع أوامر رئيستي بطيبة خاطر. إنك لن تتأخري، أليس كذلك؟»

ـ «سأكون هناك قبل الإفتتاح.»

فقالت «الانتقام» صائحة من ورائها بعد أن اندفعت نحو الشارع: «وقبل أن تصل العربات. ابذلي غاية جهدك لكي تكوني هناك قبل أن تصل العربات!»

ولوّحت مدام دوفارج بيدها تلويحاً طفيفاً، لكي تفهمها أنها سمعت ما قالته، ولتطمئنها أنها سوف تصل في وقت مناسب، ثم مضت لسبيلها خلال الوحل، منعطفة حول سور السجن. وأتبعها المحلف وأتبعتها «الانتقام» نظراتهما، مكبرين أعظم الإكبار شكلها الرائع ومواهبها الأخلاقية السامية.

كانت في تلك الحقبة نساء كثيرات ألقى عليهن الزمان يداً مشوّهة مخيفة. ولكن أياً منهن ما كانت جديرة بأن تُخاف أكثر من هذه المرأة القاسية الفؤاد الآخذة سبيلها، الآن، خلال الشوارع. كانت ذات

شخصية قوية لا تهاب، وسرعة خاطر ذكية، وعزم مكين. وكانت على ذلك النوع من الجمال الذي لا يوقع في نفس صاحبه الثبات والموجدة فحسب بل يثير في نفوس الآخرين اعترافاً بهاتين الصفتين. وكان عصر الاضطراب خليقاً به أن يرفعها إلى أعلى، مهما تكن الظروف والملابسات. ولكنها أشربت منذ طفولتها شعوراً بالظلم يتّسم بطابع التأمل، وكراهية راسخة لطبقة من الطبقات، فما إن أمكنتها الفرصة حتى طوّرتها إلى نَمِرة. كان قلبها خلواً من الشفقة. ولئن عرفت هذه الفضيلة طريقاً إليها في يوم من الأيام، فقد زايلتها الآن بالكلية.

لم تكن لتجد أيما بأس في أن يموت رجل بريء بسبب من آثام أسلافه. إنها ما كانت لتراه هو، ولكن أسلافه أنفسهم. ولم تكن لتجد أيما بأس في أن ترمّل زوجته وتيتم ابنته. بل لقد كان ذلك عقاباً غير كاف في نظرها، لأنهم كانوا أعداءها الطبيعيين وفرائسها، ولا حق لهم، بوصفهم هذا، في أن يعيشوا. وكانت كل محاولة إلى استجداء عطفها مخفقة لانعدام حس الشفقة عندها، حتى الشفقة على نفسها. فلو أنها قُتلت في أي من الاشتباكات الكثيرة التي خاضت غمارها لما أشفقت على نفسها. بل لو أن المحكمة قضت بأن تحتزّ شفرة المقصلة رأسها غداً لما مشت إليها بشعور أرقّ من الرغبة الضارية في أن تتبادل الأدوار مع من بعث بها إلى هناك.

مثل هذا القلب، كانت مدام دوفارج تحمل [illegible] الخشن. وإنما ارتدت ذلك البرد في غير عناية، فغدا بطريقة سحرية ما، ملائماً لها أشد الملاءمة. وكان شعرها الداكن يبدو أثيثاً تحت قلنسوتها الحمراء الجافية. وفي صدرها كان يختبئ مسدس مشحون. وحول خصرها كان يختبئ خنجر مسنون. بمثل هذه العدة، وفي خطوات ثابتة كالتي تليق بمثل هذا الخُلق، وفي الحرية الرشيقة الجديرة بامرأة تعودت السير في صباها الأول، حافية القدمين عارية الرجلين، على رمل البحر الأسمر، اتخذت مدام دوفارج سبيلها خلال الشوارع.

وعلى أية حال، فحين أعِدّت العدة، الليلة البارحة، لسفر العربة الراحلة ـ وكانت في تلك اللحظة تنتظر اكتمال حملها ـ كانت صعوبة نقل مس بروس فيها قد شغلت بال مستر لوري كثيراً. فلم يكن من الضروري اجتناب الإثقال على العربة فحسب، بل لقد كان من القضايا الأشد أهمية أن يُختصر الوقت الذي يقتضيه تفتيشها وتفتيش ركابها أقصى ما يكون الاختصار، إذ إن نجاتهم قد تعتمد على توفير بضع ثوان هنا وهناك ليس غير. وأخيراً، وبعد تفكير مضطرب قلق، اقترح أن تغادر مس بروس وجيري المدينة ـ وكانا يملكان حرية مغادرتها ـ في الساعة الثالثة بأسرع وسيلة من وسائل النقل المعروفة لذلك العهد. وإذ لم يكونا مثقلين بالأمتعة، فقد كان باستطاعتهماأن يدركا العربة، حتى إذا اجتازاها وتقدما عليها في الطريق كان في استطاعتهما أن يُعدّا لها أفراسها، مسبقاً، وأن يسهلا رحلتها تسهيلاً كثيراً خلال ساعات الليل الثمينة، حين يكون التأخر أخطر ما يكون.

وإذ رأت مس بروس في هذا التدبير ما يمكنها من أن تُسدي خدمة حقيقية في تلك الأزمة الملحّة، فقد رحبت به في جذل. وكانت هي وجيري قد رأيا العربة تنطلق، وعرفا مَنْ ذلك الذي حمله سليمان، وسلخا نحواً من عشر دقائق يعانيان آلام الحيرة والحصر النفسي، ثم راحا يعدّان الأسباب للحاق بالعربة، فيما كانت مدام دوفارج، الآخذة سبيلها خلال الشوارع، تقترب أكثر فأكثر نحو البيت الذي هجره أربابه، والذي كانا يُجريان فيه مشاورتهما.

قالت مس بروس وكانت من الاهتياج بحيث ما تكاد تقوى على أن تتكلم، أو تقف، أو تعيش: «والآن، ما رأيك يا مستر كرانتشر في أن لا ننطلق من هذا الفناء؟ إن انطلاق عربة أخرى من هنا، خلال هذا النهار، قد يثير الشك.»

فأجابها مستر كرانتشر: «رأيي مثل رأيك يا آنسة. وعلى كل حال، فسوف أناصرك سواء أكنت على صواب، أم كنت على خطأ.»

فقالت مس بروس معولةً إعوالاً شديداً: «أنا موزعة المشاعر بين الخوف على جماعتنا الغالية والأمل في نجاتها إلى درجة تجعل من المتعذر عليّ أن أرسم خطة ما. هل تستطيع أنت أن ترسم أيما خطة، يا عزيزي مستر كرانتشر الطيب؟»

فأجابها مستر كرانتشر: «إذا كانت الخطة تتصل، يا آنسة، بحياتي في المستقبل فأحسب أني أستطيع. وإذا كانت تتصل باستعمال رأسي العتيق المبارك هذا استعمالاً آنيّاً، فأعتقد أني لا أستطيع. هل تتكرمين عليّ، يا آنسة، أن تأخذي علماً بوعدين اثنين، أحبّ أن يُدوّنا الآن في هذه الأزمة؟»

فصاحت مس بروس، وكانت لا تزال تُعوِل إعوالاً شديداً: «أوه، إكراماً لله، دوّنهما في الحال، أخرجهما من الطريق، مثل رجل طيب ممتاز.»

فقال مستر كرانتشر، الذي كان يرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، والذي كان يتحدث وعلى وجهه انطباعة رمادية رزينة: «أولاً، إنني لن أقوم بتلك الأعمال الحقيرة بعد الآن... لن أقوم بها بعد الآن.»

فقالت مس بروس: «أنا واثقة كل الثقة، يا مستر كرانتشر، أنك لن تقوم بذلك كرّة أخرى، وأتوسل إليك أن لا تظن أن من الضروري أن تذكر ما هي تلك الأعمال على وجه التفصيل.»

فأجابها جيري: «لا، يا آنسة، أنا لن أسمّيها لكِ. ثانياً: ما دُمت قد تخليت عن تلك الأعمال الحقيرة فلن أتدخل بعد اليوم بركوع مسز كرانتشر وسجودها. لا، لن أتدخل في ذلك بعد اليوم.»

فقالت مس بروس، جاهدة أن تكفكف عبراتها وتستعيد رباطة جأشها: «مهما تكن هذه المسألة متصلة بتدبير المنزل، فليس عندي ريب في أن من الأفضل أن توضع تحت إشراف مسز كرانتشر الكامل ـ أوه، يا أحبّتي البائسين!»

وأضاف مستر كرانتشر وقد استبدّت به نزعة مخوفة إلى أن يخطب

وكأنه ارتقى منبراً: «إني أذهب، فوق ذلك، يا آنسة، إلى حد القول ـ وأرجو أن تدوني كلماتي وأن تحمليها بنفسك إلى مسز كرانتشر ـ إنه بعد أن طرأ هذا التغيّر على آرائي في ما يتعلق بالركوع، فإني أمسيت أتمنى من صميم فؤادي أن تكون مسز كرانتشر منصرفة في هذه البرهة لصلواتها.»

فصاحت الآنسة بروس، المضطربة البال: «حسن، حسن! أرجو أن تكون منصرفةً إلى الصلاة، يا صديقي العزيز، وأرجو أن تجد في تلك الصلاة تحقيقاً لآمالها.»

فاستطرد مستر كرانتشر، في رزانة إضافية، وبطء إضافي، ونزعة إضافية إلى أن يخطب ويواصل الخطابة: «أسأل الله أن لا يكون في أي شيء قلتُهُ أو عملتُهُ في حياتي ما يؤذي تمنياتي الصادقة لأولئك القوم البائسين! أسأل الله أن لا نضطر كلنا للصلاة(إذا كان ذلك ملائماً بحال من الأحوال) لكي ننقذهم من هذه المخاطرة المخيفة! أسأل الله ذلك، يا آنسة! أقول... أسْـ... أسأل الله ذلك!» وهكذا اختتم مستر كرانتشر خطابه بعد محاولة متطاولة، ولكنها عابثة، للعثور على نهاية أفضل.

وواصلت مدام دوفارج سيرها خلال الشوارع، واقتربت من منزل الطبيب أكثر فأكثر.

وقالت مس بروس: «إذا ما قُدر لنا أن نرجع يوماً إلى أرض الوطن ففي استطاعتك أن تثق بأنني سوف أنقل إلى مسز كرانتشر كل ما قد أستطيع أن أتذكره وأفهمه مما قلته الآن في لهجة مؤثرة إلى أبعد الحدود. وعلى أية حال، ففي إمكانك أن تثق بأنني سوف أشهد أنك كنت بالغ الجِد في هذه الفترة الرهيبة. والآن دعنا نفكر، أرجوك! دعنا نفكر، يا عزيزي كرانتشر المبجل!»

ولم تفتر مدام دوفارج في سيرها خلال الشوارع، واقتربت من هدفها أكثر فأكثر.

وقالت مس بروس: «ما رأيك في أن تذهب قبلي، وتحول بين

العربة والخيل وبين المجيء إلى هنا، وأن تنتظرني في مكان ما؟ أليس هذا هو الأفضل؟»

واعتقد مستر كرانتشر أن من الجائز أن يكون ذلك هو الأفضل.

وكان مستر كرانتشر من الحيرة والارتباك بحيث لم يستطع أن يفكر في أيما موقع غير تامبل بار. واأسفاه! فقد كان تامبل بار على مبعدة مئات الأميال، وكانت مدام دوفارج على وشك أن تصل.

وقالت مس بروس: «قرب باب الكاتدرائية. أيكون من الصعب عليك أن تنتظرني قرب باب الكاتدرائية الكبير، بين البرجين؟»

فأجابها مستر كرانتشر: «لا يا آنسة.»

فقالت مس بروس: «امضِ إذن، مثل أحسن الرجال، إلى محطة البريد مباشرةً، وأجرِ ذلك التغيير.»

فأجابها مستر كرانتشر متردداً، هازاً رأسه: «إني أتردد في تركك وحدك، كما ترين. نحن لا ندري أي شيء قد يقع.»

فقالت مس بروس: «الله يعلم أننا لا ندري، ولكن لا تَخَفْ عليّ. انتظرني أنت والعربة عند الكاتدرائية، في الساعة الثالثة، أو في أقرب مكانٍ إليها تستطيع أن تنتظرني فيه، وأنا موقنة بأن ذلك سوف يكون خيراً من انطلاقنا من هنا. أحسّ أني واثقة من ذلك. حسن! فليباركك الله، يا مستر كرانتشر! لا تفكر بي، ولكن فكر بالأرواح التي تتوقف سلامتها عليّ وعليك!»

وكان في هذا التمهيد، وفي يدي مس بروس الممسكتين بيديه في مناشدة تنضح بأشد الألم، ما حمل مستر كرانتشر على أن يُوطّد العزم. وهكذا اندفع إلى الخارج بعد أن أومأ برأسه إيماءة أو إيماءتين قصد بهما إلى تشجيع مس بروس ومضى لكي يعدل الترتيبات المتخذة، تاركاً إياها وحدها لتتبعه بعد ذلك كما اقترحت.

والواقع أن ابتداع مس بروس لهذا الاحتياط الذي كان في سبيله إلى

التنفيذ سرّى عن نفسها إلى حد بعيد. ووجدت في الضرورة التي قضت عليها بأن تكبح من انفعالها، حتى لا تلفت النظر في الشوارع، سلوىً أخرى. ونظرت إلى ساعتها فإذا هي الثانية والدقيقة العشرون. يجب أن تستعدّ للرحيل، في الحال، فليس ثمة وقتٌ تستطيع أن تضيعه.

وإذ خافت في قلقها البالغ، وحشة الغرف المهجورة، والوجوه نصف المتخيّلة وهي تختلس النظر من وراء كل باب مفتوح من أبواب تلك الغرف، فقد جاءت بحوض ماء بارد، وشرعت تغسل عينيها المتورمتين الحمراوين. وإذ طاردتها مخاوفها المحمومة فلم يكن في ميسورها أن تحتمل بقاء عينيها غائمتين، أكثر من دقيقة واحدة، في كل مرة، بسبب من المياه المتسربة إليهما، فهي تتمهل، وتنظر في ما حولها لتستيقن أن ليس ثمة أحد يراقبها. ثم إنها أجفلت، في إحدى فترات التمهل تلك، وأطلقت صرخة مدوية، إذ رأت شبحاً واقفاً في الغرفة.

وسقط الحوض على الأرض فتحطم، وسال الماء حتى قدمي مدام دوفارج. كانت هاتان القدمان قد أقبلتا، عبر طرق غريبة متجهّمة، وخلال سيل من الدم الملوّث، لتلقَيا ذلك الماء المسفوح.

وحدجتها مدام دوفارج بنظرة باردة وقالت: «زوجة ايفريموند؛ أين هي؟»

وأومض في ذهن مس بروس أن الأبواب كلها مشرعة، وأن ذلك خليق بأن يوحي لمدام دوفارج بالفرار. فكان أول عمل قامت به أن سارعت إلى إغلاقها. كانت لتلك الغرفة أربعة أبواب، فأوصدتها جميعاً. ثم إنها وقفت أمام الغرفة التي كانت لوسي قد احتلتها.

وتابعتها عينا مدام دوفارج الداكنتان في أثناء هذه الحركة السريعة، واستقرتا عليها عند انقضائها. ولم يكن في مس بروس شيء جميل على الإطلاق. لقد عجزت السنون عن أن تروض وحشية مظهرها، أو ترقّق من تجهّم وجهها، ولكنها هي الأخرى كانت امرأةً ذات عزم، بطريقة مغايرة، فهي تحدج بعينيها كل إنشٍ من مدام دوفارج.

وقالت مس بروس، في مثل الهمس: «قد تكونين ـ كما يدل مظهرك ـ زوجة إبليس. ومع ذلك فلن تستطيعي أن تقهريني. أنا امرأة انكليزية.»

ونظرت إليها مدام دوفارج في ازدراء، ولكن في شيء من شعور مس بروس الخاص بأنهما عدوّان يستفز كل منهما خصمه للقتال. لقد رأت أمامها امرأة قوية، قاسية، كما سبق لمستر لوري أن رأى في تلك الصورة نفسها امرأة ذات ذراع عبلة، في السنوات الخالية. لقد أدركت أحسن الإدراك أن مس بروس كانت صديقة الأسرة المتفانية في خدمتها، وأدركت مس بروس أحسن الإدراك أن مدام دوفارج كانت عدوة الأسرة الحقود.

وقالت مدام دوفارج مومئة بيدها إيماءة طفيفة نحو البقعة المشؤومة:

«لقد أحببت، وأنا في طريقي إلى هناك، حيث يحتفظون لي بمقعدي وبحبكي؛ أن أقدّم تمنياتي لزوجة ايفريموند. إني أودّ أن أراها.»

فقالت مس بروس: «أنا أدري أن نياتك شريرة، وفي إمكانك أن تتأكدي أنني سأقابل نياتك هذه بمثلها.»

كانت كل منهما تتكلم بلغتها الخاصة؛ فلم تفهم أيّ منهما كلمات الأخرى. وكانت كل منهما يقظة جداً، تحاول جاهدة أن تستنتج، من الانطباعة والمظهر، المعنى الخفيّ الكامن وراء تلك الكلمات.

وقالت مدام دوفارج: «لن يفيدها شيئاً أن تُخفي نفسها عني في هذه اللحظة. والوطنيون الصالحون يعرفون معنى ذلك. دعيني أراها، اذهبي وقولي لها إني أحبّ أن أراها. هل تسمعين؟»

فأجابتها مس بروس: «لو كانت عيناك هاتان رافعتين من رافعات السرر، وكنت أنا سريراً إنكليزياً ذا أربع قوائم، لما كان لهما أن تُضيعا شظية واحدة من شظاياي. لا، أيتها المرأة الشريرة. أنا لكِ!»

ولم يكن في ميسور مدام دوفارج أن تفهم هذه الملاحظات الاصطلاحية بالتفصيل. ولكنها فهمت منها مقداراً جعلها تدرك أن المرأة لا تقيم لها وزناً على الإطلاق.

وزوَتْ مدام دوفارج ما بين حاجبيها وقالت: «يا لك من امرأة غبيّة خنزيرية الشكل! أنا لا أحصل على جواب منك. إني أطلب أن أراها، فإما أن تخبريها إني أطلب أن أراها وإما أن تتزحزحي عن الباب لكي أتمكن من أن أصل إليها!» وأردفت ذلك بحركة تفسيرية غضبى من ذراعها اليمنى.

فقالت مس بروس: «إني نادراً ما فكرت في أنني سوف أرغب يوماً في أن أفهم لغتك السخيفة الفارغة. ولكني مستعدة الآن لأن أقدّم كل ما عندي، باستثناء الثياب التي على جسمي، لكي أعلم ما إذا كنت تشكين في الحقيقة، أو في أي جزء منها.»

ولم ترفع أي منهما عينيها. ولو لحظة واحدة، عن عيني الأخرى. ولم تكن مدام دوفارج قد تحركت من البقعة التي وقفت فيها عندما أحست مس بروس بوجودها أول مرة. ولكنها خطت الآن خطوة واحدة إلى الأمام.

فقالت مس بروس: «إني امرأة بريطانية. وإني يائسة. أنا لا أبالي بالذي يحلّ بي أكثر مما يبالي الناس بقطعة البنسَيْن الإنكليزية. وأنا أدري أني كلما أطلتُ إبقاءك هنا: تعاظم أمل عصفورتي في النجاة. ثم إني لن أترك حفنة من ذلك الشعر الأسود على رأسك، إذ وضعتِ إصبعاً من أصابعك عليّ!»

كذلك واجهت مس بروس خصمها، بهزة من رأسها، وبوميض من عينيها كان يلتمع بين كل جملة من جملها الخاطفة، على حين كانت كل جملة من تلك الجمل نفساً كاملاً. كذلك واجهتها مس بروس، وهي التي لم تصفع في حياتها إنساناً قطّ.

ولكن شجاعتها كانت من ذلك الضرب العاطفي، فإذا بالعبرات تفيض من عينيها بعد أن عجزت عن كبحها. وإذ عجزت مدام دوفارج عن أن تفهم تلك الشجاعة فقد حسبتها ضعفاً فضحكت قائلة: «ها، ها! يا لك من مسكينة بائسة! أي قيمة لك! سوف أوجه الخطاب إلى ذلك

الطبيب.» ثم رفعت صوتها ونادت: «أيها الطبيب المواطن: يا زوجة ايفريموند! يا ابنة ايفريموند! ليردّ أيّ شخص، غير هذه المجنونة البائسة، على المواطنة دوفارج!»

ولعل الصمت الذي تلا ذلك النداء، ولعلّ إفشاءً للسر كامناً في الانطباعة التي وسمت وجه مس بروس، أو لعل هاجساً مفاجئاً مستقلاً عن أي من هذين الإيحاءين، هو الذي همس في أذن مدام دوفارج أن القوم قد ذهبوا. وفي سرعة فتحت ثلاثة من الأبواب. وأطلت منها.

ـ «إن الفوضى تسود هذه الغرف كلها. لقد جُمعت الأمتعة على عجل. إن على الأرض ضروباً من الأشياء الصغيرة التافهة. ليس هنا أحد في تلك الغرفة التي خَلفَكِ. دعيني أرى.»

فقالت مس بروس التي فهمت السؤال فهماً كاملاً يعدل فهم مدام دوفارج الجواب: «لا. هذا لن يكون!»

فقالت مدام دوفارج مخاطبة نفسها: «إذا لم يكونوا في تلك الغرفة، فمعنى ذلك أنهم قد فروا، وفي الإمكان تعقبهم وإعادتهم إلى هنا.»

فقالت مس بروس مخاطبة نفسها أيضاً: «ما دمت لا تعرفين أهم في تلك الغرفة أم لا، فمعنى ذلك أنكِ لن تعرفي ما ينبغي أن تعمليه. ولن تعرفي ذلك إذا استطعتُ أن أحول بينك وبين معرفته. وسواء عرفتِ ذلك أم لم تعرفيه فلن يكون في ميسورك أن تغادري هذا المكان ما دمتُ قادرة على إبقائكِ فيه.»

فقالت مدام دوفارج: «لقد خضت غمار الشوارع منذ البدء، فلم تستطع قوة أن تصدني عن سبيلي. إني سوف أمزقك إرباً إرباً إلا إذا ابتعدتِ عن ذلك الباب.»

فقالت مس بروس: «نحن وحدنا هنا عند قمة بيت عالٍ في فناء مهجور، وأغلب الظن أن أحداً لن يسمعنا. إني سوف ألجأ إلى القوة البدنيّة من أجل إبقائك هنا، لأن كل دقيقة تقضينها هنا تساوي مئة ألف جنيه بالنسبة إلى حبيبتي!»

واندفعت مدام دوفارج نحو الباب. فما كان من مس بروس، إلا أن طوّقت خصرها بدافع غريزي أهاجته المناسبة، بكلتا ذراعيها، وأمسكتها في قوّة. وأنشأت مدام دوفارج تناضل وتضرب، ولكن عبثاً. لقد أمسكت مس بروس بها، بقوة الحب العارمة التي كانت دائماً ولا تزال أعظم من قوة البغض بكثير بل لقد وُفقت إلى أن ترفعها عن الأرض في الصراع الذي نشب بينهما. لقد لطمت يدا مدام دوفارج وجهها ومزّقته. ولكن مس بروس خفضت رأسها، وأحكمت تطويق خصرها بيديها، متشبثةً بها تشبّثَ امرة غريق، بل أشدّ وأقوى.

وسرعان ما كفّت يدا مدام دوفارج عن الضرب، وأنشأتا تتلمسان خصرها المطوّق. وقالت مس بروس في نبرات مُخْمَدَة: «إنه تحت ذراعي. إنك لن تستلّيه. أنا أشد منكِ بأساً، وأحمد الله على ذلك. ولسوف أظلّ ممسكةً بك حتى يُغمى على واحدة منا أو تموت!»

وهنا امتدت يدا مدام دوفارج إلى صدرها. ورفعت مس بروس بصرها، فرأت أي شيء كانت تلتمسه مدام دوفارج، فاندفعت نحوه وصوّبته إلى خصمها. وكان وميض وكان دويّ. ووقفت هي وحدها، والدخان يوشك أن يعميها.

وإنما تم ذلك كله في ثانية. حتى إذا انجاب الدخان، مخلّفاً وراءه سكوناً مروّعاً، مضى نحو الهواء الطلق، مثل روح تلك المرأة الضارية التي انطرح جسدها على الأرض ميتاً لا حراك به.

وفي غمرة من الخوف والذعر اللذين أوقعتهما اللحظات الأولى من الحادثة في نفس مس بروس، أبعدت الجثة عن الأرض أقصى ما استطاعت أن تفعل واندفعت هابطةً السلم التماساً لنجدةٍ عقيم. ولكنها ما لبثت أن فطنت في الوقت المناسب لحسن الحظ، إلى عواقب ما فعلَتْهُ، فكبحت جماح نفسها وارتدّت على عقبيها. كان التفكير في اجتياز الباب يروّعها، ولكنها دخلت المنزل، بل لقد مشت قرب الجثة، لكي تأتي بقبعتها وبسائر الأشياء التي كان يتعيّن عليها أن ترتديها. وإنما لبست

ذلك كله، خارج البيت عند السلم، بعد أن أغلقت الباب وقفلته، وحملت المفتاح معها. عندئذ جلست على السلم، بضع لحظات، لكي تأخذ نفسَاً وتبكي، ثم نهضت وغادرت المكان على جناح السرعة.

وقضى حسن الطالع بأن يكون على قبعتها حجاب، ولولا ذلك لما كان في ميسورها أن تجوز الشوارع من غير أن يعترضها أحد. ومن حسن طالعها أيضاً، أن شكلها كان بالخِلقة غريباً جداً بحيث لم تبدُ عليها أمارات التشوّه كما كان يمكن أن تبدو على أيما امرأة أخرى. وكانت في حاجة إلى كل من هاتين الحَسَنَتين لأن آثار الأصابع المُنْشَبة كانت عميقة في وجهها، ولأن شعرها كان أشعث مشوّشاً، ولأن ثوبها (المسوّى على عجل بيدين قلقتين) كان متغضناً على نحو يلفت النظر بعد أن شُدّ وجُذِب في مئة اتجاه.

وفيما هي تعبر الجسر ألقت مفتاح الباب في النهر. حتى إذا وصلت إلى الكاتدرائية قبل مُرافقها ببضع دقائق، وانتظرته هناك، راحت تفكر: ما الذي يحدث إذا ما رُفِعَ المفتاح في شبكة؟ ما الذي يحدث إذا عُرف مفتاح أيّ بيت هو؟ ما الذي يحدث إذا ما فُتح الباب وعُثر على الجثة؟ ما الذي يحدث إذا أوقِفتْ عند الباب وألقي بها في السجن، واتُهمت بجريمة القتل؟ وفي غمرة من هذه الأفكار المضطربة، برز المرافق، وأدخلها العربة، وانطلق بها.

وسألته: «هل توجد أي ضجة في الشارع؟»

فأجابها مستر كرانتشر: «الضجة المألوفة»، وبدا دهِشاً من السؤال ومن منظرها.

وقالت مس بروس: «أنا لا أسمعك. ماذا تقول؟»

وكرر مستر كرانتشر ما قاله، ولكن عبثاً. فلم يكن في طاقة مس بروس أن تسمعه.

وقال مستر كرانتشر في ذات نفسه وقد أخذه الذهول: «وإذن فسوف

أومئ لها برأسي. فلا بد أن ترى ذلك على كل حال.» ولقد رأت ذلك فعلاً.

وفي الحال سألته مس بروس كرة أخرى: «هل توجد أي ضجة في الشوارع الآن؟»

وأومأ مستر كرانتشر برأسه من جديد.

ـ «أنا لا أسمعها.»

فقال مستر كرانتشر في ذات نفسه، وقد استبدَّ به قلقٌ شديد: «هل أصيبت بالصمم في مدى ساعة؟ ما الذي دهاها؟»

فقالت مس بروس: «أحسّ وكأنما كان هناك وميضٌ ودويّ، وأن ذلك الدوي كان آخر شيء ينبغي أن أسمعه في هذه الحياة.»

فقال مستر كرانتشر وقد تعاظم قلقه واضطرابه: «أكونُ لعيناً إن لم تكن في حالة عجيبة! أيّ شيء كانت تأخذه حتى تُبقي على شجاعتها؟ اسمعي! ها هي ذي أصداء تدحرُجِ العربات الرهيبة! وفي استطاعتك أن تسمعي هذا، أليس كذلك يا آنسة؟»

فقالت مس بروس وقد رأت أنه يتحدث إليها: «أنا لا أستطيع أن أسمع شيئاً. أوه، يا صديقي الطيب، لقد كان ثمة أولاً دوي هائل، ثم سكون عظيم، ويبدو أن ذلك السكون قد استتبّ ليبقى بشكل دائم، وأنه لن ينقطع ما دمتُ على قيد الحياة.»

فقال مستر كرانتشر وهو يختلس النظر من فوق كتفيه: «إذا كانت لا تسمع تدحرج هذه العربات الرهيبة، وقد اقتربت الآن من نهاية رحلتها، فأعتقد أنها لن تسمع، حقاً، أيما شيء آخر، في هذا العالم أبد الدهر.»

والحق أنها لم تسمع شيئاً أبد الدهر.

\- 15 -

وقع الأقدام يتلاشى إلى الأبد

في شوارع باريس كانت عربات الموت تمضي في دمدمة خفيضة، غائرة، قاسية. كانت مركباتٌ ست تحمل النبيذ اليومي إلى المقصلة. والواقع أن جميع الغيلان المفترسة الشرهة التي تخيّلها الإنسان منذ أن عُرف الخيال قد أذيبت وأفرِغت في هذا الصنيع المفرَد: المقصلة. ومع ذلك فليس في فرنسة، بما في تربتها ومناخها من تنوّع وخصب، نصلٌ من نصال العشب، أو ورقة من أوراق الشجر، أو جِذر، أو عسلوج(*) أو ثمر فلفلٍ سوف يتخذ سبيله إلى النضج في أحوال أكثر ثباتاً وأشد حتمية من تلك التي أدت إلى هذا الهول. إسْحَقِ الإنسانية كرة أخرى، بمطارق مماثلة، تجد أنها تلتوي إلى تلك الأشكال المشوّهة عينها. إزرع بذرة الظلم وحرية السلب النهمة كرة أخرى تحصد، من غير شك، الثمرة نفسها التي تتفق ونوع تلك البذرة.

كانت ست عربات تتدحرج متثاقلة في الشوارع. أعِدْ هذه العربات كرة أخرى إلى ما كانت من قبل، أجل أعِدها أيها الساحر الجبار الذي يسمونه الزمن، تنقلبْ إلى مركبات الملوك المطلقين، وعربات النبلاء الإقطاعيين، وأدوات زينة النساء الشريرات المتألقات، والكنائس التي لم تكن بيت أبي ولكنْ مغاور لصوص، وأكواخ الملايين من الفلاحين

(*) العسلوج: ما لان واخضرّ من قضبان الشجر والكرم أول ما ينبت.

الجائعين. لا. إن الساحر العظيم الذي يُتمّ، في كثير من الجلال، ذلك النظام الذي رسمه الخالق، لا يعكس تحولاته البتة. «إذا كنتَ قد مُسِختَ إلى هذه الصورة بمشيئة الله»، كذلك يقول العرافون في الحكايات العربية الحكيمة، «فابقَ هكذا! ولكن إذا كنت تلبس هذه الصورة بسبب من سحر زائل، فاستعِدْ صورتك السابقة!». وتدحرجت عربات الموت في الشوارع بطيئةً، ثابتةً يائسة.

وفيما عجلاتُ العربات الست القاتمة تدور، بدت وكأنها تحفر ثلماً طويلاً متعرجاً وسط الناس في الشوارع. كانت رواب من الوجوه تُدفَع إلى هذه الناحية وإلى تلك، وكانت المحاريث تشقّ طريقها إلى أمام على غير انقطاع. ولكن أصحاب البيوت القائمة على جوانب تلك الشوارع كانوا قد ألفوا هذا المشهد إلى درجة أقفرت معها عدة نوافذ من النظارة، على حين لم يُعطَّل نشاط الأيدي في نوافذ أخرى، بينا كانت العيون تراقب الوجوه التي في العربات. وههنا وههناك كان أحد أبناء تلك الشوارع يستقبل زائرين يرغبون في أن يروا إلى المشهد، فهو يشير بإصبعه، في شيء من ابتهاج القيّم على متحف أو الشارح المفوّض، إلى هذه العربة وإلى تلك، وقد بدا وكأنه يخبر زائريه مَنْ جلس هنا أمس، ومن جلس هناك أمس الأول.

كان بعض راكبي العربات يلاحظون هذه الأشياء، وجميع الأشياء التي تتكشف لهم على جانب آخر طريقٍ قدّر لهم أن يجتازوه في حياتهم، محدقين إليها تحديقاً يُعوزه التأثر، وكان بعضهم الآخر يلاحظها في شوق متمهّل واهتمام بطبائع الحياة والناس. وكان بعض الراكبين جالسين ناكسي الرؤوس، مستغرقين في يأس صامت؛ على حين كان نفرٌ آخرون شديدي الوعي للهيئة التي يبدون عليها في أعين النظارة حتى لقد راحوا يلقون على الحشد مثل تلك النظرات التي سبق لهم أن رأوها في ملاعب التمثيل واللوحات المسرحية الحية؛ بينا أغمضت طائفة أخرى عيونها، وأنشأت تفكر، أو تحاول أن تجمع شتات أفكارها التائهة. واحدٌ منهم

ليس غير، وكان مخلوقاً بائساً، ذا مظهر مخبول، سحقه الموقف وأسكره الذعر حتى لقد راح يغني، ويحاول أن يرقص. ولم يكن بين الجمع كلهم واحد التمس الشفقة، بالنظرة أو بالإشارة، من الناس.

كان يواكب العربات حرس من الفرسان، وكانت الوجوه كثيراً ما تلتفت إلى بعضهم وتسألهم بعض الأسئلة. ولقد بدا وكأن السؤال نفسه يتكرر دائماً، ذلك بأنه كان يعقبه في كل مرة اندفاع الناس نحو العربة الثالثة. وكان الفرسان المواكبون لتلك العربة يشيرون بأسيافهم، في كثير من الأحيان، إلى رجل بعينه فيها. فقد كان فضول الناس الرئيسي يحدوهم على أن يعرفوا أي الرجال هو. كان واقفاً في مؤخرة العربة منكّس الرأس لكي يتحدث مع فتاة بسيطة نقيّة كانت تجلس في طرف العربة، ممسكةً بيده. كان لا يبالي بالمشهد الذي من حوله، فهو لا يكف عن التحدّث مع الفتاة. وههنا وههناك في شارع أونوريه الطويل كانت الصيحات تنطلق ضده. ولم تكن تلك الصيحات لتثير في نفسه أكثر من ابتسامة هادئة، فيما هو ينفض شعره حول وجهه على نحو أكثر انطلاقاً. إنه ما كان قادراً على أن يمسّ وجهه في يُسْر، فقد كانت يداه موثقتين.

وعند سلّم إحدى الكنائس، وقف الجاسوس، خروف السجون، ينتظر قدوم العربات. لقد نظر إلى العربة الأولى وقال في ذات نفسه: إنه ليس فيها. ونظر إلى العربة الثانية وقال في ذات نفسه: إنه ليس فيها. وكان قد تساءل نفسه: «هل ضحّى بي؟» عندما أشرق وجهه وهو ينظر إلى العربة الثالثة.

وقال رجل من خلفه: «أيهم ايفريموند؟»

ـ «ذاك. في المؤخرة هناك.»

ـ «الواضع يده في يد الفتاة؟»

ـ «نعم.»

وصاح الرجل: «ليسقط ايفريموند! سوقوا جميع الارستقراطيين إلى المقصلة! ليسقط ايفريموند!»

فتضرع إليه الجاسوس في جُبن: هش! هش!»

ـ «ولم لا، أيها المواطن؟»

ـ «إنه سوف يؤدي الثمن. ولسوف يتمّ ذلك بعد خمس دقائق. دَعْهُ في سلام.»

ولكن الرجل واصل صياحه: «ليسقط ايفريموند!» والتفت وجه ايفريموند، لحظةً، نحوه. ثم إن ايفريموند رأى الجاسوس، فأمعن النظر إليه، ومضى لسبيله.

دقت الساعة الثالثة، وشرع الثلم الذي حُفر وسط الناس في الشوارع يستدير ليبرز في ساحة الإعدام، منتهياً إلى غايته. فإذا بالروابي التي دُفعت إلى هذه الناحية وإلى تلك، تنهار مرتدة إلى وسط الطريق وتتدافع خلف الثلم الأخير فيما هو يتقدم إلى الأمام، ذلك بأن كل امرئ كان يتبع الموكب إلى المقصلة. وأمامها كان عدد من النساء يجلسن على كراسي، وكأنهن في حديقة من حدائق اللهو العامة، وقد انهمكن في الحبك. وعلى أحد الكراسي الأمامية وقفت «الانتقام» تجيل الطرف في ما حولها بحثاً عن صديقتها.

وصاحت في نبراتها الجهورية: «من رآها؟ تيريز دوفارج!»

قالت إحدى النساء الحابكات المنتسبات إلى الفرقة نفسها: «إنها لم تتخلف يوماً عن المجيء.»

فصاحت «الانتقام» في اهتياج ونكد: «لا. ولن تتخلف اليوم. تيريز!»

وأشارت المرأة عليها بقولها: «إرفعي صوتك أكثر.»

إي! إرفعي صوتك أكثر، أيتها «الانتقام»، ارفعيه أكثر فأكثر، فلن تسمع نداءك منذ اليوم إلا قليلا! إرفعي صوتك أكثر أيتها «الانتقام»

واتبعيه بيمين أو شيء مثل ذلك، فلم يُرجعها هذا إليك. وجِّهي نسوةً أخريات للبحث عنها، متمهلاتٍ متريثات، ههنا وههناك، ومع ذلك فثمة ريب في ما إذا كنّ سوف يمضين، بمحض إرادتهنّ، إلى بعيد، للبحث عنها، برغم أن الرسل قد وُفقوا إلى القيام بأعمال مروّعة.

وصاحت الانتقام خابطة الكرسي بقدمها: «يا لسوء الحظ! ها قد أقبلت العربات! ولسوف يُعدم ايفريموند في طرفة عين وهي ليست هنا! انظروا إلى حبكها في يدي، وإلى كرسيها الشاغر الذي ينتظرها. إني أصرخ في غيظ وخيبة أمل!»

وفيما «الانتقام» تهبط من عليائها لتفعل ذلك، شرعت العربات تُفرغ أحمالها. إن سَدَنة القديسة المقصلة لفي ثيابهم التقليدية، وعلى أتم الاستعداد. ودوّت جلبة! ـ لقد رُفع رأس إلى أعلى؛ فما كان من النسوة الحابكات اللواتي نادراً ما رفعن أعينهن للنظر إليه منذ لحظة حين كان قادراً على أن يفكر ويتكلم ـ ما كان منهن إلا أن عَدَدْنَ واحداً!

وأفرغت العربة الثانية حملها ومضت لسبيلها. وتقدمت العربة الثالثة. ودوّت جلبة! فما كان من النسوة الحابكات، غير مترددات ولا متريثات في عملهن لحظة واحدة، إلا أن عددن اثنين!

ونزل ايفريموند المزعوم، وأنزلت الخياطة بعده مباشرة. إنه لم يترك يدها الصابرة حين غادر العربة، فهو لا يبرح ممسكاً بها كما وعد. ثم إنه أنزلها، مولية ظهرها تلك الآلة الساحقة التي كانت ترتفع وتهبط على نحو موصول. ونظرت إلى وجهه وشكرته.

ـ «لولاك، أيها الغريب العزيز، لما تمت لي رباطة الجأش هذه، لأني بفطرتي شيء بائس صغير، ولأني ذات قلب خوّار ضعيف. ولما كنت قادرة على أن أرتفع بأفكاري إليه، ذلك الذي سِيق إلى الموت لكي يكون في ميسورنا أن نتمتع بالأمل والرفه، هنا، اليوم. أنا أعتقد أن الله هو الذي أرسلك إليّ.»

فقال سيدني كارتون: «أو أرسلك إليّ. لا ترفعي بصرك عني، أيتها الطفلة العزيزة، ولا تبالي بأيما شيء آخر.»

ـ «أنا لا أبالي بشيء ما دمتُ ممسكة بيدك. ولن أبالي بشيء حين أدعها تمضي، إذا أسرعوا.»

ـ «سوف يسرعون. لا تجزعي!»

لقد وقفا وسط حشد الضحايا الآخذ في التقلّص على نحو خاطف، ولكنهما كانا يتحدثان وكأنهما منفردان. لقد التقى ابنا «الأمّ الكلية» هذان، عيناً بعين، وصوتاً بصوت، ويداً بيد، وقلباً بقلب، على الطريق المظلمة ـ وهما اللذان كانا من قبل متباعدين جداً، مختلفين جداً ـ لكي يعودا إلى بيتهما معاً، ويستريحا على صدرها.

ـ «أيها الصديق الباسل الكريم، هل تجيز لي أن أوجه إليك سؤالاً أخيراً؟ أنا جاهلة جداً، وإن ذلك ليقلقني... بعض الشيء ليس غير.»

ـ «وما ذاك؟ قولي!»

ـ «إن لي ابنة عم، هي نسيبتي الوحيدة، وهي يتيمة مثلي، وإني لأحبها حباً كثيراً. إنها أصغر مني بخمس سنوات، وهي تحيا في بيت أحد المزارعين في الديار الجنوبية. لقد فرّق الفقر ما بيننا، وهي لا تعرف شيئاً عن مصيري ـ لأني لا أستطيع أن أكتب ـ وحتى ولو استطعتُ، فبأيّ لسان أخبرها! إن الحَيْرة في الواقع.»

ـ «أجل، أجل. الحيرة في الواقع.»

ـ «إن الشيء الذي كنت أفكر فيه، فيما كانت العربة تقلّنا إلى هنا، والذي لا أزال أفكر فيه الآن وأنا أنظر إلى وجهك القوي الكريم الذي يسبغ عليّ أعظم العون هو هذا: ـ إذا حملت الجمهورية ـ حقاً ـ الخير إلى الفقراء، فغَدوا أقلّ جوعاً، وتخففوا من مختلف آلامهم، فقد تحيا ابنة عمي فترة طويلة: بل إنها قد تحيا حتى تنتهي إلى الشيخوخة.»

ـ «ثم ماذا، يا أختي الرقيقة؟»

ـ «هل تظن،» وهنا امتلأت بالدمع تانك العينان غير المتشكيتين اللتان تزخران بالجَلد، وانفرجت الشفتان انفراجاً إضافياً طفيفاً وارتعشتا، «هل تظن أن الزمن سوف يبدو طويلاً، في نظري، وأنا أنتظرها في العالم الأفضل حيث أرجو أن أستظل، أنا وأنت، بظلال الرحمة؟»

ـ «هذا غير ممكن، يا صغيرتي. ليس ثمة زمان، وليس ثمة قلق.»

ـ «إنك تُدخل إلى قلبي عزاء بالغاً! أنا شديدة الجهل. هل لي أن أقبّلك الآن؟ هل حانت اللحظة؟»

ـ «نعم.»

وقبّلت شفتيه. وقبّلها. وفي خشوع بارك كل منهما صاحبه. ولم ترتجف اليد المهزولة فيما هو يُخلّيها. ولم يَطفُ على الوجه الصابر شيء أسوأ من عزم عذب مشرق. ومضت هي لسبيلها، بعد ذلك، قبلهُ. ومضت إلى الأبد. وعدّت النسوة الحابكات اثنين وعشرين.

«أنا القيامة والحياة، يقول الرب. فمن آمن بي، ولو مات، فسيحيا. وكلّ من كان حياً وآمن بي فلن يموت أبداً.»

وفي حواشي الحشد، تلاشت همهمةُ كثير من الأصوات، وارتفاعُ كثير من الوجوه، ووطءُ كثير من الأقدام فإذا هو يندفع إلى أمام كتلةً واحدة مثل السيل العرم. ثلاثة وعشرون.

* * *

وتحدثوا عنه في أرجاء المدينة، تلك الليلة، فقالوا إن المقصلة لم تشهد وجه رجل أهدأ من وجهه قط. وأضاف آخرون إنه بدا شامخاً جليلاً تطفو على وجهه سيما الأنبياء.

وكانت إحدى ضحايا الفأس نفسها ـ وهي امرأة غريبة تلفت الأنظار قد طلبت أمام المشنقة عينها، منذ فترة غير بعيدة، أن يُسمح لها في تدوين الخواطر التي ألهِمتها في تلك اللحظة. ولو وُفّق سيدني كارتون

إلى أن يعبر عن خواطره هو، وكانت نبوية تخترق حجاب الغيب، إذن لقال هذه الكلمات:ـ

«إني أرى بارساد، وكلاي، ودوفارج، و«الانتقام»، والمحلف، والقاضي وصفوفاً طويلة من الظلاّمين الجدد الذين نهضوا على أنقاض السابقين يلقون نحبهم بهذه الآلة المنتقمة، قبل أن تتم مهمتها الحاضرة. إني أرى مدينة جميلة، وشعباً عظيم الذكاء ينهضان من هذه الهاوية السحيقة. وفي نضال ذلك الشعب لكي يتحقق بالحرية الحقيقية، وفي انتصاراته وهزائمه، طوال سنوات وسنوات ستأتي، أرى شرور هذا العهد والعهد السابق الذي نشأت عنه أيامنا هذه نشوءاً طبيعياً ـ أرى تلك الشرور تكفّر، تدريجياً، عن نفسها وتتلاشى.

«إني أرى أولئك الذين فديتهم بحياتي يعيشون عيشاً آمناً، نافعاً، رغداً، سعيداً، في انكلترة التي لن أراها منذ اليوم. إني أراها وعلى صدرها طفل يحمل اسمي. إني أرى أباها، شيخاً كبيراً محدودب الظهر، ولكنه على صحة جيدة، مخلصاً لجميع الناس في عيادته، مطمئناً ناعم البال. إني أرى الشيخ الطيب، الذي ترقى صداقته لهما إلى عهد بعيد، يغنيهم بعد عشرة أعوام بكل ما يملك، ويمضي لسبيله في هدوء.

«إني أرى أن لي هيكلاً مقدساً في قلوبهم، وفي قلوب أبنائهم وحفدتهم، جيلاً إثر جيل. إني أراها امرأة عجوزاً، تبكي من أجلي في مثل هذا اليوم من كل سنة. إني أراها وأرى زوجها، وقد جاء أجلهما، راقدين جنباً إلى جنب في فراشهما الأرضي الأخير وأنا أدري أن أياً منهما لا يحتل في نفس الآخر مكاناً أشرف وأقدس من ذلك الذي أحتله أنا في نفسيهما جميعاً.

«إني أرى ذلك الطفل الذي تحمله على صدرها والذي يحمل اسمي، وقد غدا رجلاً يشق طريقه في الحياة خائضاً غمار السلك الذي انتسبتُ إليه في يوم من الأيام. وإني لأرى النجاح يحالفه في هذا السبيل حتى ليسطع اسمي هناك على ضوء اسمه. إني أرى اللطخات التي لوثته

بها قد أمست حائلة ناصلة. إني أراه، في طليعة القضاة العادلين والرجال المبجلين، يقود غلاماً يحمل اسمي ـ غلاماً ذا جبين أعرفه وشعر ذهبيّ ـ إلى هذا المكان بعد أن يغدو بهي الطلعة لا أثر فيه للتشويه الذي يصيبه اليوم؛ وإني لأسمعه يروي على الطفل قصتي في صوت متهدج يفيض حناناً.

«إن ما أفعله الآن خيرٌ ألف مرة مما قُدّر لي أن أفعله، عمري كله. وإن الراحة التي أمضي إليها الآن خير ألف مرة من أيما راحة قُدّر لي أن أعرفها، عمريَ كله!»

انتهت

فهرست

الكتاب الثالث: أثر عاصفة

تشارلز ديكنز

قصة مدينتين

بين لندن وباريس، وعلى خلفيّة التحولات التي أحدثتها الحداثة الإنكليزية في القرن التاسع عشر، وتلك التي أحدثتها الثورة الفرنسيّة بشعاراتها عن الإخاء والمساواة والحرّية، هذه الثورة التي تخللها عنف ومحاكمات ميدانية. كيف كان القانون يمارس في هاتين المدينتين؟

في هذه الأجواء يكتب تشارلز ديكنز رائعته مصوراً الحياة بين هاتين المدينتين، عبر قصة حب ملتهبة، قصة حب وإخلاص يفوق كل تصوّر. قصّة امرأة عاشت طفولتها وشبابها بين هذين العالمين، عاشت القساوة والسعادة، وظلّت رغم كل المصاعب والآلام مخلصة لكل من حولها.

في أجواء بوليسيّة مشوّقة، كتب تشارلز ديكنز، رواية تجعل القارئ يلهثُ وراء أحداثها، ووراء كشف الاشارات الغامضة، التي تأتي دائماً لتخدم ما أراده ديكنز من تصوير لعالمين. قصة مدينتين، عمل كبير كتّاب الانكليز الرائع، الذي جمع فيه روعة الأسلوب مع تشويق الرواية مع صورة العالم الذي عاشه

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 22 212+ فاكس: 305726 22 212+
بيروت، ص.ب: 113/5458
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
markaz-casa@iam.net.ma cca_casa_bey@yhoo.com

دار العلم للملايين

شارع مار الياس، مقابل ثكنة الحلو، بناية فرسبنك
هاتف: 306666 1 961+ فاكس: 701657 1 961+
ص.ب: 1085 بيروت: 2045 8402 لبنان
www.malayin.com malayin@malayin.com

ISBN 9953-63-326-8 روايات عالمية 10-1204
9 789953 633268 8